[illegible]

[illegible]

اهداء الكتاب

أليكم يامحيى العلوم الحقيقية . والمعارف الربانية . نهدى ذلك السفر الجليل الوحيد فى بابه . الكافى لطلابه . الوافى بما يتوق اليه ضمير كل محب للوقوف على أسرار القرآن الشريف. ولاغرو فان ذلك الحبر أتى فى تفسيره العذب بما لم يسبق اليه فأظهر من الأسرار القرآنية ما أدهش الناظرين. ومن التطبيقات البلاغية ما بهر العارفين. كأن الله أوحى أليه بما أراد . فسلك سبيل الرشاد . لهذا بادرت الجمعية فى طبعه بأحسن ما يمكن لاترجو الاخدمة علوم الشريعة الغراء لثواب الله وفق الله الجميع ؟ عبد الوصيف محمد

[illegible]

بشارع رقعة القمح شرق الازهر الشريف

سنة ١٣٤٧ هـ — ١٩٢٨ م

دار العصور للطبع والنشر : بشارع الخليج المصرى بالظاهر : بمصر

خير ما يفتتح به القارىء الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

(سورة هود عليه السلام مكية وهي مائة وثلاث وعشرون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم) (آلر) محله الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف وقيل على انه مبتدأ والاول هو الاظهر كما أشير اليه فى سورة يونس أو النصب بتقدير فعل يناسب المقام نحو اذكر أو اقرأ على تقدير كونه اسما للسورة على ما عليه اطباق الاكثر أو لا محل له من الاعراب مسرود على نمط التعديد حسبما فصل فى أخواته وقوله تعالى (كتاب) خبر له على الوجه الثانى والمبتدأ محذوف على الوجوه الباقية (أحكمت آياته) نظمت نظما متقنا لا يعتريه خلل بوجه من الوجوه أو جعلت حكيمة لانطوائها على جلائل الحكم البالغة ودقائقها أو منعت من النسخ بمعنى التغيير مطلقا أو أيدت بالحجج القاطعة الدالة على كونها من عند الله عز وجل أو على ثبوت مدلولاتها فالمراد بالآيات جميعها أو على حقية ما تشتمل عليه من الاحكام الشرعية فالمراد بها بعضها المشتمل عليها كما اذا فسر الاحكام بالمنع من النسخ بمعنى تبديل الحكم الشرعى خاصة . وأما تفسيره بالمنع من الفساد أخذا من قولهم أحكمت الدابة اذا وضعت عليها الحكمة لتمنعها من الجماح ففيه ايهام مالا يكاد يليق بشأن الآيات الكريمة من التداعى إلى الفساد لولا المانع وفى اسناد الاحكام على الوجوه المذكورة إلى آيات الكتاب دون نفسه لا سيما على الوجوه الشاملة لكل آية آية منه من حسن الموقع والدلالة على كونه فى أقصى غاية منه مالا يخفى

(ثم فصلت) أي جعلت فصولا من الاحكام والدلائل والمواعظ و القصص أو فصل فيها مهمات العباد في المعاش و المعاد على الاسناد المجازي و التفسير بجعلها آية آية لا يساعده المقام لان ذلك من الاوصاف الاولية لها فلا يناسب عطفه على أحكامها بكلمة التراخي وأما المعنيان الاولان فهما وان كانا مع الاحكام زمانا حيث لم تزل الآيات محكمة مفصلة لا أنها أحكمت أو فصلت بعد ان لم تكن كذلك اذ الفعلان من قبيل قولهم سبحان من صغر البعوض و كبر الفيل الا أنهما حيث كانا من صفات الآيات باعتبار نسبة بعضها الى بعض على وجه يستتبع أحكاما مخصوصة و آثارا معتدا بها و بملاحظة مصالح العباد ناسب أن يشار الى تراخي رتبتهما عن رتبة الاحكام وان حمل جعلها آية آية على معنى تفريق بعضها عن بعض يكون من هذا القبيل إلا أنه ليس في مثابته في استتباع ما يستتبعه من الاحكام و الآثار أو فرقت في التنزيل منجمة بحسب المصالح فان أريد تنزيلها المنجم بالفعل فالتراخي زماني وان أريد جعلها في نفسها بحيث يكون نزولها منجما حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة فهو رتبي لان ذلك وصف لازم لها حقيق بأن يرتب على وصف احكامها. وقرئ أحكمت آياته ثم فصلت على صيغة التكلم وعن عكرمة والضحاك ثم فصلت أي فرقت بين الحق و الباطل (من لدن حكيم خبير) صفة للكتاب وصف بها بعد ما وصف باحكام آياته وتفصيلها الدالين على علو رتبته من حيث الذات ابانة لجلالة شأنه من حيث الاضافة أو خبر بعد خبر للمبتدا المذكور أو المحذوف أو صلة للفعلين وفي بناء هما للمفعول ثم ايراد الفاعل بعنوان الحكمة البالغة والاحاطة بجلائلها ودقائقها منكرا بالتنكير التفخيمي وربطهما به لا على النهج المعهود في اسناد الافاعيل إلى فواعلها مع رعاية حسن الطباق من الجزالة والدلالة على فخامتهما و كونهما على أكمل ما يكون مالا يكتنه كنهه (ألا تعبدوا إلا الله) مفعول له حذف عنه اللام مع فقدان الشرط أعني كونه فعلا لفاعل الفعل المعلل جريا على سنن القياس المطرد في حذف الجر مع أن المصدرية كأنه قيل كتاب أحكمت آياته ثم فصلت لئلا تعبدوا الا الله أي لتتركوا عبادة غير الله عزوجل وتتمحضوا في عبادته فان الاحكام والتفصيل على ما فصل من المعاني مما يدعوهم إلى الايمان و التوحيد وما يتفرع عليه من الطاعات قاطبة. وقيل أن مفسرة لما في التفصيل من معنى القول أي قيل لا تعبدوا الا الله (أنني لكم منه) من جهة الله تعالى (نذير) أنذركم عذابه ان لم تتركوا ما أنتم عليه من الكفر وعبادة غير الله تعالى (و بشير) أبشركم بثوابه ان آمنتم به وتمحضتم في عبادته ولما ذكر شؤن الكتاب من احكام آياته وتفصيلها وكون ذلك من قبل الله تعالى وأورد معظم

ماانتظم في سلك الغاية والامر من التوحيد وترك الاشراك وسط بينه وبين قرينيه أعني الاستغفار والتوبة ذكر أن من نزل عليه ذلك الكتاب مرسل من عندالله تعالى لتبليغ أحكامه. وترشيحها بالمؤيدات من الوعد والوعيد للايذان بأن التوحيد في أقصى مراتب الاهمية حتى أفرد بالذكر وأيد ايجابه بالخطاب غب الكتاب مع تلويح بأنه كما لايتحقق في نفسه الا مقارنا للحكم برسالته عليه السلام كذلك في الذكر لاينفك أحدهما عن الآخر وقد روعي في سوق الخطاب بتقديم الانذار على التبشير ماروعي في الكتاب من تقديم النفي على الاثبات والتخلية على التحلية ليتجاوب أطراف الكلام ويجوز أن يكون قوله تعالى ألا تعبدوا الا الله كلاما منقطعا عما قبله واردا على لسانه عليه السلام اغراء لهم على اختصاصه تعالى بالعبادة كانه عليه السلام قال ترك عبادة غير الله أي الزموه على معنى اتركوا عبادة غير الله تركا مستمرا أنني لكم من جهة الله تعالى نذير وبشير أي نذير أنذركم من عقابه على تقدير استمراركم على الكفر وبشير أبشركم بثوابه على تقدير تركِكم له وتوحيدكم ولما سبق اليهم حديث التوحيد وأكد ذلك بخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم على وجه الانذار والتبشير شرع في ذكر ماهو من تتماته على وجه يتضمن تفصيل ما أجمل في وصف البشير والنذير فقيل (وأن استغفروا ربكم) وهو معطوف على أن لاتعبدوا على ماذكر من الوجهين فعلى الاول أن مصدرية لجواز كون صلتها أمرا أو نهيا كما في قوله تعالى « وأن أقم وجهك للدين حنيفا » لان مدار جواز كونها فعلا انما هو دلالته على المصدر وهو موجود فيهما ووجوب كونها خبرية في صلة الموصول الاسمي انما هو للتوصل الى وصف المعارف بالجمل وهي لاتوصف بها الا اذا كانت خبرية وأما الموصول الحرفي فليس كذلك. ولما كان الخبر والانشاء في الدلالة على المصدر سواء ساغ وقوع الامر والنهي صلة حسبما ساغ وقوع الفعل فيتجرد عند ذلك عن معنى الامر والنهي نحو تجرد الصلة الفعلية عن معنى المضي والاستقبال (ثم توبوا أليه) عطف على استغفروا والكلام فيه كالكلام فيه والمعنى فعل مافعل من الاحكام والتفصيل لتخصوا الله تعالى بالعبادة وتطلبوا منه ستر مافرط منكم من الشرك ثم ترجعوا اليه بالطاعة أو تستمروا على ماأنتم عليه من التوحيد والاستغفار أو تستغفروا من الشرك وتتوبوا من المعاصي وعلى الثاني أن مفسرة أي قيل في أثناء تفصيل الآيات لاتعبدوا الا الله واستغفروه ثم توبوا اليه والتعرض لوصف الربوبية تلقين للمخاطبين وارشاد لهم الى طريق الا بتهال في السؤال وترشيح لما يعقبه من التمتيع وإيتاء الفضل بقوله تعالى (يمتعكم متاعا حسنا) أي تمتيعا وانتصابه على أنه مصدر حذف منه الزوائد كقوله تعالى « أنبتكم من الارض نباتا » أو على أنه مفعول به وهو اسم لما يتمتع به من منافع الدنيا من الاموال والبنين وغير ذلك والمعنى يعشكم

عيشا مرضيا لا يفوتكم فيه شيء مما تشتهون ولا ينغصه شيء من المكدرات (الى أجل مسمى) مقدر عند الله عز وجل وهو آخر أعماركم ولما كان ذلك غاية لا يطمح وراءها طامح جرى التمتيع اليه اجرى التأبيد عادة أو لا يهلككم بعذاب الاستئصال (ويؤت كل ذى فضل) فى الطاعة والعمل (فضله) جزاء فضله اما فى الدنيا أو فى الآخرة وهذه تكملة لما أجمل من التمتيع الى أجل مسمى وتبيين لما عسى يعسر فهم حكمته من بعض ما يتفق فى الدنيا من تفاوت الحال بين العاملين فرب انسان له فضل طاعة وعمل لا يمتع فى الدنيا اكثر مما متع آخر دونه فى الفضل وربما يكون المفضول أكثر تمتيعا فقيل ويعط كل فاضل جزاء فضله اما فى الدنيا كما يتفق فى بعض المواد وأما فى الآخرة وذلك مما لا مرد له وهذا ضرب تفصيل لما أجمل فيما سبق من البشارة ثم شرع فى الانذار فقيل (وأن تولوا) أى تتولوا عما ألقى اليكم من التوحيد والاستغفار والتوبة وانما أخر عن البشارة جريا على سنن تقدم الرحمة على الغضب أو لان العذاب قد علق بالتولى عما ذكر من التوحيد والاستغفار والتوبة وذلك يستدعى سابقة ذكره وقرىء تولوا من ولى (فانى أخاف عليكم) بموجب الشفقة والرأفة أو أتوقع (عذاب يوم كبير) هو يوم القيامة وصف بالكبر كما وصف بالعظم فى قوله تعالى « ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم » اما لكونه كذلك فى نفسه أو وصف بوصف ما يكون فيه كما وصف بالثقل فى قوله تعالى « ثقلت فى السموات والارض » وقيل يوم الشدائد وقد ابتلوا بقحط أكلوا فيه الجيف وأياما كان ففى اضافة العذاب اليه تهويل وتفظيع له (الى الله مرجعكم) رجوعكم بالموت ثم البعث للجزاء فى مثل ذلك اليوم لا الى غيره (وهو على كل شيء قدير) فيندرج فى تلك الكلية قدرته على اماتتكم ثم بعثكم وجزائكم فعيذبكم بأفانين العذاب وهو تقرير لما سلف من كبر اليوم وتعليل للخوف ولما ألقى اليهم فحوى الكتاب على لسان النبى صلى الله عليه وسلم وسيق اليهم ما ينبغى ان يساق من الترغيب والترهيب وقع فى ذهن السامع أنهم بعد ما سمعوا مثل هذا المقال الذى تخر له صم الجبال هل قابلوه بالاقبال أم تمادوا فيما كانوا عليه من الاعراض والضلال فقيل مصدرا بكلمة التنبيه اشعارا بأن ما يعقبها من هناتهم أمر يجب أن يفهم ويتعجب منه (ألا انهم يثنون صدورهم) يزورون عن الحق وينحرفون عنه أى يستمرون على ما كانوا عليه من التولى والاعراض لان من أعرض عن شيء ثنى عنه صدره وطوى عنه كشحه وهذا معنى جزل مناسب لما سبق وقد نحا نحوه العلامة الزمخشرى ولكن حيث لم يصلح التولى سببا للاستخفاء فى قوله عز وجل (ليستخفوا منه) التجأ الى اضمار الارادة حيث قال ويريدون ليستخفوا من الله تعالى فلا يطلع رسوله والمؤمنين على اعراضهم وجعله فى قود المعنى اليه من قبيل الاضمار فى قوله تعالى « اضرب بعصاك البحر فانفلق » أى فضرب فانفلق ولا يخفى

ان انسياق الذهن الى توسيط الارداة بين ثنى الصدور وبين الاستخفاء ليس كانسياقه الى
توسيط الضرب بين الامر به وبين الانفلاق ولعل الاظهر أن معناه يعطفون صدورهم على
مافيها من الكفر والاعراض عن الحق وعداوة النبي صلى الله عليه وسلم بحيث يكون ذلك
مخفيا مستورا فيها كما تعطف الثياب على مافيها من الاشياء المستورة وانما لم يذكر ذلك
استهجانا بذكره أوايماء الى ان ظهوره مغن عن ذكره أوليذهب ذهن السامع الى كل ما لاخير
فيه من الامور المذكورة فيدخل فيه ماذكر من توليهم عن الحق الذى ألقى اليهم دخولا
أوليا فحينئذ يظهر وجه كون ذلك سببا للاستخفاء ويؤيده ماروى عن ابن عباس رضى الله عنهما
انها نزلت فى الاخنس بن شريق وكان رجلا حلو المنطق حسن السياق للحديث يظهر لرسول
الله صلى الله عليه وسلم المحبة ويضمر فى قلبه مايضادها وقال ابن شداد انها نزلت فى بعض المنافقين
كان اذا مر برسول الله صلى الله عليه وسلم ثنى صدره وظهره وطأطأ رأسه وغطى وجهه
كى لا يراه النبي صلى الله عليه وسلم فكأنه انما كان يصنع مايصنع لانه لو رآه النبي صلى الله عليه وسلم
لم يمكنه التخلف عن حضور مجلسه والمصاحبة معه وربما يؤدى ذلك الى ظهور ما فى قلبه
من الكفر والنفاق. وقرىء يثنونى صدورهم بالياء والتاء من اثنونى افعوعل من الثنى
كاحلولى من الحلاوة وهو بناء مبالغة. وعن ابن عباس رضي الله عنهما تثنونى وقرىء تثنون وأصله
تثنونن من تفعوعل من الثن وهو ماهش من الكلا وضعف يريد مطاوعة صدورهم للثنى كما
يثنى الهش من النبات أو أراد ضعف أيمانهم ورخاوة قلوبهم وقرىء . تثنئن من اثنان
افعال منه ثم همز كما قيل ابيأضت وادهامت وقرىء تثنوى بوزن ترعوى (ألا حين
يستغشون ثيابهم) أى يتغطون بها للاستخفاء على مانقل عن ابن شداد أو حين
يأوون إلى فراشهم ويتدثرون بثيابهم فان مايقع حينئذ حديث النفس عادة وقيل كان
الرجل من الكفار يدخل بيته ويرخى ستره ويحنى ظهره ويتغشى بثوبه ويقول هل
يعلم الله مافى قلبى (يعلم مايسرون) أى يضمرون فى قلوبهم (وما يعلنون) أى يستوى
بالنسبة إلى علمه المحيط سرهم وعلنهم فكيف يخفى عليه ماعسى يظهرونه وانما قدم السر
على العلن نعيا عليهم من أول الأمر ماصنعوا وايذانا بافتضاحهم ووقوع مايحذرونه
وتحقيقا للمساواة بين العلمين على أبلغ وجه فكأن علمه بما يسرونه أقدم منه بما يعلنونه
ونظيره قوله تعالى « قل أن تخفوا مافى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله » حيث قدم فيه الاخفاء
على الابداء على عكس ماوقع فى قوله تعالى « وأن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم
به الله » إذ لم يتعلق بأشعار أن المحاسبة بما يخفونه أولى منها بما يبدونه غرض بل الأمر
بالعكس وأما ههنا فقد تعلق باشعار كون تعلق علمه تعالى بما يسرونه أولى منه بما يعلنونه

غرض مهم مع كونهما على السوية كيف لا وعلمه تعالى بمعلوماته ليس بطريق حصول الصورة بل وجود كل شىء فى نفسه علم بالنسبة اليه تعالى وفى هذا المعنى لا يختلف الحال بين الاشياء البارزة والكامنة وأما قوله تعالى «وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون» فحيث كان واردا بصدد الخطاب مع الملائكة عليهم السلام المنزه مقامهم عن اقتضاء التأكيد والمبالغة فى الاخبار باحاطة علمه تعالى بالظاهر والباطن لم يسلك فيه ذلك المسلك مع انه وقع الغنية عنه بما قبله من قوله عز وجل «إنى أعلم غيب السموات والارض» ويجوز أن يكون ذلك باعتبار أن مرتبة السر متقدمة على مرتبة العلن اذ مامن شىء يعلن إلا وهو أو مباديه قبل ذلك مضمر فى القلب فتعلق علمه سبحانه بحالته الاولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية (أنه عليم بذات الصدور) تعليل لما سبق وتقرير له واقع موقع الكبرى من القياس . وفى صيغة الفعيل وتحلية الصدور بلام الاستغراق والتعبير عن الضمائر بعنوان صاحبيتها من البراعة مالا يصفه الواصفون كانه قيل انه مبالغ فى الاحاطة بمضمرات جميع الناس واسرارهم الخفية المستكنة فى صدورهم بحيث لا تفارقها أصلا فكيف يخفى عليه مايسرون ومايعلنون. ويجوز أن يراد بذات الصدور القلوب من قوله تعالى «ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور» والمعنى انه عليم بالقلوب وأحوالها فلا يخفى عليه سر من أسرارها (وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها) غذاؤها اللائق بها من حيث الخلق ومن حيث الايصال إليها بطريق طبيعى أو أراد أى لتكفله اياه تفضلا ورحمة وانما جىء به على طريق الوجوب اعتبار السبق الوعد وتحقيقا لوصوله اليها ألبتة وحملا للمكلفين على الثقة به تعالى والاعراض عن اتعاب النفس فى طلبه (ويعلم مستقرها) محل قرارها فى الاصلاب (ومستودعها) موضعها فى الارحام وما يجرى مجراها من البيض ونحوها. وانما خص كل من الاسمين بما خص به من المحلين لان النطفة بالنسبة الى الاصلاب فى حيزها الطبيعى ومنشئها الخلقى وأما بالنسبة الى الارحام وما يجرى مجراها فهى مودعة فيها الى وقت معين أو مسكنها من الارض حين وجدت بالفعل ومودعها من المواد والمقار حين كانت بعد بالقوة ولعل تقديم محلها باعتبار حالتها الاخيرة لرعاية المناسبة بينها وبين عنوان كونها دابة فى الارض والمعنى ما من دابة فى الارض الا يرزقها الله تعالى حيث كانت من أماكنها يسوقه اليها ويعلم موادها المتخالفة المتدرجة فى مراتب الاستعدادات المتفاوتة المتطورة فى الاطوار المتباينة ومقارها المتنوعة ويفيض عليها فى كل مرتبة ما يليق بها من مبادىء وجودها وكمالاتها المتفرعة عليه وقد فسر المستودع بأماكنها فى الممات ولا يلائمه مقام التكفل

بأرزاقها (كل) من الدواب ورزقها ومستقرها ومستودعها (فى كتاب مبين) أى مثبت فى اللوح المحفوظ البين لمن ينظر فيه من الملائكة عليهم السلام أو المظهر لما أثبت فيه للناظرين ولما انتهى الامر الى أنه سبحانه محيط بجميع أحوال مافى الارض من المخلوقات التى لا تكاد تحصى من مبدأ فطرتها الى منتهاها اقتضى الحال التعرض لمبدأ خلق السموات والارض والحكمة الداعية الى ذلك فقيل (وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام) السموات فى يومين والأرض فى يومين وما عليها من انواع الحيوانات والنبات وغير ذلك فى يومين حسبما فصل فى سورة حم السجدة ولم يذكر خلق مافى الارض لكونه من تتمات خلقها وهو السر فى جعل زمان خلقه تتمة لزمان خلقها فى قوله تعالى «فى أربعة أيام» أى فى تتمة أربعة أيام والمراد بالايام الاوقات كما فى قوله تعالى «ومن يولهم يومئذ دبره» أى فى ستة أوقات أو مقدار ستة أيام فان اليوم فى المتعارف زمان كون الشمس فوق الارض ولايتصور ذلك حين لا أرض ولا سماء وفى خلقها مدرجا مع القدرة التامة على خلقها دفعة دليل على أنه قادر مختار واعتبار للنظار وحث على التأنى فى الامور وأما تخصيص ذلك بالعدد المعين فأمر استأثر بعلمه مايقتضيه علام الغيوب جلت حكمته. وايثار صيغة الجمع فى السموات لما هو المشهور من الاشارة الى كونها أجراما مختلفة الطبائع ومتفاوتة الآثار والاحكام (وكان عرشه) قبل خلقهما (على الماء) ليس تحته شىء غيره سواء كان بينهما فرجة أو كان موضوعا على متنه كما ورد فى الاثر فلا دلالة فيه على امكان الخلاء كيف لا ولو دل لدل على وجوده لا على امكانه فقط ولا على كون الماء أول ماحدث فى العالم بعد العرش وانما يدل على أن خلقهما أقدم من خلق السموات والارض من غير تعرض للنسبة بينهما (ليبلوكم) متعلق بخلق أى خلق السموات والارض وما فيهما من المخلوقات التى من جملتها أنتم ورتب فيهما جميع ما تحتاجون اليه من مبادىء وجودكم وأسباب معايشكم وأودع فى تضاعيفهما من تعاجيب الصنائع والعبر ما تستدلون به على مطالبكم الدينية ليعاملكم معاملة من يبتليكم (أيكم أحسن عملا) فيجازيكم بالثواب والعقاب غبما تبين المحسن من المسىء وامتازت درجات أفراد كل من الفريقين حسب امتياز طبقات علومهم واعتقاداتهم المترتبة على أنظارهم فيما نصب من الحجج والدلائل والامارات والمخايل ومراتب أعمالهم المتفرعة على ذلك فان العمل غير مختص بعمل الجوارح ولذلك فسره عليه السلام بقوله: أيكم أحسن عقلا وأورع عن محارم الله وأسرع فى طاعة الله فان لكل من القلب والقالب عملا مخصوصا به فكما أن الاول أشرف من الثانى فكذا الحال

فى عمله كيف لا ولا عمل بدون معرفة الله عز وجل الواجبة على العباد آثر ذى أثير وإنما طريقها النظرى التفكر فى بدائع صنائع الملك الخلاق والتدبر فى آياته البينات المنصوبة فى الأنفس والآفاق ولا طاعة بدون فهم مافى مطاوى الكتاب الحكيم من الاوامر والنواهى وغير ذلك مما له مدخل فى الباب وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «لا تفضلونى على يونس بن متى فانه كان يرفع له كل يوم مثل عمل أهل الارض» قالوا وانما كان ذلك التفكر فى أمر الله عز وجل الذى هو عمل القلب لأن أحداً لا يقدر على أن يعمل فى اليوم بجوارحه مثل عمل أهل الارض وتعليق فعل البلوى أى تعقيبه بحرف الاستفهام لا التعليق المشهور الذى يقتضى عدم ايراد المفعول أصلا مع اختصاصه بأفعال القلوب لما فيه من معنى العلم باعتبار عاقبته كالنظر ونظائره ولذلك أجرى مجراه بطريق التمثيل أو الاستعارة التبعية . وايراد صيغة التفضيل مع أن الابتلاء شامل للفريقين باعتبار أعمالهم المنقسمة الى الحسن والقبيح ايضاً لا إلى الحسن والأحسن فقط للايذان بأن المراد بالذات والمقصود الاصلى مما ذكر من ابداع تلك البدائع على ذلك النمط الرائع إنما هو ظهور كمال احسان المحسنين وأن ذلك لكونه على أتم الوجوه اللائقة وأكمل الاساليب الرائقة يوجب العمل بموجبه بحيث لا يحيد أحد عن سننه المستبين بل يهتدى كل فرد إلى ما يرشد اليه من مطلق الايمان والطاعة وانما التفاوت بينهم فى مراتبهما بحسب القوة والضعف والكثرة والقلة وأما الاعراض عن ذلك والوقوع فى مهاوى الضلال فبمعزل من الاندراج تحت الوقوع فضلا عن أن ينظم ظهوره فى سلك العلة الغائية لذلك الصنع البديع وانما هو عمل يصدر عن عامله بسوء اختياره من غير مصحح له ولا تقريب ولا يخفى ما فيه من الترغيب فى الترقى الى معارج العلوم ومدارج الطاعات والزجر عن مباشرة نقائضها والله تعالى أعلم (ولئن قلت أنكم مبعوثون من بعد الموت) على مايوجبه قضية الابتلاء ليترتب عليه الجزاء المتفرع على ظهور مراتب الاعمال (ليقولن الذين كفروا) ان وجه الخطاب فى قوله تعالى انكم الى جميع المكلفين فالموصول مع صلته للتخصيص أى ليقولن الكافرون منهم وان وجه الى الكافرين منهم فهو وارد على طريقة الذم (أن هذا إلا سحر مبين) أى مثله فى الخديعة أو البطلان وهذا إشارة الى القول المذكور أو إلى القرآن فان الاخبار عن كونهم مبعوثين وان لم يجب كونه بطريق الوحى المتلو إلا أنهم عند سماعهم ذلك تخلصوا إلى القرآن لانبائه عنه فى كل موضع وكونه علما عندهم فى ذلك فعمدوا الى تكذيبه وتسميته بالسحر تماديا منهم فى العناد وتفاديا عن سنن الرشاد . وقيل هو اشارة الى نفس البعث

ولا يلائمه التسمية بالسحر فانه انما يطلق على شيء موجود ظاهرا لا أصل له فى الحقيقة ونفس البعث عندهم معدوم بحت. وتعلق الآية الكريمة بما قبلها اما من حيث ان البعث كما أشير اليه من تتمات الابتلاء المذكور فكأنه قيل الأمر كما ذكر ومع ذلك ان أخبرتهم بمقدمة فذة من مقدماته وقضية فردة من تتماته لايتلعثمون فى الرد ويعدون ذلك من قبيل مالا صحة له أصلا فضلا عن تصديق ماهذه من تتماته واما من حيث ان البعث خلق جديد فكأنه قيل وهو الذى خلق جميع المخلوقات ابتداء لهذه الحكمة البالغة ومع ذلك ان أخبرتهم بأنه يعيدهم تارة أخرى وهو أهون عليه يقولون ما يقولون فسبحان الله عما يصفون وقرأ حمزة والكسائى الا ساحر على أن الاشارة الى القائل أو الى القرآن على أسلوب شعر شاعر وقرىء بالفتح على تضمين قلت معنى ذكرت أو على أن أنك بمعنى علك فى علك أى ولئن قلت لعلكم مبعوثون على أن الرجاء والتوقع باعتبار حال المخاطبين أى توقعوا ذلك ولا تبتوا القول بانكاره أو على انه مجاراة معهم فى الكلام على نهج المساعدة لئلا يسارعوا الى اللجاج والعناد ريثما قرع اسماعهم بت القول بخلاف ما ألفوا وألفوا عليه آباءهم من انكار البعث ويكون ذلك أدعى لهم الى التأمل والتدبر وما فعلوه قاتلهم الله أنى يؤفكون (ولئن أخرنا عنهم العذاب) المترتب على بعثهم أو العذاب الموعود فى قوله تعالى «فأن تولوا فأنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير» وقيل عذاب يوم بدر وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قتل جبريل عليه السلام للمستهزئين . والظاهر أن المراد به العذاب الشامل للكفرة دون مايخص ببعض منهم على أنه لم يكن موعودا يستعجل منه المجرمون (الى أمة معدودة) الى طائفة من الأيام قليلة لأن ما يحصره العد قليل (ليقولن مايحبسه) أى أى شيء يمنعه من المجيء فكأنه يريده فيمنعه مانع وانما كانوا يقولونه بطريق الاستعجال استهزاء لقوله تعالى ما كانوا به يستهزؤن ومرادهم انكار المجيء والحبس رأسا لا الاعتراف به والاستفسار عن حابسه (ألا يوم يأتيهم) ذلك (ليس مصروفا) محبوسا (عنهم) على معنى أنه لا يرفعه رافع أبدا ان أريد به عذاب الآخرة أولا يدفعه عنكم دافع بل هو واقع بكم ان أريد به عذاب الدنيا ويوم منصوب بخبر ليس مقدما عليه واستدل به البصريون على جواز تقديمه على ليس اذ المعمول تابع للعامل فلا يقع الا حيث يقع متبوعه ورد بأن الظرف يجوز فيه مالا يجوز فى غيره توسعا و بانه قد يقدم المعمول حيث لامجال لتقدم العامل كما فى قوله تعالى «فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر» فان اليتيم والسائل مع كونهما منصوبين بالفعلين المجزومين قد تقدما على لا الناهية مع امتناع تقدم الفعلين عليها قال أبو حيان وقد تتبعت

جملة من دواوين العرب فلم أظفر بتقديم خبر ليس عليها ولا بتقديم معموله الا مادل عليه ظاهر هذه الآية الكريمة وقول الشاعر.

فيأبى فما يزداد الا لجاجة ۞ وكنت أبيا فى الخنا لست أقدم

(وحاق بهم) أى أحاط بهم (ما كانوا به يستهزؤن) أى العذاب الذى كانو يستعجلون به استهزاء وفى التعبير عنه بالموصول تهويل لمكانه واشعار بعلية ماورد فى حيز الصلة من استهزائهم به لنزوله واحاطته والتعبير عنها بالماضى وارد على عادة الله تعالى فى أخباره لانها فى تحققها وتيقنها بمنزلة الكائنة الموجودة وفى ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر وتقرير وقوع المخبر به ما لا يخفى (ولئن أذقنا الانسان منا رحمة) أى أعطيناه نعمة من صحة وأمن وجدة وغيرها وأوصلناها اليه بحيث يجد لذتها (ثم نزعناها منه) أى سلبناه أياها . وايراد النزع للاشعار بشدة تعلقه بها وحرصه عليها (انه ليؤس) شديد القنوط من روح الله قطوع رجاءه من عود أمثالها عاجلا أوآجلا بفضل الله تعالى لقلة صبره وعدم توكله عليه وثقته به (كفور) عظيم الكفران لما سلف من النعم وفيه اشارة الى أن النزع انما كان بسبب كفرانهم بما كانوا يتقلبون فيه من نعم الله عز وجل وتأخيره عن وصف يأسهم مع تقدمه عليه لرعاية الفواصل على أن اليأس من فضل الله سبحانه وقطع الرجاء عن افاضة أمثاله فى العاجل وايصال أجره فى الآجل من باب الكفران للنعمة السالفة أيضا (ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته) كصحة بعد سقم وجدة بعد عدم وفرج بعد شدة وفى التعبير عن ملابسة الرحمة والنعماء بالذوق المؤذن بلذتهما وكونهما مما يرغب فيه وعن ملابسة الضراء بالمس المشعر بكونها فى أدنى ما ينطلق عليه اسم الملاقاة من مراتبها واسناد الاول الى الله عز وجل دون الثانى ما لا يخفى من الجزالة والدلالة على أن مراده تعالى انما هو ايصال الخير المرغوب فيه على أحسن ما يكون وأنه انما يريد بعباده اليسر دون العسر وانما ينالهم ذلك بسوء اختيارهم نيلا يسيرا كانما يلاصق البشرة من غير تأثير واما نزع الرحمة فانما صدر عنه بقضية الحكمة الداعية الى ذلك وهى كفرانهم بها كما سبق وتنكير الرحمة باعتبار لحوق النزع بها (ليقولن ذهب السيآت عنى) أى المصائب التى تسوءنى ولن تعتريني بعد أمثالها كما هو شأن أولئك الاشرار فان الترقب لورود أمثالها مما يكدر السرور وينغص العيش (انه لفرح) بطر وأشر بالنعم مغتر بها (فخور) على الناس بما أوتى من النعم مشغول بذلك عن القيام بحقها واللام فى لئن فى الآيات الاربع موطئة للقسم وجوابه ساد مسد جواب الشرط (الا الذين صبروا) على ما أصابهم من الضراء سابقا أولا حقا ايمانا بالله

واستسلاما لقضائه (وعملوا الصالحات) شكرا على آلائه السالفة والآنفة و اللام فى الانسان اما لاستغراق الجنس فالاستثناء متصل أو للعهد فمنقطع (أولئك) اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة ومافيه من معنى البعد للايذان بعلو درجتهم وبعد منزلتهم فى الفضل أى أولئك الموصوفون بتلك الصفات الحميدة (لهم مغفرة عظيمة لذنوبهم وأن جمت (وأجر) ثواب لأعمالهم الحسنة كبير ووجه تعلق الآيات الثلاث بما قبلهن من حيث ان اذاقة النعماء و مساس الضراء فصل من باب الابتلاء واقع موقع التفصيل من الاجمال الواقع فى قوله تعالى ليبلوكم أيكم أحسن عملا والمعنى أن كلا من أذاقة النعماء ونزعها مع كونه ابتلاء للانسان أيشكر أم يكفر لايهتدى الى سنن الصواب بل يحيد فى كلتا الحالتين عنه الى مهاوى الضلال فلا يظهر منه باحسن عمل الامن الصابرين الصالحين أو من حيث ان انكارهم بالبعث واستهزاءهم العذاب بسبب بطرهم وفخرهم كأنه قيل انما فعلوا مافعلوا لان طبيعة الانسان مجبولة على ذلك (فعلك تارك بعض مايوحى أليك) من البينات الدالة على حقيقة نبوتك المنادية بكونها من عند الله عز وجل لمن له اذن واعية (وضائق بهصدرك) أى عارض لك ضيق صدر بتلاوته عليهم وتبليغه اليهم فى أثناء الدعوة و المحاجة (أن يقولوا) لان يقولوا تعاميا عن تلك البراهين التى لاتكاد تخفى صحتها على أحد ممن له أدنى بصيرة و تماديا فى العناد على وجه الاقتراح (لولا أنزل عليه كنز) مال خطير مخزون يدل على صدقه (أو جاء معه ملك) يصدقه قيل قاله عبد الله بن أمية المخزومى . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رؤساء مكة قالوا يامحمد اجعل لنا جبال مكة ذهبا ان كنت رسولا وقال آخرون ائتنا بالملائكة يشهدوا بنبوتك فقال لاأقدر على ذلك فنزلت فكأنه عليه الصلاة والسلام لما عاين اجتراءهم على اقتراح مثل هذه العظائم غير قانعين بالبينات الباهرة التى كانت تضطرهم الى القبول لو كانوا من أرباب العقول وشاهد ركوبهم من المكابرة متن كل صعب وذلول مسارعين إلى المقابلة بالتكذيب والاستهزاء وتسميتها سحرا مثل حاله عليه الصلاة والسلام بحال من يتوقع منه أن يضيق صدره بتلاوة تلك الآيات الساطعة عليهم وتبليغها اليهم فحمل على الحذر منه بما فى لعل من الاشفاق فقيل (أنما أنت نذير) ليس عليك الا الانذار بما أوحى اليك غير مبال بما صدر عنهم من الرد والقبول (والله على كل شىء وكيل) يحفظ أحوالك وأحوالهم فتوكل عليه فى جميع أمورك فانه فاعل بهم مايليق بحالهم والاقتصار على النذير فى أقصى غاية من أصابة المحز (أم يقولون افتراه) اضراب بأم المنقطعة عن ذكر ترك اعتدادهم بما يوحى وتهاونهم

به وعدم اقتناعهم بما فيه من المعجزات الظاهرة الدالة على كونه من عند الله عز وجل وعلى حقية نبوته عليه الصلاة والسلام وشروع فى ذكر ارتكابهم لما هو أشد منه وأعظم وما فيها من معنى الهمزة للتوبيخ والانكار والتعجب والضمير المستكن فى افتراه للنبي صلى الله عليه وسلم والبارز لما يوحى أى بل أيقولون افتراه وليس من عند الله (قل) ان كان الامر كما تقولون (فأتوا) أنتم أيضا (بعشر سور مثله) فى البلاغة وحسن النظم وهو نعت لسور أى أمثاله وتوحيده اما باعتبار مماثلة كل واحدة منها أو لان المطابقة ليست بشرط حتى يوصف المثنى بالمفرد كما فى قوله تعالى «أنؤمن لبشرين مثلنا» أو للايماء إلى أن وجه الشبه ومدارا لمماثلة فى الجميع شيء واحد هو البلاغة المؤدية الى مرتبة الاعجاز فكأن الجميع واحد (مفتريات) صفة أخرى لسور أخرت عن وصفها بالمماثلة لما يوحى لانها الصفة المقصودة بالتكليف إذ بها يظهر عجزهم وقعودهم عن المعارضة وأما وصف الافتراء فلا يتعلق به غرض يدور عليه شيء فى مقام التحدى وانما ذكر على نهج المساهلة وارخاء العنان ولأنه لو عكس الترتيب لربما توهم أن المراد هو المماثلة فى الافتراء والمعنى فأتوا بعشر سور مماثلة له فى البلاغة مختلفات من عند أنفسكم إن صح أنى اختلقته من عندى فانكم أقدر على ذلك منى لانكم عرب فصحاء بلغاء قد مارستم مبادىء ذلك من الخطب والاشعار وحفظتم الوقائع والايام وزاولتم أساليب النظم والنثر (وادعوا) للاستظهار فى المعارضة (من استطعتم) دعاءه والاستعانة به من آلهتكم التى تزعمون أنها ممدة لكم فى كل ما تأتون وما تذرون والكهنة ومدارهكم الذين تلجئون الى آرائهم فى الملمات ليسعدوكم فيها (من دون الله) متعلق بادعوا أى متجاوزين الله تعالى (إن كنتم صادقين) فى أنى افتريته فان ذلك يستلزم امكان الاتيان بمثله وهو أيضاً يستلزم قدرتكم عليه والجواب محذوف يدل عليه المذكور (فان لم يستجيبوا لكم) أى فان لم يفعلوا ما كلفوه من الاتيان بمثله كقوله تعالى «فان لم تفعلوا» وإنما عبر عنه بالاستجابة ايماء إلى أنه عليه الصلاة والسلام على كمال أمن من أمره كأن أمره لهم بالاتيان بمثله دعاء لهم الى أمر يريد وقوعه والضمير فى لكم للرسول عليه الصلاة والسلام والجمع للتعظيم كما فى قول من قال :

: وإن شئت حرمت النساء سواكم : أوله وللمؤمنين لانهم أتباع له عليه الصلاة والسلام فى الامر بالتحدى وفيه تنبيه لطيف على أن حقهم أن لا ينفكوا عنه عليه الصلاة والسلام ويناصبوا معه لمعارضة المعارضين كما كانوا يفعلونه فى الجهاد وارشاد الى أن ذلك مما يفيد الرسوخ فى الايمان والطمأنينة فى الايقان ولذلك رتب عليه قوله

عز وجل (فاعلموا) أى اعلموا حين ظهر لكم عجزهم عن المعارضة مع تهالكهم عليها علما يقينا متاخما لعين اليقين بحيث لا مجال معه لشائبة ريب بوجه من الوجوه كأن ما عداه من مراتب العلم ليس بعلم لكن لا للاشعار بانحطاط تلك المراتب بل بارتفاع هذه المرتبة وبه يتضح سر ايراد كلمة الشك مع القطع بعدم الاستجابة فان تنزيل سائر المراتب منزلة العدم مستتبع لتنزيل الجزم بعدم الاستجابة منزلة الشك فيه أو اثبتوا واستمروا على ما كنتم عليه من العلم (أنما أنزل) ملتبسا (بعلم الله) المخصوص به بحيث لا يحوم حوله العقول والافهام مستبدا بخصائص الاعجاز من جهتى النظم الرائق والاخبار بالغيب (وأن لا إله الا هو) أى واعلموا أيضا أن لا شريك له فى الالوهية وأحكامها ولا يقدر على ما يقدر عليه أحد (فهل أنتم مسلمون) أى مخلصون فى الاسلام أو ثابتون عليه وهذا من باب التثبيت والترقية الى معارج اليقين ويجوز أن يكون الخطاب فى الكل للمشركين من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم داخلا تحت الامر بالتحدى والضمير فى لم يستجيبوا لمن استطعتم أى فان لم يستجب لكم آلهتكم وسائر من اليهم تجارون فى مهماتكم وملماتكم الى المعاونة والمظاهرة فاعلموا أن ذلك خارج عن دائرة قدرة البشر وأنه منزل من خالق القوى والقدر فايراد كلمة الشك حينئذ مع الجزم بعدم الاستجابة من جهة آلهتهم تهكم بهم وتسجيل عليهم بكمال سخافة العقل وترتيب الأمر بالعلم على مجرد عدم الاستجابة من حيث انه مسبوق بالدعاء المسبوق بعجزهم واضطرارهم فكأنه قيل فان لم يستجيبوا لكم عند ألجائكم اليهم بعد ما اضطررتم الى ذلك وضاقت عليكم الحيل وعيت بكم العلل أو من حيث ان من يستمدون بهم أقوى منهم فى اعتقادهم فاذا ظهر عجزهم بعدم استجابتهم وان كان ذلك قبل ظهور عجز أنفسهم يكون عجزهم أظهر وأوضح واعلموا أيضا أن آلهتكم بمعزل عن رتبة الشركة فى الالوهية وأحكامها فهل أنتم داخلون فى الاسلام اذ لم يبق بعد شائبة شبهة فى حقيته وفى بطلان ما كنتم فيه من الشرك فيدخل فيه الاذعان بكون القرآن من عند الله تعالى دخولا أوليا أو منقادون للحق الذى هو كون القرآن من عند الله تعالى وتاركون لما كنتم فيه من المكابرة والعناد وفى هذا الاستفهام ايجاب بليغ لما فيه من معنى الطلب والتنبيه على قيام الموجب وزوال العذر واقناط من أن يجيرهم آلهتهم من بأس الله عز سلطانه هذا والاول أنسب لما سلف من قوله تعالى وضائق به صدرك ولما سيأتى من قوله تعالى فلا تك فى مرية منه وأشد ارتباطا بما يعقبه كما ستحيط به خبرا (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها) أى ما يزينها ويحسنها من الصحة والأمن والسعة فى الرزق وكثرة الأولاد والرياسة

وغير ذلك والمراد بالارادة ما يحصل عند مباشرة الأعمال لا مجرد الارادة القلبية لقوله تعالى (نوف إليهم أعمالهم فيها) وادخال كان عليها للدلالة على استمرارها منهم بحيث لا يكادون يريدون الآخرة أصلا وليس المراد بأعمالهم أعمال كلهم فانه لا يجد كل متمن ما يتمناه ولا كل أحد ينال كل ما يهواه فان ذلك منوط بالمشيئة الجارية على قضية الحكمة كما نطق به قوله تعالى «من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد» ولا كل أعمالهم بل بعضها الذي يترتب عليه الامور المذكورة بطريق الاجر والجزاء من أعمال البر وقد أطلقت وأريد بها ثمراتها فالمعنى نوصل اليهم ثمرات أعمالهم فى الحياة الدنيا كاملة وقرىء يوف على الاسناد الى الله عز وجل وتوف بالفوقانية على البناء للمفعول ورفع أعمالهم وقرىء نوفى بالتخفيف والرفع لكون الشرط ماضيا كقوله :

وان أتاه خليل يوم مسغبة   يقول لا غائب مالى ولا حرم

(وهم فيها) أى فى الحياة الدنيا (لا يبخسون) أى لا ينقصون وانما عبر عن ذلك بالبخس الذى هو نقص الحق مع أنه ليس لهم شائبة حق فيما أوتوه كما عبر عن اعطائه بالتوفية التى هى اعطاء الحقوق مع أن أعمالهم بمعزل من كونها مستوجبة لذلك بناء للامر على ظاهر الحال ومحافظة على صور الأعمال ومبالغة فى نفى النقص كأن ذلك نقص لحقوقهم فلا يدخل تحت الوقوع والصدور عن الكريم أصلا والمعنى انهم فيها خاصة لا ينقصون ثمرات أعمالهم وأجورها نقصا كليا مطردا ولا يحامونها حرمانا كليا وأما فى الآخرة فهم فى الحرمان المطلق واليأس المحقق كما ينطق به قوله تعالى (أولئك) الخ فانه اشارة الى المذكورين باعتبار ارادتهم الحياة الدنيا أو باعتبار توفيتهم أجورهم من غير بخس أو باعتبارهما معا وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فى سوء الحال اى أولئك المريدون للحياة الدنيا وزينتها الموفون فيها ثمرات أعمالهم من غير بخس (الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار) لان هممهم كانت مصروفة الى الدنيا وأعمالهم مقصورة على تحصيلها وقد اجتنوا ثمرتها ولم يكونوا يريدون بها شيئا آخر فلا جرم لم يكن لهم فى الآخرة الا النار وعذابها المخلد (وحبط ما صنعوا فيها) اى ظهر فى الآخرة حبوط ما صنعوه من الاعمال التى كانت تؤدى الى الثواب لو كانت معمولة للآخرة أو حبط ما صنعوه فى الدنيا من اعمال البر إذ شرط الاعتداد بها الاخلاص (وباطل) أى فى نفسه (ما كانوا يعملون) فى أثناء تحصيل المطالب الدنيوية ولاجل أن الاول من شأنه استتباع الثواب والأجر وأن عدمه لعدم مقارنته للايمان والنية الصحيحة وأن الثانى ليس له جهة صالحة قط علق بالأول الحبوط المؤذن بسقوط أجره بصيغة الفعل المنبىء عن الحدوث وبالثانى

البطلان المفصح عن كونه بحيث لا طائل تحته أصلا بالاسمية الدالة على كون ذلك وصفا لا زماله ثابتا فيه. وفي زيادة كان في الثاني دون الاول ايماء إلى أن صدور أعمال البر منهم و إن كان لغرض فاسد ليس في الاستمرار و الدوام كصدور الاعمال التي هي من مقدمات مطالبهم الدنيئة. وقرىء وبطل على الفعل أي ظهر بطلانه حيث علم هناك أن ذلك وما يستتبعه من الحظوظ الدنيوية مما لا طائل تحته أو انقطع أثره الدنيوى فبطل مطلقا وقرىء وباطلاما كانوا يعملون على أن ما ابهامية أو في معنى المصدر كقوله « ولا خارجا من فى زور كلام » وعن أنس رضى الله عنه ان المراد بقوله تعالى من كان يريد الخ اليهود والنصارى ان أعطوا سائلا أو وصلوا رحما عجل لهم جزاء ذلك بتوسعة فى الرزق وصحة فى البدن وقيل هم الذين جاهدوا من المنافقين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسهم لهم فى الغنائم وأنت خبير بأن ذلك نما كان بعد الهجرة والسورة مكية. وقيل هم أهل الرياء يقال للقراء منهم أردت أن يقال فلان قارىء فقد قيل ذلك وهكذا لغيره ممن يعمل أعمال البر لا لوجه الله تعالى فعلى هذا لابد من تقييد قوله تعالى ليس لهم إلا النار بأن ليس لهم بسبب أعمالهم الريائية إلا ذلك والذى تقتضيه جزالة النظم الكريم أن المراد به مطلق الكفرة بحيث يندرج فيهم القادحون فى القرآن العظيم اندراجا أولياً فانه عز وعلا لما أمر نبيه عليه الصلاة و السلام و المؤمنين بأن يزدادوا علما ويقينا بأن القرآن منزل بعلم الله وبأن لا قدرة لغيره على شىء أصلا وهيجهم على الثبات على الاسلام والرسوخ فيه عند ظهور عجز الكفرة وما يدعون من دون الله عن المعارضة وتبين أنهم ليسوا على شىء أصلا اقتضى الحال أن يتعرض لبعض شئونهم الموهمة لكونهم على شىء فى الجملة من نيلهم الحظوظ العاجلة واستيلائهم على المطالب الدنيوية وبيان أن ذلك بمعزل عن الدلالة عليه ولقد بين ذلك أى بيان ثم أعيد الترغيب فيما ذكر من الايمان بالقرآن والتوحيد والاسلام فقيل (أفمن كان على بينة من ربه) أى برهان نير عظيم الشأن يدل على حقية مارغب فى الثبات عليه من الاسلام وهو القرآن و باعتباره أو بتأويل البرهان ذكر الضمير الراجع إليها فى قوله تعالى (ويتلوه) أى يتبعه (شاهد) يشهد بكونه من عند الله تعالى وهو الاعجاز فى نظمه المطرد فى كل مقدار سورة منه أو ماوقع فى بعض آياته من الاخبار بالغيب وكلاهما وصف تابع له شاهد بكونه من عند الله عز وجل غير أنه على التقدير الاول يكون فى الكلام اشارة الى حال رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فى تمسكهم بالقرآن عند تبين كونه منزلا بعلم الله بشهادة الاعجاز (منه) أى من القرآن غير خارج عنه أو من جهة الله تعالى

فان كلا منهما وارد من جهته تعالى للشهادة ويجوز على هذا التقدير أن يراد بالشاهد المعجزات الظاهرة على يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فان ذلك أيضا من الشواهد التابعة للقرآن الواردة من جهته تعالى فالمراد بمن فى قوله تعالى أفمن كل من اتصف بهذه الصفة الحميدة فيدخل فيه المخاطبون بقوله تعالى «فاعلموا فهل أنتم» دخولا أوليا وقيل هو النبى صلى الله عليه وسلم وقيل مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه وقيل المراد بالبينة دليل العقل وبالشاهد القرآن فالضمير فى منه لله تعالى أو البينة القرآن ويتلوه من التلاوة والشاهد جبريل أو لسان النبى صلى الله عليه وسلم على أن الضمير له أو من التلو والشاهد ملك يحفظ والاولى هو الاول ولما كان المراد بتلو الشاهد للبرهان اقامة الشهادة بصحته وكونه من عند الله تابعا له بحيث لا يفارقه فى مشهد من المشاهد فان القرآن بينة باقية على وجه الدهر مع شاهدها الذى يشهد بأمرها الى يوم القيامة عند كل مؤمن وجاحد عطف كتاب موسى فى قوله عز قائلا (ومن قبله كتاب موسى) على فاعله مع كونه مقدما عليه فى النزول فكأنه قيل أفمن كان على بينة من ربه ويشهد به شاهد منه وشاهد آخر من قبله هو كتاب موسى وانما قدم فى الذكر المؤخر فى النزول لكونه وصفا لازما له غير مفارق عنه ولعراقته فى وصف التلو والتنكير فى بينة وشاهد للتفخيم (أماما) أى مؤتما به فى الدين ومقتدى وفى التعرض لهذا الوصف بصدد بيان تلو الكتاب مالا يخفى من تفخيم شأن المتلو (ورحمة) أى نعمة عظيمة على من أنزل اليهم ومن بعدهم الى يوم القيامة باعتبار أحكامه الباقية المؤيدة بالقرآن العظيم وهما حالان من الكتاب (أولئك) الموصوفون بتلك الصفة الحميدة وهى الكون على بينة من الله ولما أن ذلك عبارة عن مطلق التمسك بها وقد يكون ذلك بطريق التقليد لمن سلف من عظماء الدين من غير عثور على دقائق الحقائق وصفهم بانهم (يؤمنون به) أى يصدقون حق التصديق حسبما تشهد به الشواهد الحقة المعربة عن حقيته (ومن يكفر به) أى بالقرآن ولم يصدق بتلك الشواهد الحقة (من الأحزاب) من أهل مكة ومن تحزب معهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم (فالنار موعده) يردها لامحالة حسبما نطق به قوله تعالى « ليس لهم فى الآخرة الا النار » وفى جعلها موعدا اشعارا بأن له فيها مالا يوصف من أفانين العذاب (فلا تك فى مرية منه) أى فى شك من أمر القرآن وكونه من عند الله عز وجل غبما شهدت به الشواهد المذكورة وظهر فضل من تمسك به (أنه الحق من ربك) الذى يربيك فى دينك ودنياك (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) بذلك اما لقصور أنظارهم واختلال أفكارهم واما لعنادهم واستكبارهم فمن فى قوله تعالى

« أفمن كان على بينة من ربه » مبتدأ حذف خبره لاغناء الحال عن ذكره وتقديره أفمن كان على بينة من ربه كأولئك الذين ذكرت أعمالهم وبين مصيرهم ومآلهم يعنى أن بينهما تفاوتا عظيما بحيث لا يكاد يتراءى ناراهما. وايراد الفاء بعد الهمزة لانكار ترتب توهم المماثلة على ما ذكر من صفاتهم وعدد من هناتهم كأنه قيل أبعد ظهور حالهم فى الدنيا والآخرة كما وصف يتوهم المماثلة بينهم و بين من كان على أحسن ما يكون فى العاجل والآجل كما فى قوله تعالى « أفاتخذتم من دونه أولياء » أى أبعد أن علمتموه رب السموات و الارض اتخذتم من دونه أولياء وقوله تعالى « أفمن يعلم أنما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى » (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) بان نسب اليه ما لا يليق به كقولهم للملائكة بنات الله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وقولهم لآلهتهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله يعنى أنهم مع كفرهم بآيات الله تعالى مفترون عليه كذبا وهذا التركيب وان كان سبكه على انكار أن يكون أحد أظلم منهم من غير تعرض لانكار المساواة ونفيها ولكن المقصود به قصدا مطردا انكار المساواة ونفيها و افادة أنهم أظلم من كل ظالم كما ينبىء عنه ما سيتلى من قوله عز وجل « لاجرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون » فاذا قيل من أكرم من فلان أو لا أفضل منه فالمراد منه حتما أنه أكرم من كل كريم وأفضل من كل فاضل (أولئك) الموصوفون بالظلم البالغ الذى هو الافتراء على الله تعالى و بهذه الاشارة حصلت الغنية عن اسناد العرض الى أعمالهم و اكتفى باسناده اليهم حيث قيل (يعرضون) لان عرضهم من تلك الحيثية و بذلك العنوان عرض لاعمالهم على وجه أبلغ فان عرض العامل بعمله أفظع من عرض عمله مع غيبته (على ربهم) الحق وفيه ايماء الى بطلان رأيهم فى اتخاذهم أربابا من دون الله عز وجل (و يقول الأشهاد) عند العرض من الملائكة و النبيين أو من جوارحهم و هو جمع شاهد أو شهيد كأصحاب و أشراف (هؤلاء الذين كذبوا على ربهم) بالافتراء عليه كأن ذلك أمر واضح غنى عن الشهادة بوقوعه و انما المحتاج الى الشهادة تعيين من صدر عنه ذلك فلذلك لا يقولون هؤلاء كذبوا على ربهم و يجوز أن يكون المراد بالاشهاد الحضار وهم جميع أهل الموقف على ما قاله قتادة ومقاتل و يكون قولهم هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ذما لهم بذلك لا شهادة عليهم كما يشعر به قوله تعالى و يقول دون و يشهد الخ و توطئة لما يعقبه من قوله تعالى (ألا لعنة الله على الظالمين) بالافتراء المذكور و يجوز أن يكون هذا على الوجه الاول من كلام الله تعالى وفيه تهويل عظيم لما يحيق بهم من عاقبة ظلمهم اللهم انا نعوذ بك

من الخزى على رءوس الاشهاد (الذين يصدون) أى كل من يقدرون على صده او يفعلون الصد (عن سبيل الله) عن دينه القويم (ويبغونها عوجا) انحرافا أى يصفونها بذلك وهى أبعد شىء منه أو يبغون أهلها أن ينحرفوا عنها يقال بغيتك خيرا أو شرا أى طلبت لك وهذا شامل لتكذيبهم بالقرآن وقولهم انه ليس من عند الله (وهم بالآخرة هم كافرون) أي يصفونها بالعوج والحال أنهم كافرون بها لا انهم يؤمنون بها ويزعمون أن لها سبيلا سويا يهدون الناس اليه . وتكرير الضمير لتأكيد كفرهم واختصاصهم به كأن كفر غيرهم ليس بشىء عند كفرهم (أولئك) مع ما وصف من أحوالهم الموجبة للتدمير (لم يكونوا معجزين) الله تعالى مفلتين بأنفسهم من أخذه لو أراد ذلك (فى الأرض) مع سعتها وان هربوا منها كل مهرب (وما كان لهم من دون الله من أولياء) ينصرونهم من بأسه ولكن أخر ذلك لحكمة تقتضيه والجمع اما باعتبار أفراد الكفرة كأنه قيل وما كان لأحد منهم من ولى أو باعتبار تعدد ما كانوا يدعون من دون الله تعالى فيكون ذلك بيانا لحال آلهتهم من سقوطها عن رتبة الولاية (يضاعف لهم العذاب) استئناف يتضمن حكمة تأخير المؤاخذة وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب بالتشديد (ما كانوا يستطيعون السمع) لفرط تصامهم عن الحق وبغضهم له كانهم لايقدرون على السمع ولما كان قبح حالهم فى عدم اذعانهم للقرآن الذى طريق تلقيه السمع أشد منه فى عدم قبولهم لسائر الآيات المنوطة بالابصار بالغ فى نفى الاول عنهم حيث نفى عنهم الاستطاعة واكتفى فى الثانى بنفى الابصار فقال تعالى (وما كانو يبصرون) لتعاميهم عن آيات الله المبسوطة فى الانفس والآفاق وهو استئناف وقع تعليلا لمضاعفة العذاب وقيل هو بيان لما نفى من ولاية الآلهة فان مالا يسمع ولا يبصر بمعزل من الولاية وقوله تعالى يضاعف لهم العذاب اعتراض وسط بينهما نعيا عليهم من اول الامر سوء العاقبة (أولئك) المنعوتون بما ذكر من القبائح (الذين خسروا أنفسهم) باشتراء عبادة الآلهة بعبادة الله عز سلطانه (وضل عنهم ما كانوا يفترون) من الآلهة أو شفاعتها أو خسروا ما بذلوا وضاع عنهم ما حصلوا فلم يبق معهم سوى الحسرة والندامة (لاجرم) فيه ثلاثة أوجه الاول أن لا نافية لما سبق وجرم فعل بمعنى حق وأن مع ما فى حيزه فاعله والمعنى لا ينفعهم ذلك الفعل حق (أنهم فى الآخرة هم الأخسرون) وهذا مذهب سيبويه والثانى جرم بمعنى كسب وما بعده مفعوله وفاعله ما دل عليه الكلام أى كسب ذلك خسرانهم فالمعنى ما حصل من ذلك الا ظهور خسرانهم والثالث أن لاجرم بمعنى لابد أى لابد انهم فى الآخرة هم الاخسرون وأياما

كان فمعناه أنهم أخسر من كل خاسر فتبين أنهم أظلم من كل ظالم وهذه الآيات الكريمة كما ترى مقررة لما سبق من انكار المماثلة بين من كان على بينة من ربه وبين من كان يريد الحياة الدنيا أبلغ تقرير فانهم حيث كانوا أظلم من كل ظالم واخسر من كل خاسر لم يتصور مماثلة بينهم وبين أحد من الظلمة الاخسرين فما ظنك بالمماثلة بينهم وبين من هو فى أعلى مدارج الكمال ولما ذكر فريق الكفار وأعمالهم وبين مصيرهم ومآلهم شرع فى بيان حال أضدادهم أعنى فريق المؤمنين ومايؤول اليه أمرهم من العواقب الحميدة تكملة لما سلف من محاسنهم المذكورة فى قوله تعالى « أفمن كان على بينة ربه » الآية ليتبين ما بينهما من التباين البين حالا ومآلا فقيل (إن الذين آمنوا) أى بكل ما يجب أن يؤمن به فيندرج تحته مانحن بصدده من الايمان بالقرآن الذى عبر عنه بالكون على بينة من الله وانما يحصل ذلك باستماع الوحى والتدبر فيه ومشاهدة ما يؤدى الى ذلك فى النفس والآفاق أو فعلوا الايمان كما فى يعطى ويمنع (وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم) أى اطمأنوا اليه وانقطعوا الى عبادته بالخضوع والتواضع من الخبت وهى الارض المطمئنة ومعنى أخبت دخل فى الخبت كأنهم وأنجد دخل فى تهامة ونجد (أولئك) المنعوتون بتلك النعوت الجميلة (أصحاب الجنة هم فيها خالدون) دائمون وبعد بيان تباين حاليهما عقلا أريد بيان تباينهما حسا فقيل (مثل الفريقين) المذكورين أى حالهما العجيب لان المثل لا يطلق الا على ما فيه غرابة من الاحوال والصفات (كالأعمى والاصم والبصير والسميع) أى كحال هؤلاء فيكون ذواتهم كذواتهم والكلام وإن أمكن أن يحمل على تشبيه الفريق الاول بالاعمى وبالاصم وتشبيه الفريق الثانى بالبصير وبالسميع لكن الادخل فى المبالغة والاقرب الى مايشير اليه لفظ المثل والانسب بما سبق من وصف الكفرة بعدم استطاعة السمع وبعدم الابصار أن يحمل على تشبيه الفريق الاول بمن جمع بين العمى والصمم وتشبيه الفريق الثانى بمن جمع بين البصر والسمع على أن تكون الواو فى قوله تعالى والاصم وفى قوله والسميع لعطف الصفة على الصفة كما فى قول من قال :

الى الملك القرم وابن الهمام ۞ وليث الكتيبة فى المزدحم

وأياما كان فالظاهر أن المراد بالحال المدلول عليها بلفظ المثل وهى التى يدور عليها أمر التشبيه ما يلائم الاحوال المذكورة المعتبرة فى جانب المشبه به من تعامى الفريق الاول عن مشاهدة آيات الله المنصوبة فى العالم والنظر اليها بعين الاعتبار وتصاممهم عن استماع آيات القرآن الكريم وتلقيها بالقبول حسبما ذكر فى قوله تعالى « ما كانوا

يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون » وانما لم يراع هذا الترتيب ههنا لكون الاعمى أظهر وأشهر فى سوء الحال من الاصم ومن استعمال الفريق الثانى لكل من أبصارهم وأسماعهم فيما ذكر كما ينبغى المدلول عليه بما سبق من الايمان والعمل الصالح والاخبات حسبما فسر به فيما مر فلا يكون التشبيه تمثيليا لاجمع الاحوال المعدودة لكل من الفريقين مما ذكر وما يؤدى اليه من العذاب المضاعف والخسران البالغ فى أحدهما ومن النعيم المقيم فى الآخرة فان اعتبار ذلك ينزع الى كون التشبيه تمثيليا بان ينتزع من حال الفريق الاول فى تصامهم وتعاميهم المذكورين ووقوعهم بسبب ذلك فى العذاب المضاعف والخسران الذى لاخسران فوقه هيئة فتشبه بهيئة منتزعة ممن فقد مشعرى البصر والسمع فتخبط فى مسلكه فوقع فى مهاوى الردى ولم يجد الى مقصده سبيلا وينتزع من حال الفريق الثانى فى استعمال مشاعرهم فى آيات الله تعالى حسبما ينبغى وفوزهم بدار الخلود هيئة فتشبه بهيئة منتزعة ممن له بصر وسمع يستعملهما فى مهماته فيهتدى الى سبيله وينال مرامه (هل يستويان) يعنى المذكورين الفريقين والاستفهام انكارى مذكر لما سبق من انكار المماثلة فى قوله عز وجل أفمن كان على بينة الآية (مثلا) أى حالا وصفة وهو تمييز من فاعل يستويان (أفلا تذكرون)أى تشكون فى عدم الاستواء وما بينهما من التباين أو أتغفلون عنه فلا تتذكرونه بالتأمل فيما ضرب لكم من المثل فيكون الانكار واردا على المعطوفين معا أو أتسمعون هذا فلا تتذكرون فيكون راجعا الى عدم التذكر بعد تحقق ما يوجب وجوده وهو المثل المضروب كما فى قوله تعالى « أفأن مات أوقتل انقلبتم على أعقابكم» فان الفاء هناك لانكار الانقلاب بعد تحقق ما يوجب عدمه من علمهم بخلو الرسل قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أفلا تفعلون التذكر أو أفلا تعقلون ومعنى الهمزة انكار عدم التذكر واستبعاد صدوره عن المخاطبين وأنه ليس مما يصح أن يقع لا من قبيل الانكار فى قوله تعالى « أفمن كان على بينة من ربه » وقوله تعالى « هل يستويان» فان ذلك لنفى المماثلة ونفى الاستواء ولما بين من فاتحة السورة الكريمة الى هذا المقام أنها كتاب محكم الآيات مفصلها نازل فى شأن التوحيد وترك عبادة غير الله سبحانه وأن الذى أنزل عليه نذير وبشير من جهته تعالى وقرر فى تضاعيف ذلك ماله مدخل فى تحقيق هذا المرام من الترغيب والترهيب والزام المعاندين بما يقارنه من الشواهد الحقة الدالة على كونه من عند الله تعالى وتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم مما عراه من ضيق الصدر العارض له من اقتراحاتهم الشنيعة وتكذيبهم له وتسميتهم للقرآن تارة سحرا وأخرى مفترى وتثبيته عليه الصلاة والسلام والمؤمنين على التمسك به

والعمل بموجبه على أبلغ وجه وأبدع أسلوب شرع فى تحقيق ماذكر وتقريره بذكر قصص الانبياء صلوات الله عليهم أجمعين المشتملة على ما اشتمل عليه فاتحة السورة الكريمة لتأكد ذلك بطريقين أحدهما أن ماأمر به من التوحيد وفروعه مما أطبق عليه الانبياء قاطبة والثانى أن ذلك انما علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق الوحى فلا يبقى فى حقيته كلام أصلا وليتسلى بما يشاهده من معاناة الرسل قبله من أممهم ومقاساتهم الشدائد من جهتهم فقيل (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه) الواو ابتدائية واللام جواب قسم محذوف وحرفه الباء لا الواو كما فى سورة الاعراف لئلا يجتمع واوان ولا يكاد تطلق هذه اللام الا مع قد لأنها مظنة التوقع وأن المخاطب اذا سمعها توقع وقوع ما صدر بها ونوح هو ابن لملك بن متوشلخ بن ادريس عليهما السلام وهو اول نبي بعث بعده . قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما بعث عليه الصلاة والسلام على رأس أربعين من عمره ولبث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان ستين سنة وكان عمره ألفا وخمسين سنة وقال مقاتل بعث وهوابن مائة سنة وقيل وهو ابن خمسين سنة وقيل وهو ابن مائتين وخمسين ومكث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمره ألفا وأربعمائة وخمسين سنة (إنى لكم نذير) بالكسر على ارادة القول أى فقال أو قائلا وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بالفتح على اضمار حرف الجر أى أرسلناه ملتبسا بذلك الكلام وهو نى لكم نذير بالكسر فلما اتصل به الجار فتح كما فتح فى كأن و المعنى على الكسر وهو قولك انزيدا كالاسد واقتصر على ذكر كونه عليه الصلاة والسلام نذيرا لا لأن دعوته عليه الصلاة والسلام كانت بطريق الانذار فقط الا يرى الى قوله تعالى « فقلت استغفروا ربكم أنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا الخ »بل لانهم لم يغتنموا مغانم ابشاره عليه الصلاة والسلام (مبين) أبين لكم موجبات العذاب ووجه الخلاص منه لان الانذار اعلام المحذور لا لمجرد التخويف والازعاج بل للحذر منه فيتعلق صفته بكلا من وصفيه (ألا تعبدوا إلا الله) أى بأن لاتعبدوا على أن أن مصدرية والباء متعلقة بأرسلنا ولاناهية أى أرسلنا متلبسا بنهيهم عن الشرك الا أنه وسط بينهما بيان بعض أوصافه واحواله عليه الصلاة والسلام وهو كونه نذيرا مبينا ليكون أدخل فى القبول ولم يفعل ذلك فى صدر السورة لئلا يفرق بين الكتاب ومضمونه بما ليس من أوصافه وأحواله أو مفسرة متعلقة به أو بنذير أو مفعول لمبين وعلى قراءة الفتح بدل من لكم نذير مبين وتعيين لما يوجب وقوع المحذور وتبين لوجه الخلاص

وهو عبادة الله تعالى وقوله تعالى (إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم) تعليل لموجب النهى وتصريح بالمحذور وتحقيق للانذار والمراد به يوم القيامة أو يوم الطوفان ووصفه بالأليم على الأسناد المجازى للمبالغة كما فى نهاره صائم وهذه المقالة وما فى معناها مما قاله عليه الصلاة والسلام فى أثناء الدعوة على ما عزى اليه فى سائر السور لما لم تصدر عنه عليه الصلاة و السلام مرة واحدة بل كان يكررها عليهم فى تلك المدة المتطاولة على ما نطق به قوله تعالى « رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا » الآيات عطف على فعل الارسال المقارن لها أو القول المقدر بعده جوابهم المتعرض لاحوال المؤمنين الذين اتبعوه عليه الصلاة والسلام بعد اللتيا والتى بالفاء التعقيبية فقيل (فقال الملأ الذين كفروا من قومه) أى الاشراف منهم من قولهم فلان مليء بكذا أى مطيق له لانهم ملؤا بكفايات الامور أو لانهم ملؤا القلوب هيبة والمجالس أبهة أو لانهم ملؤا بالاحلام والآراء الصائبة ووصفهم بالكفر لذمهم والتسجيل عليهم بذلك من أول الامر لا لان بعض أشرفهم ليسوا بكفرة (ما نراك إلا بشرا مثلنا) مرادهم ما انت إلا بشر مثلنا ليس فيك مزية تخصك من دوننا بما تدعيه من النبوة ولو كان كذلك لرأيناه لا أن ذلك محتمل ولكن لانراه وكذا الحال فى قولهم (وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى) فالفعلان من رؤية العين وقوله تعالى الا بشرا مثلنا حال من المفعول وكذا قوله اتبعك فى موضع الحال منه اما على حاله أو بتقدير قد عند من يشترط ذلك ويجوز أن يكون من رؤية القلب وهو الظاهر فهما المفعول الثانى وتعلق الرأى فى الأول بالمثلية لا بالبشرية فقط وانما لم يبتوا القول بذلك مع جزمهم به واصرارهم عليه اراءة بان ذلك لم يصدر عنهم جزافا بل بعد التأمل فى الامر والتدبر فيه و لذلك اقتصروا على ذكر الظن فيما سيأتى وتعريضا من أول الامر برأى المتبعين فكان قولهم وما نراك جواب عما يرد عليهم من أنه عليه الصلاة والسلام ليس مثلهم حيث عاين دلائل نبوته و اغتنم اتباعه من له عين تبصر و قلب يدرك فزعموا أن هؤلاء أراذلنا أى اخساؤنا وأدانينا جمع أرذل فانه صار بالغلبة جاريا مجرى الاسم كالاكبر والاكابر أو جمع أرذل جمع رذل كأكالب وأكلب وكلب يعنون أنه لاعبرة باتباعهم لك اذ ليس لهم رزانة عقل ولا أصالة رأى، وقد كان ذلك منهم فى بادى الرأى أى ظاهره من غير تعمق من البدو أو فى أوله من البدء والياء مبدلة من الهمزة لانكسار ماقبلها وقد قرأه أبو عمرو بها وانتصابه على الظرفية على حذف المضاف أى وقت حدوث بادى الرأى والعامل فيه اتبعك وانما استرذلوهم مع كونهم أولى الالباب الراجحة لفقرهم فانهم لما لم يعلموا الا

ظاهر الحياة الدنيا كان الاشرف عندهم الا كثر منها حظا والارذل من حرمها ولم يفقهوا أن ذلك لا يزن عند الله جناح بعوضة وأن النعيم أنما هو نعيم الآخرة والاشرف من فاز به والارذل من حرمه نعوذ بالله تعالى من ذلك (وما نرى لكم) أى لك ولمتبعيك فغلب المخاطب على الغائبين (علينا من فضل) يعنون ان اتباعهم لك لا يدل على نبوتك ولا يجديهم فضيلة تستتبع اتباعنا لكم واقتصارهم ههنا على ذكر عدم رؤية الفضل بعد تصريحهم برذالتهم فيما سبق باعتبار حالهم السابق واللاحق ومرادهم انهم كانوا أراذل قبل اتباعهم لك ولا نرى فيهم وفيك بعد الاتباع فضيلة علينا (بل نظنكم كاذبين) جميعا لكون كلامكم واحدا ودعواكم واحدة أو اياك فى دعوى النبوة واياهم فى تصديقك واقتصارهم على الظن احتراز منهم عن نسبتهم الى المجازفة ومجاراة معه عليه الصلاة والسلام بطريق الاراءة على نهج الانصاف (قال ياقوم أرأيتم) أى اخبرونى وفيه ايماء الى ركاكة رأيهم المذكور (إن كنت على بينة) برهان ظاهر (من ربى) وشاهد يشهد بصحة دعواى (وآتانى رحمة من عنده) هى النبوة ويجوز ان تكون هى البينة نفسها جىء بها ايذانا بأنها مع كونها بينة من الله تعالى رحمة ونعمة عظيمة من عنده فوجه افراد الضمير فى قوله تعالى (فعميت عليكم) حينئذ ظاهر وأن أريد بها النبوة وبالبينة البرهان الدال على صحتها فالافراد لارادة كل واحدة منهما أو لكون الضمير للبينة والاكتفاء بذلك لاستلزام خفائها خفاء النبوة أو لتقدير فعل آخر بعد البينة ومعنى عميت أخفيت وقرىء أعميت ومعناه خفيت وحقيقته ان الحجة كما تجعل مبصرة وبصيرة تجعل عمياء لان اعمى لا يهتدى غيره وفى قراءة أبى فعماها عليكم ولا يهدى على الاسناد الى الله عز وجل (أنلزمكموها) أي انكرهكم على الاهتداء بها وهو جواب أرأيتم وساد مسد جواب الشرط وقرأ أبو عمرو باخفاء حركة الميم وحيث اجتمع ضميران منصوبان وقد قدم أعرفهما جاز فى الثانى الوصل والفصل فوصل كما فى قوله تعالى فسيكفيكهم الله (وأنتم لها كارهون) لا تختارونها ولا تتاملون فيها ومحصول الجواب أخبرونى ان كنت على حجة ظاهرة الدلالة على صحة دعواى الا انها خافية عليكم غير مسلمة عندكم ايمكننا ان نكرهكم على قبولها وأنتم معرضون عنها غير متدبرين فيها أى لا يكون ذلك وظاهره مشعر بصدوره عنه عليه الصلاة والسلام بطريق اظهار اليأس عن الزامهم والقعود عن محاجتهم كقوله تعالى ولا ينفعكم نصحى الخ لكنه محمول على أن مراده عليه الصلاة والسلام ردهم عن الاعراض عنها وحثهم على التدبر فيها بصرف الانكار الى الالزام حال كراهتهم لها لا الى الالزام مطلقا هذا ويجوز أن يكون المراد بالبينة دليل العقل الذى هو ملاك الفضل

وبحسبه تمتاز أفراد البشر بعضها من بعض وبه تناط الكرامة عند الله عز وجل والاجتباء للرسالة وبالكون عليها التمسك به والثبات عليه وبخفائها على الكفرة على أن الضمير للبينة عدم ادراكهم لكونه عليه الصلاة والسلام عليها وبالرحمة النبوة التى أنكروا اختصاصه عليه السلام بها بين ظهرانيهم والمعنى أنكم زعمتم أن عهد النبوة لاينالها الا من له فضيلة على سائر الناس مستتبعة لاختصاصه به دونهم اخبرونى ان امتزت عنكم بزيادة مزية وحيازة فضيلة من ربى وآتانى بحسبها نبوة من عنده فخفيت عليكم تلك البينة ولم تصيبوها ولم تنالوها ولم تعلموا حيازتى لها وكونى عليها الى الآن حتى زعمتم أنى مثلكم وهى متحققة فى نفسنا أنلزمكم قبول نبوتى التابعة لها والحال أنكم كارهون لذلك فيكون الاستفهام للحمل على الاقرار وهو الانسب بمقام المحاجة وحينئذ يكون كلامه عليه الصلاة والسلام جوابا عن شبههم التى أدرجوها فى خلال مقالهم من كونه عليه السلام بشرا قصارى أمره أن يكون مثلهم من غير فضل له عليهم وقطعا لشأفة آرائهم الركيكة (وياقوم لاأسألكم عليه) أي على ماقلته فى أثناء دعوتكم (مالا) تؤدونه الى بعد ايمانكم واتباعكم لى فيكون ذلك أجرا لى فى مقابلة اهتدائكم (إن أجرى إلا على الله) الذى يثيبنى فى الآخرة وفى التعبير عنه حين نسب اليهم بالمال مالا يخفى من المزية (وما أنا بطارد الذين آمنوا) جواب عما لوحوا به بقولهم وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا من أنه لواتبعه الاشراف لوافقوهم وأن اتباع الفقراء مانع لهم عن ذلك كما صرحوا به فى قولهم أنؤمن لك واتبعك الارذلون فكان ذلك التماسا منهم لطردهم وتعليقاً لايمانهم به عليه الصلاة والسلام بذلك أنفة من الانتظام معهم فى سلك واحد (إنهم ملاقو ربهم) تعليل لامتناعه عليه السلام عن طردهم أى أنهم فائزون فى الآخرة بلقاء الله عز وجل كانه قيل لاأطردهم ولا أبعدهم عن مجلسى لانهم مقربون فى حضرة القدس والتعرض لوصف الربوبية لتربية وجوب رعاياتهم وتحتم الامتناع عن طردهم أو مصدقون فى الدنيا بلقاء ربهم موقنون به عالمون أنهم ملاقوه لامحالة فكيف أطردهم وحمله على معنى أنهم يلاقونه فيجازيهم على مافى قلوبهم من ايمان صحيح ثابت كما ظهر لى أو على خلاف ذلك مما تعرفونهم به من بناء أيمانهم على بادى الرأى من غير نظر وتفكر وما على أن أشق عن قلوبهم وأتعرف سر ذلك منهم حتى أطردهم ان كان الامر كما تزعمون يأباه الجزم بترتب غضب الله عز وجل على طردهم كما سيأتى وايضا فهم إنما قالوا أن اتباعهم لك إنما هو بحسب بادى الرأى بلا تأمل وتفكر وهذا لايكاد يصلح مداراً للطرد

فى الدنيا ولا للمؤاخذة فى الآخرة غايته أن لايكونوا فى مرتبة الموقنين وادعاء أن بناء الايمان على ظاهر الرأى يؤدى الى الرجوع عنه عند التأمل فكأنهم قالوا انهم اتبعوك بلا تأمل فلا يثبتون على دينك بل يرتدون عنه تعسف لايخفى (ولكنى أراكم قوما تجهلون) بكل ماينبغى أن يعلم ويدخل فيه جهلهم بلقاء الله عز وجل وبمنزلتهم عنده وباستيجاب طردهم لغضب الله كما سيأتى وبركاكة رأيهم فى التماس ذلك وتوقيف ايمانهم عليه أنفة عن الانتظام معهم فى سلك واحد وزعما منهم أن الرذالة بالفقر والشرف بالغنى وايثار صيغة الفعل للدلالة على التجدد والاستمرار أو تتسافهون على المؤمنين بنسبتهم إلى الخساسة (وياقوم من ينصرنى من الله) بدفع حلول سخطه عنى (إن طردتهم) فان ذلك أمر لامرد له لكون الطرد ظلما موجبا لحلول السخط قطعا وانما لم يصرح به اشعاراً بانه غنى عن البيان لاسيما غبما قدم مايلوح به من أحوالهم فكأنه قيل من يدفع عنى غضب الله تعالى ان طردتهم وهم بتلك المثابة من الكرامة والزلفى كما ينبىء عنه قوله تعالى (أفلا تذكرون) أى أتستمرون على ماأنتم عليه من الجهل المذكور فلا تتذكرون ماذكر من حالهم حتى تعرفوا أن ماتأتونه بمعزل عن الصواب ولكون هذه العلة مستقلة بوجه مخصوص ظاهر الدلالة على وجوب الامتناع عن الطرد أفردت عن التعليل السابق وصدرت بياقوم (ولاأقول لكم) حين أدعى النبوة (عندى خزائن الله) أى رزقه وأمواله حتى تستدلوا بعدمها على كذبى بقولكم وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين فان النبوة أعز من أن تنال باسباب دنيوية ودعواها بمعزل عن ادعاء المال والجاه (ولا أعلم الغيب) أى لاأدعى فى قولى أنى لكم نذير مبين أنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم علم الغيب حتى تسارعوا إلى الانكار والاستبعاد (ولا أقول إنى ملك) حتى تقولوا مانراك إلا بشراً مثلنا فان البشرية ليست من موانع النبوة بل من مباديها يعنى انكم اتخذتم فقدان هذه الامور الثلاثة ذريعة الى تكذيبى والحال أنى لاأدعى شيئا من ذلك ولا الذى أدعيه يتعلق بشىء منها وانما يتعلق بالفضائل النفسانية التى بها تتفاوت مقادير البشر (ولا أقول) مساعدة لكم كما تقولون (للذين تزدرى أعينكم) أى تقتحمهم وتحتقرهم من زراه إذا عابه . واسناد الازدراء إلى أعينهم بالنظر الى قولهم وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا وأما للاشعار بأن ذلك لقصور نظرهم ولو تدبروا فى شأنهم مافعلوا ذلك أى لاأقول فى شأن الذين استرذلتموهم لفقرهم من المؤمنين (لن يؤتيهم الله خيراً) فى الدنيا أو فى الآخرة فعسى الله أن يؤتيهم خيرى الدارين ان قلت هذا

القول ليس مما تستنكره الكفرة ولا مما يتوهمون صدوره عنه عليه السلام أصالة أو استتباعا كادعاء الملكية وعلم الغيب وحيازة الخزائن مما نفاه عليه الصلاة والسلام عن نفسه بطريق التبرؤ والتنزه عنه فمن أي وجه عطف نفيه على نفيها قلت من جهة أن كلا النفيين رد لقياسهم الباطل الذى تمسكوا به فيما سلف فانهم زعموا أن النبوة تستتبع الأمور المذكورة وأنها لا تتسنى ممن ليس على تلك الصفات فان العثور على مكانها واغتنام مغانمها ليس من دأب الاراذل فأجاب عليه الصلاة والسلام بنفى ذلك جميعا فكأنه قال لا أقول وجود تلك الاشياء من مواجب النبوة ولا عدم المال والجاه من موانع الخير (الله أعلم بما فى أنفسهم) من الايمان وانما اقتصر على نفى القول المذكور مع أنه عليه الصلاة والسلام جازم بان الله سبحانه سيؤتيهم خيرا عظيما فى الدارين وأنهم على يقين راسخ فى الايمان جريا على سنن الانصاف مع القوم واكتفاء بمخالفة كلامهم وارشادالهم الى مسلك الهداية بان اللائق لكل أحد أن لا يبت القول الا فيما يعلمه يقينا ويبنى أموره على الشواهد الظاهرة ولا يجازف فيما ليس فيه على بينة ظاهرة (إنى إذا) أى اذا قلت ذلك (لمن الظالمين) لهم بحط مرتبتهم ونقص حقوقهم أو من الظالمين لانفسهم بذلك فان وباله راجع الى أنفسهم وفيه تعريض بأنهم ظالمون فى ازدرائهم واسترذالهم . وقيل اذا قلت شيئا مما ذكر من ادعاء الملكية وعلم الغيب وحيازة الخزائن وهو بعيد لان تبعة تلك الاقوال مغنية عن التعليل بلزوم الانتظام فى زمرة الظالمين (قالوا يانوح قد جادلتنا) خاصمتنا (فأكثرت جدالنا) أى أطلته أو أتيته بأنواعه فان اكثار الجدال يتحقق بعد وقوع أصله فلذلك عطف عليه بالفاء أو أردت ذلك فأكثرته كما فى قوله تعالى « فأذا قرأت القرآن فاستعذ بالله » ولما حجهم عليه الصلاة والسلام وأبرز لهم بينات واضحة المدلول وحججا تتلقاها العقول بالقبول وألقمهم الحجر بردشبههم الباطلة ضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل وقالوا (فائتنا بما تعدنا) من العذاب المعجل أو العذاب الذى أشير اليه فى قوله انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم على تقدير أن لا يكون المراد باليوم يوم القيامة (إن كنت من الصادقين) فيما تقول (قال إنما يأتيكم به الله إن شاء) يعنى ان ذلك ليس موكولا الى ولا هو مما يدخل تحت قدرتى وانما يتولاه الله الذى كفرتم به وعصيتموه عاجلا أو آجلا ان تعلق به مشيئته التابعة للحكمة وفيه مالا يخفى من تهويل الموعود فكانه قيل الاتيان به أمر خارج عن دائرة القوى البشرية وانما يفعله الله عزوجل (وما أنتم بمعجزين) بالهرب أو بالمدافعة

كما تدافعو ننى فى الكلام (ولا ينفعكم نصحى) النصح كلمة جامعة لكل مايدور عليه الخير من قول أو فعل وحقيقته امحاض ارادة الخير والدلالة عليه ونقيضه الغش وقيل هو اعلام موقع الغى ليتقى وموضع الرشد ليقتفى (إن أردت أن أنصح لكم) شرط حذف جوابه لدلالة ماسبق عليه والتقدير ان أردت ان أنصح لكم لا ينفعكم نصحى وهذه الجملة دليل على ماحذف من جواب قوله تعالى (إن كان الله يريد أن يغويكم) والتقدير ان كان الله يريد أن يغويكم فان أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحى هذا على ماذهب اليه البصريون من عدم تقديم الجزاء على الشرط وأما على ماذهب اليه الكوفيون من جوازه فقوله عزوعلا ولا ينفعكم نصحى جزاء للشرط الاول والجملة جزاء للشرط الثانى وعلى التقديرين فالجزاء متعلق بالشرط الاول وتعلقه به معلق بالشرط الثانى وهذا الكلام متعلق بقولهم قدجادلتنا فأكثرت جدالنا صدر عنه عليه الصلاة والسلام اظهارا للعجز عن الزامهم بالحجج والبينات لتماديهم فى العناد وإيذانا بأن ماسبق منه ليس بطريق الجدال والخصام بل بطريق النصيحة لهم والشفقة عليهم وبأنه لم يأل جهدا فى ارشادهم الى الحق وهدايتهم الى سبيله المستبين وامحاض النصح لهم ولكن لاينفعهم ذلك عند ارادة الله تعالى لاغوائهم وتقييد عدم نفع النصح بارادته مع أنه محقق لامحالة للايذان بأن ذلك النصح منه مقارن للارادة والاهتمام به ولتحقيق المقابلة بين ذلك وبين ماوقع بأزائه من ارادته تعالى لاغوائهم وانما اقتصر فى ذلك على مجرد ارادة الاغواء دون نفسه حيث لم يقل ان كان الله يغويكم مبالغة فى بيان غلبة جنابه عز وعلا حيث دل ذلك على أن نصحه المقارن للاهتمام به لا يجديهم عند مجرد ارادة الله سبحانه لاغوائهم فكيف عند تحقيق ذلك وخلقه فيهم وزيادة كان للاشعار بتقدم ارادته تعالى زماناً كتقدمها رتبة وللدلالة على تجددها واستمرارها وانما قدم على هذا الكلام مايتعلق بقولهم فأتنا بما تعدنا من قوله تعالى «إنما يأتيكم به الله إن شاء» رداً عليهم من أول الامر وتسجيلا عليهم بحلول العذاب مع مافيه من اتصال الجواب بالسؤال وفيه دليل على أن ارادته تعالى يصح تعلقها بالاغواء وأن خلاف مراده غير واقع وقيل معنى أن يغويكم أن يهلككم من غوى الفصيل غوى اذا بشم وهلك (هو ربكم) خالقكم ومالك أمركم (وإليه ترجعون) فيجازيكم على أعمالكم لامحالة (أم يقولون افتراه) قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يعنى نوحا عليه الصلاة والسلام ومعناه بل أى يقول قوم نوح أن نوحا افترى ماجاء به مسندا الى الله عز وجل (قل) يانوح (إن افتريته) بالفرض البحت (فعلى إجرامى) أثمى وو بال اجرامى

و هو كسب الذنب وقرىء بلفظ الجمع و ينصره أن فسره الاولون بآثامى (وأنا برىء مما تجرمون)من اجرامكم فى اسناد الافتراء الى فلا وجه لاعراضكم عنى ومعاداتكم لى و قال مقاتل يعنى محمدا عليه الصلاة والسلام ومعناه بل أيقول مشركوا مكة افترى رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر نوح فكأنه انما جىء به فى تضاعيف القصة عند سوق طرف منها تحقيقا لحقيتها وتأكيدا لوقوعها وتشويقا للسامعين الى استماعها لاسيما وقد نص منها طائفة متعلقة بماجرى بينه عليه السلام وبين قومه من المحاجة و بقيت طائفة مستقلة متعلقة بعذابهم (وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك) أى المصرين على الكفر وهو أقناط له عليه السلام من ايمانهم وأعلام لكونه كالمحال الذى لا يصح توقعه (إلا من قد آمن) الامن قد وجد منه ما كان يتوقع من إيمانه وهذا الاستثناء على طريقة قوله تعالى إلا ماقدسلف (فلا تبتئس بما كانوا يفعلون) أى لاتحزن حزن بائس مستكين ولاتغتم بما كانوا يتعاطونه من التكذيب والاستهزاء والايذاء فى هذه المدة الطويلة فقد انتهى أفعالهم وحان وقت الانتقام منهم (واصنع الفلك) متلبسا (بأعيننا) أى بحفظنا وكلاءتنا كأن معه من الله عز و جل حفاظا وحراسا يكلؤنه بأعينهم من التعدى من الكفرة ومن الزيغ فى الصنعة (ووحينا) اليك كيف تصنعها وتعليمنا والهامنا * عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لم يعلم كيف صنعة الفلك فأوحى تعالى اليه أن يصنعها مثل جؤجؤ الطائر والامر للوجوب اذ لا سبيل الى صيانة الروح من الغرق الا به فيجب كوجوبها واللام اما للعهد بان يحمل على أن هذا مسبوق بوحى الله تعالى اليه عليه السلام أنه سيهلكهم بالغرق وينجيه ومن معه بشىء سيصنعه بأمره تعالى ووحيه من شأنه كيت وكيت واسمه كذا وأما للجنس قيل صنعها عليه الصلاة والسلام فى سنتين وقيل فى أربعمائة سنة وكانت من خشب الساج وجعلت ثلاثة بطون حمل فى البطن الاول الوحوش والسباع والهوام وفى البطن الاوسط الدواب والانعام وفى البطن الاعلى جنس البشر هو ومن معه مع مايحتاجون اليه من الزاد وحمل معه جسد آدم عليه الصلاة والسلام وقيل جعل فى الاول الدواب والوحوش وفى الثانى الانس وفى الاعلى الطير قيل كان طولها ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسين ذراعا سمكها ثلاثين ذراعا وقال الحسن كان طولها ألفا ومائتى ذراع وعرضها ستمائة ذراع وقيل ان الحواريين قالوا لعيسى عليه الصلاة والسلام لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة يحدثنا عنها فانطلق بهم حتى انتهى الى كثيب من تراب فأخذ كفا من ذلك التراب فقال أتدرون من هذا قالوا الله ورسوله أعلم قال هذا كعب

ابن حام قال فضرب بعصاه فقال قم باذن الله تعالى فاذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه وقد شاب فقال عيسى عليه الصلاة والسلام أهكذا هلكت قال لا مت وأنا شاب ولكني ظننت أنها الساعة فمن ثمة شبت فقال حدثنا عن سفينة نوح قال كان طولها ألفا ومائتى ذراع وعرضها ستمائة ذراع وكانت ثلاث طبقات طبقة للدواب والوحش وطبقة للانس وطبقة للطير ثم قال عد باذن الله تعالى كما كنت فعاد ترابا (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا) أى لا تراجعنى فيهم ولا تدعنى باستدفاع العذاب عنهم وفيه من المبالغة ماليس فيما لو قيل ولا تدعنى فيهم وحيث كان فيه مايلوح بالسببية أكد التعليل فقيل (إنهم مغرقون) أى محكوم عليهم بالاغراق قد مضى به القضاء وجف القلم فلا سبيل الى كفه ولزمتهم الحجة فلم يبق الا أن يجعلوا عبرة للمعتبرين ومثلا للآخرين (ويصنع الفلك) حكاية حال ماضية لاستحضار صورتها العجيبة وقيل تقديره وأخذ يصنع الفلك أو أقبل يصنعها فاقتصر على يصنع وأياما كان ففيه ملاءمة للاستمرار المفهوم من الجملة الواقعة حالا من ضميره أعنى قوله تعالى (وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه) استهزءوا به لعمله السفينة اما لانهم ما كانوا يعرفونها ولا كيفية استعمالها والانتفاع بها فتعجبوا من ذلك وسخروا منه واما لانه كان يصنعها فى برية بهماء فى أبعد موضع من الماء وفى وقت عزته عزة شديدة وكانوا يتضاحكون ويقولون يانوح صرت نجارا بعد ما كنت نبيا وقيل لانه عليه الصلاة والسلام كان ينذرهم الغرق فلما طال مكثه فيهم ولم يشاهدوا منه عينا ولا أثرا عدوه من باب المحال ثم لما رأوا اشتغاله بأسباب الخلاص من ذلك فعلوا مافعلوا ومدار الجميع انكار أن يكون لعمله عليه السلام عاقبة حميدة مع ما فيه من تحمل المشاق العظيمة التى لا تكاد تطاق واستجهاله عليه السلام فى ذلك (قال ان تسخروا منا) مستجهلين لنا فيما نحن فيه (فأنا نسخر منكم) أى نستجهلكم فيما أنتم عليه واطلاق السخرية عليه للمشاكلة وجمع الضمير فى منا اما لان سخريتهم منه عليه الصلاة والسلام سخرية من المؤمنين أيضا أو لأنهم كانوا يسخرون منهم أيضا الا أنه اكتفى بذكر سخريتهم منه عليه الصلاة والسلام ولذلك تعرض الجميع للمجازاة فى قوله تعالى فانا نسخر منكم الخ فتكافأ الكلام من الجانبين وتعليق استجهاله عليه الصلاة والسلام اياهم بما فعلوا من السخرية باعتبار اظهاره ومشافهته عليه الصلاة والسلام اياهم بذلك والا فعده عليه الصلاة والسلام اياهم جاهلين فيما يأتون ويذرون أمر مطرد لا تعلق له بسخريتهم منهم لكنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يتصدى لاظهاره جريا على نهج الاخلاق الحميدة وانما أظهره جزاء بما صنعوا بعد

اللتيا والتى فان سخريتهم كانت مستمرة ومتجددة حسب تجدد مرورهم عليه ولم يكن يجيبهم فى كل مرة والا لقيل ويقولون أن تسخروا منا الخ بل انما أجابهم بعد بلوغ أذاهم الغاية كما يؤذن به الاستئناف فكأن سائلا سأل فقال فما صنع نوح عند بلوغهم منه هذا المبلغ فقيل قال ان تسخروا منا أى ان تنسبونا فيما نحن بصدده من التأهب والمباشرة لاسباب الخلاص من العذاب الى الجهل وتسخروا منا لاجله فانا ننسبكم اليه فيما أنتم فيه من الاعراض عن استدفاعه بالايمان والطاعة ومن الاستمرار على الكفر والمعاصى والتعرض لاسباب حلول سخط الله تعالى التى من جملتها استجهالكم ايانا وسخريتكم منا والتشبيه فى قوله تعالى (كما تسخرون) أما فى مجرد التحقق والوقوع أو فى التجدد والتكرر حسبما صدر عن ملأ غب ملأ لا فى الكيفيات والاحوال التى لا تليق بشأن النبى عليه الصلاة والسلام فكلا الأمرين واقع فى الحال وقيل نسخر منكم فى المستقبل سخرية مثل سخريتكم اذا وقع عليكم الغرق فى الدنيا والحرق فى الآخرة ولعل مراده نعاملكم معاملة من يفعل ذلك لان نفس السخرية مما لا يكاد يليق بمنصب النبوة ومع ذلك لاسداد له لان حالهم إذ ذاك ليس مما يلائمه السخرية أو ما يجرى مجراها فتأمل (فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه) وهو عذاب الغرق (ويحل عليه) حلول الدين المؤجل (عذاب مقيم) هو عذاب النار الدائم وهو تهديد بليغ ومن عبارة عنهم وهى أما استفهامية فى حيز الرفع أو موصولة فى محل النصب بتعلمون وما فى حيزها ساد مسد مفعولين أو مفعول واحد ان جعل العلم بمعنى المعرفة ولما كان مدار سخريتهم استجهالهم اياه عليه الصلاة والسلام فى مكابدة المشاق الفادحة لدفع مالا يكاد يدخل تحت الصحة على زعمهم من الطوفان ومقاساة الشدائد فى بناء السفينة وكانوا يعدونه عذابا قيل بعد استجهالهم فسوف تعلمون من يأتيه العذاب يعنى أن ما أباشره ليس فيه عذاب لاحق بى فسوف تعلمون من المعذب ولقد أصاب العلم بعد استجهالهم محزه ووصف العذاب بالاخزاء لما فى الاستهزاء والسخرية من لحوق الخزى والعار عادة والتعرض لحلول العذاب المقيم للمبالغة فى التهديد وتخصيصه بالمؤجل وايراد الاول بالاتيان فى غاية الجزالة (حتى إذا جاء أمرنا) حتى هى التى يبتدأ بها الكلام دخلت على الجملة الشرطية وهى مع ذلك غاية لقوله ويصنع وما بينهما حال من الضمير فيه وسخروا منه جواب لكلما وقال استئناف على تقدير سؤال سائل كما ذكرناه وقيل هو الجواب وسخروا منه بدل من مر أو صفة لملأ وقد عرفت أن الحق هو الاول لان المقصود بيان تناهيهم فى ايذائه عليه الصلاة والسلام وتحمله

لاذيتهم لامسارعته عليه الصلاة والسلام الى جوابهم كلما وقع منهم مايؤذيه من الكلام (وفار التنور) نبع منه الماء وارتفع بشدة كما تفور القدر بغليانها والتنور تنور الخبز وهو قول الجمهور روى أنه قيل لنوح عليه الصلاة والسلام اذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب ومن معك فى السفينة فلما نبع الماء أخبرته امرأته فركب وقيل كان تنور آدم عليه الصلاة والسلام وكان من حجارة فصار الى نوح وانما نبع منه وهو أبعد شيء من الماء على خرق العادة وكان فى الكوفة فى موضع مسجدها عن يمين الداخل مما يلى باب كندة وكان عمل السفينة فى ذلك الموضع أوفى الهند أو فى موضع بالشام يقال له عين وردة. وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وعكرمة والزهرى أن التنور وجه الارض وعن قتادة أشرف موضع فى الارض أى أعلاه وعن على رضى الله تعالى عنه فار التنور طلع الفجر (قلنا احمل فيها) أى فى السفينة وهو جواب اذا (من كل) أى من كل نوع لابد منه فى الارض (زوجين) الزوج ماله مشاكل من نوعه فالذكر زوج للانثى كما هى زوج له وقد يطلق على مجموعهما فيقابل الفرد ولازالة ذلك الاحتمال قيل (اثنين) كل منهما زوج للآخر وقرىء على الاضافة وانما قدم ذلك على أهله وسائر المؤمنين لكونه عريقا فيما أمر به من الحمل لانه يحتاج الى مزاولة الاعمال منه عليه الصلاة والسلام فى تمييز بعضه من بعض وتعيين الازواج فانه روى أنه عليه الصلاة والسلام قال يارب كيف أحمل من كل زوجين اثنين فحشر الله تعالى اليه السباع والطير وغيرها فجعل يضرب بيديه فى كل جنس فيقع الذكر فى يده اليمنى والانثى فى اليسرى فيجعلهما فى السفينة وأما البشر فانما يدخل الفلك باختياره فيخف فيه معنى الحمل أو لانها انما تحمل بمباشرة البشر وهم انما يدخلونها بعد حملهم اياها (وأهلك) عطف على زوجين أو على اثنين والمراد امرأته وبنوه ونساؤهم (الا من سبق عليه القول) بانه من المغرقين بسبب ظلمهم فى قوله تعالى ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا الآية والمراد به ابنه كنعان وأمه واعلة فانهما كانا كافرين والاستثناء منقطع ان أريد بالاهل الاهل ايمانا وهو الظاهر كما ستعرفه أو متصل ان أريد به الاهل قرابة ويكفى فى صحة الاستثناء المعلومية عند المراجعة الى أحوالهم والتفحص عن أعمالهم وجىء بعلى لكون السابق ضارا لهم كما جىء باللام فيما هو نافع لهم من قوله عز وجل «ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين» وقوله «إن الذين سبقت لهم منا الحسنى» (ومن آمن) من غيرهم وأفراد الاهل منهم للاستثناء المذكور . وإيثار صيغة الافراد فى آمن محافظة على لفظ من للايذان بقلتهم كما أعرب عنه قوله عز قائلا (وما آمن معه إلا

قليل) قيل كانوا ثمانية نوح عليه الصلاة والسلام وأهله و بنوه الثلاثة ونساؤهم وعن ابن اسحاق كانوا عشرة خمسة رجال وخمس نسوة وعنه أيضاً أنهم كانوا عشرة سوى نسائهم وقيل كانوا اثنين وسبعين رجلا وامرأة . وأولاد نوح سام وحام ويافث ونساؤهم فالجميع ثمانية وسبعون نصفهم رجال ونصفهم نساء واعتبار المعية فى ايمانهم للايماء الى المعية فى مقر الامان والنجاة (وقال) أى نوح عليه الصلاة والصلاة والسلام لمن معه من المؤمنين كما ينبىء عنه قوله تعالى «إن ربى لغفور رحيم» ولو رجع الضمير الى الله تعالى لناسب أن يقال ان ربكم ولعل ذلك بعد ادخال ما أمر بحمله فى الفلك من الازواج كانه قيل فحمل الازواج أو أدخلها فى الفلك وقال للمؤمنين (اركبوا فيها) كما سيأتى مثله فى قوله تعالى «وهى تجرى بهم» والركوب العلو على شىء متحرك ويتعدى بنفسه واستعماله ههنا بكلمة فى ليس لان المأمور به كونهم فى جوفها لافوقها كما ظن فان أظهر الروايات أنه عليه السلام جعل الوحوش ونظائرها فى البطن الاسفل والانعام فى الاوسط وركب هو ومن معه فى الاعلى بل لرعاية جانب المحلية والمكانية فى الفلك والسر فيه أن معنى الركوب العلو على شىء له حركة اما ارادية كالحيوان أو قسرية كالسفينة والعجلة ونحوهما فاذا استعمل فى الاول يوفر له حظ الاصل فيقال ركبت الفرس وعليه قوله عز من قائل «والخيل والبغال والحمير لتركبوها» وان استعمل فى الثانى يلوح بمحلية المفعول بكلمة فى فيقال ركبت فى السفينة وعليه الآية الكريمة وقوله عز قائلا «فاذا ركبوا فى الفلك» وقوله تعالى «فانطلقا حتى اذا ركبا فى السفينة خرقها» (بسم الله) متعلق باركبوا حال من فاعله أى اركبوا مسمين الله تعالى أو قائلين باسم الله (مجريها ومرساها) نصب على الظرفية أى وقت جريها وارسائها على أنهما اسما زمان أو مصدران كالاجراء والارساء بحذف الوقت كقولك آتيك خفوق النجم أو اسما مكان انتصبا بما فى بسم الله من معنى الفعل أو ارادة القول ويجوز أن يكون بسم الله مجريها ومرساها مستقلة من مبتدأ وخبر فى موضع الحال من ضمير الفلك أى اركبوا فيها مجراة ومرساة بسم الله بمعنى التقدير كقوله تعالى «ادخلوها خالدين» أو جملة مقتضية على أن نوحاً أمرهم بالركوب فيها ثم أخبرهم بان اجراءها وارساءها باسم الله تعالى فيكونان كلامين له عليه الصلاة والسلام قيل كان عليه السلام اذا أراد أن يجريها يقول بسم الله فتجرى واذا أراد أن يرسيها يقول بسم الله فترسو ويجوز أن يكون الاسم مقحما كما فى قوله :

* الى الحول ثم اسم السلام عليكما * ويراد بالله اجراؤها وارساؤها أى بقدرته

وأمره وقرىء مجريها ومرسيها على صيغة الفاعل مجرورى المحل صفتين لله عز وجل ومجراها ومرساها بفتح الميم مصدرين أو زمانين أو مكانين من جرى ورسا (إن ربى لغفور) للذنوب والخطايا (رحيم) بعباده ولذلك نجاكم من هذه الطامة والداهية العامة ولولا ذلك لما فعله وفيه دلالة على أن نجاتهم ليست بسبب استحقاقهم لها بل بمحض فضل الله سبحانه وغفرانه ورحمته على ما عليه رأى أهل السنة (وهى تجرى بهم) متعلق بمحذوف دل عليه الامر بالركوب أى فركبوا فيها مسمين وهى تجرى ملتبسة بهم (فى موج كالجبال) وهو ما ارتفع من الماء عند اضطرابه كل موجة من ذلك كجبل فى ارتفاعها وتراكمها وما قيل من أن الماء طبق ما بين السماء والارض وكانت السفينة تجرى فى جوفه كالحوت فغير ثابت والمشهور أنه علا شوامخ الجبال خمسة عشر ذراعا أو أربعين ذراعا ولئن صح ذلك فهذا الجريان انما هو قبل أن يتفاقم الخطب كما يدل عليه قوله تعالى (ونادى نوح ابنه) فان ذلك انما يتصور قبل أن تنقطع العلاقة بين السفينة والبر إذ حينئذ يمكن جريان ما جرى بين نوح عليه الصلاة والسلام وبين ابنه من المفاوضة بالاستدعاء الى السفينة والجواب بالاعتصام بالجبل . وقرىء ابنها وابنه بحذف الالف على أن الضمير لامرأته وكان ربيبه وما يقال من أنه كان لغير رشدة لقوله تعالى فخانتاهما فارتكاب عظيمة لا يقادر قدرها فان جناب الانبياء صلوات الله تعالى عليهم وسلامه أرفع من أن يشار اليه باصبع الطعن وانما المراد بالخيانة الخيانة فى الدين. وقرىء ابناه على الندبة ولكونها حكاية سوغ حذف حرفها وأنت خبير بأنه لا يلائمه الاستدعاء الى السفينة فانه صريح فى أنه لم يقع فى حياته يأس بعد (وكان فى معزل) أى فى مكان عزل فيه نفسه عن أبيه وأخوته وقومه بحيث لم يتناوله الخطاب باركبوا واحتاج الى النداء المذكور وقيل فى معزل عن الكفار قد انفرد عنهم وظن نوح أنه يريد مفارقتهم ولذلك دعاه الى السفينة وقيل كان ينافق أباه فظن أنه مؤمن وقيل كان يعلم أنه كافر الى ذلك الوقت لكنه عليه الصلاة والسلام ظن أنه عند مشاهدة تلك الاهوال ينزجر عما كان عليه ويقبل الايمان وقيل لم يكن الذى تقدم من قوله تعالى الامن سبق عليه القول نصا فى كون ابنه داخلا تحته بل كان كالمجمل فحملته شفقة الابوة على ذلك (يابنى) بفتح الياء اقتصارا عليه من الالف المبدلة من ياء الاضافة فى قولك يابنيا وقرىء بكسر الياء اقتصارا عليه من ياء الاضافة أو سقطت الياء والالف لالتقاء الساكنين لان الراء بعدهما ساكنة (اركب معنا) قرأ أبو عمرو والكسائى وحفص بادغام الباء فى الميم لتقاربهما فى المخرج وانما أطلق

الركوب عن ذكر الفلك لتعينها وللايذان بضيق المقام حيث حال الجريض دون القريض مع اغناء المعية عن ذلك (ولا تكن مع الكافرين) أى فى المكان وهو وجه الارض خارج الفلك لافى الدين وان كان ذلك مما يوجبه كما يوجب ركوبه معه عليه الصلاة والسلام كونه معه فى الايمان لانه عليه الصلاة والسلام بصدد التحذير عن الهلكة فلا يلائمه النهى عن الكفر (قال سآوى إلى جبل) من الجبال (يعصمنى) بارتفاعه (من الماء) زعما منه أن ذلك كسائر المياه فى أزمنة السيول المعتادة التى ربما يتقى منها بالصعود الى الربا وأنى له ذلك وقد بلغ السيل الزبى وجهلا بأن ذلك انما كان لاهلاك الكفرة وأن لامحيص من ذلك سوى الالتجاء الى ملجأ المؤمنين فلذلك أراد عليه الصلاة والسلام أن يبين له حقيقة الحال ويصرفه عن ذلك الفكر المحال وكان مقتضى الظاهر أن يجيب بما ينطبق عليه كلامه ويتعرض لنفى ما أثبته للجبل من كونه عاصما له من الماء بأن يقول لا يعصمك منه مفيداً لنفى وصف العصمة عنه فقط من غير تعرض لنفيه عن غيره ولا لنفى الموصوف أصلا لكنه عليه الصلاة والسلام حيث (قال لا عاصم اليوم من أمر الله) سلك طريقة نفى الجنس المنتظم لنفى جميع أفراد العاصم ذاتا وصفة كما فى قولهم ليس فيه داع ولا مجيب أى أحد من الناس للمبالغة فى نفى كون الجبل عاصما بالوجهين المذكورين وزاد اليوم للتنبيه على أنه ليس كسائر الأيام التى تقع فيها الوقائع وتلم فيها الملمات المعتادة التى ربما يتخلص من ذلك بالالتجاء الى بعض الاسباب العادية وعبر عن الماء فى محل اضماره بأمر الله أى عذابه الذى أشير اليه حيث قيل حتى اذا جاء أمرنا تفخيما لشأنه وتهويلا لامره وتنبيها لابنه على خطئه فى تسميته ماء وتوهم أنه كسائر المياه التى يتفصى منها بالهرب الى بعض المهارب المعهودة وتعليلا للنفى المذكور فان أمر الله لايغالب وعذابه لايرد وتمهيداً لحصر العصمة فى جناب الله عز جاره بالاستثناء كأنه قيل لاعاصم من أمر الله إلا هو وانما قيل (إلا من رحم) تفخيما لشأنه الجليل بالابهام ثم التفسير وبالاجمال ثم التفصيل واشعارا بعلية رحمته فى ذلك بموجب سبقها على غضبه وكل ذلك لكمال عنايته عليه الصلاة والسلام بتحقيق مايتوخاه من نجاة ابنه ببيان شأن الداهية وقطع اطماعه الفارغة وصرفه عن التعلل بما لايغنى عنه شيئاً وارشاده الى العياذ بالمعاذ الحق عز حماه وقيل لامكان يعصم من أمر الله الامكان من رحمه الله وهو الفلك وقيل معنى لاعاصم لاذا عصمة الا من رحمه الله تعالى (وحال بينهما الموج) أى بين نوح وبين ابنه فانقطع مابينهما من المجاوبة لابين ابنه وبين الجبل لقوله تعالى (فكان من المغرقين) اذهو انما يتفرع على حيلولة

الموج بينه عليه الصلاة والسلام وبين ابنه لابينه وبين الجبل لانه بمعزل من كونه عاصما وان لم يحل بينه وبين الملتجىء اليه موج وفيه دلالة على هلاك سائر الكفرة على أبلغ وجه فكان ذلك أمرا مقررا لوقوع غير مفتقر الى البيان وفى إيراد كان دون صار مبالغة فى كونه منهم (وقيل ياأرض ابلعى) أى انشفى استعير له من ازدراد الحيوان مايأكله للدلالة على أن ذلك ليس كالنشف المعتاد التدريجى (ماءك) أى ماعلى وجهك من ماء الطوفان دون المياه المعهودة فيها من العيون والانهار وعبر عنه بالماء بعد ماعبر عنه فيما سلف بأمر الله تعالى لان المقام مقام النقص والتقليل لامقام التفخيم والتهويل (وياسماء أقلعى) أى امسكى عن ارسال المطر يقال أقلعت السماء اذا انقطع مطرها وأقلعت الحمى أى كفت (وغيض الماء) أى نقص مابين السماء والارض من الماء (وقضى الامر) أى أنجز ماوعد الله تعالى نوحا من اهلاك قومه وأنجائه بأهله أو أتم الامر (واستوت) أى استقرت الفلك (على الجودى) هو جبل بالموصل أوبالشام أو بآمل روى أنه عليه الصلاة والسلام ركب فى الفلك فى عاشر رجب ونزل عنها فى عاشر المحرم فصام ذلك اليوم شكرا فصار سنة (وقيل بعداً للقوم الظالمين) أى هلاكا لهم والتعرض لوصف الظلم للاشعار بعليته للهلاك ولتذكيره ماسبق من قوله تعالى «ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون» ولقد بلغت الآية الكريمة من مراتب الاعجاز قاصيتها وملكت من غرر المزايا ناصيتها وقد تصدى لتفصيلها المهرة المتقنون ولعمرى ان ذلك فوق ما يصفه الواصفون فحرى بنا أن نوجز الكلام فى هذا الباب ونفوض الامر الى تأمل أولى الالباب والله عنده علم الكتاب (ونادى نوح ربه) أى أراد ذلك بدليل الفاء فى قوله تعالى (فقال رب إن ابنى من أهلى» وقد وعدتنى انجاءهم فى ضمن الامر بحملهم فى الفلك أو النداء على الحقيقة والفاء لتفصيل ما فيه من الاجمال (وإن وعدك الحق) أى وعدك ذلك أو أن كل وعد تعده حق لا يتطرق اليه خلف فيدخل فيه الوعد المعهود دخولا أوليا (وأنت أحكم الحاكمين) لانك أعلمهم وأعدلهم أو أنت أكثر حكمة من ذوى الحكم على ان الحاكم من الحكمة كالدارع من الدرع وهذا الدعاء منه عليه الصلاة والسلام على طريقة دعاء أيوب عليه الصلاة والسلام اذ نادى ربه انى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين (قال يانوح) لما كان دعاؤه عليه الصلاة والسلام بتذكير وعده جل ذكره مبنيا على كون كنعان من أهله نفى أولا كونه منهم بقوله تعالى (إنه ليس من أهلك) أى ليس منهم أصلا لان مدار الاهلية هو القرابة الدينية ولا علاقة بين المؤمن والكافر أو ليس من أهلك

الذين أمرتك بحملهم فى الفلك لخروجه عنهم بالاستثناء وعلى التقديرين ليس هو من الذين وعد بانجائهم ثم علل كونه منهم على طريقة الاستئناف التحقيقى بقوله تعالى (إنه عمل غير صالح) أصله انه ذو عمل غير صالح فجعل نفس العمل مبالغة كما فى قول الخنساء ؛ فأنما هى أقبال و أدبار ؛ وايثار غير صالح على فاسد اما لان الفاسد ربما يطلق على مافسد ومن شأنه الصلاح فلا يكون نصافيما هو من قبيل الفاسد المحض كالقتل والمظالم واما للتلويح بان نجاة من نجا انما هى لصلاحه وقرأ الكسائى و يعقوب انه عمل غير صالح أى عملا غير صالح ولما كان دعاؤه عليه الصلاة والسلام مبنيا على ماذكر من اعتقاد كون كنعان من أهله وقد نفى ذلك وحقق ببيان علته فرع على ذلك النهى عن سؤال انجائه الا أنه جيء بالنهى على وجه عام يندرج فيه ذلك اندراجا أوليا فقيل (فلا تسئلن) أى اذا وقفت على جلية الحال فلا تطلب منى (ماليس لك به علم) أى مطلبا لاتعلم يقينا أن حصوله صواب وموافق للحكمة على تقدير كون ما عبارة عن المسئول الذى هو مفعول للسؤال أو طلبا لاتعلم أنه صواب على تقدير كونه عبارة عن المصدر الذى هو مفعول مطلق فيكون النهى واردا بصريحه فى كل من معلوم الفساد ومشتبه الحال ويجوز أن يكون المعنى ماليس لك علم بانه صواب أو غير صواب فيكون النهى واردا فى مشتبه الحال ويفهم منه حال معلوم الفساد بالطريق الاولى وعلى التقديرين فهو عام يندرج تحته ما نحن فيه كما ذكرناه وهذا كما ترى صريح فى أن نداءه عليه الصلاة والسلام ربه عزوعلا ليس استفسارا عن سبب عدم انجاء ابنه مع سبق وعده بانجاء أهله وهو منهم كما قيل فان النهى عن استفسار مالم يعلم غيره موافق للحكمة اذ عدم العلم بالشيء داع إلى الاستفسار عنه لا إلى تركه بل هو دعاء منه لانجاء ابنه حين حال الموج بينهما ولم يعلم بهلاكه بعد أما بتقريبه إلى الفلك بتلاطم الامواج أو بتقريبها اليه وقيل أو بانجائه فى قلة الجبل ويأباه تذكير الوعد فى الدعاء فانه مخصوص بالانجاء فى الفلك وقوله تعالى «لاعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم» ومجرد حيلولة الموج بينهما لا يستوجب هلاكه فضلا عن العلم به لظهور امكان عصمة الله تعالى اياه برحمته وقد وعد بانجاء أهله ولم يكن ابنه مجاهرا بالكفر كما ذكرناه حتى لايجوز عليه عليه السلام أن يدعوه إلى الفلك او يدعو ربه لانجائه واعتزاله عنه عليه الصلاة والسلام وقصده الالتجاء إلى الجبل ليس بنص فى الاصرار على الكفر لظهور جواز أن يكون ذلك لجهله بانحصار النجاة فى الفلك وزعمه أن الجبل أيضا يجرى مجراه أو لكراهة الاحتباس فى الفلك بل قوله

سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء بعد ماقال له نوح عليه الصلاة والسلام ولاتكن مع الكافرين ربما يطمعه عليه السلام فى إيمانه حيث لم يقل أكون معهم أو سنأوى أو يعصمنا فان افراد نفسه بنسبة الفعلين المذكورين ربما يشعر بانفراده من الكافرين واعتزاله عنهم وامتثاله ببعض ماأمره به نوح عليه الصلاة والسلام إلا أنه عليه الصلاة والسلام لو تأمل فى شأنه حق التأمل وتفحص عن أحواله فى كل مايأتى ويذر لما اشتبه عليه أنه ليس بمؤمن وأنه المستثنى من أهله ولذلك قيل (أنى أعظك أن تكون من الجاهلين) فعبر عن ترك الأولى بذلك وقرىء فلا تسئلن بغير ياء الاضافة وبالنون الثقيلة بياء وبغير ياء (قال رب إنى أعوذ بك أن أسألك) أى أطلب منك من بعد (ماليس لى به علم) أى مطلوباً لاأعلم أن حصوله مقتضى الحكمة أو طلباً لاأعلم أنه صواب سواء كان معلوم الفساد أو مشتبه الحال أو لاأعلم أنه صواب أو غير صواب على مامر وهذه توبة منه عليه السلام مما وقع منه وانما لم يقل أعوذ بك منه أو من ذلك مبالغة فى التوبة واظهارا للرغبة والنشاط فيها وتبركا بذكر مالقنه الله تعالى وهو أبلغ من أن يقول أتوب اليك أن أسألك لما فيه من الدلالة على كون ذلك أمرا هائلا محذورا لامحيص منه إلا بالعوذ بالله تعالى وأن قدرته قاصرة عن النجاة من المكاره الا بذلك (وإلا تغفرلى) ماصدر عنى من السؤال المذكور (وترحمنى) بقبول توبتى (أكن من الخاسرين) أعمالا بسبب ذلك فان الذهول عن شكر الله تعالى لاسيما عند وصول مثل هذه النعمة الجليلة التى هى النجاة وهلاك الأعداء والاشتغال بمالا يعنى خصوصا بمبادى خلاص من قيل فى شأنه انه عمل غير صالح والتضرع إلى الله تعالى فى أمره معاملة غير رابحة وخسران مبين وتأخير ذكر هذا النداء عن حكاية الامر الوارد على الارض والسماء وما يتلوه من زوال الطوفان وقضاء الامر واستواء الفلك على الجودى والدعاء بالهلاك على الظالمين مع أن حقه أن يذكر عقيب قوله تعالى فكان من المغرقين حسبما وقع فى الخارج اذ حينئذ يتصور الدعاء بالانجاء لابعد العلم بالهلاك ليس لما قيل من استقلاله بغرض مهم هو جعل قرابة الدين غامرة لقرابة النسب وأن لايقدم فى الامور الدينية الاصولية الا بعد اليقين قياساً على ماوقع فى قصة البقرة من تقديم ذكر الامر بذبحها على ذكر القتيل الذى هو أول القصة وكان حقها أن يقال وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها فقلنا اذبحوا بقرة فاضربوه ببعضها كما قرر فى موضعه فان تغيير الترتيب هناك للدلالة على كمال سوء حال اليهود بتعديد جناياتهم المتنوعة وتثنية التقريع عليهم بكل نوع على حدة فقوله

تعالى «وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة» الخ لتقريعهم على الاستهزاء وترك المسارعة الى الامتثال ومايتبع ذلك وقوله تعالى «وإذ قتلتم نفسا» الخ للتقريع على قتل النفس المحرمة ومايتبعه من الامور العظيمة ولو قصت القصة على ترتيبها لفات الغرض الذي هو تثنية التقريع ولظن أن المجموع تقريع واحد وأما مانحن فيه فليس مما يمكن أن يراعى فيه مثل تلك النكتة أصلا وماذكر من جعل القرابة الدينية غامرة للقرابة النسبية الخ لايفوت على تقدير سوق الكلام على ترتيب الوقوع أيضا بل لان ذكر هذا النداء كما ترى مستدع لذكر مامر من الجواب المستدعى لذكر مامر من توبته عليه الصلاة والسلام المؤدى ذكرها الى ذكر قبولها فى ضمن الامر الوارد بنزوله عليه الصلاة والسلام من الفلك بالسلام والبركات الفائضة عليه وعلى المؤمنين حسبما سيجيء مفصلا ولاريب في هذه أن المعاني آخذ بعضها بحجزة بعض بحيث لايكاد يفرق فى الآيات الكريمة المنطوية عليها بعضها من بعض وان ذلك انما يتم بتمام القصة ولا ريب أن ذلك انما يكون بتمام الطوفان فلا جرم اقتضى الحال ذكر تمامها قبل هذا النداء وذلك انما يكون عند ذكر كون كنعان من المغرقين ولهذه النكتة ازداد حسن موقع الايجاز البليغ. وفيه فائدة أخرى هى التصريح بهلاكه من أول الامر ولو ذكر النداء الثانى عقيب قوله تعالى فكان من المغرقين لربما توهم من أول الامر الى أن يرد قوله انه ليس من أهلك أنه ينجو بدعائه عليه الصلاة والسلام فنص على هلاكه من أول الامر ثم ذكر الامر الوارد على الارض والسماء الذي هو عبارة عن تعلق الارادة الربانية الازلية بماذكر من الغيض والاقلاع وبين بلوغ أمر الله محله وجريان قضائه ونفوذ حكمه عليهم بهلاك من هلك ونجاة من نجا بتمام ذلك الطوفان واستواء الفلك على الجودي فقصت القصة الى هذه المرتبة وبين ذلك أي بيان. ثم تعرض لما وقع فى تضاعيف ذلك مما جرى بين نوح عليه السلام وبين رب العزة جلت حكمته فذكر بعد توبته عليه الصلاة والسلام قبولها بقوله (قيل يانوح اهبط) أى انزل من الفلك وقرىء بضم الباء (بسلام) ملتبسا بسلامة من المكاره كائنة (منا) أو بسلام وتحية منا عليك كما قال سلام على نوح فى العالمين (وبركات عليك) أى خيرات نامية فى نسلك ومايقوم به معاشك ومعاشهم من أنواع الارزاق وقرىء بركة وهذا أعلام وبشارة من الله تعالى بقبول توبته وخلاصه من الخسران بفيضان أنواع الخيرات عليه فى كل مايأتى ومايذر (وعلى أمم) ناشئة (ممن معك) الى يوم القيامة متشعبة منهم فمن ابتدائية والمراد الامم المؤمنة المتناسلة ممن معه الى يوم القيامة (وأمم سنمتعهم) أى ومنهم على انه خبر

حذف لدلالة ماسبق عليه فان ايراد الامم المبارك عليهم المتشعبة منهم نكرة يدل على ان بعض من يتشعب منهم ليسوا على صفتهم يعنى ليس جميع من تشعب منهم مسلما ومباركا عليه بل منهم أمم يمتعون فى الدنيا معذبون فى الآخرة وعلى هذا لايكون الكائنون مع نوح عليه السلام مسلما ومباركا عليهم صريحا وانما يفهم ذلك من كونهم مع نوح عليه الصلاة والسلام ومن كون ذرياتهم كذلك بدلالة النص ويجوز أن تكون من بيانية أى وعلى أمم هم الذين معك وانما سموا أمما لانهم أمم متحزبة وجماعات متفرقة أو لان جميع الامم انما تشعبت منهم فحينئذ يكون المراد بالامم المشار اليهم فى قوله تعالى وأمم سنمتعهم بعض الامم المتشعبة منهم وهى الامم الكافرة المتناسلة الى يوم القيامة ويبقى أمر الامم المؤمنة الناشئة منهم مبهما غير متعرض له ولا مدلول عليه ومع ذلك ففى دلالة المذكور على خبره المحذف خفاء لان من المذكورة بيانية والمحذوفة تبعيضية أو ابتدائية فتأمل (ثم يمسهم) اما فى الآخرة أو فى الدنيا أيضا (منا عذاب أليم)عن محمد بن كعب القرظى دخل فى ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة الى يوم القيامة وفيما بعده من المتاع والعذاب كل كافر وعن ابن زيد هبطوا والله عنهم راض ثم أخرج منهم نسلا منهم من رحم ومنهم من عذب وقيل المراد بالأمم الممتعة قوم هود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام وبالعذاب ما نزل بهم (تلك) اشارة الى ماقص من قصة نوح عليه الصلاة والسلام اما لكونها بتقضيها فى حكم البعيد أو للدلالة على بعد منزلتها وهى مبتدأ خبره (من أنباء الغيب) أى من جنسها أى ليست من قبيل سائر الانباء بل هى نسيج وحدها منفردة عما عداها أو بعضها (نوحيها أليك) خبر ثان والضمير لها أى موحاة اليك أو هو الخبر ومن أنباء متعلق به فالتعبير بصيغة المضارع لاستحضار الصورة أو حال من أنباء الغيب أى موحاة اليك (ماكنت تعلمها أنت ولا قومك) خبر آخر أى مجهولة عندك وعند قومك (من قبل هذا) أى من قبل ايحائنا اليك وأخبارك بها أو من قبل هذا العلم الذى كسبته بالوحي أو من قبل هذا الوقت أو حال من الهاء فى نوحيها أو الكاف فى اليك أى جاهلا أنت وقومك بها وفى ذكر جهلهم تنبيه على أنه عليه الصلاة والسلام لم يتعلمه اذ لم يخالط غيرهم وانهم مع كثرتهم لما لم يعلموه فكيف بواحد منهم (فاصبر) متفرع على الايحاء أو العلم المستفاد منه المدلول عليه بقوله ماكنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا أى واذ قد أوحيناها اليك أو علمتها بذلك فاصبر على مشاق تبليغ الرسالة وأذية قومك كما صبر نوح على ماسمعته من أنواع البلايا فى هذه المدة المتطاولة وهذا ناظر الى ماسبق من قوله

تعالى «فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك» الخ (إن العاقبة) بالظفر فى الدنيا وبالفوز فى الآخرة (للمتقين) كما شاهدته فى نوح عليه الصلاة والسلام وقومه ولك فيه أسوة حسنة فهى تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتعليل للأمر بالصبر فان كون العاقبة الحميدة للمتقين وهو فى أقصى درجات التقوى والمؤمنون كلهم متقون مما يسليه عليه الصلاة والسلام ويهون عليه الخطوب ويذهب عنه ما عسى يعتريه من ضيق صدره وهذا على تقدير أن يراد بالتقوى الدرجة الأولى منه أعنى التوقى من العذاب المخلد بالتبرؤ من الشرك وعليه قوله تعالى «وألزمهم كلمة التقوى» ويجوز أن يراد الدرجة الثالثة منه وهى أن يتنزه عما يشغل سره عن الحق ويتبتل اليه بشراشره وهو التقوى الحقيقى المطلوب بقوله تعالى «اتقوا الله حق تقاته» فان التقوى بهذا المعنى منطو على الصبر المذكور فكأنه قيل فاصبر فان العاقبة للصابرين (وإلى عاد) متعلق بمضمر معطوف على قوله تعالى أرسلنا فى قصة نوح وهو الناصب لقوله تعالى (أخاهم) أى وأرسلنا الى عاد أخاهم أى واحداً منهم فى النسب كقولهم يا أخا العرب. وتقديم المجرور على المنصوب ههنا للحذار عن الاضمار قبل الذكر وقيل متعلق بالفعل المذكور فيما سبق وأخاهم معطوف على نوحا وقد مر فى سورة الاعراف وقوله تعالى (هوداً) عطف بيان لاخاهم وكان عليه الصلاة والسلام من جملتهم فانه هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن العوص بن ارم بن سام بن نوح عليه الصلاة والسلام وقيل هود بن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح ابن عم أبى عاد وانما جعل منهم لانهم أفهم لكلامه وأعرف بحاله وأرغب فى اقتفائه (قال) لما كان ذكر ارساله عليه الصلاة والسلام اليهم مظنة للسؤال عما قال لهم ودعاهم اليه أجيب عنه بطريق الاستئناف فقيل قال (يا قوم اعبدوا الله) أى وحده كما ينبىء عنه قوله تعالى (مالكم من إله غيره) فانه استئناف يجرى مجرى البيان للعبادة المأمور بها والتعليل للأمر بها كأنه قيل خصوه بالعبادة ولا تشركوا بها شيئاً اذ ليس لكم من اله سواه وغيره بالرفع صفة لاله باعتبار محله وقرىء بالجر حملا له على لفظه (إن أنتم) ما أنتم باتخاذكم الاصنام شركاء له أو بقولكم ان الله أمرنا بعبادتها (إلا مفترون) عليه تعالى عن ذلك علوا كبيراً (يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجرى إلا على الذى فطرنى) خاطب به كل نبى قومه ازاحة لما عسى يتوهمونه وامحاضاً للنصيحة فانها ما دامت مشوبة بالمطامع بمعزل عن التأثير. وايراد الموصول للتفخيم وجعل الصلة فعل الفطرة لكونه أقدم النعم الفائضة من جناب الله تعالى المستوجبة للشكر الذى لا يتأتى الا بالجريان على موجب أمره الغالب معرضا على المطالب الدنيوية التى من جملتها الأجر (أفلا تعقلون)

أى أتغفلون عن هذه القضية أو ألا تتفكرون فيها فلا تعقلونها أو أتجهلون كل شيء فلا تعقلون شيئا أصلا فان هذا مما لا ينبغى أن يخفى على أحد من العقلاء (وياقوم استغفروا ربكم) أى اطلبوا مغفرته لما سلف منكم من الذنوب بالايمان والطاعة (ثم توبوا إليه) أى توسلوا اليه بالتوبة وأيضا التبرؤ من الغير انما يكون بعد الايمان بالله تعالى والرغبة فيما عنده (يرسل السماء) أى المطر (عليكم مدرارا) أى كثير الدرور (ويزدكم قوة) مضافة ومنضمة (إلى قوتكم) أى يضاعفها لكم وانما رغبهم بكثرة المطر لانهم كانوا أصحاب زروع وعمارات وقيل حبس الله تعالى عنهم القطر وأعقم أرحام نسائهم ثلاث سنين فوعدهم عليه الصلاة والسلام كثرة الامطار وتضاعف القوة بالتناسل على الايمان والتوبة (ولا تتولوا) أى لا تعرضوا عما دعوتكم اليه (مجرمين) مصرين على ما كنتم عليه من الاجرام (قالوا ياهود ماجئتنا ببينة) أى بحجة تدل على صحة دعواك وانما قالوه لفرط عنادهم وعدم اعتدادهم بما جاءهم من البينات الفائتة للحصر (وما نحن بتاركى آلهتنا) أى بتاركى عبادتها (عن قولك) أى صادرين عنه أى صادرا تركنا عن ذلك باسناد حال الوصف الى الموصوف ومعناه التعليل على أبلغ وجه لدلالته على كونه علة فاعلية ولا تفيده الباء واللام وهذا كقولهم المنقول عنهم فى سورة الاعراف «أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا» (وما نحن لك بمؤمنين) أى بمصدقين فى شيء مما تأتى وتذر فيندرج تحته ما دعاهم اليه من التوحيد وترك عبادة الآلهة وفيه من الدلالة على شدة الشكيمة وتجاوز الحد فى العتو ما لا يخفى (إن نقول إلا اعتراك) أى مانقول الا قولنا اعتراك أى أصابك (بعض آلهتنا بسوء) بجنون لسبك اياها وصدك عن عبادتها وحطك لها عن رتبة الألوهية والمعبودية بما مر من قولك مالكم من اله غيره ان أنتم الا مفترون . والتنكير فى سوء للتقليل كانهم لم يبالغوا فى السوء كما ينبىء عنه نسبة ذلك الى بعض آلهتهم دون كلها والجملة مقول القول والا لغو لان الاستثناء مفرغ وهذا الكلام مقرر لما مر من قولهم «وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين» فان اعتقادهم بكونه عليه الصلاة والسلام كما قالوا وحاشاه عن ذلك يوجب عدم الاعتداد بقوله وعده من قبيل الخرافات فضلا عن التصديق والعمل بمقتضاه يعنون انا لا نعد كلامك الا من قبيل مالا يحتمل الصدق والكذب من الهذيانات الصادرة عن المجانين فكيف نصدقه ونؤمن به ونعمل بموجبه ولقد سلكوا فى طريقة المخالفة والعناد الى سبيل الترقى من الادنى الى الاعلى حيث أخبروا أولا

عن عدم مجيئه بالبينة مع احتمال كون ما جاء به عليه الصلاة والسلام حجة فى نفسه وان لم تكن واضحة الدلالة على المراد وثانيا عن ترك الامتثال بقوله عليه الصلاة والسلام بقولهم وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك مع امكان تحقيق ذلك بتصديقهم له عليه الصلاة والسلام فى كلامه ثم نفوا تصديقهم له عليه الصلاة والسلام بقولهم وما نحن لك بمؤمنين مع كون كلامه عليه الصلاة والسلام مما يقبل التصديق ثم نفوا عنه تلك المرتبة أيضا حيث قالوا ماقالوا قاتلهم الله أنى يؤفكون (قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه) أى من اشراككم من دون الله أى من غير أن ينزل به سلطانا كما قال فى سورة الاعراف «أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان» أو مما تشركونه من آلهة غير الله أجاب به عن مقالاتهم الحمقاء المبنية على اعتقاد كون آلهتم مما يضر أو ينفع وأنها بمعزل من ذلك ولما كان ما وقع أولا منه عليه الصلاة والسلام فى حق آلهتهم من كونها بمعزل عن الالوهية انما وقع فى ضمن الامر بعبادة الله تعالى واختصاصه بها قد شق عليهم ذلك وعدوه مما يورث شينا حتى زعموا أنها تصيبه عليه الصلاة والسلام بسوء مجازاة لصنيعه معها صرح عليه الصلاة والسلام بالحق وصدع به حيث أخبر ببراءته القديمة عنها بالجملة الاسمية المصدرة بان وأشهد الله على ذلك وأمرهم بأن يسمعوا ذلك ويشهدوا به استهانة بهم ثم أمرهم بالاجتماع والاحتشاد مع آلهتهم جميعا دون بعض منها حسبما يشعر به قولهم بعض آلهتنا والتعاون فى ايصال الكيد اليه عليه الصلاة والسلام ونهاهم عن الانظار والامهال فى ذلك فقال (فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون) أى ان صح مالوحتم به من كون آلهتكم مما يقدر على اضرار من ينال منها ويصد عن عبادتها ولو بطريق ضمنى فانى برىء منها فكونوا أنتم معها جميعا وباشروا كيدى ثم لا تمهلونى ولا تسامحونى فى ذلك فالفاء لتفريع الامر على زعمهم فى قدرة آلهتهم على ماقالوا و على البراءة كليهما وهذا من اعظم المعجزات فانه عليه الصلاة والسلام كان رجلا مفردا بين الجم الغفير والجمع الكثير من عتاة عاد الغلاظ الشداد وقد خاطبهم بما خاطبهم وحقرهم وآلهتهم وهيجهم على مباشرة مبادىء المضادة والمضارة وحثهم على التصدى لاسباب المعازة والمعارة فلم يقدروا على مباشرة شىء مما كلفوه وظهر عجزهم عن ذلك ظهورا بينا كيف لا وقد التجأ الى ركن منيع رفيع واعتصم بحبل متين حيث قال (إنى توكلت على الله ربى وربكم) يعنى انكم وان بذلتم فى مضارتى مجهودكم لا تقدرون على شىء مما تريدون بى فانى متوكل على الله تعالى وانما جىء بلفظ الماضى

لكونه أدل على الانشاء المناسب للمقام وواثق بكلاءتى وحفظى عن غوائلكم وهو مالكى ومالككم لايصدر عنكم شيء ولايصيبنى أمر ألا بارادته ومشيئته ثم برهن عليه بقوله (ما من دابه إلا هو آخذ بناصيتها) أى الا هو مالكها قادر عليها يصرفها كيف يشاء غير مستعصية عليه فان الاخذ بالناصية تمثيل لذلك (إن ربى على صراط مستقيم) تعليل لما يدل عليه التوكل من عدم قدرتهم على اضراره أى هو على الحق والعدل فلا يكاد يسلطكم على اذ لايضيع عنده معتصم ولايفتات عليه ظالم والاقتصار على اضافة الرب الى نفسه اما بطريق الاكتفاء لظهور المراد واما لان فائدة كونه تعالى مالكا لهم أيضا راجعة اليه عليه الصلاة والسلام (فأن تولوا)أى تتولوا بحذف أحدى التاءين أى أن تستمروا على ما كنتم عليه من التولى من و الاعراض (فقد أبلغتكم ما أرسلت به اليكم) أى لم أعاتب على تفريط فى الابلاغ وكنتم محجوجين بان بلغكم الحق فابيتم الا التكذيب والجحود (ويستخلف ربى قوما غيركم) استئناف بالوعيد لهم بأن الله تعالى يهلكهم ويستخلف فى ديارهم وأموالهم قوما آخرين أوعطف على الجواب بالفاء ويؤيده قراءة ابن مسعود رضى الله عنه بالجزم عطفا على الموضع كأنه قيل فان تولوا يعذرنى ويهلككم ويستخلف مكانكم آخرين. وفى اقتصار اضافة الرب عليه عليه السلام مز الى اللطف به والتدمير للمخاطبين (ولاتضرونه) بتوليكم شيئا) من الضرر لاستحالة ذلك عليه ومن جزم ويستخلف أسقط منه النون (إن ربى على كل شيء حفيظ) أى رقيب مهيمن فلا تخفى عليه أعمالكم فيجازيكم بحسبها أو حافظ مستول على كل شيء فكيف يضره شيء وهو الحافظ للكل (ولما جاء أمرنا) أى نزل عذابنا وفى التعبير عنه بالأمر مضافا الى ضميره جل جلاله وعن نزوله بالمجيء مالا يخفى من التفخيم والتهويل أو رد أمرنا بالعذاب (نجينا هودا والذين آمنوا معه) وكانوا أربعة آلاف (برحمة)عظيمة كائنة له (منا) وهى الايمان الذى أنعمنا به عليهم بالتوفيق له والهداية اليه (ونجيناهم من عذاب غليظ) أى كانت تلك التنجية تنجية من عذاب غليظ وهى السموم التى كانت تدخل أنوف الكفرة وتخرج من أدبارهم فتقطعهم أربا أربا وقيل أريد بالثانية التنجية من عذاب الآخرة ولا عذاب أغلظ منه وأشد وهذه التنجية وان لم تكن مقيدة بمجيء الامر لكن جيء بها تكملة للنعمة عليهم وتعريضا بان المهلكين كما عذبوا فى الدنيا بالسموم فهم معذبون فى الآخرة بالعذاب الغليظ (وتلك عاد) أنث اسم الاشارة باعتبار القبيلة أو لان الاشارة الى قبورهم وآثارهم (جحدوا بآيات ربهم) كفروا بها بعد ما استيقنوها(وعصوا رسله)

جمع الرسل مع أنه لم يرسل اليهم غير هود عليه الصلاة والسلام تفظيعا لحالهم واظهارا لكمال كفرهم وعنادهم ببيان أن عصيانهم له عليه الصلاة والسلام عصيان لجميع الرسل السابقين واللاحقين لاتفاق كلمتهم على التوحيد لانفرق بين أحد من رسله فيجوز أن يراد بالآيات ما أتى به هود وغيره من الانبياء عليهم السلام وفيه زيادة ملاءمة لما تقدم من جميع الآيات وما تأخر من قوله (واتبعوا أمر كل جبار عنيد) من كبرائهم ورؤسائهم الدعاة الى الضلال والى تكذيب الرسل فكأنه قيل عصوا كل رسول واتبعوا أمر كل جبار وهذا الوصف ليس كما سبق من جحود الآيات وعصيان الرسل فى الشمول لكل فرد فرد منهم فان الاتباع للامر من أوصاف الأسافل دون الرؤساء وعنيد فعيل من عند عندا وعندا اذا طغا والمعنى عصوا من دعاهم الى الهدى وأطاعوا من حداهم الى الردى (وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة) ابعادا عن الرحمة وعن كل خير أى جعلت اللعنة لازمة لهم وعبر عن ذلك بالتبعية للمبالغة فكأنها لاتفارقهم وان ذهبوا كل مذهب بل تدور معهم حيثما داروا ولوقوعه فى صحبة اتباعهم رؤساءهم يعنى انهم لما اتبعوهم اتبعوا ذلك جزاء لصنيعهم جزاء وفاقا (ويوم القيامة) أى أتبعوا يوم القيامة أيضا لعنة وهى عذاب النار المخلد حذفت لدلالة الاولى عليها وللايذان بكون كل من اللعنتين نوعا برأسه لم تجمعا فى قرن واحد بأن يقال وأتبعوا فى هذه الدنيا ويوم القيامة لعنة كما فى قوله تعالى «واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة» ايذانا باختلاف نوعى الحسنتين فان المراد بالحسنة الدنيوية نحو الصحة والكفاف والتوفيق للخير وبالحسنة الأخروية الثواب والرحمة (ألا إن عادا كفروا ربهم) أى بربهم أو نعمة ربهم حملا له على نقيضه الذى هو الشكر أو جحدوه (ألا بعدا لعاد) دعاء عليهم بالهلاك مع كونهم هالكين أى هلاك تسجيلا عليهم باستحقاق الهلاك واستيجاب الدمار وتكرير حرف التنبيه واعادة عاد للمبالغة فى تفظيع حالهم والحث على الاعتبار بقصتهم (قوم هود) عطف بيان لعاد فائدته التمييز عن عاد الثانية عاد أرم والايماء الى أن استحقاقهم للبعد بسبب ما جرى بينهم وبين هود عليه الصلاة والسلام وهم قومه (وإلى ثمود أخاهم صالحا) عطف على ما سبق من قوله تعالى «وإلى عاد أخاهم هودا» وثمود قبيلة من العرب سموا باسم أبيهم الاكبر ثمود بن عابر بن ارم بن سام وقيل انما سموا بذلك لقلة مائهم من الثمد وهو الماء القليل وصالح عليه الصلاة والسلام هو ابن عبيد بن أسف بن ماشح بن عبيد بن جادر بن ثمود ولما كان الاخبار بارساله اليهم مظنة لان يسئل ويقال ماذا قال لهم قيل جوابا عنه بطريق الاستئناف (قال يا قوم اعبدوا الله) أى وحده وعلل ذلك بقوله (مالكم من اله غيره)

ثم زيد فيما يبعثهم على الايمان والتوحيد ويحثهم على زيادة الأخلاص فيه بقوله (هو أنشأكم من الأرض) أى هو كونكم وخلقكم منها لا غيره قصر قلب أو قصر افراد فان خلق آدم عليه الصلاة والسلام منها خلق لجميع أفراد البشر منها لما مر مرارا من أن خلقته عليه الصلاة والسلام لم تكن مقصورة على نفسه بل كانت أنموذجا منطويا على خلق جميع ذرياته التى ستوجد الى يوم القيامة انطواء أجماليا وقيل ان خلق آدم عليه الصلاة والسلام وانشاء مواد النطف التى منها خلق نسله من التراب انشاء لجميع الخلق من الارض فتدبر (واستعمركم) من العمر أى عمركم واستبقاكم (فيها) أو من العمارة أى أقدركم على عمارتها أو أمركم بها وقيل هو من العمرى بمعنى أعمركم فيها دياركم ويرثها منكم بعد انصرام أعماركم أو جعلكم معمرين دياركم تسكنونها مدة عمركم ثم تتركونها لمثالكم (فاستغفروه ثم توبوا إليه) فان ما فصل من فنون الأحسان داع الى الاستغفار عما وقع منهم من التفريط والتوبة عما كانوا اياه باشرونه من القبائح وقد زيد فى بيان ما يوجب ذلك فقيل (إن ربى قريب) أى قريب الرحمة كقوله تعالى «إن رحمة الله قريب من المحسنين» (مجيب) لمن دعاه وسأله وقد روعى فى النظم الكريم نكتة حيث قدم ذكر العلة الباعثة المتقدمة على الأمر بالاستغفار والتوبة وأخر عنه ذكر الغائية المتأخرة عنهما فى الوجود أعنى الاجابة (قالوا ياصالح قد كنت فينا مرجوا) أى كنا نرجو منك لما كنا نرى منك من دلائل السداد ومخايل الرشاد أن تكون لنا سيدا ومستشارا فى الامور، عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فاضلا خيرا نقدمك على جميعنا وقيل كنا نرجو أن تدخل فى ديننا وتوافقنا على ما نحن عليه (قبل هذا) الذى باشرته من الدعوة الى التوحيد وترك عبادة الآلهة أو قبل هذا الوقت فكأنهم لم يكونوا الى الآن على يأس من ذلك ولو بعد الدعوة الى الحق فالآن قد انصرم عنك رجاؤنا وقرأ طلحة مرجوأ بالمد والهمزة (أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا) أى عبدوه والعدول الى صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية (وإننا لفى شك مما تدعونا إليه) من التوحيد وترك عبادة الاوثان وغير ذلك من الاستغفار والتوبة (مريب) أى موقع فى الريبة من أرابه أى أوقعه فى الريبة أى قلق النفس وانتفاء الطمأنينة أو من أراب اذا كان ذا ريبة وأيهما كان فالاسناد مجازى والتنوين فيه و فى شك للتفخيم (قال يا قوم أرأيتم) أى أخبرونى (إن كنت) فى الحقيقة (على بينة) أى حجة ظاهرة وبرهان وبصيرة (من ربى) مالكى ومتولى أمرى (وآتانى منه) من جهته (رحمة) نبوة وهذه الامور وان كانت محققة الوقوع لكنها صدرت بكلمة الشك اعتبارا لحال المخاطبين ورعاية لحسن المحاورة لاستنزالهم عن المكابرة (فمن ينصرنى

من الله)أي ينجيني من عذابه والعدول الى الاظهار لزيادة التهويل والفاء لترتيب انكار النصرة على ماسبق من ايتاء النبوة وكونه على بينة من ربه على تقدير العصيان حسبما يعرب عنه قوله تعالى (إن عصيته) أي بالمساهلة فى تبليغ الرسالة والمجاراة معكم فيما تأتون وتذرون فان العصيان ممن ذلك شأنه أبعد والمؤاخذة عليه ألزم وانكار نصرته أدخل (فما تزيدوننى)اذن باستتباعكم اياى كاينبىء عنه قولهم قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أى لاتفيدوننى اذلم يكن فيه أصل الخسران حتى يزيدوه (غير تخسير) أى غير أن تجعلونى خاسرا بابطال أعمالى وتعريضى لسخط الله تعالى أو فما تزيدوننى بما تقولون غير أن أنسبكم الى الخسران واقول لكم انكم لخاسرون فالزيادة على معناه والفاء لترتيب عدم الزيادة على انتفاء الناصر المفهوم من انكاره على تقدير العصيان مع تحقق ماينفيه من كونه عليه الصلاة والسلام على بينة من ربه وايتائه النبوة (وياقوم هذه ناقة الله) الاضافة للتشريف والتنبيه على أنها مفارقة لسائر ما يجانسها من حيث الخلقة ومن حيث الخلق (لكم آية)معجزة دالة على صدق نبوتى وهى حال من ناقة الله والعامل مافى هذه من معنى الفعل ولكم حال من آية متقدمة عليها لكونها نكرة ولو تاخرت لكانت صفة لها ويجوز أن يكون ناقة الله بدلا من هذه أو عطف بيان ولكم خبرا وعاملا فى آية (فذروها) خلوها وشأنها (تأكل فى أرض الله) ترع نباتها وتشرب ماءها واضافة الارض الى الله تعالى لتربية استحقاقها لذلك وتعليل الامر بتركها وشأنها (ولا تمسوها بسوء) بولغ فى النهى عن التعريض لها بما يضرها حيث نهى عن المس الذى هو من مبادى الاصابة ونكر السوء أى لاتضربوها ولا تطردوها ولاتقربوها بشىء من السوء فضلا عن عقرها وقتلها (فيأخذكم عذاب قريب) أى قريب النزول. روى أنهم طلبوا منه أن يخرج من صخرة تسمى الكاثبة ناقة عشراء مخترجة جوفاء وبراء وقالوا ان فعلت ذلك صدقناك فأخذ صالح عليه الصلاة والسلام عليهم مواثيقهم لئن فعلت ذلك لتؤمنن فقالوا نعم فصلى ودعا ربه فتمخضت الصخرة تمخض النتوج بولدها فانصدعت عن ناقة عشراء كما وصفوا وهم ينظرون ثم أنتجت ولدا مثلها فى العظم فآمن به جندع ابن عمرو فى جماعة ومنع الباقين الايمان دواب ابن عمرو الحباب صاحب أوثانهم ورباب كاهنهم فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وترد الماء غبا فما ترفع رأسها من البئر حتى تشرب كل ما فيها ثم تتفحج فيحلبون ما شاءوا حتى تمتلىء اوانيهم فيشربون ويدخرون وكانت تصيف بظهر الوادى فتهرب منها أنعامهم الى بطنه وتشتو ببطنه فتهرب مواشيهم الى ظهره فشق عليهم ذلك (فعقروها) قيل زينت عقرها لهم

عنيزة أم غنم وصدقة بنت المختار فعقروها واقتسموا لحمها فرقى سقبها جبلا اسمه قارة فرغا ثلاثا فقال صالح لهم أدركوا الفصيل عسى أن يرفع عنكم العذاب فلم يقدروا عليه وانفجرت الصخرة بعد رغائه فدخلها (فقال) لهم صالح (تمتعوا) أى عيشوا (فى داركم) أى فى منازلكم أوفى الدنيا (ثلاثة أيام) قيل قال لهم تصبح وجوهكم غدا مصفرة وبعد غد محمرة واليوم الثالث مسودة ثم يصبحكم العذاب (ذلك) اشارة الى مايدل عليه الامر بالتمتع ثلاثة أيام من نزول العذاب عقيبها والمراد بما فيه من معنى البعد تفخيمه (وعد غير مكذوب) أى غير مكذوب فيه فحذف الجار للاتساع المشهور كقوله ∴ ويوم شهدناه سليما وعامرا ∴ أو غير مكذوب كأن الواعد قال له أفى بك فان وفى به صدقه والا كذبه أو وعد غير كذب على أنه مصدر كالمجلوذ والمعقول (فلما جاء أمرنا) أى عذابنا أو أمرنا بنزوله وفيه مالايخفى من التهويل (نجينا صالحا والذين آمنوا معه) متعلق بنجينا أو بآمنوا (برحمة) بسبب رحمة عظيمة (منا) وهى بالنسبة الى صالح النبوة والى المؤمنين الايمان كما مر أو ملتبسين برحمة ورأفة منا (ومن خزى يومئذ) أى ونجيناهم من خزى يومئذ وهو هلاكهم بالصيحة كقوله تعالى «ونجيناهم من عذاب غليظ» على معنى أنه كانت تلك التنجية تنجية من خزى يومئذ أى من ذلته ومهانته أو ذلهم وفضيحتهم يوم القيامة كما فسر به العذاب الغليظ فيما سبق فيكون المعنى ونجيناهم من عذاب يوم القيامة بعد تنجيتنا أياهم من عذاب الدنيا وعن نافع بالفتح على اكتساب المضاف البناء من المضاف اليه هنا وفى المعارج فى قوله تعالى «من عذاب يومئذ» وقرىء بالتنوين ونصب يومئذ (إن ربك) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم (هو القوى العزيز) القادر على كل شىء والغالب عليه لا غيره ولكون الاخبار بنتيجة الاولياء لاسيما عند الانباء بحلول العذاب أهم ذكرها أولا ثم أخبر بهلاك الاعداء فقال (وأخذ الذين ظلموا) عدل عن المضمر الى المظهر تسجيلا عليهم بالظلم واشعارا بعليته لنزول العذاب بهم (الصيحة) أى صيحة جبريل عليه الصلاة والسلام وقيل أتتهم من السماء صيحة فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شىء فى الارض فتقطعت قلوبهم فى صدورهم وفى سورة الاعراف فأخذتهم الرجفة ولعلها وقعت عقيب الصيحة المستتبعة لتموج الهواء (فأصبحوا) أى صاروا (فى ديارهم) أى بلادهم أومساكنهم (جاثمين) هامدين موتى لايتحركون والمراد كونهم كذلك عند ابتداء نزول العذاب بهم من غير اضطراب وحركة كما يكون ذلك عند الموت المعتاد ولايخفى مافيه من الدلالة على شدة الاخذ وسرعته اللهم أنا نعوذ بك من حلول غضبك قيل

لما رأوا العلامات التى بينها صالح من اصفرار وجوههم واحمرارها واسودادها عمدوا الى قتله عليه الصلاة والسلام فنجاه الله تعالى الى أرض فلسطين ولما كان ضحوة اليوم الرابع وهو يوم السبت تحنطوا وتكفنوا بالانطاع فأتتهم الصيحة فتقطعت قلوبهم فهلكوا (كأن لم يغنوا) أى كأنهم لم يقيموا (فيها) فى بلادهم أو فى مساكنهم وهو فى موقع الحال أى أصبحوا جاثمين مماثلين لمن لم يوجد ولم يقم فى مقام قط (ألا إن ثمود) وضع موضع الضمير لزيادة البيان ونونه أبو بكر هنا وفى النجم وقرأ حفص هنا وفى الفرقان والعنكبوت بغير تنوين (كفروا ربهم) صرح بكفرهم مع كونه معلوما مما سبق من أحوالهم تقبيحاً لحالهم وتعليلا لاستحقاقهم بالدعاء عليهم بالبعد والهلاك فى قوله تعالى (ألا بعداً لثمود) وقرأ الكسائى بالتنوين (ولقد جاءت رسلنا إبراهيم) وهم الملائكة عن ابن عباس رضى الله عنهما أنهم جبريل وملكان. وقيل هم جبريل وميكائيل واسرافيل عليهم السلام وقال الضحاك كانوا تسعة وعن محمد بن كعب جبريل ومعه سبعة وعن السدى أحد عشر على صور الغلمان الوضاء وجوههم وعن مقاتل كانوا اثنى عشر ملكا وانما أسند اليهم مطلق المجىء بالبشرى دون الارسال لأنهم لم يكونوا مرسلين اليه عليه السلام بل إلى قوم لوط لقوله تعالى «أنا أرسلنا إلى قوم لوط» وانما جاءوه لداعية البشرى ولما كان المقصود فى السورة الكريمة ذكر سوء صنيع الأمم السالفة مع الرسل المرسلة اليهم ولحوق العذاب بهم بسبب ذلك ولم يكن جميع قوم ابراهيم عليه الصلاة والسلام ممن لحق بهم العذاب بل انما لحق بقوم لوط منهم خاصة غير الاسلوب المطرد فيما سبق من قوله تعالى «وإلى عاد أخاهم هوداً وإلى ثمود أخاهم صالحاً» ثم رجع اليه حيث قيل «وإلى مدين أخاهم شعيباً» (بالبشرى) أى ملتبسين بها قيل هى مطلق البشرى المنتظمة للبشارة بالولد من سارة لقوله تعالى «فبشرناها باسحق» الآية وقوله تعالى «وبشرناه بغلام حليم» وقوله «وبشروه بغلام عليم» وللبشارة بعدم لحوق الضرر به لقوله تعالى «فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى» لظهور تفرع المجادلة على مجيئها كما سيأتى. وقيل هى البشارة بهلاك قوم لوط ويأباه مجادلته عليه الصلاة والسلام فى شأنهم والأظهر أنها البشارة بالولد وستعرف سر تفرع المجادلة على ذلك ولما كان الأخبار بمجيئهم بالبشرى مظنة لسؤال السامع بأنهم ماقالوا أجيب بأنهم (قالوا سلاما) أى سلمنا أو نسلم عليك سلاما ويجوز أن يكون نصبه بقالوا أى قالوا قولا ذا سلام أو ذكروا سلاما (قال سلام) أى عليكم سلام أو سلام عليكم حياهم بأحسن من تحيتهم. وقرىء سلم كحرم فى حرام وقرأ ابن أبى عبلة قال سلاما وعنه

أنه قرأ بالرفع فيهما (فما لبث) أى ابراهيم (أن جاء بعجل) أى فى المجيء به أو مالبث مجيئه بعجل (حنيذ) أى مشوى بالرضف فى الاخدود وقيل سمين يقطر ودكه لقوله بعجل سمين من حنذت الفرس اذا عرقته بالجلال (فلما رأى أيديهم لاتصل إليه) لايمدون اليه ايديهم للأكل (نكرهم) أى أنكرهم يقال نكره وأنكره واستنكره بمعنى وانما أنكرهم لانهم كانوا اذا نزل بهم ضيف ولم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يجىء بخير وقد روى أنهم كانوا ينكتون بقداح كانت فى أيديهم فى اللحم ولاتصل اليه أيديهم وهذا الانكار منه عليه الصلاة والسلام راجع إلى فعلهم المذكور وأما انكاره المتعلق بانفسهم فلا تعلق له برؤية عدم أكلهم وانما وقع ذلك عند رؤيته لهم لعدم كونهم من جنس ما كان يعهده من الناس ألا يرى الى قوله تعالى فى سورة الذاريات «سلام قوم منكرون» (وأوجس منهم) أى أحس أو أضمر من جهتهم (خيفة) لما ظن أن نزولهم لامر أنكره الله تعالى عليه أو لتعذيب قومه وانما أخر المفعول الصريح عن الظرف لان المراد الاخبار بانه عليه الصلاة والسلام أوجس من جهتهم شيئاً هو الخيفة لا انه أوجس الخيفة من جهتهم لا من جهة غيرهم وتحقيقه أن تأخير ماحقه التقديم يوجب ترقب النفس اليه فيتمكن عند وروده عليها فضل تمكن (قالوا لاتخف) ماقالوه بمجرد مارأوا منه مخايل الخوف ازالة له منه بل بعد اظهاره عليه الصلاة والسلام له قال تعالى فى سورة الحجر «قال إنا منكم وجلون» ولم يذكر ذلك هنا اكتفاء بذلك (إنا أرسلنا) ظاهره أنه استئناف فى معنى التعليل للنهى المذكور كما ان قوله تعالى «إنا نبشرك» تعليل لذلك فان ارسالهم الى قوم آخرين يوجب أمنهم من الخوف أى أرسلنا بالعذاب (إلى قوم لوط) خاصة الا انه ليس كذلك فان قوله تعالى «قال فما خطبكم أيها المرسلون قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين» صريح فى انهم قالوه جوابا عن سؤاله عليه الصلاة والسلام وقد أوجز الكلام اكتفاء بذلك (وامرأته قائمة) وراء الستر بحيث تسمع محاورتهم أو على رءوسهم للخدمة حسبما هو المعتاد والجملة حال من ضمير قالوا أى قالوه وهى قائمة تسمع مقالتهم (فضحكت) سرورا بزوال الخوف أو بهلاك أهل الفساد أو بهما جميعا وقيل بوقوع الامر حسبما كانت تقول فيما سلف فانها كانت تقول لابراهيم اضمم اليك لوطا فانى أرى أن العذاب نازل بهؤلاء القوم . وقيل ضحكت حاضت ومنه ضحكت الشجرة اذا سال صمغها وهو بعيد وقرىء بفتح الحاء (فبشرناها بأسحق) أى عقبنا سرورها بسرور أتم منه على ألسنة رسلنا (ومن وراء إسحق يعقوب) بالنصب على أنه مفعول لمادل عليه قوله بشرناها أى ووهبنا لها من وراء اسحق يعقوب . وقرىء بالرفع على الابتداء خبره الظرف أى

من بعد اسحق يعقوب مولود أو موجود وكلا الاسمين داخل فى البشارة كيحيى أو واقع فى الحكاية بعد أن ولدا فسميا بذلك وتوجيه البشارة ههنا اليها مع أن الاصل فى ذلك ابراهيم عليه الصلاة والسلام قد وجهت اليه حيث قيل «وبشرناه بغلام حليم وبشروه بغلام عليم» للايذان بأن مابشر به يكون منهما ولكونها عقيمة حريصة على الولد (قالت) استئناف ورد جوابا عن سؤال من سأل وقال فما فعلت اذ بشرت بذلك فقيل قالت (ياويلتا) أصل الويل الخزى ثم شاع فى كل أمر فظيع والالف مبدلة من ياء الاضافة كما فى يالهفا . ويا عجبا وقرأ الحسن على الاصل وأمالها أبو عمرو وعاصم فى رواية ومعناه ياويلتى احضرى فهذا أوان حضورك وقيل هى ألف الندبة ويوقف عليها بهاء السكت (أألد وأنا عجوز) بنت تسعين أو تسع وتسعين سنة (وهذا) الذى تشاهدونه (بعلى) أى زوجى وأصل البعل القائم بالامر (شيخا) وكان ابن مائة وعشرين سنة ونصبه على الحال والعامل معنى الاشارة . وقرىء بالرفع على انه خبر مبتدا محذوف أى هو شيخ أو خبر بعد خبر أو هو الخبر وبعلى بدل من اسم الاشارة أو بيان له وكلتا الجملتين وقعت حالا من الضمير فى أألد لتقرير ما فيه من الاستبعاد وتعليله أى أألد وكلانا على حالة منافية لذلك وانما قدمت بيان حالها على بيان حاله عليه الصلاة والسلام لان مباينة حالها لما ذكر من الولادة أكثر اذ ربما يولد للشيوخ من الشواب أما العجائز داؤهن عقام ولان البشارة متوجهة اليها صريحا ولان العكس فى البيان ربما يوهم من أول الامر نسبة المانع من الولادة الى جانب ابراهيم عليه الصلاة والسلام وفيه مالا يخفى من المحذور واقتصارها الاستبعاد على ولادتها من غير تعرض لحال النافلة لانها المستبعد وأما ولادة ولدها فلا يتعلق بها استبعاد (إن هذا) أى ماذكر من حصول الولد من هرمين مثلنا (لشيء عجيب) بالنسبة الى سنة الله تعالى المسلوكة فيما بين عباده وهذا الجملة لتعليل الاستبعاد بطريق الاستئناف التحقيقى ومقصدها استعظام نعمة الله تعالى عليها فى ضمن الاستعجاب العادى لا استبعاد ذلك بالنسبة الى قدرته سبحانه وتعالى (قالوا أتعجبين من أمر الله) أى قدرته وحكمته أو تكوينه أو شأنه . انكروا عليها تعجبها من ذلك لانها كانت ناشئة فى بيت النبوة ومهبط الوحى والآيات ومظهر المعجزات والامور الخارقة للعادات فكان حقها أن تتوقر ولا يزدهيها ما يزدهى سائر النساء من أمثال هذه الخوارق من ألطاف الله تعالى الخفية ولطائف صنعه الفائضة على كل أحد مما تتعلق بذلك مشيئته الازلية لا سيما على أهل بيت النبوة الذين ليست مرتبتهم عند الله سبحانه كمراتب سائر الناس وأن تسبح الله تعالى وتحمده وتمجده والى ذلك أشاروا بقوله تعالى

(رحمة الله) التى وسعت كل شىء واستتبعت كل خير . وانما وضع المظهر موضع المضمر لزيادة تشريفها (و بركاته) أى خيراته النامية المتكاثرة فى كل باب التى من جملتها هبة الاولاد . وقيل الرحمة النبوة والبركات الاسباط من بنى اسرائيل لان الانبياء منهم وكلهم من ولد ابراهيم عليه الصلاة والسلام (عليكم أهل البيت) نصب على المدح أو الاختصاص لانهم أهل بيت خليل الرحمن وصرف الخطاب من صيغة الواحدة الى جمع المذكر لتعميم حكمه لابراهيم عليه الصلاة والسلام أيضا ليكون جوابهم لها جوابا له أيضا ان خطر بباله لمثل ما خطر ببالها والجملة كلام مستأنف علل به انكار تعجبها كانه قيل ليس المقام مقام التعجب فان الله تعالى على كل شىء قدير ولستم يا أهل بيت النبوة والكرامة والزلفى كسائر الطوائف بل رحمته المستتبعة لكل خير الواسعة لكل شىء وبركاته أى خيراته النامية الفائضة منه بواسطة تلك الرحمة الواسعة لازمة لكم لا تفارقكم (إنه حميد) فاعل ما يستوجب الحمد (مجيد) كثير الخير والاحسان الى عباده والجملة لتعليل ماسبق من قوله رحمة الله وبركاته عليكم (فلما ذهب عن إبراهيم الروع) أى ما أوجس منهم من الخيفة واطمأن قلبه بعرفانهم وعرفان سبب مجيئهم والفاء لربط بعض أحوال ابراهيم عليه الصلاة والسلام ببعض غب انفصالها بما ليس بأجنبى من كل وجه بل له مدخل تام فى السباق والسياق وتأخير الفاعل عن الظرف لانه مصب الفائدة فان بتأخير ماحقه التقديم تبقى النفس منتظرة الى وروده فيتمكن فيها عند وروده اليها فضل تمكن (وجاءته البشرى) ان فسرت البشرى بقولهم لاتخف فسببية ذهاب الخوف ومجىء السرور للمجادلة المدلول عليها بقوله تعالى (يجادلنا فى قوم لوط) أى جادل رسلنا فى شأنهم وعدل الى صيغة الاستقبال لاستحضار صورتها أو طفق يجادلنا ظاهرة . وأما ان فسرت ببشارة الولد أو بما يعمها فلعل سببيتها لها من حيث انها تفيد زيادة اطمئنان قلب بسلامته وسلامة أهله كافة ومجادلته إياهم انه قال لهم حين قالوا له انا مهلكو أهل هذه القرية أرأيتم لو كان فيها خمسون رجلا من المؤمنين أتهلكونها قالوا لا قال فأربعون قالوا لا قال فثلاثون قالوا لا حتى بلغ العشرة قالوا لا قال أرأيتم ان كان فيها رجل مسلم أتهلكونها قالوا لا فعند ذلك قال ان فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إن قيل المتبادر من هذا الكلام أن يكون ابراهيم عليه السلام قد علم أنهم مرسلون لاهلاك قوم لوط قبل ذهاب الروع عن نفسه ولكن لم يقدر على مجادلتهم فى شأنهم لاشتغاله بشأن نفسه فلما ذهب عنه الروع فرغ لها مع أن ذهاب الروع انما هو قبل العلم بذلك لقوله تعالى « قالوا لاتخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط » قلنا كان لوط عليه السلام

على شريعة ابراهيم عليه السلام وقومه مكلفين بها فلما رأى من الملائكة ما رأى خاف على نفسه وعلى كافة أمته التى من جملتهم قوم لوط ولا ريب فى تقدم هذا الخوف على قولهم لا تخف وأما الذى علمه عليه السلام بعد النهى عن الخوف فهو اختصاص قوم لوط بالهلاك لادخولهم تحت العموم فتأمل والله الموفق (إن ابراهيم لحليم) غير عجول على الانتقام ممن أساء اليه (أواه) كثير التأوه على الذنوب والتأسف على الناس (منيب) راجع الى الله تعالى والمقصود بتعداد صفاته الجميلة المذكورة بيان ما حمله عليه السلام على ما صدر عنه من المجادلة (ياإبراهيم) أى قالت الملائكة يا ابراهيم (أعرض عن هذا) الجدال (إنه) أى الشأن (قد جاء أمر ربك) أى قدره الجارى على وفق قضائه الأزلى الذى هو عبارة عن الارادة الازلية والعناية الالهية المقتضية لنظام الموجودات على ترتيب خاص حسب تعلقها بالاشياء فى أوقاتها وهو المعبر عنه بالقدر (وإنهم آتيهم عذاب غير مردود) لا بجدال ولا بدعاء ولا بغيرهما (ولما جاءت رسلنا لوطا) قال ابن عباس رضى الله عنهما انطلقوا من عند ابراهيم عليه السلام الى لوط عليه السلام وبين القريتين أربعة فراسخ ودخلوا عليه فى صور غلمان مرد حسان الوجوه فلذلك (سيء بهم) أى ساءه مجيئهم لظنه أنهم أناس فخاف أن يقصدهم قومه ويعجز عن مدافعتهم وقرأ نافع وابن عامر والكسائى وأبو عمرو سيء وسيئت باشمام السين الضم روى أن الله تعالى قال للملائكة لاتهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات فلما مشى معهم منطلقا بهم الى منزله قال لهم أما بلغكم أمر هذه القرية قالوا وما أمرها قال أشهد بالله انها لشر قرية فى الارض عملا يقول ذلك أربع مرات فدخلوا معه منزله ولم يعلم بذلك أحد فخرجت امرأته فأخبرت به قومها وقالت ان فى بيت لوط رجالا ما رأيت مثل وجوههم قط (وضاق بهم ذرعا) أى ضاق بمكانهم صدره أو قلبه أو وسعه وطاقته وهو كناية عن شدة الانقباض للعجز عن مدافعة المكروه والاحتيال فيه. وقيل ضاقت نفسه عن هذا الحادث وذكر الذرع مثل وهو المساحة وكانه قدر البدن مجازا أى ان بدنه ضاق قدره من احتمال ما وقع وقيل الذراع اسم للجارحة من المرفق الى الانامل والذرع مدها ومعنى ضيق الذرع فى قوله تعالى «ضاق بهم ذرعا» قصرها كما أن معنى سعتها وبسطها طولها ووجه التمثيل بذلك أن القصير الذراع اذا مدها ليتناول ما يتناول الطويل الذراع تقاصر عنه وعجز عن تعاطيه فضرب مثلا للذى قصرت طاقته دون بلوغ الامر (وقال هذا يوم عصيب) شديد من عصبه اذا شاده (وجاءه) أى لوطا وهو فى بيته مع أضيافه (قومه يهرعون إليه) أى يسرعون كانما يدفعون دفعا لطلب الفاحشة من أضيافه والجملة

حال من قومه وكذا قوله تعالى (ومن قبل) أى من قبل هذا الوقت (كانو ايعملون السيآت) أى جاءوا مسرعين والحال أنهم كانوا متمكنين فى عمل السيآت فضروا بها وتمرنوا فيها حتى لم يبق عندهم قباحتها ولذلك لم يستحيوا مما فعلوا من مجيئهم مهرعين مجاهرين (قال ياقوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم) فتزوجوهن وكانوا يطلبونهن من قبل ولا يجيبهم لخبثهم وعدم كفاءتهم لا لعدم مشروعيته فان تزويج المسلمات من الكفار كان جائزا وقد زوج النبى عليه الصلاة والسلام ابنتيه من عتبة بن أبى لهب و أبى العاص ابن الربيع قبل الوحى وهما كافران. وقيل كان لهم سيدان مطاعان فأراد أن يزوجهما ابنتيه وأياما كان فقد أراد به وقاية ضيفه وذلك غاية الكرم وقيل ما كان ذلك القول منه مجرى على الحقيقة من ارادة النكاح بل كان ذلك مبالغة فى التواضع لهم واظهارا لشدة امتعاضه مما أوردوا عليه طمعا فى أن يستحيوا منه ويرقوا له اذا سمعوا ذلك فينزجروا عما أقدموا عليه مع ظهور الامر واستقرار العلم عنده وعندهم جميعا بأن لا مناكحة بينهم وهو الانسب بقولهم لقد علمت مالنا فى بناتك من حق كما ستقف عليه (فاتقوا الله) بترك الفواحش أو بايثارهن عليهم (ولاتخزون فى ضيفى) أى لا تفضحونى فى شأنهم فان اخزاء ضيف الرجل وجاره اخزاء له أو لا تخجلونى من الخزاية وهى الحياء (أليس منكم رجل رشيد) يهتدى الى الحق الصريح ويرعوى عن الباطل القبيح (قالوا معرضين عما نصحهم به من الامر بتقوى الله والنهى عن اخزائه مجيبين عن أول كلامه (لقد علمت مالنا فى بناتك من حق) مستشهدين بعلمه بذلك يعنون انك قد علمت أن لا سبيل الى المناكحة بيننا وبينك وما عرضت الا عرض سابرى ولا مطمع لنا فى ذلك (وإنك لتعلم ما نريد) من اتيان الذكران ولما يئس عليه السلام من ارعوائهم عما هم عليه من الغى (قال لو أن لى بكم قوة) أى لفعلت بكم مافعلت وصنعت ماصنعت كقوله تعالى «ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الارض أو كلم به الموتى» (أو آوى إلى ركن شديد) عطف على أن لى بكم الى آخره لما فيه من معنى الفعل أى لو قويت على دفعكم بنفسى أو أويت الى ناصر عزيز قوى أتمنع به عنكم شبهه بركن الجبل فى الشدة والمنعة وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم رحم الله أخى لوطا كان يأوى الى ركن شديد روى أنه عليه السلام أغلق بابه دون أضيافه وأخذ يجادلهم من وراء الباب فتسوروا الجدار فلما رأت الملائكة ما على لوط من الكرب (قالوا) أى الرسل لما شاهدوا عجزه عن مدافعة قومه (يالوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك) بضرر ولا مكروه فافتح الباب ودعنا وإياهم ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريل عليه السلام ربه رب العزة جل جلاله فى عقوبتهم

فأذن له فقام فى الصورة التى يكون فيها فنشر جناحه وله جناحان وعليه وشاح من در منظوم وهو براق الثنايا فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم وأعماهم كما قال عز وعلا «فطمسنا أعينهم» فصاروا لايعرفون الطريق فخرجوا وهم يقولون النجاء النجاء فان فى بيت لوط قوما سحرة (فأسر بأهلك) بالقطع من الاسراء وقرأ ابن كثير ونافع بالوصل حيث جاء فى القرآن من السرى والفاء لترتيب الامر بالاسراء على الاخبار برسالتهم المؤذنة بورود الامر والنهى من جنابه عز وجل اليه عليه السلام (بقطع من الليل) بطائفة منه (ولا يلتفت منكم) أى لايتخلف أولا ينظر الى ورائه (أحد) منك ومن أهلك وانما نهوا عن ذلك ليجدوا فى السير فان من يلتفت الى ما وراءه لايخلو عن أدنى وقفة أو لئلا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب فيرقوا لهم (إلا امرأتك) استثناء من قوله تعالى «فأسر بأهلك» ويؤيده انه قرئ فأسر بأهلك بقطع من الليل الا امرأتك. وقرئ بالرفع على البدل من أحد فالالتفات بمعنى التخلف لا بمعنى النظر الى الخلف كيلا يلزم التناقض بين القراءتين المتواترتين فان النصب يقتضى كونه عليه السلام غير مأمور بالاسراء بها والرفع كونه مأمورا بذلك والاعتذار بأن مقتضى الرفع انما هو مجرد كونها معهم وذلك لايستدعى الامر بالاسراء بها حتى يلزم المناقضة لجواز أن تسرى هى بنفسها كما يروى انه عليه السلام لما أسرى بأهله تبعتهم فلما سمعت هدة العذاب التفتت وقالت ياقوماه فأدركها حجر فقتلها وأن يسرى بها عليه السلام من غير أمر بذلك اذ موجب النصب انما هو عدم الامر بالاسراء بها لا النهى عن الاسراء بها حتى يكون عليه السلام بالاسراء بها مخالفا للنهى لايجدى نفعا لان انصراف الاستثناء الى الالتفات يستدعى بقاء الاهل على العموم فيكون الاسراء بها مأمورا به قطعا وفى حمل الاهلية فى احدى القراءتين على الاهلية الدينية وفى الاخرى على النسبية مع أن فيه ما لايخفى من التحكم والاعتساف كر على ما فر منه من المناقضة فالاولى حينئذ جعل الاستثناء على القراءتين من قوله لايلتفت مثل الذى فى قوله تعالى «مافعلوه إلا قليل منهم» فان ابن عامر قرأه بالنصب وان كان الافصح الرفع على البدل ولا بعد فى كون أكثر القراء على غير الافصح ولا يلزم من ذلك أمرها بالالتفات بل عدم نهيها عنه بطريق الاستصلاح ولذلك علله على طريقة الاستئناف بقوله (إنه مصيبها ما أصابهم) من العذاب وهو امطار الاحجار وان لم يصبها الخسف والضمير فى أنه للشأن وقوله تعالى مصيبها خبر وقوله ما أصابهم مبتدأ والجملة خبر لان الذى اسمه ضمير الشأن وفيه مالا يخفى من تفخيم شأن ما أصابهم ولا يحسن جعل الاستثناء منقطعا على قراءة الرفع

(إن موعدهم الصبح) أى موعد عذابهم وهلاكهم تعليل للامر بالاسراء والنهى عن الالتفات المشعر بالحث على الاسراع (أليس الصبح بقريب) تأكيد للتعليل فان قرب الصبح داع الى الاسراع فى الاسراء للتباعد عن مواقع العذاب . وروى أنه قال للملائكة متى موعد هلاكهم قالوا الصبح قال أريد أسرع من ذلك فقالوا ذلك وانما جعل ميقات هلاكهم الصبح لانه وقت الدعة والراحة فيكون حلول العذاب حينئذ أفظع ولانه أنسب بكون ذلك عبرة للناظرين (فلما جاء أمرنا) أى وقت عذابنا وموعده وهو الصبح (جعلنا عاليها) أى عالى قرى قوم لوط وهى التى عبر عنها بالمؤتفكات وهى خمس مدائن فيها أربعمائة ألف ألف (سافلها) أى قلبناها على تلك الهيئة وجعل عاليها مفعولا أول للجعل وسافلها مفعولا ثانيا له وان تحقق القلب بالعكس أيضا لتهويل الامر وتفظيع الخطب لان جعل عاليها الذى هو مقارهم ومساكنهم سافلها أشد عليهم وأشق من جعل سافلها عاليها وان كان مستلزما له » روى انه جعل جبريل عليه السلام جناحه فى أسفلها ثم رفعها الى السماء حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الديكة ثم قلبها عليهم . واسناد الجعل والامطار الى ضميره سبحانه باعتبار أنه المسبب لتفخيم الامر وتهويل الخطب (وأمطرنا عليها) على أهل المدائن أو شذاذهم (حجارة من سجيل) من طين متحجر كقوله حجارة من طين وأصله سنك كل فعرب . وقيل هو من أسجله اذا أرسله أو أدر عطيته والمعنى من مثل الشىء المرسل أو مثل العطية فى الادرار أو من السجل أى مما كتب الله تعالى أن يعذبهم به وقيل أصله من سجين أى من جهنم فأبدلت نونه لاما (منضود) نضد فى السماء نضدا معدا للعذاب وقيل يرسل بعضه اثر بعض كقطار الامطار (مسومة) معلمة للعذاب وقيل معلمة ببياض وحمرة أو بسيما تتميز به عن حجارة الارض أو باسم من ترمى به (عند ربك) فى خزائنه التى لا يتصرف فيها غيره عزوجل (وما هى) أى الحجارة الموصوفة (من الظالمين) من كل ظالم (ببعيد) فانهم بسبب ظلمهم مستحقون لها وملابسون بها وفيه وعيد شديد لاهل الظلم كافة » وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه سأل جبريل عليه السلام فقال يعنى ظالمى أمتك مامن ظالم منهم الا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة الى ساعة وقيل الضمير للقرى أى هى قريبة من ظالمى مكة يمرون بها فى مسايرهم وأسفارهم الى الشام وتذكير البعيد على تأويل الحجارة بالحجر أو اجرائه على موصوف مذكر أى بشىء بعيد أو بمكان بعيد فانها وان كانت فى السماء وهى فى غاية البعد من الارض الا انها حين هوت منها فهى أسرع شىء لحوقا بهم فكانها بمكان قريب منهم أولانه على زنة

المصدر كالزفير والصهيل والمصادر يستوى فى الوصف بها المذكر والمؤنث (وإلى مدين) أى اولاد مدين بن ابراهيم عليه السلام أو جعل اسما للقبيلة بالغلبة أو أهل مدين وهو بلد بناه مدين فسمى باسمه (أخاهم) أى نسيبهم (شعيبا) وهو ابن ميكيل بن يشجر بن مدين وكان يقال له خطيب الانبياء لحسن مراجعته قومه والجملة معطوفة على قوله تعالى « وإلى ثمود أخاهم صالحا» أى وأرسلنا الى مدين أخاهم شعيبا (قال) استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ عن صدر الكلام فكأنه قيل فماذا قال لهم فقيل قال كما قال من قبله من الرسل عليهم السلام (ياقوم اعبدوا الله) وحده ولا تشركوا به شيئا (مالكم من آله غيره) تحقيق للتوحيد وتعليل للامر به وبعد ما أمرهم بما هو ملاك أمر الدين وأول ما يجب على المكلفين نهاهم عن ترتيب مبادى ما اعتادوه من البخس والتطفيف عادة مستمرة فقال (ولا تنقصوا المكيال والميزان) كى تتوسلوا بذلك الى بخس حقوق الناس (أنى أراكم بخير) أى ملتبسين بثروة وسعة تغنيكم عن ذلك أو بنعمة من الله تعالى حقها أن تقابل بغير ما تأتونه من المسامحة والتفضل على الناس شكرا عليها أو أراكم بخير فلا تزيلوه بما أنتم عليه من الشر وهو على كل حال علة للنهى عقبت بعلة أخرى أعنى قوله عزوجل (وإنى أخاف عليكم) ان لم تنتهوا عن ذلك (عذاب يوم محيط) لايشذ منه شاذ منكم وقيل عذاب يوم مهلك من قوله تعالى « وأحيط بثمره » وأصله من احاطة العدو والمراد عذاب يوم القيامة أو عذاب الاستئصال ووصف اليوم بالاحاطة وهى حال العذاب على الاسناد المجازى وفيه من المبالغة مالا يخفى فان اليوم زمان يشتمل على ما وقع فيه من الحوادث فاذا أحاط بعذابه فقد اجتمع للمعذب ما اشتمل عليه منه كما اذا أحاط بنعيمه ويجوز أن يكون هذا تعليلا للامر والنهى جميعا (وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط) أى بالعدل من غير زيادة ولا نقصان فان الزيادة فى الكيل والوزن وان كان تفضلا مندوبا اليه لكنها فى الآلة محظورة كالنقص فلعل الزائد للاستعمال عند الاكتيال والناقص للاستعمال وقت الكيل وانما أمر بتسويتهما وتعديلهما صريحا بعد النهى عن نقصهما مبالغة فى الحمل على الايفاء والمنع من البخس وتنبيها على انه لا يكفيهم مجرد الكف عن النقص والبخس بل يجب عليهم اصلاح ما أفسدوه وجعلوه معيارا لظلمهم وقانونا لعدوانهم (ولا تبخسوا النـــاس) بسبب نقصهما وعدم اعتدالهما (أشياءهم) التى يشترونها بهما وقد صرح بالنهى عن البخس بعد ما علم ذلك فى ضمن النهى عن نقص المعيار والامر بأبقائه اهتماما بشأنه وترغيبا فى ايفاء الحقوق بعد الترهيب والزجر عن نقصها ويجوز ان يكون المراد بالامر بايفاء

المكيال والميزان الامر بايفاء المكيلات والموزونات ويكون النهى عن البخس عاما للنقص فى المقدار وغيره تعميما بعد التخصيص كما فى قوله تعالى (ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) فان العثى يعم نقص الحقوق وغيره من أنواع الفساد وقيل البخس المكس كاخذ العشور فى المعاملات قال زهير بن أبى سلمى:

أفى كل أسواق العراق أتاوة ... وفى كل ما باع امرؤ مكس درهم

والعثى فى الارض السرقة وقطع الطريق والغارة وفائدة الحال اخراج مايقصدبه الاصلاح كما فعله الخضر عليه السلام من خرق السفينة وقتل الغلام وقيل معناه ولاتعثوا فى الارض مفسدين أمر آخرتكم ومصالح دينكم (بقية الله) أى ما أبقاه لكم من الحلال بعد التنزه عن تعاطى المحرمات (خير لكم) مما تجمعون بالبخس والتطفيف فان ذلك هباء منثور بل شر محض وان زعمتم أن فيه خيرا كقوله تعالى «يمحق الله الربوا و يربى الصدقات» (إن كنتم مؤمنين) بشرط أن تؤمنوا فان خيريتها باستتباع الثواب مع النجاة وذلك مشروط بالايمان لامحالة اوان كنتم مصدقين لى فى مقالتى لكم وقيل البقية الطاعة كقوله عزوجل «والباقيات الصالحات خير عند ربك» وقرىء تقية الله بالفوقانية وهى تقواه عن المعاصى (وما أنا عليكم بحفيظ) أحفظكم من القبائح أو احفظ عليكم أعمالكم فأجازيكم وانما أنا ناصح مبلغ وقد أعذرت اذ أنذرت ولم آل فى ذلك جهدا أو ما أنا بحافظ ومستبق عليكم نعم الله تعالى ان لم تتركوا ما أنتم عليه من سوء الصنيع (قالوا ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا) من الاوثان أجابوا بذلك أمره عليه السلام اياهم بعبادة الله وحده المتضمن لنهيهم عن عبادة الاصنام ولقد بالغوا فى ذلك وبلغوا أقصى مراتب الخلاعة والمجون والضلال حيث لم يكتفوا بانكار الوحى الآمر بذلك حتى ادعوا أن لا آمر به من العقل واللب أصلا وأنه من أحكام الوسوسة والجنون وعلى ذلك بنوا استفهامهم وقالوا بطريق الاستهزاء أصلاتك التى هى من نتائج الوسوسة وأفاعيل المجانين تأمرك بأن نترك عبادة الاوثان التى توارثناها أبا عن جد وانما جعلوه عليه السلام مأمورا مع أن الصادر عنه انما هو الامر بعبادة الله تعالى وغير ذلك من الشرائع لانه عليه السلام لم يكن يأمرهم بذلك من تلقاء نفسه بل من جهة الوحى وأنه كان يعلمهم بأنه مأمور بتبليغه اليهم وتخصيصهم باسناد الامر الى الصلاة من بين سائر أحكام النبوة لانه عليه الصلاة والسلام كان كثير الصلاة معروفا بذلك وكانوا اذا رأوه يصلى يتغامزون ويتضاحكون فكانت هى من بين سائر شعائر الدين ضحكة لهم وقرىء أصلواتك (أو أن نفعل فى أموالنا مانشاء) جواب عن أمره عليه السلام

بايفاء الحقوق ونهيه عن البخس والنقص معطوف على ما أى أو أن نترك أن نفعل فى أموالنا ما نشاء من الاخذ والاعطاء والزيادة والنقص وقرىء بالتاء فى الفعلين عطفا على مفعول تأمرك أى أصلاتك تأمرك أن تفعل أنت فى أموالنا ما تشاء وتجويز العطف على ماقبل يستدعى أن يراد بالترك معنيان متخالفان والمراد بفعله عليه السلام ايجاب الايفاء والعدل فى معاملاتهم لا نفس الايفاء فان ذلك ليس من أفعاله عليه السلام بل من أفعالهم وانما لم نقل عطفا على أن نترك لان الترك ليس مأمور به على الحقيقة بل المأمور به تكليفه عليه السلام اياهم وأمره بذلك والمعنى أصلاتك تأمرك أن تكلفنا أن نترك مايعبد آباؤنا وحمله على معنى أصلاتك تأمرك بماليس فى وسعك وعهدتك من أفاعيل غيرك ليكون ذلك تعريضا منهم بركاكة رأيه عليه السلام واستهزاء به من تلك الجهة يأباه دخول الهمزة على الصلاة دون الامر ويستدعى أن يصدر عنه عليه السلام فى أثناء الدعوة ما يدل على ذلك أو يوهمه وأنى ذلك فتأمل. وقرىء بالنون فى الاول والتاء فى الثانى عطفا على أن نترك أى أو أن نفعل نحن فى أموالنا عند المعاملة ماتشاء أنت من التسوية والايفاء (إنك لأنت الحليم الرشيد) وصفوه عليه السلام بالوصفين على طريقة التهكم وانما أرادوا بذلك وصفه بضديهما كقول الخزنة «ذق إنك أنت العزيز الكريم» ويجوز أن يكون تعليلا لما سبق من استبعاد ماذكروه على معنى انك لأنت الحليم الرشيد على زعمك وأما وصفه بهما على الحقيقة فيأباه مقام الاستهزاء اللهم الا أن يراد بالصلاة الدين كما قيل (قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة) أى حجة واضحة وبرهان نير عبر بها عما آتاه الله تعالى من النبوة والحكمة رداً على مقالتهم الشنعاء فى جعلهم أمره ونهيه غير مستند الى سند (من ربى) ومالك أمورى. وايراد حرف الشرط مع جزمه عليه السلام بكونه على ماهو عليه من البينات والحجج لاعتبار حال المخاطبين ومراعاة حسن المحاورة معهم كما ذكرناه فى نظائره (ورزقنى منه) أى من لدنه (رزقا حسناً) هو النبوة والحكمة أيضاً عبر عنهما بذلك تنبيها على أنهما مع كونهما بينة رزق حسن كيف لاوذلك مناط الحياة الابدية له ولأمته وجواب الشرط محذوف يدل عليه فحوى الكلام أى أتقولون فى شأنى ماتقولون والمعنى انكم نظمتمونى فى سلك السفهاء والغواة وعددتم ماصدر عنى من الأوامر والنواهى من قبيل مالايصح أن يتفوه به عاقل وجعلتموه من أحكام الوسوسة والجنون واستهزأتم بى وبأفعالى حتى قلتم أن ماأمرتكم به من التوحيد وترك عبادة الاصنام والاجتناب عن البخس والتطفيف ليس مما يأمر به آمر العقل ويقضى

به قاضى الفطنة وانما تأمر بهصلاتك التى هى من أحكام الوسوسة والجنون فأخبرونى أن كنت من جهة ربى ومالك أمورى ثابتا على النبوة والحكمة التى ليس وراءها غاية للكمال ولا مطمح لطامح ورزقنى بذلك رزقا حسنا أتقولون فى شأنى وشأن أفعالى ماتقولون مما لاخير فيه ولاشرور راءه هذا هو الجواب الذى يستدعيه السباق والسياق ويساعده النظم الكريم وأما ماقيل من أن المحذوف أيصح لى أن لا آمركم بترك عبادة الاوثان والكف عن المعاصى أوهل يسع لى مع هذا الانعام الجامع للسعادات الروحانية والجسمانية أن أخون فى وحيه وأخالفه فى أمره ونهيه فبمعزل من ذلك وانما يناسب تقديره أن حمل كلامهم على الحقيقة وأريد بالصلاة الدين على معنى أدينك يأمرك أن تكلفنا بترك عبادة آلهتنا القديمة وترك التصرف المطلق فى أموالنا وتخالفنا فى ذلك وتشق عصانا وهذا مما لاينبغى أن يصدر عنك فأنك أنت المشهور بالحلم الفاضل والرشد الكامل فيما بيننا كما كان قول قوم صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا مسروداً على ذلك النمط فاجيبوا بما أجيبوا به وعلى هذا الوجه يكون المراد بالرزق الحسن الحلال الذى آتاه الله تعالى والمعنى حينئذ أخبرونى ان كنت نبيا من عند الله تعالى ورزقنى مالاحلالا أستغنى به عن العالمين أيصح أن أخالف أمره وأوافقكم فيما تأتون وماتذرون (وما أريد) بنهيى أياكم عما أنهاكم وعنه من البخس والتطفيف (أن أخالفكم إلى ماأنهاكم عنه) أى أقصده بعد ما وليتم عنه واستبد به دونكم يقال خالفت زيداً الى كذا اذا قصدته وهو مول عنه وخالفته عن كذا اذا كان الامر على العكس (إن أريد) أى ما أريد بما أباشره من الامر والنهى (إلا الأصلاح) الا أن أصلحكم بالنصيحة والموعظة (ما استطعت) أى مقدار ما استطعته من الاصلاح والتقييد به للاحتراز عن الاكتفاء بالاصلاح فى الجملة لا عن ارادة ما ليس فى وسعه منه (وما توفيقى) أى كونى موفقا لتحقيق ما أنتحيه من اصلاحكم (إلا بالله) أى بتأييده ومعونته بل الاصلاح من حيث الخلق مستند اليه سبحانه وانما أنا من مباديه الظاهرة قاله عليه السلام تحقيقا للحق وازاحة لما عسى يوهمه اسناد الاستطاعة اليه بارادته من استبداده بذلك (عليه توكلت) فى ذلك معرضا عما عداه فانه القادر على كل مقدور وما عداه عاجز محض فى حد ذاته بل معدوم ساقط عن درجة الاعتبار بمعزل عن مرتبة الاستمداد به والاستظهار (وإليه أنيب) أى أرجع فيما أنا بصدده ويجوز أن يكون المراد وما كونى موفقا لاصابة الحق والصواب فى كل ما آتى وأذر الا بهدايته ومعونته عليه توكلت وهو اشارة الى محض التوحيد الذاتى والفعلى واليه أنيب أى عليه

أقبل بشراشر نفسي في مجامع أموري وايثار صيغة الاستقبال على الماضي الانسب للتقرر والتحقق كما في التوكل لاستحضار الصورة والدلالة على الأستمرار ولا يخفى ما في جوابه عليه السلام من مراعاة لطف المراجعة و رفق الاستنزال والمحافظة على قواعد حسن المجاراة والمحاورة وتمهيد معاقد الحق بطلب التوفيق من جناب الله تعالى والاستعانة به في أموره وحسم أطماع الكفار واظهار الفراغ عنهم وعدم المبالاة بمعاداتهم وأما تهديدهم بالرجوع الى الله تعالى للجزاء كما قيل فلا لان الانابة انما هى الرجوع الاختيارى بالفعل الى الله تعالى لا الرجوع الاضطرارى للجزاء أو ما يعمه (و ياقوم لا يجرمنكم) أى لا يكسبنكم من جرمته ذنبا مثل كسبته مالا (شقاقى) معاداتى وأصلهما أن أحد المتعاديين يكون فى عدوة وشق والآخر فى آخر (أن يصيبكم) مفعول ثان ليجرمنكم أى لا يكسبنكم معاداتكم لى أن يصيبكم (مثل ما أصاب قوم نوح) من الغرق (أو قوم هود) من الريح (أو قوم صالح) من الصيحة والرجفة وقرأ ابن كثير بضم الياء من أجرمته ذنبا اذا جعلته جارما له أى كاسبا وهو منقول من جرم المتعدي الى مفعول واحد كما نقل اكسبه المال من كسب المال فكما لافرق بين كسبته مالا وأكسبته اياه لافرق بين جرمته ذنبا وأجرمته اياه فى المعنى الا أن الاول أصح وأدور على ألسنة الفصحاء وقرأ أبو حيوة مثل ما أصاب بالفتح لاضافته الى غير متمكن كقوله:

لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت ۞ حمامة فى غصون ذات أوقال

وهذا وان كان بحسب الظاهر نهيا للشقاق عن كسب اصابة العذاب لكنه فى الحقيقة نهى للكفرة عن مشاقته عليه السلام على ألطف أسلوب وأبدعه كما مر فى سورة المائدة عند قوله تعالى «ولا يجرمنكم شنآن قوم» الآية (وماقوم لوط منكم ببعيد) زمانا أو مكانا فان لم تعتبروا بمن قبلهم من الامم المعدودة فاعتبروا بهم فكأنه انما غير أسلوب التحذير بهم ولم يصرح بما أصابهم بل اكتفى بذكر قربهم ايذانا بأن ذلك مغن عن ذكره لشهرة كونه منظوما فى سمط ما ذكر من دواهى الامم المرقومة أو ليسوا ببعيد منكم فى الكفر والمعاصى فلا يبعد أن يصيبكم مثل ما أصابهم وافراد البعيد مع تذكيره لان المراد وما اهلاكهم على نية المضاف أو وماهم بشىء بعيد لان المقصود افادة عدم بعدهم على الاطلاق لا من حيث خصوصية كونهم قوما أو ماهم فى زمان بعيد أو مكان بعيد ولا يبعد أن يكون ذلك لكونه على زنة المصادر كالنهيق والشهيق ولما أنذرهم عليه السلام بسوء عاقبة صنيعهم عقبه طمعا فى ارعوائهم عما كانوا فيه يعمهون من طغيانهم بالحمل على الاستغفار

والتوبة فقال (واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه) مر تفسير مثله فى أول السورة (إن ربى رحيم) عظيم الرحمة للتائبين (ودود) مبالغ فى فعل مايفعل البليغ المودة بمن يوده من اللطف والاحسان وهذا تعليل للامر بالاستغفار والتوبة وحث عليهما (قالوا ياشعيب ما نفقه كثيرا مما تقول) الفقه معرفة غرض المتكلم من كلامه أى ما نفهم مرادك وانما قالوه بعد ما سمعوا منه دلائل الحق المبين على أحسن وجه وابلغه وضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل فلم يجدوا الى محاورته سبيلا سوى الصدود عن منهاج الحق والسلوك الى سبيل الشقاء كما هو ديدن المفحم المحجوج يقابل البينات بالسب والابراق والارعاد فجعلوا كلامه المشتمل على فنون الحكم والمواعظ وأنواع العلوم والمعارف من قبيل مالا يفهم معناه ولايدرك فحواه وأدمجوا فى ضمن ذلك أن فى تضاعيفه ما يستوجب أقصى ما يكون من المؤاخذة والعقاب ولعل ذلك مافيه من التحذير من عواقب الامم السالفة ولذلك قالوا (وإنا لنراك فينا) فيما بيننا (ضعيفا) لاقوة لك ولاقدرة على شيء من الضر والنفع والايقاع والدفع (ولولا رهطك) لولا مراعاة جانبهم لا لولاهم بمانعونا ويدافعونا (لرجمناك) فان ممانعة الرهط وهو اسم للثلاثة الى السبعة أو الى العشرة لهم وهم ألوف مؤلفة مما لا يكاد يتوهم وقد أيد ذلك بقوله عز وجل (وما أنت علينا بعزيز) مكرم محترم حتى نمتنع من رجمك وانما نكف عنه للمحافظة على حرمة رهطك الذين ثبتوا على ديننا ولم يختاروك علينا ولم يتبعوك دوننا وايلاء الضمير حرف النفى وان لم يكن الخبر فعليا غير خال عن الدلالة على رجوع النفى الى الفاعل دون الفعل لاسيما مع قرينة قوله ولولا رهطك كأنه قيل وما أنت علينا بعزيز بل رهطك هم الاعزة علينا وحيث كان غرضهم من عظيمتهم هذه عائدا الى نفى ما فيه عليه السلام من القوة والعزة الربانيتين حسبما يوجبه كونه على بينة من ربه مؤيدا من عنده ويقتضيه قضية طلب التوفيق منه والتوكل عليه والانابة اليه والى اسقاط ذلك كله عن درجة الاعتداد به والاعتبار (قال) عليه السلام فى جوابهم (ياقوم أرهطي أعز عليكم من الله) فان الاستهانة بمن لا يتعزز الا به عز وجل استهانة بجنابه العزيز وانما أنكر عليهم أعزية رهطه منه تعالى مع أن ماأثبتوه انما هو مطلق عزة رهطه لا اعزيتهم منه عز وجل مع الاشتراك فى أصل العزة لتثنية التقريع وتكرير التوبيخ حيث أنكر عليهم أولا ترجيح جنبة الرهط على جنبة الله تعالى وثانيا بنفى العزة بالمرة والمعنى أرهطي أعز عليكم من الله فانه مما لايكاد يصح والحال انكم لم تجعلوا له تعالى حظا من العزة أصلا (واتخذتموه) بسبب عدم اعتدادكم بمن لايرد ولا يصدر الا بأمره (وراءكم

ظهريا) أى شيئا منبوذا وراء الظهر منسيا لايبالى به منسوب الى الظهر والكسر لتغيير النسب كالامسى فى النسبة الى الامس (إن ربى بما تعملون) من الاعمال السيئة التى من جملتها عدم مراعاتكم لجانبه (محيط) لايخفى عليه منها خافية وان جعلتموه منسيا فيجازيكم عليها ويحتمل أن يكون الانكار للرد والتكذيب فانهم لما ادعوا انهم لايكفون عن رجمه عليه السلام لقوته وعزته بل لمراعاة جانب رهطه رد عليهم ذلك بأنكم ماقدرتم الله حق قدره العزيز ولم تراعوا جنابه القوى فكيف تراعون جانب رهطى الاذلة (و ياقوم اعملوا) لما رأى عليه السلام اصرارهم على الكفر وأنهم لايرعوون عماهم عليه من المعاصى حتى اجترءوا على العظيمة التى هى الاستهانة به والعزيمة على رجمه لولا حرمة رهطه قال لهم على طريقة التهديد اعملوا (على مكانتكم) أى على غاية تمكنكم واستطاعتكم يقال مكن مكانة اذا تمكن أبلغ التمكن وانما قاله عليه السلام ردا لما ادعوا أنهم أقوياء قادرون على رجمه وأنه ضعيف فيما بينهم لاعزة له أو على ناحيتكم وجهتكم التى أنتم عليها من قولهم مكان ومكانة كمقام ومقامة . والمعنى اثبتوا على ماأنتم عليه من الكفر والمشاقة لى وسائر ما أنتم عليه مما لاخير فيه وابذلوا جهدكم فى مضارتى وايقاع مافى نيتكم واخراج مافى أمنيتكم من القوة الى الفعل (إنى عامل) على مكانتى حسبما يؤيدنى الله ويوفقنى بأنواع التأييد والتوفيق (سوف تعلمون) لما هددهم عليه السلام بقوله اعملوا على مكانتكم انى عامل كان مظنة أن يسأل منهم سائل فيقول فماذا يكون بعد ذلك فقيل سوف تعلمون (من يأتيه عذاب يخزيه) وصف العذاب بالاخزاء تعريضا بما أوعدوه عليه السلام به من الرجم فانه مع كونه عذابا فيه خزى ظاهر حيث لايكون الا بجناية عظيمة توجبه (ومن هو كاذب) عطف على من يأتيه لا على أنه قسيمه بل حيث أوعدوه بالرجم وكذبوه قيل سوف تعلمون من المعذب ومن الكاذب وفيه تعريض بكذبهم فى ادعائهم القوة والقدرة على رجمه عليه السلام وفى نسبته الى الضعف والهوان وفى ادعائهم الابقاء عليه لرعاية جانب الرهط والاختلاف بين المعطوفين بالفعلية والاسمية لان كذب الكاذب ليس بمرتقب كاتيان العذاب بل أنما المرتقب ظهور الكذب السابق المستمر ومن أما استفهامية معلقة للعلم عن العمل كانه قيل سوف تعلمون أينا يأتيه عذاب يخزيه وأينا كاذب واما موصولة أى سوف تعرفون الذى يأتيه عذاب والذى هو كاذب (وارتقبوا) وانتظروا مآل ما أقول (إنى معكم رقيب) منتظر فعيل بمعنى الراقب كالصريم أو المراقب كالعشير أو المرتقب كالرفيع وفى زيادة معكم اظهار منه عليه

السلام لكمال الوثوق بأمره (ولما جاء أمرنا) أى عذابنا كما ينبىء عنه قوله تعالى «سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه» أو وقته فان الارتقاب مؤذن بذلك (نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا) وهى الايمان الذى وفقناهم له أو برحمة كائنة منا لهم وانما ذكر بالواو كما فى قصة عاد لما انه لم يسبقه فيها ذكر وعد يجرى مجرى السبب المقتضى لدخول الفاء فى معلوله كما فى قصتى صالح ولوط فانه قد سبق هناك سابقة الوعد بقوله ذلك وعد غير مكذوب وقوله إن موعدهم الصبح (وأخذت الذين ظلموا) عدل اليه عن الضمير تسجيلا عليهم بالظلم واشعارا بأن ما أخذهم انما أخذهم بسبب ظلمهم الذى فصل فيما سبق فنونه (الصيحة) قيل صاح بهم جبريل عليه السلام فهلكوا وفى سورة الاعراف فأخذتهم الرجفة وفى سورة العنكبوت فأخذتهم الرجفة أى الزلزلة ولعلها من روادف الصيحة المستتبعة لتموج الهواء المفضى اليها كما مر فيما قبل (فأصبحوا فى ديارهم جاثمين) ميتين لازمين لأماكنهم لا براح لهم منها ولما لم يجعل متعلق العلم فى قوله تعالى «سوف تعلمون من يأتيه عذاب» الخ نفس مجىء العذاب بل من يجيئه ذلك جعل مجيئه بعد ذلك أمرا مسلم الوقوع غنيا عن الأخبار به حيث جعل شرطا وجعل تنجية شعيب عليه السلام واهلاك الكفرة جوابا له ومقصود الافادة وانما قدم تنجيته اهتماما بشأنها وإيذانا بسبق الرحمة التى هى مقتضى الربوبية على الغضب الذى يظهر اثره بموجب جرائرهم وجرائمهم (كأن لم يغنوا) أى لم يقيموا (فيها) متصرفين فى أطرافها متقلبين فى أكنافها (ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود) العدول عن الاضمار الى الاظهار ليكون أدل على طغيانهم الذى أداهم الى هذه المرتبة وليكون أنسب بمن شبه هلاكهم بهلاكهم أعنى ثمود وإنما شبه هلاكهم بهلاكهم لأنهما أهلكتا بنوع من العذاب وهو الصيحة غير أن هؤلاء صيح بهم من فوقهم وأولئك من تحتهم وقرىء بعدت بالضم على الاصل فان الكسر تغيير لتخصيص معنى البعد بما يكون سبب الهلاك والبعد مصدر لها والبعد مصدر للمكسور (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا) هى الآيات التسع المفصلات التى هى العصا واليد البيضاء والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ونقص الثمرات والانفس ومنهم من جعلهما آية واحدة وعد منها اظلال الجبل وليس كذلك فانه لقبول أحكام التوراة حين أباه بنو اسرائيل والباء متعلقة بمحذوف وقع حالا من مفعول أرسلنا أو نعتا لمصدره المؤكد أى أرسلناه حال كونه ملتبسا بآياتنا أو أرسلناه ارسالا ملتبسا بها (وسلطان مبين) هو المعجزات الباهرة منها أو هو العصا والافراد بالذكر لاظهار شرفها لكونها أبهرها أو المراد بالآيات ما عداها أوهما عبارتان

عن شىء واحد أي أرسلناه بالجامع بين كونه آياتنا وبين كونه سلطانا له على نبوته واضحا فى نفسه أو موضحا اياها من أبان لازما ومتعديا أو هو الغلبة والاستيلاء كقوله تعالى «ونجعل لكما سلطانا» ويجوز أن يكون المراد ما بينه عليه السلام فى تضاعيف دعوته حين قال له فرعون من ربكما فما بال القرون الأولى من الحقائق الرائقة والدقائق اللائقة وتجعله عبارة عن التوراة أو ادراجها فى جملة الآيات يرده قوله عز وجل (إلى فرعون وملئه) فان نزولها انما كان بعد مهلك فرعون وقومه قاطبة ليعمل بها بنو اسرائيل فيما يأتون وما يذرون. وأما فرعون وقومه فانما كانوا مأمورين بعبادة رب العالمين عز سلطانه وترك العظيمة الشنعاء التى كان يدعيها الطاغية ويقبلها منه فئته الباغية وبأرسال بنى اسرائيل من الاسر والقسر وتخصيص ملئه بالذكر مع عموم رسالته عليه السلام لقومه كافة لاصالتهم فى الرأى وتدبير الأمور واتباع غيرهم لهم فى الورود والصدور وانما لم يصرح بكفر فرعون بآيات الله تعالى وانهماكه فيما كان عليه من الضلال والاضلال بل اقتصر على ذكر شأن ملئه فقيل (فاتبعوا أمر فرعون) أى أمره بالكفر بما جاء به موسى عليه السلام من الحق المبين للايذان بوضوح حاله فكان كفره وأمر ملئه بذلك أمر محقق الوجود غير محتاج الى الذكر صريحا وانما المحتاج الى ذلك شأن ملئه المترددين بين هاد الى الحق وداع الى الضلال فنعى عليهم سوء اختيارهم. وايراد الفاء فى اتباعهم المترتب على أمر فرعون المبنى على كفره المسبوق بتبليغ الرسالة للاشعار بمفاجأتهم فى الاتباع ومسارعة فرعون إلى الكفر وأمرهم به فكأن ذلك كله لم يتراخ عن الارسال والتبليغ بل وقع جميع ذلك فى وقت واحد فوقع أثر ذلك اتباعهم ويجوز أن يراد بأمر فرعون شأنه المشهور وطريقته الزائغة فيكون معنى فاتبعوا فاستمروا على الاتباع والفاء مثل ما فى قولك وعظته فلم يتعظ وصحت به فلم ينزجر فان الاتيان بالشىء بعد ورود ما يوجب الاقلاع عنه وان كان استمرارا عليه لكنه بحسب العنوان فعل جديد ووضع حادث فتأمل وترك الاضمار لدفع توهم الرجوع الى موسى عليه السلام من أول الأمر ولزيادة تقبيح حال المتبعين فان فرعون علم فى الفساد والافساد والضلال والاضلال فاتباعه لفرط الجهالة وعدم الاستبصار وكذا الحال فى قوله تعالى (وما أمر فرعون برشيد) الرشد ضد الغى وقد يراد به محمودية العاقبة فهو على الاول بمعنى المرشد أو ذى الرشد حقيقة لغوية والاسناد مجازى وعلى الثانى مجاز والاسناد حقيقى (يقدم قومه) جميعا من الأشراف وغيرهم (يوم القيامة) أى يتقدمهم من قدمه بمعنى تقدمه وهو استئناف لبيان حاله فى الآخرة أى كما كان قدوة لهم فى الضلال كذلك

يتقدمهم الى النار وهم يتبعونه أو لتوضيح عدم صلاح مآل أمره وسوء عاقبته (فأوردهم النار) أى يوردهم . وايثار صيغة الماضى للدلالة على تحقق الوقوع لامحالة شبه فرعون بالفارط الذى يتقدم الواردة الى الماء وأتباعه بالواردة والنار بالماء الذى يردونه ثم قيل (وبئس الورد المورود) أى بئس الورد الذى يردونه النار لان الورد انما يراد لتسكين العطش وتبريد الاكباد والنار على ضد ذلك (وأتبعوا) أى الملأ الذين اتبعوا أمر فرعون (فى هذه) أى فى الدنيا (لعنة) عظيمة حيث يلعنهم من بعدهم من الأمم إلى يوم القيامة (ويوم القيامة) أيضاحيث يلعنهم أهل الموقف قاطبة فهى تابعة لهم حيثما ساروا دائرة معهم أينما داروا فى الموقف فكما اتبعوا فرعون اتبعتهم اللعنة فى الدارين جزاء وفاقا . واكتفى ببيان حالهم الفظيع وشأنهم الشنيع عن بيان حال فرعون إذ حين كان حالهم هكذا فما ظنك بحال من أغواهم وألقاهم فى هذا الضلال البعيد وحيث كان شأن الأتباع أن يكونوا أعوانا للمتبوع جعلت اللعنة رفدا لهم على طريقة التهكم فقيل (بئس الرفد المرفود) أى بئس العون المعان وقد فسر الرفد بالعطاء ولا يلائمه المقام وأصله مايضاف الى غيره ليعمده والمخصوص بالذم محذوف أى رفدهم وهى اللعنة فى الدارين وكونه مرفودا من حيث ان كل لعنة منها معينة وممدة لصاحبتها ومؤيدة لها (ذلك) اشارة الى ماقص من أنباء الامم وبعده باعتبار تقضيه فى الذكر والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مبتدأ خبره (من أنباء القرى) المهلكة بما جنته أيدى أهلها (نقصه عليك) خبر بعد خبر أى ذلك النبأ بعض أنباء القرى مقصوص عليك (منها) أى من تلك القرى (قائم وحصيد) أى ومنها حصيد حذف لدلالة الاول عليه شبه مابقى منها بالزرع القائم على ساقه وما عفا وبطل بالحصيد والجملة مستأنفة لامحل لها من الاعراب (وما ظلمناهم) بان أهلكناهم (ولكن ظلموا أنفسهم) بأن جعلوها عرضة للهلاك باقتراف مايوجبه (فما أغنت عنهم) فما نفعتهم ولادفعت بأس الله تعالى عنهم (آلهتهم التى يدعون) أى يعبدونها (من دون الله) أوثر صيغة المضارع حكاية للحال الماضية أو دلالة على استمرار عبادتهم لها (من شىء) فى موضع المصدر أى شيئا من الاغناء (لما جاء أمر ربك) أى حين مجىء عذابه وهو منصوب بأغنت وقرىء آلهتهم اللاتى ويدعون على البناء للمجهول (وما زادوهم غير تتبيب) أى اهلاك وتخسير فانهم انما هلكوا وخسروا بسبب عبادتهم لها (وكذلك) أى ومثل ذلك الاخذ الذى مر بيانه وهو رفع على الابتداء وخبره قوله (أخذ ربك) وقرىء أخذ ربك فمحل

الكاف النصب على انه مصدر مؤكد (إذا أخذ القرى) أى أهلها وانما أسند اليها للاشعار بسريان أثره اليها حسبما ذكر وقرئ اذ أخذ (وهى ظالمة) حال من القرى وهى فى الحقيقة لاهلها لكنها لما أقيمت مقامهم فى الاخذ أجريت الحال عليها وفائدتها الاشعار بانهم انما أخذوا بظلمهم ليكون ذلك عبرة لكل ظالم (إن أخذه أليم شديد) وجيع صعب على المأخوذ لايرجى منه الخلاص وفيه مالايخفى من التهديد والتحذير (إن فى ذلك) أى فى أخذه تعالى للامم المهلكة أو فى قصصهم (لآية) لعبرة (لمن خاف عذاب الآخرة) فانه المعتبر به حيث يستدل بما حاق بهم من العذاب الشديد بسبب ما عملوا من السيئات على أحوال عذاب الآخرة وأما من أنكر الآخرة وأحال فناء العالم وزعم أن ليس هو ولا شىء من أحواله مستندا الى الفاعل المختار وأن ما يقع فيه من الحوادث فانما يقع لاسباب تقتضيه من أوضاع فلكية تتفق فى بعض الأوقات لا لماذكر من المعاصى التى تقترفها الامم الهالكة فهو بمعزل من هذا الاعتبار تبا لهم ولما لهم من الافكار (ذلك) اشارة الى يوم القيامة المدلول عليه بذكر الآخرة (يوم مجموع له الناس) أى يجمع له الناس للمحاسبة والجزاء والتغيير للدلالة على ثبات معنى الجمع وتحقق وقوعه لا محالة وعدم انفكاك الناس عنه فهو أبلغ من قوله تعالى « يوم يجمعكم ليوم الجمع » (وذلك) أى يوم القيامة مع ملاحظة عنوان جمع الناس له (يوم مشهود) أى مشهود فيه حيث يشهد فيه أهل السموات والأرضين فاتسع فيه باجراء الظرف مجرى المفعول به كما فى قوله : فى محفل من نواصى الناس مشهود : أى كثير شاهدوه ولو جعل نفس اليوم مشهودا لفات ماهو الغرض من تعظيم اليوم وتهويله وتمييزه عن غيره فان سائر الايام أيضا كذلك (وما نؤخره) أى ذلك اليوم الملحوظ بعنوانى الجمع والشهود (إلا لأجل معدود) ألا لانقضاء مدة قليلة مضروبة حسبما تقتضيه الحكمة (يوم يأت) أى حين يأتى ذلك اليوم المؤخر بانقضاء أجله كقوله تعالى «أن تأتيهم الساعة» وقيل يوم يأتى الجزاء الواقع فيه وقيل أى الله عز وجل فان المقام مقام تفخيم شأن اليوم وقرىء باثبات الياء على الاصل (لاتكلم نفس) أى لاتتكلم بما ينفع وينجى من جواب أو شفاعة وهو العامل فى الظرف أو الانتهاء المحذوف فى قوله تعالى «إلا لأجل معدود» أى ينتهى الاجل يوم يأتى أو المضمر المعهود أعنى اذكر (إلا باذنه) عز سلطانه فى التكلم كقوله تعالى «لايتكلمون إلا من أذن له الرحمن» وهذا فى موطن من مواطن ذلك اليوم وقوله عز وجل «هذا يوم لاينطقون ولايؤذن لهم فيعتذرون» فى موقف آخر من مواقفه كما أن قوله سبحانه «يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها» فى

آخر منها أو المأذون فيه الجوابات الحقة والممنوع عنه الاعذار الباطلة نعم قد يؤذن فيها أيضا لاظهار بطلانها كما فى قول الكفرة والله ربنا ما كنا مشركين ونظائره (فنهم شقى) وجبت له النار بموجب الوعيد (وسعيد) أى ومنهم سعيد حذف الخبر لدلالة الاول عليه وهو من وجبت له الجنة بمقتضى الوعد والضمير لاهل الموقف المدلول عليهم بقوله لاتكلم نفس أو للناس وتقديم الشقى على السعيد لأن المقام مقام التحذير والانذار (فأما الذين شقوا) أى سبقت لهم الشقاوة (ففى النار) أى مستقرون فيها (لهم فيها زفير وشهيق) الزفير اخراج النفس والشهيق رده واستعمالهما فى أول النهيق وآخره قال الشماخ يصف حمار الوحش:

بعيد مدى التطريب أول صوته ‏ ‏ زفير ويتلوه شهيق محشرج

والمراد بهما وصف شدة كربهم وتشبيه حالهم بحال من استولت على قلبه الحرارة وانحصر فيه روحه أو تشبيه صراخهم بأصوات الحمير. وقرىء شقوا بالضم والجملة مستأنفة كأن سائلا قال ماشأنهم فيها فقيل لهم فيها كذا وكذا أو منصوبة المحل على الحالية من النار أو من الضمير فى الجار والمجرور كقوله عز اسمه (خالدين فيها) خلا أنه أن أريد حدوث كونهم فى النار فالحال مقدرة (مادامت السموات والأرض) أى مدة دوامهما وهذا التوقيت عبارة عن التأبيد ونفى الانقطاع بناء على منهاج قول العرب: مادام تعار وما أقام ثبير وما لاح كوكب وما اختلف الليل والنهار وما طما البحر وغير ذلك من كلمات التأبيد لاتعليق قرارهم فيها بدوام هذه السموات والارض فان النصوص القاطعة دالة على تأبيد قرارهم فيها وانقطاع دوامهما وان أريد التعليق فالمراد سموات الآخرة وأرضها كما يدل على ذلك النصوص كقوله تعالى «يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات» وقوله تعالى «وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء» وجزم كل أحد بان أهل الآخرة لا بد لهم من مظلة ومقلة دائمتين يكفى فى تعليق دوام قرارهم فيها بدوامهما ولا حاجة الى الوقوف على تفاصيل أحوالها وكيفياتهما (إلا ماشاء ربك) استثناء من الخلود على طريقة قوله تعالى «لايذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى» وقوله «ولا تنكحوا مانكح آباؤكم من النساء الاماقد سلف» وقوله تعالى «حتى يلج الجمل فى سم الخياط» غير أن استحالة الأمور المذكورة معلومة بحكم العقل واستحالة تعلق المشيئة بعدم الخلود معلومة بحكم النقل يعنى أنهم مستقرون فى النار فى جميع الأزمنة الا فى زمان مشيئة الله تعالى لعدم قرارهم فيها واذلا امكان لتلك المشيئة ولا لزمانها بحكم النصوص

القاطعة الموجبة للخلود فلا امكان لانتهاء مدة قرارهم فيها ولدفع ماعسى يتوهم من كون استحالة تعلق مشيئة الله تعالى بعدم الخلود بطريق الوجوب على الله تعالى قال (إن ربك فعال لما يريد) يعنى أنه فى تخليد الاشقياء فى النار بحيث يستحيل وقوع خلافه فعال بموجب إرادته قاض بمقتضى مشيئته الجارية على سنن حكمته الداعية الى ترتيب الأجزية على افعال العباد. والعدول من الاضمار الى الاظهار لتربية المهابة وزيادة التقرير. وقيل هو استثناء من الخلود فى عذاب النار فانهم لايخلدون فيه بل يعذبون بالزمهرير وبأنواع أخر من العذاب وبما هو أغلظ منها كلها وهو سخط الله تعالى عليهم وخسؤه لهم وأهانته أياهم وأنت تدرى أنا وإن سلمنا أن المراد بالنار ليس مطلق دار العذاب المشتملة على أنواع العذاب بل نفس النار فما خلا عذاب الزمهرير من تلك الأنواع مقارن لعذاب النار فلا مصداق فى ذلك للاستثناء. ولك أن تقول أنهم ليسوا بمخلدين فى العذاب الجسمانى الذى هو عذاب النار بل لهم من أفانين العذاب مالا يعلمه الا الله سبحانه وهو العقوبات والآلام الروحانية التى لايقف عليها فى هذه الحياة الدنيا المنغمسون فى أحكام الطبيعة المقصور ادراكهم على ماألفوا من الاحوال الجسمانية وليس لهم استعداد لتلقى ماوراء ذلك من الأحوال الروحانية اذا ألقى اليهم ولذلك لم يتعرض لبيانه واكتفى بهذه المرتبة الاجمالية المنبئة عن التهويل وهذه العقوبات وان كانت تعتريهم وهم فى النار لكنهم ينسون بها عذاب النار ولا يحسون به وهذه المرتبة كافية فى تحقيق معنى الاستثناء هذا وقد قيل الا بمعنى سوى وهو أوفق بما ذكر. وقيل ما بمعنى من على ارادة معنى الوصفية فالمعنى أن الذين شقوا فى النار مقدرين الخلود فيها الا الذين شاء الله عدم خلودهم فيها وهم عصاة المؤمنين (وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض) الكلام فيه كالكلام فيما سبق خلا أنه لم يذكر ههنا أن لهم فيها بهجة وسرورا كما ذكر فى أهل النار من أنه لهم فيها زفير وشهيق لأن المقام مقام التحذير والانذار (إلا ماشاء ربك) ان حمل على طريقة التعليق بالمحال فقوله سبحانه (عطاء غير مجذوذ) نصب على المصدرية من معنى الجملة لأن قوله ففى الجنة خالدين فيها يقتضى اعطاء وأنعاما فكأنه قيل يعطيهم عطاء وهو اما اسم مصدر هو الاعطاء أو مصدر بحذف الزوائد كقوله تعالى «أنبتكم من الأرض نباتا» وان حمل على ما أعدالله لعباده الصالحين من النعيم الروحانى الذى عبر عنه بما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر فهو نصب على الحالية من المفعول المقدر للمشيئة أو تمييز فان نسبة

مشيئة الخروج الى الله تعالى يحتمل أن تكون على جهة عطاء مجذوذ وعلى جهة عطاء غير مجذوذ فهو رافع للابهام عن النسبة قال ابن زيد اخبرنا الله تعالى بالذى يشاء لاهل الجنة فقال عطاء غير مجذوذ ولم يخبرنا بالذى يشاء لاهل النار ويجوز أن يتعلق بكلا النعيمين أو بالاول دفعا لما يتوهم من ظاهر الاستثناء من انقطاعه (فلا تك فى مرية) أى فى شك والفاء لترتيب النهى على ما قص من القصص وبين فى تضاعيفها من العواقب الدنيوية والاخروية (مما يعبد هؤلاء) أى من جهة عبادة هؤلاء المشركين وسوء عاقبتها أو من حال ما يعبدونه من الاوثان من عدم نفعه لهم ولما كان مساق النظم الكريم قبيل الشروع فى القصص لبيان غاية سوء حال الكفرة وكمال حسن حال المؤمنين وقد ضرب لهم مثل فقيل «مثل الفريقين كالاعمى والاصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون» وقد قص عقيب ذلك من أنباء الامم السالفة مع رسلهم المبعوثة اليهم ما يتذكر به المتذكر نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كونه فى شك من مصير أمر هؤلاء المشركين فى العاجل والآجل ثم علل ذلك بطريق الاستئناف فقيل (ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم) الذين قصت عليك قصصهم (من قبل) أى هم وآباؤهم سواء فى الشرك مايعبدون عبادة الا كعبادتهم أو ما يعبدون شيئا الا مثل ما عبدوه من الاوثان. والعدول إلى صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها أو مثل ما كانوا يعبدونه فحذف كان لدلالة قوله من قبل عليه ولقد بلغك ما لحق بآبائهم فسيلحقهم مثل ذلك فان تماثل الاسباب يقتضى تماثل المسببات (وإنا لموفوهم) أى هؤلاء الكفرة (نصيبهم) أى حظهم المعين لهم حسب جرائمهم وجرائرهم من العذاب عاجلا وآجلا كما وفينا آباءهم أنصباءهم المقدرة لهم أو من الرزق المقسوم لهم فيكون بيانا لوجه تأخر العذاب عنهم مع تحقق ما يوجبه (غير منقوص) حال مؤكدة من النصيب كقوله تعالى «ثم وليتم مدبرين» وفائدته دفع توهم التجوز وجعلها مقيدة له لدفع احتمال كونه منقوصا فى حد نفسه مبنى على الذهول عن كون العامل هو التوفية فتأمل (ولقد آتينا موسى الكتاب) أى التوراة (فاختلف فيه) أى فى شأنه وكونه من عند الله تعالى فآمن به قوم وكفر به آخرون فلا تبال باختلاف قومك فيما آتيناك من القرآن وقولهم لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك وزعمهم انك افتريته (ولولا كلمة سبقت من ربك) وهى كلمة القضاء بانظارهم الى يوم القيامة على حسب الحكمة الداعية الى ذلك (لقضى بينهم) أى لأوقع القضاء بين المختلفين من قومك بانزال العذاب الذى يستحقه المبطلون ليتميزوا به عن المحقين. وقيل بين قوم موسى وليس بذاك

(وإنهم)أى وان كفار قومك أريد به بعض من رجع اليهم ضمير بينهم للأمن من الالباس (لفى شك) عظيم (منه) أى من القرآن وان لم يجر له ذكر فان ذكر ايتاء كتاب موسى ووقوع الاختلاف فيه لاسيما بصدد التسلية ينادى به نداء غير خفى (مريب) موقع فى الريبة (وإن كلا) التنوين عوض عن المضاف اليه وان كل المختلفين فيه المؤمنين منهم والكافرين وقرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر بالتخفيف مع الاعمال اعتبارا للاصل (لما ليوفينهم ربك أعمالهم) أى أجزية أعمالهم واللام الاولى موطئة للقسم والثانية جواب للقسم المحذوف ولما مركبة من من الجارة وما الموصولة أو الموصوفة وأصلها لمن ما فقبلت النون ميما للادغام فاجتمع ثلاث ميمات فحذفت أولاهن والمعنى لمن الذى أو لمن خلق أولمن فريق والله ليوفينهم ربك وقرىء لما بالتخفيف على أن مامزيدة للفصل بين اللامين والمعنى وان جميعهم والله ليوفينهم الآية وقرىء لما بالتنوين أى جميعا كقوله سبحانه «أكلا لما» وقرأ أبى وان كل لما ليوفينهم على أن إن نافية ولما بمعنى الاوقد قرىء به (إنه بما يعملون) أى بما يعمله كل فرد من المختلفين من الخير والشر (خبير) بحيث لايخفى عليه شىء من جلائله ودقائقه وهو تعليل لما سبق من توفية أجزية أعمالهم فان الاحاطة بتفاصيل أعمال الفريقين وما يستوجبه كل عمل بمقتضى الحكمة من الجزاء المخصوص توجب توفية كل ذى حق حقه ان خيرا فخير وان شرا فشر (فاستقم كما أمرت) لمابين فى تضاعيف القصص المحكية عن الامم الماضية سوء عاقبة الكفر وعصيان الرسل وأشير الى أن حال هؤلاء الكفرة فى الكفر والضلال واستحقاق العذاب مثل أولئك المعذبين وأن نصيبهم من العذاب واصل اليهم من غير نقص وأن تكذيبهم للقرآن مثل تكذيب قوم موسى عليه السلام للتوراة وانه لو لم تسبق كلمة القضاء بتأخير عقوبتهم العامة ومؤاخذتهم التامة الى يوم القيامة لفعل بهم ما فعل بآبائهم من قبل وأنهم يوفون نصيبهم غير منقوص وأن كل واحد من المؤمنين والكافرين يوفى جزاء عمله أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاستقامة كما أمر به فى العقائد والاعمال المشتركة بينه وبين سائر المؤمنين ولاسيما الاعمال الخاصة به عليه السلام من تبليغ الاحكام الشرعية والقيام بوظائف النبوة وتحمل أعباء الرسالة بحيث يدخل تحته ماأمر به فيما سبق من قوله تعالى «فلعلك تارك بعض مايوحى إليك وضائق به صدرك» الآية وبالجملة فهذا الامر منتظم لجميع محاسن الاحكام الاصلية والفرعية والكمالات النظرية والعملية والخروج عن عهدته فى غاية ما يكون من الصعوبة ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : شيبتنى سورة هود ؛

(ومن تاب معك) أي تاب من الشرك والكفر وشاركك فى الايمان وهو المعنى بالمعية وهو معطوف على المستكن فى قوله فاستقم وحسن من غير تأكيد لمكان الفصل القائم مقامه وفى الحقيقة هو من عطف الجملة على الجملة اذ المعنى وليستقم من تاب معك وقيل هو منصوب على أنه مفعول معه كما قاله أبو البقاء والمعنى استقم مصاحبا لمن تاب معك (ولا تطغوا) ولا تنحرفوا عما حد لكم بافراط أو تفريط فان كلا طرفى قصد الأمور ذميم. وانما سمى ذلك طغيانا وهو تجاوز الحد تغليظا أو تغليبا لحال سائر المؤمنين على حاله عليه السلام (إنه بما تعملون بصير) فيجازيكم على ذلك وهو تعليل للأمر والنهى وفى الآية دلالة على وجوب اتباع المنصوص عليه من غير انحراف بمجرد الرأى فانه طغيان وضلال وأما العمل بمقتضى الاجتهاد التابع لعلل النصوص فذلك من باب الاستقامة كما أمر على موجب النصوص الآمرة بالاجتهاد (ولا تركنوا) أى لا تميلوا أدنى ميل (إلى الذين ظلموا) أى الى الذين وجد منهم الظلم فى الجملة ومدار النهى هو الظلم والجمع باعتبار جمعية المخاطبين وما قيل من أن ذلك للمبالغة فى النهى من حيث أن كونهم جماعة مظنة الرخصة فى مداهنتهم انما يتم أن لو كان المراد النهى عن الركون اليهم من حيث أنهم جماعة وليس كذلك (فتمسكم) بسبب ذلك (النار) واذا كان حال الميل فى الجملة الى من وجد منه ظلم ما فى الافضاء الى مساس النار هكذا فما ظنك بمن يميل الى الراسخين فى الظلم والعدوان ميلا عظيما ويتهالك على مصاحبتهم ومنادمتهم ويلقى شراشره على مؤانستهم ومعاشرتهم ويبتهج بالتزيى بزيهم ويمد عينيه الى زهرتهم الفانية ويغبطهم بما أوتوا من القطوف الدانية وهو فى الحقيقة من الحبة طفيف ومن جناح البعوض خفيف بمعزل عن أن تميل اليه القلوب ضعف الطالب والمطلوب والآية أبلغ مايتصور فى النهى عن الظلم والتهديد عليه وخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين للتثبيت على الاستقامة التى هى العدل فان الميل الى أحد طرفى الافراط والتفريط ظلم على نفسه أو على غيره وقرىء تركنوا على لغة تميم وتركنوا على صيغة البناء للمفعول من أركنه (وما لكم من دون الله من أولياء) أى من أنصار ينقذونكم من النار والجملة نصب على الحالية من قوله فتمسكم النار ونفى الاولياء ليس بطريق نفى أن يكون لكل واحد منهم أولياء حتى يصدق أن يكون له ولى بل لمكان لكم بطريق انقسام الآحاد على الآحاد لكن لا على معنى نفى استقلال كل منهم بنصير بل على معنى نفى أن يكون لواحد منهم نصير بقرينة المقام (ثم لا تنصرون) من جهة الله سبحانه اذ قد سبق فى حكمه أن يعذبكم

بركونكم اليهم ولا يبقى عليكم وثم لتراخى رتبة ونهم غير منصورين من جهة الله بعد ما أوعدهم بالعذاب وأوجبه عليهم ويجوز أن يكون منزلا منزلة الفاء بمعنى الاستبعاد فانه لما بين أن الله تعالى معذبهم وأن غيره لاينقذهم أنتج أنهم لاينصرون أصلا (وأقم الصلوة طرفى النهار) أى غدوة وعشية وانتصابه على الظرفية لكونه مضافا الى الوقت (وزلفا من الليل) أى ساعات منه قريبة من النهار فانه من أزلفه اذا قربه جمع زلفة عطف على طرفى النهار والمراد بصلاتهما صلاة الغداة والعصر وقيل الظهر موضع العصر لان مابعد الزوال عشى وبصلاة الزلف المغرب والعشاء وقرىء زلفا بضمتين وضمة وسكون كبسر وبسر وزلفى بمعنى زلفة كقربى بمعنى قربة (إن الحسنات) التى من جملتها بل عمدتها ما أمرت به من الصلوات (يذهبن السيآت) التى قلما يخلو منها البشر أى يكفرنها وفى الحديث: إن الصلاة الى الصلاة كفارة لما بينهما ما اجتنب الكبائر. وقيل نزلت فى أبى اليسر الانصارى أذ قبل امرأة ثم ندم فأتى رسول الله صلى الله عليه فأخبره بما فعل فقال عليه السلام: أنتظر أمر ربى فلما صلى صلاة العصر نزلت قال عليه السلام نعم اذهب فانها كفارة لما عملت أو يمنعن من اقترافها كقوله تعالى «إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر» (ذلك) اشارة الى قوله تعالى فاستقم فما بعده وقيل الى القرآن (ذكرى للذاكرين) أى عظة للمتعظين (واصبر) على مشاق ما أمرت به فى تضاعيف الاوامر السابقة وأما مانهى عنه من الطغيان والركون الى الذين ظلموا فليس فى الانتهاء عنه مشقة فلا وجه لتعميم الصبر له اللهم الا أن يراد به ما لا يمكن عادة خلو البشر عنه من أدنى ميل بحكم الطبيعة عن الاستقامة المأمور بها ومن يسير ميل بحكم البشرية الى من وجد منه ظلم ما فان فى الاحتراز عن أمثاله من المشقة ما لا يخفى (فان الله لا يضيع أجر المحسنين) أى يوفيهم أجور أعمالهم من غير بخس أصلا وانما عبر عن ذلك بنفى الاضاعة مع أن عدم اعطاء الاجر ليس باضاعة حقيقة كيف لا والاعمال غير موجبة للثواب حتى يلزم من تخلفه عنها ضياعها لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يمتنع صدوره عنه سبحانه من القبائح وابراز الاثابة فى معرض الامور الواجبة عليه وانما عدل عن الضمير ليكون كالبرهان على المقصود مع افادة فائدة عامة لكل من يتصف به وهو تعليل للامر بالصبر وفيه ايماء الى أن الصبر على ما ذكر من باب الاحسان (فلولا كان) فهلا كان (من القرون) الكائنة (من قبلكم) على رأى من جوز حذف الموصول مع بعض صلته أو كائنة من قبلكم (أولو بقية) من الرأى والعقل أو أولو فضل وخير وسميا بها لان الرجل انما يستبقى مما يخرجه عادة

أجوده وأفضله فصار مثلا فى الجودة والفضل ويقال فلان من بقية القوم أى من خيارهم ومنه ما قيل: فى الزوايا خبايا وفى الرجال بقايا. ويجوز أن تكون البقية بمعنى البقوى كالتقية من التقوى أى فهلا كان منهم ذو وابقاء على أنفسهم وصيانة لها من سخط الله تعالى وعقابه ويؤيده أنه قرئ أولو بقية وهى المرة من مصدر بقاه يبقيه اذا راقبه وانتظره أى أولو مراقبة وخشية من عذاب الله تعالى كأنهم ينتظرون نزوله لاشفاقهم (ينهون عن الفساد فى الأرض) الواقع منهم حسب ما حكى عنهم (إلا قليلا ممن أنجينا منهم) استثناء منقطع أى لكن قليلا منهم أنجيناهم لكونهم على تلك الصفة على أن من للبيان لا للتبعيض لان جميع الناجين ناهون ولا صحة الاتصال على ظاهر الكلام لانه سيكون تحضيضا لاولى البقية على النهى المذكور الا للقليل من الناجين منهم كما اذا قلت هلا قرأ قومك القرآن الا الصلحاء منهم مريدا الاستثناء الصلحاء من المحضضين على القراءة نعم يصح ذلك ان جعل استثناء من النفى اللازم للتحضيض فكأنه قيل ما كان من القرون أولو بقية الا قليلا منهم لكن الرفع هو الافصح حينئذ على البدلية (واتبع الذين ظلموا) بمباشرة الفساد وترك النهى عنه (ما أترفوا فيه) أى أنعموا من الشهوات واهتموا بتحصيلها أما المباشرون فظاهر وأما المساهلون فلما لهم فى ذلك من نيل حظوظهم الفاسدة وقيل المراد بهم تاركو النهى وانت خبير بأنه يلزم منه عدم دخول مباشرى الفساد فى الظلم والاجرام عبارة (وكانوا مجرمين) أى كافرين فهو بيان لسبب استئصال الامم المهلكة وهو فشو الظلم واتباع الهوى فيهم وشيوع ترك النهى عن المنكرات مع الكفر وقوله واتبع عطف على مضمر دل عليه الكلام أى لم ينهوا واتبع الخ فيكون العدول الى المظهر لادراج المباشرين معهم فى الحكم والتسجيل عليهم بالظلم وللاشعار بعلية ذلك لما حاق بهم من العذاب أو على استئناف يترتب على قوله إلا قليلا أى إلا قليلا ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد واتبع الذين ظلموا من مباشرى الفساد وتاركى النهى عنه فيكون الاظهار مقتضى الظاهر وقوله وكانوا مجرمين عطف على أترفوا أى اتبعوا الاتراف وكونهم مجرمين لان تابع الشهوات مغمور بالآثام أو أريد بالاجرام اغفالهم للشكر أو على اتبع أى اتبعوا شهواتهم وكانوا بذلك الاتباع مجرمين ويجوز أن يكون اعتراضا وتسجيلا عليهم بأنهم قوم مجرمون وقرئ وأتبع أى أتبعوا جزاء ما أترفوا فتكون الواو للحال ويجوز أن يفسر به المشهورة ويعضده تقدم الانجاء (وما كان ربك ليهلك القرى) أى ماصح وما استقام بل استحال فى الحكمة أن يهلك القرى التى أهلكها حسبما بلغك

أنباؤها ويعلم من ذلك حال باقيها من القرى الظالمة واللام لتأكيد النفى وقوله (بظلم) أى ملتبساً به قيل هو حال من الفاعل أى ظالما لها والتنكير للتفخيم والايذان بأن اهلاك المصلحين ظلم عظيم والمراد تنزيه الله تعالى عن ذلك بالكلية بتصويره بصورة مايستحيل صدوره عنه تعالى والا فلا ظلم فيما فعله الله تعالى بعباده كائنا ما كان لما تقرر من قاعدة أهل السنة وقد مر تفصيله فى سورة آل عمران عند قوله تعالى «وأن الله ليس بظلام للعبيد» وقوله تعالى (وأهلها مصلحون) حال من المفعول والعامل عامله ولكن لاباعتبار تقيده بما وقع حالا من فاعله أعنى بظلم لدلالته على تقيد نفى الاهلاك ظلما بحال كون أهلها مصلحين ولا ريب فى فساده بل مطلقا عن ذلك وقيل المراد بالظلم الشرك والباء للسببية أى لا يهلك القرى بسبب اشراك أهلها وهم مصلحون يتعاطون الحق فيما بينهم ولا يضمون الى شركهم فسادا آخر وذلك لفرط رحمته ومسامحته فى حقوقه تعالى ومن ذلك قدم الفقهاء عند تزاحم الحقوق حقوق العباد الفقراء على حقوق الله تعالى الغنى الحميد . وقيل الملك يبقى مع الشرك ولا يبقى مع الظلم وأنت تدرى أن مقام النهى على المنكرات التى أقبحها الاشراك بالله لا يلائمه فان الشرك داخل فى الفساد فى الأرض دخولا أوليا ولذلك كان ينهى كل من الرسل الذين قصت أنباؤهم أمته أولا عن الاشراك ثم عن سائر المعاصى التى كانوا يتعاطونها فالوجه حمل الظلم على مطلق الفساد الشامل للشرك وغيره من أصناف المعاصى وحمل الاصلاح على إصلاحه والاقلاع عنه بكون بعضهم متصدين للنهى عنه وبعضهم متوجهين إلى الاتعاظ غير مصرين على ماهم عليه من الشرك وغيره من أنواع الفساد (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) مجتمعة على الحق ودين الاسلام بحيث لا يكاد يختلف فيه أحد ولكن لم يشأ ذلك فلم يكونوا متفقين على الحق (ولا يزالون مختلفين) فى الحق أى مخالفين له كقوله تعالى «وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البينات بغيا بينهم» (إلا من رحم ربك) الاقوما قد هداهم الله تعالى بفضله الى الحق فاتفقوا عليه ولم يختلفوا فيه أى لم يخالفوه وحمله على مطلق الاختلاف الشامل لما يصدر من المحق والمبطل يأباه الاستثناء المذكور (ولذلك) أى ولما ذكر من الاختلاف خلقهم أى الذين بقوا بعد الثنيا وهم المختلفون فاللام للعاقبة أو للترحم فالضمير لمن واللام فى معناها أو لهما معا فالضمير للناس كافة واللام بمعنى مجازى عام لكلا المعنيين (وتمت كلمة ربك) أى وعيده أو قوله للملائكة (لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) أى من عصاتهما أجمعين أو منهما أجمعين لامن أحدهما (وكلا) أى وكل

نبأ فالتنوين عوض عن المضاف اليه (نقص عليك) نخبرك به وقوله تعالى (من أنباء الرسل) بيان لكلا وقوله تعالى (ماتثبت به فؤادك) بدل منه والاظهر أن يكون المضاف اليه المحذوف فى كلا المفعول المطلق لنقص أى كل اقتصاص أى كل أسلوب من أساليبه نقص عليك من أنباء الرسل وقوله تعالى ماتثبت به فؤادك مفعول نقص وفائدته التنبيه على أن المقصود بالاقتصاص زيادة يقينه عليه السلام وطمأنينة قلبه وثبات نفسه على أداء الرسالة واحتمال أذية الكفار بالوقوف على تفاصيل أحوال الامم السالفة فى تماديهم فى الضلال وما لقى الرسل من جهتهم من مكابدة المشاق (وجاءك فى هذه) السورة أو الانباء المقصوصة عليك (الحق) الذى لامحيد عنه (وموعظة وذكرى للمؤمنين) أى الجامع بين كونه حقا فى نفسه وكونه موعظة وذكرى للمؤمنين ولكون الوصف الاول حالاله فى نفسه حلى باللام دون ما هو وصف له بالقياس الى غيره وتقديم الظرف أعنى فى هذه على الفاعل لان المقصود بيان منافع السورة أو الانباء المقصوصة فيها واشتمالها على ما ذكر من المنافع المفصلة لابيان كون ذلك فيها الا فى غيرها ولان عند تأخير ماحقه التقديم تبقى النفس مترقبة اليه فيتمكن فيها عند الورود فضل تمكن ولان فى المؤخر نوع طول يخل تقديمه بتجارب أطراف النظم الكريم (وقل للذين لايؤمنون) بهذا الحق ولايتعظون به ولا يتذكرون (اعملوا على مكانتكم) على حالكم وجهتكم التى هى عدم الايمان (إنا عاملون) على حالنا وهو الايمان به والاتعاظ والتذكر به (وانتظروا) بنا الدوائر (إنا منتظرون) أن ينزل بكم نحو ما نزل بامثالكم من الكفرة (ولله غيب السموات والارض وإليه يرجع الامر كله) فيرجع لامحالة أمرك وأمرهم اليه وقرىء على البناء للفاعل من رجع رجوعا (فاعبده وتوكل عليه) فانه كافيك والفاء لترتيب الامر بالعبادة والتوكل على كون مرجع الامور كلها الى الله تعالى وفى تأخير الامر بالتوكل عن الامر بالعبادة اشعار بانه لاينفع دونها (وماربك بغافل عما يعملون) فيجازيهم بموجبه وقرىء تعملون على تغليب المخاطب أى أنت وهم فيجازى كلا منك ومنهم بموجب الاستحقاق . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ سورة هود أعطى من الاجر عشر حسنات بعدد من صدق كل واحد من الانبياء المعدودين فيها عليهم الصلاة والسلام وبعدد من كذبهم وكان يوم القيامة من السعداء بفضل الله سبحانه وتعالى .

(سورة يوسف عليه السلام وهى مائة واحدى عشرة آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(آلر) الكلام فيه وفى محله وفيما أريد بالاشارة والآيات والكتاب فى قوله تعالى (تلك آيات الكتاب) عين ماسلف فى مطلع سورة يونس (المبين) من أبان بمعنى بان أى الظاهر أمره فى كونه من عند الله تعالى وفى اعجازه بنوعيه لاسيما الاخبار عن الغيب أو الواضح معانيه للعرب بحيث لاتشتبه عليهم حقائقه ولاتلتبس لديهم دقائقه لنزوله على لغتهم أو بمعنى بين أى المبين لما فيه من الاحكام والشرائع وخفايا الملك والملكوت وأسرار النشأتين فى الدارين وغيرذلك من الحكم والمعارف والقصص وعلى تقدير كون الكتاب عبارة عن السورة فابانته أنباؤه عن قصة يوسف عليه السلام فانه قدروى أن أحبار اليهود قالوا لرؤساء المشركين سلوا محمدا صلى الله عليه وسلم لماذا انتقل آل يعقوب من الشام الى مصر وعن قصة يوسف عليه السلام ففعلوا ذلك فيكون وصف الكتاب بالابانة من قبيل براعة الاستهلال لما سيأتى ولما وصف الكتاب بمايدل على الشرف الذاتى عقب ذلك بمايدل على الشرف الاضافى فقيل (إنا أنزلناه) أى الكتاب المنعوت بما ذكر من النعوت الجليلة فان كان عبارة عن الكل وهو الاظهر الانسب بقوله تعالى (قرآنا عربياً) اذ هو المشهور بهذا الاسم المعروف بهذا النعت المتسارع الى الفهم عند اطلاقها فالامر ظاهر . وان جعل عبارة عن السورة فتسميتها قرآنا لما عرفته فيما سلف . والسر فى ذلك أنه اسم جنس فى الاصل يقع على الكل والبعض كالكتاب أو لانه مصدر بمعنى المفعول أى أنزلناه حال كونه مقروأ بلغتكم (لعلكم تعقلون) أى لكى تفهموا معانيه طرا وتحيطوا بما فيه من البدائع خبرا وتطلعوا على أنه خارج عن طوق البشر منزل من عند خلاق القوى والقدر (نحن نقص عليك) أى نخبرك ونحدثك واشتقاقه من قص أثره اذا اتبعه لان من يقص الحديث يتبع ماحفظ منه شيئا فشيئا كما يقال تلا القرآن لانه يتبع ماحفظ منه آية بعد آية (أحسن القصص) أى أحسن الاقتصاص فنصبه على المصدرية وفيه مع بيان الواقع ايهام لما فى اقتصاص أهل الكتاب من القبح والخلل . وترك المفعول أما للاعتماد على انفهامه من قوله عز وجل (بما أوحينا) أى بايحائنا (إليك هذا القرآن) أى هذه السورة فان كونها موحاة منبئ عن كون مافى ضمنها مقصوصا والتعرض لعنوان قرآنيتها لتحقيق أن الاقتصاص ليس بطريق الالهام أو الوحى غير

المتلو وأما لظهوره من سؤال المشركين بتلقين علماء اليهود . وأحسنيته لانه قد اقتص على أبدع الطرائق الرائعة الرائقة وأعجب الاساليب الفائقة اللائقة كما لا يكاد يخفى على من طالع القصة من كتب الاولين والآخرين وأن كان لايميز الغث من السمين ولايفرق بين الشمال واليمين . وفى كلمة هذا إيماء الى مغايرة هذا القرآن لما فى قوله تعالى «قرآنا عربيا» بان يكون المراد بذلك المجموع فتأمل أو نقص عليك أحسن ما نقص من الانباء وهو قصة آل يعقوب عليه السلام على أن القصص فعل بمعنى المفعول كالنبأ والخبر أو مصدر سمى به المفعول كالخلق والصيد . ونصب أحسن على المفعولية وأحسنيتها لتضمنها من الحكم والعبر مالا يخفى كمال حسنه (وإن كنت) ان مخففة من الثقيلة وضمير الشأن الواقع اسما لها محذوف واللام فارقة والجملة خبر والمعنى وان الشأن كنت (من قبله) من قبل أيحائنا اليك هذه السورة (لمن الغافلين) عن هذه القصة لم تخطر ببالك ولم تقرع سمعك قط وهو تعليل لكونه موحى والتعبير عن عدم العلم بالغفلة لاجلال شأن النبي عليه السلام وان غفل عنه بعض الغافلين (إذ قال يوسف) نصب باضمار اذكر وشروع فى القصة انجازاً للوعد بأحسن الاقتصاص أو بدل من أحسن القصص على تقدير كونه مفعولا بدل اشتمال فان اقتصاص الوقت المشتمل على المقصوص من حيث اشتماله عليه اقتصاص للمقصوص . ويوسف اسم عبرى لا عربى لخلوه عن سبب آخر غير التعريف وفتح السين وكسرها على بعض القراءات بناء على التلعب به لا على أنه مضارع بنى للمفعول أو الفاعل من آسف لشهادة المشهورة بعجمته (لأبيه) يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم عليهم الصلاة والسلام وقد روى عنه عليه السلام ان الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن إبراهيم (يا أبت) أصله يا أبى فعوض عن الياء تاء التأنيث لتناسبهما فى الزيادة فلذلك قلبت هاء فى الوقف على قراءة ابن كثير وأبى عمرو ويعقوب وكسرتها لانها عوض عن حرف يناسبها وفتحها ابن عامر فى كل القرآن لان أصلها حركة أولان الاصل ياأبتا فحذفت الالف وبقت الفتحة وانما لم يجز يا أبتى لانه جمع بين العوض والمعوض . وقرىء بالضم اجراء لها مجرى الالفاظ المؤنثة بالتاء من غير اعتبار التعويض وعدم تسكينها كأصلها لانها حرف صحيح منزل منزلة الاسم فيجب تحريكها ككاف الخطاب (إنى رأيت) من الرؤيا لا من الرؤية لقوله لا تقصص رؤياك هذا تأويل رؤياى ولان الظاهر أن وقوع مثل هذه الامور البديعة فى عالم الشهادة لا يختص برؤية راء دون راء فتكون طامة كبرى لا تخفى على أحد من الناس (أحد عشر كوكبا والشمس

والقمر) روى عن جابر رضى الله عنه أن يهوديا جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أخبرنى يا محمد عن النجوم التى رآهن يوسف عليه السلام فسكت النبى عليه السلام فنزل جبريل عليه السلام فأخبره بذلك فقال عليه السلام « اذا أخبرتك بذلك هل تسلم فقال نعم قال عليه السلام جريان والطارق والذيال وقابس وعمودان والفليق والمصبح والضروح والفرغ ووثاب وذو الكتفين رآها يوسف عليه السلام والشمس والقمر نزلن من السماء وسجدن له فقال اليهودي اى والله انها لأسماؤها » وقيل الشمس والقمر أبواه وقيل أبوه وخالته والكواكب أخوته وانما أخر الشمس والقمر عن الكواكب لاظهار مزيتهما وشرفهما على سائر الطوالع بعطفهما عليها كما فى عطف جبريل وميكائيل على الملائكة عليهم السلام وقد جوز أن تكون الواو بمعنى مع أى رأيت الكواكب مع الشمس والقمر ولا يبعد أن يكون ذلك اشارة الى تأخر ملاقاته عليه السلام لهما عن ملاقاته لاخوته وعن وهب ان يوسف عليه السلام رأى وهو ابن سبع سنين أن احدى عشرة عصا طوالا كانت مركوزة فى الارض كهيئة الدارة واذا عصا صغيرة تثب عليها حتى اقتلعتها وغلبتها فوصف ذلك لابيه فقال اياك أن تذكر هذا لأخوتك ثم رأى وهو ابن ثنتى عشرة سنة الشمس والقمر والكواكب تسجد له فقصها على أبيه فقال لاتقصها عليهم فيبغوا لك الغوائل . وقيل كان بين رؤيا يوسف ومصير اخوته اليه أربعون سنة وقيل ثمانون (رأيتهم لى ساجدين) استئناف لبيان حالهم التى رآهم عليها كأن سائلا سأل فقال كيف رأيتهم فاجاب بذلك وانما أجريت مجري العقلاء فى الضمير لوصفها بوصف العقلاء أعنى السجود . وتقديم الجار والمجرور لاظهار العناية والاهتمام بما هو الاهم مع مافى ضمنه من رعاية الفاصلة (قال يابنى) صغره للشفقة أولها ولصغر السن وهو أيضا استئناف مبنى على سؤال من قال فماذا قال يعقوب بعد سماع هذه الرؤيا العجيبة ولما عرف يعقوب عليه السلام من هذه الرؤيا أن يوسف يبلغه الله تعالى مبلغا جليلا من الحكمة ويصطفيه للنبوة وينعم عليه بشرف الدارين كما فعل بآبائه الكرام خاف عليه حسد الاخوة وبغيهم فقال صيانة لهم من ذلك وله من معاناة المشاق ومقاساة الاحزان وان كان واثقا بان الله تعالى سيحقق ذلك لامحالة وطمعا فى حصوله بلامشقة (لاتقصص رؤياك) هى مافى المنام كما أن الرؤية مافى اليقظة فرق بينهما بحرفى التأنيث كما فى القربى والقربة وحقيقتها ارتسام الصورة المنحدرة من أفق المتخيلة الى الحس المشترك والصادقة منها انما تكون باتصال النفس بالملكوت لما بينهما من التناسب عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغ فتصور

بما فيها مما يليق من المعانى الحاصلة هناك ثم ان المتخيلة تحاكيه بصورة تناسبه فترسلها الى الحس المشترك فتصير مشاهدة ثم اذا كانت شديدة المناسبة لذلك المعنى بحيث لا يكون التفاوت الا بالكلية والجزئية استغنت الرؤيا عن التعبير والا احتاجت اليه (على أخوتك فيكيدوا) نصب باضمار أن أى فيفعلوا (لك) أى لاجلك ولأهلاكك (كيدا) متينا راسخا لا تقدر على التفصى عنه أو خفيا عن فهمك لا تتصدى لمدافعته وهذا أوفق بمقام التحذير وان كان يعقوب عليه السلام يعلم أنهم ليسوا بقادرين على تحويل مادلت الرؤيا على وقوعه وهذا الاسلوب آكد من أن يقال فيكيدوك كيدا اذ ليس فيه دلالة على كون نفس الفعل مقصود الايقاع وقد قيل انما جىء باللام لتضمينه معنى الاحتيال المتعدى باللام ليفيد معنى المضمن والمضمن فيه للتأكيد أى فيحتالوا لك ولأهلاكك حيلة وكيدا والمراد باخوته ههنا الذين يخشى غوائلهم ومكايدهم بنوعلاته الأحدعشر وهم يهوذا وروبيل وشمعون ولاوى وربالون ويشجر ودينة بنى يعقوب من ليابنت خالته ودان ونفتالى وجادوآشر بنوه من سريتين زلفة وبلهة وهؤلاء هم المشار اليهم بالكواكب الأحد عشر وأما بنيامين الذى هو شقيق يوسف عليه السلام وأمهما راحيل التى تزوجها يعقوب عليه السلام بعد وفاة أختها ليا أو فى حياتها اذ لم يكن جمع الاختين اذ ذاك محرما فليس بداخل تحت هذا النهى اذ لا يتوهم مضرته ولا يخشى معرته ولم يكن معدوداً معهم فى الرؤيا إذ لم يكن معهم فى السجود ليوسف والمراد نهيه عن اقتصاص الرؤيا عليهم كلا أو بعضا (إن الشيطان للانسان عدو مبين) ظاهر العداوة فلا يألو جهداً فى اغواء اخوتك واضلالهم وحملهم على مالا خير فيه وهو استئناف كأن يوسف عليه السلام قال كيف يصدر ذلك عن إخوتى الناشئين فى بيت النبوة فقيل ان الشيطان يحملهم على ذلك ولما نبهه عليهما السلام على أن لرؤياه شأنا عظيما يستتبع منافع وحذره اشاعتها المؤدية الى أن يحول اخوته بينها وبين ظهور آثارها وحصولها أو يوعروا سبيل وصولها شرع فى تعبيرها وتأويلها على وجه إجمالى فقال (وكذلك) أى ومثل ذلك الاجتباء البديع الذى شاهدت آثاره فى عالم المثال من سجود تلك الاجرام العلوية النيرة لك وبحسبه وعلى وفقه (يجتبيك ربك) يختارك لجناب كبريائه ويستنبؤك افتعال من جباه اذا جمعه ويصطفيك على أشراف الخلائق وسراة الناس قاطبة ويبرز مصداق تلك الرؤيا فى عالم الشهادة حسب ماعاينته من غير قصور . والمراد بالتشبيه بيان المضاهاة المتحققة بين الصور المرئية فى عالم المثال وبين ماوقعت هى صوراً وأشباحا له من الكائنات الظاهرة بحسبها فى عالم الشهادة أى

كما سخرت لك تلك الاجرام العظام يسخر لك وجوه الناس ونواصيهم مذعنين لطاعتك خاضعين لك على وجه الاستكانة ومراده بيان اطاعة أبويه واخوته له لكنه انما لم يصرح به حذرا من اذاعته (ويعلمك) كلام مبتدأ غير داخل تحت التشبيه أراد به عليه السلام تأكيد مقالته وتحقيقها وتوطين نفس يوسف عليه السلام بما أخبر به على طريقة التعبير والتأويل كأنه قال وهو يعلمك (من تأويل الأحاديث) أى ذلك الجنس من العلوم أو طرفا صالحا منه فتطلع على حقية ما أقول ولا يخفى ما فيه من تأكيد ماسبق والبعث على تلقى ماسيأتى بالقبول والمراد بتأويل الأحاديث تعبير الرؤيا إذ هى أحاديث الملك أن كانت صادقة أو أحاديث النفس أو الشيطان ان لم تكن كذلك والاحاديث اسم جمع للحديث كالاباطيل اسم جمع للباطل لاجمع أحدوثة وقيل كأنهم جمعوا حديثا على أحدثة ثم جمعوا الجمع على أحاديث كقطيع وأقطعة وأقاطيع وقيل هو تأويل غوامض كتب الله تعالى وسنن الانبياء عليهم السلام والاول هو الأظهر وتسمية التعبير تأويلا لأنه جعل المرئى آئلا الى ما يذكره المعبر بصدد التعبير ورجعه اليه فكأنه عليه الصلاة والسلام أشار بذلك إلى ماسيقع من يوسف عليه السلام من تعبيره لرؤيا صاحبى السجن ورؤيا الملك وكون ذلك ذريعة إلى مايبلغه الله تعالى اليه من الرياسة العظمى التى عبر عنها بأتمام النعمة وانما عرف يعقوب عليه السلام ذلك منه من جهة الوحى أو أراد كون هذه الخصلة سببا لظهور أمره عليه السلام على الاطلاق فيجوز حينئذ أن تكون معرفته عليه السلام لذلك بطريق الفراسة والاستدلال من الشواهد والدلائل والامارات والمخايل بأن من وفقه الله تعالى لمثل هذه الرؤيا لابد من توفيقه لتعبيرها وتأويل أمثالها وتمييز ماهو آفاقى منها مما هو أنفسى كيف لا وهى تدل على كمال تمكن نفسه عليه السلام فى عالم المثال وقوة تصرفاتها فيه فيكون أقبل لفيضان المعارف المتعلقة بذلك العالم وبما يحاكيه من الأمور الواقعة بحسبها فى عالم الشهادة وأقوى وقوفا على النسب الواقعة بين الصور المعاينة فى أحد ذينك العالمين وبين الكائنات الظاهرة على وفقها فى العالم الآخر وأن هذا الشأن البديع لابد أن يكون أنموذجا لظهور أمر من اتصف به ومدارا لجريان أحكامه فان كل نبى من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معجزة بها تظهر آثاره وتجرى أحكامه (ويتم نعمته عليك) بأن يضم إلى النبوة المستفادة من الاجتباء الملك ويجعله تتمة لها وتوسيط ذكر التعليم المذكور بينهما لكونه من لوازم النبوة والاجتباء ولرعاية ترتيب الوجود الخارجى ولما أشرنا اليه من كون أثره وسيلة الى تمام النعمة ويجوز

أن يعد نفس الرؤيا من نعم الله تعالى عليه فيكون جميع النعم الواصلة اليه بحسبها مصداقا لها تماما لتلك النعمة (وعلى آل يعقوب)وهم أهله من بنيه وغيرهم فان رؤية يوسف عليه السلام اخوته كواكب يهتدى بأنوارها من نعم الله تعالى عليهم لدلالتها على مصير أمرهم الى النبوة فيقع كل مايخرج من القوة الى الفعل من كمالاتهم بحسب ذلك تماما لتلك النعمة لامحالة .وأما إذا أريد بتمام تلك النعمة الملك فكونه كذلك بالنسبة اليهم باعتبار أنهم يغتنمون آثاره من العز والجاه والمال (كما أتمها على أبويك) نصب على المصدرية أى ويتم نعمته عليك إتماما كائنا كاتمام نعمته على أبويك وهى نعمة الرسالة والنبوة واتمامها على ابراهيم عليه السلام باتخاذه خليلا وانجائه من النار ومن ذبح الولد وعلى اسحاق بانجائه من الذبح وفدائه بذبح عظيم وباخراج يعقوب والاسباط من صلبه وكل ذلك نعم جليلة وقعت تتمة لنعمة النبوة ولا يجب فى تحقيق التشبيه كون ذلك فى جانب المشبه به مثل ما وقع فى جانب المشبه من كل وجه (من قبل) أى من قبل هذا الوقت أومن قبلك (إبراهيم وإسحق) عطف بيان لأبويك والتعبير عنهما بالأب مع كونهما أبا جده وأبا أبيه للاشعار بكمال ارتباطه بالانبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام وتذكير معنى الولد سر أبيه ليطمئن قلبه بما أخبر به فى ضمن التعبير الاجمالى لرؤياه والاقتصار فى المشبه به على ذكر اتمام النعمة من غير تعرض للاجتباء من باب الاكتفاء فان اتمام النعمة يقتضى سابقة النعمة المستدعية للاجتباء لامحالة (إن ربك) استئناف لتحقيق مضمون الجمل المذكورة أى يفعل ماذكر لأنه (عليم) بكل شيء فيعلم من يستحق الاجتباء وما يتفرع عليه من التعليم المذكور واتمام النعمة العامة على الوجه المذكور (حكيم) فاعل لكل شيء حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة فيفعل مايفعل كما يفعل جريا على سنن علمه وحكمته .والتعرض لعنوان الربوبية فى الموضعين لتربية تحقق وقوع ماذكر من الأفاعيل هذا وقد قيل فى تفسير الآية الكريمة أى وكما اجتباك لمثل هذه الرؤيا الدالة على شرف وعز وكمال نفس يجتبيك ربك للنبوة والملك أو لامور عظام ويتم نعمته عليك بالنبوة أو بأن يصل نعمة الدنيا بنعمة الآخرة حيث جعلهم فى الدنيا أنبياء وملوكا ونقلهم عنها إلى الدرجات العلا فى الجنة كما أتمها على أبويك بالرسالة فتأمل والله الهادى (لقد كان فى يوسف وإخوته) أى فى قصتهم والمراد بهم ههنا أما جميعهم فان لبنيامين أيضا حصة من القصة أو بنو علاته المعدودون فيما سلف إذ عليهم يدور رحاها (آيات) علامات عظيمة الشأن دالة على قدرة الله تعالى القاهرة وحكمته الباهرة (للسائلين) لكل من سأل عن قصتهم وعرفها

أو الطالبين للآيات المعتبرين بها فانهم الواقفون عليها والمنتفعون بها دون من عداهم ممن اندرج تحت قوله تعالى « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » فالمراد بالقصة نفس المقصوص أو على نبوته عليه السلام لمن سأله من المشركين أو اليهود عن قصتهم فأخبرهم بذلك على ماهى عليه من غير سماع من أحد ولا ممارسة شيء من الكتب فالمراد بها اقتصاصها و جمع الآيات حينئذ للاشعار بأن اقتصاص كل طائفة من القصة آية بينة كافية فى الدلالة على نبوته عليه السلام على نحو ما ذكر فى قوله تعالى مقام ابراهيم على تقدير كونه عطف بيان لقوله تعالى آيات بينات لا لما قيل من أنه لتعدد جهة الاعجاز لفظا ومعنى وقرأ ابن كثير آية وفى بعض المصاحف عبرة و .قيل انما قص الله تعالى على النبى صلى الله عليه و سلم خبر يوسف و بغى اخوته عليه لما رأى من بغى قومه عليه ليأتسى به (إذ قالوا ليوسف وأخوه) أى شقيقه بنيامين وانما لم يذكر باسمه تلويحا بأن مدار المحبة اخوته ليوسف من الطرفين الا يرى الى أنهم كيف اكتفوا بأخراج يوسف من البين من غير تعرض له حيث قالوا اقتلوا يوسف (أحب إلى أبينا منا) وحد الخبر مع تعدد المبتدأ لأن أفعل من كذا لا يفرق فيه بين الواحد وما فوقه ولا بين المذكر والمؤنث نعم إذا عرف وجب الفرق وإذا أضيف جاز الأمران وفائدة لام الابتداء فى يوسف تحقيق مضمون الجملة و تأكيده ونحن عصبة أى والحال أنا جماعة قادرون على الحل والعقد أحقاء بالمحبة والعصبة والعصابة العشرة من الرجال فصاعدا سموا بذلك لأن الأمور تعصب بهم (إن أبانا) فى ترجيحهما علينا فى المحبة مع فضلنا عليهما وكونهما بمعزل من كفاية الأمور بالصغر والقلة (لفى ضلال) أى ذهاب عن طريق التعديل اللائق وتنزيل كل منا منزلته (مبين) ظاهر الحال روى أنه كان أحب اليه لما يرى فيه من مخايل الخير وكانت أخوته يحسدونه فلما رأى الرؤيا ضاعف له المحبة بحيث لم يصبر عنه فتضاعف حسدهم حتى حملهم على مباشرة ماقص عنهم (أقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا) من جملة ما حكى بعد قوله اذ قالوا وقد قاله بعض منهم مخاطبا للباقين بقضية الصيغة فكأنهم رضوا بذلك كما يروى أن القائل شمعون أودان والباقون كانوا راضين الا من قال لا تقتلوا الخ فجعلوا كأنهم القائلون وأدرجوا تحت القول المسند إلى الجميع أو قاله كل واحد منهم مخاطبا للبقية وهو أدل على مسارعتهم الى ذلك القول. وتنكير أرضا واخلاؤها من الوصف للابهام أى أرضا منكورة مجهولة بعيدة من العمران ولذلك نصبت نصب الظروف المبهمة (يخل) بالجزم جواب للامر أى يخلص (لكم وجه

أبيكم) فيقبل عليكم بكليته ولا يلتفت عنكم الى غيركم ولا يساهمكم فى محبته أحد فذكر الوجه لتصوير معنى اقباله عليهم (وتكونوا) بالجزم عطفا على يخل أو بالنصب على اضمار أن أو الواو بمعنى مع مثل قوله وتكتموا الحق. وايثار الخطاب فى لكم ومابعده للمبالغة فى حملهم على القبول فان اعتناء المرء بشأن نفسه واهتمامه بتحصيل منافعه أتم وأكمل (من بعده) من بعد يوسف أى من بعد الفراغ من أمره أو قتله أو طرحه (قوما صالحين) تائبين الى الله تعالى عما جنيتم أوصالحين مع أبيكم باصلاح مابينكم وبينه بعذر تمهدونه أو صالحين فى أمور دنياكم بانتظامها بعده بخلو وجه أبيكم (قال قائل منهم) هو يهوذا وكان أحسنهم فيه رأيا وهو الذى قال فلن أبرح الأرض الخ وقيل روبيل وهو استئناف مبنى على سؤال من سأل وقال أتفقوا على ماعرض عليهم من خصلتى الضيع أم خالفهم فى ذلك أحد فقيل قال قائل منهم (لاتقتلوا يوسف) أظهره فى مقام الاضمار استجلابا لشفقتهم عليه أو استعظاما لقتله وهو هو فانه يروى أنه قال لهم القتل عظيم ولم يصرح بنهيهم عن الخصلة الاخرى وأحاله على أولوية ما عرضه عليهم بقوله (وألقوه فى غيابة الجب) أى فى قعره وغوره سمى بها لغيبته عن عين الناظر والجب البئر التى لم تطو بعد لانها أرض جبت جبا من غير أن يزاد على ذلك شىء وقرأ نافع فى غيابات الجب فى الموضعين كان لتلك الجب غيابات أو أراد بالجب الجنس أى فى بعض غيابات الجب وقرىء غيابات وغيبة (يلتقطه) يأخذه على وجه الصيانة عن الضياع والتلف فان الالتقاط أخذ شىء مشرف على الضياع (بعض السيارة) أى بعض طائفة تسير فى الارض واللام فى السيارة كما فى الجب ومافيهما وفى البعض من الابهام لتحقيق ماتوخاه من ترويج كلامه بموافقته لغرضهم الذي هو تنائى يوسف عنهم بحيث لايدرى أثره ولا يرى خبره وقرىء تلتقطه على التأنيث لان بعض السيارة سيارة كقوله . كما شرقت صدر القناة من الدم . ومنه قطعت بعض أصابعه (إن كنتم فاعلين) بمشورتى لم يبت القول عليهم بل انما عرض عليهم ذلك تأليفا لقلبهم وتوجيها لهم الى رأيه وحذرا من نسبتهم له الى التحكم والافتيات أو أن كنتم فاعلين ماأزمعتم عليه من ازالته من عند أبيه لامحالة ولما كان هذا مظنة لسؤال سائل يقول فما فعلوا بعد ذلك هل قبلوا ذلك منه أولا أجيب بطريق الاستئناف على وجه أدرج فى تضاعيفه قبولهم له بما سيجىء من قوله وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب فقيل (قالوا ياأبانا) خاطبوه بذلك تحريكا لسلسلة النسب بينه وبينهم وتذكيرا لرابطة الاخوة بينهم وبين يوسف عليه الصلاة والسلام ليتسببوا بذلك الى استنزاله

عليه السلام عن رأيه فى حفظه منهم لما أحس منهم بأمارات الحسد والبغى فكأنهم قالوا (مالك) أى أى شىء لك (لا تأمنا) أى لا تجعلنا أمناء (على يوسف) مع أنك أبونا ونحن بنوك وهو أخونا (وإنا له لناصحون) مريدون له الخير ومشفقون عليه ليس فينا ما يخل بالنصيحة والمقة قط والقراءة المشهورة بالادغام والاشمام وعن نافع رضى الله عنه ترك الاشمام ومن الشواذ ترك الادغام (أرسله معنا غداً) الى الصحراء (يرتع) أى يتسع فى أكل الفواكه ونحوها فان الرتع هو الاتساع فى الملاذ (ويلعب) بالاستباق والتناضل ونظائرهما مما يعد من باب التأهب للغزو وانما عبروا عن ذلك باللعب لكونه على هيئته تحقيقا لما راموه من استصحاب يوسف عليه السلام بتصويرهم له بصورة ما يلائم حاله عليه السلام. وقرىء نرتع ونلعب بالنون وقرأ ابن كثير نرتع من ارتعى ونافع بالكسر والياء فيه وفى يلعب وقرىء يرتع من أرتع ماشيته ويرتع بكسر العين ويلعب بالرفع على الابتداء (وإنا له لحافظون) من أن يناله مكروه أكدوا مقالتهم بأصناف التأكيد من ايراد الجملة اسمية وتحليتها بان واللام واسناد الحفظ الى كلهم وتقديم له على الخبر احتيالا فى تحصيل مقصدهم (قال) استئناف مبنى على سؤال من يقول فماذا قال يعقوب عليه السلام فقيل قال (إنى ليحزننى) اللام للابتداء كما فى قوله عز وجل «إن ربك ليحكم بينهم» (أن تذهبوا به) لشدة مفارقته على وقلة صبرى عنه (و) مع ذلك (أخاف أن يأكله الذئب) لأن الارض كانت مذأبة. والحزن ألم القلب بفوت المحبوب. والخوف انزعاج النفس لنزول المكروه ولذلك أسند الاول الى الذهاب به المفوت لاستمرار مصاحبته ومواصلته ليوسف والثانى إلى ما يتوقع نزوله من أكل الذئب. وقيل رأى فى المنام أنه قد شد عليه عليه السلام ذئب وكان يحذره فقال ذلك وقد لقنهم العلة ان البلاء موكل بالمنطق. وقرأ ابن كثير ونافع فى رواية البزى بالهمز على الاصل وأبو عمرو به وقفا وعاصم وابن عامر وحمزة درجا. وقيل اشتقاقه من تذاءبت الريح اذا هاجت من كل جانب وقال الاصمعى الامر بالعكس وهو أظهر لفظا ومعنى (وأنتم عنه غافلون) لاشتغالكم بالرتع واللعب أو لقلة اهتمامكم بحفظه (قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة) أى والحال أنا جماعة كثيرة جديرة بأن يعصب بنا الامور العظام وتكفى الخطوب بآرائنا وتدبيراتنا واللام الداخلة على الشرط موطئة للقسم وقوله (إنا إذاً لخاسرون) جواب مجزىء من الجزاء أى لها لكون ضعفا وخوراً وعجزاً أو مستحقون للهلاك إذ لا غناء عندنا ولا جدوى فى حياتنا أو مستحقون لان يدعى علينا بالخسار والدمار ويقال خسرهم الله تعالى ودمرهم

حيث أكل الذئب بعضهم وهم حضور وقيل ان لم نقدر على حفظه وهو أعز شيء عندنا فقد هلكت مواشينا إذن وخسرناها وانما اقتصروا على جواب خوف يعقوب عليه السلام من أكل الذئب لانه السبب القوي فى المنع دون الحزن لقصر مدته بناء على أنهم يأتون به عن قريب (فلما ذهبوا به وأجمعوا) أى أزمعوا (أن يجعلوه) مفعول لأجمعوا يقال أجمع الأمر ومنه فأجمعوا أمركم ولا يستعمل ذلك الا فى الافعال التى قويت الدواعى الى فعلها (فى غيابة الجب) قيل هى بئر بأرض الأردن وقيل بين مصر ومدين وقيل على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب عليه السلام بكنعان التى هى من نواحى الأردن كما أن مدين كذلك وأما ما يقال من أنها بئر بيت المقدس فيرده التعليل بالتقاط السيارة ومجيئهم أباهم عشاء ذلك اليوم فان بين منزل يعقوب عليه السلام وبين بيت المقدس مراحل وجواب لما محذوف ايذانا بظهوره واشعارا بأن تفصيله مما لا يحويه فلك العبارة ومجمله فعلوا به من الاذية ما فعلوا يروى أنهم لما برزوا الى الصحراء أخذوا يؤذونه ويضربونه حتى كادوا يقتلونه فجعل يصيح ويستغيث فقال يهوذا أما عاهدتمونى أن لا تقتلوه فأتوا به الى البئر فتعلق بثيابهم فنزعوها من يديه فدلوه فيها فتعلق بشفيرها فربطوا يديه ونزعوا قميصه لما عزموا عليه من تلطيخه بالدم احتيالا لابيه فقال يا أخوتاه ردوا على قميصى لأتوارى به فقالوا ادع الشمس والقمر والاحد عشر كوكبا تؤنسك فدلوه فيها فلما بلغ نصفها ألقوه ليموت وكان فى البئر ماء فسقط فيه ثم أوى الى صخرة فقام عليها وهو يبكى فنادوه وظن أنها رحمة أدركتهم فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه فمنعهم يهوذا وكان يأتيه بالطعام كل يوم ويروى أن ابراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار وجرد عن ثيابه أتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة فألبسه اياه فدفعه ابراهيم الى اسحق واسحق الى يعقوب فجعله يعقوب فى تميمة وعلقها فى عنق يوسف فجاءه جبريل عليه السلام فأخرجه من التميمة فألبسه اياه (وأوحينا إليه) عند ذلك تبشيراً له بما يئول اليه أمره وازالة لوحشته وايناسا له قيل كان ذلك قبل ادراكه كما أوحى الى يحيى وعيسى وقيل كان اذ ذاك مدركا قال الحسن رضى الله عنه كان له سبع عشرة سنة (لتنبأنهم بأمرهم هذا) أى لتتخلصن مما أنت فيه من سوء الحال وضيق المجال ولتحدثن اخوتك بما فعلوا بك (وهم لا يشعرون) بأنك يوسف لتباين حاليك هذا وحالك يومئذ لعلو شأنك وكبرياء سلطانك وبعد حالك عن أوهامهم وقيل لبعد العهد المبدل للهيآت المغير للاشكال والاول أدخل فى التسلية روى أنهم حين دخلوا عليه ممتارين فعرفهم

وهم له منكرون دعا بالصواع فوضعه على يده ثم نقره فطن فقال انه ليخبرني هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف وكان يدنيه دونكم وانكم انطلقتم به والقيتموه في غيابة الجب وقلتم لابيكم أكله الذئب وبعتموه بثمن بخس ويجوز أن يتعلق وهم لا يشعرون بالايحاء على معنى أنا آنسناه بالوحي وأزلنا عن قلبه الوحشة التي أورثوه وهم لا يشعرون بذلك ويحسبن أنه مرهق ومستوحش لا أنيس له وقرىء لننبئنهم بالنون على أنه وعيد لهم فقوله تعالى« وهم لا يشعرون» متعلق بأوحينا لا غير (وجاؤا أباهم عشاء) آخر النهار وقرىء عشيا وهو تصغير عشى وعشى بالضم والقصر جمع أعشى أي عشوا من البكاء (يبكون) متباكين روى أنه لما سمع يعقوب عليه السلام بكاءهم فزع وقال مالكم يا بني وأين يوسف (قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق) أي متسابقين في العدو والرمي وقد يشترك الافتعال والتفاعل كالانتضال والتناضل ونظائرهما (وتركنا يوسف عند متاعنا) أي ما نتمتع به من الثياب والازواد وغيرهما (فأكله الذئب) عقيب ذلك من غير مضي زمان يعتاد فيه التفقد والتعهد وحيث لا يكاد يطارح المتاع عادة الا في مقام يؤمن فيه الغوائل لم يعد تركه عليه السلام عنده من باب الغفلة وترك الحفظ الملتزم لا سيما إذا لم يبرحوه ولم يغيبوا عنه فكأنهم قالوا انا لم نقصر في محافظته ولم نغفل عن مراقبته بل تركناه في مأمننا ومجمعنا بمرأى منا لان ميدان السباق لا يكون عادة الا بحيث يتراءى غايتاه وما فارقناه الا ساعة يسيرة بيننا وبينه مسافة قصيرة فكان ما كان (وما أنت بمؤمن لنا) بمصدق لنا في هذه المقالة الدالة على عدم تقصيرنا في أمره (ولو كنا) عندك وفي اعتقادك (صادقين) موصوفين بالصدق والثقة لشدة محبتك ليوسف فكيف وأنت سيء الظن بنا غير واثق بقولنا وكلمة لو في أمثال هذه المواقع لبيان تحقق ما يفيده الكلام السابق من الحكم الموجب أو المنفي على كل حال مفروض من الاحوال المقارنة له على الاجمال بادخالها على أبعدها منه وأشدها منافاة له ليظهر بثبوته أو انتفائه معه ثبوته أو انتفاؤه مع غيره من الاحوال بطريق الاولوية لما أن الشيء متى تحقق مع المنافي القوي فلأن يتحقق مع غيره أولى ولذلك لا يذكر معه شيء من سائر الاحوال ويكتفى عنه بذكر الواو العاطفة للجملة على نظيرتها المقابلة لها الشاملة لجميع الاحوال المغايرة لها عند تعددها وقد مر تفصيله في سورة البقرة عند قوله تعالى «أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون» وفي سورة الاعراف عند قوله تعالى «أو لو كنا كارهين» (وجاؤا على قميصه) محله النصب على الظرفية من قوله (بدم) أي جاؤا فوق قميصه بدم كما تقول

جاء على جماله بأحمال أو على الحالية منه والخلاف فى تقدم الحال على المجرور فيما اذا لم يكن الحال ظرفا (كذب) مصدر وصف به الدم مبالغة أو مصدر بمعنى المفعول أى مكذوب فيه أو بمعنى ذى كذب أى ملابس لكذب وقرىء كذبا على أنه حال من الضمير أى جاءوا كاذبين أو مفعول له وقرأت عائشة رضى الله تعالى عنها بغير المعجمة أى كدر . وقيل طرى قال ابن جنى أصله من الكدب وهو الفوف البياض الذى يخرج على أظفار الاحداث كأنه دم قد أثر فى قميصه روى أنهم ذبحوا سخلة ولطخوه بدمها وزل عنهم أن يمزقوه فلما سمع يعقوب بخبر يوسف عليهما السلام صاح بأعلى صوته وقال أين القميص فأخذوه وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص وقال تالله ما رأيت كاليوم ذئبا أحلم من هذا أكل ابنى ولم يمزق عليه قميصه وقيل كان فى قميص يوسف عليه السلام ثلاث آيات كان دليلا ليعقوب على كذبهم . وألقاه على وجهه فارتد بصيراً . ودليلا على براءة يوسف عليه السلام حين قد من دبر . (قال) استئناف مبنى على سؤال فكأنه قيل ما قال يعقوب هل صدقهم فيما قالوا أم لا فقيل قال لم يكن ذلك (بل سولت لكم أنفسكم) أى زينت وسهلت قاله ابن عباس رضى الله عنهما والتسويل تقدير شىء فى النفس مع الطمع فى اتمامه قال الأزهرى كأن التسويل تفعيل من سؤل الانسان وهو أمنيته التى يطلبها فتزين لطالبها الباطل وغيره وأصله مهموز وقيل من السول وهو الاسترخاء (أمرا) من الامور منكراً لا يوصف ولا يعرف (فصبر جميل) أى فأمرى صبر جميل أو فصبر جميل أجمل أو أمثل وفى الحديث الصبر الجميل الذى لا شكوى فيه أى الى الخلق والا فقد قال يعقوب عليه السلام انما أشكو بثى وحزنى الى الله وقيل سقط حاجباه على عينيه فكان يرفعهما بعصابة فقيل له ما هذا قال طول الزمان وكثرة الاحزان فأوحى الله عز وجل اليه يا يعقوب أتشكونى قال يارب خطيئة فاغفرها لى وقرأ أبى فصبرا جميلا (والله المستعان) أى المطلوب منه العون وهو انشاء منه عليه السلام للاستعانة المستمرة (على ما تصفون) على اظهار حال ما تصفون وبيان كونه كذبا واظهار سلامته فانه علم فى الكذب قال سبحانه «سبحان ربك رب العزة عما يصفون» وهو الأليق بما سيجىء من قوله تعالى «فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعا» وتفسير المستعان عليه باحتمال ما يصفون من هلاك يوسف والصبر على الرزء فيه يأباه تكذيبه عليه السلام لهم فى ذلك ولا تساعده الصيغة فانها قد غلبت فى وصف الشىء بما ليس فيه كما أشير اليه (وجاءت) شروع فى بيان ماجرى على يوسف فى الجب بعد الفراغ من ذكر ما وقع بين اخوته

وبين أبيه والتعبير بالمجيء ليس بالنسبة الى مكانهم فان كنعان ليس بالجانب المصرى من مدين بل الى مكان يوسف وفى ايثاره على المرور أو الاتيان أو نحوهما ايماء الى كونه عليه السلام فى الكرامة والزلفى عند مليك مقتدر والظاهر أن الجب كان فى أمم المثناه فان المتبادر من اسناد المجيء الى السيارة مطلقا فى قوله عز وجل وجاءت (سيارة) أى رفقة تسير من جهة مدين الى مصر وقرىء باعتبار سيرهم المعتاد هو الذى يقتضيه قوله تعالى فيما سلف «يلتقطه بعض السيارة» وقد قيل انه كان فى قفرة بعيدة من العمران لم تكن الا للرعاة فأخطؤا الطريق فنزلوا قريبا منه وقيل كان ماؤه ملحا فعذب حين ألقى فيه عليه السلام (فأرسلوا واردهم) الذى يرد الماء ويستقى لهم وكان ذلك مالك بن ذعر الخزاعى وانما لم يذكر منتهى الارسال كما لم يذكر منتهى المجيء أعنى الجب للايذان بان ذلك معهود يضرب عنه الذكر صفحا (فأدلى دلوه) أى أرسلها الى الجب والحذف لما عرفته فتدلى بها يوسف فخرج (قال) استئناف مبنى على سؤال يقتضيه الحال (يا بشرى هذا غلام) كأنه نادى البشرى وقال تعالى فهذا أوانك حيث فاز بنعمة باردة وأى نعمة مكان ما يوجد مباحا من الماء وقيل اسم صاحب له ناداه ليعينه على اخراجه وقرأ غير الكوفيين يا بشراى وأمال فتحة الراء حمزة والكسائى وقرأ ورش بين اللفظين وقرىء يابشرى بالادغام وهى لغة وبشراى على قصد الوقف (وأسروه) أى أخفاه الوارد وأصحابه عن بقية الرفقة وقيل أخفوا أمره ووجدانهم له فى الجب وقالوا لهم دفعه الينا أهل الماء لنبيعه لهم بمصر وقيل الضمير لاخوة يوسف وذلك أن يهوذا كان يأتيه كل يوم بطعام فأتاه يومئذ فلم يجده فيها فاخبر اخوته فأتوا الرفقة وقالوا هذا غلام منا أبق منا فاشتروه منهم وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه ولا يخفى ما فيه من البعد (بضاعة) نصب على الحالية أى أخفوه حال كونه بضاعة أى متاعا للتجارة فانها قطعة من المال بضعت عنه أى قطعت للتجارة (والله عليم بما يعملون) وعيد لهم على ما صنعوا من جعلهم مثل يوسف وهو هو عرضة للابتذال بالبيع والشراء وما دبروا فى ذلك من الحيل (وشروه) أى باعوه والضمير للوارد وأصحابه (بثمن بخس) زيف ناقص العيار (دراهم) بدل من ثمن أى لادنانير (معدودة) أى غير موزونة فهو بيان لقلته ونقصانه مقداراً بعد بيان نقصانه فى نفسه إذ المعتاد فيما لا يبلغ أربعين العد دون الوزن. فعن ابن عباس رضى الله عنهما أنها كانت عشرين درهما وعن السدى رضى الله عنه انها كانت اثنين وعشرين درهما (وكانوا) أى البائعون (فيه) فى يوسف (من الزاهدين) من الذين لا يرغبون فيما بأيديهم فلذلك باعوه بما ذكر من الثمن البخس وسبب ذلك أنهم التقطوه والملتقط للشيء متهاون به أو غير واثق بأمره يخاف أن يظهر له مستحق فينتزعه منه فيبيعه من أول مساوم

بأوكس ثمن ويجوز أن يكون معنى شروه اشتروه من اخوته على ماحكى وهم غير راغبين فى شرائه خشية ذهاب مالهم لما طن فى آذانهم من الاباق . والعدول عن صيغة الافتعال المنبئة عن الاتخاذ لما مر من أن أخذهم انما كان بطريق البضاعة دون الاجتباء والاقتناء وفيه متعلق بالزاهدين ان جعلت اللام للتعريف وبيان لما زهدوا فيه ان جعلت موصولة كأنه قيل فى أى شيء زهدوا فقيل زهدوا فيه لأن مايتعلق بالصلة لايتقدم على الموصول (وقال الذى اشتراه من مصر) وهو العزيز الذى كان على خزائنه واسمه قطفير أو اطفير وبيان كونه من مصر لتربية مايتفرع عليه من الامور مع الاشعار بكونه غير من اشتراه من الملتقطين بما ذكر من الثمن البخس وكان الملك يومئذ الريان ابن الوليد العمليقى ومات فى حياة يوسف عليه السلام بعد أن آمن به فملك بعده قابوس ابن معصب فدعاه الى الاسلام فأبى . وقيل كان الملك فى أيامه فرعون موسى عليه السلام عاش أربعمائة سنة لقوله عز وجل « ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات » وقيل فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف والآية من قبيل خطاب الاولاد بأحوال الآباء واختلف فى مقدار ما اشتراه به العزيز فقيل بعشرين دينارا وزوجى نعل وثوبين أبيضين وقيل أدخلوه فى السوق يعرضونه فترافعوا فى ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنه مسكا ووزنه ورقا ووزنه حريرا فاشتراه قطفير بذلك المبلغ وكان سنه إذ ذاك سبع عشرة سنة وأقام فى منزله مع مامر عليه من مدة لبثه فى السجن ثلاث عشرة سنة واستوزره الريان وهو ابن ثلاثين سنة وآتاه الله العلم والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وتوفى وهو ابن مائة وعشرين سنة (لامرأته) راعيل أو زليخا وقيل اسمها هو الاول والثانى لقبها واللام متعلقة بقال لا باشتراه (أكرمى مثواه) اجعلى محل اقامته كريما مرضيا والمعنى أحسنى تعهده (عسى أن ينفعنا) فى ضياعنا وأموالنا ونستظهر به فى مصالحنا (أو نتخذه ولدا) أى نتبناه وكان ذلك لما تفرس فيه من مخايل الرشد والنجابة ولذلك قيل أفرس الناس ثلاثة عزيز مصر وابنة شعيب التى قالت ياأبت استأجره وأبو بكر حين استخلف عمر رضى الله عنهما (وكذلك) نصب على المصدرية وذلك اشارة الى مايفهم من كلام العزيز وما فيه من معنى البعد لتفخيمه أى مثل ذلك التمكين البديع (مكنا ليوسف فى الأرض) أى جعلنا له فيها مكانا يقال مكنه فيه أى أثبته فيه ومكن له فيه أى جعل له فيه مكانا ولتقاربهما وتلازمهما يستعمل كل منهما فى محل الآخر قال عز وجل « وكم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض مالم نمكن لكم » أى مالم نمكنكم فيها أو مكنا لهم فى الارض الخ والمعنى كما جعلنا له مثوى كريما فى منزل العزيز أو مكانا عليا فى قلبه حتى أمر امرأته

دون سائر حواشيه باكرام مثواه جعلنا له مكانة رفيعة فى أرض مصر ولعله عبارة عن جعله وجيها بين أهلها ومحببا فى قلوبهم كافة كما فى قلب العزيز لانه الذى يؤدى الى الغاية المذكورة فى قوله تعالى (ولنعلمه من تأويل الأحاديث) أى نوفقه لتعبير بعض المنامات التى عمدتها رؤيا الملك وصاحبى السجن لقوله تعالى «ذلكما مما علمنى ربى» سواء جعلناه معطوفا على غاية مقدرة ينساق اليها الكلام و يستدعيها النظام كأنه قيل ومثل ذلك التمكين مكنا ليوسف فى الارض وجعلنا قلوب أهلها كافة محال محبته ليترتب عليه ما ترتب مما جرى بينه وبين امرأة العزيز ولنعلمه بعض تأويل الأحاديث وهو تأويل الرؤيا المذكورة فيؤدى ذلك الى الرياسة العظمى ولعل ترك المعطوف عليه للاشعار بعدم كونه مرادا بالذات أو جعلناه علة لمعلل محذوف كانه قيل ولهذه الحكمة البالغة فعلنا ذلك التمكين دون غيرها مما ليس له عاقبة حميدة هذا ولا يخفى عليك أن الذى عليه تدور هذه الامور انما هو التمكين فى جانب العزيز وأما التمكين فى جانب الناس كافة فتأديته الى ذلك انما هى باعتبار اشتماله على ذلك التمكين فاذن الحق أن يكون ذلك اشارة الى مصدر قوله تعالى «مكنا ليوسف» على أن يكون هو عبارة عن التمكين فى قلب العزيز أو فى منزله وكون ذلك تمكينا فى الأرض بملابسة أنه عزيز فيها لا عن تمكين آخر يشبه به كما مر فى قوله تعالى «وكذلك جعلناكم أمة وسطا» من أن ذلك اشارة الى مصدر الفعل المذكور بعده لا الى جعل آخر يقصد تشبيه هذا الجعل به فالكاف مقحم للدلالة على فخامة شأن المشار اليه اقحاما لا يكاد يترك فى لغة العرب ولا فى غيرها ومن ذلك قولهم مثلك لا يبخل وهكذا ينبغي أن يحقق المقام وأما التمكين بمعنى جعله ملكا يتصرف فى أرض مصر بالأمر والنهى فهو من آثار ذلك التعليم ونتائجه المتفرعة عليه كما عرفته لا من مباديه المؤدية اليه فلا سبيل الى جعله غاية له ولم يعهد منه عليه السلام فى تضاعيف قضاياه العمل بموجب المنامات المنبهة على الحوادث قبل وقوعها عهدا مصححا لجعله غاية لولايته وما وقع من التدارك فى أمر السنين فانما هو عمل بموجب الرؤيا السابقة المعهودة اللهم الا أن يراد بتعليم تأويل الأحاديث ما سبق من تفهيم غوامض أسرار الكتب الالهية ودقائق سنن الانبياء عليهم السلام فيكون المعنى حينئذ مكنا له فى أرض مصر ليتصرف فيها بالعدل ولنعلمه معانى كتب الله تعالى وأحكامها ودقائق سنن الانبياء عليهم السلام فيقضى بها فيما بين أهلها والتعليم الاجمالى لتلك المعانى والأحكام وإن كان غير متأخر عن تمكينه بذلك المعنى الا أن تعليم كل معنى شخصى يتفق فى ضمن الحوادث والارشاد الى الحق فى كل نازلة من النوازل متأخر

عن ذلك صالح لأن يكون غاية له (والله غالب على أمره) لا يستعصى عليه أمر ولا يمانعه شيء بل إنما أمره لشيء إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون فيدخل فى ذلك شؤنه المتعلقة بيوسف دخولا أوليا أو متول على أمر يوسف لايكله إلى غيره وقد أريد به من الفتنة ما أريد مرة غب مرة فلم يكن الا ماأراد الله له من العاقبة الحميدة (ولكن أكثر الناس لايعلمون) أن الأمر كذلك فيأتون ويذرون زعما منهم أن لهم من الأمر شيئا وأنى لهم ذلك وان الأمر كله لله عز وجل أو لا يعلمون لطائف صنعه وخفايا فضله (ولما بلغ أشده) أى منتهى اشتداد جسمه وقوته وهو سن الوقوف مابين الثلاثين الى الأربعين وقيل سن الشباب ومبدأ بلوغ الحلم والأول هو الأظهر لقوله تعالى (آتيناه حكما) حكمة وهو العلم المؤيد بالعمل أو حكما بين الناس وفقها أو نبوة (وعلما) أى تفقها فى الدين وتنكيرهما للتفخيم أى حكما وعلما لايكتنه كنههما ولا يقادر قدرهما فهما ما آتاه الله تعالى عند تكامل قواه سواء كانا عبارة عن النبوة والحكم بين الناس أو غيرهما كيف لا وقد جعل ايتاؤهما جزاء لعمله عليه السلام حيث قيل (وكذلك) أى مثل ذلك الجزاء العجيب (نجزى المحسنين) أى كل من يحسن فى عمله فيجب أن يكون ذلك بعد انقضاء أعماله الحسنة التى من جملتها معاناة الأحزان والشدائد وقد فسر العلم بعلم تأويل الأحاديث ولا صحة له إلا أن يخص بعلم تأويل رؤيا الملك فان ذلك حيث كان عند تناهى أيام البلاء ، صح أن يعد إيتاؤه من جملة الجزاء وأما رؤيا صاحبى السجن فقد لبث عليه السلام بعد تعبيرها فى السجن بضع سنين. وفى تعليق الجزاء المذكور بالمحسنين اشعار بعلية الاحسان له وتنبيه على أنه سبحانه انما آتاه ماآتاه لكونه محسنا فى أعماله متقيا فى عنفوان أمره هل جزاء الاحسان إلا الاحسان (وراودته التى هو فى بيتها) رجوع الى شرح ماجرى عليه فى منزل العزيز بعدما أمر امرأته باكرام مثواه وقوله تعالى « وكذلك مكنا ليوسف » إلى هنا اعتراض جيء به أنموذجا للقصة ليعلم السامع من أول الامر أن مالقيه عليه السلام من الفتن التى ستحكى بتفاصيلها له غاية جميلة وعاقبة حميدة وأنه عليه السلام محسن فى جميع أعماله لم يصدر عنه فى حالتى السراء والضراء ما يخل بنزاهته ولا يخفى أن مدار حسن التخلص إلى هذا الاعتراض قبل تمام الآية الكريمة انما هو التمكين البالغ المفهوم من كلام العزيز فادراج الانجاء السابق تحت الاشارة بذلك فى قوله تعالى « وكذلك مكنا » كما فعله الجمهور ناء من التقريب فتأمل. والمراودة المطالبة من راد يرود اذا جاء وذهب لطلب شيء ومنه الرائد لطالب الماء والكلأ وهى مفاعلة من واحد نحو مطالبة الدائن ومماطلة

المديون و مداواة الطبيب ونظائرها مما يكون من أحد الجانبين الفعل ومن الآخر سببه فان هذه الأفعال وإن كانت صادرة عن أحد الجانبين لكن لما كانت أسبابها صادرة عن الجانب الآخر جعلت كأنها صادرة عنهما وهذا باب لطيف المسلك مبنى على اعتبار دقيق تحقيقه أن سبب الشيء يقام مقامه و يطلق عليه اسمه كما فى قولهم كما تدين تدان أى كما تجزى تجزى فان فعل البادىء وإن لم يكن جزاء لكنه لكونه سببا للجزاء أطلق عليه اسمه وكذلك ارادة القيام الى الصلاة وارادة قراءة القرآن حيث كانتا سببا للقيام والقراءة عبر عنهما بهما فقيل اذا قمتم الى الصلاة فاذا قرأت القرآن . وهذه قاعدة مطردة مستمرة ولما كانت أسباب الافعال المذكورة فيما نحن فيه صادرة عن الجانب المقابل لجانب فاعلها فان مطالبة الدائن للمماطلة التى هى من جانب الغريم وهى منه للمطالبة التى هى من جانب الدائن وكذا مداواة الطبيب للمرض الذى هو من جانب المريض وكذلك مراودتها فيما نحن فيه لجمال يوسف عليه السلام نزل صدورها عن محالها منزلة صدور مسبباتها التى هى تلك الافعال فبنى الصيغة على ذلك وروعى جانب الحقيقة بأن أسند الفعل الى الفاعل وأوقع على صاحب السبب فتأمل. ويجوز أن يراد بصيغة المغالبة مجرد المبالغة وقيل الصيغة على بابها بمعنى أنها طلبت منه الفعل وهو منها الترك ويجوز أن يكون من الرويد وهو الرفق والتحمل وتعديتها بعن لتضمينها معنى المخادعة فالمعنى خادعته (عن نفسه) أى فعلت مايفعل المخادع لصاحبه عن شيء لا يريد اخراجه من يده وهو يحتال أن يأخذه منه وهى عبارة عن التمحل فى مواقعته اياها والعدول عن التصريح باسمها للمحافظة على السر أو للاستهجان بذكره. وايراد الموصول لتقرير المراودة فان كونه فى بيتها مما يدعو الى ذلك قيل لواحدة ما حملك على ما أنت عليه مما لاخير فيه قالت قرب الوساد وطول السواد ولاظهار كمال نزاهته عليه السلام فان عدم ميله اليها مع دوام مشاهدته لمحاسنها واستعصائه عليها مع كونه تحت ملكتها ينادى بكونه عليه السلام فى اعلى معارج العفة والنزاهة (وغلقت الأبواب) قيل كانت سبعة ولذلك جاء الفعل بصيغة التفعيل دون الافعال وقيل للمبالغة فى الايثاق والاحكام (وقالت هيت لك) قرىء بفتح الهاء وكسرها مع فتح التاء وبناؤه كبناء أين وعيط وهيت كجير وهيت كحيث اسم فعل معناه أقبل وبادر واللام للبيان أى لك أقول هذا كما فى هلم لك وقرىء هئت لك على صيغة الفعل بمعنى تهيأت يقال هاء يهيء كجاء يجيء اذا تهيأ وهيئت لك واللام صلة للفعل (قال معاذ الله) أى أعوذ بالله معاذا مما تدعيننى اليه وهذا اجتناب منه على أتم الوجوه واشارة الى التعليل بأنه منكر هائل يجب أن يعاذ بالله تعالى للخلاص منه

وما ذاك الا لانه عليه السلام قدشاهده بما أراه الله تعالى من البرهان النير على ماهو عليه في حد ذاته من غاية القبح ونهاية السوء وقوله عز وجل (إنه ربي أحسن مثواى) تعليل للامتناع ببعض الاسباب الخارجية مما عسى يكون مؤثرا عندها وداعيا لها الى اعتباره بعد التنبيه على سببه الذاتي الذي لاتكاد تقبله لما سولته لها نفسها والضمير للشأن ومدار وضعه موضعه ادعاء شهرته المغنية عن ذكره وفائدة تصدير الجملة به الايذان بفخامة مضمونها مع مافيه من زيادة تقريره في الذهن فان الضمير لايفهم منه من أول الامر الا شأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقبا لما يعقبه فيتمكن عند وروده له فضل تمكن فكأنه قيل ان الشأن الخطير هذا وهو ربي أي سيدي العزيز أحسن مثواى أي أحسن تعهدي حيث أمرك باكرامي فكيف يمكن أن أسيء اليه بالخيانة في حرمه. وفيه ارشاد لها الى رعاية حق العزيز بألطف وجه. وقيل الضمير لله عز وجل وربي خبر ان وأحسن مثواى خبر ثان أو هو الخبر والاول بدل من الضمير والمعنى ان الحال هكذا فكيف أعصيه بارتكاب تلك الفاحشة الكبيرة وفيه تحذير لها من عقاب الله عز وجل وعلى التقديرين ففي الاقتصار على ذكر هذه الحالة من غير تعرض لاقتضائها الامتناع عما دعته اليه ايذان بأن هذه المرتبة من البيان كافية في الدلالة على استحالته وكونه مما لايدخل تحت الوقوع أصلا وقوله تعالى (إنه لا يفلح الظالمون) تعليل للامتناع المذكور غب تعليل والفلاح الظفر وقيل البقاء في الخير. ومعنى أفلح دخل فيه كأصبح واخواته والمراد بالظالمين كل من ظلم كائنا من كان فيدخل في ذلك المجازون للاحسان بالاساءة والعصاة لامر الله تعالى دخولا أوليا وقيل الزناة لانهم ظالمون لانفسهم وللمزني بأهله (ولقد همت به) بمخالطته اذ الهم لايتعلق بالاعيان أي قصدتها وعزمت عليها عزما جازما لايلويها عنه صارف بعدما باشرت مباديها وفعلت مافعلت من المراودة وتغليق الابواب. ودعوته عليه السلام الى نفسها بقولها هيت لك ولعلها تصدت هنالك لافعال أخر من بسط يدها اليه وقصد المعانقة وغير ذلك مما يضطره عليه السلام الى الهرب نحو الباب والتأكيد لدفع ماعسى يتوهم من احتمال اقلاعها عما كانت عليه بما في مقالته عليه السلام من الزواجر (وهم بها) بمخالطتها أي مال اليها بمقتضى الطبيعة البشرية وشهوة الشباب وقرمه ميلا جبليا لايكاد يدخل تحت التكليف لانه قصدها قصدا اختياريا ألا يرى الى ماسبق من استعصامه المنبيء عن كمال كراهيته له ونفرته عنه وحكمه بعدم افلاح الظالمين وهل هو الا تسجيل باستحالة صدور الهم منه عليه السلام تسجيلا محكما وانما عبر عنه بالهم لمجرد وقوعه في صحبة

همها فى الذكر بطريق المشاكلة لا لشبهه به كما قيل ولقد أشير الى تباينهما حيث لم يلزا فى قرن واحد من التعبير بأن قيل ولقد هما بالمخالطة أو هم كل منهما بالآخر وصدر الاول بما يقرر وجوده من التوكيد القسمى وعقب الثانى بما يعفو أثره من قوله عزوجل (لولا أن رأى برهان ربه) أى حجته الباهرة الدالة على كمال قبح الزنا وسوء سبيله والمراد برؤيته لها كمال ايقانه بها ومشاهدته لها مشاهدة واصلة الى مرتبة عين اليقين الذى تتجلى هنالك حقائق الأشياء بصورها الحقيقية وتنخلع عن صورها المستعارة التى بها تظهر فى هذه النشأة على مانطق به قوله عليه السلام « حفت الجنة بالمكاره وحفت النار » بالشهوات وكأنه عليه السلام قد شاهد الزنا بموجب ذلك البرهان النير على ماهو عليه فى حد ذاته أقبح مايكون وأوجب مايجب أن يحذر منه ولذلك فعل مافعل من الاستعصام والحكم بعدم إفلاح من يرتكبه وجواب لولا محذوف يدل عليه الكلام أى لولا مشاهدته برهان ربه فى شأن الزنا لجرى على موجب ميله الجبلى ولكنه حيث كان مشاهدا له من قبل استمر على ماهو عليه من قضية البرهان وفائدة هذه الشرطية بيان أن امتناعه عليه السلام لم يكن لعدم مساعدة من جهة الطبيعة بل لمحض العفة والنزاهة مع وفور الدواعى الداخلية وترتب المقدمات الخارجية الموجبة لظهور الاحكام الطبيعية هذا وقد نص أئمة الصناعة على ان لولا فى أمثال هذه المواقع جار من حيث المعنى لا من حيث الصيغة مجرى التقييد للحكم المطلق كما فى مثل قوله تعالى « إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا ان صبرنا عليها » فلا يتحقق هناك هم أصلا وقد جوز ان يكون وهم بها جواب لولا جريا على قاعدة الكوفيين فى جواز التقديم فالهم حينئذ على معناه الحقيقى فالمعنى لولا أنه قد شاهد برهان ربه لهم بها كما همت به ولكن حيث انتفى عدم المشاهدة بدليل استعصامه ومايتفرع عليه انتفى الهم رأسا هذا وقد فسر همه عليه السلام بأنه عليه السلام حل الهميان وجلس مجلس الختان وبانه حل تكة سراويله وقعد بين شعبها ورؤيته للبرهان بانه سمع صوتا اياك واياها فلم يكترث ثم وثم الى ان تمثل له يعقوب عليه السلام عاضا على أنملته وقيل ضرب على صدره فخرجت شهوته من أنامله وقيل بدت كف فيما بينهما ليس فيها عضد ولا معصم مكتوب فيها . وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين . فلم ينصرف ثم رأى فيها . ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا . فلم ينته ثم رأى فيها . واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله . فلم ينجع فقال الله عز وجل لجبريل ادرك عبدى قبل أن يصيب الخطيئة فانحط جبريل عليه السلام وهو يقول يا يوسف اتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب فى ديوان

الانبياء. وقيل رأى تمثال العزيز وقيل وقيل ان كل ذلك الا خرافات وأباطيل تمجها الآذان وتردها العقول والاذهان وبل لمن لا كها ولفقها أو سمعها وصدقها (كذلك) الكاف منصوب المحل وذلك اشارة الى الاراءة المدلول عليها بقوله تعالى « لولا أن رأى برهان ربه » أى مثل ذلك التبصير والتعريف عرفناه برهانا فيما قبل أو الى التثبيت اللازم له اى مثل ذلك التثبيت ثبتناه (لنصرف عنه السوء) على الاطلاق فيدخل فيه خيانة السيد دخولا أوليا (والفحشاء) والزنا لانه مفرط فى القبح وفيه آية بينة وحجة قاطعة على أنه عليه السلام لم يقع منه هم بالمعصية ولا توجه اليها قط والا لقيل لنصرفه عن السوء والفحشاء وانما توجه اليه ذلك من خارج فصرفه الله تعالى عنه بما فيه من موجبات العفة والعصمة فتأمل. وقرىء ليصرف على اسناد الصرف الى ضمير الرب (إنه من عبادنا المخلصين) تعليل لما سبق من مضمون الجملة بطريق التحقيق والمخلصون هم الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته بأن عصمهم عما هو قادح فيها وقرىء على صيغة الفاعل وهم الذين أخلصوا دينهم لله سبحانه وعلى كلا المعنيين فهو منتظم فى سلكهم داخل فى زمرتهم من أول أمره بقضية الجملة الاسمية لا أن ذلك حدث له بعد أن لم يكن كذلك فانحسم مادة احتمال صدور الهم بالسوء منه عليه السلام بالكلية (واستبقا الباب) متصل بقوله ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه وقوله كذلك الى آخره اعتراض جىء به بين المعطوفين تقريرا لنزاهته عليه السلام كقوله تعالى « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض » والمعنى لقد همت به وأبى هو واستبقا الباب أى تسابقا الى الباب البرانى الذى هو المخلص ولذلك وحد بعد الجمع فيما سلف وحذف حرف الجر وأوصل الفعل الى المجرور نحو واذا كالوهم أو ضمن الاستباق معنى الابتدار. واسناد السبق فى ضمن الاستباق اليها مع أن مرادها مجرد منع يوسف وذا لا يوجب الانتهاء الى الباب لانها لما رأته يسرع الى الباب ليتخلص منها أسرعت هى أيضا لتسبقه اليه وتمنعه عن الفتح والخروج أو عبر عن اسراعها أثره بذلك مبالغة (وقدت قميصه من دبر) اجتذبته من ورائه فانشق طولا وهو القد كما أن الشق عرضا هو القط وقد قيل فى وصف على رضى الله عنه أنه كان اذا اعتلى قد واذا اعترض قط واسناد القد اليها خاصة مع أن لقوة يوسف أيضا دخلا فيه اما لانها الجزء الاخير للعلة التامة واما للايذان بمبالغتها فى منعه عن الخروج وبذل مجهودها فى ذلك لفوت المحبوب أو لخوف الافتضاح (وألفيا سيدها) أى صادفا زوجها واذ لم يكن ملكه ليوسف عليه السلام صحيحا لم يقل سيدهما قيل ألفياه مقبلا وقيل كان جالسا مع ابن عم المرأة (لدى الباب) أى البرانى كما مر

روى كعب رضى الله عنه أنه لما هرب يوسف عليه السلام جعل فراش القفل يتناثر ويسقط حتى خرج من الابواب* (قالت) استئناف مبنى على سؤال سائل يقول فماذا كان حين ألفيا العزيز عند الباب فقيل قالت (ما جزاء من أراد بأهلك سوأ) من الزنا ونحوه (إلا أن يسجن أو عذاب أليم) مانافية أى ليس جزاؤه الا السجن أو العذاب الاليم قيل المراد به الضرب بالسياط أو استفهامية أى أى شىء جزاؤه غير ذاك أو ذلك ولقد أتت فى تلك الحالة التى تدهش فيها الفطن حيث شاهدها العزيز على تلك الهيئة المريبة بحيلة جمعت فيها غرضيها وهما تبرئة ساحتها مما يلوح من ظاهر الحال واستنزال يوسف عن رأيه فى استعصائه عليها وعدم مواتاته على مرادها بألقاء الرعب فى قلبه من مكرها طمعا فى مواقعته لها كرهاً عند يأسها عن ذلك اختيارا كما قالت : ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين . ثم أنها جعلت صدور الارادة المذكورة عن يوسف عليه السلام أمرا محققا مفروغا عنه غنيا عن الاخبار بوقوعه وأن ماهى عليه من الافاعيل لاجل تحقيق جزائها فهى تريد ايقاعه حسبما يقتضيه قانون الايالة . وفى ابهام المريد تهويل لشأن الجزاء المذكور بكونه قانونا مطردا فى حق كل أحد كائنا من كان. وفى ذكر نفسها بعنوان أهلية العزيز أعظام للخطب واغراء له على تحقيق ماتتوخاه بحكم الغضب والحمية (قال) استئناف وجواب عما يقال فماذا قال يوسف حينئذ فقيل قال (هى راودتنى عن نفسى) أى طالبتنى للمواتاة لا أنى أردت بها سوأ كما قالت وانما قاله عليه السلام لتنزيه نفسه عما أسند اليه من الخيانة وعدم معرفة حق السيد ودفع ما عرضته له من الامرين الأمرين . وفى التعبير عنها بضمير الغيبة دون الخطاب أو اسم الاشارة مراعاة لحسن الادب مع الايماء الى الاعراض عنها (وشهد شاهد من أهلها) قيل هو ابن عمها وقيل هو الذى كان جالساً مع زوجها لدى الباب . وقيل كان حكيما يرجع اليه الملك ويستشيره وقد جوز أن يكون بعض أهلها قد بصر بها من حيث لا تشعر فأغضبه الله تعالى ليوسف عليه السلام بالشهادة له والقيام بالحق وانما ألقى الله سبحانه الشهادة الى من هو من أهلها ليكون أدل على نزاهته عليه السلام وأنفى للتهمة . وقيل كان الشاهد ابن خالها صبياً فى المهد أنطقه الله تعالى ببراءته وهو الاظهر فانه روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « تكلم أربعة وهم صغار ابن ماشطة بنت فرعون . وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى عليه السلام» رواه الحاكم عن أبى هريرة رضى الله عنه وقال صحيح على شرط الشيخين وذكر كونه من أهلها لبيان الواقع إذ لا يختلف الحال فى هذه السورة بين كون الشاهد من أهلها أو من غيرهم (إن كان قميصه قد من قبل) أى ان علم أنه قد من

قبل من قبل ونظيره ان أحسنت الى فقد أحسنت اليك فيما قبل فان معناه أن تعتد باحسانك الى فاعتد بأحسانى السابق اليك (فصدقت) بتقدير قد لانها تقرب الماضى الى الحال أى فقد صدقت وكذا الحال فى قوله فكذبت وهى وان لم تصرح بانه عليه السلام أرادها سوأ ألا أن كلامها حيث كان واضح الدلالة عليه أسند اليها الصدق والكذب بذلك الاعتبار فانهما كما يعرضان للكلام باعتبار منطوقه يعرضان له باعتبار ما يستلزمه وبذلك الاعتبار يعترضان للانشاءات (وهو من الكاذبين) وهذه الشرطية حيث لا ملازمة عقلية ولا عادية بين مقدمها وتاليها ليست من الشهادة فى شىء وانما ذكرت توسيعاً للدائرة وارخاء للعنان الى جانب المرأة باجراء ما عسى يحتمله الحال فى الجملة بأن يقع القد من قبل بمدافعتها له عليه السلام عن نفسها عند ارادته المخالطة والتكشف مجرى الظاهر الغالب الوقوع تقريباً لما هو المقصود باقامة الشهادة أعنى مضمون الشرطية الثانية التى هى قوله عز وجل (وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين) الى التسلم والقبول عند السامع لكونه أقرب الى الوقوع وأدل على المطلوب وان لم يكن بين طرفيها أيضا ملازمة . وحكاية الشرطية بعد فعل الشهادة لكونها من قبيل الاقوال أو بتقدير القول أى شهد قائلا الخ وتسميتها شهادة مع انه لا حكم فيها بالفعل بالصدق والكذب لتأديتها مؤداها بل لانها شهادة على الحقيقة وحكم بصدقه وكذبها . أما على تقدير كون الشاهد هو الصبى فظاهر إذ هو اخبار بهما من قبل علام الغيوب والتصوير بصورة الشرطية للايذان بأن ذلك ظاهر من العلائم أيضا وأما على تقدير كونه غيره فلان الظاهر أن صورة الحال معلومة له على ما هى عليه اما مشاهدة أو أخباراً فهو متيقن بعدم مقدم الشرطية الاولى وبوجود مقدم الشرطية الثانية ومن ضرورته الجزم بانتفاء تالى الاولى وبوقوع تالى الثانية فاذن هو أخبار بكذبها وصدقه عليه السلام لكنه ساق شهادته مساقا مأمونا من الجرح والطعن حيث صورها بصورة الشرطية المترددة ظاهرا بين نفعها ونفعه وأما حقيقة فلا تردد فيها قطعا لان الشرطية الاولى تعليق لصدقها بما يستحيل وجوده من قد القميص من قبل فيكون محالا لا محالة ومن ضرورته تقرر كذبها والثانية تعليق لصدقه عليه السلام بأمر محقق الوجود وهو القد من دبر فيكون محققا ألبتة وهذا كما قيل فيمن قال لامرأة تزوجينى نفسك فقالت لى زوج فكذبها فى ذلك فقالت ان لم يكن لى زوج فقد زوجتك نفسى فقبل الرجل فأذا لا زوج لها فهو نكاح إذ تعليق الشىء بأمر مقرر تنجيز له . وقرىء من قبل ومن دبر بالضم لانهما قطعا عن الاضافة كقبل وبعد وبالفتح كأنهما جعلا علمين للجهتين فمنعا الصرف للتأنيث والعلمية . وقرىء بسكون العين (فلما رأى قميصه قد من دبر) كأنه لم

يكن رأى ذلك بعد أو لم يتدبره فلما تنبه له وعلم حقيقة الحال (قال إنه) أى الامر الذى وقع فيه التشاجر وهو عبارة عن ارادة السوء التى أسندت الى يوسف وتدبير عقوبته بقولها ماجزاء من أراد بأهلك سوأ الى آخره لكن لا من حيث صدور تلك الارادة والاسناد عنها بل مع قطع النظر عن ذلك لئلا يخلو قوله تعالى (من كيدكن) أى من جنس حيلتكن ومكركن أيتها النساء لا من غيرلن عن الافادة وتدبير العقوبة وان لم يكن تجريده عن الاضافة اليها الا أنها لما صورته بصورة الحق أفاد الحكم بكونه من كيدهن افادة ظاهرة فتأمل . وتعميم الخطاب للتنبيه على أن ذلك خلق لهن عريق

ولا تحسبا هندا لها الغدر وحدها ، سجية نفس كل غانية هند

ورجع الضمير إلى قولها ماجزاء من أراد بأهلك سوأ فقط عدول عن البحث عن أصل ما وقع فيه النزاع من أن ارادة السوء ممن هى الى البحث عن شعبة من شعبه وجعله للسوء أو للامر المعبر به عن طمعها فى يوسف عليه السلام يأباه الخبر فان الكيد يستدعى أن يعتبر مع ذلك هنات أخر من قبلها كما أشرنا اليه (إن كيدكن عظيم)فانه ألطف وأعلق بالقلب وأشد تأثيراً فى النفس . وعن بعض العلماء انى أخاف من النساء مالا أخاف من الشيطان فانه تعالى يقول « إن كيد الشيطان كان ضعيفا» وقال للنساء «إن كيدكن عظيم» ولان الشيطان يوسوس مسارقة وهن يواجهن به الرجال (يوسف) حذف منه حرف النداء لقربه وكمال تفطنه للحديث وفيه تقريب له وتلطيف لمحله (أعرض عن هذا) أى عن هذا الامر وعن التحديث به واكتمه فقد ظهر صدقك ونزاهتك (واستغفرى) أنت ياهذه (لذنبك) الذى صدر عنك وثبت عليك (إنك كنت) بسبب ذلك (من الخاطئين) من جملة القوم المتعمدين للذنب أو من جنسهم يقال خطىء إذا أذنب عمدا وهو تعليل للامر بالاستغفار والتذكير لتغليب الذكور على الاناث وكان العزيز رجلا حليما فاكتفى بهذا القدر من مؤاخذتها وقيل كان قليل الغيرة (وقال نسوة) أى جماعة من النساء وكن خمسا امرأة الساقى وامرأة الخباز .وامرأة صاحب الدواب.وامرأة صاحب السجن.وامرأة الحاجب.والنسوة اسم مفرد لجمع المرأة وتأنيثه غير حقيقى كتأنيث اللمة وهى اسم لجماعة النساء والثبة وهى اسم لجماعة الرجال ولذلك لم يلحق فعله تاء التأنيت (فى المدينة) ظرف لقال أى أشعن الامر فى مصر أو صفة لنسوة (امرأة العزيز) أى الملك يردن قطفير واضافتهن لها اليه بذلك العنوان دون أن يصرحن باسمها واسمه ليست لقصد المبالغة فى اشاعة الخبر بحكم أن النفوس الى سماع أخبار ذوى الاخطار أميل كما قيل اذ ليس

مراد هن تفضيح العزيز بل هي لقصد الاشباع في لومها بقولهن (تراود فتاها)أي تطالبه بمواقعته لها وتتمحل في ذلك وتخادعه (عن نفسه) وقيل تطلب منه الفاحشة وايثارهن لصيغة المضارع للدلالة على دوام المراودة والفتي من الناس الشاب وأصله فتى لقولهم فتيان والفتوة شاذة وجمعه فتية وفتيان ويستعار للمملوك وهو المراد ههنا وفي الحديث «لا يقل أحدكم عبدي وأمتي وليقل فتاي وفتاتي» وتعبيرهن عن يوسف عليه السلام بذلك مضافا اليها لا الى العزيز الذي لاتستلزم الاضافة اليه الهوان بل ربما يشعر بنوع عزة لابانة مابينهما من التباين البين الناشيء عن المالكية والمملوكية وكل ذلك لتربية مامر من المبالغة والاشباع في اللوم فان من لازوج لها من النساء أولها زوج دنيء وقد تعذر في مراودة الأخدان لاسيما اذا كان فيهم علو الجناب وأما التي لها زوج وأي زوج عزيز مصر فمراودتها لغيره لاسيما لعبدها الذي لا كفاءة بينها وبينه أصلا وتماديها في ذلك غاية الغي ونهاية الضلال (قد شغفها حبا) أي شق حبه شغاف قلبها وهو حجابه أو جلدة رقيقة يقال لها لسان القلب حتى وصل الى فؤادها وقريء شعفها بالعين من شعف البعير اذا هناه فاحرقه بالقطران . وعن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما الشغف الحب القاتل والشعف حب دون ذلك وكان الشعبي يقول الشغف حب والشعف جنون والجملة خبر ثان أو حال من فاعل تراود أو من مفعوله وأياما كان فهو تكرير للوم وتأكيد للعذل ببيان اختلال أحوالها القلبية كاحوالها القالبية وجعلها تعليلا لدوام المراودة من حيث الانية مصير الى الاستدلال على الاجلى بالاخفى ومن حيث اللمية ميل الى تمهيد العذر من قبلها ولسن بذلك المقام وانتصاب حبا على التمييز لنقله عن الفاعلية اذ الاصل قد شغفها حبه كما أشير اليه (إنا لنراها) أي نعلمها علما متاخما للمشاهدة والعيان فيما صنعت من المراودة والمحبة المفرطة مستقرة (في ضلال) عن طريق الرشد والصواب أو عن سنن العقل (مبين) واضح لايخفى كونه ضلالا على أحد أو مظهر لامرها بين الناس فالجملة مقررة لمضمون الجملتين السابقتين المسوقتين للوم والتشنيع وتسجيل عليها بانها في أمرها على خطأ عظيم . وانما لم يقلن أنها لفي ضلال مبين اشعارا بأن ذلك الحكم غير صادر عنهن مجازفة بل عن علم ورأى مع التلويح بانهن متنزهات عن أمثال ماهي عليه (فلما سمعت بمكرهن) باغتيابهن وسوء قالتهن وقولهن امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعاني وهو مقتها وتسميته مكرا لكونه خفية منها كمكر الماكر وان كان ظاهرا لغيرها وقيل استكتمتهن سرها فأفشينه عليها وقيل انما قلن ذلك لتريهن يوسف عليه السلام (أرسلت إليهن)

تدعوهن قيل دعت أربعين امرأة منهن الخمس المذكورات (وأعتدت) أى أحضرت وهيأت (لهن متكأ) أى مايتكئن عليه من النمارق والوسائد أو رتبت لهن مجالس طعام وشراب لانهم كانوا يتكئون للطعام والشراب والحديث كعادة المترفين ولذلك نهى الرجل أن يأكل متكئا وقيل متكأ طعاما من قولهم اتكأنا عند فلان أى طعمنا قال جميل :

فظللنا بنعمة واتكأنا . وشربنا الحلال من قلله

وعن مجاهد متكأ طعاما يحز حزا كان المعنى يعتمد بالسكين عند القطع لان القاطع يتكىء على المقطوع بالسكين وقرىء بغير همز وقرىء بالمد بأشباع حركة الكاف كمنتزاح فى منتزح وينباع فى ينبع وقرىء متكا وهو الاترج وأنشدوا :

وأهدت متكة لبنى أبيها . تخب بها العثمثمة الوقاح

أو ما يقطع من متك الشىء اذا بتكه ومتكأ من تكى اذا اتكى (وآتت كل واحدة منهن سكينا) لتستعمله فى قطع مايعهد قطعه مما قدم بين أيديهن وقرب اليهن من اللحوم والفواكه ونحوها وهن متكئات وغرضها من ذلك ماسيقع من تقطيع أيديهن (وقالت) ليوسف وهن مشغولات بمعالجة السكاكين وأعمالها فيما بأيديهن من الفواكه وأضرابها والعطف بالواو ربما يشير الى أن قولها (أخرج عليهن) أى ابرز لهن لم يكن عقيب ترتيب أمورهن ليتم غرضها من استغفالهن (فلما رأينه) عطف على مقدر يستدعيه الامر بالخروج وينسحب عليه الكلام أى فخرج عليهن فرأينه وانما حذف تحقيقا لمفاجأة رؤيتهن كأنها تفوت عند ذكر خروجه عليهن كما حذف لتحقيق السرعة فى قوله عز وجل «فلما رآه مستقرا عنده» بعد قوله «أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك» وفيه ايذان بسرعة امتثاله عليه السلام بامرها فيما لايشاهد مضرته من الافاعيل (أكبرنه) عظمنه وهبن حسنه الفائق وجماله الرائع الرائق فان فضل جماله على جمال كل جميل كان كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب . عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « رأيت يوسف ليلة المعراج كالقمر ليلة البدر » وقيل كان يرى تلألؤ وجهه على الجدران كما يرى نور الشمس على الماء وقيل معنى أكبرن حضن والهاء للسكت أو ضمير راجع الى يوسف عليه السلام على حذف اللام أى حضن له من شدة الشبق كما قال المتنبى :

خف الله واستر ذا الجمال ببرقع . فان لحت حاضت فى الخدور العواتق

(وقطعن أيديهن) أى جرحنها بما فى أيديهن من السكاكين لفرط دهشتهن وخروج حركات جوارحهن عن منهاج الاختيار والاعتياد حتى لم يعلمن مافعلن . وفى التعبير

عن الجرح بالقطع مالايخفى من الدلالة على كثرة جرحهن ومع ذلك لم يبالين بذلك ولم يشعرن به (وقلن حاش لله) تنزيها له سبحانه عن صفات النقص والعجز وتعجبا من قدرته على مثل ذلك الصنع البديع وأصله حاشا كما قرأه أبو عمرو فى الدرج فحذفت ألفه الاخيرة تخفيفا وهو حرف جر يفيد معنى التنزيه فى باب الاستثناء فلا يستثنى به إلا ما يكون موجبا للتنزيه فوضع موضعه فمعنى حاشا الله تنزيه الله وبراءة الله وهى قراءة ابن مسعود رضى الله عنه واللام لبيان المنزه والمبرأ كما فى سقيالك والدليل على وضعه موضع المصدر قراءة أبى السمال حاشا بالتنوين وقراءة أبى عمرو بحذف الالف الاخيرة وقراءة الاعمش بحذف الاولى فان التصرف من خصائص الاسم فيدل على تنزيه منزلته وعدم التنوين لمراعاة أصله كما فى قولك جلست من عن يمينه وقوله غدت من عليه منقلب الألف الى الياء مع الضمير وقرىء حاش لله بسكون الشين اتباعا لفتحة الألف فى الاسقاط وحاشا الآله وقيل حاشا فاعل من الحشا الذى هو الناحية وفاعله ضمير يوسف أى صار فى ناحية من أن يقارف مارمته به لله أى لطاعته أو لمكانه أو جانب المعصية لأجل الله (ما هذا بشرا) على أعمال ما بمعنى ليس وهى لغة أهل الحجاز لمشاركتهما فى نفى الحال . وقرىء بشر على لغة تميم وبشرى أى بعبد مشترى لئيم نفين عنه البشرية لما شاهدن فيه من الجمال العبقرى الذى لم يعهد مثاله فى البشر وقصر على الملكية بقولهم (إن هذا إلا ملك كريم) بناء على ماركز فى العقول من أن لاحى أحسن من الملك كما ركب فيها أن لاأقبح من الشيطان ولذلك لا يزال يشبه بهما كل متناه فى الحسن والقبح وغرضهن وصفه بأقصى مراتب الحسن والجمال (قالت فذلكن) الفاء فصيحة والخطاب للنسوة والاشارة الى يوسف بالعنوان الذى وصفنه به الآن من الخروج فى الحسن والجمال عن المراتب البشرية والاقتصار على الملكية فاسم الاشارة مبتدأ والموصول خبره والمعنى إن كان الأمر كما قلتن فذلك الملك الكريم النائى عن المراتب البشرية هو (الذى لمتننى فيه) أى عيرتننى فى الافتتان به حيث رأيتن بمحلى بنسبتى إلى العزيز ووضعتن قدره بكونه من المماليك أو بالعنوان الذى وصفنه به فيما سبق بقولهن امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعانى فهو خبر لمبتدأ محذوف أى فهو ذلك العبد الكنعانى الذى صورتن فى أنفسكن وقلتن فيه وفى ماقلتن فالآن قد علمتن من هو وما قولكن فينا . وأما مايقال تعنى انكن لم تصورنه بحق صورته ولو صورتنه بما عاينتن لعذرتننى فى الافتتان به فلا يلائم المقام فان مرادها بدعوتهن وتمهيد مامهدته لهن تبكيتهن وتنديمهن على ماصدر عنهن من اللوم وقد فعلت ذلك بما لامزيد عليه

وما ذكر من المقال لحق المعتذر قبل ظهور معذرته وقد قيل فى تعليل الملكية أن الجمع بين الجمال الرائق والكمال الفائق والعصمة البالغة من الخواص الملكية وهو أيضا لا يلائم قولها فذلكن الذى لمتننى فيه فان عنوان العصمة مما ينافى تمشية مرامها ثم بعدما أقامت عليهن الحجة وأوضحت لديهن عذرها وقد أصابهن من قبله عليه السلام ما أصابها باحت لهن ببقية سرها فقالت (ولقد راودته عن نفسه) حسبما قلتن وسمعتن واستعصم امتنع طالبا للعصمة وهو بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد كانه فى عصمة وهو يجتهد فى الاستزادة منها كما فى استمسك واستجمع الرأى وفيه برهان نير على أنه لم يصدر عنه عليه السلام شىء مخل باستعصامه بقوله معاذ الله من الهم وغيره اعترفت لهن أولا بما كن يسمعنه من مراودتها له وأكدته اظهارا لابتهاجها بذلك ثم زادت على ذلك أنه أعرض عنها على أبلغ ما يكون ولم يمل اليها قط ثم زادت عليه أيضا أنها مستمرة على ما كانت عليه غير مرعوية عنه لا بلوم العواذل ولا باعراض الحبيب فقالت (ولئن لم يفعل ما آمره) أى آمر به فيما سيأتى كما لم يفعل فيما مضى فحذف الجار وأوصل الفعل الى الضمير كما فى أمرتك الخير فالضمير للموصول أو أمرى اياه أى موجب أمرى ومقتضاه فما مصدرية والضمير ليوسف وعبرت عن مراودتها بالامر اظهارا لجريان حكومتها عليه واقتضاء للامتثال بامرها (ليسجنن) بالنون المثقلة آثرت بناء الفعل للمفعول جريا على رسم الملوك أو ايهاما لسرعة ترتب ذلك على عدم امتثاله لامرها كانه لا يدخل بينهما فعل فاعل (وليكونا) بالمخففة (من الصاغرين) أى الاذلاء فى السجن وقد قرىء الفعلان بالتثقيل ولكن المشهورة أولى لان النون كتبت فى المصحف ألفا على حكم الوقف واللام الداخلة على حرف الشرط موطئة للقسم وجوابه سادمسد الجوابين ولقد أتت بهذا الوعيد المنطوى على فنون التأكيد بحضر منهن ليعلم يوسف عليه السلام انها ليست فى أمرها على خفية ولا خيفة من أحد فتضيق عليه الحيل وتعيا به العلل وينصحن له ويرشدنه الى موافقتها ولما كان هذا الابراق والارعاد منها مظنة لسؤال سائل يقول فما صنع يوسف حينئذ قيل (قال) مناجيا لربه عز سلطانه (رب السجن) الذى أوعدتنى بالالقاء فيه وقرأ يعقوب بالفتح على المصدر (أحب إلى) أى آثر عندى لانه مشقة قليلة نافذة أثرها راحات جليلة أبدية (مما يدعوننى إليه) من مواتاتها التى تؤدى الى الشقاء والعذاب الاليم وهذا الكلام منه عليه السلام مبنى على مامر من انكشاف الحقائق لديه وبروز كل منها بصورتها اللائقة بها فصيغة التفضيل ليست على بابها اذ ليس له شائبة محبة لما دعته اليه وانما هو والسجن شران

أهونهما و أقربهما الى إيثار السجن . و التعبير عن الايثار بالمحبة لحسم مادة طمعها عن المساعدة خوفا من الحبس و الاقتصار على ذكر السجن من حيث ان الصغار من فروعه ومستتبعاته أو اسناد الدعوة اليهن جميعا لان النسوة رغبنه فى مطاوعتها وخوفنه من مخالفتها وقيل دعونه الى أنفسهن و قيل انما ابتلى عليه السلام بالسجن لقوله هذا وكان الاولى به أن يسأل الله تعالى العافية ولذلك رد رسول الله صلى الله عليه وسلم على من كان يسأل الصبر (وإلا تصرف) أى ان لم تصرف (عنى كيدهن) فى تحبيب ذلك الى و تحسينه لدى بان تثبتنى على ما أنا عليه من العصمة والعفة (أصب إليهن) أى أمل الى اجابتهن أو الى أنفسهن على قضية الطبيعة و حكم القوة الشهوية و هذا فزع منه عليه السلام الى ألطاف الله تعالى جريا على سنن الانبياء والصالحين فى قصر نيل الخيرات والنجاة عن الشرور على جناب الله عز وجل وسلب القوى والقدر عن أنفسهم و مبالغة فى استدعاء لطفه فى صرف كيدهن باظهار أن لاطاقة له بالمدافعة كقول المستغيث أدركنى و الا هلكت لأنه يطلب الاجبار والالجاء الى العصمة و العفة وفى نفسه داعية تدعوه الى هواهن والصبوة الميل الى الهوى ومنه الصبا لان النفوس تصبو اليها لطيب نسيمها وروحها . وقرىء أصب اليهن من الصبابة وهى رقة الشوق (وأكن من الجاهلين) الذين لا يعملون بما يعلمون لان من لا جدوى لعلمه فهو والجاهل سواء أو من السفهاء بارتكاب ما يدعوننى اليه من القبائح لان الحكيم لا يفعل القبيح (فاستجاب له ربه) دعاءه الذى تضمنه قوله والا تصرف عنى كيدهن الخ فان فيه استدعاء لصرف كيدهن على أبلغ وجه وألطفه كامر . وفى اسناد الاستجابة الى الرب مضافا اليه عليه السلام مالا يخفى من اظهار اللطف (فصرف عنه كيدهن) حسب دعائه وثبته على العصمة والعفة (إنه هو السميع) لدعاء المتضرعين اليه (العليم) بأحوالهم وما يصلحهم (ثم بدا لهم) أى ظهر للعزيز و أصحابه المتصدين للحل والعقد ريثما اكتفوا بأمر يوسف بالكتمان والاعراض عن ذلك (من بعدما رأوا الآيات) الصارفة لهم عن ذلك البداء وهى الشواهد الدالة على براءته عليه السلام وفاعل بدا اما مصدره أو الرأى المفهوم من السياق أو المصدر المدلول عليه بقوله (ليسجننه)والمعنى بدا لهم بداء أو رأى أو سجنه المحتوم قائلين والله ليسجننه فالقسم المحذوف وجوابه معمول للقول المقدر حالا من ضميرهم وما كان ذلك البداء الا باستنزال المرأة لزوجها وفتلها منه فى الذروة والغارب وكان مطواعا لها تقوده حيث شاءت قال السدى انها قالت للعزيز أن هذا العبد العبرانى قد فضحنى فى الناس يخبرهم بأنى راودته عن نفسه فاما أن تأذن لى

فأخرج فأعتذر إلى الناس واما أن تحبسه فحبسه ولقد أرادت بذلك تحقيق وعيدها لتلين به عريكته وتنقاد لها قرونته لما انصرمت حبال رجائها عن استتباعه بعرض الجمال والترغيب بنفسها وبأعوانها . وقرىء لتسجننه على صيغة الخطاب بأن خاطب بعضهم العزيز ومن يليه أو العزيز وحده على وجه التعظيم أو خاطب به العزيز ومن عنده من أصحاب الرأى المباشرين للسجن والحبس (حتى حين) الى حين انقطاع قالة الناس وهذا بادي الرأي عند العزيز وذويه وأما عندها فحتى يذلله السجن ويسخره لها ويحسب الناس أنه المجرم وقرىء عتى حين بلغة هذيل (ودخل معه) أى فى صحبته (السجن فتيان) من فتيان الملك ومماليكه أحدهما شرابيه والآخر خبازه روى أن جماعة من أهل مصر ضمنوا لهما مالا ليسما الملك فى طعامه وشرابه فأجاباهم الى ذلك ثم أن الساقى نكل عن ذلك ومضى عليه الخباز فسم الخبز فلما حضر الطعام قال الساقى لا تأكل أيها الملك فان الخبز مسموم وقال الخباز لا تشرب أيها الملك فان الشراب مسموم فقال الملك للساقى اشربه فشربه فلم يضره وقال للخباز كله فأبى فجرب بدابة فهلكت فأمر بحبسهما فاتفق أن أدخلاه معه وتأخير الفاعل عن المفعول لما مر غير مرة من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر ليتمكن عند النفس حين وروده عليها فضل تمكن ونظيره تقديم الظرف على المفعول الصريح فى قوله تعالى « فأوجس فى نفسه خيفة » وتأخير السجن عن الظرف لايهام العكس أن يكون الظرف خبراً مقدما على المبتدا وتكون الجملة حالا من فاعل دخل فتأمل (قال أحدهما) استئناف مبنى على سؤال من يقول ماصنعا بعد مادخلا معه السجن فأجيب بأنه قال أحدهما وهو الشرابى (إنى أرانى) أى رأيتنى والتعبير بالمضارع لاستحضار الصورة الماضية (أعصر خمرا) أى عنبا سماه بما يؤل اليه لكونه المقصود من العصر وقيل الخمر بلغة عمان اسم للعنب وفى قراءة ابن مسعود رضى الله عنه أعصر عنبا (وقال الآخر) وهو الخباز (انى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا) تأخير المفعول عن الظرف لما مر آنفا وقوله (تأكل الطير منه) أى تنهس منه صفة للخبز أو استئناف مبنى على السؤال (نبئنا بتأويله) بتأويل ماذكر من الرؤيين أو مارئى باجراء الضمير مجرى ذلك بطريق الاستعارة فان اسم الاشارة يشار به الى متعدد كما فى قوله :

فيها خطوط من سواد وبلق ٭ كأنه فى الجلد توليع البهق

أى كان ذلك والسر فى المصير الى اجراء الضمير مجرى اسم الاشارة مع أنه لاحاجة اليه بعد تأويل المرجع بماذكر أو بمارئى أن الضمير انما يتعرض لنفس المرجع من حيث هو من غير تعرض لحال من أحواله فلا يتسنى تأويله بأحد الاعتبارين الا باجرائه مجرى

اسم الاشارة الذى يدل على المشار اليه بالاعتبار الذى جرى عليه فى الكلام فتأمل هذا إذا قالاه معا أو قاله أحدهما من جهتهما معا وأما إذا قاله كل منهما أثر ماقص مارآه فالخطاب المذكور ليس عبارتهما ولا عبارة أحدهما من جهتهما ليتعدد المرجع بل عبارة كل منهما نبئنى بتأويله مستفسرا لما رآه وصيغة المتكلم مع الغير واقعة فى الحكاية دون المحكى على طريقة قوله عز وجل « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات » فانهم لم يخاطبوا بذلك دفعة بل خوطب كل منهم فى زمانه بصيغة مفردة خاصة به (إنا نراك) تعليل لعرض رؤياهما عليه واستفسارها منه عليه السلام (من المحسنين) من الذين يجيدون عبارة الرؤيا لما رأياه يقص عليه بعض أهل السجن رؤياه فيؤولها له تأويلا حسنا أو من العلماء لما سمعاه يذكر للناس مايدل على علمه وفضله أو من المحسنين الى أهل السجن أى فأحسن الينا بكشف غمتنا ان كنت قادرا على ذلك . روى أنه عليه السلام كان اذا مرض منهم رجل قام عليه واذا ضاق مكانه أوسع له واذا احتاج جمع له . وعن قتادة رضى الله عنه كان فى السجن ناس قد انقطع رجاؤهم وطال حزنهم فجعل يقول أبشروا واصبروا تؤجروا فقالوا بارك الله عليك ما أحسن وجهك وما أحسن خلقك لقد بورك لنا فى جوارك فمن أنت يافتى فقال أنا يوسف بن صفى الله يعقوب بن ذبيح الله اسحق بن خليل الله ابراهيم فقال له عامل السجن لو استطعت خليت سبيلك ولكنى أحسن جوارك فكن فى أى بيوت السجن شئت . وعن الشعبى أنهما تحالماله ليمتحناه فقال الشرابى أرانى فى بستان فاذا بأصل حبلة عليها ثلاثة عناقيد من عنب فقطعتها وعصرتها فى كأس الملك وسقيته وقال الخباز انى أرانى وفوق رأسى ثلاث سلال فيها أنواع الأطعمة واذا سباع الطير تنهش منها (قال لا يأتيكما طعام ترزقانه) فى مقامكما هذا حسب عادتكما المطردة (الا نبأتكما) استثناء مفرغ من أعم الأحوال أى لا يأتيكما طعام فى حال من الأحوال الا حال مانبأتكما به بأن بينت لكما ماهيته وكيفيته وسائر أحواله (قبل أن يأتيكما) واطلاق التأويل عليه اما بطريق الاستعارة فان ذلك بالنسبة الى مطلق الطعام المبهم بمنزلة التأويل بالنظر الى مارئى فى المنام وشبيه له واما بطريق المشاكلة حسبما وقع فى عبارتهما من قولهما نبئنا بتأويله ولا يبعد أن يراد بالتأويل الشىء الآيل لا المآل فانه فى الاصل جعل شىء آيلا الى شىء آخر فكما يجوز أن يراد به الثانى يجوز أن يراد به الاول فالمعنى الا نبأتكما بما يؤول اليه من الكلام والخبر المطابق للواقع وكان عليه السلام يقول لهما اليوم يأتيكما طعام من صفته كيت وكيت فيجد انه كذلك ومراده عليه السلام بذلك بيان كل ما يهمهما من الامور المترقبة

قبل وقوعها وانما تخصيص الطعام بالذكر لكونه عريقا فى ذلك بحسب الحال مع ما فيه من مراعاة حسن التخلص اليه مما استعبراه من الرؤيين المتعلقتين بالشراب والطعام وقد جعل الضمير لما قصا من الرؤيين على معنى لايأتيكما طعام ترزقانه حسب عادتكما الأأخبرتكما بتأويل ماقصصتما على قبل أن يأتيكما ذلك الطعام الموقت مرادا به الاخبار بالاستعجال فى التنبئة وأنت خبير بان النظم الكريم ظاهر فى تعدد اتيان الطعام والاخبار بالتأويل وتجددهما وأن المقام مقام اظهار فضله فى فنون العلوم بحيث يدخل فى ذلك تأويل رؤياهما دخولا أوليا وانما لم يكتف عليه السلام بمجرد تأويل رؤياهما مع أن فيه دلالة على فضله لأنهما لما نعتاه عليه السلام بالانتظام فى سمط المحسنين وانهما قد علما ذلك حيث قالا إنا نراك من المحسنين توسم عليه السلام فيهما خيرا وتوجها الى قبول الحق فاراد أن يخرج آثر ذى أثير عما فى عهدته من دعوة الخلق الى الحق فمهد قبل الخوض فى ذلك مقدمة تزيدهما علما بعظم شأنه وثقة بأمره ووقوفا على علو طبقته فى بدائع العلوم توسلا بذلك الى تحقيق مايتوخاه وقد تخلص اليهامن كلامهما فكأنه قال تأويل ما قصصتماه على فى طرق التمام حيث رأيتما مثاله فى المنام وانى أبين لكما كل جليل ودقيق من الامور المستقبلة وان لم يكن هناك مقدمة المنام حتى ان الطعام الموظف الذى يأتيكما كل يوم أبينه لكما قبل اتيانه ثم أخبرهما بأن علمه ذلك ليس من قبيل علوم الكهنة والعرافين بل هو فضل الهى يؤتيه من يشاء ممن يصطفيه للنبوة (ذلكما) أى ذلك التأويل والاخبار بالمغيبات ومعنى البعد فى ذلك للاشارة الى علو درجته وبعد منزلته (مما علمنى ربى) بالوحى والالهام أى بعض منه أو من ذلك الجنس الذي لاتحوم حول ادراكه العقول ولقد دلهما بذلك على ان له علوما جمة ماسمعاه قطعة من جملتها وشعبة من دوحتها ثم بين أن نيل تلك الكرامة بسبب اتباعه ملة آبائه الانبياء العظام وامتناعه عن الشرك فقال (إنى تركت ملة قوم لايؤمنون بالله) وهو استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من قوله ذلكما مما علمنى ربى وتعليلا له لاللتعليم الواقع صلة للموصول لتأديته الى معنى انه مما علمنى ربى لهذا السبب دون غيره ولا لمضمون الجملة الخبرية لان ما ذكر بصدد التعليل ليس بعلة لكون التأويل المذكور بعضا مما علمه ربه أو لكونه من جنسه بل لنفس تعليم ما علمه فكأنه قيل لماذا علمك ربك تلك العلوم البديعة فقيل لأنى تركت ملة الكفر أى دينهم الذى اجتمعوا عليه من الشرك وعبادة الاوثان والمراد بتركها الامتناع عنها رأسا كما يفصح عنه قوله ما «كان لنا أن نشرك بالله من شىء» لاتركها بعد ملابستها وانما عبر عنه بذلك

لكونه أدخل بحسب الظاهر في اقتدائهما به عليه السلام والتعبير عن كفرهم بالله تعالى بسلب الايمان به للتنصيص على أن عبادتهم له تعالى مع عبادة الاوثان ليست بايمان به تعالى كما هو زعمهم الباطل على مامر في قوله تعالى « انه عمل غير صالح » (وهم بالآخرة) وما فيها من الجزاء (هم كافرون) على الخصوص دون غيرهم لافراطهم في الكفر (واتبعت ملة آبائي ابراهيم واسحق ويعقوب) يعني انه انما حاز هذه الكمالات وفاز بتلك الكرامات بسبب أنه اتبع ملة آبائه الكرام ولم يتبع ملة قوم كفروا بالمبدأ والمعاد وانما قاله عليه السلام ترغيبا لصاحبيه في الايمان والتوحيد وتنفيرا لهما عما كانا عليه من الشرك والضلال وقدم ذكر تركه لملتهم على ذكر اتباعه لملة آبائه لان التخلية متقدمة على التحلية (ما كان) أي ما صح وما استقام فضلا عن الوقوع (لنا) معاشر الانبياء لقوة نفوسنا وفور علومنا (أن نشرك بالله من شيء) أي شيء كان من ملك أو جني أو أنسي فضلا عن الجماد البحت (ذلك) أي التوحيد المدلول عليه بقوله ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء (من فضل الله علينا) أي ناشيء من تأييده لنا بالنبوة وترشيحه ايانا لقيادة الامة وهدايتهم الى الحق وذلك مع كونه من موجبات التوحيد ودواعيه نعمة جليلة وفضل عظيم علينا بالذات (وعلى الناس) كافة بواسطتنا وحيث عبر عن ذلك بذلك العنوان عبر عن التوحيد الذي يوجبه بالشكر فقيل (ولكن أكثر الناس لا يشكرون) أي لا يوحدون فان التوحيد مع كونه من آثار ماذكر من التأييد شكراً لله عز وجل على تلك النعمة . وانما وضع الظاهر موضع الضمير الراجع الى الناس لزيادة توضيح وبيان ولقطع التوهم رجوعه الى المجموع الموهم لعدم اختصاص غير الشاكر بالناس وقيل ذلك التوحيد من فضل الله علينا حيث نصب لنا أدلة ننظر فيها ونستدل بها على الحق وقد نصب مثل تلك الادلة لسائر الناس أيضا ولكن أكثرهم لا ينظرون ولا يستدلون بها اتباعا لأهوائهم فيبقون كافرين غير شاكرين ولك أن تقول ذلك التوحيد من فضل الله علينا حيث أعطانا عقولا ومشاعر نستعملها في دلائل التوحيد التي مهدها في الانفس والآفاق وقد أعطى سائر الناس أيضا مثلها ولكن أكثرهم لا يشكرون أي لا يصرفون تلك القوى والمشاعر الى ما خلقت هي له ولا يستعملونها فيما ذكر من أدلة التوحيد الآفاقية والانفسية والعقلية والنقلية (ياصاحبي السجن) أي يا صاحبي في السجن كما تقول ياسارق الليلة ناداهما بعنوان الصحبة في مدار الاشجان ودار الاحزان التي تصفو فيها المودة وتخلص النصيحة ليقبلا عليه ويقبلا مقالته وقد ضرب لهما مثلا يتضح به الحق عندهما حق اتضاح فقال (أأرباب متفرقون)

لا ارتباط بينهم ولا اتفاق يستعبد كما كل منهم حسبما أراد غير مراقب للآخرين مع عدم استقلاله (خير) لكما (أم الله) المعبود بالحق (الواحد) المنفرد بالالوهية (القهار) الغالب الذى لايغالبه أحدو بعدما نبههما على فساد تعدد الارباب بين لهما سقوط آلهتهما عن درجة الاعتبار رأسا فضلا عن الالوهية فقال معمما للخطاب لهما ولمن على دينهما (ماتعبدون من دونه) أى من دون الله شيئاً (إلا أسماء) فارغة لامطابق لها فى الخارج لان ماليس فيه مصداق اطلاق الاسم عليه لاوجود له أصلا فكانت عبادتهم لتلك الأسماء فقط (سميتموها) جعلتموها أسماء . وانما لم يذكر المسميات تربية لما يقتضيه المقام من اسقاطها عن مرتبة الوجود و ايذانا بأن تسميتهم فى البطلان حيث كانت بلا مسمى كعبادتهم حيث كانت بلا معبود (أنتم وآباؤكم) بمحض جهلكم و ضلالتكم (ماأنزل الله بها) أى بتلك التسمية المستتبعة للعبادة (من سلطان) من حجة تدل على صحتها (إن الحكم) فى أمر العبادة المتفرعة على تلك التسمية (إلا لله) عز سلطانه لانه المستحق لها بالذات اذ هو الواجب بالذات الموجد للكل والمالك لأمره (أمر) استئناف مبنى على سؤال ناشىء من قوله ان الحكم الا لله فكأنه قيل فماذا حكم الله فى هذا الشأن فقيل أمر على ألسنة الأنبياء عليهم السلام (ألا تعبدوا) أى بأن لاتعبدوا (إلا إياه) حسبما تقضى به قضية العقل أيضاً (ذلك) أى تخصيصه تعالى بالعبادة (الدين القيم) الثابت المستقيم الذى تعاضدت عليه البراهين عقلا ونقلا (ولكن أكثر الناس لايعلمون) أن ذلك هو الدين القيم لجهلهم بتلك البراهين أو لايعلمون شيئاً أصلا فيعبدون أسماء سموها من تلقاء أنفسهم معرضين عن البرهان العقلى والسلطان النقلى وبعد تحقيق الحق ودعوتهما اليه وبيانه لهما مقداره الرفيع ومرتبة علمه الواسع شرع فى تفسير مااستفسراه ولكونه بحثا مغايرا لما سبق فصله عنه بتكرير الخطاب فقال (ياصاحبى السجن أما أحدكما) وهو الشرابى وانما لم يعينه ثقة بدلالة التعبير وتوسلا بذلك الى أبهام أمر صاحبه حذار مشافهته بما يسوءه (فيسقى ربه) أى سيده (خمراً) روى أنه عليه السلام قال له مارأيت من الكرمة وحسنها الملك وحسن حالك عنده وأما القضبان الثلاثة فثلاثة أيام تمضى فى السجن ثم تخرج وتعود الى ماكنت عليه وقرأ عكرمة فيسقى ربه على البناء للمفعول أى يسقى مايروى به (وأما الآخر) وهو الخباز (فيصلب فتأكل الطير من رأسه) روى أنه عليه السلام قال له مارأيت من السلال الثلاث ثلاثة أيام تمر ثم تخرج فتقتل (قضى) أى أتم وأحكم (الأمر الذى فيه تستفتيان)

وهو ما رأياه من الرؤيين قطعاً لا ما آله الذى هو عبارة عن نجاة أحدهما وهلاك الآخر كما يوهمه اسناد القضاء اليه اذ الاستفتاء انما يكون فى الحادثة لا فى حكمها يقال استفتى الفقيه فى الحادثة أى طلب منه بيان حكمها ولا يقال استفتاه فى حكمها وكذا الافتاء فانه يقال أفتى فلان فى الواقعة الفلانية بكذا ولا يقال أفتى فى حكمها أو جوابها بكذا ومما هو علم فى ذلك قوله تعالى «يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى» ومعنى استفتائهما فيه طلبهما لتأويله بقولهما نبئنا بتأويله وانما عبر عن ذلك بالأمر وعن طلب تأويله بالاستفتاء تهويلا لامره وتفخيماً لشأنه إذ الاستفتاء انما يكون فى النوازل المشكلة الحكم المبهمة الجواب وايثار صيغة الاستقبال مع سبق استفتائهما فى ذلك لما أنهما بصدده الى أن يقضى عليه السلام من الجواب وطره . واسناد القضاء اليه مع أنه من أحوال مآله لانه فى الحقيقة عين ذلك المآل وقد ظهر فى عالم المثال بتلك الصورة . وأما توحيده مع تعدد رؤياهما فوارد على حسب ما وحداه فى قولهما نبئنا بتأويله لا لان الأمر ما اتهما به وسجنا لاجله من سم الملك فانهما لم يستفتيا فيه ولا فيما هو صورته بل فيما هو صورة مآله وعاقبته فتأمل . وإنما أخبرهما عليه السلام بذلك تحقيقا لتعبيره وتأكيداً له وقيل لما عبر رؤياهما جحدا وقالا ما رأينا شيئا فأخبرهما أن ذلك كائن صدقتما أو كذبتما ولعل الجحود من الخباز إذ لا داعى الى جحود الشرابى الا أن يكون ذلك لمراعاة جانبه (وقال) أى يوسف عليه السلام (للذى ظن أنه ناج) أوثر على صيغة المضارع مبالغة فى الدلالة على تحقق النجاة حسبما يفيده قوله تعالى « قضى الأمر الذى فيه تستفتيان » وهو السر فى ايثار ما عليه النظم الكريم على أن يقال للذى ظنه ناجيا (منهما) من صاحبيه وانما ذكر بوصف النجاة تمهيداً لمناط التوصية بالذكر عند الملك وعنوان التقرب المفهوم من التعبير المذكور وان كان أدخل فى ذلك وأدعى الى تحقيق ما وصاه به لكنه ليس بوصف فارق يدور عليه الامتياز بينه وبين صاحبه المذكور بوصف الهلاك . والظان هو يوسف عليه السلام لا صاحبه لان التوصية المذكورة لا تدور على ظن الناجى بل على ظن يوسف وهو بمعنى اليقين كما فى قوله تعالى «ظننت أنى ملاق حسابيه» فالتعبير بالوحى كما ينبىء عنه قوله تعالى قضى الامر الخ وقيل هو بمعناه والتعبير بالاجتهاد والحكم بقضاء الامر أيضا اجتهادى (اذكرنى) بما أنا عليه من الحال والصفة (عند ربك) سيدك وصفنى له بصفتى التى شاهدتها (فأنساه الشيطان) أى أنسى الشرابى بوسوسته وإلقائه فى قلبه أشغالا تعوقه عن الذكر وإلا فالانساء فى الحقيقة لله عز وجل والفاء للسببية فان توصيته عليه السلام المتضمنة للاستعانة بغيره سبحانه كانت

باعثة لما ذكر من الانساء (ذكر ربه) أى ذكر الشرابى له عليه السلام عند الملك والاضافة لأدنى ملابسة أو ذكر أخبار ربه (فلبث) أى يوسف عليه السلام بسبب ذلك الانساء أو القول (فى السجن بضع سنين) البضع مابين الثلاث الى التسع من البضع وهو القطع وأكثر الاقاويل أنه لبث فيه سبع سنين وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم « رحم الله أخى يوسف لو لم يقل اذكرنى عند ربك لما لبث فى السجن سبعا بعد الخمس » والاستعانة بالعباد وإن كانت مرخصة لكن اللائق بمناصب الانبياء عليهم السلام الأخذ بالعزائم (وقال الملك) أى الريان (إنى أرى) أى رأيت وايثار صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية (سبع بقرات سمان) جمع سمين وسمينة ككرام فى جمع كريم وكريمة يقال رجال كرام ونسوة كرام (يأكلهن) أى أكلهن والعدول الى المضارع لاستحضار الصورة تعجيبا والجملة حال من البقرات أو صفة لها (سبع عجاف) أى سبع بقرات عجاف وهى جمع عجفاء والقياس عجف لان فعلاء وأفعل لا يجمع على فعال ولكن عدل به عن القياس حملا لاحد النقيضين على الآخر وانما لم يقل سبع عجاف بالاضافة لأن التميز موضوع لبيان الجنس والصفة ليست بصالحة لذلك فلا يقال ثلاثة ضخام وأربعة غلاظ وأما قولك ثلاثة فرسان وخمسة ركبان فلجريان الفارس والراكب مجرى الاسماء روى أنه رأى سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وخرج عقيبهن سبع بقرات عجاف فى غاية الهزال فابتلعت العجاف السمان (وسبع سنبلات خضر) قد انعقد حبها (وأخر يابسات) أى وسبعا أخر يابسات قد أدركت والتوت على الخضر حتى غلبتها على ماروى ولعل عدم التعرض لذكره للاكتفاء بما ذكر من حال البقرات (ياأيها الملأ) خطاب للاشراف من العلماء والحكماء (أفتونى فى رؤياى) هذه أى عبروها وبينوا حكمها وما تؤل اليه من العاقبة والتعبير عن التعبير بالافتاء لتشريفهم وتفخيم أمر رؤياه (إن كنتم للرؤيا تعبرون) أى تعلمون عبارة جنس الرؤيا علما مستمرا وهى الانتقال من الصور الخيالية المشاهدة فى المنام إلى ماهى صور وأمثلة لها من الأمور الآفاقية أو الأنفسية الواقعة فى الخارج من العبور وهو المجاوزة تقول عبرت النهر إذا قطعته وجاوزته ونحوه أولتها أى ذكرت مآلها وعبرت الرؤيا عبارة أثبت من عبرتها تعبيرا والجمع بين الماضى والمستقبل للدلالة على الاستمرار كما أشير اليه واللام للبيان أو لتقوية العامل المؤخر لرعاية الفواصل أو لتضمين تعبرون معنى فعل متعد باللام كأنه قيل إن كنتم تنتدبون لعبارتها ويجوز أن يكون للرؤيا خبر كان كما يقال فلان لهذا الأمر اذا كان مستقلا

به متمكنا منه وتعبرون خبر آخر (قالوا) استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قال الملأ للملك فقيل قالوا هى (أضغاث أحلام) أى تخاليطها جمع ضغث وهو فى الأصل ماجمع من أخلاط النبات وحزم ثم استعير لما تجمعه القوة المتخيلة من أحاديث النفس ووساوس الشيطان وتريها فى المنام والأحلام جمع حلم وهى الرؤيا الكاذبة التى لاحقيقة لها والاضافة بمعنى من أى هى أضغاث من أحلام أخرجوها من جنس الرؤيا التى لها عاقبة تؤل اليها ويعتنى بأمرها وجمعوها وهى رؤيا واحدة مبالغة فى وصفها بالبطلان كما فى قولهم فلان يركب الخيل ويلبس العمائم لمن لا يملك الا فرسا واحدا وعمامة فردة أو لتضمنها أشياء مختلفة من البقرات السبع السمان والسبع العجاف والسنابل السبع الخضر والأخر اليابسات فتأمل حسن موقع الأضغاث مع السنابل فلله در شأن التنزيل (ومانحن بتأويل الأحلام) أى المنامات الباطلة التى لاأصل لها (بعالمين) لا لأن لها تأويلا ولكن لانعلمه بل لأنه لاتأويل لها وانما التأويل للمنامات الصادقة . ويجوز أن يكون ذلك اعترافا منهم بقصور علمهم وأنهم ليسوا بنحارير فى تأويل الاحلام مع أن لها تأويلا كما يشعر به عدولهم عما وقع فى كلام الملك من العبارة المعربة عن مجرد الانتقال من الدال إلى المدلول حيث لم يقولوا بتعبير الأحلام أو عبارتها الى التأويل المنبىء عن التصرف والتكلف فى ذلك لمابين الآيل والمآل من البعد ويؤيده قوله عز وجل «أنا أنبئكم بتأويله» (وقال الذى نجا منهما) أى من صاحبى يوسف وهو الشرابى (وادكر) بغير المعجمة وهو الفصيح وعن الحسن بالمعجمة أى تذكر يوسف عليه السلام وشئونه التى شاهدها ووصيته بتقريب رؤيا الملك واشكال تأويلها على الملأ (بعد أمة) أى مدة طويلة وقرىء أمة بالكسر وهى النعمة أى بعد ما أنعم عليه بالنجاة . وأمه أى نسيان والجملة حال من الموصول أو من ضميره فى الصلة وقيل معطوفة على نجا وليس بذاك لان حق كل من الصفة والصلة أن تكون معلومة الانتساب الى الموصوف والموصول عند المخاطب كما عند المتكلم ولذلك قيل ان الصفات قبل العلم بها أخبار والاخبار بعد العلم بها صفات وأنت تدرى أن تذكره بعد أمة انما علم بهذه الجملة فلا مجال لنظمه مع نجاته المعلومة قبل فى سلك الصلة (أنا أنبئكم بتأويله) أى أخبركم به بالتلقى عمن عنده علمه لامن تلقاء نفسى ولذلك لم يقل أنا أفتيكم فيها وعقبه بقوله (فأرسلون) أى الى يوسف وانما لم يذكره ثقة بما سبق من التذكر وما لحق من قوله (يوسف أيها الصديق) أى أرسل اليه فأتاه فقال يايوسف ووصفه بالمبالغة فى الصدق حسبما شاهده وذاق أحواله وجربها لكونه بصدد اغتنام آثاره واقتباس أنواره فهو من باب براعة الاستهلال

(أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات) أى فى رؤيا ذلك وانما لم يصرح به لوضوح مرامه بقرينة ماسبق من معاملتهما ولدلالة مضمون الحادثة عليه حيث لا امكان لوقوعه فى عالم الشهادة أى بين لنا مآلها وحكمها وحيث عاين علو رتبته عليه السلام فى الفضل عبر عن ذلك بالافتاء ولم يقل كما قال هو وصاحبه أولا نبئنا بتأويله وفى قوله أفتنا مع أنه المستفتى وحده اشعار بأن الرؤيا ليست له بل لغيره ممن له ملابسة بأمور العامة وأنه فى ذلك معبر وسفير كما آذن بذلك حيث قال (لعلى أرجع إلى الناس) أى الى الملك ومن عنده أو الى أهل البلدان كان السجن فى الخارج كما قيل فأنبئهم بذلك (لعلهم يعلمون) ذلك ويعملون بمقتضاه أو يعلمون فضلك ومكانك مع ما أنت فيه من الحال فتتخلص منه وانما لم يبت القول فى ذلك مجاراة معه على نهج الأدب واحترازا عن المجازفة إذ لم يكن على يقين من الرجوع فربما اخترم دونه ، لعل المنايا دون ماتعدانى ،

ولا من علمهم بذلك فربما لم يعلموه (قال) استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قال يوسف عليه السلام فى التأويل فقيل قال (تزرعون سبع سنين دأبا) قرىء بفتح الهمزة وسكونها وكلاهما مصدر دأب فى العمل إذا جد فيه وتعب وانتصابه على الحالية من فاعل تزرعون أى دائبين أو تدأبون دأبا على أنه مصدر مؤكد لفعل هو الحال أول عليه السلام البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب والعجاف واليابسات بسنين مجدبة فأخبرهم بأنهم يواظبون سبع سنين على الزراعة ويبالغون فيها إذ بذلك يتحقق الخصب الذى هو مصداق البقرات السمان وتأويلها ودلهم فى تضاعيف ذلك على أمر نافع لهم فقال (فما حصدتم) أى فى كل سنة (فذروه فى سنبله) ولا تذروه كيلا يأكله السوس كما هو شأن غلال مصر ونواحيها ولعله عليه السلام استدل على ذلك بالسنبلات الخضر . وانما أمرهم بذلك اذ لم يكن معتادا فيما بينهم وحيث كانوا معتادين للزراعة لم يأمرهم بها وجعلها أمرا محقق الوقوع وتأويلا للرؤيا مصداقا لما فيها من البقرات السمان (إلا قليلا مما تأكلون) فى تلك السنين . وفيه ارشاد منه عليه السلام لهم الى التقليل فى الاكل والاقتصار على الاستثناء المأكول دون البذر لكون ذلك معلوما من قوله تزرعون سبع سنين وبعد اتمام ما أمرهم به شرع فى بيان بقية التأويل التى يظهر منها حكمة الامر المذكور فقال (ثم يأتى) وهو عطف على تزرعون فلا وجه لجعله بمعنى الامر حثا لهم على الجد والمبالغة فى الزراعة على أنه يحصل بالاخبار بذلك أيضا (من بعد ذلك) أى

من بعد السنين السبع المذكورات وانما لم يقل من بعدهن قصدا الى الاشارة الى وصفهن
فان الضمير ساكت عن أوصاف المرجع بالكلية (سبع شداد) أى سبع سنين صعاب
على الناس (يأكلن ماقدمتم لهن) من الحبوب المتروكة فى سنابلها وفيه تنبيه على أن
أمره عليه السلام بذلك كان لوقت الضرورة . واسناد الاكل اليهن مع أنه حال الناس
فيهن مجازى كما فى نهاره صائم وفيه تلويح بأنه تأويل لاكل العجاف السمان واللام
فى لهن ترشيح لذلك فكان ما ادخر فى السنابل من الحبوب شيء قد هيء وقدم لهن
كالذى يقدم للنازل والافهو فى الحقيقة مقدم للناس فيهن (إلا قليلا مما تحصنون)
تحرزون مبذور الزراعة (ثم يأتى من بعد ذلك) أى من بعد السنين الموصوفة
بماذكر من الشدة وأكل الغلال المدخرة (عام) لم يعبرعنه بالسنة تحاشيا عن المدلول
الاصلى لها من عام القحط وتنبيها من أول الامر على اختلاف الحال بينه وبين السوابق
(فيه يغاث الناس) من الغيث أى يمطرون يقال غيثت البلاد اذا مطرت فى وقت
الحاجة أومن الغوث يقال أغاثنا الله تعالى أى أمدنا برفع المكاره حين أظلتنا (وفيه
يعصرون) أى مامن شأنه أن يعصر من العنب والقصب والزيتون والسمسم ونحوها
من الفواكه لكثرتها والتعرض لذكر العصر مع جواز الاكتفاء عنه بذكر الغيث
المستلزم له عادة كما اكتفى به عن ذكر تصرفهم فى الحبوب أما لان استلزام الغيث
له ليس كاستلزامه للحبوب اذ المذكورات يتوقف صلاحها على مباد أخرى غير المطر
وأما لمراعاة جانب المستفتى باعتبار حالته الخاصة به بشارة له وهى التى يدور عليها
حسن موقع تغليبه على الناس فى القراءة بالفوقانية . وقيل معنى يعصرون يحلبون الضروع
وتكرير فيه أما للاشعار باختلاف أوقات مايقع فيه من الغيث والعصر زمانا وهو
ظاهر وعنوانا فان الغيث والغوث من فضل الله تعالى والعصر من فعل الناس وأما لان
المقام مقام تعداد منافع ذلك العام ولأجله قدم فى الموضعين على الفعلين فان المقصود
الاصلى بيان أنه يقع فى ذلك العام هذا النفع وذاك النفع لابيان أنهما يقعان فى ذلك العام كما يفيده
التأخير . ويجوز أن يكون التقديم للقصر على معنى أن غيثهم وعصرهم فى سائر السنين بمنزلة العدم
بالنسبة الى ماعامهم ذلك وأن يكون ذلك فى الاخير لمراعاة الفواصل وفى الاول لرعاية حاله . وقرىء
يعصرون على البناء للمفعول من عصره اذا أنجاه وهو المناسب للاغاثة . ويجوز أن يكون المبنى
للفاعل أيضا منه كأنه قيل فيه يغاث الناس وفيه يغيثون أى يغيثهم الله ويغيث بعضهم
بعضا وقيل معنى يعصرون يمطرون من أعصرت السحابة . اما بتضمين أعصرت معنى
مطرت وتعديته . واما بحذف الجار وايصال الفعل على أن الأصل أعصرت عليهم

وأحكام هذا العام المبارك ليست مستنبطة من رؤيا الملك وانما تلقاها عليه السلام من جهة الوحى فبشرهم بها بعد ماأول الرؤيا بماأول وأمرهم بالتدبير اللائق فى شأنه ابانة لعلو كعبه ورسوخ قدمه فى الفضل وأنه محيط بمالم يخطر ببال أحد فضلا عما يرى صورته فى المنام على نحو قوله لصاحبيه عند استفتائهما فى منامهما لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله واتماما للنعمة عليهم حيث لم يشاركه عليه السلام فى العلم بوقوعها أحد ولو برؤية مايدل عليها فى المنام (وقال الملك) بعدماجاءه السفير بالتعبير وسمع منه ماسمع من نقير وقطمير (ائتونى به) لما علم من علمه وفضله (فلما جاءه) أى يوسف (الرسول) واستدعاه الى الملك (قال ارجع إلى ربك) أي سيدك (فاسأله مابال النسوة اللاتى قطعن أيديهن) أى ففتشه عن شأنهن وانما لم يقل فاسأله أن يفتش عن ذلك حثاً للملك على الجد فى التفتيش ليتبين براءته ويتضح نزاهته اذ السؤال مما يهيج الانسان على الاهتمام فى البحث للتفصى عما توجه اليه وأما الطلب فمما قد يتسامح و يتساهل فيه ولا يبالى به . وانما لم يتعرض لامرأة العزيز مع مالقى منها مالقى من مقاساة الاحزان ومعاناة الاشجان محافظة على مواجب الحقوق واحترازا عن مكرها حيث اعتقدها مقيمة فى عدوة العداوة . وأما النسوة فقد كان يطمع فى صدعهن بالحق وشهادتهن باقرارها بأنها راودته عن نفسه فاستعصم ولذلك اقتصر على وصفهن بتقطيع الايدى ولم يصرح بمراودتهن له وقولهن أطع مولاتك واكتفى بالايماء الى ذلك بقوله (إن ربى بكيدهن عليم) مجاملة معهن واحترازا عن سوء قالتهن عند الملك وانتصابهن للخصومة مدافعة عن أنفسهن متى سمعن بنسبته لهن الى الفساد (قال) استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا كان بعد ذلك فقيل قال الملك أثر مابلغه الرسول الخبر وأحضرهن (ماخطبكن) أى شأنكن وهو الأمر الذى يحق لعظمه أن يخاطب المرء فيه صاحبه (إذ راودتن يوسف) وخادعتنه (عن نفسه) ورغبتنه فى أطاعةمولاته هل وجدتن فيه شيئاً من سوء وريبة (قلن حاش لله) تنزيهاله وتعجباً من نزاهته وعفته (ماعلمنا عليه من سوء) بالغن فى نفى جنس السوء عنه بالتنكير وزيادة من (قالت امرأت العزيز) وكانت حاضرة فى المجلس وقيل أقبلت النسوة عليها يقررنها . وقيل خافت أن يشهدن عليها بما قالت لهن ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين فأقرت قائلة (الآن حصحص الحق) أى ثبت واستقر أو تبين وظهر بعد خفاء قاله الخليل . وقيل هو مأخوذ من الحصة وهى القطعة من الجملة أى تبين حصة الحق من

حصة الباطل كما تتبين حصص الأراضى وغيرها . وقيل بان وظهر من حص شعره اذا استأصله بحيث ظهرت بشرة رأسه . وقرىء على البناء للمفعول من حصحص البعير مباركه أى ألقاها فى الارض للاناخة قال :

فحصحص فى صم الصفا ثفناته ٭ وناء بسلمى نوأة ثم صمما

والمعنى أقر الحق فى مقره ووضع فى موضعه ولم ترد بذلك مجرد ظهور ماظهر بشهادتهن من مطلق نزاهته عليه السلام فيما أحاط به علمهن من غير تعرض لنزاهته فى سائر المواطن خصوصا فيما وقع فيه التشاجر بمحضر العزيز ولا بحث عن حال نفسها وماصنعت فى ذلك بل أرادت ظهور ماهو متحقق فى نفس الامر وثبوته من نزاهته عليه السلام فى محل النزاع وخيانتها فقالت (أنا راودته عن نفسه) لاأنه راودنى عن نفسى (وإنه لمن الصادقين) أى فى قوله حين افتريت عليه هى راودتنى عن نفسى وأرادت بالآن زمان تكلمها بهذا الكلام لازمان شهادتهن فتأمل أيها المنصف هل ترى فوق هذه المرتبة نزاهة حيث لم تتمالك الخصماء من الشهادة بها ٭ والفضل ماشهدت به الخصماء ٭ وانما تصدى عليه السلام لتمهيد هذه المقدمة قبل الخروج ليظهر براءة ساحته مما قذف به لاسيما عند العزيز قبل أن يحل ماعقده كما يعرب عنه قوله عليه السلام لما راجع اليه الرسول وأخبره بكلامهن (ذلك) أى ذلك التثبيت المؤدى الى ظهور حقيقة الحال (ليعلم) أى العزيز (أنى لم أخنه) فى حرمته كما زعمه لاعلما مطلقا فان ذلك لايستدعى تقديم التفتيش على الخروج من السجن بل قبل ماذكر من نقض ماأبرمه ولعله لمراعاة حقوق السيادة لان المباشرة للخروج من حبسه قبل ظهور بطلان ماجعله سبباله وان كان ذلك بأمر الملك مما يوهم الافتيات على رأيه وأماأن يكون ذلك لئلا يتمكن من تقبيح أمره عند الملك تمحلا لأمضاء ماقضاه فلا يليق بشأنه عليه السلام فى الوثوق بأمره والتوكل على ربه جل جلاله (بالغيب) أى بظهر الغيب وهو حال من الفاعل أو المفعول أى لم أخنه وأنا غائب عنه أو وهو غائب عنى أو ظرف أى بمكان الغيب وراء الأستار والابواب المغلقة وأياما كان فالمقصود بيان كمال نزاهته عن الخيانة وغاية اجتنابه عنها عند تعاضد أسبابها (وان الله) أى وليعلم أنه تعالى (لايهدى كيد الخائنين) أى لاينفذه ولا يسدده بل يبطله ويزهقه أولا يهديهم فى كيدهم ايقاعا للفعل على الكيد مبالغة كما فى قوله تعالى «يضاهئون قول الذين كفروا» أى يضاهئونهم فى قولهم . وفيه تعريض بامرأته فى خيانتها أمانته وبه فى خيانته أمانة الله تعالى حين ساعدها على حبسه بعد مارأوا آيات نزاهته عليه

السلام ويجوز أن يكون ذلك لتأكيد أمانته وأنه لو كان خائنا لما هدى الله عز وجل أمره وأحسن عاقبته (وما أبرىء نفسي) أي لا أنزهها عن السوء قاله عليه السلام هضما لنفسه الكريمة البريئة عن كل سوء وربا بمكانها عن التزكية والاعجاب بحالها عند ظهور كمال نزاهتها على اسلوب قوله عليه السلام «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» أو تحديثا بنعمة الله عز وجل عليه وابرازاً لسره المكنون في شأن أفعال العباد أي لا أنزهها عن السوء من حيث هي هي ولا أسند هذه الفضيلة اليها بمقتضى طبعها من غير توفيق من الله عز وعلا (إن النفس) البشرية التي من جملتها نفسي في حد ذاتها (لأمارة بالسوء) مائلة الى الشهوات مستعملة للقوى والآلات في تحصيلها بل انما ذلك بتوفيق الله تعالى وعصمته ورحمته كما يفيده قوله (إلا ما رحم ربي) من النفوس التي يعصمها من الوقوع في المهالك ومن جملتها نفسي أو هي أمارة بالسوء في كل وقت الا وقت رحمة ربي وعصمته لها. وقيل الاستثناء منقطع أي لكن رحمة ربي هي التي تصرف عنها السوء كما في قوله تعالى «ولا هم ينقذون إلا رحمة» (إن ربي غفور رحيم) عظيم المغفرة لما يعتري النفوس بموجب طباعها ومبالغ في الرحمة لها بعصمتها من الجريان بمقتضى ذكر ذلك. وايثار الاظهار في مقام الاضمار مع التعرض لعنوان الربوبية لتربية مبادى المغفرة والرحمة. وقيل الى هنا من كلام امرأة العزيز والمعنى ذلك الذي قلت ليعلم يوسف عليه السلام اني لم أخنه ولم أكذب عليه في حال الغيبة وجئت بما هو الحق الواقع وما أبرىء نفسي مع ذلك من الخيانة حيث قلت في حقه ما قلت وفعلت به ما فعلت ان كل نفس لأمارة بالسوء ألا ما رحم ربي أي الا نفسا رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف ان ربي غفور لمن استغفر لذنبه واعترف به رحيم له فعلى هذا يكون تأنيه عليه السلام في الخروج من السجن لعدم رضاه عليه السلام بملاقاة الملك وأمره بين بين ففعل ما فعل حتى يتبين نزاهته وأنه انما سجن بظلم عظيم مع ماله من الفضل ونباهة الشأن ليتلقاه الملك بما يليق به من الاعظام والاجلال وقد وقع (وقال الملك ائتوني به أستخلصه) أجعله خالصا (لنفسي) وخاصا بي (فلما كلمه) أي فأتوا به فحذف للايذان بسرعة الاتيان به فكأنه لم يكن بين الامر بإحضاره والخطاب معه زمان أصلا والضمير المستكن في كلمه ليوسف والبارز للملك أي فلما كلمه يوسف أثر ما أتاه فاستنطقه وشاهد منه ما شاهد (قال إنك اليوم لدينا مكين) ذو مكانة ومنزلة رفيعة (أمين) مؤتمن على كل شيء واليوم ليس بمعيار لمدة المكانة والامانة بل هو آن التكلم والمراد تحديد مبدئهما احترازا عن احتمال كونهما بعد حين. روى

أنه عليه السلام لما جاءه الرسول خرج من السجن ودعا لاهله واغتسل ولبس ثيابا جدداً فلما دخل على الملك قال اللهم انى أسألك بخيرك من خيره وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره وشر غيره ثم سلم عليه ودعا له بالعبرانية فقال ما هذا اللسان قال لسان آبائى وكان الملك يعرف سبعين لسانا فكلمه بها فأجابه بجميعها فتعجب منه فقال أحب أن أسمع منك رؤياى فحكاها ونعت له البقرات والسنابل وأماكنها على مارآها فأجلسه على السرير وفوض له أمره . وقيل توفى قطفير فى تلك الليالى فنصبه منصبه وزوجه راعيل فوجدها عذراء وولدت له افرايم وميشا ولعل ذلك انما كان بعد تعيينه عليه السلام لما عين له من أمر الخزائن كما يعرب عنه قوله عزوجل (قال اجعلنى على خزائن الأرض) أى أرض مصر أى ولنى أمرها من الايراد والصرف (إنى حفيظ) لها ممن لا يستحقها (عليم) بوجوه التصرف فيها . وفيه دليل على جواز طلب الولاية اذا كان الطالب ممن يقدر على اقامة العدل واجراء أحكام الشريعة وان كان من يد الجائر أو الكافر وعن مجاهد أنه أسلم الملك على يده عليه السلام ولعل ايثاره عليه السلام لتلك الولاية خاصة انما كان للقيام بما هو أهم أمور السلطنة إذ ذاك من تدبير أمر السنين حسبما فصل فى التأويل لكونه من فروع تلك الولاية لا لمجرد عموم الفائدة وجموم العائدة كما قيل . وانما لم يذكر إجابة الملك إلى ماسأله عليه السلام من جعله على خزائن الأرض إيذانا بأن ذلك أمر لا مرد له غنى عن التصريح به لاسيما بعد تقديم ما يندرج تحته من أحكام السلطنة بحذافيرها من قوله أنك اليوم لدينا مكين أمين وللتنبيه على أن كل ذلك من الله عز وجل وانما الملك آلة فى ذلك قيل (وكذلك) أى مثل ذلك التمكين البليغ (مكنا ليوسف) أى جعلنا له مكانا (فى الأرض) أى أرض مصر روى أنها كانت أربعين فرسخافى أربعين . وفى التعبير عن الجعل المذكور بالتمكين فى الأرض مسندا إلى ضميره عز سلطانه من تشريفه عليه السلام والمبالغة فى كمال ولايته والاشارة إلى حصول ذلك من أول الأمر الا انه حصل بعد السؤال مالا يخفى (يتبوأ منها) ينزل من بلادها (حيث يشاء) ويتخذه مباءة وهو عبارة عن كمال قدرته على التصرف فيها ودخولها تحت ملكته وسلطانه فكأنها منزله يتصرف فيها كما يتصرف الرجل فى منزله وقرأ ابن كثير بالنون . روى أن الملك توجه وختمه بخاتمه ورداه بسيفه ووضع له سريرا من ذهب مكللا بالدر والياقوت فقال عليه السلام « أما السرير فاشد به ملكك وأما الخاتم فادبر به أمرك وأما التاج فليس من لباسى ولا لباس آبائى » فقال قد وضعته اجلالا لك وأقرارا بفضلك فجلس على السرير ودانت له الملوك وفوض اليه الملك أمره وأقام العدل بمصر وأحبته الرجال والنساء

و باع من أهل مصر فى سنى القحط الطعام فى السنة الأولى بالدنانير والدراهم وفى الثانية بالحلى والجواهر وفى الثالثة بالدواب ثم بالضياع والعقار ثم برقابهم حتى استرقهم جميعا فقالوا مارأينا كاليوم ملكا أجل وأعظم منه ثم أعتقهم ورد اليهم أموالهم وكان لايبيع من أحد من الممتارين أكثر من حمل بعير تقسيطا بين الناس (نصيب برحمتنا) بعطائنا فى الدنيا من الملك والغنى وغير هما من النعم (من نشاء) بمقتضى الحكمة الداعية إلى المشيئة (ولا نضيع أجر المحسنين) بل نوفيه بكماله . وفيه اشعار بأن مدار المشيئة المذكورة احسان من تصيبه الرحمة المرقومة وأنها أجر له ولدفع توهم انحصار ثمرات الاحسان فيما ذكر من الأجر العاجل قيل على سبيل التوكيد (ولأجر الآخرة) أى أجرهم فى الآخرة فالاضافة للملابسة وهو النعيم المقيم الذى لانفاد له (خير) لهم أى للمحسنين المذكورين وانما وضع موضعه الموصول فقيل (للذين آمنوا وكانوا يتقون) تنبيها على أن المراد بالاحسان انما هو الايمان والثبات على التقوى المستفاد من جمع صيغتى الماضى والمستقبل (وجاء أخوة يوسف) ممتارين لما أصاب أرض كنعان وبلاد الشام ما أصاب أرض مصر وقد كان أرسلهم يعقوب عليه السلام جميعا غير بنيامين (فدخلوا عليه) أى على يوسف وهو فى مجلس ولايته (فعرفهم) لقوة فهمه وعدم مباينة أحوالهم السابقة لحالهم يومئذ لمفارقته اياهم وهم رجال وتشابه هيئاتهم وزيهم فى الحالين ولكون همته معقودة بهم وبمعرفة أحوالهم لاسيما فى زمن القحط وعن الحسن ماعرفهم حتى تعرفوا له (وهم له منكرون) أى والحال انهم منكرون له لطول العهد وتباين مابين حاليه عليه السلام فى نفسه ومنزلته وزيه ولاعتقادهم انه هلك وحيث كان انكارهم له أمرا مستمرا فى حالتى المحضر والمغيب أخبر عنه بالجملة الاسمية بخلاف عرفانه عليه السلام اياهم (ولما جهزهم بجهازهم أى أصلحهم بعدتهم من الزاد ومايحتاج اليه المسافر وأوقر ركائبهم بما جاءوا له من الميرة وقرىء بكسر الجيم (قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم) لم يقل بأخيكم مبالغة فى اظهار عدم معرفته لهم ولعله عليه السلام انما قال لما قيل من أنهم سألوه عليه السلام حملا زائدا على المعتاد لبنيامين فأعطاهم ذلك وشرطهم أن يأتوا به لا لما قيل من أنه لما رأوه وكلموه بالعبرية قال لهم من أنتم فانى أنكركم فقالوا له نحن قوم من أهل الشام رعاة أصابنا الجهد فجئنا نمتار فقال لهم لعلكم جئتم عيونا فقالوا معاذ الله نحن اخوة بنو أب واحد وهو شيخ كبير صديق نبى من الأنبياء اسمه يعقوب قال كم أنتم قالوا كنا اثنى عشر فهلك منا واحد فقال كم أنتم ههنا قالوا عشرة قال فأين الحادى عشر قالوا هو عند أبيه يتسلى به عن الهالك قال فمن

يشهد لكم أنكم لستم عيونا وأن ماتقولون حق قالوا نحن ببلاد لا يعرفنافيها أحد فيشهد لنا قال فدعوا بعضكم عندى رهينة وائتونى بأخيكم من أبيكم وهو يحمل رسالة من أبيكم حتى أصدقكم فاقترعوا فأصاب القرعة شمعون فخلفوه عنهم إذ لا يساعده ورود الأمر بالاتيان به عند التجهيز ولا الحث عليه بايفاء الكيل ولا الاحسان فى الانزال ولا الاقتصار على منع الكيل على تقدير عدم الاتيان ولا جعل بضاعتهم فى رحالهم لأجل رجوعهم ولا عدتهم بالاتيان به بطريق المراودة ولا تعليلهم عند أبيهم ارسال أخيهم بمنع الكيل من غير ذكر الرسالة على أن استبقاء شمعون لو وقع لكان ذلك طامة ينسى عندها كل قيل وقال (ألا ترون أنى أوف الكيل) أتمه لكم وايثار صيغة الاستقبال مع كون هذا الكلام بعد التجهيز للدلالة على ان ذلك عادة له مستمرة (وأنا خير المنزلين) جملة حالية أى ألا ترون أنى أوف الكيل لكم ايفاء مستمرا والحال انى فى غاية الاحسان فى انزالكم وضيافتكم وقد كان الأمر كذلك . وتخصيص الرؤية بالايفاء لوقوع الخطاب فى أثنائه وأما الاحسان فى الانزال فقد كان مستمرا فيما سبق ولحق ولذلك أخبر عنه بالجملة الاسمية ولم يقله عليه السلام بطريق الامتنان بل لحثهم على تحقيق ماأمرهم به . والاقتصار فى الكيل على ذكر الايفاء لان معاملته عليه السلام معهم فى ذلك كمعاملته مع غيرهم فى مراعاة مواجب العدل وأما الضيافة فليس للناس فيها حق فخصهم فى ذلك بماشاء (فأن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى) من بعد فضلا عن ايفائه (ولا تقربون) بدخول بلادى فضلا عن الاحسان فى الانزال والضيافة وهو اما نهى أو نفى معطوف على محل الجزاء وفيه دليل على أنهم كانوا على نية الامتيار مرة بعد أخرى وأن ذلك كان معلوما له عليه السلام (قالوا سنراود عنه أباه) أى سنخادعه عنه ونحتال فى انتزاعه من يده ونجتهد فى ذلك وفيه تنبيه على عزة المطلب وصعوبة مناله (وإنا لفاعلون) ذلك غير مفرطين فيه ولا متوانين أو لقادرون عليه لا نتعانى به (وقال) يوسف (لفتيانه) غلمانه الكيالين جمع فتى وقرىء لفتيته وهى جمع قلة له (اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم) فانه وكل بكل رحل رجلا يعبى فيه بضاعتهم التى شروا بها الطعام وكانت نعالا وأدما وانما فعله عليه السلام تفضلا عليهم وخوفا من أن لا يكون عند أبيه ما يرجعون به مرة أخرى وكل ذلك لتحقيق ما يتوخاه من رجوعهم بأخيه كما يؤذن به قوله (لعلهم يعرفونها) أى يعرفون حق ردها والتكرم فى ذلك أو لكى يعرفوها وهو ظاهر التعلق بقوله (إذا انقلبوا إلى أهلهم) فان معرفتهم لها مقيدة بالرجوع وتفريغ الأوعية قطعا . وأما معرفة حق التكرم فى ردها فهى وإن كانت فى ذاتها غير مقيدة

بذلك لكن لما كان ابتداؤها حينئذ قيدت به (لعلهم يرجعون) حسبما أمرتهم به فان التفضل عليهم باعطاء البدلين ولا سيما عند اعواز البضاعة من أقوى الدواعى الى الرجوع . وماقيل انما فعله عليه السلام لما أنه يرى من الكرم أن يأخذ من أبيه واخوته ثمنا فكلام حق فى نفسه ولكن يأباه التعليل المذكور وأما أن علية الجعل المذكور للرجوع من حيث أن ديانتهم تحملهم على رد البضاعة لانهم لا يستحلون امساكها فمداره حسبانهم أنها بقيت فى رحالهم نسيانا . وظاهر أن ذلك مما لا يخطر ببال أحد أصلا فان هيئة التعبية تنادى بأن ذلك بطريق التفضل ألا يرى أنهم كيف جزموا بذلك حين رأوها وجعلوا ذلك دليلا على التفضلات السابقة كما ستحيط به خبرا (فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا) قبل أن يشتغلوا بفتح المتاع (يا أبانا منع منا الكيل) أى فيما بعد . وفيه مالا يخفى من الدلالة على كون الامتيار مرة بعدمرة معهودا فيما بينهم وبينه عليه السلام (فأرسل معنا أخانا) بنيامين الى مصر . وفيه ايذان بأن مدار المنع عدم كونه معهم (نكتل) بسببه من الطعام مانشاء وقرأ حمزة والكسائى بالياء على اسناده الى الأخ لكونه سببا للاكتيال أو يكتل لنفسه مع اكتيالنا (وإنا له لحافظون) من أن يصيبه مكروه (قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه) يوسف (من قبل) وقد قلتم فى حقه أيضا ما قلتم ثم فعلتم به ما فعلتم فلا أثق بكم ولا بحفظكم وانما أفوض الامر إلى الله (فالله خير حافظا) وقرىء حفظا وانتصابهما على التمييز والحالية على القراءة الاولى توهم تقيد الخيرية بتلك الحالة (وهو أرحم الراحمين) فأرجو أن يرحمنى بحفظه ولا يجمع على مصيبتين وهذا كما ترى ميل منه عليه السلام الى الاذن والارسال لما رأى فيه من المصلحة (ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم) أى تفضلا وقد علموا ذلك بما مر من دلالة الحال . وقرىء بنقل حركة الدال المدغمة الى الراء كما قيل فى قيل وكيل (قالوا) استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل ماذا قالوا حينئذ فقيل قالوا لأبيهم ولعله كان حاضرا عند الفتح (يا أبانا ما نبغى) اذا فسر البغى بالطلب فما اما استفهامية منصوبة به فالمعنى ماذا نبتغى وراء ما وصفنا لك من احسان الملك الينا وكرمه الداعى الى امتثال أمره والمراجعة اليه فى الحوائج وقد كانوا أخبروه بذلك وقالوا له انا قدمنا على خير رجل أنزلنا وأكرمنا كرامة لو كان رجلا من آل يعقوب ما أكرمنا كرامته وقوله تعالى (هذه بضاعتنا ردت إلينا) جملة مستأنفة موضحة لما دل عليه الانكار من بلوغ اللطف غايته كأنهم قالوا كيف لا وهذه بضاعتنا ردها الينا تفضلا من حيث لا ندرى بعد ما من علينا من المنن العظام هل من مزيد على هذا فنطلبه ولم

يريدوا به الاكتفاء بذلك مطلقاً أو التقاعد عن طلب نظائره بل أرادوا الاكتفاء به في استيجاب الامتثال لامره والالتجاء اليه في استجلاب المزيد كما أشرنا اليه وقوله تعالى « ردت إلينا » حال من بضاعتنا والعامل معنى الاشارة . وإيثار صيغة البناء للمفعول للايذان بكمال الاحسان الناشيء عن كمال الاخفاء المفهوم من كمال غفلتهم عنه بحيث لم يشعروا به ولا بفاعله وقوله عز وجل (ونمير أهلنا) أي نجلب اليهم الطعام من عند الملك معطوف على مقدار ينسحب عليه رد البضاعة أي فنستظهر بها ونمير أهلنا (ونحفظ أخانا) من المكاره حسبما وعدنا فما يصيبه من مكروه (ونزداد) أي بواسطته ولذلك وسط الاخبار بحفظه بين الأصل والمزيد (كيل بعير) أي وسق بعير زائداً على أوساق أباعرنا على قضية التقسيط (ذلك) أي ماتحمله أباعرنا (كيل يسير) أي مكيل قليل لايقوم بأودنا فهو استئناف وقع تعليلا لما سبق كأنه قيل أي حاجة الى الازدياد فقيل ماقيل أو ذلك الكيل الزائد شيء قليل لايضايقنا فيه الملك أو سهل عليه لايتعاظمه أو أي مطلب نطلب من مهماتنا . والجملة الواقعة بعده توضيح وبيان لما يشعر به الانكار من كونهم فائزين ببعض المطالب أو متمكنين من تحصيله فكأنهم قالوا بضاعتنا حاضرة فنستظهر بها ونمير أهلنا ونحفظ أخانا فما يصيبه شيء من المكاره ونزداد بسببه غير ما نكتاله لأنفسنا كيل بعير فاي شيء نبتغي وراء هذه المباغي . وقريء ماتبغي على خطاب يعقوب عليه السلام أي أي شيء تبغي وراء هذه المباغي المشتملة على سلامة أخينا وسعة ذات أيدينا أو وراء مافعل بنا الملك من الاحسان داعياً الى التوجه اليه والجملة الاستئنافية موضحة لذلك أو أي شيء تبغي شاهداً على صدقنا فيما وصفنا لك من احسانه والجملة المذكورة عبارة عن الشاهد المدلول عليه بفحوى الانكار واما نافية فالمعنى مانبغي شيئاً غير ما رأينا من احسان الملك في وجوب المراجعة اليه أو مانبغي غير هذه المباغي . وقيل ما نطلب منك بضاعة أخرى والجملة المستأنفة تعليل له وأما اذا فسر البغي بمجاوزة الحد فما نافية فقط والمعنى مانبغي في القول وما نتزيد فيما وصفنا لك من احسان الملك الينا وكرمه الموجب لما ذكر . والجملة المستأنفة لبيان ما ادعوا من عدم البغي وقوله ونمير أهلنا عطف على مانبغي أي مانبغي فيما ذكرنا من احسانه وتحصيل أمثاله من مير أهلنا وحفظ أخينا فان ذلك أهون شيء بواسطة احسانه وقد جوز أن يكون كلاما مبتدأ أي جملة اعتراضية تذييلية على معنى وينبغي أن نمير أهلنا وشبه ذلك بقولك سعيت في حاجة فلان ويجب أن أسعى . وأنت خبير بأن شأن الجمل التذييلية أن تكون مؤكدة لمضمون الصدر

ومقررة له كما فى المثال المذكور وقولك فلان ينطق بالحق فالحق ابلج وان قوله ونمير الخ وان ساعدنا فى حمله على معنى ينبغى أن نمير أهلنا بمعزل من ذلك أو ما نبغى فى الرأى وما نعدل عن الصواب فيما نشير به عليك من ارسال أخينا معنا والجمل الى آخرها تفصيل وبيان لعدم بغيهم واصابة رأيهم أى بضاعتنا حاضرة نستظهر بها ونمير أهلنا ونصنع كيت وذيت فتأمل (قال لن أرسله معكم) بعد ما عاينت منكم ما عاينت (حتى تؤتون موثقا من الله) أى ما أتوثق به من جهة الله عز وجل وانما جعله موثقا منه تعالى لان تأكيد العهود به مأذون فيه من جهته تعالى فهو اذن منه عز وجل (لتأتننى به) جواب القسم اذ المعنى حتى تحلفوا بالله لتأتننى به (إلا أن يحاط بكم) أى الا أن تغلبوا فلا تطيقوا به أو الا أن تهلكوا وأصله من احاطة العدو فان من أحاط به العدو فقد هلك غالبا وهو استثناء من أعم الاحوال أو أعم العلل على تأويل الكلام بالنفى الذى ينساق اليه أى لتأتننى به ولا تمتنعن منه فى حال من الاحوال أو لعلة من العلل إلا حال الاحاطة بكم ونظيره قولهم أقسمت عليك لما فعلت والا فعلت أى ما أريد منك الا فعلك وقد جوز الاول بلا تأويل أيضا أى لتأتننى به على كل حال إلا حال الاحاطة بكم وانت تدرى انه حيث لم يكن الاتيان به من الافعال الممتدة الشاملة للاحوال على سبيل المعية كما فى قولك لألزمنك الا أن تعطينى حقى ولم يكن مراده عليه السلام مقارنته على سبيل البدل لما عدا الحال المستثناة كما اذا قلت صل الا أن تكون محدثا بل مجرد تحققه ووقوعه من غير اخلال به كما فى قولك لأحجن العام الا أن أحصر فان مرادك انما هو الاخبار بعدم منع ما سوى حال الاحصار عن الحج الا الاخبار بمقارنته لتلك الاحوال على سبيل البدل كما هو مرادك فى مثال الصلاة كان اعتبار الاحوال معه من حيث عدم منعها منه فال المعنى الى التأويل المذكور (فلما آتوه موثقهم) عهدهم من الله حسبما أراد يعقوب عليه السلام (قال الله على ما نقول) أى على ما قلنا فى أثناء طلب الموثق وإيتائه من الجانبين. وايثار صيغة الاستقبال لاستحضار صورته المؤدى الى تثبتهم ومحافظتهم على تذكره ومراقبته (وكيل) مطلع رقيب يريد به عرض ثقته بالله تعالى وحثهم على مراعاة ميثاقهم (وقال) ناصحا لهم لما أزمع على ارسالهم جميعا (يابنى لا تدخلوا) مصر (من باب واحد) نهاهم عن ذلك حذارا من اصابة العين فانهم كانوا ذوى جمال وشارة حسنة وقد كانوا تجملوا فى هذه الكرة أكثر مما فى المرة الاولى وقد اشتهروا فى مصر بالكرامة والزلفى لدى الملك بخلاف النوبة الاولى فكانوا مئنة لدنو كل ناظر وطموح كل طامح واصابة العين بتقدير العزيز الحكيم ليست مما ينكر، وقد ورد عنه

عليه السلام ان العين حق. وعنه عليه السلام «أن العين لتدخل الرجل القبر والجمل القدر» وقد كان عليه السلام يعوذ الحسنين رضى الله عنهما بقوله أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة وكان عليه السلام يقول كان أبوكما يعوذ بها اسمعيل واسحق عليهم السلام رواه البخارى فى صحيحه وقد شهدت بذلك التجارب ولما لم يكن عدم الدخول من باب واحد مستلزما للدخول من أبواب متفرقة وكان فى دخولهم من بابين أو ثلاثة بعض مافى الدخول من باب واحد من نوع اجتماع مصحح لوقوع المحذور قال (وادخلوا من أبواب متفرقة) بيانا لما هو المراد بالنهى . وانما لم يكتف بهذا الامر مع كونه مستلزما له اظهارا لكمال العناية وايذانا بأنه المراد بالامر المذكور لا تحقيق لشىء آخر (وما أغنى عنكم) أى لا أنفعكم ولا أدفع عنكم بتدبيرى (من الله من شىء) أى شيئا مما قضى عليكم فان الحذر لا يمنع القدر ولم يرد به عليه السلام الغاء الحذر بالمرة كيف لا وقد قال عز قائلا «ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة» وقال «خذوا حذركم» بل أراد بيان أن ما وصاهم به ليس مما يستوجب المراد لا محالة بل هو تدبير فى الجملة وانما التأثير وترتب المنفعة عليه من العزيز القدير وأن ذلك ليس بمدافعة للقدر بل هو استعانة بالله تعالى وهرب منه اليه (إن الحكم) مطلقا (إلا لله) لا يشاركه أحد ولا يمانعه شىء (عليه) لا على أحد سواه (توكلت) فى كل ما آتى وأذر . وفيه دلالة على أن ترتيب الاسباب غير مخل بالتوكل (وعليه) دون غيره (فليتوكل المتوكلون) جمع بين الحرفين فى عطف الجملة على الجملة مع تقديم الصلة للاختصاص مفيدا بالواو عطف فعل غيره من تخصيص التوكل بالله عز وجل على فعل نفسه وبالفاء سببية فعله لكونه نبيا لفعل غيره من المقتدين به فيدخل فيهم بنوه دخولا أوليا . وفيه ما لا يخفى من حسن هدايتهم وارشادهم الى التوكل فيما هم بصدده على الله عز وجل غير مغترين بما وصاهم به من التدبير (ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم) من الابواب المتفرقة من البلد قيل كانت له أربعة أبواب فدخلوا منها وانما اكتفى بذكره لاستلزامه الانتهاء عما نهوا عنه (ما كان) ذلك الدخول (يغنى) فيما سيأتى عند وقوع ما وقع (عنهم) عن الداخلين لان المقصود به استدفاع الضرر عنهم . والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل لتحقيق المقارنة الواجبة بين جواب لما ومدخوله فان عدم الاغناء بالفعل انما يتحقق عند نزول المحذور لا وقت الدخول وانما المتحقق حينئذ ما أفاده الجمع المذكور من عدم كون الدخول المذكور مغنيا فيما سيأتى فتأمل (من الله) من جهته (من شىء) أى شيئا مما قضاه عليهم مع كونه مظنة لذلك فى بادىء الرأى حيث وصاهم به يعقوب عليه السلام وعملوا بموجبه واثقين بجدواه من فضل الله تعالى

فليس المراد بيان سببية الدخول المذكور لعدم الاغناء كما فى قوله تعالى « فلما جاءهم نذير مازادهم إلا نفورا » فان مجيء النذير هناك سبب لزيادة نفورهم بل بيان عدم سببيته للاغناء مع كونها متوقعة فى بادىء الرأى كما فى قولك حلف أن يعطينى حقى عند حلول الاجل فلما حل لم يعطنى شيئا فان المراد بيان عدم سببية حلول الاجل للاعطاء مع كونها مرجوة بموجب الحلف لابيان سببيته لعدم الاعطاء فالمآل بيان عدم ترتب الغرض المقصود على التدبير المعهود مع كونه مرجو الوجود لابيان ترتب عدمه عليه ويجوز أن يراد ذلك أيضا بناء على ماذكره عليه السلام فى تضاعيف وصيته من أنه لايغنى عنهم من الله شيئا فكأنه قيل ولما فعلوا ما وصاهم به لم يفد ذلك شيئا ووقع الامر حسبما قال عليه السلام فلقوا مالقوا فيكون من باب وقوع المتوقع فتأمل (إلا حاجة) استثناء منقطع أى ولكن حاجة وحزازة كائنة (فى نفس يعقوب قضاها) أى أظهرها ووصاهم بها دفعا للخاطرة غير معتقد أن للتدبير تأثيرا فى تغيير التقدير وقد جعل ضمير الفاعل فى قضاها للدخول على معنى أن ذلك الدخول قضى حاجة فى نفس يعقوب وهى ارادته أن يكون دخولهم من أبواب متفرقة فالمعنى ما كان ذلك الدخول يغنى عنهم من جهة الله تعالى شيئا ولكن قضى حاجة حاصلة فى نفس يعقوب بوقوعه حسب ارادته فالاستثناء منقطع أيضا وعلى التقديرين لم يكن للتدبير فائدة سوى دفع الخاطرة وأما اصابة العين فانما لم تقع لكونها غير مقدرة عليهم لا لانها اندفعت بذلك مع كونها مقضية عليهم (وإنه لذو علم) جليل (لما علمناه) لتعليمنا اياه بالوحى ونصب الادلة حيث لم يعتقد أن الحذر يدفع القدر وأن التدبير له حظ من التأثير حتى يتبين الخلل فى رأيه عند تخلف الاثر أو حيث بت القول بأنه لايغنى عنهم من الله شيئا فكان الحال كما قال . وفى تأكيد الجملة بأن واللام وتنكير العلم وتعليله بالتعليم المسند الى ذاته سبحانه من الدلالة على جلالة شأن يعقوب عليه السلام وعلو مرتبة علمه وفخامته مالايخفى (ولكن أكثر الناس لايعلمون) أسرار القدر ويزعمون أنه يغنى عنه الحذر وأما مايقال من أن المعنى لايعلمون إيجاب الحذر مع أنه لايغنى شيئا من القدر فيأباه مقام بيان تخلف المطلوب عن المبادىء (ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه) بنيامين أى ضمه اليه فى الطعام أو فى المنزل أو فيهما . روى أنهم لما دخلوا عليه قالوا له هذا أخونا قد جئناك به فقال لهم أحسنتم وستجدون ذلك عندى فاكرمهم ثم أضافهم وأجلسهم مثنى مثنى فبقى بنيامين وحيدا فبكى وقال لو كان أخى يوسف حيا لأجلسنى معه فقال يوسف بقى أخوكم فريدا وأجلسه معه على مائدته وجعل

يؤا كله ثم أنزل كل اثنين منهم بيتا فقال هذا لاثانى معه فيكون معى فبات يوسف يضمه اليه ويشم رائحته حتى أصبح وسأله عن ولده فقال لى عشرة بنين اشتققت أسماءهم من اسم أخ لى هلك فقال له أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك قال من يجد أخا مثلك ولكن لم يلدك يعقوب ولاراحيل فبكى يوسف وقام اليه وعانقه وتعرف اليه وعند ذلك (قال إنى أنا أخوك) يوسف (فلاتبتئس) أى فلاتحزن (بما كانوا يعملون) بنا فيما مضى فان الله تعالى قد أحسن الينا وجمعنا بخير ولاتعلمهم بما أعلمتك قاله ابن عباس رضى الله تعالى عنهما . وعن وهب أنه لم يتعرف اليه بل قال له أنا أخوك بدل أخيك المفقود ومعنى فلاتبتئس لاتحزن بما كنت تلقى منهم من الحسد والاذى فقد أمنتهم . وروى أنه قال له فأنا لاأفارقك قال قد علمت باغتمام والدى بى فاذا حبستك يزداد غمه ولاسبيل الى ذلك إلا أن أنسبك الى مالايجمل قال لاأبالى فافعل مابدالك قال أدس صاعى فى رحلك ثم أنادى عليك بأنك سرقته ليتهيأ لى ردك بعد تسريحك معهم قال افعل (فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية) أى المشربة قيل كانت مشربة جعلت صاعا يكال به وقيل كانت تسقى بها الدواب ويكال بها الحبوب وكانت من فضة. وقيل من ذهب وقيل من فضة مموهة بالذهب وقيل كانت اناء مستطيلة تشبه المكوك الفارسى الذى يلتقى طرفاه يستعمله الاعاجم وقيل كانت مرصعة بالجواهر (فى رحل أخيه) بنيامين وقرىء وجعل على حذف جواب لما تقديره أمهلهم حتى انطلقوا (ثم أذن مؤذن) نادى مناد (أيتها العير) وهى الابل التى عليها الاحمال لانها تعير أى تذهب وتجىء . وقيل هى قافلة الحمير ثم كثر حتى قيل لكل قافلة عير كأنها جمع عير وأصلها فعل مثل سقف وسقف ففعل به ما فعل ببيض وغيد والمراد أصحابها كما فى قوله عليه السلام «ياخيل الله اركبى» روى أنهم ارتحلوا وأمهلهم يوسف حتى انطلقوا منزلا . وقيل وخرجوا من العمارة ثم أمر بهم فادركوا ونودوا (إنكم لسارقون) هذا الخطاب ان كان بأمر يوسف فلعله أريد بالسرقة أخذهم له من أبيه ودخول بنيامين فيه بطريق التغليب والا فهو من قبل المؤذن بناء على زعمه والاول هو الاظهر الاوفق للسياق وقرأ اليمانى سارقون بلا لام (قالوا) أى الأخوة (وأقبلوا عليهم) جملة حالية من ضمير قالوا جىء بها للدلالة على انزعاجهم مما سمعوه لمباينته لحالهم (ماذا تفقدون) أى تعدمون تقول فقدت الشىء اذا عدمته بأن ضل عنك لا بفعلك والمآل ماذا ضاع عنكم . وصيغة المستقبل لاستحضار الصورة . وقرىء تفقدون من أفقدته اذا وجدته فقيدا وعلى التقديرين فالعدول عما يقتضيه الظاهر من قولهم ما ذا سرق منكم لبيان كمال نزاهتهم باظهار أنه لم يسرق منهم شىء فضلا أن يكونوا هم

السارقين له وانما الممكن أن يضيع منهم شيء فيسألونهم أنه ماذا وفيه ارشاد لهم الى مراعاة حسن الادب والاحتراز عن المجازفة ونسبة البرآء الى ما لا خير فيه لا سيما بطريق التوكيد فلذلك غيروا كلامهم حيث (قالوا) فى جوابهم (نفقد صواع الملك) ولم يقولوا سرقتموه أو سرق . وقرىء صاع وصوع وصوغ بفتح الصاد وضمها وباهمال العين واعجامها من الصياغة ثم قالوا تربية لما تلقوه من قبلهم واراءة لاعتقاد أنه انما بقى فى رحلهم اتفاقا (ولمن جاء به) من عند نفسه مظهرا له قبل التفتيش (حمل بعير) من الطعام جعلا له لاعلى نية تحقيق الوعد لجزمهم بامتناع وجود الشرط وعزمهم على مالا يخفى من أخذ من وجد فى رحله (وأنا به زعيم) كفيل أؤديه اليه وهو قول المؤذن (قالوا تالله) الجمهور على أن التاء بدل من الواو ولذلك لاتدخل الا على الجلالة المعظمة أو الرب المضاف الى الكعبة أو الرحمن فى قول ضعيف ولو قلت تالرحيم لم يجز وقيل من الباء وقيل أصل بنفسها وأياما كان ففيه تعجب (لقد علمتم) علما جازما مطابقا للواقع (ما جئنا لنفسد فى الأرض) أى لنسرق فانه من أعظم أنواع الافساد أو لنفسد فيها أى افساد كان مما عز أو هان فضلا عما نسبتمونا اليه من السرقة ونفى المجىء للافساد وان لم يكن مستلزما لما هو مقتضى المقام من نفى الافساد مطلقا لكنهم جعلوا المجىء الذى يترتب عليه ذلك ولو بطريق الاتفاق مجيئا لغرض الافساد مفعولا لأجله ادعاء اظهارا لكمال قبحه عندهم وتربية لاستحالة صدوره عنهم كما قيل فى قوله تعالى «مايبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد» الدال بظاهره على نفى المبالغة فى الظلم دون نفى الظلم فى الجملة الذى هو مقتضى المقام من أن المعنى اذا عذبت من لايستحق التعذيب كنت ظلاما مفرطا فى الظلم فكأنهم قالوا ان صدر عنا افساد كان مجيئنا لذلك مريدين به تقبيح حاله واظهار كمال نزاهتهم عنه يعنون انه قدشاع بينكم فى كرتى مجيئنا مانحن عليه وقد كانوا على غاية مايكون من الديانة والصيانه فيما يأتون ويذرون حتى روى أنهم دخلوا مصر وأفواه رواحلهم مكعومة لئلا تتناول زرعا او طعا ما لاحد وكانوا مثابرين على فنون الطاعات وعلمتم بذلك أنه لايصدر عنا افساد (وما كنا سارقين) أى ما كنا نوصف بالسرقة قط وانما حكموا بعلمهم ذلك لان العلم بأحوالهم الشاهدة يستلزم العلم بأحوالهم الغائبة وانما لم يكتفوا بنفى الامرين المذكورين بل استشهدوا بعلمهم بذلك الزاما للحجة عليهم وتحقيقا للتعجب المفهوم من تاء القسم (قالوا) أى أصحاب يوسف عليه السلام (فما جزاؤه) الضمير للصواع على حذف المضاف أى فما جزاء سرقته عندكم وفى شريعتكم (إن كنتم كاذبين) لا فى دعوى البراءة عن السرقة

فانهم صادقون فيها بل فيما يستلزمه ذلك من نفى كون الصواع فيهم كما يؤذن به قوله عز وجل (قالوا جزاؤه من وجد) أى أخذ من وجد الصواع (فى رحله) حيث ذكر بعنوان الوجدان فى الرحل دون عنوان السرقة وان كان ذلك مستلزما لها فى اعتقادهم المبنى على قواعد العادة ولذلك أجابوا بما أجابوا فان الاخذ والاسترقاق سنة أنما هو جزاء السارق دون من وجد فى يده مال غيره كيفما كان فتأمل واحمل كلام كل فريق على مالا يزاحم رأيه فانه أقرب الى معنى الكيد وابعد من الافتراء وقوله تعالى (فهو جزاؤه) تقرير لذلك الحكم أى فأخذه جزاؤه كقولك حق الضيف أن يكرم فهو حقه ويجوز أن يكون جزاؤه مبتدأ والجملة الشرطية كما هى خبره على اقامة الظاهر مقام المضمر والاصل جزاؤه من وجد فى رحله فهو هو على أن الاول لمن والثانى للظاهر الذى وضع موضعه (كذلك) أى مثل ذلك الجزاء الاوفى (نجزى الظالمين) بالسرقة تأكيد للحكم المذكور غب تأكيد وبيان لقبح السرقة ولقد فعلوا ذلك ثقة بكمال براءتهم عنها وهم عما فعل بهم غافلون (فبدأ) يوسف بعد مارجعوا اليه للتفتيش (بأوعيتهم) بأوعية الاخوة العشرة أى بتفتيشها (قبل) تفتيش (وعاء أخيه) بنيامين لنفى التهمة روى أنه لما بلغت النوبة الى وعائه قال ما أظن هذا أخذ شيئا فقالوا والله لاتتركه حتى تنظر فى رحله فانه أطيب لنفسك وأنفسنا (ثم استخرجها) أى السقاية أو الصواع فانه يذكر ويؤنث (من وعاء أخيه) لم يقل منه على رجع الضمير الى الوعاء أومن وعائه على رجعه الى أخيه قصدا الى زيادة كشف وبيان وقرىء بضم الواو وبقلبها همزة كما فى اشاح فى وشاح (كذلك) نصب على المصدرية والكاف مقحمة للدلالة على فخامة المشار اليه وكذا مافى ذلك من معنى البعد أى مثل ذلك الكيد العجيب وهو عبارة عن ارشاد الاخوة الى الافتاء المذكور باجرائه على ألسنتهم وبحملهم عليه بواسطة المستفتين من حيث لم يحتسبوا فمعنى قوله عز وجل (كدنا ليوسف) صنعنا له ودبرنا لأجل تحصيل غرضه من المقدمات التى رتبها من دس الصواع وما يتلوه فاللام ليست كما فى قوله «فيكيدوا لك كيدا» فانها داخلة على المتضرر على ماهو الاستعمال الشائع وقوله تعالى (ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك) استئناف وتعليل لذلك الكيد وصنعه لا تفسير وبيان له كأنه قيل لماذا فعل ذلك فقيل لأنه لم يكن ليأخذ أخاه بما فعله فى دين الملك فى أمر السارق أى فى سلطانه قاله ابن عباس أو فى حكمه وقضائه قاله قتادة الا به لأن جزاء السارق فى دينه انما كان ضربه وتغريمه ضعف ماأخذ دون الاسترقاق والاستعباد كما هو شريعة يعقوب عليه السلام فلم يكن يتمكن بما صنعه من أخذ

أخيه بالسرقة التى نسبها اليه فى حال من الأحوال (إلا أن يشاء الله) أى الاحال مشيئته التى هى عبارة عن إرادته لذلك الكيد أو الاحال مشيئته للأخذ بذلك الوجه . و يجوز أن يكون الكيد عبارة عنه وعن مباديه المؤدية اليه جميعا من ارشاد يوسف وقومه إلى ماصدر عنهم من الأفعال و الأقوال حسبما شرح مرتبا لكن لاعلى أن يكون القصر المستفاد من تقديم المجرور مأخوذا بالنسبة إلى غيره مطلقا على معنى مثل ذلك الكيد كدنا لا كيدا آخر إذ لا معنى لتعليله بعجز يوسف عن أخذ أخيه فى دين الملك فى شأن السارق قطعا اذ لاعلاقة بين مطلق الكيد ودين الملك فى أمر السارق أصلا بل بالنسبة إلى بعضه على معنى مثل ذلك الكيد البالغ إلى هذا الحد كدنا له و لم نكتف ببعض من ذلك لأنه لم يكن يأخذ أخاه فى دين الملك به الاحال مشيئتنا له بايجاد ما يجرى مجرى الجزاء الصورى من العلة التامة وهو إرشاد اخوته إلى الافتاء المذكور وعلى هذا ينبغى أن يحمل القصر فى تفسير من فسر قوله تعالى « كدنا ليوسف » بقوله علمناه أيادوأ وحينا به اليه أى مثل ذلك التعليم المستتبع لما شرح مرتبا علمناه دون بعض من ذلك فقط الخ وعلى كل حال فالاستثناء من أعم الأحوال كما أشير اليه ويجوز أن يكون من أعم العلل والأسباب أى لم يكن يأخذ أخاه لعلة من العلل أو بسبب من الأسباب الا لعلة مشيئته تعالى أو الا لسبب مشيئته تعالى وأياما كان فهو متصل لأن أخذ السارق اذا كان ممن يرى ذلك و يعتقده دينا لاسيما عند رضاه وافتائه به ليس مخالفا لدين الملك وقد قيل معنى الاستثناء الا أن يشاء الله أن يجعل ذلك الحكم حكم الملك وأنت تدرى أن المراد بدينه ماعليه حينئذ فتغييره مخل بالاتصال و ارادة مطلق مايتدين به أعم منه ومما يحدث تفضى إلى كون الاستثناء من قبيل التعليق بالمحال اذ المقصود بيان عجز يوسف عليه السلام عن أخيه حينئذ و لم تتعلق المشيئة بالجعل المذكور إذ ذاك و ارادة عجزه مطلقا تؤدى إلى خلاف المراد فان استثناء حال المشيئة المذكورة من أحوال عجزه عليه السلام مما يشعر بعدم الحاجة إلى الكيد المذكور فتدبر وقد جوز الانقطاع أى لكن أخذه بمشيئة الله تعالى و اذنه فى دين غير دين الملك (نرفع درجات) أى رتبا كثيرة عالية من العلم وانتصابها على المصدرية أو الظرفية أو على نزع الخافض أى إلى درجات و المفعول قوله تعالى (من نشاء) أى نشاء رفعه حسبما تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة كما رفعنا يوسف وايثار صيغة الاستقبال للاشعار بان ذلك سنة مستمرة غير مختصة بهذه المادة والجملة مستأنفة لامحل لها من الاعراب (وفوق كل ذى علم) من أولئك المرفوعين (عليم) لاينالون شأوه واعلم أنه إن جعل الكيد عبارة عن المعنيين الاولين فالمراد برفع

يوسف عليه السلام ماعتبر فيه بالشرطية أو الشطارية من إرشاده عليه السلام الى دس الصواع فى رحل أخيه وما يتفرع عليه من المقدمات المرتبة لاستبقاء أخيه مما يتم من قبله والمعنى أرشدنا اخوته الى الافتاء المذكور لانه لم يكن متمكنا من أخذ أخيه بدونه أو أرشدنا كلا منهم ومن يوسف وأصحابه الى ماصدر عنهم ولم نكتف بما تم من قبل يوسف فقط لانه لم يكن متمكنا من أخذ أخيه بذلك فقوله تعالى «نرفع درجات» الى قوله تعالى «عليم» توضيح لذلك على معنى أن الرفع المذكور لايوجب تمام مرامه إذ ليس ذلك بحيث لايعزب عن علمه شيء بل انما نرفع كل من نرفع حسب استعداده وفوق كل واحد منهم عليم لايقادر قدر علمه ولا يكتنه كنهه يرفع كلا منهم الى مايليق به من معارج العلم ومدارجه وقد رفع يوسف الى مايليق به من الدرجات العالية وعلم أن ماحواه دائرة علمه لايفى بمرامه فارشد اخوته الى الافتاء المذكور فكان ما كان وكأنه عليه السلام لم يكن على يقين من صدور الافتاء المذكور عن اخوته وان كان على طمع منه فان ذلك الى الله عز وجل وجوداً وعلماً والتعرض لوصف العلم لتعيين جهة الفوقية . وفى صيغة المبالغة مع التنكير والالتفات الى الغيبة من الدلالة على فخامة شأنه عز وعلا وجلالة مقدار علمه المحيط مالا يخفي وأما ان جعل عبارة عن التعليم المستتبع للافتاء المذكور فالرفع عبارة عن ذلك التعليم والافتاء وان لم يكن داخلا تحت قدرته عليه السلام لكنه كان داخلا تحت علمه بواسطة الوحى والتعليم والمعنى مثل ذلك التعليم البالغ الى هذا الحد علمناه ولم نقتصر على تعليم ماعدا الافتاء الذى سيصدر عن اخوته اذ لم يكن متمكنا من أخذ أخيه الا بذلك فقوله نرفع درجات من نشاء توضيح لقوله كذلك وبيان لان ذلك من باب الرفع الى الدرجات العالية من العلم ومدح ليوسف برفعه اليها وقوله وفوق كل ذى علم عليم تذييل له أى نرفع درجات عالية من العلم من نشاء رفعه وفوق كل منهم عليم هو أعلى درجة قال ابن عباس رضى الله عنهما فوق كل عالم عالم الى أن ينتهى العلم الى الله تعالى والمعنى أن اخوة يوسف كانوا علماء الا أن يوسف عليه السلام أفضل منهم . وقرىء درجات من نشاء بالاضافة والاول أنسب بالتذييل حيث نسب فيه الرفع الى من نسب اليه الفوقية لاالى درجته ويجوز أن يكون العليم فى هذا التفسير أيضا عبارة عن الله عز وجل أى وفوق كل من أولئك المرفوعين عليم يرفع كلا منهم الى درجته اللائقة به والله تعالى أعلم (قالوا إن يسرق) يعنون بنيامين (فقد سرق أخ له من قبل) يريدون به يوسف عليه السلام وما جرى عليه من جهة عمته على ماقيل من أنها كانت تحضنه فلما شب أراد يعقوب

عليه السلام انتزاعه منها وكانت لا تصبر عنه ساعة وكانت لها منطقة ورثتها من أبيها اسحق عليه السلام فاحتالت لاستبقاء يوسف عليه السلام فعمدت الى المنطقة فحزمتها عليه من تحت ثيابه ثم قالت فقدت منطقة اسحق عليه السلام فانظروا من أخذها فوجدوها محزومة على يوسف فقالت انه لي سلم أفعل به ما أشاء فخلاه يعقوب عليه السلام عندها حتى ماتت . وقيل كان أخذ في صباه صنما لابى أمه فكسره وألقاه في الجيف . وقيل دخل كنيسة فأخذ تمثالا صغيرا من ذهب كانوا يعبدونه فدفنه (فأسرها يوسف) أى أكن الحزازة الحاصلة بما قالوا (في نفسه) لا أنه أسرها لبعض أصحابه كما في قوله تعالى «وأسررت لهم إسرارا» (ولم يبدها لهم) لا قولا ولا فعلا صفحا عنهم وحلما وهو تأكيد لما سبق (قال) أى في نفسه وهو استئناف مبنى على سؤال نشأ من الاخبار بالاسرار المذكور كأنه قيل فماذا قال في نفسه في تضاعيف ذلك الاسرار فقيل قال (أنتم شر مكانا) أى منزلة حيث سرقتم أخاكم من أبيكم ثم طفقتم تفترون على البرىء . وقيل بدل من أسرها والضمير للمقالة المفسرة بقوله أنتم شر مكانا (والله أعلم بما تصفون) أى عالم علما بالغا الى أقصى المراتب بأن الأمر ليس كما تصفون من صدور السرقة منا بل انما هو افتراء علينا فالصيغة لمجرد المبالغة لا لتفضيل علمه عز وجل على علمهم كيف لا وليس لهم بذلك من علم (قالوا) عند ما شاهدوا مخايل أخذ بنيامين مستعطفين (يا أيها العزيز إن له أبا) لم يريدوا بذلك الاخبار بان له أبا فان ذلك معلوم مما سبق وانما أرادوا الاخبار بأن له أبا (شيخا كبيرا) في السن لا يكاد يستطيع فراقه وهو علالة به يتعلل عن شقيقه الهالك (فخذ أحدنا مكانه) فلسنا عنده بمنزلته من المحبة والشفقة (إنا نراك من المحسنين) الينا فاتمم احسانك بهذه التتمة أو المتعودين بالاحسان فلا تغير عادتك (قال معاذ الله) أى نعوذ بالله معاذا من (أن نأخذ) فحذف الفعل وأقيم مقامه المصدر مضافا الى المفعول به بعد حذف الجار (إلا من وجدنا متاعنا عنده) لان أخذنا له انما هو بقضية فتواكم فليس لنا الاخلال بموجبها . وايثار صيغة التكلم مع الغير مع كون الخطاب من جانب اخوته على التوحيد من باب السلوك الى سنن الملوك أو للاشعار بأن الاخذ والاعطاء ليس مما يستبد به بل هو منوط بآراء أولى الحل والعقد . وايثار من وجدنا متاعنا عنده دون من سرق متاعنا لتحقيق الحق والاحتراز عن الكذب في الكلام مع تمام المرام فانهم لا يحملون وجدان الصواع في الرحل على محمل غير السرقة (إنا اذا) أى اذا أخذنا غير من وجدنا متاعنا عنده ولو برضاه (لظالمون) في مذهبكم ومالنا ذلك وهذا المعنى هو الذى أريد بالكلام في أثناء الحوار وله معنى

باطن هو أن الله عز وجل انما أمرنى بالوحى أن آخذ بنيامين لمصالح علمها الله فى ذلك فلو أخذت غيره كنت ظالما وعاملا بخلاف الوحى (فلما استيأسوا منه) أى يئسوا من يوسف واجابته لهم أشد يأس بدلالة صيغة الاستفعال وانما حصلت لهم هذه المرتبة من اليأس لما شاهدوه من عوذه بالله مما طلبوه الدال على كون ذلك عنده فى أقصى مراتب الكراهة وأنه مما يجب أن يحترز عنه ويعاذ منه بالله عز وجل ومن تسميته ظلما بقوله إنا اذا لظالمون (خلصوا) اعتزلوا وانفردوا عن الناس (نجيا) أى ذوى نجوى على أن يكون بمعنى النجوى والتناجى أو فوجا نجيا على أن يكون بمعنى المناجى كالعشير والسمير بمعنى المعاشر والمسامر ومنه قوله تعالى «وقربناه نجيا» ويجوز أن يقال هم نجى كما يقال هم صديق لانه بزنة المصادر من الزفير والزئير (قال كبيرهم) فى السن وهو روبيل أوفى العقل وهو يهوذا أو رئيسهم وهو شمعون (ألم تعلموا) كأنهم أجمعوا عند التناجى على الانقلاب جملة ولم يرض به فقال منكرا عليهم ألم تعلموا (أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله) عهدا يوثق به وهو حلفهم بالله تعالى وكونه من الله لاذنه فيه وكون الحلف باسمه الكريم (ومن قبل) أى ومن قبل هذا (ما فرطتم فى يوسف) قصرتم فى شأنه ولم تحفظوا عهد أبيكم وقد قلتم . وانا له لناصحون . وإنا له لحافظون . وما مزيدة أو مصدرية ومحل المصدر النصب عطفا على مفعول تعلموا أى ألم تعلموا أخذ أبيكم عليكم موثقا وتفريطكم السابق فى شأن يوسف عليه السلام ولا ضير فى الفصل بين العاطف والمعطوف بالظرف وقد جوز النصب عطفا على اسم أن والخبر فى يوسف أو من قبل على معنى ألم تعلموا ان تفريطكم السابق وقع فى شأن يوسف عليه السلام وان تفريطكم الكائن أو كائنا فى شأن يوسف عليه السلام وقع من قبل . وفيه أن مقتضى المقام انما هو الاخبار بوقوع ذلك التفريط لا بكون تفريطهم السابق واقعا فى شأن يوسف كما هو مفاد الاول ولا بكون تفريطهم الكائن فى شأنه واقعا من قبل كما هو مفاد الثانى على أن الظرف المقطوع عن الاضافة لا يقع خبرا ولا صفة ولا صلة ولا حالا عند البعض كما تقرر فى موضعه . وقيل محله الرفع على الابتداء والخبر من قبل وفيه ما فيه . وقيل ما موصولة أو موصوفة ومحلها النصب أو الرفع والحق هو النصب عطفا على مفعول تعلموا أى ما فرطتموه بمعنى قدمتموه فى حقه من الخيانة وأما النصب عطفا على اسم ان أو الرفع على الابتداء فقد عرفت حاله (فلن أبرح الأرض) متفرع على ما ذكره وذكره إياهم من ميثاق أبيه وقوله لتأتننى به الا ان يحاط بكم أى فلن أفارق أرض مصر جريا على قضية الميثاق (حتى يأذن

لى أبى) فى البراح بالانصراف اليه وكأن ايمانهم كانت معقودة على عدم الرجوع بغير اذن يعقوب عليه السلام (أو يحكم الله لى) بالخروج منها على وجه لا يؤدى الى نقض الميثاق أو بخلاص أخى بسبب من الاسباب روي انهم كلموا العزيز فى اطلاقه فقال روبيل أيها الملك لتردن الينا أخانا أولا صيحن صيحة لاتبقى بمصر حامل الا ألقت ولدها و قفت كل شعرة فى جسده فخرجت من ثيابه وكان بنو يعقوب اذا غضبوا لا يطاقون خلا انه اذا مس من غضب واحد منهم سكن غضبه فقال يوسف لابنه قم الى جنبه فمسه فقال روبيل من هذا ان فى هذا البلد بذرا من بذر يعقوب (وهو خير الحاكمين) اذ لا يحكم الا بالحق والعدل (إرجعوا) أنتم (الى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق) على ظاهر الحال. وقرئ سرق أى نسب الى السرقة (وما شهدنا) عليه (إلا بما علمنا) وشاهدنا ان الصواع استخرجت من وعائه (وما كنا للغيب) اى باطن الحال (حافظين) فما ندرى أن حقيقة الأمر كما شاهدنا أم بخلافه أو وما كنا عالمين حين أعطيناك الموثق انه سيسرق أو انا نلاقى هذا الأمر أو انك تصاب به كما أصبت بيوسف (واسأل القرية التى كنا فيها) أى مصر أو قرية بقربها لحقهم المنادى عندها أى أرسل الى أهلها و اسألهم عن القصة (والعير التى أقبلنا فيها) أى أصحابها فان القصة معروفة فيما بينهم كانوا قوما من كنعان من جيران يعقوب عليه السلام وقيل من صنعاء (وإنا لصادقون) تأكيد فى محل القسم (قال) أى يعقوب عليه السلام و هو استئناف مبنى على سؤال نشأ مما سبق كأنه قيل فماذا كان عند قول المتوقف لاخوته ماقال فقيل قال يعقوب عند مارجعوا اليه فقالوا له ماقالوا وانما حذف للايذان بأن مسارعتهم إلى قبوله و رجوعهم به إلى أبيهم أمر مسلم غنى عن البيان وانما المحتاج اليه جواب أبيهم (بل سولت) أى زينت وسهلت وهو اضراب لاعن صريح كلامهم فانهم صادقون فى ذلك بل عما يتضمنه من ادعاء البراءة عن التسبب فيما نزل به وأنه لم يصدر عنهم ما يؤدى الى ذلك من قول أو فعل كأنه قيل لم يكن الأمر كذلك بل زينت (لكم أنفسكم أمرا) من الأمور فأتيتموه يريد بذلك فتياهم بأخذ السارق بسرقته (فصبر جميل) أى فأمرى صبر جميل أو فصبر جميل أجمل (عسى الله أن يأتينى بهم جميعا) بيوسف وأخيه والمتوقف بمصر (إنه هو العليم) بحالى وحالهم (الحكيم) الذى لم يبتلنى الا لحكمة بالغة (وتولى) أى أعرض (عنهم) كراهة لما سمع منهم (وقال يا أسفا على يوسف) الأسف أشد الحزن والحسرة أضافه إلى نفسه والألف بدل من الياء فناداه أى يا أسفى تعال فهذا أوانك وانما تأسف على يوسف مع أن الحادث مصيبة أخويه لأن رزأه كان قاعدة الارزاء غضا عنده

وإن تقادم عهده آخذا بمجامع قلبه لاينساه ولانه كان واثقا بحياتهما عالما بمكانهما طامعا فى ايابهما وأما يوسف فلم يكن فى شأنه ما يحرك سلسلة رجائه سوى رحمة الله تعالى وفضله وفى الخبر «لم تعط أمة من الامم إنا لله وإنا اليه راجعون الا أمة محمد عليه الصلاة والسلام» الا يرى إلى يعقوب حين أصابه ماأصابه لم يسترجع بل قال ماقال والتجانس بين لفظى الأسف ويوسف مما يزيد النظم الكريم بهجة كما فى قوله عز وجل «وهم ينهون عنه وينأون عنه» وقوله «اثاقلتم الى الارض أرضيتم» وقوله «ثم كلى من كل الثمرات» «وجئتك من سبأ بنبأ يقين» ونظائرها (وابيضت عيناه من الحزن) الموجب للبكاء فان العبرة اذا كثرت محقت سواد العين وقلبته الى بياض كدر. قيل قد عمى بصره. وقيل كان يدرك ادرا كاضعيفا. روى أنه ماجفت عينا يعقوب من يوم فراق يوسف إلى حين لقائه ثمانين عاما وما على وجه الارض أكرم من الله عز وجل من يعقوب عليه السلام. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سأل جبريل عليه السلام مابلغ من وجد يعقوب عليه السلام على يوسف قال وجد سبعين ثكلى قال فما كان له من الأجر قال أجر مائة شهيد وما ساء ظنه بالله ساعة قط. وفيه دليل على جواز التأسف والبكاء عند النوائب فان الكف عن ذلك مما لايدخل تحت التكليف فانه قل من يملك نفسه عند الشدائد ولقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ولده ابراهيم وقال «القلب يحزن والعين تدمع ولا نقول مايسخط الرب وانا عليك ياابراهيم لمحزونون» وانما الذى لايجوز مايفعله الجهلة من الصياح والنياحة ولطم الخدود والصدور وشق الجيوب وتمزيق الثياب. وعن النبى عليه السلام انه بكى على ولد بعض بناته وهو يجود بنفسه فقيل يارسول الله تبكى وقد نهيتنا عن البكاء فقال «مانهيتكم عن البكاء وانما نهيتكم عن صوتين أحمقين صوت عند الفرح وصوت عند الترح» (فهو كظيم) مملوء من الغيظ على أولاده ممسك له فى قلبه لايظهره فقيل بمعنى مفعول بدليل قوله تعالى «وهو مكظوم» من كظم السقاء اذا شده على ملئه أو بمعنى فاعل كقوله «والكاظمين الغيظ» من كظم الغيظ اذا اجترعه وأصله كظم البعير جرته اذا ردها فى جوفه (قالوا تالله تفتؤ) أى لاتفتؤ ولا تزال (تذكر يوسف) تفجعا عليه فحذف حرف النفى كما فى قوله «فقلت يمين الله أبرح قاعداً» لعدم الالتباس بالاثبات فان القسم اذا لم يكن معه علامة الاثبات يكون على النفى ألبتة (حتى تكون حرضا) مريضا مشفيا على الهلاك وقيل الحرض من أذابه هم أو مرض وهو فى الاصل مصدر ولذلك لايؤنث ولا يثنى ولا يجمع والنعت منه بالكسر كدنف وقد قرىء به وبضمتين كجنب وغرب

(أو تكون من الهالكين) أى الميتين (قال إنما أشكو بثى) ألبث أصعب الهم الذى لا يصبر عليه صاحبه فيبثه الى الناس أى ينشره فكأنهم قالوا له ماقالوا بطريق التسلية والاشكاء فقال لهم انى لاأشكو مابى اليه أو الى غيركم حتى تتصدوا لتسليتى وانما أشكو همى (وحزنى إلى الله) تعالى ملتجئاً الى جنابه متضرعا لدى بابه فى دفعه وقرىء بفتحتين وضمتين (وأعلم من الله مالا تعلمون) من لطفه ورحمته فأرجو أن يرحمنى ويلطف بى ولا يخيب رجائى أو أعلم وحيا أو الهاما من جهته مالا تعلمون من حياة يوسف . قيل رأى ملك الموت فى المنام فسأله عنه فقال هو حى وقيل علم من رؤيا يوسف عليه السلام انه يسخر له أبواه واخوته سجداً (يابنى اذهبوا فتحسسوا) أى تعرفوا وهو تفعل من الحس . وقرىء بالجيم من الجس وهو الطلب أى تطلبوا (من يوسف وأخيه) أى من خبرهما ولم يذكر الثالث لان غيبته اختيارية لاتعسر ازالتها (ولا تيأسوا من روح الله) لاتقنطوا من فرجه وتنفيسه . وقرىء بضم الراء أى من رحمته التى يحى بها العباد وهذا إرشاد لهم الى بعض ماأبهم فى قوله وأعلم من الله مالا تعلمون ثم حذرهم عن ترك العمل بموجب نهيه بقوله (إنه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) لعدم علمهم بالله تعالى وصفاته فان العارف لا يقنط فى حال من الأحوال (فلما دخلوا عليه) أى على يوسف بعد ما رجعوا الى مصر بموجب أمر أبيهم وانما لم يذكر ذلك ايذانا بمسارعتهم الى ماأمروا به واشعاراً بأن ذلك أمر محقق لا يفتقر إلى الذكر والبيان (قالوا ياأيها العزيز) أى الملك القادر المتمنع (مسنا وأهلنا الضر) الهزال من شدة الجوع (وجئنا ببضاعة مزجاة) مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقاراً لها من أزجيته اذا دفعته وطردته والريح تزجى السحاب قيل كانت بضاعتهم من متاع الاعراب صوفا وسمنا وقيل الصنوبر وحبة الخضراء وقيل سويق المقل والاقط وقيل دراهم زيوفا لاتؤخذ الابوضيعة وانما قدموا ذلك ليكون ذريعة الى اسعاف مرامهم ببعث الشفقة وهز العطف والرأفة وتحريك سلسلة المرحمة ثم قال (فأوف لنا الكيل) أى أتممه لنا (وتصدق علينا) برد أخينا الينا قاله الضحاك وابن جريج وهو الانسب بحالهم نظرا الى أمر أبيهم أو بالايفاء أو بالمسامحة وقبول المزجاة أو بالزيادة على مايساويها تفضلا وانما سموه تصدقا تواضعا أو أرادوا التصدق فوق مايعطيهم بالثمن بناء على اختصاص حرمة الصدقة بنبينا عليه الصلاة والسلام وانما لم يبدءوا بما أمروا به استجلابا للرأفة والشفقة ليبعثوا بماقدموا من رقة الحال رقة القلب والحنو على أن ماساقوه كلام ذو وجهين فان قوله وتصدق علينا (إن الله يجزى المتصدقين) يحتمل

الحمل على المحملين فلعله عليه السلام حمله على المحمل الاول ولذلك (قال) مجيبا عما عرضوا به وضمنوه كلامهم من طلب رد أخيهم (هل علمتم مافعلتم بيوسف وأخيه) وكان الظاهر أن يتعرض لما فعلوا بأخيه فقط وانما تعرض لما فعلوا بيوسف لاشتراكهما في وقوع الفعل عليهما فان المراد بذلك أفرادهم له عن يوسف واذلاله بذلك حتى كان لايستطيع أن يكلمهم الابعجز وذلة أى هل تبتم عن ذلك بعد علمكم بقبحه فهو سؤال عن الملزوم والمراد لازمه (إذ أنتم جاهلون) بقبحه فلذلك أقدمتم على ذلك أو جاهلون عاقبته وانما قاله نصحا لهم وتحريضا على التوبة وشفقة عليهم لما رأى عجزهم وتمكنهم لامعاتبة وتثريبا ويجوز أن يكون هذا الكلام منه عليه السلام منقطعا عن كلامهم وتنبيها لهم على ماهو حقهم ووظيفتهم من الاعراض عن جميع المطالب والتمحض فى طلب بنيامين بل يجوز أن يقف عليه السلام بطريق الوحي أو الالهام على وصية أبيه وارساله اياهم للتحسس منه ومن أخيه فلما رآهم قد اشتغلوا عن ذلك قال ماقال وقيل أعطوه كتاب يعقوب عليه السلام وقد كتب فيه «كتاب من يعقوب اسرائيل الله ابن اسحق ذبيح الله ابن ابراهيم خليل الله الى عزيز مصر أما بعد فانا أهل بيت موكل بنا البلاء أما جدى فشدت يداه ورجلاه فرمى به فى النار فنجاه الله تعالى وجعلت النار له بردا وسلاما وأما أبى فوضع السكين على قفاه ليقتل ففداه الله تعالى وأما أنا فكان لى ابن وكان أحب أولادى الى فذهب به أخوته الى البرية ثم أتونى بقميصه ملطخا بالدم فقالوا قد أكله الذئب فذهبت عيناى من بكائى عليه ثم كان لى ابن وكان أخاه من أمه وكنت أتسلى به فذهبوا به ثم رجعوا وقالوا أنه سرق وأنك حبسته وأنا أهل بيت لانسرق ولانلد سارقا فان رددته على وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك والسلام» فلما قرأه لم يتمالك وعيل صبره فقال لهم ماقال وقيل لما قرأه بكى وكتب الجواب اصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا (قالوا أئنك لأنت يوسف) استفهام تقرير ولذلك أكدوه بأن واللام قالوه استغرابا وتعجبا وقرىء انك بالايجاب قيل عرفوه بروائه وشمائله حين كلمهم به وقيل تبسم فعرفوه بثناياه وقيل رفع التاج عن رأسه فرأوا علامة بقرنه تشبه الشامة البيضاء وكان لسارة ويعقوب مثلها. وقرىء أئنك يوسف أو أنت يوسف على معنى ائنك يوسف وأنت يوسف لحذف الاول لدلالة الثانى عليه وفيه زيادة استغراب (قال أنا يوسف) جوابا عن مسئلتهم وقد زاد عليه قوله (وهذا أخى) أى من أبوى مبالغة فى تعريف نفسه وتفخيما لشأن أخيه وتكملة لما أفاده قوله هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه حسبما يفيده قوله (قد من الله علينا) فكأنه قال هل علمتم ما فعلتم بنا من التفريق والاذلال فأنا

يوسف وهذا أخى قد من الله علينا بالخلاص عما ابتلينا به والاجتماع بعدالفرقة والعزة بعد الذلة والأنس بعدالوحشة ولا يبعد أن يكون فيه اشارة الى الجواب عن طلبهم لرد بنيامين بأنه أخى لا أخوكم فلا وجه لطلبكم ثم علل ذلك بطريق الاستئناف التعليلى بقوله (إنه من يتق) أى يفعل التقوى فى جميع أحواله أو يق نفسه عما يوجب سخط الله تعالى وعذابه (و يصبر) على المحن أو على مشقة الطاعات أو عن المعاصى التى تستلذها النفس (فأن الله لا يضيع أجر المحسنين) أى أجرهم . وانما وضع المظهر موضع المضمر تنبيها على أن المنعوتين بالتقوى والصبر موصوفون بالاحسان (قالوا تالله لقد آثرك الله علينا) اختارك وفضلك علينا بما ذكرت من النعوت الجليلة (وإن كنا) وان الشأن كنا (لخاطئين) لمتعمدين للذنب اذ فعلنا بك ما فعلنا و لذلك أعزك و أذلنا وفيه اشعار بالتوبة والاستغفار ولذلك (قال لا تثريب) أى لا عتب ولا تأنيب (عليكم) وهو تفعيل من الثرب وهو الشحم الغاشى للكرش ومعناه ازالته كما أن التجليد ازالة الجلد والتقريع ازالة القرع لانه اذا ذهب كان ذلك غاية الهزال فضرب مثلا للتقريع الذى يذهب بماء الوجوه وقوله عز وعلا (اليوم) منصوب بالتثريب أو بالمقدر خبرا للا أى لا أثربكم أو لا تثريب مستقر عليكم اليوم الذى هو مظنة له فما ظنكم بسائر الايام أو بقوله (يغفر الله لكم) لانه حينئذ صفح عن جريمتهم وعفا عن جريرتهم بما فعلوا من التوبة (وهو أرحم الراحمين) يغفر الصغائر والكبائر و يتفضل على التائب بالقبول ومن كرمه عليه الصلاة و السلام أن أخوته أرسلوا اليه انك تدعونا الى طعامك بكرة وعشيا ونحن نستحى منك بما فرط منا فيك فقال عليه الصلاة والسلام ان أهل مصر وان ملكت فيهم كانوا ينظرون الى بالعين الاولى و يقولون سبحان من بلغ عبدا بيع بعشرين درهما ما بلغ ولقد شرفت الآن وعظمت فى العيون حيث علم الناس أنكم اخوتى وأنا من حفدة ابراهيم عليه الصلاة والسلام (إذهبوا بقميصى هذا) قيل هو الذى كان عليه حينئذ وقيل هو القميص المتوارث الذى كان فى التعويذ أمره جبريل بارساله اليه وأوحى اليه أن فيه ريح الجنة لايقع على مبتلى الاعوفى (فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا) يكن بصيرا أو يأت الى بصيرا و ينصره قوله (وائتونى بأهلكم أجمعين) أى بأبى وغيره ممن ينتظمه لفظ الاهل جميعا من النساء والذرارى. قيل انما حمل القميص يهوذا وقال أنا أحزنته بحمل القميص ملطخا بالدم اليه فافرحه كما أحزنته. وقيل حمله وهو حاف حاسر من مصر الى كنعان و بينهما مسيرة ثمانين فرسخا (ولما فصلت العير) خرجت من عريش مصر يقال فصل من البلد فصولا اذا انفصل منه وجاوز حيطانه

وقرأ ابن عباس رضى الله تعالى عنهما انفصل العير (قال أبوهم) يعقوب عليه الصلاة والسلام لمن عنده (إنى لأجد ريح يوسف) أوجده الله سبحانه ما عبق بالقميص من ريح يوسف من ثمانين فرسخا حين أقبل به يهوذا (لو لا أن تفندون)أى تنسبونى الى الفند وهو الخرف وانكار العقل وفساد الرأى من هرم يقال شيخ مفند ولا يقال عجوز مفندة اذ لم تكن فى شبيبتها ذات رأى فتفند فى كبرها وجواب لولا محذوف أى لصدقتمونى (قالوا) أى الحاضرون عنده (تالله إنك لفى ضلالك القديم) لفى ذهابك عن الصواب قدما فى افراط محبتك ليوسف ولهجك بذكره ورجائك للقائه وكان عندهم أنه قد مات (فلما أن جاء البشير) وهو يهوذا (ألقاه) أى ألقى البشير القميص (على وجهه) أى وجه يعقوب أو ألقاه يعقوب على وجه نفسه (فارتد) عاد (بصيرا) لما انتعش فيه من القوة (قال ألم أقل لكم) يعنى قوله انى لاجد ريح يوسف فالخطاب لمن كان عنده بكنعان أو قوله ولا تيأسوا من روح الله فالخطاب لبنيه وهو الانسب بقوله (إنى أعلم من الله مالا تعلمون) فان مدار النهى المذكور انما هو العلم الذى أوتى يعقوب من جهة الله سبحانه وعلى هذا يجوز أن يكون هذا مقول القول أى ألم أقل لكم حين أرسلتكم الى مصر وأمرتكم بالتحسس ونهيتكم عن اليأس من روح الله تعالى وأعلم من الله لاما تعلمون من حياة يوسف عليه الصلاة والسلام روى أنه سأل البشير كيف يوسف فقال هو ملك مصر قال ما أصنع بالملك على أى دين تركته قال على دين الاسلام قال الآن تمت النعمة (قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين) ومن حق من اعترف بذنبه أن يصفح عنه ويستغفر له فكأنهم كانوا على ثقة من عفوه عليه الصلاة والسلام ولذلك اقتصروا على استدعاء الاستغفار وأدرجوا ذلك فى الاستغفار (قال سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم) هذا مشعر بعفوه وقيل أخر الاستغفار الى وقت السحر وقيل الى ليلة الجمعة ليتحرى به وقت الاجابة وقيل أخره الى أن يستحل لهم من يوسف عليه الصلاة والسلام أو يعلم أنه قد عفا عنهم فان عفو المظلوم شرط المغفرة ويعضده أنه روى عنه انه استقبل القبلة قائما يدعو وقام يوسف خلفه يؤمن وقاموا خلفهما أذلة خاشعين عشرين سنة حتى بلغ جهدهم وظنوا انها الهلكة نزل جبريل عليه الصلاة والسلام فقال ان الله قد أجاب دعوتك فى ولدك وعقد مواثيقهم بعدك على النبوة فان صح ثبتت نبوتهم وان ما صدر عنهم انما صدر قبل الاستنباء . وقيل المراد الاستمرار على الدعاء فقد روى أنه كان يستغفر كل ليلة جمعة فى نيف وعشرين سنة وقيل قام إلى الصلاة فى وقت السحر فلما فرغ رفع يديه فقال اللهم اغفر لى جزعى على

يوسف وقلة صبرى عنه واغفر لولدى ما أتوا الى أخيهم فاوحى الله اليه ان الله قد غفر لك ولهم أجمعين (فلما دخلوا على يوسف) روى أنه وجه يوسف الى أبيه جهازا ومائتى راحلة ليتجهز اليه بمن معه فاستقبله يوسف والملك فى أربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر بأجمعهم فتلقوا يعقوب عليه الصلاة والسلام وهو يمشى متوكئا على يهوذا فنظر الى الخيل والناس فقال يا يهوذا أهذا فرعون مصر قال لا بل ولدك فلما لقيه قال عليه الصلاة والسلام السلام عليك يا مذهب الاحزان . وقيل قال له يوسف يا أبت بكيت على حتى ذهب بصرك ألم تعلم أن القيامة تجمعنا فقال بلى ولكنى خشيت أن يسلب دينك فيحال بينى و بينك. وقيل ان يعقوب وولده دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون ما بين رجل وامرأة وكانوا حين خرجوا مع موسى ستمائة ألف وخمسمائة و بضعة وسبعين رجلا سوى الذرية والهرمى وكانت الذرية ألف ألف ومائتى ألف (آوى إليه أبويه) أى أباه وخالته وتنزيلها منزلة الام كتنزيل العم منزلة الاب فى قوله عز وجل «وآل آبائك ابراهيم واسمعيل واسحق» أو لأن يعقوب عليه الصلاة والسلام تزوجها بعد أمه وقال الحسن وابن اسحق كانت أمه فى الحياة فلا حاجة الى التأويل ومعنى آوى اليه ضمهما اليه واعتنقهما وكانه عليه الصلاة والسلام ضرب فى الملتقى مضربا فنزل به فدخلوا عليه فآواهما اليه (وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) من الشدائد والمكاره قاطبة والمشيئة متعلقة بالدخول على الامن (ورفع أبويه) عند نزولهم بمصر (على العرش) على السرير تكرمة لهما فوق ما فعله لاخوته (وخروا له) أى أبواه واخوته (سجدا) تحية له فانه كان السجود عندهم جاريا مجرى التحية والتكرمة كالقيام والمصافحة وتقبيل اليد ونحوها من عادات الناس الفاشية فى التعظيم والتوقير . وقيل ما كان ذلك الا انحناء دون تعفير الجباه ويأباه الخرور وقيل خروا لاجله سجداً لله شكرا ويرده قوله تعالى (وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى) التى رأيتها وقصصتها عليك (من قبل) فى زمن الصبا (قد جعلها ربى حقا) صدقا واقعا بعينه والاعتذار بجعل يوسف بمنزلة القبلة وجعل اللام كما فى قوله ☆ أليس أول من صلى لقبلتكم ☆ تعسف لا يخفى وتأخيره عن الرفع على العرش ليس بنص فى ذلك لان الترتيب الذكرى لا يجب كونه على وفق الترتيب الوقوعى فلعل تأخيره عنه ليصل به ذكر كونه تعبيراً لرؤياه وما يتصل به من قوله (وقد أحسن بى) المشهور استعمال الاحسان بالى وقد يستعمل بالباء أيضا كما فى قوله عز اسمه «وبالوالدين إحسانا» وقيل هذا بتضمين لطف وهو الاحسان الخفى كما يؤذن به قوله تعالى «إن ربى لطيف لما يشاء» وفيه فائده لا تخفى أى

لطف بى محسنا الى غير هذا الاحسان (إذ أخرجنى من السجن) بعد ما ابتليت به ولم يصرح بقصة الجب حذارا من تثريب اخوته لان الظاهر حضورهم لوقوع الكلام عقيب خرورهم سجدا واكتفاء بما يتضمنه قوله تعالى (وجاء بكم من البدو) أى البادية (من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى) أى أفسد بيننا بالاغواء وأصله من نخس الرائض الدابة وحملها على الجرى يقال نزغه ونسغه اذا نخسه ولقد بالغ عليه الصلاة والسلام فى الاحسان حيث أسند ذلك الى الشيطان (إن ربى لطيف لما يشاء) أى لطيف التدبير لأجله رفيق حتى يجىء على وجه الحكمة والصواب ما من صعب الا وهو بالنسبة الى تدبيره سهل (إنه هو العليم) بوجوه المصالح (الحكيم) الذى يفعل كل شىء على قضية الحكمة روى أن يوسف أخذ بيد يعقوب عليهما الصلاة والسلام فطاف به فى خزائنه فأدخله فى خزائن الورق والذهب وخزائن الحلى وخزائن الثياب وخزائن السلاح وغير ذلك فلما أدخله خزائن القراطيس قال يابنى ما أعقك . عندك هذه القراطيس وما كتبت الى على ثمانى مراحل قال أمرنى جبريل قال أو ما تسأله قال أنت أبسط إليه منى فسأله قال جبريل الله تعالى أمرنى بذلك لقولك أخاف أن يأكله الذئب قال فهلا خفتنى وروى أن يعقوب عليه الصلاة والسلام أقام معه أربعا وعشرين سنة ثم مات وأوصى أن يدفنه بالشام إلى جنب أبيه اسحق فمضى بنفسه ودفنه ثم عاد إلى مصر وعاش بعد أبيه ثلاثا وعشرين سنة فلما تم أمره وعلم أنه لا يدوم له تاقت نفسه إلى الملك الدائم الخالد فتمنى الموت فقال (رب قد آتيتنى من الملك) أى بعضا منه عظيما وهو ملك مصر (وعلمتنى من تأويل الأحاديث) أى بعضا من ذلك كذلك أن أريد بتعليم تأويل الأحاديث تفهيم غوامض أسرار الكتب الآلهية ودقائق سنن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فالترتيب ظاهر وأما أن أريد به تعليم تعبير الرؤيا كما هو الظاهر فلعل تقديم ايتاء الملك عليه فى الذكر لأنه بمقام تعداد النعم الفائضة عليه من الله سبحانه والملك أعرق فى كونه نعمة من التعليم المذكور وان كان ذلك أيضا نعمة جليلة فى نفسه ولا يمكن تمشية هذا الاعتذار فيما سبق لأن التعليم هناك وارد على نهج العلة الغائية للتمكين فان حمل على معنى التمليك لزم تأخره عنه وأما الواقع ههنا فمجرد التأخير فى الذكر والعطف بحرف الواو لا يستدعى ذلك الترتيب فى الوجود (فاطر السموات والأرض) مبدعهما وخالقهما نصب على انه صفة للمنادى أو منادى آخر وصفه تعالى به بعد وصفه بالربوبية مبالغة فى ترتيب مبادى ما يعقبه من قوله (أنت ولىى) مالك أمورى (فى الدنيا والآخرة) أو الذى يتولانى بالنعمة فيهما واذ قد أتممت على نعمة الدنيا (توفنى) أقبضنى (مسلما وألحقنى

بالصالحين) من آبائى أو بعامة الصالحين فى الرتبة و الكرامة فانما تتم النعمة بذلك قيل لما دعا توفاه الله عز وجل طيبا طاهرا فتخاصم أهل مصر فى دفنه و تشاحنوا فى ذلك حتى هموا بالقتال فرأوا أن يصنعوا له تابوتا من مرمر فجعلوه فيه ودفنوه فى النيل ليمر عليه ثم يصل إلى مصر ليكونوا شرعا واحدا فى التبرك به وولد له افرايم و ميشا و لافرايم نون ولنون يوشع فتى موسى عليه الصلاة والسلام ولقد توارثت الفراعنة من العمالقة بعده مصر ولم يزل بنو اسرائيل تحت أيديهم على بقايا دين يوسف وآبائه إلى أن بعث الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام (ذلك) اشارة إلى ماسبق من نبأ يوسف وما فيه من معنى البعد لما مر مرارا من الدلالة على بعد منزلته أو كونه بالانقضاء فى حكم البعيد والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم وهو مبتدأ خبره من أنباء الغيب الذى لا يحوم حوله أحد وقوله نوحيه اليك خبر بعد خبر أو حال من الضمير فى الخبر . ويجوز أن يكون ذلك اسما موصولا ومن أنباء الغيب صلته ويكون الخبر نوحيه إليك (وما كنت لديهم) يريد اخوة يوسف عليه الصلاة والسلام (إذ أجمعوا أمرهم) وهو جعلهم اياه فى غيابة الجب (وهم يمكرون) به و يبغون له الغوائل حتى تقف على ظواهر أسرارهم و بواطنها وتطلع على سرائرهم طرا وتحيط بما لديهم خبرا وليس المراد مجرد نفى حضوره عليه الصلاة و السلام فى مشهد اجماعهم ومكرهم فقط بل فى سائر المشاهد أيضا . وانما تخصيصه بالذكر لكونه مطلع القصة وأخفى أحوالها كما ينبىء عنه قوله وهم يمكرون والخطاب وان كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم لكن المراد الزام المكذبين و المعنى ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك اذ لاسبيل الى معرفتك اياه سوى ذلك اذ عدم سماعك ذلك من الغير و عدم مطالعتك للكتب أمر لا يشك فيه المكذبون أيضا و لم تكن بين ظهرانيهم عند وقوع الامر حتى تعرفه كما هو فتبلغه اليهم . و فيه تهكم بالكفار فكأنهم يشكون فى ذلك فيدفع شكهم وفيه أيضا ايذان بأن ماذكر من النبأ هو الحق المطابق للواقع وما ينقله أهل الكتاب ليس على ماهو عليه يعنى أن مثل هذا التحقيق بلا وحى لا يتصور الا بالحضور والمشاهدة واذ ليس ذلك بالحضور فهو بالوحى و مثله قوله تعالى « وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم » وقوله « و ما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر » (وما أكثر الناس) يريد به العموم أو أهل مكة (ولو حرصت) أى على ايمانهم و بالغت فى اظهار الآيات القاطعة الدالة على صدقك (بمؤمنين) لتصميمهم على الكفر واصرارهم على العناد . روى أن اليهود وقريشا لما سألوا عن قصة يوسف وعدوا أن يسلموا فلما أخبرهم بها على موافقة التوراة فلم يسلموا حزن النبى صلى الله عليه وسلم فقيل له ذلك (وما تسألهم عليه) أى على الأنباء

أو على القرآن (من أجر) من جعل كما يفعله جملة الاخبار (إن هو إلا ذكر) عظة من الله تعالى (للعالمين) كافة لا أن ذلك مختص بهم (وكأين من آية) أى كأى عدد شئت من الآيات و العلامات الدالة على وجود الصانع و وحدته و كمال علمه وقدرته وحكمته غير هذه الآية التى جئت بها (فى السموات والأرض) أى كائنة فيهما من الاجرام الفلكية ومافيهما من النجوم وتغير أحوالها و من الجبال والبحار وسائر مافى الارض من العجائب الفائتة للحصر (يمرون عليها) أى يشاهدونها ولا يعبأون بها و قرىء برفع الارض على الابتداء و يمرون خبره . وقرىء بنصبها على معنى و يطأون الارض يمرون عليها. وفى مصحف عبدالله والارض يمشون عليها والمراد ما يرون فيها من آثار الامم الهالكة وغير ذلك من الآيات والعبر (وهم عنها معرضون)غير ناظرين اليها و لا متفكرين فيها (وما يؤمن أكثرهم بالله) فى اقرارهم بوجوده وخالقيته (إلا وهم مشركون) بعبادتهم لغيره أو باتخاذهم الاحبار و الرهبان أربابا أو بقولهم باتخاذه تعالى ولدا سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا أو بالنور و الظلمة وهى جملة حالية أى لا يؤمن أكثرهم إلا فى حال شركهم قيل نزلت الآية فى أهل مكة وقيل فى المنافقين وقيل فى أهل الكتاب (أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله) أى عقوبة تغشاهم و تشملهم (أو تأتيهم الساعة بغتة) فجأة من غير سابقة علامة (وهم لا يشعرون) باتيانها غير مستعدين لها (قل هذه سبيلى) وهى الدعوة الى التوحيد والايمان بالاخلاص وفسرها بقوله (أدعوا إلى الله على بصيرة) بيان وحجة واضحة غير عمياء أو هى حال من الضمير فى سبيلى والعامل فيها معنى الاشارة (أنا) تأكيد للمستكن فى أدعوا أو على بصيرة لانه حال منه أو مبتدأ خبره على بصيرة (ومن اتبعنى)عطف عليه (وسبحان الله و ما أنا من المشركين) مؤكد لما سبق من الدعوة الى الله (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا) رد لقولهم لو شاء الله لأنزل ملائكة (نوحى إليهم) كما أوحينا اليك. وقرىء بالياء (من أهل القرى) لانهم أعلم وأحلم وأهل البوادى فيهم الجهل والجفاء والقسوة (أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) من المكذبين بالرسل و الآيات فيحذروا تكذيبك (ولدار الآخرة) أى الساعة أو الحياة الآخرة (خير للذين اتقوا) الشرك والمعاصى (أفلا تعقلون) فتستعملوا عقولكم لتعرفوا خيرية دار الآخرة . وقرىء بالياء على أنه غير داخل تحت قل (حتى إذا استيأس الرسل) غاية لمحذوف دل عليه السياق أى لا يغرنهم تماديهم فيما هم فيه من الدعة والرخاء فان من قبلهم قد أمهلوا حتى أيس الرسل عن النصر عليهم فى الدنيا أو عن ايمانهم لانهما كهم

فى الكفر وتماديهم فى الطغيان من غير وازع (وظنوا أنهم قد كذبوا) كذبتهم أنفسهم حين حدثتهم بأنهم ينصرون عليهم أو كذبهم رجاؤهم فانه يوصف بالصدق والكذب والمعنى أن مدة التكذيب والعداوة من الكفار وانتظار النصر من الله تعالى قد تطاولت وتمادت حتى استشعروا القنوط وتوهموا أن لا نصر لهم فى الدنيا (جاءهم نصرنا) فجأة وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وظنوا أنهم قد أخلفوا ما وعدهم الله من النصر فان صح ذلك عنه فلعله أراد بالظن ما يخطر بالبال من شبه الوسوسة وحديث النفس . وانما عبر عنه بالظن تهويلا للخطب وأما الظن الذى هو ترجح أحد الجانبين على الآخر فلا يتصور ذلك من آحاد الامة فما ظنك بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهم هم ومنزلتهم فى معرفة شئون الله سبحانه منزلتهم . وقيل الضمير ان للمرسل اليهم وقيل الاول لهم والثانى للرسل . وقرئ بالتشديد أى ظن الرسل أن القوم كذبوهم فيما وعدوهم . وقرىء بالتخفيف على بناء الفاعل على أن الضميرين للرسل أى ظنوا أنهم كذبوا اعند قومهم فيما حدثوا به لما تراخى عنهم ولم يروا له أثرا أو على أن الاول لقومهم (فنجى من نشاء) هم الرسل والمؤمنون بهم وقرىء فننجى على لفظ المستقبل بالتخفيف والتشديد وقرىء فنجا (ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين) اذ انزل بهم وفيه بيان لمن تعلقت بهم المشيئة (لقد كان فى قصصهم) أى قصص الانبياء وأممهم وينصره قراءة من قرأ بكسر القاف أو قصص يوسف وأخوته (عبرة لأولى الألباب) لذوى العقول المبرأة عن شوائب أحكام الحس (ما كان) أى القرآن المدلول عليه بماسبق دلالة واضحة (حديثا يفترى ولكن) كان (تصديق الذى بين يديه) من الكتب السماوية . وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أى ولكن هو تصديق الذي بين يديه (وتفصيل كل شىء) مما يحتاج اليه فى الدين إذ ما من أمر دينى الا وهو يستند إلى القرآن بالذات أو بوسط (وهدى) من الضلالة (ورحمة) ينال بها خير الدارين (لقوم يؤمنون) أى يصدقونه لانهم المنتفعون به وأما من عداهم فلا يهتدون بهداه ولا ينتفعون بجدواه . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « علموا أرقاءكم سورة يوسف فانه أيما مسلم تلاها وعلمها أهله وما ملكت يمينه هون الله عليه سكرات الموت وأعطاه القوة أن لا يحسد مسلما »

﴿ سورة الرعد مدنية وقيل مكية ﴾

الا قوله ويقول الذين كفروا الآية وآيها خمس وأربعون

بسم الله الرحمن الرحيم

(آلمر) اسم للسورة ومحله أما الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى هذه السورة مسماة بهذا الاسم وهو أظهر من الرفع على الابتداء اذ لم يسبق العلم بالتسمية كما مر مرارا وقوله تعالى (تلك) على الوجه الأول مبتدأ مستقل وعلى الوجه الثانى مبتدأ ثان أو بدل من الاول أشير به اليه ايذانا بفخامته . وأما النصب بتقدير فعل يناسب المقام نحو اقرأ أو اذكر فتلك مبتدأ كما اذا جعل آلمر مسرودا على نمط التعديد أو بمعنى أنا الله أعلم وأرى على ماروى عن ابن عباس رضى الله عنهما والخبر على التقادير قوله تعالى (آيات الكتاب) أى الكتاب العجيب الكامل الغنى عن الوصف به المعروف بذلك من بين الكتب الحقيق باختصاص اسم الكتاب به فهو عبارة عن جميع القرآن أو عن الجميع المنزل حينئذ حسبما مر فى مطلع سورة يونس اذ هو المتبادر من مطلق الكتاب المستغنى عن النعت وبه يظهر ماأريد من وصف الآيات بوصف ماأضيفت اليه من نعوت الكمال بخلاف مااذا جعل عبارة عن السورة فانها ليست بتلك المثابة من الشهرة فى الاتصاف بذلك المغنية عن التصريح بالوصف على أنها عبارة عن جميع آياتها فلا بد من جعل تلك اشارة الى كل واحدة منها وفيه مالا يخفى من التعسف الذى مر تفصيله فى سورة يونس (والذى أنزل إليك من ربك) أى الكتاب المذكور بكماله لاهذه السورة وحدها (الحق) الثابت المطابق للواقع فى كل مانطق به الحقيق بأن تخص به الحقية لعراقته فيها وليس فيه مايدل على أن ماعداه ليس بحق أصلا على أن حقيته مستتبعة لحقية سائر الكتب السماوية لكونه مصدقا لما بين يديه ومهيمنا عليه . وفى التعبير عنه بالموصول واسناد الانزال اليه بصيغة المبنى للمفعول والتعرض لوصف الربوبية مضافا الى ضميره عليه السلام من الدلالة على فخامة المنزل التابعة لجلالة شأن المنزل وتشريف المنزل اليه والايماء الى وجه بناء الخبر مالا يخفى (ولكن أكثر الناس لايؤمنون) بذلك الحق المبين لاخلالهم بالنظر والتأمل فيه فعدم ايمانهم متعلق بعنوان حقيته لانه المرجع للتصديق والتكذيب لابعنوان كونه منزلا كما قيل ولانه وارد على طريقة الوصف دون الاخبار (الله الذى رفع السموات) أى خلقهن

مرتفعات على طريقة قولهم سبحان من كبر الفيل وصغر البعوض لا أنه رفعها بعد أن لم تكن كذلك والجملة مبتدأ وخبر كقوله «وهو الذى مد الأرض» (بغير عمد) أى بغير دعائم جمع عماد كاهاب وأهب وهو ما يعمد به أى يسند يقال عمدت الحائط أى أدعمته وقرىء عمد على جمع عمود بمعنى عماد كرسل ورسول . وايراد صيغة الجمع لجمع السموات لالان المنفى عن كل واحدة منها عمد لا عماد (ترونها) استئناف استشهد به على ما ذكر من رفع السموات بغير عمد وقيل صفة لعمد جىء بها ايهاما لان لها عمدا غير مرئية هى قدرة الله تعالى (ثم استوى) أى استولى (على العرش) بالحفظ والتدبير أو استوى أمره وعن اصحابنا ان الاستواء على العرش صفة لله عز وجل بلا كيف وأياما كان فليس المراد به القصد الى ايجاد العرش وخلقه فلا حاجة الى جعل كلمة ثم للتراخى فى الرتبة (وسخر الشمس والقمر) ذللهما وجعلهما طائعين لما أريد منهما من الحركات وغيرها (كل) من الشمس والقمر (يجرى) حسبما أريد منهما (لأجل مسمى) لمدة معينة فيها تتم دورته كالسنة للشمس والشهر للقمر فان كل منهما يجرى كل يوم على مدار معين من المدارات اليومية أو لمدة ينتهى فيها حركاتهما ويخرج جميع ما أريد منهما من القوة الى الفعل أو لغاية يتم عندها ذلك والجملة بيان لحكم تسخيرهما (يدبر) بما صنع من الرفع والاستواء والتسخير أى يقضى ويقدر حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة (الأمر) أمر الخلق كله وأمر ملكوته وربوبيته (يفصل الآيات) الدالة على كمال قدرته وبالغ حكمته أى يأتى بها مفصلة وهى ماذكر من الافعال العجيبة وما يتلوها من الاوضاع الفلكية الحادثة شيئا فشيئا المستتبعة للآثار الغريبة فى السفليات على موجب التدبير والتقدير فالجملتان اما حالان من ضمير استوى وقوله وسخر الشمس والقمر من تتمة الاستواء واما مفسرتان له أو الاولى حال منه والثانية من الضمير فيها أو كلاهما من ضمائر الافعال المذكورة وقوله كل يجرى لاجل مسمى من تتمة التسخير أو خبران عن قوله الله . خبر بعد خبر والموصول صفة للمبتدا جىء به للدلالة على تحقيق الخبر وتعظيم شأنه كما فى قول الفرزدق :

ان الذى سمك السماء بنى لنا ، بيتا دعائمه أعز وأطول

(لعلكم) عند معاينتكم لها وعثوركم على تفاصيلها (بلقاء ربكم) بملاقاته للجزاء (توقنون) فان من تدبرها حق التدبر أيقن أن من قدر على ابداع هذه الصنائع البديعة على كل شىء قدير وأن لهذه التدبيرات المتينة عواقب وغايات لابد من وصولها وقد نطقت على ألسنة الانبياء عليهم السلام أن ذلك ابتداء المكلفين ثم جزاؤهم حسب أعمالهم

فاذن لا بدمن الايقان بالجزاء ولما قرر الشواهد العلوية أردفها بذكر الدلائل السفلية فقال (وهو الذى مد الأرض) أى بسطها طولا وعرضا قال الاصم : المد هو البسط الى ما لا يدرك منتهاه ففيه دلالة على بعد مداها وسعة أقطارها (وجعل فيها رواسى) أى جبالا ثوابت فى احيازها من الرسو وهو ثبات الاجسام الثقيلة ولم يذكر الموصوف لاغناء غلبة الوصف بها عن ذلك وانحصار مجىء فواعل جمعا لفاعل من فوارس وهوالك ونواكس انما هو فى صفات العقلاء وأما فى غيرهم فلا يراعى ذلك أصلا كما فى قوله تعالى «أياما معدودات» وقوله «الحج أشهر معلومات» الى غير ذلك فلا حاجة إلى أن يجعل مفردها صفة لجمع القلة أعنى أجبلا و يعتبر فى جمع الكثرة أعنى جبالا انتظامها لطائفة من جموع القلة وتنزيل كل منها منزلة مفردها كما قيل على انه لا مجال لذلك فان جمعية كل من صيغتى الجمعين انما هى باعتبار الافراد التى تحتها لا باعتبار انتظام جمع القلة للافراد وجمع الكثرة لجموع القلة فكل منهما جمع جبل لا أن جبالا جمع أجبل كما أن طوائف جمع طائفة ولا الى أن يلتجأ إلى جعل الوصف المذكور بالغلبة فى عداد الاسماء التى تجمع على فواعل كما ظن على أنه لا وجه له لما أن الغلبة انما هى فى الجمع دون المفرد والتعبير عن الجبال بهذا العنوان لبيان تفرع قرار الأرض على ثباتها (وأنهارا) مجارى واسعة والمراد ما يجرى فيها من المياه وفى نظمها مع الجبال فى معمولية فعل واحد اشارة إلى أن الجبال منشأ للانهار و بيان لفائدة أخرى للجبال غير كونها حافظة للأرض عن الاضطراب المخل بثبات الأقدام وتقلب الحيوان متفرعة على تمكنه وتقلبه وهى تعشه بالماء والكلأ (ومن كل الثمرات) متعلق بجعل فى قوله تعالى (جعل فيها زوجين اثنين) أى اثنينية حقيقية وهما الفردان اللذان كل منهما زوج الآخر وأكد به الزوجين لئلا يفهم أن المراد بذلك الشفعان إذ يطلق الزوج على المجموع ولكن اثنينية ذلك اثنينية اعتبارية أى جعل من كل نوع من أنواع الثمرات الموجودة فى الدنيا ضربين وصنفين أما فى اللون كالأبيض والاسود أو فى الطعم كالحلو والحامض أو فى القدر كالصغير والكبير أو فى الكيفية كالحار والبارد وما أشبه ذلك و يجوز أن يتعلق بجعل الأول و يكون الثانى استئنافا لبيان كيفية ذلك الجعل (يغشى الليل النهار) استعارة تبعية تمثيلية مبنية على تشبيه إزالة نور الجو بالظلمة بتغطية الأشياء الظاهرة بالأغطية أى يستر النهار بالليل والتركيب وان احتمل العكس أيضا بالحمل على تقديم المفعول الثانى على الأول فان ضوء النهار أيضا ساتر لظلمة الليل الا أن الأنسب بالليل أن يكون هو الغاشى وعد هذا فى تضاعيف الآيات السفلية و ان كان تعلقه بالآيات العلوية ظاهرا باعتبار أن ظهوره فى الارض فان الليل انما هو ظلها و فيما فوق موقع

ظلها لاليل أصلا ولأن الليل والنهار لهما تعلق بالثمرات من حيث العقد والانضاج على انهما أيضا زوجان متقابلان مثلها وقرىء يغشى من التغشية (إن فى ذلك) أى فيما ذكر من مد الارض وايتادها بالرواسي واجراء الأنهار وخلق الثمرات واغشاء الليل النهار وفى الاشارة بذلك تنبيه على عظم شأن المشار اليه فى بابه (لآيات) باهرة وهى آثار تلك الأفاعيل البديعة جلت حكمة صانعها ففى على معناها فان تلك الآثار مستقرة فى تلك الأفاعيل منوطة بها ويجوز أن يشار بذلك إلى تلك الآثار المدلول عليها بتلك الافاعيل ففى تجريدية (لقوم يتفكرون) فان التفكر فيها يؤدى الى الحكم بأن تكون كل من ذلك على هذا النمط الرائق والاسلوب اللائق لابد له من مكون قادر حكيم يفعل ما يشاء ويختار ما يريد لا معقب لحكمه وهو الحميد المجيد (وفى الأرض قطع) جملة مستأنفة مشتملة على طائفة أخرى من الآيات أى بقاع كثيرة مختلفة فى الاوصاف فمن طيبة الى سبخة وكريمة الى زهيدة وصلبة الى رخوة الى غير ذلك (متجاورات) أى متلاصقات وفى بعض المصاحف قطعا متجاورات أى جعل فى الارض قطعا (وجنات من أعناب) أى بساتين كثيرة منها (وزرع) من كل نوع من أنواع الحبوب وأفراده لمراعاة أصله ولعل تقديم ذكر الجنات عليه مع كونه عمود المعاش لظهور حالها فى اختلافها ومباينتها لسائرها ورسوخ ذلك فيها وتأخير قوله تعالى (ونخيل) لئلا يقع بينها وبين صفتها وهى قوله تعالى (صنوان وغير صنوان) فاصلة والصنوان جمع صنو كقنوان وقنو وهى النخلة التى لها رأسان وأصلها واحد. وقرىء بضم الصاد على لغة بنى تميم وقيس. وقرىء جنات بالنصب عطفا على زوجين وبالجر على كل الثمرات فلعل عدم نظم قوله تعالى «وفى الأرض قطع متجاورات» فى هذا السلك مع أن اختصاص كل من تلك القطع بمالها من الاحوال والصفات بمحض جعل الخالق الحكيم جلت قدرته حين مد الارض ودحاها للايماء إلى كون تلك الاحوال صفات راسخة لتلك القطع . وقرىء وزرع ونخيل بالجر عطفا على أعناب أو جنات (يسقى) أى ما ذكر من القطع والجنات والزرع والنخيل . وقرىء بالتأنيث مراعاة للفظ والأول أوفق بمقام بيان اتحاد الكل فى حالة السقى (بماء واحد) لا اختلاف فى طبعه سواء كان السقى بماء الامطار أو بماء الانهار (ونفضل) مع تآخذ أسباب التشابه بمحض قدرتنا واختيارنا (بعضها على بعض) آخر منها (فى الأكل) فيما يحصل منها من الثمر والطعم. وقرىء بالياء على بناء الفاعل رداً على يدبر ويفصل ويغشى وعلى بناء المفعول وفيه مالا يخفى من الفخامة والدلالة على أن عدم احتمال استناد الفعل إلى فاعل آخر مغن عن بناء الفعل

للفاعل (إن فى ذلك) الذى فصل من أحوال القطع والجنات (لآيات) كثيرة عظيمة ظاهرة (لقوم يعقلون) يعملون على قضية عقولهم فان من عقل هذه الاحوال العجيبة لا يتلعثم فى الجزم بأن من قدر على ابداع هذه البدائع وخلق تلك الثمار المختلفة فى الاشكال والالوان والطعوم والروائح فى تلك القطع المتباينة المتجاورة وجعلها حدائق ذات بهجة قادر على اعادة ما أبداه بل هى أهون فى القياس وهذه الاحوال وإن كانت هى الآيات أنفسها لا انها فيها إلا أنه قد جردت عنها أمثالها مبالغة فى كونها آية ففى تجريدية مثلها فى قوله تعالى «لهم فيها دار الخلد» أو المشار اليه الاحوال الكلية والآيات أفرادها الحادثة شيئا فشيئا فى الأزمنة وآحادها الواقعة فى الاقطار والامكنة المشاهدة لأهلها ففى على معناها وحيث كانت دلالة هذه الاحوال على مدلولاتها أظهر مما سبق علق كونها آيات بمحض التعقل ولذلك لم يتعرض لغير تفضيل بعضها على بعض فى الأكل الظاهر لكل عاقل مع تحقق ذلك فى الخواص والكيفيات مما يتوقف العثور عليه على نوع تأمل وتفكر كأنه لاحاجة فى ذلك الى التفكر أيضا وفيه تعريض بأن المشركين غير عاقلين (و إن تعجب) يامحمد من شىء (فعجب) لاأعجب منه حقيق بأن يقصر عليه التعجب (قولهم) بعد مشاهدة ماعدد لك من الآيات الشاهدة بأنه تعالى على كل شىء قدير (أئذا كنا ترابا) على طريقة الاستفهام الانكارى المفيد لكمال الاستبعاد والاستنكار وهو فى محل الرفع على البدلية من قولهم على أنه بمعنى المقول أو فى محل النصب على المفعولية منه على انه مصدر فالعجب على الاول كلامهم وعلى الثانى تكلمهم بذلك والعامل فى اذا مادل عليه قوله (أئنا لفى خلق جديد) وهو نبعث أو نعاد وتقديم الظرف لتقوية الانكار بالبعث بتوجيهه اليه فى حالة منافية له. وتكرير الهمزة فى قولهم أئنا لتأكيد الانكار وليس مدار انكارهم كونهم ثابتين فى الخلق الجديد بالفعل عند كونهم ترابا بل كونهم بعرضية ذلك واستعدادهم له وفيه من الدلالة على عتوهم وتماديهم فى النكير مالا يخفى. وقيل وان تعجب من قولهم فى انكار البعث فعجب قولهم والمآل وان تعجب فقد تعجبت فى موضع التعجب. وقيل وان تعجب من انكارهم البعث فعجب قولهم الدال عليه فتأمل وقد يجوز كون الخطاب لكل من يصلح له أى ان تعجب يامن ينظر فى هذه الآيات من قدرة من هذه أفعاله فازدد تعجبا ممن ينكر مع هذه الدلائل قدرته تعالى على البعث وهو أهون من هذه والانسب بقوله ويستعجلونك بالسيئة هو الاول وقوله تعالى فعجب خبر قدم على المبتدا للقصر والتسجيل من أول الامر بكون قولهم ذاك أمرا عجيبا. ويجوز أن يكون مبتدأ لكونه

موصوفا بالوصف المقدر كما أشير اليه فالمعنى وان تعجب فالعجب الذى لاعجب وراءه قولهم هذا فاعجب منه وعلى الاول وان تعجب فقولهم هذا عجب لاعجب فوقه (أولئك) مبتدأ والموصول خبره أى أولئك المنكرون لقدرته تعالى على البعث ريثما عاينوا مافصل من الآيات الباهرة الملجئة لهم الى الايمان لو كانوا يبصرون (الذين كفروا بربهم) وتمادوا فى ذلك فان انكارهم لقدرته عز وجل كفر به وأى كفر (وأولئك) مبتدأ خبره قوله (الأغلال فى أعناقهم) أى مقيدون بقيود الضلال لايرجى خلاصهم أو مغلولون يوم القيامة (وأولئك) الموصوفون بما ذكر من الصفات (أصحاب النار هم فيها خالدون) لاينفكون عنها. وتوسيط ضمير الفصل ليس لتخصيص الخلود بمنكرى البعث خاصة بل بالجميع المدلول عليه بقوله تعالى «أولئك الذين كفروا بربهم» (ويستعجلونك بالسيئة) بالعقوبة التى أنذروها وذلك حين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بالعذاب استهزاء منهم بانذاره (قبل الحسنة) أى العافية والاحسان اليهم بالامهال (وقد خلت من قبلهم المثلات) أى عقوبات أمثالهم من المكذبين فما لهم لايعتبرون بها ولا يحترزون حلول مثلها بهم والجملة الحالية لبيان ركاكة رأيهم فى الاستعجال بطريق الاستهزاء أى يستعجلونك بها مستهزئين بانذارك منكرين لوقوع ما أنذرتهم اياه والحال انه قد مضت العقوبات النازلة على أمثالهم من المكذبين المستهزئين والمثلة بوزن السمرة العقوبة سميت بها لما بينها وبين المعاقب عليه من المماثلة ومنه المثال للقصاص. وقرىء المثلات بضمتين بأتباع الفاء العين و المثلات بفتح الميم وسكون الثاء كما يقال السمرة والمثلات بضم الميم وسكون الثاء تخفيف المثلات جمع مثله كركبة وركبات (وإن ربك لذو مغفرة) عظيمة (للناس على ظلمهم) أنفسهم بالذنوب والمعاصى ومحله النصب على الحالية أى ظالمين والعامل فيه المغفرة والمعنى ان ربك لغفور للناس لايعجل لهم العقوبة وان كانوا ظالمين بل يمهلهم بتأخيرها (وإن ربك لشديد العقاب) يعاقب من يشاء منهم حين يشاء فتأخير ما استعجلوه ليس للاهمال وعنه عليه الصلاة والسلام «لولا عفو الله وتجاوزه ماهنأ لاحد العيش. ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد» (ويقول الذين كفروا) وهم المستعجلون أيضا وانما عدل عن الاضمار الى الموصول ذما لهم ونعيا عليهم كفرهم بآيات الله تعالى التى تخر لها صم الجبال حيث لم يرفعوا لها رأسا ولم يعدوها من جنس الآيات وقالوا (لولا أنزل عليه آية من ربه) مثل آيات موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام عنادا ومكابرة والا ففى أدنى آية أنزلت عليه عليه الصلاة والسلام غنية وعبرة لأولى الألباب (إنما أنت منذر) مرسل للانذار من سوء

عاقبة ما يأتون ويذرون كدأب من قبلك من الرسل وليس عليك الا الاتيان بما يعلم به نبوتك وقد حصل ذلك بما لامزيد عليه ولا حاجة الى ألزامهم والقامهم الحجر بالاتيان بما اقترحوا من الآيات (ولكل قوم هاد)معين لا بالذات بل بعنوان الهداية يعني لكل قوم نبي مخصوص له هداية مخصوصة يقتضى اختصاص كل منهم بما يختص به حكم لا يعلمها الا الله أو لكل قوم هاد عظيم الشان قادر على ذلك هو الله سبحانه.وما عليك الا انذارهم فلا يهمنك عنادهم وانكارهم للآيات المنزلة عليك وازدراؤهم بها ثم عقبه بما يدل على كمال علمه وقدرته وشمول قضائه وقدره المبنيين على الحكم والمصالح تنبيها على أن تخصيص كل قوم بنبي وكل نبي بجنس معين من الآيات انما هو للحكم الداعية الى ذلك اظهارا لكمال قدرته على هدايتهم لكن لا يهدى الا من تعلق بهدايته مشيئته التابعة لحكم استأثر بعلمها فقال (الله يعلم ما تحمل كل أنثى) أى تحمله فما موصولة أريد بها ما فى بطنها من حين العلوق الى زمن الولادة لا بعد تكامل الخلق فقط والعلم متعد الى واحد أو أى شيء تحمل وعلى أى حال هو من الاحوال المتواردة عليه طورا فطورا فهى استفهامية معلقة للعلم أو حملها فهى مصدرية (وما تغيض الأرحام وما تزداد) أى تنقصه وتزداده فى الجثة كالخديج والتام وفى المدة كالمولود فى أقل مدة الحمل والمولود فى أكثرها وفيما بينهما قيل ان الضحاك ولد فى سنتين وهرم بن حيان فى أربع ومن ذلك سمي هرما وفى العدد كالواحد فما فوقه يروى أن شريكا كان رابع أربعة أو يعلم نقصها وازديادها لما فيها فالفعلان متعديان كما فى قوله تعالى «وغيض الماء» وقوله تعالى «وازدادوا تسعا» وقوله «ونزداد كيل بعير» أو لازمان قد أسندا الى الارحام مجازا وهما لما فيها (وكل شيء) من الاشياء (عنده بمقدار) بقدر لا يمكن تجاوزه عنه كقوله «انا كل شيء خلقناه بقدر» فان كل حادث من الاعيان والاعراض له فى كل مرتبة من مراتب التكوين ومباديها وقت معين وحال مخصوص لا يكاد يجاوزه والمراد بالعندية الحضور العلمي بل العلم الحضورى فان تحقق الاشياء فى أنفسها فى أى مرتبة كانت من مراتب الوجود والاستعداد لذلك علم له بالنسبة الى الله عز وجل (عالم الغيب) أى الغائب عن الحس (والشهادة) أى الحاضر له عبر عنهما بهما مبالغة. وقيل أريد بالغيب المعدوم وبالشهادة الموجود وهو خبر مبتدا محذوف أو خبر بعد خبر. وقرىء بالنصب على المدح وهذا كالدليل على ما قبله من قوله تعالى الله يعلم الخ (الكبير) العظيم الشأن الذى كل شيء دونه (المتعال) المستعلى على كل شيء بقدرته أو المنزه عن نعوت المخلوقات وبعد ما بين سبحانه أنه عالم بجميع أحوال الانسان فى مراتب فطرته ومحيط بعالمي الغيب والشهادة بين أنه تعالى

عالم بجميع ما يأتون وما يذرون من الافعال والاقوال وانه لافرق بالنسبة اليه بين السر والعلن فقال (سواء منكم من أسر القول)فى نفسه (و من جهر به) أظهره لغيره (ومن هو مستخف) مبالغ فى الاختفاء كانه مختف (بالليل) وطالب للزيادة (وسارب) بارز يراه كل أحد (بالنهار) من سرب سروبا أى برز وهو عطف على من هو مستخف أو على مستخف و من عبارة عن الاثنين كما فى قوله :

تعال فان عاهدتنى لاتخوننى ... تكن مثل من ياذئب يصطحبان

كانه قيل سواء منكم اثنان مستخف بالليل وسارب بالنهار والاستواء وان أسند الى من أسر ومن جهر والى المستخفى والسارب لكنه فى الحقيقة مسند الى ما أسره وما جهر به أو الى الفاعل من حيث هو فاعل كما فى الاخيرين. وتقديم الاسرار والاستخفاء لاظهار كمال علمه تعالى فكانه فى التعلق بالخفيات أقدم منه بالظواهر والا فنسبته الى الكل سواء لما عرفته آنفا (له) أى لكل من أسر أو جهر والمستخفى أو السارب (معقبات) ملائكة تعتقب فى حفظه جمع معقبة من عقبه مبالغة عقبه اذا جاء على عقبه كان بعضهم يعقب بعضا أو لانهم يعقبون أقواله وأفعاله فيكتبونه أو اعتقب فادغمت التاء فى القاف و التاء للمبالغة أو المراد بالمعقبات الجماعات . و قرىء معاقيب جمع معقب أو معقبة على تعويض الياء من احدى القافين (من بين يديه ومن خلفه) من جميع جوانبه أو من الاعمال ماقدم وأخر (يحفظونه من أمر الله) من بأسه حين أذنب بالاستمهال والاستغفار له أو يحفظونه من المضار أو يراقبون أحواله من أجل أمر الله تعالى وقد قرىء به وقيل من بمعنى الباء و قيل من أمر الله صفة ثانية لمعقبات وقيل المعقبات وقيل المعقبات الحراس والجلاوزة حول السلطان يحفظونه فى توهمه من قضاء الله تعالى (إن الله لايغير مابقوم) من النعمة والعافية (حتى يغيروا ما بأنفسهم) من الاعمال الصالحة أو ملكاتها التى هى فطرة الله التى فطر الناس عليها الى أضدادها (و إذا أراد الله بقوم سوأ) لسوء اختيارهم واستحقاقهم لذلك (فلا مرد له) فلارد له والعامل فى اذا مادل عليه الجواب (وما لهم من دونه من وال) يلى أمرهم و يدفع عنهم السوء الذى أراده الله بهم بما قدمت أيديهم من تغيير ما بهم. وفيه دلالة على أن تخلف .راده تعالى محال وايذان بأنهم بما باشروه من انكار البعث واستعجال السيئة واقتراح الآية وقد غيروا ما بأنفسهم من الفطرة واستحقوا لذلك حلول غضب الله تعالى وعذابه (هو الذى يريكم البرق خوفا) من الصاعقة (وطمعا)فى المطر فوجه تقديم الخوف على الطمع ظاهر لما أن المخوف عليه النفس أو الرزق العتيد والمطموع فيه الرزق المترقب وقيل الخوف أيضا من المطر لكن

الخائف منه غير الطامع فيه كالخزافى والحراث ويأباه الترتيب اللهم الا أن يتكلف ماأشير اليه من أن المخوف عتيد والمطموع فيه مترقب وانتصابهما اما على المصدرية أى فتخافون خوفا وتطمعون طمعا أوعلى الحالية من البرق أو المخاطبين باضمار ذوى أو بجعل المصدر بمعنى المفعول أوالفاعل مبالغة أوعلى العلية بتقدير المضاف أى ارادة خوف وطمع أو بتأويل الاخافة والاطماع ليتحد فاعل العلة والفعل المعلل وأما جعل المعلل هى الرؤية التى تتضمنها الاراءة على طريقة قول النابغة :

وحلت بيوتى فى يفاع ممنع ،، تخال به راعى الحمولة طائرا

حذارا على أن لا ينال معاونى ،، ولا نسوتى حتى يمتن حرائرا

أى أحللت بيوتى حذارا فلا سبيل اليه لان ماوقع فى معرض العلة الغائية لاسيما الخوف لا يصلح علة لرؤيتهم (وينشىء السحاب) الغمام المنسحب فى الجو (الثقال) بالماء وهى جمع ثقيلة وصف بها السحاب لكونها اسم جنس فى معنى الجمع والواحد سحابة يقال سحابة ثقيلة وسحاب ثقال كما يقال امرأة كريمة ونسوة كرام (ويسبح الرعد) أى سامعوه من العباد الراجين للمطر ملتبسين (بحمده) أى يضجون بسبحان الله والحمد لله واسناده الى الرعد لحمله لهم على ذلك أو يسبح الرعد نفسه على أن تسبيحه عبارة عن دلالته على وحدانيته تعالى وفضله المستوجب لحمده وعن النبى صلى الله عليه وسلم انه كان يقول «سبحان من يسبح الرعد بحمده» واذا اشتد يقول «اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك» وعن على رضى الله عنه سبحان من سبحت له. وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن اليهود سألت النبى عليه الصلاة والسلام عن الرعد فقال ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب. وعن الحسن خلق من خلق الله تعالى ليس بملك (والملائكة) أى يسبح الملائكة (من خيفته) من هيبته واجلاله جل جلاله. وقيل الضمير للرعد (ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء) فيهلكه بذلك (وهم) أى الكفرة المخاطبون فى قوله تعالى «هو الذى يريكم البرق» وقد التفت الى الغيبة ايذانا باسقاطهم عن درجة الخطاب واعراضا عنهم وتعديدا لجناياتهم لدى كل من يستحق الخطاب كانه قيل هو الذى يفعل أمثال هذه الافاعيل العجيبة من اراءة البرق وانشاء السحاب الثقال وارسال الصواعق الدالة على كمال علمه وقدرته ويعقلها من المؤمنين أو الرعد نفسه أو الملك الموكل به والملائكة ويعملون بموجب ذلك من التسبيح والحمد والخوف من هيبته تعالى وهم أى الكفرة الذين حكيت هناتهم مع ذلهم وهوانهم وحقارة شأنهم (يجادلون فى الله) أى فى شأنه تعالى حيث يفعلون مايفعلون من انكار البعث واستعجال العذاب استهزاء واقتراح الآيات فالواو

لعطف الجملة على ماقبلها من قوله تعالى «هو الذى يريكم البرق» الخ أو على قوله «الله يعلم ماتحمل» الخ وأما العطف على قوله تعالى ويقول الذين كفروا كما قيل فلا مجال له لان قوله تعالى الله يعلم الخ استئناف لبيان بطلان قولهم ذلك ونظائره من استعجال العذاب وانكار البعث قاطع لعطف مابعده على ماقبله . وقيل للحال أى فيصيب بالصواعق من يشاء وهم فى الجدال وقد أريد به ماأصاب أربد بن ربيعة أخا لبيد فانه أقبل مع عامر بن الطفيل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يبغيانه الغوائل فدخلا المسجد وهو عليه الصلاة والسلام جالس فى نفر من الاصحاب رضى الله عنهم فاستشرفوا لجمال عامر وكان من أجمل الناس وقد كان أوصى الى أربد أنه اذا رأيتنى أكلم محمدا عليه الصلاة والسلام فدر من خلفه واضربه بالسيف فجعل يكلمه عليه الصلاة والسلام فدار أربد من خلفه عليه الصلاة والسلام فاخترط من سيفه شبرا فحبسه الله تعالى فلم يقدر على سله وجعل عامر يومىء اليه فرأى النبى عليه الصلاة والسلام الحال فقال اللهم اكفنيهما بما شئت فأرسل الله عز وجل على أربد صاعقة فى يوم صحو صائف فأحرقته وولى عامر هاربا فنزل فى بيت امرأة سلولية فلما أصبح ضم عليه سلاحه وتغير لونه وركب فرسه فجعل يركض فى الصحراء ويقول ابرز ياملك الموت ويقول الشعر ويقول واللات لئن أصحر لى محمد وصاحبه يعنى ملك الموت لانفذتهما برمحى فأرسل الله تعالى ملكا فلطمه بجناحه فأرداه فى التراب فخرجت على ركبته فى الوقت غدة عظيمة فعاد الى بيت السلولية وهو يقول غدة كغدة البعير وموت فى بيت سلولية ثم دعا بفرسه فركبه فأجراه حتى مات على ظهره . وقيل أريد به ماروى عن الحسن أنه كان رجل من طواغيت العرب فبعث النبى عليه الصلاة والسلام نفرا من أصحابه يدعونه الى الله عز وجل فقال لهم أخبرونى عما تدعوننى اليه ماهو وم هو من ذهب أم من فضة أم من نحاس أم من حديد أم من در فاستعظموا مقالته فرجعوا الى النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا مارأينا رجلا اكفر قلبا ولاأعتى على الله منه فقال عليه الصلاة والسلام ارجعوا اليه فرجعوا اليه فمازاد الامقالته الاولى وأخبث فرجعوا اليه عليه الصلاة والسلام وأخبروه بماصنع فقال عليه الصلاة والسلام ارجعوا اليه فرجعوا اليه فبينما هم عنده ينازعونه اذ ارتفعت سحابة ورعدت وبرقت ورمت بصاعقة فاحترق الكافر فجاءوا يسعون ليخبروه عليه الصلاة والسلام بالخبر فاستقبلهم الاصحاب فقالوا احترق صاحبكم قالوا من أين علمتم قالوا أوحى الى النبى صلى الله عليه وسلم (وهو شديد المحال) أى والحال أنه شديد المماحلة والمكابرة والمماكرة لأعدائه من محله اذا كاده وعرضه

للهلاك ومنه تمحل اذا تكلف استعمال الحيل وقيل هو محال من المحل بمعنى القوة وقيل محول من الحول أو الحيلة أعل على غير قياس ويعضده أنه قرىء بفتح الميم على أنه مفعل من حال يحول اذا احتال ويجوز أن يكون بمعنى الفقار فيكون مثلا فى القوة والقدرة كقولهم فساعد الله أشد وموسى الله أحد (له دعوة الحق) أى الدعوة الثابتة الواقعة فى محلها المجابة عند وقوعها والاضافة للايذان بملابستها للحق واختصاصها به وكونه بمعزل من شائبة البطلان والضياع والضلال كما يقال كلمة الحق. وقيل له دعوة الله سبحانه أى الدعوة اللائقة بحضرته كما فى قوله عليه الصلاة والسلام «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله» والتعرض لوصف الحقية لتربية معنى الاستجابة والأولى هو الاول لقوله تعالى «ومادعاء الكافرين إلا فى ضلال» وتعلق الجملتين بما قبلهما من حيث أن اهلاك أربد وعامر محال من الله تعالى واجابة لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهما إن كانت الآية نزلت فى شأنهما أو من حيث انه وعيد للكفرة على مجادلة رسول الله صلى الله عليه وسلم بحلول محاله بهم وتحذير لهم باجابة دعوته عليهم (والذين يدعون) أى الاصنام الذين يدعوهم المشركون فحذف العائد (من دونه) من دون الله عز وجل (لا يستجيبون لهم بشىء) من طلباتهم (إلا كباسط كفيه إلى الماء) أى إلا استجابة كائنة كاستجابة الماء لمن بسط كفيه اليه من بعيد فالاستجابة مصدر من المبنى للفاعل على مايقتضيه الفعل الظاهر أعنى لا يستجيبون ويجوز أن يكون من المبنى للمفعول ويضاف الى الباسط بناء على استلزام المصدر من المبنى للفاعل للمصدر من المبنى للمفعول وجوداً وعدماً فكأنه قيل لا يستجيبون لهم بشىء فلا يستجاب لهم الا استجابة كائنة كاستجابة من بسط كفيه الى الماء كما فى قوله :

وعضة دهر يا ابن مروان لم تدع ... من المال الا مسحت أو مجلف

أى لم تدع فلم يبق الا مسحت أو مجلف (ليبلغ) أى الماء بنفسه من غير أن يؤخذ بشىء من اناء ونحوه (فاه وما هو) أى الماء (ببالغه) ببالغ فيه أبداً لكونه جمادا لا يشعر بعطشه ولا يبسط يده اليه فضلا عن الاستطاعة لما أراده من البلوغ الى فيه. شبه حال المشركين فى عدم حصولهم فى دعاء آلهتهم على شىء أصلا وركاكة رأيهم فى ذلك بحال عطشان هائم لا يدرى مايفعل قد بسط كفيه من بعيد الى الماء يبغى وصوله الى فيه من غير ملاحظة التشبيه فى جميع مفردات الاطراف فان الماء فى نفسه شىء نافع بخلاف آلهتهم والمراد نفى الاستجابة رأساً إلا أنه قد أخرج الكلام مخرج التهكم بهم فقيل لا يستجيبون لهم شيئاً من الاستجابة الا استجابة كائنة فى

هذه الصورة التى ليست فيه شائبة الاستجابة قطعاً فهو فى الحقيقة من باب التعليق بالمحال. وقرىء تدعون بالتاء وكباسط بالتنوين (وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال) أى ذهاب وضياع وخسار (ولله) وحده (يسجد) يخضع وينقاد لا لشىء غيره استقلالا ولا اشتراكا فالقصر ينتظم القلب والافراد (من فى السموات والأرض) من الملائكة والثقلين (طوعا وكرها) أى طائعين وكارهين أو انقياد طوع وكره أو حال طوع وكره فان خضوع الكل لعظمة الله عز وجل وانقيادهم لاحداث ما أراده فيهم من أحكام التكوين والاعدام شاءوا أو أبوا وعدم مداخلة حكم غيره بل غير حكمه تعالى فى تلك الشئون مما لا يخفى على أحد (وظلا لهم) أى وتنقاد له تعالى ظلال من له ظل منهم أعنى الأنس حيث تتصرف على مشيئته وتتأتى لارادته فى الامتداد والتقلص والفىء هو الزوال (بالغدو والآصال) ظرف للسجود المقدر أو حال من الظلال وتخصيص الوقتين بالذكر مع أن انقيادها متحقق فى جميع أوقات وجودها لظهور ذلك فيهما والغدو جمع غداة كفنى فى جمع فتاة والآصال جمع أصيل. وقيل جمع أصل وهو جمع أصيل وهو ما بين العصر والمغرب. وقيل الغدو مصدر ويؤيده أنه قرىء والايصال أى الدخول فى الاصيل هذا وقد قيل ان المراد حقيقة السجود فان الكفرة حال الاضطرار وهو المعنى بقوله تعالى وكرها يخصون السجود به سبحانه قال تعالى «فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين» ولا يبعد أن يخلق الله تعالى فى الظلال أفهاما وعقولا بها تسجد لله سبحانه كما خلقها للجبال حتى اشتغلت بالتسبيح وظهر فيها آثار التجلى كما قاله ابن الانبارى ويجوز أن يراد بسجودها ما يشاهد فيها من هيئة السجود تبعا لاصحابها وأنت خبير بأن اختصاص سجود الكافر حالة الضرورة والشدة بالله سبحانه لا يجدى فان سجودهم لاصنامهم حالة الرخاء مخل بالقصر المستفاد من تقديم الجار والمجرور فالوجه حمل السجود على الانقياد ولان تحقيق انقياد الكل فى الابداع والاعدام له تعالى دخل فى التوبيخ على اتخاذ أولياء من دونه من تحقيق سجودهم له تعالى وتخصيص انقياد العقلاء بالذكر مع كون غيرهم أيضا كذلك لانهم العمدة وانقيادهم دليل انقياد غيرهم على أنه بين ذلك بقوله عز وجل (قل من رب السموات والأرض) فانه لتحقيق أن خالقهما ومتولى أمرهما مع مافيهما على الاطلاق هو الله سبحانه وقوله تعالى (قل الله) أمر بالجواب من قبله عليه الصلاة والسلام اشعارا بأنه متعين للجوابية فهو والخصم فى تقريره سواء أو أمره بحكاية اعترافهم ايذانا بانه أمر لابد لهم من ذلك كأنه قيل احك اعترافهم فبكتهم بما يلزمهم من الحجة وألقمهم الحجر أو أمر بتلقينهم ذلك ان

يلعثموا فى الجواب حذرا من الالزام فانهم لايتمالكون اذ ذاك ولا يقدرون على انكاره (قل) الزاما لهم و تبكيتا (أفاتخذتم) لانفسكم والهمزة لانكار الواقع كما فى قولك أضربت أباك لالانكار الوقوع كما فى قولك أضربت أبى والفاء للعطف على مقدر بعد الهمزة أى أعلمتم ان ربهما هو الله الذى ينقاد لامره من فيهما كافة فاتخذتم عقيبه (من دونه أولياء) عاجزين لايملكون لانفسهم نفعا يستجلبونه (ولا ضرا) يدفعونه عن أنفسهم فضلا عن القدرة على جلب النفع لغيره ودفع الضرر عنه لا على أن يكون الانكار متوجها الى المعطوفين معا كما فى قوله تعالى أفلا تعقلون اذا قدر المعطوف عليه ألا تسمعون بل الى ترتب الثانى على الاول مع وجوب أن يترتب عليه نقيضه كما اذا قدر أتسمعون والمعنى أبعد أن علمتم أن ربهما هو الله جل جلاله اتخذتم من دونه أولياء عجزة والحال أن قضية العلم بذلك انما هو الاقتصار على توليه فعكستم الأمر كما فى قوله تعالى «كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى» ووصف الاولياء ههنا بعدم المالكية للنفع والضر فى ترشيح الانكار وتأكيده كتقييد الاتخاذ هناك بالجملة الحالية أعنى قوله تعالى «وهم لكم عدو» فان كلا منهما مما ينفى الاتخاذ المذكور ويؤكد انكاره (قل) تصويرا لآرائهم الركيكة بصورة المحسوس (هل يستوى الأعمى) الذى هو المشرك الجاهل بالعبادة ومستحقها (والبصير) الذى هو الموحد العالم بذلك أو الاول عبارة عن المعبود الغافل والثانى اشارة الى المعبود العالم بكل شىء (أم هل تستوى الظلمات) التى هى عبارة عن الكفر والضلال (والنور) الذى هو عبارة عن التوحيد والايمان. وقرىء بالياء ولما دل النظم الكريم على أن الكفرة فيما فعلوا من اتخاذ الاصنام أولياء من دون الله سبحانه فى الضلال المحض والخطأ البحت بحيث لا يخفى بطلانه على أحد وأنهم فى ذلك كالاعمى الذي لا يهتدى الى شىء أصلا وليس لهم فى ذلك شبهة تصلح أن تكون منشأ لغلطهم وخطئهم فضلا عن الحجة أكد ذلك فقيل (أم جعلوا لله) أى بل أجعلوا له (شركاء خلقوا كخلقه) سبحانه والهمزة لانكار الوقوع لا لانكار الواقع مع وقوعه وقوله خلقوا كخلقه هو الذى يتوجه اليه الانكار وأما نفس الجعل فهو واقع لا يتعلق به الانكار بهذا المعنى والمعنى أنهم لم يجعلوا لله تعالى شركاء خلقوا كخلقه (فتشابه الخلق عليهم) بسبب ذلك وقالوا هؤلاء خلقوا كخلقه تعالى فاستحقوا بذلك العبادة كما استحقها ليكون ذلك منشأ لخطئهم بل انما جعلوا له شركاء ما هو بمعزل من ذلك بالمرة وفيه مالا يخفى من التعريض بركاكة رأيهم والتهكم بهم (قل) تحقيقا للحق وارشادا لهم اليه (الله خالق كل شىء) كافة لاخالق سواه

فيشاركه في استحقاق العبادة (وهو الواحد) المتوحد بالالوهية المتفرد بالربوبية (القهار) لكل ما سواه فكيف يتوهم أن يكون له شريك وبعد ما مثل المشرك والشرك بالاعمى والظلمات والموحد والتوحيد بالبصير والنور مثل الحق الذي هو القرآن العظيم في فيضانه من جناب القدس على قلوب خالية عنه متفاوتة الاستعداد وفي جريانه عليها ملاحظة وحفظا وعلى الالسنة مذاكرة وتلاوة وفي ثباته فيها مع كونه ممدا لحياتها الروحانية وما يتلوها من الملكات السنية والاعمال المرضية بالماء النازل من السماء السائل في أودية يابسة لم تجر عادتها بذلك سيلانا مقدرا بمقدار اقتضته الحكمة في احياء الارض وما عليها الباقي فيها حسبما يدور عليه منافع الناس وفي كونه حلية تتحلى به النفوس وتصل الى البهجة الابدية ومتاعا يتمتع به في المعاش والمعاد بالذهب والفضة وسائر الفلزات التي يتخذ منها أنواع الآلات والادوات وتبقى منتفعا بها مدة طويلة ومثل الباطل الذي ابتلي به الكفرة لقصور نظرهم بما يظهر فيهما من غير مداخلة له فيهما واخلال بصفاتهما من الزبد الرابي فوقهما المضمحل سريعا فقيل (أنزل من السماء) أي من جهتها (ماء) أي كثيرا أو نوعا منه وهو ماء المطر (فسالت) بذلك (أودية) واقعة في مواقعه لا جميع الاودية اذ الامطار لا تستوعب الاقطار وهو جمع واد وهو مفرج بين جبال أو تلال أو آكام على الشذوذ كناد وأندية وناج وأنجية قالوا وجهه أن فاعلا يجيء بمعنى فعيل كناصر ونصير وشاهد وشهيد وعالم وعليم وحيث جمع فعيل على أفعلة كجريب وأجربة جمع فاعل أيضا على أفعلة فان أريد بها ما يسيل فيها مجازا فاسناد السيلان اليها حقيقي وان أريد معناها الحقيقي فالاسناد مجازي كما في جرى النهر. وايثار التمثيل بها على الانهار المستمرة الجريان لوضوح المماثلة بين شأنها وشأن ما مثل بها كما أشير اليه (بقدرها) أي سالت ملتبسة بمقدارها الذي عينه الله تعالى واقتضته حكمته في نفع الناس أو بمقدارها المتفاوت قلة وكثرة بحسب تفاوت محالها صغرا وكبرا لا بكونها مالئة لها منطبقة عليها بل بمجرد قلتها بصغرها المستلزم لقلة موارد الماء وكثرتها بكبرها المستدعي لكثرة الموارد فان مورد السيل الجاري في الوادي الصغير أقل من مورد السيل الجاري في الوادي الكبير هذا ان أريد بالأودية ما يسيل فيها أما ان أريد بها معناها الحقيقي فالمعنى سالت مياهها بقدر تلك الأودية على نحو ما عرفته آنفا أو يراد بضميرها مياهها بطريق الاستخدام ويراد بقدرها ما ذكر أولا من المعنيين (فاحتمل السيل) الجاري في تلك الأودية أي حمل معه (زبدا) أي غثاء ورغوة وانما وصف ذلك بقوله تعالى (رابيا) أي عاليا منتفخا فوقه بيانا لما أريد بالاحتمال المتضمن لكون المحمول غير طاف كالأشجار

الثقيلةوانما لم يدفع ذلك الاحتمال بأن يقال فاحتمل السيل فوقه للايذان بأن تلك الفوقية مقتضى شأن الزبد لامن جهة المحتمل تحقيقا للمماثلة بينه وبين مامثل به من الباطل الذى شأنه الظهور فى بادى الرأى من غير مداخلة فى الحق (ومما يوقدون عليه فى النار) أى يفعلون الايقاد عليه كائنا فى النار و الضمير للناس أضمر مع عدم سبق الذكر لظهوره وقرىء بالخطاب (ابتغاء حلية أو متاع) أى لطلب اتخاذ حلية وهى مايتزين ويتجمل به كالحلى المتخذة من الذهب والفضة أو اتخاذ متاع وهو مايتمتع به من الاوانى والآلات المتخذة من الرصاص والحديد وغير ذلك من الفلزات (زبد) خبث (مثله) مثل ماذكر من زبد الماء فى كونه رابيا فوقه فقوله زبد مبتدأ خبره الظرف المقدم ومن ابتدائية دالة على مجرد كونه مبتدأ وناشئا منه لاتبعيضية معربة عن كونه بعضا منه كما قيل لاخلال ذلك بالتمثيل وفى التعبير عن ذلك بالموصول والتعرض لما فى حيز الصلة من ايقاد النار عليه جرى على سنن الكبرياء باظهار التهاون به كما فى قوله تعالى «فأوقد لى ياهامان على الطين» واشارة الى كيفية حصول الزبد منه بذوبانه وفى زيادة فى النار اشعار بالمبالغة فى الاعتمال للاذابة وحصول الزبد كما أشير اليه وعدم التعرض لاخراجه من الارض لعدم دخل ذلك العنوان فى التمثيل كما أن لعنوان انزال الماء من السماء دخلا فيه حسبما فصل فيما سلف بل له اخلال بذلك (كذلك) أى مثل ذلك الضرب البديع المشتمل على نكت رائقة (يضرب الله الحق والباطل) أى مثل الحق ومثل الباطل والحذف للانباء عن كمال التماثل بين الممثل والممثل به كان المثل المضروب عين الحق والباطل وبعد تحقيق التمثيل مع الايماء فى تضاعيف ذلك الى وجوه المماثلة على أبدع وجوه وآنقها حسبما أشير إليه فى مواقعها بين عاقبة كل من الممثلين على وجه التمثيل مع التصريح ببعض ما به المماثلة من الذهاب والبقاء تتمة للغرض من التمثيل من الحث على اتباع الحق الثابت والردع عن الباطل الزائد فقيل (فأما الزبد) من كل منهما (فيذهب جفاء) أى مرمياً به وقرىء جفالا والمعنى واحد (وأما ماينفع الناس) منهما كالماء الصافى والفلز الخالص (فيمكث فى الارض) أما الماء فيثبت بعضه فى مناقعه ويسلك بعضه فى عروق الارض الى العيون والقنا والآبار وأما الفلز فيصاغ من بعضه أنواع الحلى ويتخذ من بعضه أصناف الآلات والادوات فينتفع بكل من ذلك أنواع الانتفاعات مدة طويلة فالمراد بالمكث فى الارض ما هو أعم من المكث فى نفسها ومن البقاء فى أيدى المتقلبين فيها وتغيير ترتيب اللف الواقع فى الفذلكة الموافق للترتيب الواقع فى التمثيل لمراعاة الملاءمة بين حالتى الذهاب والبقاء وبين ذكريهما فان المعتبر إنما هو بقاء الباقى بعد ذهاب الذاهب لا قبله (كذلك يضرب الله) أى

مثل ذلك الضرب العجيب يضرب الله (الأمثال) فى كل باب إظهاراً لكمال اللطف والعناية فى الارشاد والهداية وفيه تفخيم لشأن هذا التمثيل وتأكيد لقوله كذلك يضرب الله الحق والباطل اما باعتبار ابتناء هذا على التمثيل الاول أو بجعل ذلك اشارة اليهما جميعا وبعد مابين شأن كل من الحق والباطل حالا ومآلا أكمل بيان شرع فى بيان حال أهل كل منهما مآلا تكميلا للدعوة ترغيبا وترهيبا فقيل (للذين استجابوا لربهم) إذ دعاهم الى الحق بفنون الدعوة التى من جملتها ضرب الامثال فانه ألطف ذريعة إلى تفهيم القلوب الغبية وأقوى وسيلة إلى تسخير النفوس الأبية كيف لا وهو تصوير للمعقول بصورة المحسوس وإبراز لأوابد المعانى فى هيئة المأنوس فأى دعوة أولى منه بالاستجابة والقبول (الحسنى) أى المثوبة الحسنى وهى الجنة (والذين لم يستجيبوا له) وعاندوا الحق الجلى (لو أن لهم ما فى الأرض) من أصناف الأموال (جميعا) بحيث لم يشذ منه شاذ فى أقطارها أو مجموعا غير متفرق بحسب الأزمان (ومثله معه لافتدوا به) أى بما فى الأرض ومثله معه جميعا ليتخلصوا عما بهم. وفيه من تهويل مايلقاهم مالا يحيط به البيان فالموصول مبتدأ والشرطية كما هى خبره لكن لا على أنها وضعت موضع السوأى فوقعت فى مقابلة الحسنى الواقعة فى القرينة الأولى لمراعاة حسن المقابلة فصار كأنه قيل وللذين لم يستجيبوا له السوأى كما توهم فان الشرطية وإن دلت على كمال سوء حالهم لكنها بمعزل من القيام مقام لفظ السوأى مصحوبا باللام الداخلة على الموصول أو ضميره وعليه يدور حصول المرام وانما الواقع فى تلك المقابلة سوء الحساب فى قوله تعالى (أولئك لهم سوء الحساب) وحيث كان اسم الاشارة الواقع مبتدأ فى هذه الجملة عبارة عن الموصول الواقع مبتدأ فى الجملة السابقة كان خبرها أعنى الجملة الظرفية خبرا عن الموصول فى الحقيقة ومبينا لابهام مضمون الشرطية الواقعة خبرا عنه أولا ولذلك ترك العطف فصار كأنه قيل والذين لم يستجيبوا له لهم سوء الحساب وذلك فى قوة أن يقال وللذين لم يستجيبوا له سوء الحساب مع زيادة تأكيد فتم حسن المقابلة على أبلغ وجه وآكده ثم بين مؤدى ذلك فقيل (ومأواهم) أى مرجعهم (جهنم) وفيه نوع تأكيد لتفسير الحسنى بالجنة (وبئس المهاد) أى المستقر والمخصوص بالذم محذوف وقيل اللام فى قوله تعالى «للذين استجابوا لربهم» متعلقة بقوله يضرب الله الامثال أى الامثال السالفة وقوله الحسنى صفة للمصدر أى استجابوا الاستجابة الحسنى وقوله والذين لم يستجيبوا له معطوف على الموصول الاول وقوله لو أن لهم الخ كلام مستأنف مسوق لبيان ماأعد لغير المستجيبين من العذاب والمعنى كذلك يضرب الله الامثال للمؤمنين المستجيبين والكافرين المعاندين أى هما

مثلا الفريقين. وأنت خبير بأن عنوان الاستجابة وعدمها لامناسبة بينه وبين مايدور عليه أمر التمثيل وأن الاستعمال المستفيض دخول اللام على من يقصد تذكيره بالمثل نعم قد يستعمل فى هذا المعنى أيضا كما فى قوله سبحانه «ضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون» ونظائره على أن بعض الامثال المضروبة لاسيما المثل الاخير الموصول بالكلام ليس مثل الفريقين بل مثل للحق والباطل ولا مساغ لجعل الفريقين مضروبا لهم أيضا بأن يجعل فى حكم أن يقال كذلك يضرب الله الامثال للناس اذ لاوجه حينئذ لتنويعهم الى المستجيبين وغير المستجيبين فتأمل (أفمن يعلم أن ماأنزل إليك من ربك) من القرآن الذى مثل بالماء المنزل من السماء والابريز الخالص فى المنفعة والجدوى (الحق) الذى لاحق وراءه أوالحق الذى أشير اليه بالامثال المضروبة فيستجيب له (كمن هو أعمى) عمى القلب لايشاهده وهو نار على علم ولايقدر قدره وهو فى أقصى مراتب العلو والعظم فيبقى حائرا فى ظلمات الجهل وغياهب الضلال أولا يتذكر بما ضرب من الامثال أى كمن لايعلم ذلك الا أنه أريد زيادة تقبيح حاله فعبر عنه بالاعمى. وايراد الفاء بعد الهمزة لتوجيه الانكار الى ترتب توهم المماثلة على ظهور حال كل منهما بما ضرب من الامثال وبين المصير والمآل كأنه قيل أبعد مابين حال كل من الفريقين ومآلهما يتوهم المماثلة بينهما ثم استؤنف فقيل (إنما يتذكر) بما ذكر من المذكرات فيقف على ما بينهما من التفاوت والتنائى (أولو الالباب) أى العقول الخالصة المبرأة من مشايعة الالف ومعارضة الوهم (الذين يوفون بعهد الله) بما عقدوا على أنفسهم من الاعتراف بربوبيته تعالى حين قالوا بلى أوماعهد الله عليهم فى كتبه (ولاينقضون الميثاق) ماوثقوه على أنفسهم وقبلوه من الايمان بالله وغيره من المواثيق بينهم وبين الله وبين العباد وهو تعميم بعد تخصيص وفيه تأكيد للاستمرار المفهوم من صيغة المستقبل (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل) من الرحم وموالاة المؤمنين والايمان بجميع الانبياء المجمعين على الحق من غير تفريق بين أحد منهم ويندرج فيه مراعاة جميع حقوق الناس بل حقوق كل ما يتعلق بهم من الهر والدجاج (ويخشون ربهم) خشية جلال وهيبة ورهبة فلا يعصونه فيما أمر به ويخافون (سوء الحساب) فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا وفيه دلالة على كمال فظاعته حسبما ذكرنا قبل (والذين صبروا) على كل ما تكرهه النفس من الافعال والتروك (ابتغاء وجه ربهم) طالبا لرضاه خاصة من غير أن ينظروا الى جانب الخلق رياء وسمعة ولا الى جانب النفس زينة وعجبا وحيث كان الصبر على

الوجه المذكور ملاك الأمر فى كل ماذكر من الصلات السابقة واللاحقة أورد على صيغة الماضى اعتناء بشأنه ودلالة على وجوب تحققه فان ذلك مما لابد منه اما فى أنفس الصلات كما فيما عدا الاولى والرابعة والخامسة أو فى اظهار أحكامها كما فى الصلات الثلاث المذكورات فانها وان استغنت عن الصبر فى أنفسها حيث لامشقة على النفس الاعتراف بالربوبية والخشية والخوف لكن إظهار أحكامها والجرى على موجبها غير خال عن الاحتياج اليه (وأقاموا الصلوة) المفروضة (وأنفقوا مما رزقناهم) أى بعضه الذى يجب عليهم انفاقه (سرا) لمن لم يعرف بالمال أو لمن لايتهم بترك الزكاة أو عند انفاقه واعطائه من تمنعه المروءة من أخذه ظاهرا (وعلانية) لمن لم يكن كما ذكر أو الأول فى التطوع والثانى فى الفرض (ويدرءون بالحسنة السيئة) أى يجازون الاساءة بالاحسان أو يتبعون الحسنة السيئة فتمحوها عن ابن عباس رضى الله عنهما يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سيء غيرهم وعن الحسن اذا حرموا أعطوا واذا ظلموا أعفوا واذا قطعوا وصلوا وعن ابن كيسان اذا أذنبوا تابوا وقيل إذا رأوا منكرا أمروا بتغييره وتقديم المجرور على المنصوب لاظهار كمال العناية بالحسنة (أولئك) المنعوتون بالنعوت الجليلة والملكات الجميلة وهو مبتدأ خبره الجملة الظرفية أعني قوله تعالى (لهم عقبى الدار) أى عاقبة الدنيا وما ينبغى أن يكون مآل أمر أهلها وهى الجنة وقيل الجار والمجرور خبر لأولئك وعقبى الدار فاعل الاستقرار وأياما كان فليس فيه قصر حتى يرد أن بعض ما فى حيز الصلة ليس من العزائم التى يخل اخلالها بالموصول الى حسن العاقبة والجملة خبر للموصولات المتعاطفة أو استئناف لبيان ما استوجبوه بتلك الصفات ان جعلت الموصولات المتعاطفة صفات لاولى الألباب على طريقة المدح من غير أن يقصد أن يكون للصلاة المذكورة مدخل فى التذكر (جنات عدن) بدل من عقبى الدار أو مبتدأ خبره (يدخلونها) والعدن الاقامة ثم صار علما لجنة من الجنات أى جنات يقيمون فيها وقيل هو بطنان الجنة (ومن صلح من آبائهم) جمع أبوى كل واحد منهم فكانه قيل من آبائهم وأمهاتهم (وأزواجهم وذرياتهم) وهو عطف على المرفوع فى يدخلون وانما ساغ ذلك للفصل بالضمير الآخر أو مفعول معه والمعنى أنه يلحق بهم من صلح من أهلهم وان لم يبلغ مبلغ فضلهم تبعا لهم تعظيما لشأنهم وهو دليل على أن الدرجة تعلو بالشفاعة وأن الموصوف بتلك الصفات يقرن بعضهم ببعض لما بينهم من القرابة والوصلة فى دخول الجنة زيادة فى أنسهم وفى التقييد بالصلاح قطع للاطماع الفارغة لمن يتمسك بمجرد

حبل الانساب (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب) من أبواب المنازل أو من أبواب الفتوح والتحف قائلين (سلام عليكم) بشارة لهم بدوام السلامة (بماصبرتم) متعلق بعليكم أو بمحذوف أى هذه الكرامة العظمى بما صبرتم أى بسبب صبركم أو بدل ما احتملتم من مشاق الصبر ومتاعبه والمعنى لئن تعبتم فى الدنيا لقداسترحتم الساعة وتخصيص الصبر بماذكر من بين الصلات السابقة لما قدمناه من أن له دخلا فى كل منها ومزية زائدة من حيث انه ملاك الامر فى كل منها وأن شيئامنها لا يعتدبه الا ان يكون لابتغاء وجه الرب تعالى وتقدس (فنعم عقبى الدار) أى فنعم عقبى الدار الجنة وقرىء بفتح النون والاصل نعم فسكن العين بنقل حركتها الى النون تارة وبدونه أخرى وعن النبي عليه السلام انه كان يأتى قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار وكذا عن الخلفاء الاربعة رضوان الله عليهم أجمعين (والذين ينقضون عهد الله) أريد بهم من يقابل الاولين ويعاندهم فى الاتصاف بنقائض صفاتهم (من بعد ميثاقه) من بعدما أوثقوه من الاعتراف والقبول (ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل) من الايمان بجميع الانبياء المجمعين على الحق حيث يؤمنون ببعضهم ويكفرون ببعضهم ومن حقوق الارحام وموالاة المؤمنين وغير ذلك مما لا يراعون حقوقه من الامور المعدودة فيما سلف وانما لم يتعرض لنفى الخشية والخوف عنهم صريحا لدلالة النقض والقطع على ذلك وأما عدم التعرض لنفى الصبر المذكور فلأنه انما اعتبر تحققه فى ضمن الحسنات المعدودة ليقعن معتدا بهن فلا وجه لنفيه عمن بينه وبين الحسنات بعد المشرقين كما لاوجه لنفى الصلاة والزكاة ممن لا يحوم حول أصل الايمان بالله تعالى فضلا عن فروع الشرائع وان أريد بالانفاق التطوع فنفيه مندرج تحت قطع ما أمر الله تعالى بوصله وأما درء السيئة بالحسنة فانتفاؤه عنهم ظاهر مما سبق ولحق فان من يجازى احسانه عز وجل بنقض العهد ومخالفة الامر ويباشر الفساد بدأ حسبما يحكيه قوله عز وعلا (ويفسدون فى الارض) أى بالظلم وتهييج الفتن كيف يتصور منه مجازاة الاساءة بالاحسان على أن ذلك يشعر بان له دخلا فى الافضاء الى العقوبة التي ينبىء عنها قوله تعالى (أولئك) الخ أى أولئك الموصوفون بما ذكر من القبائح (لهم) بسبب ذلك (اللعنة) أى الابعاد من رحمة الله تعالى (ولهم) مع ذلك (سوء الدار) أى سوء عاقبة الدنيا أو عذاب جهنم فانها دارهم لان ترتيب الحكم على الموصول مشعر بعلية الصلة له ولا يخفى أنه لادخل له فى ذلك على أكثر التفاسير فان مجازاة السيئة بمثلها مأذون فيها ودفع الكلام السيء

بالحسن وكذا الاعطاء عند المنع والعفو عند الظلم والوصل عند القطع ليس مما يورث تركه تبعة وأما ما اعتبر اندراجه تحت الصلة الثانية من الاخلال ببعض الحقوق المندوبة فلا ضير فى ذلك لان اعتباره من حيث انه من مستتبعات الاخلال بالعزائم بالكفر ببعض الانبياء وعقوق الوالدين وترك سائر الحقوق الواجبة وتكرير لهم للتأكيد والايذان باختلافهما واستقلال كل منهما فى الثبوت (الله يبسط الرزق) أى يوسعه (لمن يشاء)من عباده(ويقدر) أى يضيقه على من يشاء حسبما تقتضيه الحكمة من غير أن يكون لاحد مدخل فى ذلك ولا شعور بحكمته فربما يبسطه للكافر املاء واستدراجا وربما يضيقه على المؤمن زيادة لاجره فلا يغتر ببسطه الكافر كما لا يقنط بقدره المؤمن (وفرحوا) أى أهل مكة فرح أشر وبطر لا فرح سرور بفضل الله تعالى (بالحيوة الدنيا) وما بسط لهم فيها من نعيمها (وما الحياة الدنيا) وما يتبعها من النعيم (فى الآخرة) أى فى جنب نعيم الآخرة (الامتاع) الا شىء نزر يتمتع به كعجالة الراكب وزاد الراعى والمعنى انهم رضوا بحظ الدنيا معرضين عن نعيم الآخرة والحال أن ما أشروا به فى جنب ما أعرضوا عنه شىء قليل النفع سريع النفاد (ويقول الذين كفروا) أى أهل مكة وايثار هذه الطريقة على الاضمار مع ظهور ارادتهم عقيب ذكر فرحهم بالحياة الدنيا لذمهم والتسجيل عليهم بالكفر فيما حكى عنهم من قولهم (لولا أنزل عليه آية من ربه) فان ذلك فى أقصى مراتب المكابرة والعناد كان ما أنزل عليه عليه السلام من الآيات العظام الباهرة ليس بآية حتى اقترحوا ما لا تقتضيه الحكمة من الآيات المحسوسة التى لا يبقى لاحد بعد ذلك طاقة بعدم القبول ولذلك أمر فى الجواب بقوله تعالى (قل ان الله يضل من يشاء) اضلاله مشيئة تابعة للحكمة الداعية اليها أى يخلق فيه الضلال لصرفه اختياره الى تحصيله ويدعه منهمكا فيه لعلمه بأنه لا ينجع فيه اللطف ولا ينفعه الارشاد كمن كان على صفتكم فى المكابرة والعناد وشدة الشكيمة والغلو فى الفساد فلا سبيل له الى الاهتداء ولو جاءته كل آية (ويهدى اليه) أى الى جنابه العلى الكبير هداية موصلة اليه لا دلالة مطلقة على ما يوصل اليه فان ذلك غير مختص بالمهتدين وفيه من تشريفهم ما لا يوصف (من أناب) أقبل الى الحق وتأمل فى تضاعيف ما نزل من دلائله الواضحة وحقيقة الانابة الدخول فى نوبة الخير وايثار ايرادها فى الصلة على ايراد المشيئة كما فى الصلة الاولى للتنبيه على الداعى الى الهداية بل الى مشيئتها والاشعار بما دعا الى المشيئة الاولى المكابرة وفيه حث للكفرة على الاقلاع عما هم عليه من العتو والعناد وايثار صيغة

الماضى للايماء الى استدعاء الهداية لسابقة الانابة كما أن ايثار صيغة المضارع فى الصلة الاولى للدلالة على استمرار المشيئة حسب استمرار مكابرتهم (الذين آمنوا) بدل ممن أناب فان أريد بالهداية الهداية المستمرة فالامر ظاهر لظهور كون الايمان مؤديا اليها وان أريد احداثها فالمراد بالذين آمنوا الذين صار أمرهم الى الايمان كما فى قوله تعالى هدى للمتقين أى الصائرين الى التقوى والا فالايمان لا يؤدى الى الهداية نفسها أو خبر مبتدأ محذوف أى هم الذين آمنوا أو منصوب على المدح (وتطمئن قلوبهم) أى تستقر وتسكن (بذكر الله) بكلامه المعجز الذى لا ريب فيه كقوله تعالى وهذا ذكر مبارك أنزلناه وقوله انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون ويعلمون أن لا آية أعظم منه فيقترحوها والعدول الى صيغة المضارع لافادة دوام الاطمئنان وتجدده حسب تجدد الآيات وتعددها (ألا بذكر الله) وحده (تطمئن القلوب) دون غيره من الامور التى تميل اليها النفوس من الدنياويات وهذا ظاهر وأما سائر المعجزات فالقصر من حيث انها ليست فى افادة الطمأنينة بالنسبة الى من لم يشاهدها بمثابة القرآن المجيد فانه معجزة باقية الى يوم القيامة يشاهدها كل أحد وتطمئن به القلوب كافة وفيه اشعار بأن الكفرة ليست لهم قلوب وأفئدتهم هواء حيث لم يطمئنوا بذكر الله تعالى ولم يعدوه آية وهو أظهر الآيات وأبهرها وقيل تطمئن قلوبهم بذكر رحمته ومغفرته بعد القلق والاضطراب من خشيته كقوله تعالى ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله أو بذكر دلائله الدالة على وحدانيته أو بذكره جل وعلا أنساً به وتبتلا اليه فالمراد بالهداية دوامها واستمرارها (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) بدل من القلوب على حذف المضاف بدل الكل حسبما رمز اليه أى قلوب الذين آمنوا وفيه ايماء الى أن الانسان انما هو القلب أو مبتدأ خبره الجملة الدعائية على التأويل أعنى قوله (طوبى لهم) أو خبر مبتدا مضمر أو نصب على المدح فطوبى لهم حال عاملها الفعلان وطوبى مصدر من طاب كبشرى وزلفى والواو منقلبة من الياء كموقن وموسر وقرأ مكوزة الاعرابى طيبى لتسلم الياء والمعنى أصابوا خيرا ومحلها النصب كسلاما لك أو الرفع على الابتداء وان كانت نكرة لكونها فى معنى الدعاء كسلام عليك يدل على ذلك القراءة فى قوله تعالى (وحسن مآب) بالنصب والرفع واللام فى لهم للبيان مثلها فى سقيا لك (كذلك) مثل ذلك الارسال العظيم الشأن المصحوب بهذه المعجزة الباهرة أرسلناك فى أمة قد خلت) أى مضت (من قبلها أمم) كثيرة وقد أرسل اليهم رسل (لتتلو) لتقرأ (عليهم الذى أوحينا اليك) من الكتاب العظيم الشأن

وتهديهم الى الحق رحمة لهم وتقديم المجرور على المنصوب من قبيل الابهام ثم البيان كما فى قوله تعالى ووضعنا عنك وزرك وفيه مالا يخفى من ترقب النفس الى ماسيرد وحسن قبولها لهعند وروده عليها (وهم) أى والحال أنهم (يكفرون بالرحمن) بالبليغ الرحمة الذىوسعت كل شيء رحمتهوأحاطت بهنعمتهوالعدول الىالمظهر المتعرض لوصف الرحمة من حيث ان الارسال ناشيء منها كما قال تعالى وما أرسلناك الا رحمة للعالمين فلم يقدروا قدره ولم يشكروا نعمه لاسيما ما أنعم به عليهم بارسال مثلك اليهم وانزال القرآن الذى هو مدار المنافع الدينية والدنياوية عليهم وقيل نزلت فى مشركى مكة حين أمروا بالسجود فقالوا وما الرحمن (قل هو) أى الرحمن الذي كفرتم به وأنكرتم معرفته (ربى) الرب فى الأصل بمعنى التربية وهى تبليغ الشيء الى كماله شيئاً فشيئاً ثم وصف به مبالغة كالصوم والعدل وقيل هو نعت أى خالقى ومبلغى الىمراتب الكمال وايراده قبل قوله (لااله الا هو) أى لامستحق للعبادة سواه تنبيه على أن استحقاق العبادة منوط بالربوبية وقيل ان أبا جهل سمع النبى عليه السلام يقول يا ألله يارحمن فرجع الى المشركين فقال ان محمدا يدعو إلهين فنزلت ونزل قوله تعالى قلادعوا الله أو ادعوا الرحمن الآية (عليه توكلت) فى جميع أمورى لاسيما فى النصرة عليكم لاعلى أحد سواه (واليه) خاصة (متاب) أى توبتى كقوله تعالى واستغفر لذنبك أمرعليهالسلامبذلك ابانة لفضل التوبة ومقدارهاعند الله تعالى وانها صفة الأنبياء وبعثا للكفرة على الرجوع عما هم عليه بأبلغ وجه وألطفه فانه عليه السلام حيث أمر بها وهو منزه عن شائبة اقتراف مايوجبها من الذنبوإن قل فتوبتهم وهم عاكفون على أنواع الكفر والمعاصى مما لابد منه أصلا وقد فسر المتاب بمطلق الرجوع فقيل مرجعى ومرجعكم وزيد فيحكم بينى وبينكم وقد قيل فيثيبنى على مصابرتكمفتأمل (ولو أن قرآنا) أى قرآنا ما وهو اسم أن والخبر قوله تعالى (سيرت به الجبال) وجواب لو محذوف لانسياق الكلاماليه بحيثيتلقفهالسامع من التالى والمقصود أما بيان عظم شأن القرآن العظيم وفساد رأى الكفرة حيث لم يقدروا قدره العلى ولمبعدوه من قبيل الآياتفاقترحوا غيره مما أوتى موسى وعيسى عليهما السلام وأما بيان غلوهم فى المكابرة والعناد وتماديهم فى الضلال والفساد فالمعني على الأول لو أن قرآنا سيرتبهالجبال أى بانزاله أو بتلاوته عليها وزعزعت عن مقارها كما فعل ذلك بالطور لموسى عليه الصلاة والسلام (أو قطعت به الأرض) أى شققت وجعلت أنهارا وعيونا كما فعل بالحجرحين ضربهعليه السلام بعصاه أو جعلت

قطعا متصدعة (أو كلم به الموتى) أى بعد أن أحيى بقراءته عليها كما أحييت لعيسى عليه السلام لكان ذلك هذا القرآن لكونه الغاية القصوى فى الانطواء على عجائب آثار قدرة الله تعالى وهيبته عز وجل كقوله تعالى لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله لا فى الأعجاز إذ لا مدخل له فى هذه الآثار ولا فى التدبير والانذار والتخويف لاختصاصها بالعقلاء مع أنه لا علاقة لها بتكليم الموتى واعتبار فيض العقول اليها مخل بالمبالغة المقصودة وتقديم المجرور فى المواضع الثلاثة على المرفوع لما مر غير مرة من قصد الابهام ثم التفسير لزيادة التقرير لأن بتقديم ماحقه التأخير تبقى النفس مستشرفة ومترقبة الى المؤخر أنه ماذا فيتمكن عند وروده عليها فضل تمكن وكلمة أو فى الموضعين لمنع الخلو لا لمنع الجمع واقتراحهم وإن كان متعلقا بمجرد ظهور مثل هذه الأفاعيل العجيبة على يده عليه السلام لا بظهورها بواسطة القرآن لكن ذلك حيث كان مبنيا على عدم اشتماله فى زعمهم على الخوارق نيط ظهورها به مبالغة فى بيان اشتماله عليها وأنه حقيق بأن يكون مصدر الكل خارق وإبانة لركاكة رأيهم فى شأنه الرفيع كأنه قيل لو أن ظهور أمثال ما اقترحوه من مقتضيات الحكمة لكان مظهرها هذا القرآن الذى لم يعدوه آية وفيه من تفخيم شأنه العزيز ووصفهم بركاكة العقل مالا يخفى (بل لله الأمر جميعا) أى له الأمر الذى عليه يدور فلك الأكوان وجودا وعدما يفعل مايشاء ويحكم مايريد لما يدعو اليه من الحكم البالغة وهو اضراب عما تضمنته الشرطية من معنى النفى لا بحسب منطوقه بل باعتبار موجبه ومؤداه أى لو أن قرآنا فعل به ماذكر لكان ذلك هذا القرآن ولكن لم يفعل بل فعل ماعليه الشأن الآن لان الأمر كله له وحده فالاضراب ليس بمتوجه الى كون الأمر لله سبحانه بل الى مايؤدى اليه ذلك من كون الشأن على ماكان لما تقضيه الحكمة من بناء التكليف على الاختيار (أفلم ييأس الذين آمنوا) أى أفلم يعلموا على لغة هوازن أو قوم من النخع أو على استعمال اليأس فى معنى العلم لتضمنه له ويؤيده قراءة على وابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أفلم يتبين بطريق التفسير والفاء للعطف على مقدر أي أغفلوا عن كون الامر جميعا لله تعالى فلم يعلموا (أن لو يشاء الله) على حذف ضمير الشأن وتخفيف أن (لهدى الناس جميعا) باظهار أمثال تلك الآثار العظيمة فالانكار متوجه الى المعطوفين جميعا أو أعلموا كون الامر جميعا لله فلم يعلموا مايوجبه ذلك العلم مما ذكر فهو متوجه الى ترتب المعطوف على المعطوف عليه أي تخلف العلم الثانى عن العلم الاول وعلى التقديرين فالانكار انكار الوقوع كما فى قوله تعالى ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا

لا انكار الواقع كما فى قولك ألم تخف الله حتى عصيته ثم ان مناط الانكار ليس عدم علمهم بمضمون الشرطية فقط بل مع عدم علمهم بعدم تحقق مقدمها كأنه قيل ألم يعلموا أن الله تعالى لو شاء هدايتهم لهداهم وانه لم يشاءها وذلك لانهم كانوا يودون أن يظهر ما اقترحوا من الآيات ليجتمعوا على الايمان وعلى الثانى لو أن قرآنا فعل به ما فعل من التعاجيب لما آمنوا به كقوله تعالى ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى الآية فالاضراب حينئذ متوجه الى ماسلف من اقتراحهم مع كونهم فى العناد على ماشرح أى فليس لهم ذلك بل لله الامر جميعا انشاء أتى بما اقترحوا وان شاء لم يأت به حسبما تستدعيه داعية الحكمة من غير أن يكون لاحد عليه تحكم أو اقتراح واليأس بمعنى القنوط أى ألم يعلم الذين آمنوا حالهم هذه فلم يقنطوا من ايمانهم حتى أحبوا ظهور مقترحاتهم فالانكار متوجه الى المعطوفين أو أعلموا ذلك فلم يقنطوا من إيمانهم فهو متوجه الى وقوع المعطوف بعد المعطوف عليه أى الى تخلف القنوط عن العلم المذكور والانكار على التقديرين انكار الواقع كما فى قوله تعالى أفلا تتقون ونظائره لا انكار الوقوع فان عدم قنوطهم منه مما لا مرد له وقوله تعالى أن لو يشاء الله الخ متعلق بمحذوف أى أفلم ييأسوا من ايمانهم علما منهم أو عالمين بأنه لو يشاء الله لهدى الناس جميعا وانه لم يشأ ذلك أو بآمنوا أى أفلم يقنط الذين آمنوا بأن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا على معنى أفلم ييأس من ايمانهم المؤمنون بمضمون الشرطية وبعدم تحقق مقدمها المنفهم من مكابرتهم حسبما تحكيه كلمة لو فالوصف المذكور من دواعى انكار يأسهم وقيل ان أبا جهل وأضرابه قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان كنت نبياً فسير بقرآنك الجبال عن مكة حتى تتسع لنا وتتخذ فيها البساتين والقطائع وقد سخرت لداود عليه السلام فلست بأهون على الله منه ان كنت نبيا كما زعمت أو سخر لنا به الريح كما سخرت لسليمان عليه السلام لنتجر عليها الى الشام فقد شق علينا قطع الشقة البعيدة أو ابعث لنا به رجلين أو ثلاثة ممن مات من أبنائنا فنزلت فمعنى تقطيع الارض حينئذ قطعها بالسير ولا حاجة حينئذ الى الاعتذار فى اسناد الافاعيل المذكورة الى القرآن كما احتيج اليه فى الوجهين الاولين وعن الفراء أنه متعلق بماقبله من قوله وهم يكفرون بالرحمن وما بينهما اعتراض وهو بالحقيقة دال على الجواب والتقدير ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الارض أو كلم به الموتى لكفروا بالرحمن والتذكير فى كلم به الموتى لتغليب المذكر من الموتى على غيره (ولا يزال الذين كفروا) من أهل مكة (تصيبهم بما صنعوا) أى بسبب ما صنعوه من الكفر والتمادى فيه وعدم بيانه اما للقصد الى

تهويله أو استهجانه وهو تصريح بما أشعر به بناء الحكم على الموصول من علية الصلة له مع ما فى صيغة الصنع من الايذان برسوخهم فى ذلك (قارعة) داهية تقرعهم وتقلقهم وهو ما كان يصيبهم من أنواع البلايا والمصائب من القتل والاسر والنهب والسلب وتقديم المجرور على الفاعل لمامر مرارا من ارادة التفسير اثر الابهام لزيادة التقرير والاحكام مع ما فيه من بيان أن مدار الاصابة من جهتهم آثر ذى أثير (أو تحل) تلك القارعة (قريبا) أى مكانا قريبا (من دارهم) فيفزعون منها ويتطاير اليهم شرارها شبهت القارعة بالعدو المتوجه اليهم فأسند اليها الاصابة تارة والحلول أخرى ففيه استعارة بالكناية وتخييل وترشيح (حتى يأتى وعد الله) أى موتهم أو القيامة فان كلا منهما وعد محتوم لامرد له وفيه دلالة على أن مايصيبهم عند ذلك من العذاب فى غاية الشدة وأن ما ذكر سابقة نفحة يسيرة بالنسبة اليه ثم حقق ذلك بقوله تعالى (ان الله لا يخلف الميعاد) أى الوعد كالميلاد والميثاق بمعنى الولادة والتوثقة لاستحالة ذلك على الله سبحانه وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أراد بالقارعة السرايا التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعثها وكانوا بين اغارة واختطاف وتخويف بالهجوم عليهم فى دارهم فالاصابة والحلول حينئذ من أحوالهم ويجوز على هذا أن يكون قوله تعالى أو تحل قريبا من ديارهم خطابا للرسول صلى الله عليه وسلم مرادا به حلوله الحديبية والمراد بوعد الله ما وعد به من فتح مكة (ولقد استهزىء برسل) كثيرة خلت (من قبلك فامليت للذين كفروا) أى تركتهم ملاوة من الزمان فى أمن ودعة كما يملى للبهيمة فى المرعى وهذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما لقى من المشركين من التكذيب والاقتراح على طريقة الاستهزاء به ووعيد لهم والمعنى ان ذلك ليس مختصا بك بل هو أمر مطرد قد فعل ذلك برسل كثيرة كائنة من قبلك فأمهلت الذين فعلوه بهم والعدول فى الصلة الى وصف الكفر ليس لان المملى لهم غير المستهزئين بل لارادة الجمع بين الوصفين أى فأمليت للذين كفروا مع استهزائهم لا باستهزائهم فقط (ثم أخذتهم فكيف كان عقاب) أى عقابى اياهم وفيه من الدلالة على تناهى كيفيته فى الشدة والفظاعة مالا يخفى (أفمن هو قائم) أى رقيب مهيمن (على كل نفس) كائنة من كانت (بما كسبت) من خير أو شر لا يخفى عليه شىء من ذلك بل يجازى كلا بعمله وهو الله تعالى والخبر محذوف أى كمن ليس كذلك انكارا لذلك وادخال الفاء لتوجيه الانكار الى توهم المماثلة غب ماعلم مما فعل تعالى بالمستهزئين من الاملاء المديد والاخذ الشديد ومن كون الامر كله لله تعالى وكون هداية الناس جميعا منوطة

بمشيئته تعالى ومن تواتر القوارع على الكفرة الى أن يأتى وعد الله كأنه قيل أألامر كذلك فمن هذا شأنه كما ليس فى عداد الأشياء حتى تشركوه به فالانكار متوجه الى ترتب المعطوف أعنى توهم المماثلة على المعطوف عليه المقدر أعنى كون الأمر كما ذكر كما فى قولك أتعلم الحق فلا تعمل به لاالى المعطوفين جميعاً كما اذا قلت ألا تعلمه فلا تعمل به وقوله تعالى (وجعلوا لله شركاء) جملة مستقلة جيء بها للدلالة على الخبر أو حالية أى أفمن هذه صفاته كما ليس كذلك وقد جعلوا له شركاء لاشريكا واحداً أو معطوفة على الخبر ان قدر مايصلح لذلك أى أفمن هذا شأنه لم يوحدوه وجعلوا له شركاءه وضع المظهر موضع المضمر للتنصيص على وحدانيته ذاتاً واسما وللتنبيه على اختصاصه باستحقاق العبادة مع مافيه من البيان بعد الابهام بايراده موصولا للدلالة على التفخيم وقوله تعالى (قل سموهم) تبكيت لهم أثر تبكيت أى سموهم من هم وماذا أسماؤهم أو صفوهم وانظروا هل لهم مايستحقون به العبادة ويستأهلون الشركة (أم تنبؤنه) أى بل أتنبؤن الله (بما لايعلم فى الارض) أى بشركاء مستحقين للعبادة لايعلمهم الله تعالى ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات والأرض وقرىء بالتخفيف (أم بظاهر من القول) أى بل أتسمونهم بشركاء بظاهر من القول من غير أن يكون له معنى وحقيقة كتسمية الزنجى كافوراً كقوله تعالى ذلك قولهم بأفواههم وهاتيك الاساليب البديعة التي ورد عليها الآية الكريمة منادية على أنها خارجة عن قدرة البشر من كلام خلاق القوى والقدر فتبارك الله رب العالمين (بل زين للذين كفروا) وضع الموصول موضع المضمر ذما لهم وتسجيلا عليهم بالكفر (مكرهم) تمويههم الاباطيل أو كيدهم للأسلام بشركهم (وصدوا عن السبيل) أى سبيل الحق من صده صدا وقرىء بكسر الصاد على نقل حركة الدال اليها وقرىء بفتحها أى صدوا الناس أو من صد صدودا (ومن يضلل الله) أى يخلق فيه الضلال بسوء اختياره أو يخذله (فما له من هاد) يوفقه للهدى (لهم عذاب) شاق (فى الحياة الدنيا) بالقتل والاسر وسائر مايصيبهم من المصائب فانها انما تصيبهم عقوبة على كفرهم (ولعذاب الآخرة أشق) من ذلك بالشدة والمدة (وما لهم من الله) من عذابه المذكور (من واق) من حافظ يعصمهم من ذلك فمن الاولى صلة للوقاية والثانية مزيدة للتأكيد (مثل الجنة) أى صفتها العجيبة الشأن التى فى الغرابة كالمثل (التى وعد المتقون) عن الكفر والمعاصى وهذا مبتدأ خبره محذوف عند سيبويه أى فيما قصصنا عليك مثل الجنة وقوله تعالى (تجرى من تحتها الانهار) تفسير لذلك المثل

على أنه حال من الضمير المحذوف من الصلة العائد الى الجنة أى وعدها وهو الخبر عند غيره كقولك شأن زيد يأتيه الناس ويعظمونه أو على حذف موصوف أى مثل الجنة جنة تجرى الخ (أكلها) ثمرها (دائم) لاينقطع (وظلها) أيضا كذلك لاتنسخه الشمس كما تنسخ ظلال الدنيا (تلك) الجنة المنعوتة بما ذكر (عقبى الذين اتقوا) الكفر والمعاصى أى مآلهم ومنتهى أمرهم (وعقبى الكافرين النار) لاغير وفيه مالا يخفي من اطماع المتقين واقناط الكافرين (والذين آتيناهم الكتاب) هم المسلمون من أهل الكتاب كعبدالله بن سلام وكعب واضرابهما ومن آمن من النصارى وهم ثمانون رجلا أربعون بنجران وثمانية باليمن واثنان وثلاثون بالحبشة (يفرحون بما أنزل اليك) إذ هو الكتاب الموعود فى التوراة والانجيل (ومن الأحزاب) أى من أحزابهم وهم كفرتهم الذين تحزبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعداوة نحو كعب بن الأشرف والسيد والعاقب أسقفى نجران واتباعهما (من ينكر بعضه) وهو الشرائع الحادثة انشاء أو نسخا لاما يوافق ماحرفوه والا لنعى عليهم من أول الأمر أن مدار ذلك انما هو جنايات أيديهم وأما مايوافق كتبهم فلم ينكروه وان لم يفرحوا به وقيل يجوز أن يراد بالموصول الأول عامتهم فانهم أيضا يفرحون به لكونه مصداقا لكتبهم فى الجملة فحينئذ يكون قوله تعالى ومن الأحزاب الخ تتمة بمنزلة أن يقال ومنهم من ينكر بعضه (قل) الزاما لهم وردا لانكارهم (انما أمرت أن أعبدالله ولا أشرك به) أى شيئاً من الأشياء أولا أفعل الاشراك به والمراد قصر الأمر بالعبادة على الله تعالى لاقصر الامر مطلقا على عبادته تعالى خاصة أى قل لهم انما أمرت فيما أنزل إلى بعبادة الله وتوحيده وظاهر أن لاسبيل لكم الى انكاره لأطباق جميع الأنبياء والكتب على ذلك كقوله تعالى قل ياأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا فمالكم تشركون به عزيرا والمسيح وقرىء ولا أشرك به بالرفع على الاستئناف أى وأنا لا أشرك به (اليه) الى الله تعالى خاصة على النهج المذكور من التوحيد أو الى ما أمرت به من التوحيد (أدعو) الناس لا الى غيره أولا الى شيء آخر مما لم يطبق عليه الكتب الالهية والانبياء عليهم الصلاة والسلام فما وجه انكاركم (واليه) الى الله تعالى وحده (مآب) مرجعى للجزاء وحيث كانت هذه الحجة الباهرة لازمة لهم لا يجدون عنها محيصا أمر عليه الصلاة والسلام بان يخاطبهم بذلك الزاما وتبكيتا لهم ثم شرع فى رد انكارهم لفروع الشرائع الواردة ابتداء أو بدلا من الشرائع المنسوخة ببيان الحكمة فى ذلك فقيل (وكذلك أنزلناه) أى ما أنزل

اليك وذلك اشارة الى مصدر أنزلناه أو أنزل اليك ومحله النصب على المصدرية أى مثل ذلك الانزال البديع المنتظم لاصول مجمع عليها وفروع متشعبة الى موافقة ومخالفة حسبما تقتضيه قضية الحكمة والمصلحة أنزلناه (حكما) حاكما يحكم فى القضايا والواقعات بالحق أو يحكم به كذلك والتعرض لذلك العنوان مع أن بعضه ليس بحكم لتربية وجوب مراعاته وتحتم المحافظة عليه (عربيا) مترجما بلسان العرب والتعرض لذلك للاشارة الى أن ذلك احدى مواد المخالفة للكتب السابقة مع أن ذلك مقتضى الحكمة اذ بذلك يسهل فهمه وادراك اعجازه والاقتصار على اشتمال الانزال على أصول الديانات المجمع عليها حسبما يفيده قوله تعالى قل انما أمرت أن أعبد الله الخ يأباه التعرض لاتباع أهوائهم وحديث المحو والاثبات وان لكل أجل كتاب فان المجمع عليه لا يتصور فيه الاستتباع والاتباع (ولئن اتبعت أهواءهم) التى يدعونك اليها من تقرير الأمور المخالفة لما أنزل اليك من الحق كالصلاة الى بيت المقدس بعد التحويل (بعد ما جاءك من العلم) العظيم الشأن الفائض من ذلك الحكم العربى أو العلم بمضمونه (مالك من الله) من جنابه العزيز والالتفات من التكلم الى الغيبة وايراد الاسم الجليل لتربية المهابة قال الازهرى لا يكون إلها حتى يكون معبودا وحتى يكون خالقا ورازقا ومدبرا (من ولى) يلى أمرك وينصرك على من يبغيك الغوائل (ولا واق) يقيك من مصارع السوء وحيث لم يستلزم نفى الناصر على العدو ونفى الواقى من نكايته أدخل على المعطوف حرف النفى للتأكيد كقولك مالى دينار ولا درهم أو مالك من بأس الله من ناصر وواق لاتباعك أهواءهم وأمثال هاتيك القوارع انما هى لقطع أطماع الكفرة وتهييج المؤمنين على الثبات فى الدين واللام فى لئن موطئة ومالك ساد مسد جوابى الشرط والقسم (ولقد أرسلنا رسلا) كثيرة كائنة (من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية) نساء وأولادا كما جعلناها لك وهو رد لما كانوا يعيبونه صلى الله عليه وسلم بالزواج والولاد كما كانوا يقولون مال هذا الرسول يأكل الطعام الخ (وما كان لرسول) منهم أى ما صح وما استقام ولم يكن فى وسعه (أن يأتى بآية) مما اقترح عليه وحكم مما التمس منه (الا باذن الله) ومشيئته المبنية على الحكم والمصالح التى عليها يدور أمر الكائنات لا سيما مثل هذه الامور العظام والالتفات لما قدمناه ولتحقيق مضمون الجملة بالايماء الى العلة (لكل أجل) أى لكل مدة ووقت من المدد والاوقات (كتاب) حكم معين يكتب على العباد حسبما تقتضيه الحكمة فان الشرائع كلها لاصلاح أحوالهم فى المبدأ والمعاد ومن قضية

ذلك انه يختلف حسب اختلاف أحوالهم المتغيرة حسب تغير الاوقات كاختلاف العلاج حسب اختلاف أحوال المرضى بحسب الاوقات (يمحو الله ما يشاء) أى ينسخ ما يشاء نسخه من الاحكام لما تقتضيه الحكمة بحسب الوقت (ويثبت) بدله ما فيه المصلحة أو يبقيه على حاله غير منسوخ أو يثبت ما شاء اثباته مطلقا أعم منهما ومن الانشاء ابتداء أو يمحو من ديوان الحفظة الذين ديدنهم كتب كل قول وعمل ما لا يتعلق به الجزاء ويثبت الباقى أو يمحو سيآت التائب ويثبت مكانها الحسنة أو يمحو قرنا ويثبت آخرين أو يمحو الفاسدات من العالم الجسمانى ويثبت الكائنات أو يمحو الرزق ويزيد فيه أو يمحو الأجل أو السعادة والشقاوة وبه قال ابن مسعود وابن عمر رضى الله عنهم والقائلون به يتضرعون الى الله تعالى أن يجعلهم سعداء وهذا رواه جابر عن النبى عليه الصلاة والسلام والانسب تعميم كل من المحو والاثبات ليشمل الكل ويدخل فى ذلك موادالانكار دخولا أوليا وقرىء بالتشديد (وعنده أم الكتاب) أى أصله وهو اللوح المحفوظ اذ ما من شيء من الذاهب والثابت ألا وهو مكتوب فيه كما هو (وإما نرينك) أصله ان نرك وما مزيدة لتأكيد معنى الشرط ومن ثمة ألحقت النون بالفعل (بعض الذى نعدهم) أى وعدناهم من انزال العذاب عليهم والعدول إلى صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية أو نعدهم وعداً متجدداً حسبما تقتضيه الحكمة من انذار غب انذار وفى ايراد البعض رمز إلى أراءة بعض الموعود (أو نتوفينك) قبل ذلك (فانما عليك البلاغ) أى تبليغ أحكام الرسالة بتمامها لاتحقيق مضمون مابلغته من الوعيد الذى هو من جملتها (وعلينا) لاعليك (الحساب) محاسبة أعمالهم السيئة والمؤاخذة بها أى كيفما دارت الحال أريناك بعض ماوعدناهم من العذاب الدنيوى أو لم نركه فعلينا ذلك وما عليك الا تبليغ الرسالة فلا تهتم بما وراء ذلك فنحن نكفيكه ونتم ماوعدناك من الظفر ولا يضجرك تأخره فان ذلك لما نعلم من المصالح الخفية ثم طيب نفسه عليه الصلاة والسلام بطلوع تباشيره فقال (أو لم يروا) استفهام انكارى والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أنكروا نزول ماوعدناهم أو أشكوا أو ألم ينظروا فى ذلك ولم يروا (أنا نأتى الأرض) أى أرض الكفر (ننقصها من أطرافها) بأن نفتحها على المسلمين شيئاً فشيئاً ونلحقها بدار الاسلام ونذهب منها أهلها بالقتل والاسر والاجلاء أليس هذا من ذلك ومثله قوله عز سلطانه أفلا يرون أنا نأتى الارض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون وقوله ننقصها حال من فاعل نأتى أو من مفعوله وقرىء ننقصها بالتشديد وفى لفظ الاتيان المؤذن بالاستواء المحتوم والاستيلاء

العظيم من الفخامة مالا يخفى كما فى قوله عز وجل وقدمنا الى ماعملوا من عمل فجعلناه هباءاً منثوراً (والله يحكم) مايشاء كما يشاء وقد حكم للاسلام بالعزة والاقبال وعلى الكفر بالذلة والادبار حسبما يشاهد من المخايل والآثار وفى الالتفات من التكلم الى الغيبة وبناء الحكم على الاسم الجليل من الدلالة على الفخامة وتربية المهابة وتحقيق مضمون الخبر بالاشارة الى العلة مالا يخفى وهى جملة اعتراضية جيء بها لتأكيد فحوى ماتقدمها وقوله تعالى (لامعقب لحكمه) اعتراض فى اعتراض لبيان علو شأن حكمه جل جلاله وقيل نصب على الحالية كانه قيل والله يحكم نافذا حكمه كما تقول جاء زيد لاعمامة على رأسه أى حاسراً والمعقب من يكر على الشيء فيبطله وحقيقته من يعقبه ويقفيه بالرد والابطال ومنه قيل لصاحب الحق معقب لانه يقفى غريمه بالاقتضاء والطلب (وهو سريع الحساب) فعما قليل يحاسبهم ويجازيهم فى الآخرة بأفانين العذاب غب ماعذبهم بالقتل والاسر والاجلاء حسبما يرى وقال ابن عباس رضى الله عنهما سريع الانتقام (وقد مكر) الكفار (الذين) خلوا (من قبلهم) من قبل كفار مكة بأنبيائهم والمؤمنين كما مكر هؤلاء وهذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه لاعبرة بمكرهم ولاتأثير بل لاوجود له فى الحقيقة ولم يصرح بذلك اكتفاء بدلالة القصر المستفاد من تعليله أعنى قوله تعالى (فلله المكر) أى جنس المكر (جميعاً) لاوجود لمكرهم أصلا إذ هو عبارة عن ايصال المكروه الى الغير من حيث لايشعر به وحيث كان جميع مايأتون ومايذرون بعلم الله تعالى وقدرته وانما لهم مجرد الكسب من غير فعل ولاتأثير حسبما يبينه قوله عز وجل (يعلم ماتكسب كل نفس) ومن قضيته عصمة أوليائه وعقاب الماكرين بهم توفية لكل نفس جزاء ماتكسبه ظهر أن ليس لمكرهم بالنسبة الى من مكروا بهم عين ولا أثر وأن المكر كله لله تعالى حيث يؤاخذهم بما كسبوا من فنون المعاصى التى من جملتها مكرهم من حيث لايحتسبون أو لله المكر الذى باشروه جميعا لالهم على معنى أن ذلك ليس مكرا منهم بالانبياء بل هو بعينه مكر من الله تعالى بهم وهم لايشعرون حيث لا يحيق المكر السيء الا بأهله (وسيعلم الكفار) حين يقضى بمقتضى علمه فيوفى كل نفس جزاء ماتكسبه (لمن عقبى الدار) أى العاقبة الحميدة من الفريقين وان جهلوا ذلك يومئذ وقيل السين لتأكيد وقوع ذلك وعلمهم به حينئذ وقرىء سيعلم الكافر على ارادة الجنس والكافرون والكفر أى أهله والذين كفروا وسيعلم على صيغة المجهول من الاعلام أى سيخبر (ويقول الذين كفروا لست مرسلا) قيل قاله رؤساء اليهود وصيغة الاستقبال لاستحضار صورة كلمتهم الشنعاء تعجيبا منها أو للدلالة على تجدد ذلك واستمراره

منهم (قل كفى بالله شهيدا بيني و بينكم) فانه قد أظهر على رسالتى من الحجج القاطعة والبينات الساطعة مافيه مندوحة عن شهادة شاهد آخر (ومن عنده علم الكتاب) أى علم القرآن وما عليه من النظم المعجز أو من هو من علماء أهل الكتاب الذين أسلموا لانهم يشهدون بنعته عليه الصلاة والسلام فى كتبهم والآية مدنية بالاتفاق أو من عنده علم اللوح المحفوظ وهو الله سبحانه أى كفى به شاهدا بينا بالذى يستحق العبادة فانه قد شحن كتابه بالدعوة الى عبادته وأيدنى بانواع التأييد وبالذى يختص بعلم مافى اللوح من الاشياء الكائنة الثابتة التي من جملتها رسالتى وقرىء من عنده بالكسر وعلم الكتاب على الاول مرتفع بالظرف المعتمد على الموصول أو مبتد أخبره الظرف وهو متعين على الثانى ومن عنده علم الكتاب بالكسر وبناء المفعول ورفع الكتاب * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الرعد أعطى من الاجر عشر حسنات بوزن كل سحاب مضى وكل سحاب يكون الى يوم القيامة وبعث يوم القيامة من الموفين بعهد الله عز وجل والله أعلم بالصواب

﴿ سورة ابراهيم عليه السلام ﴾

(مكية وهى احدى وخمسون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(آلر) مر الكلام فيه وفى محله غير مرة وقوله تعالى (كتاب) خبر له على تقدير كون آلر مبتدأ أو لمبتدا مضمر على تقدير كونه خبرا لمبتدا محذوف أو مسرودا على نمط التعديد ويجوز أن يكون خبرا ثانيا لهذا المبتدا المحذوف وقوله تعالى (أنزلناه) اليك صفة له وقوله تعالى (لتخرج الناس) متعلق بانزلناه أى لتخرجهم كافة بما فى تضاعيفه من البينات الواضحة المفصحة عن كونه من عند الله عز وجل الكاشفة عن العقائد الحقة وقرىء ليخرج الناس (من الظلمات) أى ليخرج به الناس من عقائد الكفر والضلال التى كلها ظلمات محضة وجهالات صرفة (الى النور) الى الحق الذى هو نور بحت لكن لا كيفما كان فانك لا تهدى من أحببت بل (باذن ربهم) أى بتيسيره وتوفيقه وللانباء عن كون ذلك منوطا باقبالهم الى الحق كما يفصح عنه قوله تعالى ويهدى اليه من أناب استعير له الاذن الذى هو عبارة عن تسهيل الحجاب لمن يقصد الورود وأضيف الى ضميرهم اسم الرب المفصح عن

التربية التى هى عبارة عن تبليغ الشىء الى كماله المتوجه اليه وشمول الاذن بهذا المعنى للكل واضح وعليه يدور كون الانزال لاخراجهم جميعا وعدم تحقق الاذن بالفعل فى بعضهم لعدم تحقق شرطه المستند الى سوء اختيارهم غير مخل بذلك والباء متعلقة بتخرج أو بمضمر وقع حالا من مفعوله أى ملتبسين باذن ربهم وجعله حالا من فاعله يأباه اضافة الرب اليهم لا اليه وحيث كان الحق مع وضوحه فى نفسه وايضاحه لغيره موصلا الى الله عز وجل استعير له النور تارة والصراط أخرى فقيل (الى صراط العزيز الحميد) على وجه الابدال بتكرير العامل كما فى قوله تعالى للذين استضعفوا لمن آمن منهم واخلال البدل والبيان بالاستعارة انما هو فى الحقيقة لا فى المجاز كما فى قوله سبحانه حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر وقيل هو استئناف مبنى على سؤال كأنه قيل الى أى نور فقيل الى صراط العزيز الحميد واضافة الصراط اليه تعالى لانه مقصده أو المبين له وتخصيص الوصفين بالذكر للترغيب فى سلوكه ببيان ما فيه من الامن والعاقبة الحميدة (الله) بالجر عطف بيان للعزيز الحميد لجريانه مجرى الاعلام الغالبة بالاختصاص بالمعبود بالحق كالنجم فى الثريا وقرىء بالرفع على هو الله أى العزيز الحميد الذى أضيف اليه الصراط الله (الذى له) ملكا وملكا (ما فى السموات وما فى الارض) أى ما وجد فيهما داخلا فيهما أو خارجا عنهما متمكنا فيهما كما مر فى آية الكرسى ففيه على القراءتين بيان لكمال فخامة شأن الصراط واظهار لتحتم سلوكه على الناس قاطبة وتجويز الرفع على الابتداء بجعل الموصول خبرا مبناه الغفول عن هذه النكتة وقوله عز وجل (وويل للكافرين) وعيد لمن كفر بالكتاب ولم يخرج به من الظلمات الى النور بالويل وهو نقيض الوال وهو النجاة وأصله النصب كسائر المصادر ثم رفع رفعها للدلالة على الثبات كسلام عليك (من عذاب شديد) متعلق بويل على معنى يولولون ويضجون منه قائلين ياويلاه كقوله تعالى دعوا هنالك ثبورا (الذين يستحبون الحيوة الدنيا) أى يؤثرونها استفعال من المحبة فان المؤثر للشىء على غيره كانه يطلب من نفسه أن يكون أحب اليها وأفضل عندها من غيره (على الآخرة) أى الحياة الآخرة الأبدية (ويصدون) الناس (عن سبيل الله) التى بين شأنها والاقتصار على الاضافة الى الاسم الجليل المنطوى على كل وصف جميل لزوم الاختصار وهو من صده صدا وقرىء يصدون من أصد المنقول من صد صدودا اذ انكب وهو غير فصيح كاوقف فان فى صده ووقفه لمندوحة عن تكلف النقل (ويبغونها) أى يبغون لها فحذف الجار وأوصل الفعل الى الضمير أى يطلبون لها (عوجا) أى زيغا

واعوجاجا وهى أبعد شىء من ذلك أى يقولون لمن يريدون صده واضلاله انها سبيل ناكبة وزائغة غير مستقيمة ومحل موصول هذه الصلات الجر على أنه بدل من الكافرين أو صفة له فيعتبر كل وصف من أوصافهم بازاء ما يناسبه من المعانى المعتبرة فى الصراط فالكفر المنبىء عن الستر بازاء كونه نورا واستحباب الحياة الدنيا الفانية المفصحة عن وخامة العاقبة بمقابلة كون سلوكه محمود العاقبة والصد عنه بازاء كونه مأمونا وفيه من الدلالة على تماديهم فى الغى مالايخفى أو النصب على الذم أو الرفع على الابتداء والخبر قوله تعالى (أولئك فى ضلال بعيد) وعلى الأول جملة مستأنفة وقعت معللة لما سبق من لحوق الويل بهم تأكيداً لما أشعر به بناء الحكم على الموصول أى أولئك الموصوفون بالقبائح المذكورة من استحباب الحياة الدنيا على الآخرة وصد الناس عن سبيل الله المستقيمة ووصفها بالاعوجاج وهى منه بنزه فى ضلال عن طريق الحق بعيد بالغ فى ذلك غاية الغايات القاصية والبعد وان كان من أحوال الضال الا أنه قد وصف به وصفه مجازا للمبالغة كجد جده وداهية دهياء ويجوز أن يكون المعنى فى ضلال ذى بعد أو فيه بعد فان الضال قد يضل عن الطريق مكانا قريباً وقد يضل بعيدا وفى جعل الضلال محيطاً بهم احاطة الظرف بما فيه مالا يخفى من المبالغة (وما أرسلنا) أى فى الامم الخالية من قبلك كما سيذكر اجمالا (من رسول الا) ملتبساً (بلسان قومه) متكلما بلغة من أرسل اليهم من الامم المتفقة على لغة سواء بعث فيهم أو لا وقرىء بلسن وهو لغة فيه كريش ورياش وبلسن بضمتين وضمة وسكون كعمد وعمد (ليبين لهم) ماأمروا به فيتلقوه منه بيسر وسرعة ويعملوا بموجبه من غير حاجة الى الترجمة ممن لم يؤمر به وحيث لم يمكن مراعاة هذه القاعدة فى شأن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين لعموم بعثته الثقلين كافة على اختلاف لغاتهم وكان تعدد نظم الكتاب المنزل اليه حسب تعدد ألسنة الامم أدعى الى التنازع واختلاف الكلمة وتطرق أيدى التحريف مع أن استقلال بعض من ذلك بالأعجاز دون غيره مئنة لقدح القادحين واتفاق الجميع فيه أمر قريب من الالجاء وحصر البيان بالترجمة والتفسير اقتضت الحكمة اتحاد النظم المنبىء عن العزة وجلالة الشأن المستتبع لفوائد غنية عن البيان على أن الحاجة الى الترجمة تتضاعف عند التعدد اذ لابد لكل أمة من معرفة توافق الكل وتحاذيه حذو القذة بالقذة من غير مخالفة ولو فى خصلة فذة وانما يتم ذلك بمن يترجم عن الكل واحداً أو متعدداً وفيه من التعذر مايتاخم الامتناع ثم لما كان أشرف الاقوام وأولاهم بدعوته عليه الصلاة والسلام قومه الذين بعث فيهم ولغتهم أفضل اللغات

نزل الكتاب المتين بلسان عربى مبين وانتشرت أحكامه فيما بين الأمم أجمعين وقيل الضمير فى قومه لمحمد صلى الله عليه وسلم فانه تعالى أنزل الكتب كلها عربية ثم ترجمها جبريل عليه الصلاة والسلام أو كل من نزل عليه من الأنبياء عليهم السلام بلغة من نزل عليهم ويرده قوله تعالى ليبين لهم فانه ضمير القوم وظاهر أن جميع الكتب لم ينزل لتبيين العرب وفى رجعه الى قوم كل نبى كانه قيل وما أرسلنا من رسول الا بلسان قوم محمد عليه الصلاة والسلام ليبين الرسول لقومه الذين ارسل اليهم مالا يخفى من التكلف (فيضل الله من يشاء) اضلاله أى يخلق فيه الضلال لمباشرة أسبابه المؤدية اليه أو يخذله ولا يلاطف به لما يعلم أنه لا ينجع فيه الالطاف (ويهدى) بالتوفيق ومنح الالطاف (من يشاء) هدايته لما فيه من الانابة والاقبال الى الحق والالتفات باسناد الفعلين الى الاسم الجليل المنطوى على الصفات لتفخيم شأنهما وترشيح مناط كل منهما والفاء فصيحة مثلها فى قوله تعالى فقلنا اضرب بعصاك البحر فانفلق كانه قيل فبينوه لهم فاضل الله منهم من شاء اضلاله لما لا يليق الا به وهدى من شاء هدايته لاستحقاقه لها والحذف للايذان بأن مسارعة كل رسول الى ما أمر به وجريان كل من أهل الخذلان والهداية على سننه أمر محقق غنى عن الذكر والبيان والعدول الى صيغة الاستقبال لاستحضار الصورة أو للدلالة على التجدد والاستمرار حسب تجدد البيان من الرسل المتعاقبة عليهم السلام وتقديم الاضلال على الهداية اما لانه ابقاء ما كان على ما كان والهداية انشاء ما لم يكن أو للمبالغة فى بيان أن لا تأثير للتبيين والتذكير من قبل الرسل وأن مدار الامر انما هو مشيئته تعالى بايهام أن ترتب الضلالة على ذلك أسرع من ترتب الاهتداء وهذا محقق لما سلف من تقييد الاخراج من الظلمات الى النور باذن الله تعالى (وهو العزيز) فلا يغالب فى مشيئته (الحكيم) الذى لا يفعل شيئا من الاضلال والهداية الا لحكمة بالغة وفيه أن ما فوض الى الرسل انما هو تبليغ الرسالة وتبيين طريق الحق وأما الهداية والارشاد اليه فذلك بيد الله سبحانه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد (ولقد أرسلنا موسى) شروع فى تفصيل ما أجمل فى قوله عزوجل وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم الآية (بآياتنا) أى ملتبسا بها وهى معجزاته التى أظهرها لبنى اسرائيل (أن أخرج قومك) بمعنى أى أخرج لان الارسال فيه معنى القول أو بأن أخرج كما فى قوله تعالى وأن أقم وجهك فان صيغ الافعال فى الدلالة على المصدر سواء وهو المدار فى صحة الوصل والمراد بذلك اخراج بنى اسرائيل بعد مهلك فرعون (من الظلمات) من الكفر والجهالات التى أدتهم الى أن يقولوا ياموسى اجعل لنا الها

كا لهم آلهة (الى النور) الى الايمان بالله و توحيده و سائر ما أمروا به (و ذكرهم بايام الله) أى بنعمائه و بلائه كما ينبىء عنه قوله اذكروا نعمة الله عليكم لـكن لا بما جرى عليهم فقط بل عليهم و على من قبلهم من الامم فى الايام الخالية حسبما ينبىء عنه قوله تعالى ألم يأتكم نبأ الذين من قبلـكم الآيات أو بأيامه المنطوية على ذلك كما يلوح به قوله تعالى اذ أنجاكم والالتفات من التكلم الى الغيبة باضافة الايام الى الاسم الجليل للايذان بفخامة شأنها و الاشعار بعدم اختصاص ما فيها من المعاملة بالمخاطب وقومه كما توهمه الاضافة الى ضمير المتكلم أى عظهم بالترغيب و الترهيب و الوعد و الوعيد وقيل أيام الله وقائعه التى وقعت على الأمم قبلهم وأيام العرب وقائعها و حروبها وملاحمها أى أنذرهم وقائعه التى دهمت الامم الدارجة ويرده ما تصدى له عليه الصلاة و السلام بصدد الامتثال من التذكير بكل من السراء والضراء مما جرى عليهم وعلى غيرهم حسبما يتلى عليك (ان فى ذلك) أى فى التذكير بها أوفى بمجموع تلك النعماء والبلاء أو فى أيامها (لآيات) عظيمة أو كثيرة دالة على وحدانية الله تعالى وقدرته وعلمه وحكمته فهى على الاول عبارة عن الايام سواء أريد بها أنفسها أو ما فيها من النعماء والبلاء ومعنى ظرفية التذكير لها كونه مناطا لظهورها وعلى الثالث عن تلك النعماء والبلاء ومعنى الظرفية ظاهر وأما على الثانى وهو كونه اشارة الى مجموع النعماء فعن كل واحدة من تلك النعماء والبلاء والمشار اليه المجموع المشتمل عليها من حيث هو مجموع أو كلمة فى تجريدية مثلها فى قوله تعالى لهم فيها دار الخلد (لكل صبار) على بلائه (شكور) لنعمائه وقيل لـكل مؤمن والتعبير عنهم بذلك للاشعار بان الصبر والشكر عنوان المؤمن أى لـكل من يليق بكمال الصبر والشكر أو الايمان ويصير أمره اليها لا لمن اتصف بها بالفعل لانه تعليل للامر بالتذكير المذكور السابق على التذكر المؤدى الى تلك المرتبة فان من تذكر ما فاض أو نزل عليه أو على من قبله من النعماء و البلاء وتنبه لعاقبة الشكر و الصبر أو الايمان لا يكاد يفارقها وتخصيص الآيات بهم لانهم المنتفعون بها لا لانها خافية عن غيرهم فان التبيين حاصل بالنسبة الى الـكل وتقديم الصبار على الشكور لتقدم متعلق الصبر أعنى البلاء على متعلق الشكر أعنى النعماء وكون الشكر عاقبة الصبر (واذ قال موسى لقومه) شروع فى بيان تصديه عليه الصلاة والسلام لما أمر به من التذكير للاخراج المذكور واذ منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبى عليه الصلاة و السلام وتعليق الذكر بالوقت مع ان المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث قد مر سره غير مرة أى اذكر لهم وقت قوله عليه الصلاة والسلام لقومه (اذكروا نعمة الله عليكم) بدأ عليه الصلاة

والسلام بالترغيب لانه عند النفس أقبل وهي اليه أميل والظرف متعلق بنفس النعمة ان جعلت مصدرا أو بمحذوف وقع حالا منها ان جعلتم اسما أى اذكروا أنعامه عليكم أو اذكروا نعمته كائنة عليكم وكذلك كلمة أذ فى قوله تعالى (اذأنجاكم من آل فرعون) أى اذكروا أنعامه عليكم وقت أنجائه اياكم من آل فرعون أواذكروا نعمة الله مستقرة عليكم وقت انجائه اياكم منهم أو بدل اشتمال من نعمة الله مرادا بها الانعام أو العطية (يسومونكم) يبغونكم من سامه خسفا اذا أولاه ظلما وأصل السوم الذهاب فى طلب الشيء (سوء العذاب) السوء مصدر ساء يسوء والمراد به جنس العذاب السيء أو استعبادهم واستعمالهم فى الاعمال الشاقة والاستهانة بهم وغير ذلك مما لا يحصر ونصبه على انه مفعول ليسومونكم (ويذبحون أبناءكم) المولودين وانما عطفه على يسومونكم اخراجاله عن مرتبة العذاب المعتاد وانما فعلوا ذلك لان فرعون رأى فى المنام أو قال له الكهنة انه سيولد منهم من يذهب بملكه فاجتهدوا فى ذلك فلم يغن عنهم من قضاء الله شيئاً (ويستحيون نساءكم) أى يبقونهن فى الحياة مع الذل والصغار ولذلك عد من جملة البلاء والجمل أحوال من آل فرعون أو من ضمير المخاطبين أو منهما جميعا لان فيها ضمير كل منهما (وفى ذلكم) أى فيما ذكر من أفعالهم الفظيعة (بلاء من ربكم) أى ابتلاء منه لا أن البلاء عين تلك الافعال اللهم الا أن تجعل فى تجريدية فنسبته الى الله تعالى أما من حيث الخلق أو الاقدار والتمكين (عظيم) لا يطاق ويجوز أن يكون المشار اليه الانجاء من ذلك والبلاء الابتلاء بالنعمة وهو الانسب كما يلوح به التعرض لوصف الربوبية وعلى الاول يكون ذلك باعتبار المآل الذى هو الانجاء أو باعتبار أن بلاء المؤمن تربية له (واذ تأذن ربكم) من جملة مقال موسى عليه الصلاة والسلام لقومه معطوف على نعمة الله أى اذكروا نعمة الله عليكم واذكروا حين تأذن ربكم أى آذن ايذانا بليغا لا تبقى معه شائبة شبهة لما فى صيغة التفعل من معنى التكلف المحمول فى حقه سبحانه على غايته التى هى الكمال وقيل هو معطوف على قوله تعالى اذ أنجاكم أى اذكروا نعمته تعالى فى هذين الوقتين فان هذا التأذن أيضا نعمة من الله تعالى عليهم ينالون بها خيرى الدنيا والآخرة وفى قراءة ابن مسعود رضى الله تعالى عنه وأذ قال ربكم واقد ذكرهم عليه الصلاة والسلام أولا بنعمائه تعالى عليهم صريحا وضمنه تذكير ما أصابهم قبل ذلك من الضراء ثم أمرهم ثانيا بذكر ماجرى من الله سبحانه من الوعد بالزيادة على تقدير الشكر والوعيد بالعذاب على تقدير الكفر والمراد بتذكير الاوقات تذكير ما وقع فيها من الحوادث مفصلة اذهى محيطة بذلك فاذا ذكرت ذكر

ما فيها كأنه مشاهد معاين (لئن شكرتم) يابنى اسرائيل ماخولتكم من نعمة الانجاء واهلاك العدو وغير ذلك من النعم والآلاء الفائتة للحصر وقابلتموه بالايمان والطاعة (لأزيدنكم) نعمة الى نعمة (ولئن كفرتم) ذلك وغمصتموه (ان عذابى لشديد) فعسى يصيبكم منه ما يصيبكم ومن عادة الكرام التصريح بالوعد والتعريض بالوعيد فما ظنك بأكرم الاكرمين ويجوز أن يكون المذكور تعليلا للجواب المحذوف أى لأعذبنكم واللام فى الموضعين موطئة للقسم وكل من الجوابين ساد مسد جوابى الشرط والقسم والجملة أمامفعول لتأذن لانه ضرب من القول أو لقول مقدر بعده كأنه قيل واذتأذن ربكم فقال الخ (وقال موسى أن تكفروا) نعمه تعالى ولم تشكروها (أنتم) يا بنى اسرائيل (ومن فى الأرض) من الخلائق (جميعا فان الله لغنى) عن شكركم وشكر غيركم (حميد) مستوجب للحمد بذاته لكثرة ما يوجبه من أياديه وان لم يحمده أحد أو محمود يحمده الملائكة بل كل ذرة من ذرات العالم ناطقة بحمده والحمد حيث كان بمقابلة النعمة وغيرها من الفضائل كان أدل على كماله سبحانه وهو تعليل لما حذف من جواب ان أى ان تكفروا لم يرجع وباله الا عليكم فان الله تعالى لغنى عن شكر الشاكرين ولعله عليه الصلاة والسلام انما قاله عند ما عاين منهم دلائل العناد ومخايل الاصرار على الكفر والفساد وتيقن أنه لاينفعهم الترغيب ولا التعريض بالترهيب أو قاله غب تذكيرهم بما ذكر من قول الله عز سلطانه تحقيقا لمضمونه وتحذيرا لهم من الكفران ثم شرع فى الترهيب بتذكير ماجرى على الامم الخالية فقال (ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم) ليتدبروا ما أصاب كل واحد من حزبى المؤمن والكافر فيقلعوا عماهم عليه من الشر وينيبوا الى الله تعالى وقيل هو ابتداء كلام من الله تعالى خطابا للكفرة فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم فيختص تذكير موسى عليه الصلاة والسلام بما اختص ببنى اسرائيل من السراء والضراء والايام بالايام الجارية عليهم فقط وفيه مالايخفى من البعد وأيضا لايظهر حينئذ وجه تخصيص تذكير الكفرة الذين فى عهد النبى عليه الصلاة والسلام بما أصاب أولئك المعدودين مع أن غيرهم أسوة لهم فى الخلو قبل هؤلاء (قوم نوح) بدل من الموصول أو عطف بيان (وعاد) معطوف على قوم نوح (وثمود والذين من بعدهم) أى من بعد هؤلاء المذكورين عطف عام على قوم نوح وماعطف عليه وقوله تعالى (لايعلمهم الا الله) اعتراض أو الموصول مبتدأ ولا يعلمهم الى آخره خبره والجملة اعتراض والمعنى انهم من الكثرة بحيث لايعلم عددهم الا الله سبحانه وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما

بين عدنان واسمعيل ثلاثون أبا لا يعرفون وكان ابن مسعود رضى الله تعالى عنه اذا قرأ هذه الآية قال كذب النسابون يعنى أنهم يدعون علم الانساب وقد نفى الله تعالى علمها عن العباد (جاءتهم رسلهم) استئناف لبيان نبئهم (بالبينات) بالمعجزات الظاهرة والبينات الباهرة فبين كل رسول لأمته طريق الحق وهداهم اليه ليخرجهم من الظلمات الى النور (فردوا أيديهم فى أفواههم) مشيرين بذلك الى ألسنتهم وما يصدر عنها من المقالة اعتناء منهم بشأنها وتنبيها للرسل على تلقيها والمحافظة عليها واقناطالهم عن التصديق والايمان باعلام أن لا جواب لهم سواه (وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به) أى على زعمكم وهى البينات التى أظهروها حجة على صحة رسالتهم كقوله تعالى ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ومرادهم بالكفر بها الكفر بدلالتها على صحة رسالاتهم أو فعضوها غيظا وضجرا مما جاءت به الرسل كقوله تعالى عضوا عليكم الانامل من الغيظ أو وضعوها عليها تعجبا منه واستهزاء به كمن غلبه الضحك أو اسكاتا للانبياء عليهم السلام وأمراً لهم باطباق الافواه أو ردوها فى أفواه الانبياء عليهم الصلاة والسلام يمنعونهم من التكلم تحقيقا أو تمثيلا أو جعلوا أيدى الانبياء فى أفواههم تعجبا من عتوهم وعنادهم كما ينبىء عنه تعجبهم بقوله أفى الله شك الخ وقيل الايدى بمعنى الايادى عبر بها عن مواعظهم ونصائحهم وشرائعهم التي هي مدار النعم الدينية والدنيوية لانهم لما كذبوها فلم يقبلوها فكأنهم ردوها الى حيث جاءت منه (وانا لفى شك) عظيم (مما تدعوننا اليه) من الايمان بالله والتوحيد فلا ينافى شكهم فى ذلك كفرهم القطعى بما أرسل به الرسل من البينات فانهم كفروا بها قطعا حيث لم يعتدوا بها ولم يجعلوها من جنس المعجزات ولذلك قالوا فأتونا بسلطان مبين وقرىء تدعونا بالادغام (مريب) موقع فى الريبة من أرابه أوذى ريبة من أراب الرجل وهى قلق النفس وعدم اطمئنانها بالشىء (قالت رسلهم) استئناف مبنى على سؤال ينساق اليه المقال كانه قيل فماذا قالت لهم رسلهم فأجيب بانهم قالوا منكرين عليهم ومتعجبين من مقالتهم الحمقاء (أفى الله شك) بادخال الهمزة على الظرف للايذان بأن مدار الانكار ليس نفس الشك بل وقوعه فيما لا يكاد يتوهم فيه الشك أصلا متفادين عن تطبيق الجواب على كلام الكفرة بان يقولوا أأنتم فى شك مريب من الله تعالى مبالغة فى تنزيه ساحة السبحان عن شائبة الشك وتسجيلا عليهم بسخافة العقول أى أفى شأنه سبحانه من وجوده ووحدته ووجوب الايمان به وحده شك ما وهو أظهر من كل ظاهر وأجلى من كل جلى حتى تكونوا من قبله فى شك مريب وحيث كان مقصدهم الاقصى الدعوة الى الايمان والتوحيد وكان

اظهار البينات وسيلة الى ذلك لم يتعرضوا للجواب عن قول الكفرة انا كفرنا بما أرسلتم به واقتصروا على بيان ما هو الغاية القصوى ثم عقبوا ذلك الانكار بما يوجبه من الشواهد الدالة على انتفاء المنكر فقالوا (فاطر السموات والارض) أى مبدعهما وما فيهما من المصنوعات على نظام أنيق شاهد بتحقق ما أنتم منه فى شك وهو صفة للاسم الجليل أو بدل منه وشك مرتفع بالظرف لاعتماده على الاستفهام وجعله مبتدأ على أن الظرف خبره يفضى الى الفصل بين الموصوف والصفة بالاجنبى أعنى المبتدأ والفاعل ليس باجنبى من رافعه وقد جوز ذلك أيضا (يدعوكم) الى الايمان بارساله ايانا لا أنا ندعوكم اليه من تلقاء أنفسنا كما يوهمه قولكم مما تدعوننا اليه (ليغفر لكم) بسببه أو يدعوكم لاجل المغفرة كقولك دعوته ليأكل معى (من ذنوبكم) أى بعضها وهو ما عدا المظالم مما بينهم وبينه تعالى فان الاسلام يجبه قيل هكذا وقع فى جميع القرآن فى وعد الكفرة دون وعد المؤمنين تفرقة بين الوعدين ولعل ذلك لما أن المغفرة حيث جاءت فى خطاب الكفرة مرتبة على محض الايمان وفى شأن المؤمنين مشفوعة بالطاعة والتجنب عن المعاصى ونحو ذلك فيتناول الخروج من المظالم وقيل المعنى ليغفر لكم بدلا من ذنوبكم (ويؤخركم الى أجل مسمى) الى وقت سماه الله تعالى وجعله منتهى أعماركم على تقدير الايمان (قالوا) استئناف كما سبق (ان أنتم) أى ما أنتم (الا بشر مثلنا) من غير فضل يؤهلكم لما تدعونه من النبوة (تريدون) صفة ثانية لبشر حملا على المعنى كقوله تعالى أبشر يهدوننا أو كلام مستأنف أى تريدون بما تتصدون له من الدعوة والارشاد (أن تصدونا) بتخصيص العبادة بالله سبحانه (عما كان يعبد آباؤنا) أي عن عبادة ما استمر آباؤنا على عبادته من غير شيء يوجبه الا (فأتونا) أى وان لم يكن الامر كما قلنا بل كنتم رسلا من جهة الله تعالى كما تدعونه فأتونا (بسلطان مبين) يدل على فضلكم واستحقاقكم لتلك الرتبة أو على صحة ما تدعونه من النبوة حتى نترك مالم نزل نعبده أبا عن جد ولقد كانوا آتوهم من الآيات الظاهرة والبينات الباهرة ما تخر له صم الجبال ولكنهم انما يقولون ما يقولون من العظائم مكابرة وعنادا وإراءة لمن وراءهم ان ذلك ليس من جنس ما ينطلق عليه السلطان المبين (قالت لهم رسلهم) مجاراة معهم فى أول مقالتهم وانما قيل لهم لاختصاص الكلام بهم حيث أريد الزامهم بخلاف ما سلف من انكار وقوع الشك فى الله سبحانه فان ذلك عام وان اختص بهم ما يعقبه (ان نحن الا بشر مثلكم) كما تقولون (ولكن الله يمن) بالنبوة (على من يشاء من عباده) يعنون أن ذلك عطية من الله تعالى يعطيها من يشاء من عباده بمحض الفضل والامتنان

من غير داعية توجبه قالوه تواضعا وهضما للنفس أو ما نحن من الملائكة بل نحن بشر مثلكم فى الصورة أو فى الدخول تحت الجنس ولكن الله يمن بالفضائل والكمالات والاستعدادات على من يشاء المن بها وما يشاء ذلك إلا لعلمه باستحقاقهما وتلك الفضائل والكمالات والاستعدادات هى التى يدور عليها فلك الاصطفاء للنبوة (وما كان) وما صح وما استقام (لنا أن نأتيكم بسلطان) أى بحجة من الحجج فضلا عن السلطان المبين بشىء من الاشياء وسبب من الاسباب .(إلا باذن الله) فانه أمر يتعلق بمشيئته تعالى ان شاء كان والا فلا (وعلى الله) وحده دون ما عداه مطلقا (فليتوكل المؤمنون) أمر منهم للمؤمنين بالتوكل ومقصودهم حمل أنفسهم عليه آثر ذى أثير ألا يرى الى قوله عز وجل (ومالنا) أى أى عذر لنا (ان لا نتوكل على الله) أى فى أن لا نتوكل عليه والاظهار لاظهار النشاط بالتوكل عليه والاستلذاذ بذكر اسمه تعالى وتعليل التوكل (وقد هدانا) أى والحال أنه قد فعل بنا ما يوجبه ويستدعيه حيث هدانا (سبلنا) أى أرشد كلا مناسبيله ومنهاجه الذى شرعه له وأوجب عليه سلوكه فى الدين وحيث كانت أذية الكفار مما يوجب القلق والاضطراب القادح فى التوكل قالوا على سبيل التوكيد القسمى مظهرين لكمال العزيمة (ولنصبرن على ما آذيتمونا) بالعناد واقتراح الآيات وغير ذلك مما لا خير فيه (وعلى الله) خاصة (فليتوكل المتوكلون) أى فليثبت المتوكلون على ما أحدثوه من التوكل والمراد هو المراد مما سبق من ايجاب التوكل على أنفسهم والمراد بالمتوكلين المؤمنون والتعبير عنهم بذلك لسبق ذكر اتصافهم به ويجوز أن يراد وعليه فليتوكل من يتوكل دون غيره (وقال الذين كفروا) لعل هؤلاء القائلين بعض المتمردين العاتين الغالين فى الكفر من أولئك الأمم الكافرة التى نقلت مقالاتهم الشنيعة دون جميعهم كقوم شعيب واضرابهم ولذلك لم يقل وقالوا (لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا) لم يقنعوا بعصيانهم الرسل ومعاندتهم الحق بعد ما رأوا البينات الفائتة للحصر حتى اجترؤا على مثل هاتيك العظيمة التى لا يكاد يحيط بها دائرة الامكان خلفوا على أن يكون أحد الحالين والعود اما بمعنى مطلق الصيرورة أو باعتبار تغليب المؤمنين على الرسل وقد مر فى الاعراف وسيأتى فى الكهف (فاوحى اليهم) أى الى الرسل (ربهم) مالك أمرهم عند تناهى كفر الكفرة وبلوغهم من العتو الى غاية لا مطمع بعدها فى ايمانهم (لنهلكن الظالمين) على اضمار القول أو على اجراء الايحاء مجراه لكونه ضربا منه (ولنسكننكم الارض) أى أرضهم وديارهم عقوبة لهم بقولهم لنخرجنكم من أرضنا كقوله تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها (من بعدهم)

أي من بعد اهلاكهم وقرئ ليهلكن وليسكننكم بالياء اعتباراً لاوحى كقولهم حلف زيد ليخرجن غداً (ذلك) اشارة الى الموحى به وهو اهلاك الظالمين واسكان المؤمنين ديارهم أي ذلك الأمر محقق ثابت (لمن خاف مقامي) موقفى وهو الموقف الذى يقف فيه العباد يوم يقوم الناس لرب العالمين أو قيامى عليه وحفظى لاعماله وقيل لفظ المقام مقحم (وخاف وعيد) وعيدى بالعذاب أو عذابى الموعود للكفار والمعنى أن ذلك حق للمتقين كقوله والعاقبة للمتقين (واستفتحوا) أى استنصروا الله على أعدائهم كقوله تعالى ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح أو استحكموا وسألوه القضاء بينهم من الفتاحة وهى الحكومة كقوله تعالى ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق فالضمير للرسل وقيل للكفرة وقيل للفريقين فانهم سألوا أن ينصر المحق ويهلك المبطل وهو معطوف على أوحى اليهم وقرىء بلفظ الأمر عطفاً على لنهلكن الظالمين أى أوحي اليهم ربهم لنهلكن وقال لهم استفتحوا (وخاب) أى خسر وهلك (كل جبار عنيد) متصف بضد ما اتصف به المتقون أى فنصروا عند استفتاحهم وظفروا بما سألوا وأفلحوا وخاب كل جبار عنيد وهم قومهم المعاندون فالخيبة بمعني مطلق الحرمان دون الحرمان عن المطلوب أو ذلك باعتبار أنهم كانوا يزعمون أنهم على الحق أو استفتح الكفار على الرسل وخابوا ولم يفلحوا وانما قيل وخاب كل جبار عنيد ذماً لهم وتسجيلا عليهم بالتجبر والعناد لأن بعضهم ليسوا كذلك وأنه لم يصبهم الخيبة أو استفتحوا جميعاً فنصر الرسل وأنجز لهم الوعد وخاب كل عات متمرد فالخيبة بمعنى الحرمان غب الطلب وفى اسناد الخيبة الى كل منهم مالايخفى من المبالغة (من ورائه جهنم) أى بين يديه فانه مرصد لها واقف على شفيرها فى الدنيا مبعوث اليها فى الآخرة وقيل من وراء حياته وحقيقته ماتوارى عنك (ويسقى) معطوف على مقدر جوابا عن سؤال سائل كأنه قيل فماذا يكون إذن فقيل يلقي فيها ويسقى (من ماء) مخصوص لا كالمياه المعهودة (صديد) وهو قيح أو دم مختلط بمدة يسيل من الجرح قال مجاهد وغيره هو مايسيل من أجساد أهل النار وهو عطف بيان لما أبهم أولا ثم بين بالصديد تهويلا لأمره وتخصيصه بالذكر من بين عذابها يدل على أنه من أشد أنواعه (يتجرعه) قيل هو صفة لماء أو حال منه والاظهر أنه استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا يفعل به فقيل يتجرعه أى يتكلف جرعه مرة بعد أخرى لغلبة العطش واستيلاء الحرارة عليه (ولا يكاد يسيغه) أى لايقارب أن يسيغه فضلا عن الاساغة بل يغص به فيشربه بعد اللتيا والتى جرعة غب جرعة فيطول عذابه تارة بالحرارة والعطش وأخرى بشربه

على تلك الحال فان السوغ انحدار الشراب فى الحلق بسهولة وقبول نفس ونفيه لا يوجب نفى ماذكر جميعاً وقيل لا يكاد يدخله فى جوفه وعبر عنه بالاساغة لما أنها المعهودة فى الاشربة وهو حال من فاعل يتجرعه أو من مفعوله أو منهما جميعاً (ويأتيه الموت) أى أسبابه من الشدائد (من كل مكان) ويحيط به من جميع الجهات أو من كل مكان من جسده حتى من أصول شعره وابهام رجله (وما هو بميت) أى والحال أنه ليس بميت حقيقة كما هو الظاهر من مجىء أسبابه لاسيما من جميع الجهات حتى لا يتألم بما غشيه من أصناف الموبقات (ومن ورائه) من بين يديه (عذاب غليظ) يستقبل كل وقت عذاب أشد وأشق مما كان قبله ففيه دفع ما يتوهم من الخفة بحسب الاعتياد كما فى عذاب الدنيا وقيل هو الخلود فى النار وقيل هو حبس الانفاس وقيل المراد بالاستفتاح والخيبة استسقاء أهل مكة فى سنيهم التى أرسلها الله تعالى عليهم بدعوته عليه الصلاة والسلام وخيبتهم فى ذلك وقد وعد لهم بدل ذلك صديد أهل النار (مثل الذين كفروا بربهم) أى صفتهم وحالهم العجيبة الشأن التى هى كالمثل فى الغرابة وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (أعمالهم كرماد) كقولك صفة زيد عرضه مهتوك وماله منهوب وهو استئناف مبنى على سؤال من قال مابال أعمالهم التى عملوها فى وجوه البر من صلة الارحام واعتاق الرقاب وفداء الاسارى واغاثة الملهوفين وقرىء الاضياف وغير ذلك مما هو من باب المكارم حتى آل أمرهم الى هذا المآل فأجيب بأن ذلك كرماد (اشتدت به الريح) حملته وأسرعت الذهاب به (فى يوم عاصف) العصف اشتداد الريح وصف به زمانها مبالغة كقولك ليلة ساكرة وانما السكور لريحها شبهت صنائعهم المعدودة لابتنائها على غير أساس من معرفة الله تعالى والايمان به والتوجه بها اليه تعالى برماد طيرته الريح العاصفة أو استئناف مسوق لبيان أعمالهم للاصنام أو مبتدأ خبره محذوف كما هو رأى سيبويه اى فيما يتلى عليك مثلهم وقوله أعمالهم جملة مستأنفة مبنية على سؤال من يقول كيف مثلهم فقيل أعمالهم كيت وكيت سواء أريد بها صنائعهم أو أعمالهم لاصنامهم وقيل أعمالهم بدل من مثل الذين وقوله كرماد خبره (لا يقدرون) أى يوم القيامة (مما كسبوا) من تلك الاعمال (على شىء) ما أى لا يرون له أثرا من ثواب أو تخفيف عذاب كدأب الرماد المذكور وهو فذلكة التمثيل والاكتفاء ببيان عدم رؤية الاثر لاعمالهم للاصنام مع أن لها عقوبات هائلة للتصريح ببطلان اعتقادهم وزعمهم أنها شفعاء لهم عند الله تعالى وفيه تهكم بهم (ذلك) أى مادل عليه التمثيل دلالة واضحة من ضلالهم مع حسبانهم انهم على شىء (هو الضلال البعيد) عن طريق الحق والصواب أو عن

نيل الثواب (ألم تر) خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته وقيل لكل أحد من الكفرة لقوله تعالى يذهبكم والرؤية رؤية القلب وقوله تعالى (ان الله خلق السموات والارض) ساد مسد مفعوليها أى ألم تعلم أنه تعالى خلقهما (بالحق) ملتبسة بالحكمة والوجه الصحيح الذى يحق أن تخلق عليه وقرىء خالق السموات والارض (أن يشأ يذهبكم) يعدمكم بالمرة (ويأت بخلق جديد) أى يخلق بدلكم خلقا آخر مستأنفا لاعلاقة بينكم وبينهم رتب قدرته تعالى على ذلك على قدرته تعالى على خلق السموات والارض على هذا النمط البديع ارشادا الى طريق الاستدلال فان من قدر على خلق مثل هاتيك الاجرام العظيمة كان على تبديل خلق آخر بهم أقدر ولذلك قال (وما ذلك) أى اذهابكم والاتيان بخلق جديد مكانكم (على الله بعزيز) بمتعذر أو متعسر فانه قادر لذاته على جميع الممكنات لا اختصاص له بمقدور دون مقدور ومن هذا شأنه حقيق بأن يؤمن به ويرجى ثوابه ويخشى عقابه (وبرزوا لله جميعا) أى يبرزون يوم القيامة وايثار صيغة الماضى للدلالة على تحقق وقوعه كما فى قوله سبحانه ونادى اصحاب الجنة أصحاب النار أولانه لا مضى ولا استقبال بالنسبة اليه سبحانه والمراد بروزهم من قبورهم لأمر الله تعالى ومحاسبته أو لله على ظنهم فانهم كانوا يظنون عند ارتكابهم الفواحش سرا أنها تخفى على الله سبحانه فاذا كان يوم القيامة انكشفوا لله عند أنفسهم (فقال الضعفوء) الاتباع جمع ضعيف والمراد ضعف الرأى وانما كتب بالواو على لفظ من يفخم الالف قبل الهمزة (للذين استكبروا) لرؤسائهم الذين استتبعوهم واستغووهم (انا كنا) فى الدنيا (لكم تبعا) فى تكذيب الرسل عليهم السلام والاعراض عن نصائحهم وهو جمع تابع كغيب فى جمع غائب أومصدر نعت به مبالغة أوعلى اضمار (أى ذوى تبع فهل أنتم مغنون) دافعون (عنا) والفاء للدلالة على سببية الاتباع للاغناء والمراد التوبيخ والعتاب والتقريع والتبكيت (من عذاب الله من شيء) من الاولى للبيان واقعة موقع الحال والثانية للتبعيض واقعة موقع المفعول أى بعض الشيء الذى هو عذاب الله تعالى ويجوز كونهما للتبعيض أى بعض شيء هو بعض عذاب الله والاعراب كما سبق ويجوز أن تكون الاولى مفعولا والثانية مصدرا أى فهل أنتم مغنون عنا بعض العذاب بعض الاغناء ويعضد الاول قوله تعالى فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار (قالوا) أى المستكبرون جوابا عن معاتبة الاتباع واعتذارا عما فعلوا بهم (لو هدانا الله) أى للايمان ووفقنا له (لهديناكم) ولكن ضللنا فاضللناكم أى اخترنا لكم مااخترناه لانفسنا أولو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم وأغنينا عنكم كما عرضناكم

له ولكن سددونا طريق الخلاص ولات حين مناص (سواء علينا أجزعنا) مما لقينا (أم صبرنا) على ذلك أى مستو علينا الجزع والصبر فى عدم الانجاء والهمزة وأم لتأكيد التسوية كما فى قوله تعالى سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم وانما أسندوهما ونسبوا استواءهما الى ضمير المتكلم المنتظم للمخاطبين أيضا مبالغة فى النهى عن التوبيخ باعلام أنهم شركاء لهم فيما ابتلوا به وتسلية لهم ويجوز أن يكون قوله سواء علينا الخ من كلام الفريقين على منوال قوله تعالى ذلك ليعلم أنى لم أخنه ويؤيده ماروى أنهم يقولون تعالوا نجزع فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم فيقولون تعالوا نصبر فيصبرون كذلك فلا ينفعهم فعند ذلك يقولون ذلك ولما كان عتاب الاتباع من باب الجزع ذيلوا جوابهم ببيان أن لا جدوى فى ذلك فقالوا (مالنا من محيص) من منجى ومهرب من العذاب من حاص الحمار اذا عدل بالفرار وهو اما اسم مكان كالمبيت والمصيف أو مصدر كالمغيب والمشيب وهى جملة مفسرة لاجمال مافيه الاستواء فلا محل لها من الاعراب أو حال مؤكدة أو بدل منه (وقال الشيطان) الذى أضل كلا الفريقين واستتبعهما عند ما عتباه بما قاله الاتباع للمستكبرين (لما قضى الامر) أى أحكم وفرغ منه وهو الحساب ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار خطيبا فى محفل الاشقياء من الثقلين (ان الله وعدكم وعد الحق) أى وعدا من حقه أن ينجز فأنجزه اووعدا أنجزه وهو الوعد بالبعث والجزاء (ووعدتكم) أى وعد الباطل وهو أن لا بعث ولا جزاء ولئن كان فالاصنام شفعاؤكم ولم يصرح ببطلانه لمادل عليه قوله (فاخلفتكم) أى موعدى على حذف المفعول الثانى أى نقضته جعل خلف وعده كالاخلاف منه كأنه كان قادرا على انجازه وأنى له ذلك (وما كان لى عليكم من سلطان) أى تسلط أو حجة تدل على صدقى (الا أن دعوتكم) الا دعائى اياكم اليه وتسويله وهو وان لم يكن من باب السلطان لكنه أبرزه فى معرزه على طريقة ٭ تحية بينهم ضرب وجيع ٭ مبالغة فى نفى السلطان عن نفسه كأنه قال انما يكون لى عليكم سلطان اذا كان مجرد الدعاء من بابه ويجوز كون الاستثناء منقطعا (فاستجبتم لى) فاسرعتم اجابتى (فلا تلومونى) بوعدى اياكم حيث لم يكن ذلك على طريقة القسر والالجاء كما يدل عليه الفاء وقرىء بالياء على وجه الالتفات كما فى قوله تعالى حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم (ولوموا أنفسكم) حيث استجبتم لى باختياركم حين دعوتكم بلا حجة ولا دليل بمجرد تزيين وتسويل ولم تستجيبوا ربكم اذ دعاكم دعوة الحق المقرونة بالبينات والحجج وليس مراده التنصل عن توجه اللائمة اليه بالمرة بل بيان أنهم أحق بها منه وليس فيه دلالة على استقلال العبد فى أفعاله كما زعمت المعتزلة

بل يكفى فى ذلك أن يكون لقدرته الكاسبة التى عليها يدور فلك التكليف مدخل فيه فانه سبحانه انما يخلق أفعاله حسبما يختاره وعليه تترتب السعادة والشقاوة وما قيل من أنه يستدعى أن يقال فلا تلومونى ولا أنفسكم فان الله قضى عليكم الكفر وأجبركم عليه مبنى على عدم الفرق بين مذهب أهل الحق وبين مسلك الجبرية (ما أنا بمصرخكم) أى بمغيثكم مما أنتم فيه من العذاب (وما أنتم بمصرخى) مما أنا فيه وانما تعرض لذلك مع أنه لم يكن فى حيز الاحتمال مبالغة فى بيان عدم اصراخه اياهم وايذانا بانه أيضا مبتلى بمثل ما ابتلوا به ومحتاج الى الاصراخ فكيف من اصراخ الغير ولذلك آثر الجملة الاسمية فكأن ما مضى كان جوابا منه عن توبيخهم وتقريعهم وهذا جواب عن استغاثتهم واستعانتهم به فى استدفاع ما دهمهم من العذاب وقرىء بكسر الياء (انى كفرت) اليوم (بما أشركتمونى من قبل) أى باشراككم اياى بمعنى تبرأت منه واستنكرته كقوله تعالى ويوم القيامة يكفرون بشرككم يعنى أن أشراككم لى بالله سبحانه هو الذى يطمعكم فى نصرتى لكم بان كان لكم على حق حيث جعلتمونى معبودا وكنت أود ذلك وأرغب فيه فاليوم كفرت بذلك ولم أحمده ولم أقبله منكم بل تبرأت منه ومنكم فلم يبق بينى وبينكم علاقة أو كفرت من قبل حين أبيت السجود لآدم بالذى أشركتمونيه وهو الله تعالى كما فى قوله سبحان ما سخركن لنا فيكون تعليلا لعدم اصراخه فان الكافر بالله سبحانه بمعزل من الاغاثة والاعانة سواء كان ذلك بالمدافعة أو الشفاعة واما جعله تعليلا لعدم اصراخهم اياه فلا وجه له اذ لا احتمال له حتى يحتاج الى التعليل ولان تعليل عدم اصراخهم بكفره يوهم أنهم بسبيل من ذلك لولا المانع من جهته (ان الظالمين لهم عذاب أليم) تتمة كلامه أو ابتداء كلام من جهة الله عز وجل وفى حكاية أمثاله لطف للسامعين وايقاظ لهم حتى يحاسبوا أنفسهم ويتدبروا عواقبهم (وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها باذن ربهم) أى بأمره أو بتوفيقه وهدايته وفى التعرض لوصف الربوبية مع الاضافة الى ضميرهم اظهار مزيد اللطف بهم والمدخلون هم الملائكة عليهم السلام وقرىء على صيغة التكلم فيكون قوله تعالى باذن ربهم متعلقا بقوله تعالى (تحيتهم فيها سلام) أى يحييهم الملائكة بالسلام باذن ربهم (ألم تر) الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم وقد علق بما بعده من قوله تعالى (كيف ضرب الله مثلا) أى كيف اعتمده ووضعه فى موضعه اللائق به (كلمة طيبة) منصوب بمضمر أى جعل كلمة طيبة هى كلمة التوحيد أو كل كلمة حسنة كالتسبيحة والتحميدة والاستغفار والتوبة والدعوة (كشجرة طيبة) أى حكم بأنها مثلها لانه تعالى صيرها مثلها فى الخارج وهو تفسير لقوله ضرب

الله مثلا كقولك شرف الامير زيدا كساه حلة وحمله على فرس ويجوز أن يكون كلمة بدلا من مثلا وكشجرة صفتها أو خبر مبتدا محذوف أى هى كشجرة وأن يكون اول مفعولى ضرب اجراء له مجرى جعل قد أخر عن ثانيهما أعنى مثلا لئلا يبعد عن صفته التى هى كشجرة وقد قرئت بالرفع على الابتداء (أصلها ثابت) أى ضارب بعروقه فى الارض وقرأ أنس بن مالك رضى الله عنه كشجرة طيبة ثابت أصلها وقراءة الجماعة أقوى سبكا وأنسب بقرينته أعنى قوله تعالى (وفرعها) أى أعلاها (فى السماء) فى جهة العلو ويجوز أن يراد وفروعها على الاكتفاء بلفظ الجنس عن الجمع (تؤتى أكلها) تعطى ثمرها (كل حين) وقته الله تعالى لاثمارها (باذن ربها) بارادة خالقها والمراد بالشجرة المنعوتة اما النخلة كما روى مرفوعا أو شجرة فى الجنة (ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون) لان فى ضربها زيادة افهام وتذكير فانه تصوير للمعانى بصور المحسوسات (ومثل كلمة خبيثة) هى كلمة الكفر والدعاء اليه أو تكذيب الحق أو مايعم الكل أو كل كلمة قبيحة (كشجرة خبيثة) أى كمثل شجرة خبيثة قيل هى كل شجرة لا يطيب ثمرها كالحنظل والكشوث ونحوهما وتغيير الاسلوب للايذان بان ذلك غير مقصود الضرب والبيان وانما ذلك أمر ظاهر يعرفه كل أحد (اجتثت) استؤصلت وأخذت جثتها بالكلية (من فوق الارض) لكون عروقها قريبة منه (مالها من قرار) استقرار عليها (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) الذى ثبت بالحجة عندهم وتمكن فى قلوبهم وهو الكلمة الطيبة التى ذكرت صفتها العجيبة (فى الحياة الدنيا فلا يزالون عنه اذا افتتنوا) فى دينهم كزكريا ويحيى وجرجيس وشمسون والذين فتنهم أصحاب الأخدود (وفى الآخرة) فلا يتلعثمون اذا سئلوا عن معتقدهم فى الموقف ولا تدهشهم أهوال القيامة أو عند سؤال القبر ، روى أنه عليه الصلاة والسلام ذكر قبض روح المؤمن فقال ثم يعاد روحه فى جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فى قبره فيقولون من ربك ومادينك ومن نبيك فيقول ربى الله ودينى الاسلام ونبيي محمد صلى الله عليه وسلم فينادى مناد من السماء انه صدق عبدى فذلك قوله تعالى يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت وهذا مثال إيتاء الشجرة المذكورة أكلها كل حين قال الثعلبى فى تفسيره أخبرنى أبو القاسم بن حبيب فى سنة ست وثمانين وثلثمائة قال سمعت أبا الطيب محمد بن على الخياط يقول سمعت سهل بن عمار العملى يقول رأيت يزيد بن هرون فى منامى بعد موته فقلت مافعل الله بك قال أتانى فى قبرى ملكان فظان فقالا من ربك وما دينك ومن نبيك فأخذت بلحيتى البيضاء فقلت لها ألمثلى يقال هذا وقد علمت الناس جوابكما ثمانين سنة فذهبا (ويضل الله الظالمين) أى يخلق فيهم الضلال عن

الحق الذى ثبت المؤمنين عليه حسب إرادتهم واختيارهم والمراد بهم الكفرة بدليل مايقابله ووصفهم بالظلم أما باعتبار وضعهم للشىء فى غير موضعه وأما باعتبار ظلمهم لأنفسهم حيث بدلوا فطرة الله التى فطر الناس عليها فلم يهتدوا الى القول الثابت أو كل من ظلم نفسه بالاقتصار على التقليد والاعراض عن البينات الواضحة فلا يتثبت فى مواقف الفتن ولا يهتدى الى الحق فالمراد بالذين آمنوا حينئذ المخلصون فى الايمان الراسخون فى الايقان كما ينبىء عنه التثبيت لكنه يوهم كون كلمة التوحيد اذا كانت لا عن ايقان داخلة تحت مالا قرار له من الشجرة المضروبة مثلا (ويفعل الله مايشاء) من تثبيت بعض واضلال آخرين حسبما توجبه مشيئته التابعة للحكم البالغة المقتضية بذلك وفى اظهار الاسم الجليل فى الموضعين من الفخامة وتربية المهابة مالا يخفى مع مافيه من الايذان بالتفاوت فى مبدأ التثبيت والاضلال فان مبدأ صدور كل منهما عنه سبحانه وتعالى من صفاته العلا غير ماهو مبدأ صدور الآخر (ألم تر) تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد مما صنع الكفرة من الأباطيل التى لاتكاد تصدر عمن له أدنى ادراك أى ألم تنظر (الى الذين بدلوا نعمة الله) أى شكر نعمته تعالى بأن وضعوا موضعه (كفرا) عظيما وغمصالها أو بدلوا نفس النعمة كفرا فانهم لما كفروها سلبوها فصاروا مستبدلين بها كفرا كأهل مكة حيث خلقهم الله سبحانه وأسكنهم حرمه الآمن الذى يجبى اليه ثمرات كل شىء وجعلهم قوام بيته وشرفهم بمحمد عليه الصلاة والسلام فكفروا ذلك فقحطوا سبع سنين وقتلوا وأسروا يوم بدر فصاروا أذلاء مسلوبى النعمة باقين بالكفر بدلها وعن عمر وعلى رضى الله عنهما هم الافجران من قريش بنو المغيرة وبنو أميه أما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر وأما بنو أمية فتمتعوا إلى حين كأنهما يتأولان ماسيتلى من قوله عز وجل قل تمتعوا الآية (وأحلوا) أى أنزلوا (قومهم) بارشادهم اياهم الى طريقة الشرك والضلال وعدم التعرض لحلولهم لدلالة الاحلال عليه إذ هو فرع الحلول كقوله تعالى يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار (دار البوار) دار الهلاك الذى لا هلاك وراءه (جهنم) عطف بيان لها وفى الابهام ثم البيان مالا يخفى من التهويل (يصلونها) حال منها أو من قومهم أى داخلين فيها مقاسين لحرها أو استئناف لبيان كيفية الحلول أو مفسر لفعل يقدر ناصبا لجهنم فالمراد بالاحلال المذكور حينئذ تعريضهم للهلاك بالقتل والاسر لكن قوله تعالى قل تمتعوا فان مصيركم الى النار أنسب بالتفسير الاول (وبئس القرار) على حذف المخصوص بالذم أى بئس المقر جهنم أو بئس القرار قرارهم فيها وفيه بيان أن حلولهم وصليهم على

وجه الدوام والاستمرار (وجعلوا) عطف على أحلوا وماعطف عليه داخل معهما في حيز الصلة وحكم التعجيب أى جعلوا فى اعتقادهم وحكمهم (لله) الفرد الصمد الذى ليس كمثله شيء وهو الواحد القهار (أندادا) أشباها فى التسمية أو فى العبادة (ليضلوا) قومهم الذين يشايعونهم حسبما ضلوا (عن سبيله) القويم الذى هو التوحيد و يوقعوهم فى ورطة الكفر والضلال ولعل تغيير الترتيب مع أن مقتضى ظاهر النظم أن يذكر كفرانهم نعمة الله تعالى ثم كفرهم بذاته تعالى باتخاذ الانداد ثم اضلالهم لقومهم المؤدى الى احلالهم دار البوار لتثنية التعجيب وتكريره والايذان بأن كل واحد من وضع الكفر موضع الشكر واحلال القوم دار البوار واتخاذ الانداد للاضلال أمر يقضى منه العجب ولو سيق النظم على نسق الوجود لربما فهم التعجيب من مجموع الهنات الثلاث كما فى قصة البقرة وقرىء ليضلوا بالفتح وأياما كان فليس ذلك غرضا حقيقيا لهم من اتخاذ الانداد لكن لما كان ذلك نتيجة له شبه بالغرض وأدخل عليه اللام بطريق الاستعارة التبعية (قل) تهديداً لأولئك الضالين المضلين ونعيا عليهم وايذانا بأنهم لشدة ابائهم قبول الحق وفرط انهماكهم فى الباطل وعدم ارعوائهم عن ذلك بحال احقاء بأن يضرب عنهم صفحا ويعطف عنهم عنان العظة ويخلوا وشأنهم ولا ينهوا عنه بل يؤمروا بمباشرته مبالغة فى التخلية والخذلان ومسارعة إلى بيان عاقبته الوخيمة ويقال لهم (تمتعوا) بما أنتم عليه من الشهوات التى من جملتها كفران النعم العظام واستتباع الناس فى عبادة الاصنام (فان مصيركم الى النار) ليس إلا فلابد لكم من تعاطى مايوجب ذلك ويقتضيه من أحوالكم بل هى فى الحقيقة صورة لدخولها ومثال له حسبما يلوح به قوله سبحانه وأحلوا قومهم دار البوار الخ فهو تعليل للامر المأمور وفيه من التهديد الشديد والوعيد الاكيد مالا يوصف أو قل لهم تصويراً لحالهم وتعبيرا عما يلجئهم الى ذلك تمتعوا ايذانا بأنهم لفرط انغماسهم فى التمتع بما هم فيه من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم مأمورون بذلك من قبل آمر الشهوة مذعنون لحكمه منقادون لأمره كدأب مأمور ساع فى خدمة آمر مطاع فليس قوله تعالى فان مصيركم إلى النار حينئذ تعليلا للامر بل هو جواب شرط ينسحب عليه الكلام كأنه قيل هذه حالكم فان دمتم عليه فان مصيركم إلى النار وفيه التهديد والوعيد لا فى الامر (قل لعبادى الذين آمنوا) خصهم بالاضافة اليه تنويها لهم وتنبيها على أنهم المقيمون لوظائف العبودية الموفون بحقوقها وترك العاطف بين الامرين للايذان بتباين حالهما باعتبار المقول تهديدا وتشريفا والمقول ههنا محذوف دل عليه الجواب أى قل لهم أقيموا وأنفقوا (يقيموا الصلوة

و ينفقوا مما رزقناهم) أى يداوموا على ذلك وفيه إيذان بكمال مطاوعتهم الرسول صلى الله عليه وسلم وغاية مسارعتهم الى الامتثال بأوامره وقد جوزوا أن يكون المقول يقيموا وينفقوا بحذف لام الامر عنهما وإنما حسن ذلك دون الحذف فى قوله

محمد تفد نفسك كل نفس   إذا ماخفت من أمر تبالا

لدلالة قل عليه وقيل هما جوابا أقيموا وأنفقوا قد أقيما مقامهما وليس بذاك (سراً وعلانية) منتصبان على المصدرية من الامر المقدر لا من جواب الامر المذكور أى أنفقوا انفاق سر وعلانية والاحب فى الانفاق اخفاء المتطوع به واعلان الواجب والمراد حث المؤمنين على الشكر لنعم الله سبحانه بالعبادة البدنية والمالية وترك التمتع بمتاع الدنيا والركون اليها كما هو صنيع الكفرة (من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه) فيبتاع المقصر مايتلافى به تقصيره أو يفتدى به نفسه والمقصود نفى عقد المعاوضة بالمرة وتخصيص البيع بالذكر للايجاز مع المبالغة فى نفى العقد اذ انتفاء البيع يستلزم انتفاء الشراء على أبلغ وجه وانتفاؤه ربما يتصور مع تحقق الايجاب من قبل البائع (ولا خلال) ولا مخالة فيشفع له خليل أو يسامحه بمال يفتدى به نفسه أو من قبل أن يأتى يوم لا أثر فيه لما لهجوا بتعاطيه من البيع والمخالفة ولا انتفاع بذلك وانما الانتفاع والارتفاق فيه بالانفاق لوجه الله سبحانه والظاهر أن من متعلقة بأنفقوا وتذكير اتيان ذلك اليوم لتأكيد مضمونه كما فى سورة البقرة من حيث أن كلا من فقدان الشفاعة ومايتدارك به التقصير معاوضة وتبرعا وانقطاع آثار البيع والخلال الواقعين فى الدنيا وعدم الانتفاع بهما من أقوى الدواعى الى الاتيان بما تبقى عوائده وتدوم فوائده من الانفاق فى سبيل الله عز وجل أو من حيث أن ادخار المال وترك انفاقه انما يقع غالباً للتجارات والمهاداة فحيث لا يمكن ذلك فى الآخرة فلا وجه لادخاره الى وقت الموت وتخصيص التأكيد بذلك لميل الطباع الى المال وكونها مجبولة على حبه والضنة به ولا يبعد أن يكون تأكيدا لمضمون الامر باقامة الصلاة أيضا من حيث أن تركها كثيرا ما يكون بالاشتغال بالبياعات والمخالات كما فى قوله تعالى واذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا اليها وقرىء بالفتح فيهما على ارادة النفى العام ودلالة الرفع على ذلك باعتبار خطابى هو وقوعه فى جواب هل فيه بيع أو خلال (الله) مبتدأ خبره (الذى خلق السموات) وما فيها من الاجرام العلوية (والارض) ومافيها من أنواع المخلوقات لما ذكر أحوال الكافرين لنعم الله تعالى وأمر المؤمنين باقامة مراسم الطاعة شكرا لنعمه شرع فى تفصيل مايستوجب على كافة الانام المثابرة على الشكر والطاعة من النعم العظام والمنن الجسام حثا للمؤمنين عليها وتقريعاً للكفرة المخلين بها الواضعين موضعها الكفر والمعاصى

وفى جعل المبتدا الاسم الجليل والخبر الاسم الموصول بتلك الافاعيل العظيمة من خلق هذه الاجرام العظام وانزال الامطار واخراج الثمرات وما يتلوها من الآثار العجيبة مالا يخفى من تربية المهابة والدلالة على قوة السلطان (وأنزل من السماء) أى السحاب فان كل ما علاك سماء . أو من الفلك فان المطر منه يبتدئ الى السحاب ومنه الى الارض على مادلت عليه ظواهر النصوص أو من أسباب سماوية تثير الاجزاء الرطبة من أعماق الارض الى الجو فينعقد سحابا ماطرا وأياما كان فمن ابتدائية (ماء) أى نوعا منه هو المطر . وتقديم المجرور على المنصوب اما باعتبار كونه مبدأ لنزوله أو لتشريفه كما فى قولك أعطاه السلطان من خزانته مالا أو لما مر مرارا من التشويق الى المؤخر (فأخرج به) بذلك الماء (من الثمرات) الفائتة للحصر اما لان صيغ الجموع يتعاور بعضها موضع بعض واما لانه أريد بمفردها جماعة الثمرة التى فى قولك أدركت ثمرة بستان فلان (رزقا لكم) تعيشون به وهو بمعنى المرزوق شامل للمطعوم والملبوس مفعول لاخرج ومن للتبيين كقولك أنفقت من الدراهم ألفا . ويجوز أن يكون من الثمرات مفعولا ورزقا حالا منه أو مصدرا من أخرج بمعنى رزق أو للتبعيض بدليل قوله تعالى «فأخرجنا به ثمرات» كأنه قيل أنزل من السماء بعض الماء فأخرج به بعض الثمرات ليكون بعض رزقكم اذلم ينزل من السماء كل الماء ولا أخرج بالمطر كل الثمار ولا جعل كل الرزق ثمرا . وخروج الثمرات وان كان بمشيئته عز وجل وقدرته لكن جرت عادته تعالى بافاضة صورها وكيفياتها على المواد الممتزجة من الماء والتراب أو أودع فى الماء قوة فاعلة وفى الارض قوة قابلة يتولد من اجتماعهما أنواع الثمار وهو قادر على ايجاد الاشياء بلا أسباب ومواد كما أبدع نفوس الاسباب كذلك لما أن له تعالى فى انشائها مدرجا من طور الى طور صنائع وحكما يجدد فيها لاولى الابصار عبرا وسكونا الى عظيم قدرته ليس ذلك فى ابداعها دفعة وقوله لكم صفة لقوله رزقا ان أريد به المرزوق ومفعول به ان أريد به المصدر كانه قيل رزقا اياكم (وسخر لكم الفلك) بأن أقدركم على صنعتها واستعمالها بما ألهمكم كيفية ذلك (لتجرى فى البحر) جريا تابعا لارادتكم (بأمره) بمشيئته التى نيط بها كل شىء وتخصيصه بالذكر للتنصيص على أن ذلك ليس بمزاولة الاعمال واستعمال الآلات كما يتراءى من ظاهر الحال (وسخر لكم الانهار) ان أريد بها المياه العظيمة الجارية فى الانهار العظام كما يومىء اليه ذكرها عند البحر فتسخيرها جعلها معدة لانتفاع الناس حيث يتخذون منها جداول يسقون بها زروعهم وجناتهم وما أشبه ذلك وان أريد بها نفس الانهار فتسخيرها تيسيرها لهم (وسخر لكم الشمس والقمر دائبين) يدأبان فى سيرهما وانارتهما أصالة

وخلافة واصلاحهما لمانيط بهماصلاحه من المكونات (وسخر لكم الليل والنهار) يتعاقبان خلفة لمنامكم ومعاشكم ولعقد الثمار وانضاجها ذكرسبحانه وتعالى أنواع النعم الفائضة عليهم وأبرز كل واحدة منها فى جملة مستقلة تنويها لشأنها وتنبيها على رفعة مكانها وتنصيصا على كون كل منها نعمة جليلة مستوجبة للشكر . وفى التعبير عن التصريف المتعلق بماذكر من الفلك والانهار والشمس والقمر والليل والنهار بالتسخير من الاشعار بما فيها من صعوبة المأخذ وعزة المنال والدلالة على عظم السلطان وشدة المحال مالا يخفى . وتأخير تسخير الشمس والقمر عن تسخير ماتقدمه من الامور المعدودة مع ما بينه وبين خلق السموات من المناسبة الظاهرة لاستتباع ذكرها لذكر الارض المستدعى لذكر انزال الماء منها اليها الموجب لذكر اخراج الرزق الذى من جملته ما يحصل بواسطة الفلك والانهار أو للتفادى عن توهم كون الكل أعنى خلق السموات والارض وتسخير الشمس والقمر نعمة واحدة كما مر فى قصة البقرة (وآتاكم من كل ماسألتموه) أى أعطاكم بعض جميع ما سألتموه حسبما تقتضيه مشيئته التابعة للحكمة والمصلحة كقوله سبحانه « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد » أو آتاكم من كل ذلك ما احتجتم اليه ونيط به انتظام أحوالكم على الوجه المقدر فكأنكم سألتموه أو كل ما طلبتموه بلسان الاستعداد أو كل ماسألتموه على أن من للبيان وكلمة كل للتكثير كقولك فلان يعلم كل شىء وأتاه كل الناس وعليه قوله عزوجل « فتحنا عليهم أبواب كل شىء » وقيل الاصل وآتاكم من كل ما سألتموه ومالم تسألوه فحذف الثانى لدلالة ماأبقى على ما أبقى . وقرئ بتنوين كل على أن ما نافية ومحل ماسألتموه النصب على الحالية أى آتاكم من كل غير سائليه (وإن تعدوا نعمة الله) التى أنعم بها عليكم (لاتحصوها) لاتطيقوا بحصرها ولو اجمالا فانها غير متناهية وأصل الاحصاء أن الحاسب اذا بلغ عقدا معينا من عقود الاعداد وضع حصاة ليحفظ بها ففيه ايذان بعدم بلوغ مرتبة معتد بها من مراتبها فضلا عن بلوغ غايتها كيف لا وما من فرد من افراد الناس وان كان فى أقصى مراتب الفقر والافلاس ممنوا باصناف العنايا مبتلى بانواع الرزايا فهو بحيث لو تأملته ألفيته متقلبا فى نعم لاتحد ومنن لاتحصى ولا تعد كانه قد أعطى كل ساعة وآن من النعماء ما حواه حيطة الامكان وان كنت فى ريب من ذلك فقدر أنه ملك ملك أقطار العالم ودانت له كافة الامم وأذعنت لطاعته السراة وخضعت لهيبته رقاب العتاة وفاز بكل مرام ونال كل منال وحاز جميع ما فى الدنيا من أصناف الاموال من غير ند يزاحمه ولا شريك يساهمه بل قدر أن جميع ما فيهامن حجر ومدر يواقيت غالية ونفائس درر ثم قدر أنه قد وقع من فقد مشروب أو مطعوم

فى حالة بلغت نفسه الحلقوم فهل يشترى وهو فى تلك الحال بجميع ماله من الملك والمال لقمة تنجيه عن رواه أو شربة ترويه من ظمأه أم يختار الهلاك فتذهب الاموال والاملاك بغير بدل يبقى عليه ولا نفع يعود اليه كلا بل يبذل لذلك كل ما تحويه اليدان كائنا ما كان وليس فى صفقته شائبة الخسران فاذن تلك اللقمة والشربة خير مما فى الدنيا بألف رتبة مع انهما فى طرف الثمام ينالهما متى شاء من الليالى والايام . أو قدر انه قد احتبس عليه النفس فلا دخل منه ما خرج ولاخرج منه ما ولج والحين قد حان وأتاه الموت من كل مكان أما يعطى ذلك كله بمقابلة نفس واحد بل يعطيه وهو لرأيه حامد فاذن هو خير من أموال الدنيا بجملتها ومطالبها برمتها مع أنه قد أبيح له كل آن من آنات الليالى والايام حال اليقظة والمنام هذا من الظهور والجلاء بحيث لا يكاد يخفى على أحد من العقلاء وان رمت العثور على حقيقة الحق والوقوف على كل ما جل من السرودق فاعلم ان الانسان بمقتضى حقيقته الممكنة بمعزل عن استحقاق الوجود ومايتبعه من الكمالات اللائقة والملكات الرائقة بحيث لو انقطع ما بينه وبين العناية الالهية من العلاقة لما استقر له القرار ولا اطمأنت به الدار الا فى مطمورة العدم والبوار ومهاوى الهلاك والدمار لكن يفيض عليه من الجناب الاقدس تعالى شأنه وتقدس فى كل زمان يمضى وكل آن يمر وينقضى من أنواع الفيوض المتعلقة بذاته ووجوده وسائر صفاته الروحانية والنفسانية والجسمانية مالا يحيط به نطاق التعبير ولا يعلمه الاالعليم الخبير . وتوضيحه أنه كما لا يستحق الوجود ابتداء لا يستحقه بقاء وانما ذلك من جناب المبدى الاول عز وجل فكما لا يتصور وجوده ابتداء مالم ينسد عليه جميع أنحاء عدمه الاصلى لا يتصور بقاؤه على الوجود بعد تحققه بعلته مالم ينسد عليه جميع أنحاء عدمه الطارىء لان الاستمرار والدوام من خصائص الوجود الواجبى وأنت خبير بان مايتوقف عليه وجوده من الامور الوجودية التى هى علله وشرائطه وان وجب كونها متناهية لوجوب تناهى ما دخل تحت الوجود لكن الامور العدمية التى لها دخل فى وجوده ليست كذلك اذ لا استحالة فى أن يكون لشىء واحد موانع غير متناهية وانما الاستحالة فى دخولها تحت الوجود فارتفاع تلك الموانع التى لا تتناهى أعنى بقاءها على العدم مع امكان وجودها فى أنفسها فى كل آن من آنات وجوده نعم غير متناهية حقيقة لا ادعاء وكذلك الحال فى وجودات علله وشرائطه القريبة والبعيدة ابتداء وبقاء وكذا فى كمالاته التابعة لوجوده فاتضح أنه يفيض عليه كل آن نعما لا تتناهى من وجوه شتى فسبحانك سبحانك ما أعظم سلطانك لاتلاحظك العيون بانظارها

ولا تطالعك العقول بافكارها شأنك لا يضاهي واحسانك لايتناهى ونحن فى معرفتك حائرون وفى اقامة مراسم شكرك قاصرون نسألك الهداية الى مناهج معرفتك والتوفيق لاداء حقوق نعمتك لاتحصى ثناء عليك لااله الا أنت نستغفرك و نتوب اليك (إن الأنسان لظلوم) يظلم النعمة باغفال شكرها أو بوضعه اياها فى غير موضعها أو يظلم نفسه بتعريضها للحرمان (كفار) شديد فى الكفران. وقيل ظلوم فى الشدة يشكو ويجزع كفار فى النعمة يجمع و يمنع . واللام فى الانسان للجنس ومصداق الحكم بالظلم والكفران بعض من وجدافيه من افراده و يدخل فى ذلك الذين بدلوا نعمة الله كفرا الخ دخولا أوليا (و إذ قال ابراهيم) أى واذكر وقت قوله عليه الصلاة والسلام والمقصود من تذكيره تذكير ماوقع فيه من مقالاته عليه السلام على نهج التفصيل والمراد به تأكيد ماسلف من تعجيبه عليه السلام ببيان فن آخر من جناياتهم حيث كفروا بالنعم الخاصة بهم بعدما كفروا بالنعم العامة وعصوا أباهم ابراهيم عليه السلام حيث أسكنهم بمكة شرفها الله تعالى لاقامة الصلاة والاجتناب عن عبادة الاصنام والشكر لنعم الله تعالى وسأله تعالى أن يجعله بلدا آمنا و يرزقهم من الثمرات وتهوى قلوب الناس اليهم من كل أوب سحيق فاستجاب الله تعالى دعاءه وجعله حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل شيء فكفروا بتلك النعم العظام واستبدلوا بالبلد الحرام دار البوار وجعلوا لله أندادا وفعلوا مافعلوا (رب اجعل هذا البلد) يعنى مكة شرفها الله سبحانه (آمنا) أى ذا أمن أو آمنا أهله بحيث لا يخاف فيه على ما مر فى سورة البقرة والفرق بينه و بين ما فيها من قوله رب اجعل هذا بلدا آمنا أن المسئول هناك البلدية والأمن معا وههنا الامن فقط حيث جعل هو المفعول الثانى للجعل وجعل البلد صفة للمفعول الاول فان حمل على تعدد السؤال فلعله عليه السلام سأل أولا كلا الامرين فاستجيب له فى أحدهما وتأخر الآخر الى وقته المقدر لما يقتضيه من الحكمة الداعية اليه ثم كرر السؤال كما هو المعتاد فى الدعاء والابتهال أو كان المسئول أولا مجرد الامن المصحح للسكن كما فى سائر البلاد وقد أجيب اليه وثانيا الامن المعهود أو كان هو المسئول فيهما وقد أجيب اليه أيضا لكن السؤال الثانى للاستدامة والاقتصار على ذلك لانه المقصود الاصلى أو لان المعتاد فى البلدية الاستمرار بعد التحقق بخلاف الامن وان حمل على وحدة السؤال وتكرر الحكاية كما هو المتبادر فالظاهر أن المسئول كلا الامرين وقد حكى أولا واقتصر ههنا على حكاية سؤال الامن لا لمجرد أن نعمة الامن أدخل فى استيجاب الشكر فذكره أنسب بمقام تقريع الكفرة على اغفاله كما قيل بل لان سؤال البلدية قد حكى بقوله تعالى «فاجعل أفئدة من الناس

تهوى إليهم » اذ المسئول هويتها اليهم للمساكنة معهم لا للحج فقط وهو عين سؤال البلدية قد حكى بعبارة أخرى وكان ذلك أول ما قدم عليه السلام مكة كما روى سعيد ابن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه عليه الصلاة والسلام لما أسكن اسماعيل وهاجر هناك وعاد متوجها الى الشام تبعته هاجر وجعلت تقول الى من تكلنا فى هذا البلقع وهو لا يرد عليها جوابا حتى قالت آلله أمرك بهذا فقال نعم قالت اذا لا يضيعنا فرضيت ومضى حتى اذا استوى على ثنية كداء أقبل على الوادى فقال ربنا انى أسكنت الآية وانما فصل مابينهما تثنية للامتنان وايذانا بأن كلا منهما نعمة جليلة مستتبعة لشكر كثير كما فى قصة البقرة (واجنبنى وبنى) بعدنى واياهم (أن نعبد الأصنام) واجعلنا منها فى جانب بعيد أى ثبتنا على ما كنا عليه من التوحيد وملة الاسلام والبعد عن عبادة الأصنام . وقرئ وأجنبنى من الأفعال وهما لغة أهل نجد يقولون جنبنى شره وأجنبنى شره وأما أهل الحجاز فيقولون جنبنى شره . وفيه دليل على أن عصمة الانبياء عليهم السلام بتوفيق الله تعالى . والظاهر أن المراد بنيه أو لاده الصلبية فلا احتجاج به لابن عيينة رضى الله عنه على أن أحدا من أولاد اسمعيل عليه السلام لم يعبد الصنم وانما كان لكل قوم حجر نصبوه وقالوا هو حجر والبيت حجر فكانوا يدورون به ويسمونه الدوار فاستحب ان يقال طاف بالبيت ولا يقال دار بالبيت وليت شعرى كيف ذهب عليه مافى القرآن العظيم من قوارع تنعى على قريش عبادة الاصنام على ان فيما ذكره كرا على ما فر منه (رب إنهن) أى الاصنام (أضللن كثيرا من الناس) أى تسببن له كقوله تعالى « وغرتهم الحياة الدنيا » وهو تعليل لدعائه وانما صدره بالنداء اظهارا لاعتنائه به ورغبة فى استجابته (فمن تبعنى) منهم فيما أدعو اليه من التوحيد وملة الاسلام (فانه منى) أى بعضى قاله عليه السلام مبالغة فى بيان اختصاصه به أو متصل بى لا ينفك عنى فى أمر الدين (ومن عصانى) أى لم يتبعنى والتعبير عنه بالعصيان للايذان بأنه عليه السلام مستمر على الدعوة وأن عدم اتباع من لم يتبعه انما هو لعصيانه لا لانه لم تبلغه الدعوة (فانك غفور رحيم) قادر على ان تغفر له وترحمه ابتداء أو بعد توبته . وفيه أن كل ذنب فلله تعالى أن يغفره حتى الشرك خلا أن الوعيد قضى بالفرق بينه وبين غيره (ربنا) آثر عليه السلام ضمير الجماعة لا لما قيل من تقدم ذكره وذكر بنيه والا لراعاه فى قوله رب انهن الخ بل لان الدعاء المصدر به وما أورده بصدد تمهيد مبادى اجابته من قوله (إنى أسكنت) الآية متعلق بذريته فالتعرض لوصف ربوبيته تعالى لهم أدخل فى القبول واجابة المسئول (من ذريتى) أى بعضهم أو ذرية من ذريتى فحذف المفعول وهو

اسمعيل عليه السلام وما سيو اده فان اسكانه حيث كان على وجه الاطمئنان متضمن لاسكانهم
روى أن هاجر أم اسمعيل عليه السلام كانت لسارة فوهبتها من ابراهيم عليه السلام فلما ولدت
له اسمعيل عليه غارت عليهما فناشدته أن يخرجهما من عندها فأخرجهما الى ارض مكة
فاظهر الله تعالى عين زمزم (بواد غير ذى زرع) لا يكون فيه زرع أصلا وهو وادى
مكة شرفها الله تعالى (عند بيتك) ظرف لأسكنت كقولك صليت بمكة عند الركن لا
انه صفة لواد أو بدل منه اذ المقصود اظهار كون ذلك الاسكان مع فقدان مباديه
بالمرة لمحض التقرب الى الله تعالى والالتجاء الى جواره الكريم كما ينبىء عنه التعرض
لعنوان الحرمة المؤذن بعزة الملتجا وعصمته عن المكاره فى قوله تعالى (المحرم) حيث
حرم التعرض له والتهاون به أو لم يزل معظما ممنعا تهابه الجبابرة فى كل عصر أو منع منه
الطوفان فلم يستول عليه ولذلك سمى عتيقا. وتسميته اذ ذاك بيتا ولم يكن له بناء وانما
كان نشزا مثل الرابية تأتيه السيول فتأخذ ذات اليمين وذات الشمال ليست باعتبار ما
سيئول اليه الامر من بنائه عليه السلام فانه ينزع الى اعتبار عنوان الحرمة أيضا كذلك
بل انما هى باعتبار ما كان من قبل فان تعدد بناء الكعبة المعظمة مما لا ريب فيه وانما
الاختلاف فى كمية عدده وقد ذكرناها فى سورة البقرة بفضل الله تعالى (ربنا ليقيموا الصلاة)
متوجهين اليه متبركين به وهو متعلق بأسكنت. وتخصيصها بالذكر من
بين سائر شعائر الدين لفضلها. وتكرير النداء وتوسيطه لاظهار كمال العناية باقامة الصلاة
والاهتمام بعرض أن الغرض من اسكانهم بذلك الوادى البلقع ذلك المقصد الأقصى
والمطلب الأسنى وكل ذلك لتمهيد مبادى اجابة دعائه واعطاء مسئوله الذى لا يتسنى
ذلك المرام الا به ولذلك أدخل عليه الفاء فقال (فاجعل أفئدة من الناس) أى أفئدة
من أفئدتهم فمن للتبعيض ولذلك قيل لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليهم فارس والروم
وأما ما زيد عليه من قولهم ولحجت اليهود والنصارى فغير مناسب للمقام اذ المسئول
توجيه القلوب اليهم للمساكنة معهم لا توجيهها إلى البيت للحج والا لقيل تهوى اليه
فانه عين الدعاء بالبلدية فقد حكى بعبارة أخرى كما مر. أو لابتداء الغاية كقولك القلب
منى سقيم أى أفئدة ناس. وقرىء آفدة على القلب كآدر فى أدؤر أو على انه اسم فاعل
من أفدت الرحلة أى عجلت أى جماعة من الناس وأفدة بطرح الهمزة من الأفئدة أو
على النعت من أفد (تهوى إليهم) تسرع اليهم شوقا وودادا. وقرىء على البناء للمفعول
من أهواه غيره وتهوى من باب علم أى تحب. وتعديته بالى لتضمنه معنى الشوق والنزوع
وأول آثار هذه الدعوة ما روى أنه مرت رفقة من جرهم تريد الشام فرأوا الطير

تحوم على الجبل فقالوا ان هذا الطائر لعائف على الماء فأشرفوا فاذاهم بهاجر فقالوا لها ان شئت كنا معك وآنسناك والماء ماؤك فأذنت لهم وكانوا معها إلى أن شب اسماعيل عليه السلام وماتت هاجر فتزوج اسماعيل منهم كما هو المشهور (وارزقهم) أى ذريتى الذين أسكنتهم هناك أو مع من ينحاز اليهم من الناس وانما لم يخص الدعاء بالمؤمنين منهم كما فى قوله « وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر » اكتفاء بذكر إقامة الصلاة (من الثمرات) من أنواعها بأن يجعل بقرب منه قرى يحصل فيها ذلك. أو يجبى اليه من الأقطار الشاسعة وقد حصل كلاهما حتى أنه يجتمع فيه الفواكه الربيعية والصيفية والخريفية فى يوم واحد. روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الطائف كانت من أرض فلسطين فلما دعا ابراهيم عليه السلام بهذه الدعوة رفعها الله تعالى ووضعها حيث وضعها رزقا للحرم وعن الزهرى رضى الله عنه أنه تعالى نقل قرية من قرى الشام فوضعها بالطائف لدعوة ابراهيم عليه السلام (لعلهم يشكرون) تلك النعمة باقامة الصلاة وأداء سائر مراسم العبودية. وقيل اللام فى ليقيموا لام الامر والمراد أمرهم باقامة الصلاة والدعاء من الله تعالى بتوفيقهم لها ولا يناسبه الفاء فى قوله تعالى فاجعل الخ وفى دعائه عليه السلام من مراعاة حسن الادب والمحافظة على قوانين الضراعة وعرض الحاجة واستنزال الرحمة واستجلاب الرأفة مالا يخفى فانه عليه السلام بذكر كون الوادى غير ذى زرع بين كمال افتقارهم الى المسئول. وبذكر كون اسكانهم عند البيت المحرم أشار الى أن جوار الكريم يستوجب افاضة النعيم. وبعرض كون ذلك الاسكان مع كمال إعواز مرافق المعاش لمحض اقامة الصلاة وأداء حقوق البيت مهد جميع مبادى اجابة السؤال ولذلك قرنت دعوته عليه السلام بحسن القبول (ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن) من الحاجات وغيرها والمراد بما نخفى ما يقابل ما نعلن سواء تعلق به الاخفاء أولا أى تعلم ما نظهره وما لا نظهره فان علمه تعالى متعلق بما لا يخطر بباله مما فيه من الاحوال الخفية فضلا عن اخفائه وتقديم ما نخفى على ما نعلن لتحقيق المساواة بينهما فى تعلق العلم بهما على أبلغ وجه فكأن تعلقه بما يخفى أقدم منه بما يعلن أو لأن مرتبة السر والخفاء متقدمة على مرتبة العلن اذ ما من شىء يعلن الا وهو قبل ذلك خفى فتعلق علمه سبحانه بحالته الاولى أقدم من تعلقه بحالته الثانية وقصده عليه السلام أن اظهار هذه الحاجات وما هو من مباديها وتتماتها ليس لكونها غير معلومة لك بل انما هو لاظهار العبودية والتخشع لعظمتك والتذلل لعزتك وعرض الافتقار الى ما عندك والاستعجال لنيل أياديك. وتكرير النداء للمبالغة فى الضراعة والابتهال وضمير الجماعة لان المراد ليس مجرد علمه تعالى بسره وعلنه

بل بجميع خفايا الملك والملكوت وقد حققه بقوله على وجه الاعتراض (وما يخفى على الله من شيء فى الأرض ولا فى السماء) لما انه العالم بالذات فما من أمر يدخل تحت الوجود كائنا ما كان فى زمان من الازمان الا ووجوده فى ذاته علم بالنسبة اليه سبحانه وانما قال وما يخفى على الله الخ دون أن يقول ويعلم مافى السموات والارض تحقيقا لما عناه بقوله تعلم ما نخفى من أن علمه تعالى بذلك ليس على وجه يكون فيه شائبة خفاء بالنسبة الى علمه تعالى كما يكون ذلك بالنسبة الى علوم المخلوقات . وكلمة فى متعلقة بمحذوف وقع صفة لشيء أى من شيء كائن فيهما أعم من أن يكون ذلك على وجه الاستقرار فيهما أو على وجه الجزئية منهما أو بيخفى . وتقديم الارض على السماء مع توسيط لا بينهما باعتبار القرب والبعد منا المستدعيين للتفاوت بالنسبة الى علومنا والالتفات من الخطاب الى اسم الذات المستجمعة للصفات لتربية المهابة والاشعار بعلة الحكم على نهج قوله تعالى « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » والايذان بعمومه لانه ليس بشأن يختص به أو بمن يتعلق به بل شامل لجميع الاشياء فالمناسب ذكره تعالى بعنوان مصحح لمبدأ الكل . وقيل هو من كلام الله عز وجل وارد بطريق الاعتراض لتصديقه عليه السلام كقوله سبحانه « وكذلك يفعلون » ومن للاستغراق على الوجهين (الحمد لله الذي وهب لى على الكبر) أى مع كبرى ويأسى عن الولد قيد الهبة به استعظاما للنعمة واظهارا لشكرها (اسمعيل واسحق) روى انه ولد له اسمعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة وولد له اسحق وهو ابن مائة واثنتى عشرة سنة أو مائة وسبع عشرة سنة (إن ربى) ومالك أمرى (لسميع الدعاء) لمجيبه من قولهم سمع الملك كلامه اذا اعتد به وهى من أبنية المبالغة العاملة عمل الفعل أضيف الى مفعوله أو فاعله باسناد السماع الى دعاء الله تعالى مجازا وهو مع كونه من تتمة الحمد والشكر اذ هو وصف له تعالى بأن ذلك الجميل سنته المستمرة تعليل على طريقة التذييل للهبة المذكورة . وفيه إيذان بتضاعف النعمة فيها حيث وقعت بعد الدعاء بقوله رب هب لى من الصالحين فاقترنت الهبة بقبول الدعوة . وتوحيد ضمير المتكلم وان كان عقيب ذكرهبتهما لما أن نعمة الهبة فائضة عليه خاصة وهما من النعم لا من المنعم عليهم (رب اجعلنى مقيم الصلاة) مثابرا عليها معدلا لها . وتوحيد ضمير المتكلم مع شمول دعوته لذريته أيضا حيث قال (ومن ذريتى) أى بعضهم من المذكورين ومن يسير سيرتهما من أولادهما للاشعار بانه المقتدى فى ذلك وذريته أتباع له وأن ذكرهم بطريق الاستطراد لا كما فى قوله « ربنا إنى أسكنت » الخ فان أسكانه مع عدم تحققه بلا ملابسة لمن أسكنه إنما هو مذكور بطريق التمهيد

للدعاء الذى هو مخصوص بذريته وإنما خص هذا الدعاء ببعض ذريته لعلمه من جهة الله تعالى أن بعضا منهم لا يكون مقيم الصلاة كقوله تعالى « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك » (ربنا وتقبل دعاء) أى دعائى هذا المتعلق بجعلى وجعل بعض ذريتى مقيمى الصلاة ثابتين على ذلك مجتنبين عن عبادة الاصنام ولذلك جىء بضمير الجماعة (ربنا اغفرلى) أى ما فرط منى من ترك الأولى فى باب الدين وغير ذلك مما لا يسلم منه البشر (ولوالدى) وقرىء بالتوحيد ولابوى وهذا الاستغفار منه عليه السلام إنما كان قبل تبين الامر له عليه السلام. وقيل اراد بوالديه آدم وحواء. وقيل بشرط الاسلام ويرده قوله تعالى «الا قول ابراهيم» الآية وقدمر فى سورة التوبة نوع تحقيق للمقام وسيأتى تمامه فى سورة مريم بفضل الله تعالى (وللمؤمنين) كافة من ذريته وغيرهم وللايذان باشتراك الكل فى الدعاء بالمغفرة جىء بضمير الجماعة (يوم يقوم الحساب) أى يثبت ويتحقق محاسبة أعمال المكلفين على وجه العدل استعير له من ثبوت القائم على الرجل بالاستقامة ومنه قامت الحرب على ساق والمراد تهويله. وقيل أسند اليه قيام أهله مجازا أو حذف المضاف كما فى «واسئل القرية». واعلم أن ما حكى عنه عليه السلام من الادعية والاذكار وما يتعلق بها ليس بصادر عنه على الترتيب المحكى ولا على وجه المعية بل صدر عنه فى أزمنة متفرقة حكى مرتبا للدلالة على سوء حال الكفرة بعد ظهور أمره فى الملة وارشاد الناس اليها والتضرع الى الله تعالى لمصالحهم الدينية والدنياوية (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون) خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد تثبيته على ما كان عليه من عدم حسبانه عز وجل كذلك نحو قوله «ولا تكونن من المشركين» ونظائره مع ما فيه من الايذان بكونه واجب الاحتراز عنه فى الغاية حتى نهى عنه من لا يمكن تعاطيه أو نهيه عليه السلام عن حسبانه تعالى تاركا لعقابهم على طريقة العفو. والتعبير عنه بذلك للمبالغة فى النهى والايذان بان ذلك الحسبان بمنزلة حسبانه تعالى غافلا عن أعمالهم اذ العلم بذلك مستوجب لعقابهم لا محالة فتركه لو كان لكان للغفلة عما يوجبه من أعمالهم الخبيثة. وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ووعد له أكيد ووعيد للكفرة وسائر الظالمين شديد أو لكل أحد ممن يستعجل عذابهم أو يتوهم اهمالهم للجهل بصفاته تعالى والاغترار بامهاله. وقيل معناه لا تحسبنه تعالى يعاملهم معاملة الغافل عما عملوا بل معاملة من يحافظ على أعمالهم ويجازيهم بذلك نقيرا وقطميرا والمراد بالظالمين أهل مكة ممن عدت مساويهم من تبديل نعمة الله تعالى كفرا واحلال قومهم دار البوار واتخاذ الانداد كما يؤذن به التعرض لحكمة التأخير المنبىء عنه قوله تعالى «قل تمتعوا» الآية أو جنس الظالمين وهم داخلون فى

الحكم دخولا أوليا (إنما يؤخرهم) يمهلهم متمتعين بالحظوظ الدنياوية ولا يعجل عقوبتهم حسبما يشاهد وهو استئناف وقع تعليلا للنهى السابق أى دم على ما كنت عليه من عدم حسبانه تعالى غافلا عن أعمالهم ولا تحزن بتأخير ما تستوجبه من العذاب الاليم اذ تأخيره للتشديد والتغليظ أو لا تحسبنه تعالى تاركا لعقوبتهم لما ترى من تأخيرها انما ذلك لاجل هذا أو لا تحسبنه تعالى يعاملهم معاملة الغافل ولا يؤاخذهم بما عملوا لما ترى من التأخير انما هو لهذه الحكمة. وقرئ بالنون. وايقاع التأخير عليهم مع أن المؤخر انما هو عذابهم لتهويل الخطب وتفظيع الحال ببيان انهم متوجهون الى العذاب مرصدون لامرما لأنهم باقون باختيارهم وللدلالة على أن حقهم من العذاب هو الاستئصال بالمرة وأن لايبقى منهم فى الوجود عين ولا أثر وللايذان بأن المؤخر له من جملة العذاب وعنوانه ولو قيل انما يؤخر عذابهم الخ لما فهم ذلك (ليوم) هائل (تشخص فيه الأبصار) ترتفع أبصار أهل الموقف فيدخل فى زمرتهم الكفرة المعهودون دخولا أوليا أى تبقى مفتوحة لا تتحرك أجفانهم من هول ما يرونه واعتبار عدم قرارها فى أماكنها اما باعتبار الارتفاع الحسى فى جرم العين وأما بجعل الصيغة من شخص من بلد الى بلد وسار فى ارتفاع (مهطعين) مسرعين الى الداعى مقبلين عليه بالخوف والذل والخشوع أو مقبلين بابصارهم عليه لايقلعون عنه ولايطرفون هيبة وخوفا وحيث كان ادامة النظر هنا بالنظر الى الداعى قيل (مقنعى رؤسهم) أى رافعيها مع ادامة النظر من غير التفات الى شئ قاله العتبي وابن عرفة أو ناكسيها ويقال أقنع رأسه أى طأطأها ونكسها فهو من الاضداد وهما حالان مما دل عليه الابصار من أصحابها أو الثانى حال متداخلة من الضمير فى الاول واضافته غير حقيقية فلا ينافى الحالية (لايرتد إليهم طرفهم) أى لايرجع اليهم تحريك أجفانهم حسبما كان يرجع اليهم كل لحظة بل تبقى أعينهم مفتوحة لاتطرف أولاترجع اليهم أجفانهم التى هى آلة الطرف فيكون اسناد الرجوع الى الطرف مجازيا أو هو نفس الجفن قال الفيروزابادى الطرف العين لايجمع لأنه مصدر فى الاصل أو اسم جامع للعين أولا يرجع نظرهم الى أنفسهم فضلا عن أن يرجع الى شيء آخر فيبقون مبهوتين وهو أيضا حال أو بدل من مقنعى الخ أو استئناف والمعنى لايزول مااعتراهم من شخوص الابصار وتأخيره عما هو من تتمته من الاهطاع والاقناع مع ما بينه وبين الشخوص المذكور من المناسبة لتربية هذا المعنى (وأفئدتهم هواء) خالية من العقل والفهم لفرط الحيرة والدهش كأنها نفس الهواء الخالى من كل شاغل ومنه قيل للجبان

والاحمق قلبه هواء أى لاقوة ولا رأى فيه واعتبار خلوها عن كل خير لايناسب المقام وهو اما حال عاملها لا يرتد مفيدة لكون شخوص أبصارهم وعدم ارتداد طرفهم بلا فهم ولا اختيار أو جملة مستقلة (وأنذر الناس) خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد اعلامه أن تأخيرهم لماذا وأمر له بانذارهم وتخويفهم منه والمراد بالناس الكفار المعبر عنهم بالظالمين كما يقتضيه ظاهر اتيان العذاب والعدول اليه من الاضمار للأشعار بأن المراد بالانذار هو الزجر عما هم عليه من الظلم شفقة عليهم لا التخويف للازعاج والايذاء فالمناسب عدم ذكرهم بعنوان الظلم أو الناس جميعاً فان الانذار عام للفريقين كقوله تعالى « انما تنذر من اتبع الذكر » والاتيان يعمهما من حيث كونهما فى الموقف وان كان لحوقه بالكفار خاصة أى أنذرهم وخوفهم (يوم يأتيهم العذاب) المعهود وهو اليوم الذى وصف بما لا يوصف من الأوصاف الهائلة أعنى يوم القيامة وقيل هو يوم موتهم معذبين بالسكرات ولقاء الملائكة بلا بشرى أو يوم هلاكهم بالعذاب العاجل ويأباه القصر السابق (فيقول الذين ظلموا) أى فيقولون والعدول عنه إلى ماعليه النظم الكريم للتسجيل عليهم بالظلم وللاشعار بان مالقوه من الشدة انما هو لظلمهم. وايثاره على صيغة الفاعل حسبما ذكر أولا للايذان بأن الظلم فى الجملة كاف فى الأفضاء الى ماذكر من الاهوال من غير حاجة الى الاستمرار عليه كما ينبىء عنه صيغة الفاعل وعلى تقدير كون المراد بالناس من يعم المسلمين أيضاً فالمعنى الذين ظلموا منهم وهم الكفار أو يقول كل من ظلم بالشرك والتكذيب من المنذرين وغيرهم من الأمم الخالية فان اتيان العذاب يعمهم كما يشعر بذلك وعدهم باتباع الرسل (ربنا أخرنا) ردنا الى الدنيا وأمهلنا (الى أجل قريب) الى أمد وحد من الزمان قريب (نجب دعوتك) أى الدعوة اليك وإلى توحيدك أو دعوتك لنا على ألسنة الرسل ففيه ايماء الى انهم صدقوهم فى أنهم مرسلون من عند الله تعالى (ونتبع الرسل) فيما جاءونا به أى نتدارك مافرطنا فيه من اجابة الدعوة واتباع الرسل والجمع أما باعتبار اتفاق الجميع على التوحيد وكون عصيانهم للرسول صلى الله عليه وسلم عصياناً لهم جميعاً وأما باعتبار أن المحكى كلام ظالمى الأمم جميعاً والمقصود بيان وعد كل أمة باتباع رسولها (أولم تكونوا أقسمتم من قبل) على اضمار القول معطوفا على فيقول أى فيقال لهم توبيخا وتبكيتا ألم تؤخروا فى الدنيا ولم تكونوا أقسمتم اذ ذاك بألسنتكم بطراً وأشراً وجهلا وسفها (مالكم من زوال) عما أنتم عليه من التمتع بالحظوظ الدنيوية أو بألسنة الحال حيث بنيتم مشيداً وأملتم بعيدا ولم تحدثوا أنفسكم بالانتقال

منها الى هذه الحالة وفيه أشعار بامتداد زمان التأخير وبعد مداه أو مالكم من زوال من هذه الدار الى دار أخرى للجزاء كقوله تعالى « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت » وصيغة الخطاب فى جواب القسم لمراعاة حال الخطاب فى أقسمتم كما فى قوله حلف بالله ليخرجن وهو أدخل فى التوبيخ من أن يقال مالنا مراعاة لحال المقسم » ذكر البيهقى عن محمد بن كعب القرظى أنه قال لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله تعالى فى أربع منها فاذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبداً يقولون : ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل الى خروج من سبيل . فيجيبهم الله تعالى ذلكم بأنه اذا دعى الله وحده كفرتم وان يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلى الكبير ثم يقولون ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون . فيجيبهم الله تعالى فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا الآية ثم يقولون : ربنا أخرنا الى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل . فيجيبهم الله تعالى أولم تكونوا أقسمتم الآية ثم يقولون : ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل فيجيبهم الله تعالى أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير . فيقولون ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين . فيجيبهم الله تعالى اخسؤا فيها ولا تكلمون . فلا يتكلمون بعدها أبدا ان هو الا زفير وشهيق وعند ذلك انقطع رجاؤهم وأقبل بعضهم ينبح فى وجه بعض وأطبقت عليهم جهنم اللهم انا بك نعوذ وبكنفك نلوذ عز جارك وجل ثناؤك ولا إله غيرك (وسكنتم) من السكنى بمعنى التبوؤ والايطان وانما استعمل بكلمة فى حيث قيل (فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم) جريا على الأصل لانه منقول عن مطلق السكون الذى حقه التعدية بها أو من السكون واللبث أى قررتم فى مساكنهم مطمئنين سائرين سيرتهم فى الظلم بالكفر والمعاصى غير محدثين لانفسكم بما لقوا بسبب ما اجترحوا من الموبقات . وفى ايقاع الظلم على أنفسهم بعد اطلاقه فيما سلف ايذان بأن غائلة الظلم آيلة الى صاحبه والمراد بهم أما جميع من تقدم من الامم المهلكة على تقدير اختصاص الاستمهال والخطاب السابق بالمنذرين وأما أوائلهم من قوم نوح وهود على تقدير عمومهما للكل وهذا الخطاب وما يتلوه باعتبار حال أواخرهم (وتبين لكم) بمشاهدة الآثار وتواتر الأخبار (كيف فعلنا بهم) من الاهلاك والعقوبة بما فعلوا من الظلم والفساد وكيف منصوب بما بعده من الفعل وليس الجملة فاعلا لتبين كما قاله بعض الكوفيين بل فاعله مادلت عليه دلالة واضحة أى فعلنا العجيب بهم وفيه من المبالغة ماليس فى أن يقال ما فعلنا بهم كما مر فى قوله تعالى ليسجننه وقرىء ونبين (وضربنا لكم الأمثال) أى بينا

لكم فى القرآن العظيم على تقدير اختصاص الخطاب بالمنذرين أو على ألسنة الأنبياء عليهم السلام على تقدير عمومه لجميع الظالمين صفات ما فعلوا وما فعل بهم من الأمور التى هى فى الغرابة كالأمثال المضروبة لكل ظالم لتعتبروا بها وتقيسوا أعمالكم على أعمالهم ومآلكم على مآلهم وتنتقلوا من حلول العذاب العاجل الى حلول العذاب الآجل فترتدعوا عما كنتم فيه من الكفر والمعاصى أو بينا لكم انكم مثلهم فى الكفر واستحقاق العذاب . والجمل الثلاث فى موقع الحال من ضمير أقسمتم أى أقسمتم بالخلود والحال أنكم سكنتم فى مساكن المهلكين بظلمهم وتبين لكم فعلنا العجيب بهم ونبهنا كم على جلية الحال بضرب الأمثال وقوله عز وجل (وقد مكروا مكرهم) حال من الضمير الاول فى فعلنا بهم أو من الثانى أو منهما جميعا وانما قدم عليه قوله تعالى «وضربنا لكم الأمثال» لشدة ارتباطه بما قبله أى فعلنا بهم ما فعلنا والحال أنهم قد مكروا فى ابطال الحق وتقرير الباطل مكرهم العظيم الذى استفرغوا فى عمله المجهود وجاوزوا فيه كل حد معهود بحيث لا يقدر عليه غيرهم فالمراد بيان تناهيهم فى استحقاق ما فعل بهم أو قد مكروا مكرهم المذكور فى ترتيب مبادى البقاء ومدافعة أسباب الزوال فالمقصود اظهار عجزهم واضمحلال قدرتهم وحقارتها عند قدرة الله تعالى (وعند الله مكرهم) أى جزاء مكرهم الذى فعلوه على أن المكر مضاف الى فاعله أو أخذه تعالى بهم على أنه مضاف الى مفعوله وتسميته مكرا لكونه بمقابلة مكرهم وجودا وذكرا أو لكونه فى صورة المكر فى الاتيان من حيث لا يشعرون وعلى التقديرين فالمراد به ما أفاده قوله عز وجل كيف فعلنا بهم لا أنه وعيد مستأنف والجملة حال من الضمير فى مكروا أى مكروا مكرهم وعند الله جزاؤه أو ما هو أعظم منه والمقصود بيان فساد رأيهم حيث باشروا فعلا مع تحقق ما يوجب تركه (وإن كان مكرهم) فى العظم والشدة (لتزول منه الجبال) أى وان كان مكرهم فى غاية المتانة والشدة وعبر عن ذلك بكونه مسوى ومعدا لازالة الجبال عن مقارها لكونه مثلا فى ذلك والجملة المصدرة بأن الوصلية معطوفة على جملة مقدرة والمعنى وعند الله جزاء مكرهم أو المكر الذى يحيق بهم ان لم يكن مكرهم لتزول منه الجبال وان كان الخ وقد حذف ذلك حذفا مطردا لدلالة المذكور عليه دلالة واضحة فان الشىء اذا تحقق عند وجود المانع القوى فلأن يتحقق عند عدمه أولى وعلى هذه النكتة يدور ما فى ان الوصلية من التأكيد المعنوى والجواب محذوف دل عليه ما سبق وهو قوله تعالى وعند الله مكرهم وقيل ان نافية واللام لتأكيدها كما فى قوله تعالى «وما كان الله ليعذبهم» وينصره قراءة ابن مسعود رضى الله عنه «وما كان

مكرهم »فالجملة حينئذ حال من الضمير فى مكرهم والا من قوله تعالى وعندالله مكرهم أى مكروا مكرهم والحال أن مكرهم لم يكن لتزول منه الجبال على أنها عبارة عن آيات الله تعالى وشرائعه ومعجزاته الظاهرة على أيدى الرسل السالفة عليهم السلام التى هي بمنزلة الجبال الراسيات فى الرسوخ وأما كونها عبارة عن أمر النبى صلى الله عليه وسلم وأمر القرآن العظيم كما قيل فلا مجال له اذ الما كرونهم المهلكون لا الساكنون فى مساكنهم من المخاطبين وان خص الخطاب بالمنذرين وقيل هى مخففة من أن والمعنى أنه كان مكرهم ليزول منه ما هو كالجبال فى الثبات مما ذكر من الآيات والشرائع والمعجزات والجملة كما هى حال من ضمير مكروا أى مكروا مكرهم المعهود وان الشأن كان مكرهم لازالة الآيات والشرائع على معنى أنه لم يكن يصح أن يكون منهم مكر كذلك وكان شأن الآيات والشرائع مانعا من مباشرة المكر لازالته وقد قرأ الكسائى لتزول بفتح اللام على أنها الفارقة والمعنى تعظيم مكرهم فالجملة حال من قوله تعالى وعند الله مكرهم أى عنده تعالى جزاء مكرهم أو المكر بهم والحال أن مكرهم بحيث تزول منه الجبال أى فى غاية الشدة وقرىء بالفتح والنصب على لغة من يفتح لام كى وقرىء وان كان مكرهم هذا هو الذى يقتضيه النظم الكريم وينساق اليه الطبع السليم وقد قيل ان الضمير فى مكروا للمنذرين والمراد بمكرهم ماأفاده قوله عز وجل «واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك »الآية وغيره من أنواع مكرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ولعل الوجه حينئذ أن يكون قوله تعالى وقد مكروا الخ حالا من القول المقدر أى فيقال لهم ما يقال والحال أنهم مع مافعلوا من الاقسام المذكور مع ما ينافيه من السكون فى مساكن المهلكين وتبين أحوالهم وضرب الامثال قد مكروا مكرهم العظيم أى لم يكن الصادر عنهم مجرد الاقسام الذى وبخوا به بل اجترءوا على مثل هذه العظيمة وقوله تعالى «وعند الله مكرهم »حال من ضمير مكروا حسبما ذكرنا من قبل وقوله تعالى «وان كان مكرهم لتزول منه الجبال» مسوق لبيان عدم تفاوت الحال فى تحقيق الجزاء بين كون مكرهم قويا أو ضعيفا كما مر هناك وعلى تقدير كون ان نافية فهو حال من ضمير مكروا والجبال عبارة عن أمر النبى صلى الله عليه وسلم أى وقد مكروا والحال أن مكرهم ما كان لتزول منه هاتيك الشرائع والآيات التى هى فى القوة كالجبال وعلى تقدير كونها مخففة من الثقيلة واللام مكسورة يكون حالا منه أيضا على معنى أن ذلك المكر العظيم منهم كان لهذا الغرض على معنى أنه لم يكن يصح أن يكون منهم مكر كذلك لما أن شأن الشرائع أعظم من أن يمكر بها ما كر

وعلى تقدير فتح اللام فهو حال من قوله تعالى« وعندالله مكرهم» كما ذكرنا من قبل فليتأمل (فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله) لم يرد به والله سبحانه أعلم ما وعده بقوله تعالى «إنالننصر رسلنا» الآية وقوله« كتب الله لأغلبن أنا ورسلى »كما قيل فانه لا اختصاص له بالتعذيب لا سيما الاخروى بل ماسلف آنفا من وعده بتعذيب الظالمين بقوله تعالى «انما يؤخرهم»الآية كما تفصح عنه الفاء الداخلة على النهى الذى أريد به تثبيته عليه الصلاة والسلام على ما كان عليه من الثقة بالله تعالى والتيقن بانجاز وعده المذكور المقرون بالامر بانذارهم يوم اتيان العذاب المتضمن لذكر تعذيب الامم السالفة بسبب كفرهم وعصيانهم رسلهم بعد ما وعدهم بذلك كما فصلت قصة كل منهم فى القرآن العظيم فكأنه قيل وإذ قد وعدناك بعذاب الظالمين يوم القيامة وأخبرناك بما يلقونه من الشدائد وبما يسألونه من الرد إلى الدنيا وبما أجبناهم به وقرعناهم بعدم تأملهم فى أحوال من سبقهم من الامم الذين أهلكناهم بظلمهم بعد ما وعدنا رسلهم باهلاكهم فدم على ما كنت عليه من اليقين بعدم اخلافنا ، سلنا وعدنا (إن الله عزيز) غالب لا يماكر وقادر لا يقادر (ذو انتقام) لاوليائه من أعدائه والجملة تعليل للنهى المذكور وتذييل له وحيث كان الوعد عبارة عما ذكرنا من تعذيبهم خاصة لم يذيل بأن يقال ان الله لا يخلف الميعاد بل تعرض لوصف العزة والانتقام المشعرين بذلك والمراد بالانتقام ما أشير اليه بالفعل وعبر عنه بالمكر (يوم تبدل الأرض غير الأرض) ظرف لمضمر مستأنف ينسحب عليه النهى المذكور أى ينجزه يوم الخ أو معطوف عليه نحو وارتقب يوم تبدل الارض غير الارض أو لانتقام وهو يوم يأتيهم العذاب بعينه ولكن له أحوال جمة يذكر كل مرة بعنوان مخصوص والتقييد به مع عموم انتقامه للاوقات كلها للافصاح عما هو المقصود من تعذيب الكفرة المؤخر الى ذلك اليوم بموجب الحكمة الداعية اليه وقيل بدل من يوم يأتيهم العذاب أو نصب باذكر أو باضمار لايخلف وعده يوم تبدل الخ وفيه أيضاً مافى الوجه الثالث من الحاجة الى الاعتذار ولايجوز أن ينتصب بقوله مخلف وعده لان ماقبل أن لايعمل فيما بعده وقيل هو غير مانع لان قوله تعالى «إن الله عزيز ذو انتقام» جملة اعتراضية فلا يبالى بها فاصلا . واعلم أن التبديل قد يكون فى الذات كما فى بدلت الدراهم دنانير وعليه قوله عز وجل« بدلناهم جلودا غيرها» وقد يكون فى الصفات كما فى قولك بدلت الحلقة خاتماً اذا غيرت شكلها ومنه قوله تعالى «يبدل الله سيئاتهم حسنات» على بعض الاقوال والآية الكريمة ليست بنص فى أحد الوجهين فعن على رضى الله عنه تبدل أرض من فضة

وسموات من ذهب . وعن ابن مسعود رضي الله عنه تبدل الارض بارض كالفضة بيضاء نقية لم يسفك فيها دم ولم يعمل عليها خطيئة . وعن ابن عباس رضي الله عنهما هي تلك الارض وانما تغير صفاتها وأنشد :

وما الناس بالناس الذين عهدتهم ۞ وما الدار بالدار التي كنت تعلم

وتبدل السموات بانتشار كواكبها وكسوف شمسها وخسوف قمرها وانشقاقها وكونها أبوابا ويدل عليه ماروى أبوهريرة رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال « تبدل الأرض غير الأرض فتبسط وتمد مد الاديم العكاظي لاترى فيها عوجا ولا أمتا » (والسموات) أي وتبدل السموات غير السموات حسبما مر من التفصيل وتقديم تبديل الارض لقربها منا ولكون تبديلها أعظم أثراً بالنسبة الينا (وبرزوا) أي الخلائق أو الظالمون المدلول عليهم بمعونة السياق والمراد بروزهم من أجداثهم التي في بطون الارض أوظهورهم بأعمالهم التي كانوا يعملونها سرأو يزعمون انها لاتظهر أو يعملون عمل من يزعم ذلك . ولعل اسناد البروز اليهم مع أنه لاعمالهم للايذان بتشكلهم باشكال تناسبها وهو معطوف على تبدل . والعدول الى صيغة الماضي للدلالة على تحقق وقوعه أوحال من الارض بتقدير قد والرابط بينها وبين صاحبها الواو (لله الواحد القهار) للحساب والجزاء . والتعرض للوصفين لتهويل الخطب وتربية المهابة واظهار بطلان الشرك وتحقيق الانتقام في ذلك اليوم على تقدير كونه ظرفا له وتحقيق اتيان العذاب الموعود على تقدير كونه بدلا من يوم يأتيهم العذاب فان الأمر اذا كان لواحد غلاب لايغار وقادر لايضار ولايغار كان في غاية مايكون من الشدة والصعوبة (وترى المجرمين) عطف على برزوا . والعدول الى صيغة المضارع لاستحضار الصور أوللدلالة على الاستمرار وأما البروز فهو دفعي لااستمرار فيه وعلى تقدير حالية برزوا فهو معطوف على تبدل ويجوز عطفه على عامل الظرف المقدم على تقدير كونه ينجزه (يومئذ) يوم اذ برزوا لله عزوجل أو يوم اذ تبدل الارض أو يوم اذ ينجز وعده (مقرنين) قرن بعضهم مع بعض حسب اقترانهم في الجرائم والجرائر أوقرنوا مع الشياطين الذين أغووهم أوقرنوا مع مااقترفوا من العقائد الزائغة والملكات الردية والاعمال السيئة غب تصور كل منها وتشكلها بما يناسبها من الصورة الموحشة والاشكال الهائلة أوقرنت ايديهم وارجلهم الى رقابهم وهو حال من المجرمين (في الأصفاد) في القيود أو الاغلال وهو اما متعلق بقوله تعالى مقرنين أو حال من ضميره أي مصفدين (سرابيلهم) أي قمصانهم (من قطران) جملة من مبتدا وخبر محلها النصب على الحالية من المجرمين أو من ضميرهم في مقرنين رابطتها الضمير

فقط كما فى كلمته فوه الى فى أو مستأنفة. والقطران مايتحلب من الابهل فيطبخ فتهنأ به الابل الجربى فيحرق الجرب بما فيه من الحدة الشديدة وقد تصل حرارته الى الجوف وهو أسود منتن يسرع فيه اشتعال النار يطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسراويل لتجتمع عليهم الالوان الاربعة من العذاب لذعه وحرقته . واسراع النار فى جلودهم. واللون الموحش. والنتن. على أن التفاوت بينه وبين ماتشاهده وبين النارين لايكاد يقادر قدره فكأن ماتشاهده منهما أسماء مسمياتها فى الآخرة فبكرمه العميم نعوذ . وبكنفه الواسع نلوذ . ويحتمل أن يكون ذلك تمثيلا لما يحيط بجوهر النفس من الملكات الردية والهنات الوحشية فتجلب اليها الآلام والغموم بل وأن يكون القطران المذكور عين مالابسوه فى هذه النشأة وجعلوه شعارالهم من العقائد الباطلة والاعمال السيئة المستجلبة لفنون العذاب قد تجسدت فى النشأة الآخرة بتلك الصورة المستتبعة لاشتداد العذاب عصمنا الله سبحانه عن ذلك بمنه ولطفه. وقرىء من قطران أى نحاس مذاب متناه حره (وتغشى وجوههم النار) أى تعلوها وتحيط بها النار التى تمس جسدهم المسربل بالقطران. وتخصيص الوجوه بالحكم المذكور مع عمومه لسائر أعضائهم لكونها أعز الاعضاء الظاهرة وأشرفها كقوله تعالى «أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب» الخ ولكونها مجمع المشاعر والحواس التى خلقت لادراك الحق وقد أعرضوا عنه ولم يستعملوها فى تدبره كما أن الفؤاد أشرف الاعضاء الباطنة ومحل المعرفة وقد ملؤها بالجهالات ولذلك قيل تطلع على الافئدة أو لخلوها عن القطران المغنى عن ذكر غشيان النار لها ولعل تخليتها عنه ليتعارفوا عند انكشاف اللهب أحيانا ويتضاعف عذابهم بالخزى على رءوس الاشهاد . وقرىء تغشى أى تتغشى بحذف احدى التاءين والجملة نصب على الحالية لاعلى أن الواو حالية لانه مضارع مثبت بل على أنها معطوفة على الحال قاله أبو البقاء (ليجزى الله) متعلق بمضمر أى يفعل بهم ذلك ليجزى (كل نفس) مجرمة (ما كسبت) من أنواع الكفر والمعاصى جزاء موافقا لعملها. وفيه ايذان بان جزاءهم مناسب لاعمالهم أو بقوله برزوا على تقدير كونه معطوفا على تبدل والضمير للخلق وقوله وترى المجرمين الخ اعتراض بين المتعلق والمتعلق به أى برزوا للحساب ليجزى الله كل نفس مطيعة أو عاصية ما كسبت من خير أو شر وقد اكتفى بذكر عقاب العصاة تعويلا على شهادة الحال لاسيما مع ملاحظة سبق الرحمة الواسعة (إن الله سريع الحساب) اذ لا يشغله شأن عن شأن فيتمه فى أعجل ما يكون من الزمان فيوفى الجزاء بحسبه. أو سريع المجىء يأتى عن قريب. أو سريع الانتقام كما قال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى وهو سريع الحساب (هذا)

أى ماذكر من قوله سبحانه «ولاتحسبن الله غافلا» الى قوله سريع الحساب (بلاغ) كفاية فى العظة والتذكير من غير حاجة الى ما انطوت عليه الصورة الكريمة أو كل القرآن المجيد من فنون العظات والقوارع (للناس) للكفار خاصة على تقدير اختصاص الانذار بهم فى قوله تعالى « وأنذر الناس » أولهم وللمؤمنين كافة على تقدير شموله لهم أيضاً وان كان ماشرح مختصا بالظالمين (ولينذروا به) عطف على مقدر واللام متعلقة بالبلاغ أى كفاية لهم فى أن ينصحوا و ينذروا به أوهذا بلاغ لهم ليفهموه ولينذروا به على أن البلاغ بمعنى الابلاغ كما فى قوله تعالى «ماعلى الرسول الا البلاغ »أومتعلقة بمحذوف أى ولينذروا به أنزل أوتلى.وقرىء ولينذروا بهمن نذر بالشىء اذاعلمهوحذره واستعدله (وليعلموا) بالتأمل فيما فيه من الدلائل الواضحة التى هى أهلاك الأمم واسكان آخرين مساكنهم وغيرها مماسبق ولحق (أنما هو آله واحد) لاشريك له .وتقديم الانذار لانه الداعى الى التأمل المؤدى الى ماهوغاية له من العلم المذكور والتذكر فى قوله تعالى (وليذكر أولو الالباب) أى ليتذكروا ما كانوا يعملونه من قبل من التوحيد وغيره من شئون الله عز وجل ومعاملته مع عباده فيرتدعوا عما يرديهم من الصفات التى يتصف بها الكفار و يتدرعوا بما يحظيهم من العقائد الحقة والاعمال الصالحة . وفى تخصيص التذكر بأولى الالباب تلويح باختصاص العلم بالكفار ودلالة على أن المشار اليه بهذا ماذكرناه من القوارع المسوقة لشأنهم لا كل السورة المشتملة عليها وعلى ماسيق للمؤمنين أيضا فان فيه مايفيدهم فائدة جديدة وحيث كان مايفيده البلاغ من التوحيد وما يترتب عليه من الاحكام بالنسبة الى الكفرة أمراً حادثاً و بالنسبة الى أولى الالباب الثبات على ذلك حسبما أشير اليه عبر عن الاول بالعلم وعن الثانى بالتذكر .وروعى ترتيب الوجود مع مافيه من الختم بالحسنى والله سبحانه اعلم ختم الله لنا بالسعادة والحسنى ورزقنا الفوز بمرضاته فى الاولى والعقبى آمين . عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة ابراهيم أعطى من الاجر عشر حسنات بعدد من عبد الاصنام ومن لم يعبد والحمد لله وحده .

(سورة الحجر مكية وهي تسع وتسعون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(آلر) قدم الكلام فيه وفي محله في مطلع سورة الرعد واخواتها (تلك) اشارة اليه أي تلك السورة العظيمة الشأن (آيات الكتاب) الكامل المعهود الغني عن الوصف به المشهور بذلك من بين الكتب الحقيق باختصاص اسم الكتاب به على الاطلاق أي بعض منه مترجم مستقل باسم خاص فهو عبارة عن جميع القرآن أو عن الجميع المنزل إذ ذاك اذ هو المتسارع إلى الفهم حينئذ عند الاطلاق وعليه تترتب فائدة وصف الآيات بنعت ما أضيفت اليه من نعوت الكمال لا على جعله عبارة عن السورة إذ هي في الاتصاف بذلك ليست بتلك المرتبة من الشهرة حتى يستغني عن التصريح بالوصف على أنها عبارة عن جميع آياتها فلابد من جعل تلك إشارة الى كل واحدة منها وفيه من التكلف مالا يخفى كما ذكر في سورة الرعد (وقرآن) أي قرآن عظيم الشأن (مبين) مظهر لما في تضاعيفه من الحكم والاحكام أو لسبيل الرشد والغي أو فارق بين الحق والباطل والحلال والحرام ولقد فخم شأنه العظيم مع ما جمع فيه من وصفي الكتابية والقرآنية على طريقتين إحداهما اشتماله على صفات كمال جنس الكتب الالهية فكأنه كلها والثانية طريقة كونه ممتازا عن غيره نسيج وحده بديعاً في بابه خارجا عن دائرة البيان . وأخرت الطريقة الثانية لما أن الاشارة الى امتيازه عن سائر الكتب بعد التنبيه على انطوائه على كمالات غيره من الكتب أدخل في المدح كي لا يتوهم من أول الامر أن امتيازه عن غيره لاستقلاله بأوصاف خاصة به من غير اشتمال على نعوت كمال سائر الكتب الكريمة وهكذا الكلام في فاتحة سورة النمل خلا أنه قدم فيها القرآن على الكتاب لما سيذكر هناك. ولما بين كون السورة الكريمة بعضا من الكتاب والقرآن لتوجيه المخاطبين إلى حسن تلقي ما فيها من الاحكام والقصص والمواعظ شرع في بيان ما تتضمنه فقيل (ربما) بضم الراء وتخفيف الباء المفتوحة . وقرىء بالتشديد وبفتح الراء مخففاً وبزيادة التاء مشددا وفيه ثماني لغات فتح الراء وضمها مشددا ومخففا وبزيادة التاء أيضا مشددا ومخففاً . ورب حرف جر لا يدخل إلا على الاسم وما كافة مصححة لدخوله على الفعل وحقه الدخول على الماضي ودخوله على قوله تعالى (يود الذين كفروا) لما أن المترقب في أخباره تعالى كالماضي المقطوع في تحقق الوقوع فكأنه قيل ربما ود الذين كفروا والمراد كفرهم بالكتاب والقرآن وبكونه من عند الله تعالى (لو كانوا مسلمين) منقادين

لحكمه و مذعنين لامره. وفيه ايذان بان كفرهم انما كان بالجحود بعدما علموا كونه من عند الله تعالى و تلك الودادة يوم القيامة أو عند موتهم أو عند معاينة حالهم وحال المسلمين أو عند رؤيتهم خروج عصاة المسلمين من النار. روى أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه أنه قال قال النبى صلى الله عليه وسلم اذا كان يوم القيامة واجتمع أهل النار فى النار و معهم من شاء الله تعالى من أهل القبلة قال لهم الكفار ألستم مسلمين قالوا بلى قالوا فما أغنى عنكم اسلامكم وقد صرتم معنا الى النار قالوا كانت لنا ذنوب فأخذنا بها فيغضب الله سبحانه لهم بفضل رحمته فيأمر بكل من كان من أهل القبلة فى النار فيخرجون منها فحينئذ يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين. وروى مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال «لا يزال الرب يرحم و يشفع اليه حتى يقول من كان من المسلمين فليدخل الجنة» فعند ذلك يتمنون الاسلام والحق أن ذلك محمول على شدة ودادتهم وأما نفس الودادة فليست بمختصة بوقت دون وقت بل هى مقررة مستمرة فى كل آن يمر عليهم وأن المراد بيان ذلك على ماهو عليه من الكثرة، وإنما جيء بصيغة التقليل جريا على سنن العرب فيما يقصدون به الافراط فيما يعكسون عنه تقول لبعض قواد العساكر كم عندك من الفرسان. فيقول رب فارس عندى أو لاتعدم عندى فارسا وعنده مقانب جمة من الكتائب وقصده فى ذلك التمادى فى تكثير فرسانه ولكنه يريد إظهار براءته من التزيد وأبرازأنه ممن يقلل لعلو الهمة كثير ما عنده فضلا عن تكثير القليل وهذه طريقة انما تسلك اذا كان الأمر من الوضوح بحيث لايحوم حوله شائبة ريب فيصار اليه هضما للحق فدل النظم الكريم على ودادة الكافرين للاسلام فى كل آن من آنات اليوم الآخر وأن ذلك من الظهور بحيث لايشتبه على أحد ولو جيء بكلام يدل على ضده وعلى أن تلك الودادة مع كثرتها فى نفسها مما يستقل بالنسبة الى جناب الكبرياء وهذا هو الموافق لمقام بيان حقارة شأن الكفار وعدم الاعتداد بما هم فيه من الكفر والتكذيب كما ينطق به قوله تعالى «ذرهم يأكلوا» الآية أو ذهابا الى الاشعار بأن من شأن العاقل إذا عن له أمر يكون مظنون الحمد أو قليلا ما يكون كذلك أن لايفارقه ولا يقارف ضده فكيف اذا كان متيقن الحمد كما فى قولهم لعلك ستندم على ما فعلت وربما ندم الانسان على ما فعل فان المقصود ليس بيان كون الندم مرجو الوجود بلا تيقن به أو قليل الوقوع بل التنبيه على أن العاقل لايباشر ما يرجى فيه الندم أو يقل وقوعه فيه فكيف بقطعى الوقوع وأنه يكفى قليل الندم فى كونه حاجزا عن ذلك الفعل فكيف كثيره والمقصود من سلوك هذه الطريقة اظهار الترفع والاستغناء عن التصريح

بالغرض بناء على ادعاء ظهوره فالمعنى لو كانوا يودون الاسلام مرة واحدة لوجب عليهم أن لا يفارقوه فكيف وهم يودونه كل آن وهذا أوفق بمقام استنزالهم عما هم عليه من الكفر وهذان طريقان متمايزان ذاتا ومقاما فمن ظنهما واحدا فقد نأى عن توفية المقام حقه (ذرهم) دعهم عن النهى عما هم عليه بالتذكرة والنصيحة اذ لا سبيل الى ارعوائهم عن ذلك وبالغ فى تخليتهم وشأنهم بل مرهم بتعاطى ما يتعاطونه (يأكلوا ويتمتعوا) بدنياهم . وفى تقديم الاكل ايذان بأن تمتعهم انما هو من قبيل تمتع البهائم بالمآكل والمشارب والمراد دوامهم على ذلك لا احداثه فانهم كانوا كذلك أو تمتعهم بلا استمتاع ما ينغص عيشهم من القوارع والزواجر فان التمتع على ذلك الوجه أمر حادث يصلح أن يكون مترتبا على تخليتهم وشأنهم (ويلههم) ويشغلهم عن اتباعك أو عن التفكر فيما هم يصيرون اليه أو عن الايمان والطاعة فان الأكل والتمتع يفضيان الى ذلك (الامل)والتوقع لطول الاعمار وبلوغ الاوطار واستقامة الاحوال وأن لا يلقوا فى العاقبة والمآل الا خيرا فالافعال الثلاثة مجزومة على الجوابية للأمر حسبما عرفت من تضمن الأمر بالترك للأمر بها على طريقة المجاز أو على أن يكون المراد بالأفعال المرقومة مباشرتهم لها غافلين عن وخامة عاقبتها غير سامعين لسوء مغبتها أصلا ولا ريب فى ترتب ذلك على الأمر بالترك فان النهى عما هم عليه من ارتكاب القبائح مما يشوش عليهم تمتعهم وينغص عليهم عيشهم فأمر عليه السلام بتركه ليتمرغوا فيما هم فيه من حظوظهم فيدهمهم ما يدهمهم وهم عنه غافلون (فسوف يعلمون) سوء صنيعهم أو وخامة عاقبته أو حقيقة الحال التى ألجأتهم الى التمنى المذكور حيث لم يعلموا ذلك من جهتك وهو مع كونه وعيدا أيما وعيد وتهديدا غب تهديد تعليل للأمر بالترك فان علمهم ذلك علة لترك النهى والنصيحة لهم وفيه الزام للحجة ومبالغة فى الانذار اذ لا يتحقق الامر بالضد الا بعد تكرر الانذار وتقرر الجحود والانكار وكذلك ما ترتب عليه من الأكل والتمتع والالهاء (وما أهلكنا) شروع فى بيان سر تأخير عذابهم الى يوم القيامة وعدم نظمهم فى سلك الأمم الدارجة فى تعجيل العذاب أى ما أهلكنا (من قرية) من القرى بالخسف بها وباهلها كما فعل ببعضها أو باخلائها عن أهلها غب اهلاكهم كما فعل بآخرين (إلا ولها) فى ذلك الشأن (كتاب) أى أجل مقدر مكتوب فى اللوح واجب المراعاة بحيث لا يمكن تبديله لوقوعه حسب الحكمة المقتضية له (معلوم) لا ينسى ولا يغفل عنه حتى يتصور التخلف عنه بالتقدم والتأخر فكتاب مبتدأ خبره الظرف والجملة حال من قرية فانها لعمومها لا سيما بعد تأكده بكلمة من فى حكم الموصوفة

كما أشير اليه والمعنى ماأهلكنا قرية من القرى فى حال من الاحوال إلا حال أن يكون لها كتاب أى أجل موقت لمهلكها قد كتبناه لانهلكها قبل بلوغه معلوم لايغفل عنه حتى يمكن مخالفته بالتقدم والتأخر أو مرتفع بالظرف والجملة كما هى حال أى ماأهلكنا قرية من القرى فى حال من الاحوال إلا وقد كان لها فى حق هلاكها كتاب أى أجل مقدر مكتوب فى اللوح معلوم لايغفل عنه أو صفة لكن لاللقرية المذكورة بل للمقدرة التى هى بدل من المذكورة على المختار فيكون بمنزلة كونه صفة للمذكورة أى ماأهلكنا قرية من القرى الاقرية لها كتاب معلوم كما فى قوله تعالى «ليس لهم طعام إلا من ضريع لايسمن» فان قوله تعالى لايسمن صفة لكن لاللطعام المذكور لانه انما يدل على انحصار طعامهم الذى لايسمن فى الضريع وليس المراد ذلك بل للطعام المقدر بعد إلا أى ليس لهم طعام من شيء من الأشياء الاطعام لايسمن فليس فيه فصل بين الموصوف والصفة بكلمة إلا كما توهم. وأما توسيط الواو بينهما وان كان القياس عدمه فللايذان بكمال الالتصاق بينهما من حيث أن الواو شأنها الجمع والربط فان مانحن فيه من الصفة أقوى لصوقا بالموصوف منها به فى قوله تعالى «وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون» فان امتناع انفكاك الاهلاك عن الاجل المقدر عقلى وعن الانذار عادى جرت عليه السنة الالهية ولما بين ان الأمم المهلكة كان لكل منهم وقت معين لهلاكهم وأن هلاكهم لم يكن إلا حسبما كان مكتوبا فى اللوح بين أن كل أمة من الأمم منهم ومن غيرهم لها كتاب لايمكن التقدم عليه ولا التأخر عنه فقيل (ماتسبق من أمة) من الأمم المهلكة وغيرهم (أجلها) المكتوب فى كتابها أى لايجيء هلاكها قبل مجيء كتابها أو لاتمضى أمة قبل مضى أجلها فان السبق إذا كان واقعاً على زمانى فمعناه المجاوزة والتخليف فاذا قلت سبق زيد عمرا فمعناه أنه جاوزه وخلفه وراءه واذا كان واقعاً على زمان كان الامر بالعكس والسر فى ذلك أن الزمان يعتبر فيه الحركة والتوجه الى المتكلم فما سبقه يتحقق قبل تحققه وأما الزمانى فانما يعتبر فيه الحركة والتوجه الى ماسيأتى من الزمان فالسابق ماتقدم الى المقصد وايراده بعنوان الأجل باعتبار مايقتضيه من السبق كما أن ايراده بعنوان الكتاب المعلوم باعتبار مايوجبه من الاهلاك (ومايستأخرون) أى ومايتأخرن. وصيغة الاستفعال للاشعار بعجزهم عن ذلك مع طلبهم له. وإيثار صيغة المضارع فى الفعلين بعد ماذكر نفى الاهلاك بصيغة الماضى لان المقصود بيان دوامهما واستمرارهما فيما بين الامم الماضية والباقية. واسنادهما الى الامة بعد اسناد الاهلاك الى القرية لما أن السبق والاستئخار حال الامة دون القرية مع مافى الامة من العموم لاهل تلك القرى

وغيرهم ممن أخرت عقوباتهم الى الآخرة. وتأخير ذكر عدم تأخرهم عن ذكر عدم سبقهم مع كون المقام مقام المبالغة فى بيان تحقق عذابهم اما باعتبار تقدم السبق فى الوجود وأما باعتبار أن المراد بيان سر تأخير عذابهم مع استحقاقهم لذلك. وإيراد الفعل على صيغة جمع المذكر للحمل على المعنى مع التغليب ولرعاية الفواصل ولذلك حذف الجار والمجرور والجملة مبينة لماسبق والمعنى أن تأخير عذابهم الى يوم القيامة حسبما أشير اليه ببيان ودادتهم للاسلام اذ ذاك وبالأمر بتركهم وشأنهم الى أن يعلموا حقيقة الحال إنما هو لتأخر أجلهم المقدر لمايقتضيه من الحكم البالغة ومن جملتها ماعلم الله تعالى من ايمان بعض من يخرج منهم الى يوم القيامة (وقالوا) شروع فى بيان كفرهم بمن أنزل عليه الكتاب بعد بيان كفرهم بالكتاب ومايؤول اليه حالهم والقائلون مشركو مكة لغاية تماديهم فى العتو والغى (يا أيها الذى نزل عليه الذكر) خاطبوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتسليما لذلك واعتقادا له بل استهزاء به عليه الصلاة والسلام واشعارا بعلة حكمهم الباطل فى قولهم (إنك لمجنون) كدأب فرعون اذ قال أن رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون يعنون يامن يدعى مثل هذا الامر البديع الخارق للعادات إنك بسبب تلك الدعوى أو بشهادة مايعتريك عندما تدعى أنه ينزل عليك لمجنون. وتقديم الجار والمجرور على القائم مقام الفاعل لان انكارهم متوجه الى كون النازل ذكرا من الله تعالى لاإلى كون المنزل عليه رسول الله بعد تسليم كون النازل منه تعالى كما فى قوله تعالى «لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم» فان الانكار هناك متوجه الى كون المنزل عليه رسول الله تعالى. وايراد الفعل على صيغة المجهول لايهام أن ذلك ليس بفعل له فاعل أو لتوجيه الانكار الى كون التنزيل عليه لاالى استناده الى الفاعل (لوماتأتينا) كلمة لوعند تركبها مع ما تفيد ماتفيده عند تركبها مع لا من معنى امتناع الشىء لوجود غيره ومعنى التحضيض خلا أنه عند ارادته لايليها الافعل ظاهر أومضمر وعند ارادة المعنى الاول لايليها الااسم ظاهر أومقدر عند البصريين والمراد ههنا هو الثانى أى هلا تأتينا (بالملائكة) يشهدون بصحة نبوتك ويعضدونك فى الانذار كقوله تعالى «لولا أنزل عليه ملك فيكون معه نذيرا» أو يعاقبوننا على التكذيب كما تأتى الامم المكذبة لرسلهم (إن كنت من الصادقين) فى دعواك فان قدرة الله تعالى على ذلك مما لاريب فيه وكذا احتياجك اليه فى تمشية أمرك فانا لانصدقك بدون ذلك أو ان كنت من جملة تلك الرسل الصادقين الذين عذبت أممهم المكذبة لهم (ماننزل الملائكة) بالنون على بناء الفعل لضمير الجلالة من التنزيل . وقرىء من الانزال وقرىء تنزل مضارعا من التنزيل على

صيغة البناء للمفعول ومن التنزل بحذف احدى التاءين وماضياً منه ومن التنزيل ومن الثلاثى وهو كلام مسوق إلى النبى صلى الله عليه وسلم جوابا لهم عن مقالتهم المحكية ورداً لاقتراحهم الباطل ولشدة استدعاء ذلك للجواب قدم رده على ماهو جواب عن أولها أعنى قوله «انا نحن نزلنا الذكر» الآية كما فعل فى قوله تعالى « قال انما يأتيكم به الله» فانه مع كونه جوابا عن قولهم فائتنا بما تعدنا قدم على قوله ولا ينفعكم نصحى الآية مع كونه جواباً عن أول كلامهم الذى هو قولهم يانوح قد جادلتنا لما ذكر من شدة اقتضائه للجواب وليكون أحد الجوابين متصلا بالسؤال وفى العكس يلزم انفصال كل من الجوابين عن سؤاله والعدول عن تطبيقه لظاهر كلامهم بصدد الاقتراح وهو أن يقال ماتأتيهم بهم للايذان بأنهم قد أخطأوا فى التعبير حسبما أخطأوا فى الاقتراح وأن الملائكة لعلو رتبتهم أعلى من أن ينسب اليهم مطلق الاتيان الشامل للانتقال من أحد الأمكنة المتساوية إلى الآخر منها بل من الأسفل إلى الأعلى وأن يكون مقصد حركاتهم أولئك الكفرة وان يدخلوا تحت ملكوت أحد من البشر وانما الذى يليق بشأنهم النزول من مقامهم العالى وكون ذلك بطريق التنزيل من جناب الرب الجليل (إلا بالحق) أى ملتبساً بالوجه الذى يحق ملابسة التنزيل به مما تقتضيه الحكمة وتجرى به السنة الالهية كقوله سبحانه «وما خلقنا السموات والارض وما بينهما إلا بالحق» والذى اقترحوه من التنزيل لاجل الشهادة لديهم وهم هم ومنزلتهم فى الحقارة والهوان منزلتهم مما لا يكاد يدخل تحت الصحة والحكمة أصلا فان ذلك من باب التنزيل بالوحى الذى لا يكاد يفتح على غير الأنبياء الكرام من أفراد كمل المؤمنين فكيف على أمثال أولئك الكفرة اللئام وانما الذى يدخل فى حقهم تحت الحكمة فى الجملة هو التنزيل للتعذيب والاستئصال كما فعل باضرابهم من الأمم السالفة ولو فعل ذلك لاستؤصلوا بالمرة (وما كانوا إذا منظرين) جزاء الشرط مقدر . وفيه ايذان باتناج مقدماتهم لنقيض مطلوبهم كما فى قوله تعالى «وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا» قال صاحب النظم لفظة إذن مركبة من إذ وهو اسم بمعنى الحين تقول أتيتك إذ جئتنى أى حين جئتنى ثم ضم اليه أن فصار إذ أن ثم استثقلوا الهمزة فحذفوها فمجىء لفظة أن دليل على إضمار فعل بعدها والتقدير وما كانوا إذ أن كان ماطلبوه منظرين والمعنى لو نزلناهم ماكانوا مؤخرين كدأب سائر الأمم المكذبة المستهزئة ومع استحقاقهم لذلك قد جرى قلم القضاء بتأخير عذابهم الى يوم القيامة حسبما أجمل فى قوله تعالى « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل» الخ وحال حائل الحكمة بينهم وبين استئصالهم لتعلق العلم والارادة بازديادهم عذابا وبايمان بعض ذراريهم وأما

نظم إيمان بعضهم فى سمط الحكمة فيأباه مقام بيان تماديهم فى الكفر والفساد ولجاجهم فى المكابرة والعناد هذا هو الذى يستدعيه إعجاز التنزيل الجليل. وأما ماقيل فى تعليل عدم موافقة التنزيل للحكمة من أنهم حينئذ يكونون مصدقين عن اضطرار أو أنه لا حكمة فى أن تأتيكم بصور تشاهدونها فانه لا يزيدكم الا لبسا أو أن انزال الملائكة لا يكون الا بالحق وحصول الفائدة بانزالهم وقد علم الله تعالى من حال هؤلاء الكفار أنه لو أنزل اليهم الملائكة لبقوا مصرين على كفرهم فيصير انزالهم عبثا باطلا ولا يكون حقا فمع اخلال كل من ذلك بقطعية الباقى لا يلزم من فرض وقوع شيء من ذلك تعجيل العذاب الذى يفيده قوله تعالى «وما كانوا اذا منظرين» هذا على تقدير كون اقتراحهم لاتيان الملائكة لاجل الشهادة أما على تقدير كون ذلك لتعذيبهم فالمعنى انا ما ننزل الملائكة للتعذيب الا تنزيلا ملتبسا بالحق الذى تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة حتما بحيث لا محيد عنه ولو نزلناهم حسبما اقترحوا ما كان ذلك التنزيل ملتبسا بمقتضى الحكمة الموجبة لتأخير عذابهم الى يوم القيامة لارفقابهم بل تشديدا عليهم كما مر من قبل وحيث كان فى نسبة تنزيلهم للتعذيب الى عدم موافقته الحكمة نوع ايهام لعدم استحقاقهم التعذيب عدل عما يقتضيه الظاهر الى ما عليه النظم الكريم فكأنه قيل لو نزلناهم ما كانوا منظرين وذلك غير موافق للحكمة الموجبة لتأخير عذابهم لتشديد عقابهم. وقيل المراد بالحق الوحى. وقيل العذاب فتدبر (إنا نحن نزلنا الذكر) رد لانكارهم التنزيل واستهزائهم برسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك وتسلية له أى نحن بعظم شأننا وعلو جنابنا نزلنا ذلك الذكر الذى أنكروه وأنكروا نزوله عليك ونسبوك بذلك الى الجنون وعموا منزله حيث بنوا الفعل للمفعول ايماء الى أنه أمر لا مصدر له وفعل لا فاعل له (وإناله لحافظون) من كل ما لا يليق به فيدخل فيه تكذيبهم له واستهزاؤهم به دخولا أوليا فيكون وعيدا للمستهزئين وأما الحفظ عن مجرد التحريف والزيادة والنقص وأمثالها فليس بمقتضى المقام فالوجه الحمل على الحفظ من جميع ما يقدح فيه من الطعن فيه والمجادلة فى حقيته ويجوز أن يراد حفظه بالاعجاز دليلا على التنزيل من عنده تعالى اذ لو كان من عند غير الله لتطرق عليه الزيادة والنقص والاختلاف وفى سبك الجملتين من الدلالة على كمال الكبرياء والجلالة وعلى فخامة شأن التنزيل مالا يخفى. وفى ايراد الثانية بالجملة الاسمية دلالة على دوام الحفظ والله سبحانه اعلم. وقيل الضمير المجرور للرسول صلى الله عليه وسلم كقوله تعالى «والله يعصمك من الناس» وتأخير هذا الكلام وان كان جوابا عن أول كلامهم الباطل ردا له لما ذكر آنفا ولارتباطه بما

يعقبه من قوله تعالى (ولقد أرسلنا) أى رسلا وانما لم يذكر لدلالة مابعده عليه (من قبلك) متعلق بأرسلنا أو بمحذوف هو نعت للمفعول المحذوف أى رسلا كائنة من قبلك (فى شيع الأولين) أى فرقهم وأحزابهم جمع شيعة وهى الفرقة المتفقة على طريقة ومذهب من شاعه اذا تبعه واضافته الى الاولين من اضافة الموصوف الى صفته عند الفراء ومن حذف الموصوف عند البصريين أى شيع الامم الاولين ومعنى ارسالهم فيهم جعل كل منهم رسولا فيما بين طائفة منهم ليتابعوه فى كل مايأتى و يذر من أمور الدين (وما يأتيهم من رسول) المراد نفى اتيان كل رسول لشيعته الخاصة به لانفى اتيان كل رسول لكل واحدة من تلك الشيع جميعا أو على سبيل البدل. وصيغة الاستقبال لاستحضار الصورة على طريقة حكاية الحال الماضية فان ما لاتدخل فى الاغلب على مضارع الاوهو فى معنى الحال ولاعلى ماض الا وهو قريب من الحال أى ماأتى شيعة من تلك الشيع رسول خاص بها (إلا كانوا به يستهزؤن) كما يفعله هؤلاء الكفرة والجملة فى محل النصب على أنها حال مقدرة من ضمير المفعول فى يأتيهم اذا كان المراد بالاتيان حدوثه أوفى محل الرفع على أنها صفة رسول فان محله الرفع على الفاعلية أى الارسول كانوا به يستهزؤن وأما الجر على أنها صفة باعتبار لفظه فيفضى الى زيادة من الاستغراقية فى الاثبات ويجوز أن يكون منصوبا على الوصفية بأن يقدر الموصوف منصوبا على الاستثناء وان كان المختار الرفع على البدلية وهذا كما ترى تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن هذه عادة الجهال مع الانبياء عليهم السلام وحيث كان الرسول مصحوبا بكتاب من عند الله تعالى تضمن ذكر استهزائهم بالرسول استهزاءهم بالكتاب ولذلك قيل (كذلك) اشارة إلى مادل عليه الكلام السابق من القاء الوحى مقرونا بالاستهزاء أى مثل ذلك السلك الذى سلكناه فى قلوب أولئك المستهزئين برسلهم وبما جاءوا به من الكتب (نسلكه) أى الذكر (فى قلوب المجرمين) أى أهل مكة أو جنس المجرمين فيدخلون فيه دخولا أوليا ومحله النصب على أنه نعت لمصدر محذوف أو حال منه أى نسلكه سلكا مثل ذلك السلك أو نسلك السلك حال كونه مثله أى مقرونا بالاستهزاء غير مقبول لما تقتضيه الحكمة فانهم من أهل الخذلان ليس لهم استحقاق لقبول الحق. وصيغة المضارع لكون المشبه به مقدما فى الوجود وهو السلك الواقع فى الامم السالفة أو للدلالة على استحضار الصورة والسلك ادخال الشىء فى آخر يقال سلكت الخيط فى الابرة والرمح فى المطعون (لايؤمنون به) أى بالذكر حال من ضمير نسلكه اى غير مؤمن به أو بيان للجملة السابقة فلا محل لها وقد جعل الضمير للاستهزاء فتتعين البيانية ألا أن يجعل الضمير المجرور أيضا له على أن الباء للملابسة أى نسلك الاستهزاء فى قلوبهم حال كونهم غير مؤمنين

بملابسته والحال اما مقدرة أو مقارنة للايذان بان كفرهم مقارن للالقاء كما فى قوله تعالى «فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به» (وقد خلت سنة الأولين) أى قد مضت طريقتهم التى سنها الله تعالى فى اهلاكهم حين فعلوا مافعلوا من التكذيب والاستهزاء وهو استئناف جيء به تكملة للتسلية وتصريحا بالوعيد والتهديد (ولو فتحنا عليهم) أى على هؤلاء المقترحين المعاندين (بابا من السماء) أى بابا ما لا بابا من أبوابها المعهودة كما قيل ويسرنا لهم الرقى والصعود اليه (فظلوا فيه) فى ذلك الباب (يعرجون) بآلة أو بغيرها ويرون مافيها من العجائب عيانا كما يفيده الظلول أو فظل الملائكة الذين اقترحوا اتيانهم يعرجون فى ذلك الباب وهم يرونه عيانا مستوضحين طول نهارهم (لقالوا) لفرط عنادهم وغلوهم فى المكابرة وتفاديهم عن قبول الحق (إنما سكرت أبصارنا) أى سدت من الاحساس من السكر كما يدل عليه القراءة بالتخفيف أو حيرت كما يعضده قراءة من قرأ سكرت أى حارت (بل نحن قوم مسحورون) قد سحرنا محمد صلى الله عليه وسلم كما قالوه عند ظهور سائر الآيات الباهرة . وفى كلمتي الحصر والاضراب دلالة على أنهم يبتون القول بذلك وأن مايرونه لاحقيقة له وإنما هو أمر خيل اليهم بالسحر . وفى اسمية الجملة الثانية دلالة على دوام مضمونها . وايرادها بعد تسكير الأبصار لبيان انكارهم لغير مايرونه فان عروج كل منهم إلى السماء وان كان مرئيا لغيره فهو معلوم بطريق الوجدان مع قطع النظر عن الأبصار فهم يدعون أن ذلك نوع آخر من السحر غير تسكير الأبصار (ولقد جعلنا فى السماء بروجا) قصوراً ينزلها السيارات وهى البروج الاثنا عشر المشهورة المختلفة الهيآت والخواص حسبما يدل عليه الرصد والتجربة مع ما اتفق عليه الجمهور من بساطة السماء . والجعل أن جعل بمعنى الخلق والابداع وهو الظاهر فالجار متعلق به وان جعل بمعنى التصيير فهو مفعول ثان له متعلق بمحذوف أى جعلنا بروجا كائنة فى السماء (وزيناها) أى السماء بتلك البروج المختلفة الاشكال والكواكب سيارات كانت أو ثوابت (للناظرين) اليها فمعنى التزيين ظاهر أو للمتفكرين المعتبرين المستدلين بذلك على قدرة مقدرها وحكمة مدبرها فتزيينها ترتيبها على نظام بديع مستتبع للآثار الحسنة (وحفظناها من كل شيطان رجيم) مرمى بالنجوم فلا يقدر أن يصعد اليها ويوسوس فى أهلها ويتصرف فيها ويقف على أحوالها (إلا من استرق السمع) محله النصب على الاستثناء المتصل إن فسر الحفظ بمعنى الشياطين عن التعرض لها على الاطلاق والوقوف على مافيها فى الجملة أو المنقطع إن فسر ذلك بالمنع عن دخولها والتصرف فيها . عن ابن عباس رضى الله عنهما أنهم كانوا لايحجبون عن السموات فلما ولد عيسى عليه

السلام منعوا من ثلاث سموات ولما ولد النبي صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات كلها . واستراق السمع اختلاسه سرا شبه به خطفتهم اليسيرة من قطان السموات بما بينهم من المناسبة فى الجوهر أو بالاستدلال من الأوضاع (فأتبعه) أى تبعه ولحقه (شهاب) لهب محرق وهو شعلة نار ساطعة وقد يطلق على الكواكب والسنان لما فيهما من البريق (مبين) ظاهر أمره للمبصرين قال معمر قلت لابن شهاب الزهرى أكان يرمى بالنجوم فى الجاهلية قال نعم وإن النجم ينقض ويرمى به الشيطان فيقتله أو يخبله لئلا يعود الى استراق السمع ثم يعود إلى مكانه قال أفرأيت قوله تعالى « وأنا كنا نقعد منها مقاعد » الآية قال غلظت وشدد أمرها حين بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابن قتيبة ان الرجم كان قبل مبعثه عليه الصلاة والسلام ولكن لم يكن فى شدة الحراسة كما بعد مبعثه عليه الصلاة والسلام قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ان الشياطين يركب بعضهم بعضا إلى السماء الدنيا يسترقون السمع من الملائكة فيرمون بالكوكب فلا يخطىء أبداً فمنهم من يقتله ومنهم من يحرق وجهه وجنبه ويده حيث يشاء الله تعالى ومنهم من يخبله فيصير غولا فيضل الناس فى البوادى قال القرطبي اختلفوا فى أن الشهاب هل يقتل أم لا قال ابن عباس رضى الله عنهما يجرح ويحرق ويخبل ولا يقتل قال الحسن وطائفة يقتل قال والأول أصح (والأرض مددناها) بسطناها وهو بالنصب على الحذف على شريطة التفسير ولم يقرأ بالرفع لرجحان النصب للعطف على الجملة الفعلية أعنى قوله تعالى ولقد جعلنا الخ وليوافق مابعده أعنى قوله تعالى (وألقينا فيها رواسى) أى جبالا ثوابت وقد مر بيانه فى أول الرعد (وأنبتنا فيها) أى فى الارض أو فيها وفى رواسيها (من كل شيء موزون) بميزان الحكمة ذاتا وصفة ومقدارا . وقيل مايوزن من الذهب والفضة وغيرهما أو من كل شيء مستحسن مناسب أو مايوزن ويقدر من أبواب النعمة (وجعلنا لكم فيها معايش) ماتعيشون به من المطاعم والملابس وغيرهما مما يتعلق به البقاء وهى بياء صريحة . وقرىء بالهمزة تشبيها له بالشمائل (ومن لستم له برازقين) عطف على معايش أو على محل لكم كأنه قيل جعلنا لكم معايش وجعلنا لكم من لستم برازقيه من العيال والمماليك والخدم والدواب وما أشبهها على طريقة التغليب وذكرهم بهذا العنوان لرد حسبانهم أنهم يكفون مؤناتهم ولتحقيق أن الله تعالى هو الذى يرزقهم وإياهم أو وجعلنا لكم فيها معايش ولمن لستم برازقين (وإن من شيء) أن للنفى ومن مزيدة للتأكيد وشيء فى محل الرفع على الابتداء أى مامن شيء من الاشياء الممكنة فيدخل فيه ماذكر دخولا أوليا (إلا عندنا خزائنه) الظرف خبر للمبتدأ وخزائنه مرتفع به على أنه فاعله لاعتماده أو خبر له والجملة

خبر للمبتدا الاول والخزائن جمع الخزانة وهى مايحفظ فيه نفائس الاموال لاغير غلب فى العرف على ماللملوك والسلاطين من خزائن أرزاق الناس شبهت مقدوراته الفائتة للحصر المندرجة تحت قدرته الشاملة فى كونها مستورة عن علوم العالمين ومصونة عن وصول أيديهم مع كمال افتقارهم اليها ورغبتهم فيها وكونها مهيأة متأتية لايجاده وتكوينه بحيث متى تعلقت الارادة بوجودها وجدت بلاتأخر بنفائس الاموال المخزونة فى الخزائن السلطانيـة فذكر الخزائن على طريقة الاستعارة التخييلية (وما ننزله) أى ما نوجد ومانكون شيئا من تلك الاشياء متلبسا بشىء من الاشياء (إلابقدر معلوم) أى الامتلبسا بمقدار معين تقتضيه الحكمة وتستدعيه المشيئة التابعة لها الاىما تقتضيه القدرة فان ذلك غير متناه فان تخصيص كل شىء بصفة معينة وقدر معين ووقت محـدود دون ماعـدا ذلك مع استواء الـكل فى الامكان واستحقاق تعلق القـدرة به لابد له من حكمة تقتضى اختصاص كل من ذلك بمـا اختص به وهـذا البيان سر عدم تكوين الاشـياء على وجه الـكثرة حسبما هو فى خزائن القدرة وهو أما عطف على مقدر أى ننزله وماننزله الخ أوحال مما سبق أى عندنا خزائن كل شىء والحال أنا ماننزله الا بقدر معلوم فالاول لبيان سعة القدرة والثانى لبيان بالغ الحـكمة وحيث كان انشاء ذلك بطريق التفضل من العالم العلوى الى العالم السفلى كما فى قوله تعالى «وأنزل لـكم من الانعام ثمانية أزواج» وكان ذلك بطريق التدريج عبر عنه بالتنزيل. وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار (وأرسلنا الرياح) عطف على جعلنا لـكم فيها معايش وما بينهما اعتراض لتحقيق ماسبق وترشيح مالحق أى أرسـلنا الرياح (لواقح) أى حوامل شبهت الريح التى تجىء بالخير من انشاء سحاب ما طريا لحامل كما شبه بالعقيم ما لا يكون كذلك أو ملقحات بالشجر والسحاب ونظيره الطوائح بمعنى المطيحات فى قوله « ومختبط مما تطيح الطوائح » أى مهلـكات وقرىء وأرسلنا الريح على أرادة الجنس (فأنزلنا من السماء) بعد ما أنشأنا بتلك الرياح سحابا ماطرا (ماء فأسقيناكموه) أى جعلناه لـكم سقيا وهو أبلغ من سقيناكموه لما فيه من الدلالة على جعل الماء معدا لهم ينتفعون به متى شاءوا (وما أنتم له بخازنين) نفى عنهم ما أثبته لجنابه بقوله وان من شىء الا عندنا خزائنه كأنه قيل نحن القادرون على ايجاده وخزنه فى السحاب وانزاله وما أنتم على ذلك بقادرين. وقيل ما أنتم بخازنين له بعـدما أنزلناه فى الغـدران والآبار والعيون بل نحن نخزنه فيها لنجعلها سقيا لـكم مع أن طبيعة المـاء تقتضى الغور (وإنا لنحن نحيى) بايجاد الحياة فى بعض الاجسام القابلة لها (ونميت) بازالتها عنها وقد يعمم الاحياء والاماتة لما يشمل الحيوان والنبات. وتقديم الضمير للحصر وهو اما

تأكيد للاول أو مبتدأ خبره الفعل والجملة خبر لانا ولا يجوز كونه ضمير الفصل لا لان اللام مانعة من ذلك كما قيل فان النحاة جوزوا دخول لام التأكيد على ضمير الفصل كما فى قوله تعالى «ان هذا لهو القصص الحق» بل لانه لم يقع بين اسمين (ونحن الوارثون) أى الباقون بعد فناء الخلق قاطبة المالكون للملك عند انقضاء زمان الملك المجازى الحاكمون فى الكل أولا وآخرا وليس لهم الا التصرف الصورى والملك المجازى وفيه تنبيه على أن المتأخر ليس بوارث للمتقدم كما يتراءى من ظاهر الحال (ولقد علمنا المستقدمين منكم) من تقدم منكم ولادة وموتا (ولقد علمنا المستأخرين) من تأخر ولادة وموتا أو من خرج من أصلاب الآباء ومن لم يخرج بعد أو من تقدم فى الاسلام والجهاد وسبق الى الطاعة ومن تأخر فى ذلك لا يخفى علينا شىء من أحوالكم وهو بيان لكمال علمه بعد الاحتجاج على كمال قدرته فان ما يدل عليها دليل عليه . وفى تكرير قوله تعالى ولقد علمنا ما لا يخفى من الدلالة على كمال التأكيد وقيل رغب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصف الاول فازدحموا عليه فنزلت . وقيل ان امرأة حسناء كانت تصلى خلف رسول الله عليه الصلاة والسلام فتقدم بعض الناس لئلا يراها وتأخر آخرون ليروها فنزلت والاول هو المناسب لما سبق وما لحق من قوله تعالى (وان ربك هو يحشرهم) أى للجزاء وتوسيط ضمير العظمة للدلالة على أنه هو القادر على حشرهم والمتولى لهم لا غير لانهم كانوا يستبعدون ذلك ويستنكرونه ويقولون من يحيى العظام وهى رميم أى هو يحشرهم لا غير وفى الالتفات والتعرض لعنوان الربوبية اشعار بعلة الحكم وفى الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام دلالة على اللطف به عليه الصلاة والسلام (انه حكيم) بالغ الحكمة متقن فى أفعاله فانها عبارة عن العلم بحقائق الأشياء على ما هى عليه والاتيان بالافعال على ما ينبغى (عليم) وسع علمه كل شىء ولعل تقديم صفة الحكمة للايذان باقتضائها للحشر والجزاء (ولقد خلقنا الانسان) أى هذا النوع بأن خلقنا أصله وأول فرد من أفراده خلقا بديعا منطويا على خلق سائر أفراده انطواء اجماليا كما مر تحقيقه فى سورة الانعام (من صلصال) من طين يابس غير مطبوخ يصلصل أى يصوت عند نقره قيل اذا توهمت فى صوته مدا فهو صليل وان توهمت فيه ترجيعا فهو صلصلة وقيل هو تضعيف صل اذا أنتن (من حمأ) من طين تغير واسود بطول مجاورة الماء وهو صفة لصلصال أى من صلصال كائن من حمأ (مسنون) أى مصور من سنة الوجه وهى صورته أو مصبوب من سن الماء صبه أى مفرغ على هيئة الانسان كما تفرغ الصور من الجواهر المذابة فى القوالب وقيل منتن فهو صفة لحمأ

وعلى الاولين حقه أن يكون صفة لصلصال وانما أخر عن حمأ تنبيها على أن ابتداء مسنونيته ليس فى حال كونه صلصالا بل فى حال كونه حمأ كأنه سبحانه أفرغ الحمأ فصور من ذلك تمثال انسان أجوف فيبس حتى اذا نقر صوت ثم غيره الى جوهر آخر فتبارك الله أحسن الخالقين (والجان) أبا الجن وقيل ابليس ويجوز أن يراد به الجنس كما هو الظاهر من الانسان لأن تشعب الجنس لما كان من فرد واحد مخلوق من مادة واحدة كان الجنس بأسره مخلوقا منها وقرىء بالهمزة وانتصابه بفعل يفسره (خلقناه) وهو أقوى من الرفع للعطف على الجملة الفعلية (من قبل) من قبل خلق الانسان ومن هذا يظهر جواز كون المراد بالمستقدمين أحد الثقلين وبالمستأخرين الآخر والخطاب بقوله منكم للكل (من نار السموم) من نار الحر الشديد النافذ فى المسام ولا امتناع من خلق الحياة فى الأجرام البسيطة كما لا امتناع من خلقها فى الجواهر المبردة فضلا عن الاجساد المؤلفة التى غالب أجزائها الجزء النارى فانها أقبل لها من التى غالب أجزائها الجزء الارضى وقوله تعالى من نار باعتبار الغالب كقوله تعالى «خلقكم من تراب» ومساق الآية الكريمة كما هو للدلالة على كمال قدرة الله تعالى وبيان بدء خلق الثقلين فهو للتنبيه على المقدمة الثانية التى يتوقف عليها امكان الحشر وهو قبول المواد للجمع والاحياء (وإذ قال ربك) نصب باضمار اذكر وتذكير الوقت لما مر مرارا من أنه أدخل فى تذكير ما وقع فيه من الحوادث . وفى التعرض لوصف الربوبية المنبئة عن تبليغ الشىء الى كماله اللائق به شيئا فشيئا مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام اشعار بعلة الحكم وتشريف له عليه الصلاة والسلام أى اذكر وقت قوله تعالى (للملائكة إنى خالق) فيما سيأتى وفيه ماليس فى صيغة المضارع من الدلالة على أنه تعالى فاعل له ألبتة من غير صارف يثنيه ولا عاطف يلويه (بشرا) أى انسانا قيل ليس هذا عين العبارة الجارية وقت الخطاب بل الظاهر أن يكون قد قيل لهم انى خالق خلقا من صفته كيت وكيت ولكن اقتصر عند الحكاية على الاسم وقيل جسما كثيفا يلاقى ويباشر وقيل خلقا بادى البشرة بلا صوف ولا شعر (من صلصال) متعلق بخالق أو بمحذوف وقع صفة لمفعوله أى بشرا كائنا من صلصال كائن (من حمأ مسنون) تقدم تفسيره ولا ينافى هذا مافى قوله تعالى فى سورة ص من قوله بشرا من طين فان عدم التعرض عند الحكاية لوصف الطين من التغير والاسوداد ولما ورد عليه من آثار التكوين لايستلزم عدم التعرض لذلك عند وقوع المحكى غايته أنه لم يتعرض له هناك اكتفاء بما شرح ههنا (فاذا سويته) أى صورته بالصورة الانسانية والخلقة البشرية أو سويت أجزاء بدنه

بتعديل طبائعه (ونفخت فيه من روحى) النفخ اجراء الريح الى تجويف جسم صالح لامساكها والامتلاء بها وليس ثمة نفخ ولا منفوخ وانما هو تمثيل لافاضة مابه الحياة بالفعل على المادة القابلة لها أى فاذا كملت استعداده وأفضت عليه مايحيا به من الروح التى هى من أمرى (فقعوا له) أمر من وقع يقع وفيه دليل على أن ليس المأمور به مجرد الانحناء كما قيل أى اسقطوا له (ساجدين) تحية له وتعظيما أو اسجدوا لله تعالى على انه عليه الصلاة والسلام بمنزلة القبلة حيث ظهر فيه تعاجيب آثار قدرته تعالى وحكمته كقول حسان رضى الله تعالى عنه :

أليس أول من صلى لقبلتكم ✻ وأعلم الناس بالقرآن والسنن

(فسجد الملائكة) أى فخلقه فسواه فنفخ فيه الروح فسجد الملائكة (كلهم) بحيث لم يشذ منهم أحد (أجمعون) بحيث لم يتأخر فى ذلك أحد منهم عن أحد ولا اختصاص لافادة هذا المعنى بالحالية بل يفيده التأكيد أيضا فان الاشتقاق الواضح يرشد الى أن فيه معنى الجمع والمعية بحسب الوضع والاصل فى الخطاب التنزيل على أكمل أحوال الشىء ولا ريب فى أن السجود معا أكمل أصناف السجود لكن شاع استعماله تأكيدا وأقيم مقام كل فى افادة معنى الاحاطة من غير نظر الى الكمال فاذا فهمت الاحاطة من لفظ آخر لم يكن بد من مراعاة الاصل صونا للكلام عن الالغاء وقيل أكد بتأكيدين مبالغة فى التعميم هذا وأما أن سجودهم هذا هل ترتب على ماحكى من الامر التعليقى كما تقتضيه هذه الآية الكريمة والتى فى سورة «ص» أو على الامر التنجيزى كما يستدعيه مافى غيرهما فقد خرجنا بفضل الله عز وجل عن عهدة تحقيقه فى تفسير سورة «البقرة» (الا ابليس) استثناء متصل اما لانه كان جنيا مفردا مغمورا بألوف من الملائكة فعد منهم تغليبا واما لان من الملائكة جنسا يتوالدون وهو منهم وقوله تعالى (أبى أن يكون مع الساجدين) استئناف مبين لكيفية عدم السجود المفهوم من الاستثناء فان مطلق عدم السجود قد يكون مع التردد وبه علم أنه مع الاباء والاستكبار أو منقطع فيتصل به مابعده أى لكن ابليس أبى أن يكون معهم وفيه دلالة على كمال ركاكة رأيه حيث أدمج فى معصية واحدة ثلاث معاص: مخالفة الامر. والاستكبار مع تحقير آدم عليه الصلاة والسلام. ومفارقة الجماعة والاباء عن الانتظام فى سلك أولئك المقربين الكرام (قال) استئناف مبنى على سؤال من قال فماذا قال تعالى عند ذلك فقيل قال (يا ابليس مالك) أى أى سبب لك لا أى غرض لك كما قيل لقوله تعالى مامنعك (ألا تكون) فى أن لا تكون (مع الساجدين) لآدم مع أنهم هم ومنزلتهم فى الشرف منزلتهم وما كان التوبيخ عند

وقوعه لمجرد تخلفه عنهم بل لكل من المعاصي الثلاث المذكورة قال تعالى في سورة الاعراف «قال ما منعك ألا تسجد اذ أمرتك» وفي سورة ص «قال يا ابليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي» ولكن اقتصر عند الحكاية في كل موطن على ما ذكر فيه اجتزاء بما ذكر في موطن آخر واشعارا بأن كل واحدة من تلك المعاصي الثلاث كافية في التوبيخ واظهار بطلان ما ارتكبه وقد تركت حكاية التوبيخ رأسا في سورة البقرة وسورة بني اسرائيل وسورة الكهف وسورة طه (قال) أي أبليس وهو أيضا استئناف مبني على السؤال الذي ينساق اليه الكلام (لم أكن لأسجد) اللام لتأكيد النفي أي ينافي حالي ولا يستقيم مني لاني مخلوق من أشرف العناصر وأعلاها أن أسجد (لبشر) أي جسم كثيف (خلقته من صلصال من حمأ مسنون) اقتصر ههنا على الاشارة الاجمالية الى ادعاء الخيرية وشرف المادة اكتفاء بما صرح به حين قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ولم يكتف اللعين بمجرد ذكر كونه عليه الصلاة والسلام من التراب الذي هو أخس العناصر وأسفلها بل تعرض لكونه مخلوقا منه في أخس احواله من كونه طينا متغيرا وقد اكتفى في سورة الاعراف وسورة ص بما حكى عنه ههنا فاقتصر على حكاية تعرضه لخلقه عليه الصلاة والسلام من طين وكذا في سورة بني اسرائيل حيث قيل أأسجد لمن خلقت طينا. وفي جوابه دليل على أن قوله تعالى «مالك» ليس استفسارا عن الغرض بل هو استفسار عن السبب. وفي عدوله عن تطبيق جوابه على السؤال روم للتفصي عن المناقشة وأنى له ذلك كانه قال لم أمتنع عن امتثال الامر ولا عن الانتظام في سلك الملائكة بل عما لا يليق بشأني من الخضوع للمفضول. ولقد جرى خذله الله تعالى على سنن قياس عقيم وزل عنه أن مايدور عليه فلك الفضل والكمال هو التحلي بالمعارف الربانية والتخلي عن الملكات الردية التي أقبحها التكبر والاستعصاء على أمر رب العالمين جل جلاله (قال فاخرج منها) أي من زمرة الملائكة المعززين لا من السماء فان وسوسته لآدم عليه الصلاة والسلام في الجنة انما كانت بعد هذا الطرد وقوله تعالى «فاهبط منها» ليس نصا في ذلك فان الخروج من بين الملأ الأعلى هبوط وأي هبوط أو من الجنة على أن وسوسته كانت بطريق النداء من بابها كما روى عن الحسن البصري أو بطريق المشافهة بعد أن احتال في دخولها وتوسل بالحية كما روى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ولا ينافي هذا طرده على رءوس الاشهاد لما يقتضيه من الحكم البالغة (فانك رجيم) مطرود من كل خير وكرامة فان من يطرد يرجم بالحجارة أو شيطان يرجم بالشهب وهو وعيد يتضمن الجواب عن شبهته فان من عارض

النص بالقياس فهو رجيم ملعون (وإن عليك اللعنة) الابعاد عن الرحمة وحيث كان ذلك من جهة الله سبحانه وان كان جاريا على ألسنة العباد قيل فى سورة ص «وان عليك لعنتى» (إلى يوم الدين) الى يوم الجزاء والعقوبة. وفيه اشعار بتأخير عقابه وجزائه اليه وأن اللعنة مع كمال فظاعتها ليست جزاء لفعله وانما يتحقق ذلك يومئذ . وفيه من التهويل مالا يوصف وجعل ذلك أقصى امد اللعنة ليس لانها تنقطع هنالك بل لانه عند ذلك يعذب بما ينسى به اللعنة من أفانين العذاب فتصير هى كالزائل . وقيل انما حدت به لانه أبعد غاية يضربها الناس كقوله تعالى «خالدين فيها مادامت السموات والارض» وحيث أمكن كون تأخير العقوبة مع الموت كسائر من أخرت عقوباتهم الى الآخرة من الكفرة طلب اللعين تأخير موته كما حكى عنه بقوله تعالى (قال رب فأنظرنى) أى أمهلنى وأخرنى ولا تمتنى . والفاء متعلق بمحذوف ينسحب عليه الكلام أى اذ جعلتنى رجيما فأمهلنى (الى يوم يبعثون) أى آدم وذريته للجزاء بعد فنائهم وأراد بذلك أن يجد فسحة لاغوائهم ويأخذ منهم ثأره وينجو من الموت لاستحالته بعد يوم البعث (قال فأنك من المنظرين) وورود الجواب بالجملة الاسمية مع التعرض لشمول ماسأله لآخرين على وجه يؤذن بكون السائل تبعا لهم فى ذلك دليل على أنه اخبار بالانظار المقدر لهم أزلا لا إنشاء لانظار خاص به وقع اجابة لدعائه أى انك من جملة الذين أخرت آجالهم أزلا حسبما تقتضيه حكمة التكوين فالفاء ليست لربط نفس الانظار بالاستنظار بل لربط الاخبار المذكور به كما فى قوله :

فأن ترحم فأنت لذاك أهل

فانه لا امكان لجعل الفاء فيه لربط مافيه تعالى من الاهلية القديمة للرحمة بوقوع الرحمة الحادثة بل هى لربط الاخبار بتلك الاهلية للرحمة بوقوعها وان استنظاره كان طلبا لتأخير الموت اذ به يتحقق كونه من جملتهم لا لتأخير العقوبة كما قيل. ونظمه فى ذلك فى سلك من أخرت عقوبتهم الى الآخرة فى علم الله تعالى ممن سبق من الجن ولحق من الثقلين لا يلائم مقام الاستنظار مع الحياة ولان ذلك التأخير معلوم من اضافة اليوم الى الدين مع اضافته فى السؤال الى البعث كما عرفته وفى سورة الاعراف قال «أنظرنى الى يوم يبعثون قال انك من المنظرين» بترك التوقيت والنداء والفاء فى الاستنظار والانظار تعويلا على ماذكر ههنا وفى سورة ص فان ايراد كلام واحد على أساليب متعددة غير عزيز فى الكتاب العزيز وأما أن كل أسلوب من أساليب النظم الكريم لابد أن يكون له مقام يقتضيه مغاير لمقام غيره وأن ماحكى من اللعين انما صدر عنه مرة وكذا جوابه لم يقع الا دفعة فمقام المحاورة ان اقتضى أحد الاساليب المذكورة فهو المطابق لمقتضى الحال والبالغ الى طبقة الاعجاز وماعداه قاصر عن رتبة البلاغة فضلا عن الارتقاء

الى معالم الاعجاز فقدمر تحقيقه بتوفيق الله تعالى فى سورة الاعراف (الى يوم الوقت المعلوم) وهو وقت النفخة الاولى التى علم أنه يصعق عندها من فى السموات ومن فى الارض الا من شاء الله تعالى. و يجوز أن يكون المراد بالايام واحدا والاختلاف فى العبارات لاختلاف الاعتبارات فالتعبير بيوم البعث لان غرض اللعين به يتحقق و بيوم الدين لما ذكر من الجزاء و بيوم الوقت المعلوم لما ذكر أو لاستئثاره تعالى بعلمه فلعل كلا من هلاك الخلق جميعا و بعثهم وجزائهم فى يوم واحد بموت اللعين فى أوله و يبعث فى أواسطه و يعاقب فى بقيته . يروى أن بين موته و بعثه أربعين سنة من سنى الدنيا مقدار ما بين النفختين .ونقل عن الأحنف بن قيس رحمه الله تعالى أنه قال قدمت المدينة أريد أمير المؤمنين عمر رضى الله تعالى عنه فاذا أنا بحلقه عظيمة وكعب الاحبار فيها يحدث الناس وهو يقول لما حضر آدم عليه الصلاة والسلام الوفاة قال يارب سيشمت بى عدوى ابليس اذا رآنى ميتا وهو منظر الى يوم القيامة فأجيب أن يا آدم انك سترد الى الجنة ويؤخر اللعين الى النظر ليذوق ألم الموت بعدد الأولين والآخرين ثم قال لملك الموت صف كيف تذيقه الموت فلما وصفه قال يارب حسبى فضج الناس وقالوا يا أبا اسحق كيف ذلك فأبى فألحوا فقال يقول الله سبحانه لملك الموت عقيب النفخة الأولى قد جعلت فيك قوة أهل السموات السبع وأهل الارضين السبع وانى ألبستك اليوم أثواب السخط والغضب كلها فانزل بغضبى وسطونى على رجيمى ابليس فأذقه الموت واحمل عليه فيه مرارة الأولين والآخرين من الثقلين أضعافا مضاعفة وليكن معك من الزبانية سبعون ألفا قد امتلؤا غيظا وغضبا وليكن مع كل منهم سلسلة من سلاسل جهنم وغل من أغلالها وانزع روحه المنتن بسبعين ألف كلاب من كلاليبها وناد مالكا ليفتح أبواب النيران فينزل ملك الموت بصورة لو نظر اليها أهل السموات والأرضين لماتوا بغتة من هولها فينتهى الى ابليس فيقول قف لى ياخبيث لأذيقنك الموت كم من عمر أدركت وقرون أضللت وهذا هو الوقت المعلوم قال فيهرب اللعين الى المشرق فاذا هو بملك الموت بين عينيه فيهرب الى المغرب فاذا هو بين عينيه فيغوص البحار فتنز منه البحار فلا تقبله فلا يزال يهرب فى الأرض ولا محيص له ولا ملاذ ثم يقوم فى وسط الدنيا عند قبر آدم ويتمرغ فى التراب من المشرق الى المغرب ومن المغرب الى المشرق حتى اذا كان فى الموضع الذى أهبط فيه آدم عليه الصلاة والسلام وقد نصبت له الزبانية الكلاليب وصارت الأرض كالجمرة احتوشته الزبانية وطعنوه بالكلاليب ويبقى فى النزع والعذاب الى حيث يشاء الله تعالى ويقال لآدم وحواء اطلعا اليوم الى عدوكما كيف يذوق

الموت فيطلعان فينظران الى ماهو فيه من شدة العذاب فيقولان ربنا أتممت علينا نعمتك (قال رب بما أغويتنى) الباء للقسم وما مصدرية والجواب (لأزينن لهم) أى أقسم باغوائك اياى لأزينن لهم المعاصى (فى الارض) أى فى الدنيا التى هى دار الغرور كقوله تعالى « أخلد الى الارض » واقسامه بعزة الله المفسرة بسلطانه وقهره لاينافى اقسامه بهذا فانه فرع من فروعها وأثر من آثارها فلعله أقسم بهما جميعا فحكى تارة قسمه بهذا وأخرى بذاك أو للسببية وقوله لأزينن جواب قسم محذوف والمعنى بسبب تسببك لاغوائى أقسم لافعلن بهم مثل مافعلت بى من التسبيب لاغوائهم بتزيين المعاصى وتسويل الاباطيل والمعتزلة أولوا الاغواء بالنسبة الى الغى أو التسبيب له بأمره اياه بالسجود لآدم عليه الصلاة والسلام واعتذروا عن امهال الله تعالى وتسليطه له على اغواء بنى آدم بأنه تعالى قدعلم منه وممن تبعه أنهم يموتون على الكفر ويصيرون إلى النار أمهل أم لم يمهل وأن فى امهاله تعريضا لمن خالفه لاستحقاق مزيد الثواب (ولأغوينهم أجمعين) لأحملنهم على الغواية (إلا عبادك منهم المخلصين) الذين أخلصتهم لطاعتك وطهرتهم من الشوائب فلا يعمل فيهم كيدى . وقرىء بكسر اللام أى الذين أخلصوا نفوسهم لله تعالى (قال هذا صراط) أى حق (على) أن أراعيه (مستقيم) لاعوج فيه والاشارة الى ماتضمنه الاستثناء وهو تخلص المخلصين من أغوائه أو الاخلاص على معنى أنه طريق يؤدى الى الوصول الى من غير اعوجاج وضلال والأظهر أن ذلك لما وقع فى عبارة إبليس حيث قال « لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم » الآية وقرىء على من علو الشرف (إن عبادى) وهم المشار اليهم بالمخلصين (ليس لك عليهم سلطان) تسلط وتصرف بالاغواء (إلا من اتبعك من الغاوين) وفيه مع كونه تحقيقا لما قاله اللعين تفخيم لشأن المخلصين وبيان لمنزلتهم ولانقطاع مخالب الاغواء عنهم وأن أغواءه للغاوين ليس بطريق السلطان بل بطريق اتباعهم له بسوء اختيارهم (وإن جهنم لموعدهم) أى موعد المتبعين أو الغاوين والأول أنسب وأدخل فى الزجر عن اتباعه . وفيه دلالة على أن جهنم مكان الوعد وأن الموعود مما لايوصف فى الفظاعة (أجمعين) تأكيد للضمير أو حال والعامل فيها الموعد إن جعل مصدرا على تقدير المضاف أو معنى الاضافة ان جعل اسم مكان (لها سبعة أبواب) يدخلونها لكثرتهم أو سبع طبقات ينزلونها بحسب مراتبهم فى الغواية والمتابعة وهى جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم صقر ثم الجحيم ثم الهاوية (لكل باب منهم) من الاتباع أو الغواة (جزء مقسوم) حزب معين مفرز

من غيره حسبما يقتضيه استعداده فأعلاها للموحدين والثانية لليهود والثالثة للنصارى والرابعة للصابئين والخامسة للمجوس والسادسة للمشركين والسابعة للمنافقين . وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن جهنم لمن ادعى الربوبية ولظى لعبدة النار والحطمة لعبدة الأصنام وسقر لليهود والسعير للنصارى والجحيم للصابئين والهاوية للموحدين . ولعل حصرها فى السبع لانحصار المهلكات فى المحسوسات بالحواس الخمس ومقتضيات القوة الشهوية والغضبية . وقرىء بضم الزاى وبحذف الهمزة وإلقاء حركتها إلى ما قبلها مع تشديدها فى الوقف والوصل ومنهم حال من جزء أومن ضميره فى الظرف لا فى مقسوم لأن الصفة لا تعمل فيما تقدم موصوفها (ان المتقين) من اتباعه فى الكفر والفواحش فإن غيرها مكفر (فى جنات وعيون) أى مستقرون فيها خالدين لكل واحد منهم جنة وعين أو لكل منهم عدة منهما كقوله تعالى « ولمن خاف مقام ربه جنتان » وقرىء بكسر العين حيث وقع فى القرآن العظيم (ادخلوها) على ارادة القول أمرا من الله تعالى لهم بالدخول . وقرىء أدخلوها أمرا منه تعالى للملائكة بادخالهم وقرأ الحسن ادخلوها مبنيا للمفعول على صيغة الماضى من الادخال (بسلام) ملتبسين بسلام أى سالمين أو مسلما عليكم (آمنين) من الآفات والزوال (ونزعنا ما فى صدورهم من غل) أى حقد كان فى الدنيا . وعن على رضى الله تعالى عنه أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم رضوان الله تعالى عليهم أجمعين (إخوانا) حال من الضمير فى قوله تعالى فى جنات أو من فاعل أدخلوها أو من الضمير فى آمنين أو الضمير المضاف اليه والعامل فيه معنى الاضافة وكذلك قوله تعالى (على سرر متقابلين) ويجوز كونهما صفتين لاخوانا أو حالين من ضميره لانه بمعنى متصافين وكون الثانى حالا من المستكن فى الأول وعن مجاهد تدور بهم الاسرة حيثما داروا فهم متقابلون فى جميع أحوالهم (لا يمسهم فيها نصب) أى تعب بأن لا يكون لهم فيها ما يوجبه من الكد فى تحصيل مالا بد لهم منه لحصول كل ما يريدونه من غير مزاولة عمل أصلا أو بأن لا يعتريهم ذلك وان باشروا الحركات العنيفة لكمال قوتهم وهو استئناف أو حال بعد حال أو حال من الضمير فى متقابلين (وماهم منها بمخرجين) أبد الآباد لان تمام النعمة بالخلود (نبىء عبادى) وهم الذين عبر عنهم بالمتقين (أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الأليم) فذلكة لما سلف من الوعد والوعيد وتقرير له . وفى ذكر المغفرة اشعار بان ليس المراد بالمتقين من يتقى جميع الذنوب كبيرها وصغيرها وفى وصف ذاته تعالى بها وبالرحمة على وجه القصر

دون التعذيب ايذان بانهما مما تقتضيهما الذات وأن العذاب انما يتحقق بما يوجبه من خارج (ونبئهم) عطف على نبيء عبادى والمقصود اعتبارهم بما جرى على ابراهيم عليه الصلاة والسلام مع أهله من البشرى فى تضاعيف الخوف وبما حل بقوم لوط من العذاب ونجاته عليه الصلاة والسلام مع أهله التابعين له فى ضمن الخوف وتنبيههم بحلول انتقامه تعالى من المجرمين وعلمهم بأن عذاب الله تعالى هو العذاب الأليم (عن ضيف ابراهيم) عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنهم جبريل عليه الصلاة والسلام وملكان معه وقال محمد بن كعب وسبعة معه وقيل جبريل وميكائيل واسرافيل عليهم الصلاة والسلام وقال الضحاك كانوا تسعة وعن السدى كانوا أحد عشر على صور الغلمان الوضاء وجوههم وعن مقاتل أنهم كانوا اثنى عشر ملكا وإنما لم يتعرض لعنوان رسالتهم لانهم لم يكونوا مرسلين إلى ابراهيم عليه الصلاة والسلام بل الى قوم لوط حسبما يأتى ذكره (إذ دخلوا عليه) نصب بفعل مضمر معطوف على نبىء أى واذكر وقت دخولهم عليه أو خبر مقدر مضاف الى ضيف أي خبر ضيف ابراهيم حين دخولهم عليه أو بنفس ضيف على أنه مصدر فى الاصل (فقالوا) عند ذلك (سلاما) أى نسلم سلاما أو سلمنا أو سلمت سلاما (قال انا منكم وجلون) أى خائفون فان الوجل اضطراب النفس لتوقع مكروه قاله عليه الصلاة والسلام حين امتنعوا من أكل ما قربه اليهم من العجل الحنيذ لما أن المعتاد عندهم أنه اذا نزل بهم ضيف فلم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يجىء بخير لا عند ابتداء دخولهم لقوله تعالى «فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكرهم وأوجس منهم خيفة» فلا مجال لكون خوفه عليه الصلاة والسلام بسبب دخولهم بغير اذن ولا بغير وقت اذ لو كان كذلك لاجابوا حينئذ بما اجابوا به ولم يتصد عليه الصلاة والسلام لتقريب الطعام اليهم وانما لم يذكر ههنا اكتفاء بما بين فى غير هذا الموضع ألا يرى الا أنه لم يذكر ههنا رده عليه الصلاة والسلام لسلامهم (قالوا لا توجل) لا تخف وقرىء لا تاجل ولا توجل من أوجله أى اخافه ولا تواجل من واجله بمعنى أوجله (إنا نبشرك) استئناف لتعليل النهى عن الوجل فان المبشر به لا يكاد يحول حول ساحته خوف ولا حزن كيف لا وهو بشارة ببقائه وبقاء أهله فى عافية وسلامة زمانا طويلا (بغلام) هو اسحق عليه الصلاة والسلام لقوله تعالى «فبشرناها باسحق» ولم يتعرض ههنا لبشارة يعقوب عليه الصلاة والسلام اكتفاء بما ذكر فى سورة هود (عليم) اذا بلغ وفى موضع آخر بغلام حليم (قال أبشرتمونى) بذلك (على أن مسنى الكبر) وأثر فى تعجب عليه الصلاة والسلام من بشارتهم بالولد فى حالة مباينة للولادة وزاد فى ذلك فقال (فبم تبشرون) أى بأى أعجوبة تبشرونى فان البشارة بما لا يتصور وقوعه

عادة بشارة بغير شيء أو بأي طريقة تبشروني وقرىء بتشديد النون المكسورة على ادغام نون الجمع في نون الوقاية (قالوا بشرناك بالحق) أي بما يكون لامحالة أو باليقين الذى لالبس فيه أو بطريقة هي حق وهو أمر الله تعالى وقوله (فلاتكن من القانطين) من الآيسين من ذلك فان الله قادر على أن يخلق بشرا بغير أبوين فكيف من شيخ فان وعجوز عاقر . وقرىء من القنطين وكان مقصده عليه الصلاة والسلام استعظام نعمته تعالى عليه في ضمن التعجب العادى المبنى على سنة الله تعالى المسلوكة فيما بين عباده لااستبعاد ذلك بالنسبة الى قدرته سبحانه كما ينبىء عنه قول الملائكة فلاتكن من القانطين دون ان يقولوا من الممترين أونحوه (قال ومن يقنط) استفهام انكارى أى لايقنط (من رحمة ربه الا الضالون) المخطئون طريق المعرفة والصواب فلايعرفون سعة رحمته وكمال علمه وقدرته كما قال يعقوب عليه الصلاة والسلام لاييأس من روح الله الا القوم الكافرون ومراده نفي القنوط عن نفسه على أبلغ وجه أى ليس بى قنوط من رحمته تعالى وانما الذى أقول لبيان منافاة حالى لفيضان تلك النعمة الجليلة على وفي التعرض لوصف الربوبية والرحمة مالا يخفى من الجزالة . وقرىء بضم النون وبكسرها من قنط بالفتح ولم تكن هذه المفاوضة من الملائكة مع ابراهيم عليه الصلاة والسلام خاصة بل مع سارة أيضا حسبما شرح في سورة هود ولم يذكر ذلك ههنا اكتفاء بما ذكر هنالك كما أنه لم يذكر هذه هنالك اكتفاء بما ذكر ههنا (قال) أي ابراهيم عليه الصلاة والسلام وتوسيطه بين قوله السابق وبين قوله (فما خطبكم) أى أمركم وشأنكم الخطير الذى لاجله ارسلتم سوى البشارة (أيها المرسلون) صريح في أن بينهما مقالة معاوية لهم أشير بها الى مكانها كما في قوله تعالى «قال أأسجد لمن خلقت طينا قال أرأيتك هذا الذي كرمت على» الاية فان قوله الأخير ليس موصولا بقوله الاول بل هو مبنى على قوله تعالى «فاخرج منها فانك رجيم» فان توسيط قال بين قوليه للايذان بعدم اتصال الثانى بالاول وعدم ابتنائه عليه بل على غيره ثم خطابه لهم عليهم الصلاة والسلام بعنوان الرسالة بعدما كان خطابه السابق مجردا عن ذلك مع تصديره بالفاء دليل على أن مقالتهم المطوية كانت متضمنة لبيان أن مجيئهم ليس لمجرد البشارة بل لهم شأن آخر لاجله أرسلوا فكأنه قال عليه الصلاة والسلام ان لم يكن شأنكم مجرد البشارة فماذا هو فلا حاجة الى الالتجاء الى أن علمه عليه الصلاة والسلام بأن كل المقصود ليس البشارة بسبب أنهم كانوا ذوى عدد والبشارة لاتحتاج الى عدد ولذلك اكتفى بالواحد في زكريا عليه الصلاة والسلام ومريم ولا الى أنهم بشروه في تضاعيف الحال لازالة الوجل ولو كانت تمام

المقصود لابتداوابها فتأمل (قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين) هم قوم لوط لكن وصفوا بالاجرام وجيء بهم بطريق التنكير ذما لهم واستهانة بهم (الا آل لوط) استثناء متصل من الضمير فى مجرمين أى الى قوم أجرموا جميعا الا آل لوط فالقوم والارسال شاملان للمجرمين وغيرهم والمعنى انا أرسلنا الى قوم أجرم كلهم الا آل لوط لنهلك الاولين وننجى الآخرين ويدل عليه قوله تعالى (انا لمنجوهم) أى لوطا وآله (أجمعين) أى مما يصيب القوم فانه استئناف للاخبار بنجاتهم لعدم اجرامهم أو لبيان ما فهم من الاستثناء من مطلق عدم شمول العذاب لهم فان ذلك قد يكون بكون حالهم بين بين أو لتعليله فان من تعلق بهم التنجية بمنجى من شمول العذاب أو منقطع من قوم وقوله تعالى «انا لمنجوهم» متصل بآل لوط جار مجرى خبر لكن وعلى هذا فقوله تعالى (الا امرأته) استثناء من آل لوط أو من ضميرهم وعلى الاول من الضمير خاصة لاختلاف الحكمين اللهم الا أن يجعل انا لمنجوهم اعتراضا وقرىء بالتخفيف (قدرنا انها لمن الغابرين) الباقين مع الكفرة لتهلك معهم وقرىء قدرنا بالتخفيف. وانما علق فعل التقدير مع اختصاص ذلك بافعال القلوب لتضمنه معنى العلم ويجوز حمله على معنى قلنا لانه بمعنى القضاء قول وأصله جعل الشيء على مقدار غيره واسنادهم له الى أنفسهم وهو فعل الله سبحانه لمالهم من الزلفى والاختصاص (فلما جاء آل لوط المرسلون) شروع فى بيان كيفية اهلاك المجرمين وتنجية آل لوط حسبما أجمل فى الاستثناء ثم فصل فى التعليل نوع تفصيل. ووضع المظهر موضع المضمر للايذان بأن مجيئهم لتحقيق ما أرسلوا به من الاهلاك والتنجية وليس المراد به ابتداء مجيئهم بل مطلق كينونتهم عند آل لوط فان ما حكى عنه عليه الصلاة والسلام بقوله تعالى (قال انكم قوم منكرون) انما قاله عليه الصلاة والسلام بعد اللتيا والتى حين ضاقت عليه الحيل وعيت به العلل لما لم يشاهد من المرسلين عند مقاساته الشدائد ومعاناته المكايد من قومه الذين يريدون بهم ما يريدون ما هو المعهود والمعتاد من الاعانة والامداد فيما يأتى ويذر عند تجشمه فى تخليصهم انكاراً لخذلانهم له وترك نصرته فى مثل تلك المضايقة المعترية له بسببهم حيث لم يكونوا مباشرين معه لاسباب المدافعة والممانعة حتى ألجأته الى أن قال «لو أن لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد» حسبما فصل فى سورة هود لا أنه قاله عند ابتداء ورودهم له خوفا أن يطرقوه بشر كما قيل كيف لا وهم بجوابهم المحكى بقوله تعالى (قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون) أى بالعذاب الذى كنت تتوعدهم به فيمترون فيه ويكذبونك قد قشروا العصا وبينوا له عليه الصلاة والسلام جلية الامر فأنى يمكن أن يعتريه بعد ذلك المساءة وضيق الذرع

وليست كلمة بل اضرابا عن موجب الخوف المذكور على معنى ما جئناك بما تنكرنا لاجله بل بما يسرك وتقربه عينك بل هى اضراب عما فهمه عليه الصلاة والسلام من ترك النصرة له والمعنى ماخذلناك وما خلينا بينك وبينهم بل جئناك بما يدمرهم من العذاب الذى كانوا يكذبونك حين كنت تتوعدهم به ولعل تقديم هذه المقاولة على ما جرى بينه و بين أهل المدينة من المجادلة للمسارعة الى ذكر بشارة لوط عليه الصلاة والسلام باهلاك قومه وتنجية آله عقيب ذكر بشارة ابراهيم عليه الصلاة والسلام بهما وحيث كان ذلك مستدعيا لبيان كيفية النجاة وترتيب مباديها أشير الى ذلك اجمالا ثم ذكر ما فعل القوم و ما فعل بهم ولم يبال بتغيير الترتيب الوقوعى ثقة بمراعاته فى مواقع أخر ونسبة المجىء بالعذاب اليه عليه الصلاة والسلام مع أنه نازل بالقوم بطريق تفويض أمره اليه لا بطريق نزوله عليه كأنهم جاءوه به وفوضوا أمره اليه ليرسله عليهم حسبما كان يتوعدهم به (وأتيناك بالحق) أى باليقين الذى لا مجال فيه للامتراء والشك وهو عذابهم عبر عنه بذلك تنصيصا على نفى الامتراء عنه أو المراد بالحق الاخبار بمجىء العذاب المذكور وقوله تعالى (وانا لصادقون) تأكيد له أى أتيناك فيما قلنا بالخبر الحق أى المطابق للواقع وانا لصادقون فى ذلك الخبر أو فى كل كلام فيكون كالدليل على صدقهم فيه وعلى الاول تأكيد اثر تأكيد وقوله تعالى (فأسر باهلك) شروع فى ترتيب مبادى النجاة أى اذهب بهم فى الليل وقرىء بالوصل وكلاهما من السرى وهو السير فى الليل وقرىء فسر من السير (بقطع من الليل) بطائفة منه أو من آخره قال:

افتحى الباب وانظرى فى النجوم . كم علينا من قطع ليل بهيم

وقيل هو بعد ما مضى منه شىء صالح (واتبع أدبارهم) وكن على اثرهم تذودهم وتسرع بهم وتطلع على أحوالهم ولعل ايثار الاتباع على السوق مع أنه المقصود بالامر للمبالغة فى ذلك اذ السوق ربما يكون بالتقدم على بعض مع التأخر عن بعض ويلزمه عادة الغفلة عن حال المتأخر والالتفات المنهى عنه بقوله تعالى (ولا يلتفت منكم) أى منك ومنهم (أحد) فيرى ما وراءه من الهول فلا يطيقه أو يصيبه ما أصابهم أو ولا ينصرف منكم أحد ولا يتخلف لغرض فيصيبه العذاب وقيل نهوا عن ذلك ليوطنوا أنفسهم على المهاجرة أو هو نهى عن ربط القلب بما خلفوه أو هو للاسراع فى السير فان الملتفت قلما يخلو عن أدنى وقفة وعدم ذكر استثناء المرأة من الاسراء والالتفات لا يستدعى عدم وقوعه فان ذلك لما عرفت مرارا للاكتفاء بما ذكر فى مواضع أخر (وامضوا حيث تؤمرون) الى حيث أمركم الله تعالى بالمضى اليه وهو الشام أو مصر وحذف الصلتين

على الاتساع المشهور . وأيثار المضى الى ما ذكر على الوصول اليه واللحوق به للايذان بأهمية النجاة ولمراعاة المناسبة بينه وبين ماسلف من الغابرين (وقضينا) أى أوحينا (اليه) مقضيا ولذلك عدى بالى (ذلك الأمر) مبهم يفسره (أن دابر هؤلاء مقطوع) على أنه بدل منه . وايثار اسم الاشارة على الضمير للدلالة على اتصافهم بصفاتهم القبيحة التى هى مدار ثبوت الحكم أى دابر هؤلاء المجرمين . وايراد صيغة المفعول بدل صيغة صيغة المضارع لكونها أدخل فى الدلالة على الوقوع وفى لفظ القضاء والتعبير عن العذاب بالأمر والاشارة اليه بذلك وتأخيره عن الجار والمجرور وابهامه أولا ثم تفسيره ثانيا من الدلالة على فخامة الأمر وفظاعته مالايخفى وقرىء بالكسر على الاستئناف والمعنى أنهم يستأصلون عن آخرهم حتى لايبقى منهم أحد (مصبحين) داخلين فى الصبح وهو حال من هؤلاء أو من الضمير فى مقطوع وجمعه للحمل على المعنى فان دابر هؤلاء بمعنى مدبرى هؤلاء (وجاء أهل المدينة) شروع فى حكاية ماصدر عن القوم عند وقوفهم على مكان الأضياف من الفعل والقول وماترتب عليه بعدما أشير إلى ذلك اجمالا حسبمانبه عليه أى جاء أهل سدوم منزل لوط عليه الصلاة والسلام (يستبشرون) أى مستبشرين باضيافه عليه الصلاة والسلام طمعا فيهم (قال ان هؤلاء ضيفى) الضيف حيث كان مصدرا فى الأصل أطلق على الواحد والمتعدد والمذكر والمؤنث واطلاقه على الملائكة بحسب اعتقاده عليه الصلاة والسلام لكونهم فى زى الضيف والتأكيد ليس لانكارهم بذلك بل لتحقيق اتصافهم به واظهار اعتنائه بشأنهم وتشمره لمراعاة حقوقهم وحمايتهم من السوء ولذلك قال (فلاتفضحون) أى عندهم بأن تتعرضوا لهم بسوء فيعلموا أنه ليس لى عندكم قدر وحرمة أو لاتفضحون بفضيحة ضيفى فان من أسىء إلى ضيفه فقد أسىء اليه يقال فضحه فضحا وفضيحة اذا أظهر من أمره مايلزمه العار (واتقوا الله) فى مباشرتكم لما يسوءنى (ولا تخزون) أى لاتذلونى ولا تهينونى بالتعرض لمن أجرتهم بمثل تلك الفعلة الخبيثة وحيث كان التعرض لهم بعد أن نهاهم عليه الصلاة والسلام عن ذلك بقوله فلاتفضحون أكثر تأثيرا فى جانبه عليه الصلاة والسلام وأجلب للعار اليه إذ التعرض للجار قبل شعور المجير بذلك ربما يتسامح فيه وأما بعد الشعور به والمناصبة لحمايته والذب عنه فذاك أعظم العار عبر عليه الصلاة والسلام عما يعتريه من جهتهم بعد النهى المذكور بسبب لجاجهم ومجاهرتهم بمخالفته بالخزى وأمرهم بتقوى الله تعالى فى ذلك وانما لم يصرح بالنهى عن نفس تلك الفاحشة لانه كان يعرف أنه لايفيدهم ذلك وقيل المراد تقوى الله تعالى فى ركوب الفاحشة ولا يساعده توسيطه بين النهيين عن أمرين متعلقين بنفسه عليه الصلاة والسلام وكذلك

قوله تعالى (قالوا أولم ننهك عن العالمين) أى عن التعرض لهم بمنعهم عنا وضيافتهم والهمزة للانكار والواو للعطف على مقدر أى ألم نتقدم اليك ولم ننهك عن ذلك فانهم كانوا يتعرضون لكل أحد من الغرباء بالسوء وكان عليه الصلاة والسلام ينهاهم عن ذلك بقدر وسعه وكانوا قد نهوه عليه الصلاة والسلام عن أن يجير أحدا فكأنهم قالوا ماذكرت من الفضيحة والخزى انما جاءك من قبلك لا من قبلنا إذ لولا تعرضك لما تصدى له لما اعتراك تلك الحالة ولما رآهم لايقلعون عما هم عليه (قال هؤلاء بناتى) يعنى نساء القوم فان نبى كل أمة بمنزلة أبيهم أو بناته حقيقة أى فتزوجوهن وقد كانوا من قبل يطلبونهن ولا يجيبهم لخبثهم وعدم كفاءتهم لا لعدم مشروعية المناكحة بين المسلمات والكفار وقد فصل ذلك فى سورة هود (إن كنتم فاعلين) أى قضاء الوطر أو ماأقول لكم (لعمرك) قسم من الله تعالى بحياة النبى عليه الصلاة والسلام أو من الملائكة بحياة لوط عليه الصلاة والسلام والتقدير لعمرك قسمى وهى لغة فى العمر يختص به القسم إيثاراً للخفة لكثرة دورانه على الألسنة (إنهم لفى سكرتهم) غوايتهم أو شدة غلمتهم التى أزالت عقولهم وتمييزهم بين الخطأ والصواب (يعمهون) يتحيرون ويتمادون فكيف يسمعون النصح وقيل الضمير لقريش والجملة اعتراض (فأخذتهم الصيحة) أى الصيحة العظيمة الهائلة وقيل صيحة جبريل عليه الصلاة والسلام (مشرقين) داخلين فى وقت شروق الشمس (فجعلنا عاليها) عالى المدينة أو عالى قراهم وهو المفعول الأول لجعلنا وقوله تعالى (سافلها) مفعول ثان له وهو أدخل فى الهول والفظاعة من العكس كما مر (وأمطرنا عليهم) فى تضاعيف ذلك قبل تمام الانقلاب (حجارة) كائنة (من سجيل) من طين متحجر أو طين عليه كتاب وقد فصل ذلك فى سورة هود (ان فى ذلك) أى فيماذكر من القصة (لآيات) لعلامات يستدل بها على حقيقة الحق (للمتوسمين) أى المتفكرين المتفرسين الذين يتثبتون فى نظرهم حتى يعرفوا حقيقة الشىء بسمته (وإنها) أى المدينة أو القرى (لبسبيل مقيم) أى طريق ثابت يسلكه الناس ويرون آثارها (إن فى ذلك) فيماذكر من المدينة أو القرى أو فى كونها بمرأى من الناس يشاهدونها فى ذهابهم وإيابهم (لآية) عظيمة (للمؤمنين) بالله ورسوله فانهم الذين يعرفون أن ماحاق بهم من العذاب الذى ترك ديارهم بلاقع انما حاق بهم لسوء صنيعهم وأما غيرهم فيحملون ذلك على الاتفاق أو الأوضاع الفلكية وافراد الآية بعد جمعها فيما سبق لما أن المشاهد ههنا بقية الآثار لا كل القصة كما فيما سلف (وإن كان) أن مخففة من أن وضمير الشأن الذى هو اسمها محذوف

واللام هي الفارقة أي وان الشأن كان (أصحاب الأيكة) وهم قوم شعيب عليه الصلاة والسلام والأيكة والليكة الشجرة الملتفة المتكاثفة وكان عامة شجرهم المقل وكانوا يسكنونها فبعثه الله تعالى اليهم (لظالمين) متجاوزين عن الحد (فانتقمنا منهم) بالعذاب روي أن الله تعالى سلط عليهم الحر سبعة أيام ثم بعث سحابة فالتجؤا اليها يلتمسون الروح فبعث الله تعالى عليهم منها نارا فأحرقتهم فهو عذاب يوم الظلة (وأنهما) يعني سدوم والأيكة وقيل الأيكة ومدين فانه عليه الصلاة والسلام كان مبعوثا اليهما فاقتصر ذكر أحدهما منبه على الآخر (لبامام مبين) لبطريق واضح والامام اسم ما يؤتم به سمي به الطريق ومطمر البناء واللوح الذي يكتب فيه لأنهما مما يؤتم به (ولقد كذب أصحاب الحجر) يعني ثمود (المرسلين) أي صالحا فان من كذب واحداً من الانبياء عليهم السلام فقد كذب الجميع لاتفاقهم على التوحيد والأصول التي لا تختلف باختلاف الامم والأعصار وقيل المراد صالح ومن معه من المؤمنين كما قيل الخبيبون لخبيب بن عبد الله بن الزبير وأصحابه والحجر واد بين المدينة والشام كانوا يسكنونه (وآتيناهم آياتنا) وهي الآية المنزلة على نبيهم أو المعجزات من الناقة وسقيها وشربها ودرها أو الأدلة المنصوبة لهم (فكانوا عنها معرضين) اعراضا كليا بل كانوا معارضين لها حيث فعلوا بالناقة ما فعلوا (وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين) من الانهدام ونقب اللصوص وتخريب الأعداء لوثاقتها أو من العذاب لحسبانهم أن ذلك يحميهم منه عن جابر رضي الله تعالى عنه أنه قال مررنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر فقال لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين حذرا أن يصيبكم مثل ما أصاب هؤلاء ثم زجر رسول الله صلى الله عليه وسلم راحلته فاسرع حتى خلفها (فأخذتهم الصيحة مصبحين) وهكذا وقع في سورة هود قيل صاح بهم جبريل عليه الصلاة والسلام وقيل أتتهم من السماء صيحة فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شيء في الأرض فتقطعت قلوبهم في صدورهم وفي سورة الأعراف فأخذتهم الرجفة أي الزلزلة ولعلها من روادف الصيحة المستتبعة لتموج الهواء تموجا شديدا يفضي اليها كما مر في سورة هود (فما أغنى عنهم) ولم يدفع عنهم ما نزل بهم (ما كانوا يكسبون) من بناء البيوت الوثيقة والأموال الوافرة والعدد المتكاثرة وفيه تهكم بهم والفاء لترتيب عدم الاغناء الخاص بوقت نزول العذاب حسبما كانوا يرجونه لا عدم الاغناء المطلق فانه أمر مستمر (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما الا بالحق) أي الاخلقا ملتبسا بالحق والحكمة والمصلحة بحيث لا يلائم استمرار الفساد واستقرار الشرور ولذلك اقتضت الحكمة

اهلاك أمثال هؤلاء دفعا لفسادهم وارشادا لمن بقي الى الصلاح أو الا بسبب العدل والانصاف يوم الجزاء على الأعمال كما ينبيء عنه قوله تعالى (وان الساعة لآتية) فينتقم الله تعالى لك فيها ممن كذبك (فاصفح) أى أعرض عنهم (الصفح الجميل) اعراضا جميلا وتحمل أذيتهم ولا تعجل بالانتقام منهم وعاملهم معاملة الصفوح الحليم وقيل هى منسوخة بآية السيف (ان ربك) الذى يبلغك الى غاية الكمال (هو الخلاق) لك ولهم ولسائر الموجدات على الاطلاق (العليم) بأحوالك وأحوالهم بتفاصيلها فلا يخفى عليه شيء مما جرى بينك وبينهم فهو حقيق بأن تكل جميع الامور اليه ليحكم بينكم أو هو الذى خلقكم وعلم تفاصيل أحوالكم وقد علم أن الصفح اليوم أصلح الى أن يكون السيف أصلح فهو تعليل للأمر بالصفح على التقديرين وفى مصحف عثمان وأبي رضى الله تعالى عنهما هو الخالق وهو صالح للقليل والكثير والخلاق مختص بالكثير (ولقد آتيناك سبعا) سبع آيات وهى الفاتحة وعليه عمر وعلى وابن مسعود وأبو هريرة رضى الله تعالى عنهم والحسن وأبو العالية ومجاهد والضحاك وسعيد بن جبير وقتادة رحمهم الله تعالى وقيل سبع سور وهى الطوال التى سابعتها الانفال والتوبة فانهما فى حكم سورة واحدة ولذلك لم يفصل بينهما بالتسمية وقيل يونس أو الحواميم السبع وقيل الصحائف السبع وهى الاسباع (من المثانى) بيان للسبع من التثنية وهى التكرير فان كان المراد الفاتحة وهو الظاهر فتسميتها مثانى لتكرر قراءتها فى الصلاة وأما تكرر قراءتها فى غير الصلاة كما قيل فليس بحيث يكون مدارا للتسمية ولانها تثنى بما يقرأ بعدها فى الصلاة وأما تكرر نزولها فلا يكون وجها للتسمية لانها كانت مسماة بهذا الاسم قبل نزولها الثانى اذ السورة مكية بالاتفاق وان كان المراد غيرها من السور فوجه كونها من المثانى أن كلا من ذلك تكرر قراءته وألفاظه أو قصصه ومواعظه أو من الثناء لاشتماله على ماهو ثناء على الله واحدتها مثناة أو مثنية صفة للآية وأما الصحائف وهى الاسباع فلما وقع فيها من تكرير القصص والمواعظ والوعد والوعيد وغير ذلك ولما فيها من الثناء على الله تعالى كانها تثنى عليه سبحانه بأفعاله وصفاته الحسنى ويجوز أن يراد بالمثانى القرآن لما ذكر أو لانه مثنى عليه بالاعجاز أو كتب الله تعالى كلها فمن للتبعيض وعلى الاول للبيان (والقرآن العظيم) ان أريد بالسبع الآيات أو السور فمن عطف الكل على البعض أو العام على الخاص وان أريد به الاسباع أو كل القرآن فهو عطف أحد الوصفين على الآخر كما فى قوله

الى الملك القرم وابن الهمام ۞ وليث الكتائب فى المزدحم

أى ولقد آتيناك ما يقال له السبع المثانى والقرآن العظيم (لا تمدن عينيك) لاتطمح ببصرك طموح راغب ولاتدم نظرك (الى مامتعنا به) من زخارف الدنيا وزينتها ومحاسنها وزهرتها (أزواجا منهم) أصنافا من الكفرة فان مافى الدنيا من أصناف الاموال والذخائر بالنسبة الى ماأوتيته مستحقر لايعبأ به أصلا وفى حديث أبى بكر رضى الله تعالى عنه من أوتى القرآن فرأى أن أحدا أوتى أفضل مما أوتى فقد صغر عظيما وعظم صغيرا وروى أنه وافت من بصرى وأذرعات سبع قوافل ليهود بنى قريظة والنضير فيها أنواع البز والطيب والجواهر وسائر الامتعة فقال المسلمون لو كانت هذه الاموال لنا لتقوينا بها وأنفقناها فى سبيل الله فقيل لهم قد أعطيتم سبع آيات وهى خير من هذه القوافل السبع (ولاتحزن عليهم) حيث لم يؤمنوا ولم ينتظموا فى سلك أتباعك ليتقوى بهم ضعفاء المسلمين وقيل أو انهم المتمتعون به ويأباه كلمة على فان تمتعهم به لا يكون مدارا للحزن عليهم (واخفض جناحك للمؤمنين) أي تواضع لهم وارفق بهم وألن جانبك لهم وطب نفسا من ايمان الاغنياء (وقل انى أنا النذير المبين) أى المنذر المظهر لنزول عذاب الله وحلوله (كما أنزلنا على المقتسمين) قيل انه متعلق بقوله تعالى «ولقد آتيناك» الخ أى أنزلنا عليك كما أنزلنا على أهل الكتاب (الذين جعلوا القرآن عضين) أى قسموه الى حق وباطل حيث قالوا عنادا وعدوانا بعضه حق موافق للتوراة والانجيل وبعضه باطل مخالف لهما أو اقتسموه لانفسهم استهزاء حيث كان يقول بعضهم سورة البقرة لى وبعضهم سورة آل عمران لى وهكذا أو قسموا ماقرءوا من كتبهم وحرفوه فأقروا ببعضه وكذبوا ببعضه وحمل توسط قوله تعالى «لاتمدن عينيك» على امداد ماهو المراد بالكلام من التسلية وعقب ذلك بأنه جل المقام عن التشبيه ولقد أوتى عليه الصلاة والسلام مالم يؤت أحد قبله ولا بعده مثله وقيل انه متعلق بقوله انى أنا النذير المبين فانه فى قوة الأمر بالانذار كأنه قيل أنذر قريشا مثل ما أنزلنا على المقتسمين يعنى اليهود وهو ماجرى على بنى قريظة والنضير بأن جعل المتوقع كالواقع وقد وقع كذلك وأنت خبير بأن مايشبه به العذاب المنذر لابد أن يكون محقق الوقوع معلوم الحال عند المنذرين إذ به تتحقق فائدة التشبيه وهى تأكيد الانذار وتشديده وعذاب بنى قريظة والنضير مع عدم وقوعه إذ ذاك لم يسبق به وعد ووعيد فهم منه فى غفلة محضة وشك مريب وتنزيل المتوقع منزلة الواقع له موقع جليل من الاعجاز لكن اذا صادف مقاما يقتضيه كما فى قوله تعالى انا فتحنا لك فتحا مبينا ونظائره على أن تخصيص الاقتسام باليهود بمجرد اختصاص العذاب المذكور بهم مع شركتهم للنصارى

فى الاقتسام المتفرع على الموافقة والمخالفة وفى الاقتسام بمعنى التحريف الشامل للكتابين بل تخصيص العذاب المذكور بهم مع كونه من نتائج الاقتسام تخصيص من غير مخصص وقد جعل الموصول مفعولا أول لأنذر أى أنذر المعضين الذين يجزؤن القرآن الى سحر وشعر وأساطير مثل ماأنزلنا على المقتسمين وهم الاثناعشر الذين اقتسموا مداخل مكة أيام الموسم فقعد كل منهم فى مدخل لينفروا الناس عن الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بعضهم لاتغتروا بالخارج منا فانه ساحر ويقول الآخر شاعر والآخر كذاب فأهلكهم الله تعالى يوم بدر وقبله بآفات وفيه مع مافيه من الاشتراك لما سبق فى عدم كون العذاب الذى شبه به العذاب المنذر واقعا ولا معلوما للمنذرين ولا موعوداً لوقوع انه لاداعى إلى تخصيص وصف التعضية بهم واخراج المقتسمين من بينهم مع كونهم أسوة لهم فى ذلك فان وصفهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم بما وصفوا من السحر والشعر والكذب متفرع على وصفهم للقرآن بذلك وهل هو الانفس التعضية ولا إلى إخراجهم من حكم الانذار على أن مانزل بهم من العذاب لم يكن من الشدة بحيث يشبه به عذاب غيرهم ولا مخصوصا بهم بل عاما لكلا الفريقين وغيرهم مع أن بعض المنذرين كالوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن المطلب قد هلكوا قبل مهلك أكثر المقتسمين يوم بدر ولا إلى تقديم المفعول الثانى على الأول كما ترى وقيل انه وصف لمفعول النذير أقيم مقامه والمقتسمون هم القاعدون فى مداخل مكة كما حرر وفيه مع مامر أن قوله تعالى كما أنزلنا صريح فى أنه من قول الله تعالى لامن قول الرسول عليه الصلاة والسلام والاعتذار بأن ذلك من باب مايقوله بعض خواص الملك أمرنا بكذا وان كان الآمر هو الملك حسبما سلف فى قوله تعالى قدرنا انها لمن الغابرين تعسف لايخفى وان أعمال الوصف الموصوف مما لايجوزه البصريون فلا بد من الهرب الى مسلك الكوفيين أو المصير الى جعله مفعولا غير صريح أى أنا النذير المبين بعذاب مثل عذاب المقتسمين وقيل المراد بالمقتسمين الرهط الذين تقاسموا على أن يبيتوا صالحا عليه الصلاة والسلام فأهلكهم الله تعالى وأنت تدرى أن عذابهم حيث كان متحققا ومعلوما للمنذرين حسبما نطق به القرآن العظيم صالح لان يقع مشبها به العذاب المنذر لكن الموصول المذكور عقيبه حيث لم يمكن كونه صفة للمقتسمين حينئذ فسواء جعلناه مفعولا أول للنذير أو لمادل هو عليه من أنذر لا يكون للتعرض لعنوان التعضية فى حيز الصلة ولا لعنوان الاقتسام بالمعنى المزبور فى حيز المفعول الثانى فائدة لما أن ذلك إنما يكون للاشعار بعلية الصلة والصفة للحكم الثابت للموصول والموصوف فلا يكون هناك وجه شبه يدور عليه

تشبيه عذابهم بعذابهم خاصة لعدم اشتراكهم فى السبب فان المعضين بمعزل من التقاسم على التبييت الذى هو السبب لهلاك أولئك كما أن أولئك بمعزل من التعضية التى هى السبب لهلاك هؤلاء ولا علاقة بين السببين مفهوما ولا وجودا تصحح وقوع أحدهما فى جانب والآخر فى جانب واتفاق الفريقين على مطلق الاتفاق على الشر المفهوم من الاتفاق على الشر المخصوص الذى هو التبييت المدلول عليه بالتقاسم غير مفيد اذ لا دلالة لعنوان التعضية على ذلك وانما يدل عليه اقتسام المداخل وجعل الموصول مبتدأ على أن خبره الجملة القسمية لا يليق بجزالة التنزيل وجلالة شأنه الجليل اذا عرفت هذا فاعلم أن الاقرب من الاقوال المذكورة أنه متعلق بالاول وأن المراد بالمقتسمين أهل الكتابين وأن الموصول مع صلته صفة مبينة لكيفية اقتسامهم ومحل الكاف النصب على المصدرية وحديث جلالة المقام عن التشبيه من لوائح النظر الجليل والمعنى لقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم ايتاء مماثلا لانزال الكتابين على أهلهما وعدم التعرض لذكر ما أنزل عليهم من الكتابين لان الغرض بيان المماثلة بين الايتاءين لا بين متعلقيهما والعدول عن تطبيق ما فى جانب المشبه به على ما فى جانب المشبه بأن يقال كما آتينا المقتسمين حسبما وقع فى قوله تعالى الذين آتيناهم الكتاب الخ للتنبيه على ما بين الايتاءين من التنائى فان الاول على وجه التكرمة والامتنان وشتان بينه وبين الثانى ولا يقدح ذلك فى وقوعه مشبها به فان ذلك انما هو لمسلميته عندهم وتقدم وجوده على المشبه زمانا لا لمزية تعود الى ذاته كما فى الصلاة الخليلية فان التشبيه فيها ليس لكون رحمة الله تعالى الفائضة على ابراهيم عليه الصلاة والسلام وآله أتم وأكمل مما فاض على النبى عليه الصلاة والسلام وانما ذلك للتقدم فى الوجود والتنصيص عليه فى القرآن العظيم فليس فى التشبيه شائبة اشعار بأفضلية المشبه به من المشبه فضلا عن ايهام أفضلية ما تعلق به الاول مما تعلق به الثانى وانما ذكروا بعنوان الاقتسام انكارا لاتصافهم به مع تحقق ما ينفيه من الانزال المذكور وايذانا بانه كان من حقهم أن يؤمنوا بكله حسب ايمانهم بما أنزل عليهم بحكم الاشتراك فى العلة والاتحاد فى الحقيقة التى هى مطلق الوحى وتوسيط قوله تعالى لا تمدن الخ لكمال اتصاله بما هو المقصود من بيان حال ما أوتى النبي عليه الصلاة والسلام ولقد بين أولا علوشانه ورفعة مكانه بحيث يستوجب اغتباطه عليه الصلاة والسلام بمكانه واستغناءه به عما سواه ثم نهى عن الالتفات الى زهرة الدنيا وعبر عن ايتائها لاهلها بالتمتيع المنبىء عن وشك زوالها عنهم ثم عن الحزن بعدم ايمان المنهمكين فيها وأمر بمراعاة المؤمنين والاكتفاء بهم عن غيرهم وباظهار قيامه بمواجب الرسالة

ومراسم النذارة حسبما فصل فى تضاعيف ما أوتى من القرآن العظيم ثم رجع الى كيفية ايتائه على وجه أدمج فيه ما يزيح شبه المنكرين و يستنزلهم عن العناد من بيان مشاركته لما لا ريب لهم فى كونه وحيا صادقا فتأمل والله عنده علم الكتاب هذا وقد قيل المعنى قل انى أنا النذير المبين كما قد أنزلنا فى الكتب انك ستأتى نذيرا على أن المقتسمين أهل الكتاب انتهى. يريد أن مافى كما موصولة والمراد بالمشابهة المستفادة من الكاف الموافقة وهى مع مافى حيزها فى محل النصب على الحالية من مفعول قل أى قل هذا القول حال كونه كما أنزلنا على أهل الكتابين أى موافقا لذلك فالانسب حينئذ حمل الاقتسام على التحريف ليكون وصفهم بذلك تعريضا بما فعلوا من تحريفهم وكتمانهم لنعت النبى صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى «عضين» جمع عضة وهى الفرقة أصلها عضوة فعلة من عضى الشاة تعضية اذا جعلها أعضاء. وانما جمعت جمع السلامة جبرا للمحذوف كسنين وعزين. والتعبير عن تجزئة القرآن بالتعضية التى هى تفريق الاعضاء من ذى الروح المستلزم لازالة حياته وابطال اسمه دون مطلق التجزئة والتفريق اللذين ربما يوجدان فيما لا يضره التبعيض من المثليات للتنصيص على كمال قبح ما فعلوه بالقرآن العظيم. وقيل هى فعلة من عضهته اذا بهته وعن عكرمة العضة السحر بلسان قريش فنقصانها عن الاول واو وعلى الثانى هاء (فوربك لنسألنهم أجمعين) أى لنسألن يوم القيامة اصناف الكفرة من المقتسمين وغيرهم سؤال توبيخ وتقريع (عما كانوا يعملون) فى الدنيا من قول وفعل وترك فيدخل فيه ما ذكر من الاقتسام والتعضية دخولا أوليا ولنجزينهم بذلك جزاء موفورا. وفيه من التشديد وتأكيد الوعيد ما لا يخفى. والفاء لترتيب الوعيد على أعمالهم التى ذكر بعضها. وفى التعرض لوصف الربوبية مضافا اليه عليه الصلاة والسلام اظهار اللطف به عليه الصلاة والسلام (فاصدع بما تؤمر) فاجهر به من صدع بالحجة اذا تكلم بها جهارا أو افرق بين الحق والباطل وأصله الابانة والتمييز وما مصدرية أو موصولة والعائد محذوف أى ماتؤمر به من الشرائع المودعة فى تضاعيف ما أوتيته من المثانى السبع والقرآن العظيم (وأعرض عن المشركين) أى لا تلتفت الى مايقولون ولا تبال بهم ولا تتصد للانتقام منهم (إنا كفيناك المستهزئين) بقمعهم وتدميرهم قيل كانوا خمسة من أشراف قريش: الوليد بن المغيرة. والعاص بن وائل. والحرث بن قيس بن الطلاطلة والاسود بن عبد يغوث. والاسود بن المطلب يبالغون فى ايذاء النبى صلى الله عليه وسلم والاستهزاء به فنزل جبريل عليه الصلاة والسلام فقال قد أمرت ان أكفيكهم فأومأ إلى ساق الوليد فمر بنبال فتعلق بثوبه سهم فلم ينعطف تعظما لاخذه فأصاب عرقا فى عقبه

فقطعه فمات. وأومأ الى أخمص العاص فدخلت فيه شوكة فقال لدغت لدغت وانتفخت رجله حتى صارت كالرحا فمات. وأشار الى عيني الاسود بن المطلب فعمي. والى أنف الحرث فامتخط قيحا فمات والى الاسود بن عبد يغوث وهو قاعد فى أصل شجرة فجعل ينطح برأسه الشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات (الذين يجعلون مع الله آلها آخر) وصفهم بذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتهوينا للخطب عليه باعلام أنهم لم يقتصروا على الاستهزاء به عليه الصلاة والسلام بل اجترءوا على العظيمة التى هى الاشراك بالله سبحانه (فسوف يعلمون) عاقبة ما يأتون ويذرون (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون) من كلمات الشرك والطعن فى القرآن والاستهزاء به وبك وتحلية الجملة بالتأكيد لافادة تحقيق ما تتضمنه من التسلية. وصيغة الاستقبال لافادة استمرار العلم حسب استمرار متعلقه باستمرار ما يوجبه من أقوال الكفرة (فسبح بحمد ربك) فافزع الى الله تعالى فيما نابك من ضيق الصدر والحرج بالتسبيح والتقديس ملتبسا بحمده. وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام مالا يخفى من اظهار اللطف به عليه الصلاة والسلام والاشعار بعلة الحكم أعنى الامر بالتسبيح والحمد (وكن من الساجدين) أى المصلين يكفك ويكشف الغم عنك أو فنزهه عما يقولون ملتبسا بحمده على أن هداك للحق المبين. وعنه عليه الصلاة والسلام أنه كان اذا حزبه أمر فزع الى الصلاة (واعبد ربك) دم على ما أنت عليه من عبادته تعالى. وايثار الاظهار بالعنوان السالف آنفا لتأكيد ما سبق من اظهار اللطف به عليه الصلاة والسلام والاشعار بعلة الامر بالعبادة (حتى يأتيك اليقين) أى الموت فانه متيقن اللحوق بكل حى مخلوق. واسناد الاتيان اليه للايذان بأنه متوجه الى الحى طالب للوصول اليه والمعنى دم على العبادة مادمت حيا من غير اخلال بها لحظة. عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الحجر كان له من الاجر عشر حسنات بعدد المهاجرين والانصار والمستهزئين بمحمد صلى الله عليه وسلم

(سورة النحل مائة وثمان وعشرون آية)

بسم الله الرحمن الرحيم

(أتى أمر الله) أى الساعة أو ما يعمها وغيرها من العذاب الموعود للكفرة عبر عن ذلك بأمر الله للتفخيم والتهويل وللايذان بأن تحققه فى نفسه واتيانه منوط بحكمه النافذ وقضائه الغالب

وأتيانه عبارة عن دنوه واقترابه على طريقة نظم المتوقع فى سلك الواقع أو عن اتيان مباديه القريبة على نهج اسناد حال الاسباب الى المسببات وأياما كان ففيه تنبيه على كمال قربه من الوقوع واتصاله وتكميل لحسن موقع التفريع فى قوله عز وجل (فلا تستعجلوه) فان النهى عن استعجال الشيء وان صح تفريعه على قرب وقوعه أو على وقوع أسبابه القريبة لكنه ليس بمثابة تفريعه على وقوعه اذ بالوقوع يستحيل الاستعجال رأسا لا بما ذكر من قرب وقوعه ووقوع مباديه والخطاب للكفرة خاصة كما تدل عليه القراءة على صيغة نهى الغائب واستعجالهم وان كان بطريق الاستهزاء لكنه حمل على الحقيقة ونهوا عنه بضرب من التهكم لا مع المؤمنين سواء أريد بامر الله ما ذكر أو العذاب الموعود للكفرة خاصة أما الاول فلأنه لا يتصور من المؤمنين استعجال الساعة أو ما يعمها وغيرها من العذاب حتى يعمهم النهى عنه وأما الثانى فلان استعجالهم له بطريق الحقيقة واستعجال الكفرة بطريق الاستهزاء كما عرفته فلا تنتظمهما صيغة واحدة والالتجاء الى ارادة معنى مجازى يعمهما معا من غير أن يكون هنالك رعاية نكتة سرية تعسف لا يليق بشأن التنزيل الجليل وما روى من انه لما نزلت اقتربت الساعة قال الكفار فيما بينهم ان هذا يزعم أن القيامة قد قربت فامسكوا عن بعض ما تعملون حتى ننظر ما هو كائن فلما تأخرت قالوا ما نرى شيئا فنزلت «اقترب للناس حسابهم» فاشفقوا وانتظروا قربها فلما امتدت الايام قالوا يا محمد ما نرى شيئا مما تخوفنا به فنزلت «أتى أمر الله» فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم فرفع الناس رءوسهم فلما نزل «فلا تستعجلوه» اطمأنوا فليس فيه دلالة على عموم الخطاب كما قيل لا لما توهم من أن التصدير بالفاء يأباه فانه بمعزل عن اباته حسبما تحققته بل لان مناط اطمئنانهم انما هو وقوفهم على أن المراد بالاتيان هو الاتيان الادعائى لا الحقيقى الموجب لاستحالة الاستعجال المستلزمة لامتناع النهى عنه لما أن النهى عن الشيء يقتضى امكانه فى الجملة ومدار ذلك الوقوف انما هو النهى عن الاستعجال المستلزم لامكانه المقتضى لعدم وقوع المستعجل بعد ولا يختلف ذلك باختلاف المستعجل كائنا من كان بل فيه دلالة واضحة على عدم العموم لان المراد بأمر الله انما هو الساعة وقد عرفت استحالة صدور استعجالها عن المؤمنين . نعم يجوز تخصيص الخطاب بهم على تقدير كون أمر الله عبارة عن العذاب الموعود للكفرة خاصة لكن الذى يقضى به الاعجاز التنزيلى انه خاص بالكفرة كما ستقف عليه . ولما كان استعجالهم ذلك من نتائج اشراكهم المستتبع لنسبة الله عز وجل الى ما لا يليق به من العجز والاحتياج الى الغير واعتقاد ان أحدا يحجزه عن انجاز وعده وامضاء وعيده وقد قالوا فى تضاعيفه ان صح مجيء العذاب فالاصنام تخلصنا عنه بشفاعتها رد

ذلك فقيل بطريق الاستئناف (سبحانه وتعالى عما يشركون) أى تنزه وتقدس بذاته وجل عن اشراكهم المؤدى الى صدور أمثال هذه الاباطيل عنهم أو عن ان يكون له شريك فيدفع ما أراد بهم بوجه من الوجوه. وصيغة الاستقبال للدلالة على تجدد اشراكهم واستمراره. والالتفات الى الغيبة للايذان باقتضاء ذكر قبائحهم للاعراض عنهم وطرحهم عن رتبة الخطاب وحكاية شنائعهم لغيرهم وعلى تقدير تخصيص الخطاب بالمؤمنين تفوت هذه النكتة كما يفوت ارتباط المنهى عنه بالمتنزه عنه. وقرىء على صيغة الخطاب (ينزل الملائكة) بيان لتحتم التوحيد حسبما نبه عليه تنبيها أجماليا ببيان تقدس جناب الكبرياء وتعاليه عن أن يحوم حوله شائبة أن يشاركه شىء فى شىء وايذان بانه دين أجمع عليه جمهور الانبياء عليهم الصلاة والسلام وأمروا بدعوة الناس اليه مع الاشارة الى سر البعثة والتشريع وكيفية القاء الوحى والتنبيه على طريق علم الرسول عليه الصلاة والسلام باتيان ما أوعدهم به وباقترابه ازاحة لاستبعادهم اختصاصه عليه الصلاة والسلام بذلك واظهارا لبطلان رأيهم فى الاستعجال والتكذيب. وايثار صيغة الاستقبال للاشعار بأن ذلك عادة مستمرة له سبحانه. والمراد بالملائكة اما جبريل عليه السلام قال الواحدى يسمى الواحد بالجمع اذا كان رئيسا أو هو ومن معه من حفظة الوحى بأمر الله تعالى. وقرىء ينزل من الانزال وتنزل بحذف احدى التاءين وعلى صيغة المبنى للمفعول من التنزيل (بالروح) أى بالوحى الذى من جملته القرآن على نهج الاستعارة فانه يحيى القلوب الميتة بالجهل أو يقوم فى الدين مقام الروح فى الجسد. والباء متعلقة بالفعل أو بما هو حال من مفعوله أى ملتبسين بالروح (من أمره) بيان الروح الذى أريد به الوحى فانه أمر بالخير أو حال منه أى حال كونه ناشئا ومبتدأ منه أو صفة له على رأي من جوز حذف الموصول مع بعض صلته أى بالروح الكائن من أمره الناشىء منه أو متعلق بينزل ومن للسببية كالباء مثل ما فى قوله تعالى «مما خطيئاتهم» أى ينزلهم بأمره (على من يشاء من عباده) أن ينزلهم به عليهم لاختصاصهم بصفات تؤهلهم لذلك (أن أنذروا) بدل من الروح أى ينزلهم ملتبسين بأن أنذروا أى بهذا القول. والمخاطبون به الانبياء الذين نزلت الملائكة عليهم. والآمر هو الله سبحانه والملائكة نقلة للامر كما تشعر به الباء فى المبدل منه وأن أما مخففة من أن وضمير الشأن الذى هو اسمها محذوف أى ينزلهم ملتبسين بأن الشان أقول لكم أنذروا. أو مفسرة على أن تنزيل الملائكة بالوحى فيه معنى القول كأنه قيل يقول بواسطة الملائكة لمن يشاء من عباده أنذروا فلا محل لها من الاعراب. أو مصدرية لجواز كون صلتها انشائية كما فى

قوله تعالى «وأن أقم وجهك» حسبما ذكر فى أوائل سورة هود فمحلها الجر على البداية أيضا والانذار الاعلام خلا أنه مختص باعلام المحذور من نذر بالشيء اذا علمه فحذره وأنذره بالامر انذارا أى أى أعلمه وحذره وخوفه فى ابلاغه كذا فى القاموس أى أعلموا الناس (أنه لا إله إلا أنا) فالضمير للشأن ومدار وضعه موضعه ادعاء شهرته المغنية عن التصريح به وفائدة تصدير الجملة به الايذان من أول الامر بفخامة مضمونها مع ما فيه من زيادة تقرير له فى الذهن فان الضمير لا يفهم منه ابتداء الا شأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقبا لما يعقبه فيتمكن لديه عند وروده فضل تمكن كانه قيل أنذروا أن الشأن الخطير هذا وانباء مضمونه عن المحذور ليس لذاته بل من حيث اتصاف المنذرين بما يضاده من الاشراك وذلك كاف فى كون اعلامه انذارا وقوله سبحانه (فاتقون) خطاب للمستعجلين على طريقة الالتفات والفاء فصيحة أى اذا كان الامر كما ذكر من جريان عادته تعالى بتنزيل الملائكة على الانبياء عليهم السلام وأمرهم بأن ينذروا الناس أنه لا شريك له فى الالوهية فاتقون فى الاخلال بمضمونه ومباشرة ما ينافيه من الاشراك وفروعه التى من جملتها الاستعجال والاستهزاء . وبعد تمهيد الدليل السمعى للتوحيد شرع فى تحرير الادلة العقلية فقيل (خلق السموات والأرض بالحق) أى أوجدهما على ماهما عليه من الوجه الفائق والنمط اللائق (تعالى) وتقدس بذاته لاسيما بافعاله التى من جملتها إبداع هذين المخلوقين (عما يشركون) عن اشراكهم المعهود أو عن شركة مايشركونه به من الباطل الذى لا يبدىء ولا يعيد وبعد مانبه على صنعه الكلى المنطوى على تفاصيل مخلوقاته شرع فى تعداد مافيه من خلائقه فبدأ بفعله المتعلق بالانفس فقال (خلق الانسان) أى هذا النوع غير الفرد الاول منه (من نطفة) جماد لا حس له ولا حراك سيال لا يحفظ شكلا ولا وضعا (فاذا هو) بعد الخلق (خصيم) منطيق مجادل عن نفسه مكافح للخصوم (مبين) لحجته لقن بها وهذا أنسب بمقام الامتنان باعطاء القدرة على الاستدلال بذلك على قدرته تعالى ووحدته . أو مخاصم لخالقه منكر له قائل من يحيي العظام وهى رميم وهذا أنسب بمقام تعداد هنات الكفرة . روى أن أبى بن خلف الجمحى أتى النبى عليه السلام بعظم رميم فقال يا محمد أترى الله تعالى يحي هذا بعد ماقد رم فنزلت (والأنعام) وهى الازواج الثمانية من الابل والبقر والضأن والمعز وانتصابها بمضمر يفسره قوله تعالى (خلقها) أو بالعطف على الانسان وما بعده بيان ما خلق لاجله والذى بعده تفصيل لذلك وقوله تعالى (لكم) اما متعلق بخلقها وقوله (فيها) خبر مقدم وقوله (دفء) مبتدأ وهو ما يدفأ به فيقى من البرد والجملة حال من المفعول

أو الظرف الاول خبر للمبتدا المذكور وفيها حال من دفء اذ لو تأخر لكان صفة (ومنافع) هي درها وركوبها وحملها والحراثة بها وغير ذلك. وانما عبر عنها بها ليتناول الكل مع أنه الانسب بمقام الامتنان بالنعم وتقديم الدفء على المنافع لرعاية اسلوب الترقي الى الاعلى (ومنها تأكلون) أي تأكلون ما يؤكل منها من اللحوم والشحوم وغير ذلك وتغيير النظم للايماء الى أنها لا تبقى عند الاكل كما في السابق واللاحق فان الدفء والمنافع والجمال يحصل منها وهي باقية على حالها ولذلك جعلت محال لها بخلاف الاكل. وتقديم الظرف للايذان بان الاكل منها هو المعتاد المعتمد في المعاش وأن الاكل مما عداها من الدجاج والبط وصيد البر والبحر من قبيل التفكه مع أن فيه مراعاة للفواصل. ويحتمل ان يكون معنى الاكل منها أكل ما يحصل بسببها فان الحبوب والثمار المأكولة تكتسب باكراء الابل وبأثمان نتاجها وألبانها وجلودها (ولكم فيها) مع ما فصل من أنواع المنافع الضرورية (جمال) أي زينة في أعين الناس ووجاهة عندهم (حين تريحون) تردونها من مراعيها الى مراحها بالعشي (وحين تسرحون) تخرجونها بالغداة من حظائرها الى مسارحها فالمفعول محذوف من كلا الفعلين لرعاية الفواصل. وتعيين الوقتين لان ما يدور عليه أمر الجمال من تزين الافنية والاكناف بها وبتجاوب ثغائها ورغائها انما هو عند ورودها وصدورها في ذينك الوقتين وأما عند كونها في المراعي فتنقطع اضافتها الحسية الى أربابها وعند كونها في الحظائر لا يراها راء ولا ينظر اليها ناظر. وتقديم الاراحة على السرح لتقدم الورود على الصدور ولكونها أظهر منه في استتباع ما ذكر من الجمال وأتم في استجلاب الانس والبهجة اذ فيها حضور بعد غيبة واقبال بعد ادبار على أحسن ما يكون ملائى البطون مرتفعة الضلوع حافلة الضروع. وقرىء حينا تريحون وحينا تسرحون على أن كلا الفعلين وصف لحينا بمعنى تريحون فيه وتسرحون فيه (وتحمل أثقالكم) جمع ثقل وهو متاع المسافر. وقيل أثقالكم أجرامكم (الى بلد) قال ابن عباس رضي الله عنهما أريد به اليمن ومصر والشام ولعله نظر الى أنها متاجر أهل مكة. وقال عكرمة أريد به مكة ولعله نظر الى ان أثقالهم وأحمالهم عند القفول من متاجرهم أكثر وحاجتهم الى الحمولة أمس. والظاهر أنه عام لكل بلد سحيق (لم تكونوا بالغيه) واصلين اليه بأنفسكم مجردين عن الاثقال لولا الابل (إلا بشق الأنفس) فضلا عن استصحابها معكم. وقرىء بفتح الشين وهما لغتان بمعنى الكلفة والمشقة. وقيل المفتوح مصدر من شق الامر عليه شقا وحقيقته راجعة الى الشق الذي هو الصدع والمكسور النصف كأنه يذهب نصف القوة لما يناله من الجهد فالاضافة الى الانفس مجازية أو على تقدير مضاف أي الا بشق

قوى الانفس وهو استثناء مفرغ من أعم الاشياء أى لم تكونوا بالغيه بشىء من الاشياء الا بشق الانفس. ولعل تغيير النظم الكريم السابق الدال على كون الانعام مدارا للنعم السابقة الى الجملة الفعلية المفيدة لمجرد الحدوث للاشعار بان هذه النعمة ليست فى العموم بحسب المنشأ وبحسب المتعلق وفى الشمول للاوقات والاطراد فى الاحيان المعهودة بمثابة النعم السالفة فانها بحسب المنشأ خاصة بالابل وبحسب المتعلق بالضاربين فى الارض المتقلبين فيها للتجارة وغيرها فى أحايين غير مطردة. وأما سائر النعم المعدودة فموجودة فى جميع أصناف الانعام وعامة لكافة المخاطبين دائما أو فى عامة الاوقات (إن ربكم لرؤف رحيم) ولذلك أسبغ عليكم هذه النعم الجليلة ويسر لكم الامور الشاقة (والخيل) هو اسم جنس للفرس لا واحد له من لفظه كالابل وهو عطف على الانعام أى خلق الخيل (والبغال والحمير لتركبوها) تعليل بمعظم منافعها والا فالانتفاع بها بالحمل أيضا مما لا ريب فى تحققه (وزينة) عطف على محل لتركبوها وتجريده عن اللام لكونه فعلا لفاعل الفعل المعلل دون الاول وتأخيره لكون الركوب أهم منه أو مصدر لفعل محذوف أى وتتزينوا بها زينة. وقرىء بغير واو أى خلقها زينة لتركبوها. ويجوز أن يكون مصدرا واقعا موقع الحال من فاعل تركبوها أو مفعوله أى متزينين بها أو متزينا بها (ويخلق مالا تعلمون) أى يخلق فى الدنيا غير ما عدد من أصناف النعم فيكم ولكم ما لا تعلمون كنهه وكيفية خلقه فالعدول الى صيغة الاستقبال للدلالة على الاستمرار والتجدد أو لاستحضار الصورة. أو يخلق لكم فى الجنة غير ما ذكر من النعم الدنيوية مالا تعلمون أى ما ليس من شأنكم أن تعلموه وهو ما أشير اليه بقوله عليه الصلاة والسلام حكاية عن الله تعالى «أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» ويجوز أن يكون هذا اخبارا بأنه سبحانه يخلق من الخلائق مالا علم لنا به دلالة على قدرته الباهرة الموجبة للتوحيد كنعمته الباطنة والظاهرة عن ابن عباس رضى الله عنهما «ان عن يمين العرش نهرا من نور مثل السموات السبع والارضين السبع والبحار السبعة يدخل فيه جبريل عليه السلام كل سحر فيغتسل فيزداد نورا الى نوره وجمالا الى جماله وعظما الى عظمه ثم ينتفض فيخلق الله تعالى من كل قطرة تقع من ريشه كذا وكذا ألف ملك فيدخل منهم كل يوم سبعون ألف ملك البيت المعمور وسبعون ألف ملك الكعبة لا يعودون اليه الى يوم القيامة» (وعلى الله قصد السبيل) القصد مصدر بمعنى الفاعل يقال سبيل قصد وقاصد أى مستقيم على طريقة الاستعارة أو على نهج اسناد حال سالكه اليه كأنه يقصد الوجه الذى يؤمه السالك لا يعدل عنه أى

حق عليه سبحانه وتعالى بموجب رحمته ووعده المحتوم بيان الطريق المستقيم الموصل لمن يسلكه الى الحق الذى هو التوحيد بنصب الادلة وارسال الرسل وانزال الكتب لدعوة الناس اليه.أو مصدر بمعنى الاقامة والتعديل قاله أبو البقاء أى عليه عز وجل تقويمها وتعديلها أى جعلها بحيث يصل سالكها الى الحق لكن لابعد ما كانت فى نفسها متحرفة عنه بل ابداعها ابتداء كذلك على نهج قوله سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل وحقيقته راجعة الى ما ذكر من نصب الادلة وقد فعل ذلك حيث أبدع هذه البدائع التى كل واحد منها لاحب يهتدى بمناره.وعلم يستضاء بناره. وأرسل رسلا مبشرين ومنذرين وأنزل عليهم كتبا من جملتها هذا الوحى الناطق بحقيقة الحق الفاحص عن كل ما جل من الاسرار ودق.الهادى الى سبيل الاستدلال بتلك الادلة المفضية الى معالم الهدى المنجية عن فيافى الضلالة ومهاوى الردى ألا يرى كيف بين أولا تنزه جناب الكبرياء وتعاليه بحسب الذات عن أن تحوم حوله شائبة توهم الاشراك ثم أوضح سر القاء الوحى على الانبياء عليهم الصلاة والسلام وكيفية أمرهم بانذار الناس ودعوتهم الى التوحيد ونهيهم عن الاشراك ثم كر على بيان تعاليه عن ذلك بحسب الافعال مرشدا الى طريق الاستدلال فبدأ بفعله المتعلق بمحيط العالم الجسمانى ومركزه بقوله تعالى «خلق السموات والارض بالحق تعالى عما يشركون» ثم فصل أفعاله المتعلقة بما بينهما فبدأ بفعله المتعلق بأنفس المخاطبين ثم ذكر ما يتعلق بما لابد لهم منه فى معايشهم ثم بين قدرته على خلق مالا يحيط به علم البشر بقوله «ويخلق مالا تعلمون» و كل ذلك كما ترى بيان لسبيل التوحيد غب بيان وتعديل له أيما تعديل فالمراد بالسبيل على الاول الجنس بدليل اضافة القصد اليه وقوله تعالى (ومنها) فى محل الرفع على الابتداء اما باعتبار مضمونه واما بتقدير الموصوف كما فى قوله تعالى «ومنا دون ذلك» وقد مر فى قوله تعالى «ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر» الخ أى بعض السبيل أو بعض من السبيل فانها تؤنث وتذكر (جائر) أى مائل عن الحق منحرف عنه لا يوصل سالكه اليه وهو طرق الضلال التى لا يكاد يحصى عددها المندرج كلها تحت الجائر وعلى الثانى نفس السبيل المستقيم والضمير فى منها راجع اليها بتقدير المضاف أى ومن جنسها لما عرفت من أن تعديل السبيل وتقويمه ابداعه ابتداء على وجه الاستقامة والعدالة لا تقويمه بعد انحرافه وأياما كان فليس فى النظم الكريم تغيير الاسلوب رعاية لامر مطلوب كما قيل فان ذلك انما يكون فيما اقتضى الظاهر سبكا معينا ولكن بعدل ذلك لنكتة أهم منه كما فى قوله سبحانه «الذى يطعمنى ويسقين واذا مرضت فهو يشفين» فان مقتضى الظاهر أن يقال

والذى يسقمنى و يشفين ولكن غير الى ما عليه النظم الكريم تماديا عن اسناد ما تكرهه النفس اليه سبحانه وليس المراد ببيان قصد السبيل مجرد اعلان أنه مستقيم حتى يصح اسناد أنه جائر اليه تعالى فيحتاج الى الاعتذار عن عدم ذلك على انه لو أريد ذلك لم يوجد لتغيير الاسلوب نكتة وقد بين ذلك فى مواضع غير معدودة بل المراد مامر من نصب الادلة لهداية الناس اليه ولا امكان لاسناد مثله اليه تعالى بالنسبة الى الطريق الجائر بأن يقال وجائرها حتى يصرف ذلك الاسناد منه تعالى الى غيره لنكتة تستدعيه ولا يتوهمه متوهم حتى يقتضى الحال دفع ذلك بأن يقال لاجائرها ثم يغير سبك النظم عن ذلك لداعية أقوى منه بل الجملة الظرفية اعتراضية جيء بها لبيان الحاجة الى البيان والتعديد واظهار جلالة قدر النعمة فى ذلك والمعنى على الله تعالى بيان الطريق المستقيم الموصل الى الحق وتعديله بما ذكر من نصب الادلة ليسلكه الناس باختيارهم ويصلوا الى المقصد وهذا هو الهداية المفسرة بالدلالة على ما يوصل الى المطلوب لا الهداية المستلزمة للاهتداء ألبتة فان ذلك مما ليس بحق على الله تعالى لا بحسب ذاته ولا بحسب رحمته بل هو مخل بحكمته حيث يستدعى تسوية المحسن والمسيء والمطيع والعاصي بحسب الاستعداد واليه أشير بقوله تعالى (ولو شاء لهداكم أجمعين) أى لو شاء أن يهديكم الى ماذكر من التوحيد هداية موصلة اليه ألبتة مستلزمة لاهتدائكم أجمعين لفعل ذلك ولكن لم يشأه لان مشيئته تابعة للحكمة الداعية اليها ولا حكمة فى تلك المشيئة لما أن الذى عليه يدور فلك التكليف واليه ينسحب الثواب والعقاب انما هو الاختيار الجزئى الذى عليه تترتب الاعمال التي بها نيط الجزاء هذا هو الذى يقتضيه المقام ويستدعيه حسن الانتظام وقد فسر كون قصد السبيل عليه تعالى بانتهائه اليه على نهج الاستقامة. وايثار حرف الاستعلاء على أداة الانتهاء لتأكيد الاستقامة على وجه تمثيلى من غير ان يكون هناك استعلاء لشيء عليه سبحانه وتعالى عنه علوا كبيرا كما فى قوله تعالى «هذا صراط على مستقيم» فالقصد مصدر بمعنى الفاعل والمراد بالسبيل الجنس كما مر وقوله تعالى «ومنها جائر» معطوف على الجملة الاولى والمعنى ان قصد السبيل واصل اليه تعالى بالاستقامة وبعضها منحرف عنه ولو شاء لهداكم جميعا الى الاول. وأنت خبير بأن هذا حق فى نفسه ولكنه بمعزل عن نكتة موجبة لتوسيطه بين ما سبق من أدلة التوحيد وبين ما لحق. ولما بين الطريق السمعي للتوحيد على وجه اجمالى وفصل بعض أدلته المتعلقة بأحوال الحيوانات وعقب ذلك السر الداعى اليه بعثا للمخاطبين على التأمل فيما سبق وحثا على حسن التلقى لما لحق أتبع ذلك ذكر

ما يدل عليه من أحوال النبات فقيل (هو الذى أنزل) بقدرته القاهرة (من السماء) أى من السحاب أو من جانب السماء (ماء) أى نوعا منه وهو المطر . وتأخيره عن المجرور لما مر مرارا من أن المقصود هو الاخبار بأنه أنزل من السماء شيئا هو الماء لا أنه أنزله من السماء والسر فيه ما سلف من أن عند تأخير ما حقه التقديم يبقى الذهن مترقبا له مشتاقا اليه فيتمكن لديه عند وروده عليه فضل تمكن (لكم منه شراب) أى ما تشربونه وهو اما مرتفع بالظرف الاول أو مبتدأ وهو خبره والجملة صفة لما والظرف الثانى نصب على الحالية من شراب ومن تبعيضية وليس فى تقديمه ايهام حصر المشروب فيه حتى يفتقر الى الاعتذار بانه لابأس به لان مياه العيون والآبار منه لقوله تعالى « فسلكه ينابيع فى الارض» وقوله «تعالى فأسكناه فى الارض» وقيل الظرف الاول متعلق بأنزل والثانى خبر لشراب والجملة صفة لماء وأنت خبير بأن ما فيه من توسيط المنصوب بين المجرورين وتوسيط الثانى منهما بين الماء وصفته مما لا يليق بجزالة نظم التنزيل الجليل (ومنه شجر) من ابتدائية أى ومنه يحصل شجر ترعاه المواشى والمراد به ما ينبت من الارض سواء كان له ساق أو لا أو تبعيضية مجازا لانه لما كان سقيه من الماء جعل كأنه منه كقوله :

« أسنمة الآبال فى ربابه » يعنى به المطر الذى ينبت به الكلأ الذى تأكله الابل فتسمن أسنمتها وفى حديث عكرمة « لا تأكلوا ثمن الشجر فانه سحت يعنى الكلأ » (فيه تسيمون) ترعون من سامت الماشية وأسامها صاحبها وأصلها السومة وهى العلامة لانها تؤثر بالرعى علامات فى الارض (ينبت) أى الله عز وجل وقرىء بالنون (لكم به) بما أنزل من السماء (الزرع والزيتون والنخيل والأعناب) بيان للنعم الفائضة عليهم من الارض بطريق الاستئناف . وايثار صيغة الاستقبال للدلالة على التجدد والاستمرار وأنها سنته الجارية على مر الدهور أو لاستحضار صورة الانبات . وتقديم الظرفين على المفعول الصريح لما مر آنفا مع ما فى تقديم أولهما من الاهتمام به لادخال المسرة ابتداء . وتقديم الزرع على ماعداه لانه اصل الاغذية وعمود المعاش . وتقديم الزيتون لما فيه من الشرف من حيث انه ادام من وجه وفاكهة من وجه . وتقديم النخيل على الاعناب لظهور أصالتها وبقائها وجمع الاعناب للاشارة الى ما فيها من الاشتمال على الاصناف المختلفة . وتخصيص الانواع المعدودة بالذكر مع اندراجها تحت قوله تعالى (ومن كل الثمرات) للاشعار بفضلها وتقديم الشجر عليها مع كونه غذاء للانعام لحصوله بغير صنع من البشر أو للارشاد الى مكارم الاخلاق فان مقتضاها أن يكون اهتمام الانسان بامر ما تحت يده أكمل من اهتمامه بامر نفسه أو لان أكثر المخاطبين من أصحاب المواشى ليس لهم زرع ولا ثمر وقيل

المراد تقديم مايسام لاتقديم غذائه فانه غذاء حيوانى للانسان وهو أشرف الاغذية وقرىء ينبت من الثلاثى مسندا الى الزرع وماعطف عليه (إن فى ذلك) أى فى انزال الماء وانبات مافصل (لآية) عظيمة دالة على تفرده تعالى بالالوهية لاشتماله على كمال العلم والقدرة والحكمة (لقوم يتفكرون) فان من تفكر فى أن الحبة أو النواة تقع فى الارض و تصل اليها نداوة تنفذ فيها فينشق أسفلها فيخرج منه عروق تنبسط فى أعماق الارض وينشق أعلاها وان كانت منتكسة فى الوقوع ويخرج منه ساق فينمو وتخرج منه الاوراق والازهار والحبوب والثمار المشتملة على أجسام مختلفة الاشكال والالوان والخواص والطبائع وعلى نواة قابلة لتوليد الامثال على النمط المحرر لا الى نهاية مع اتحاد المواد واستواء نسبة الطبائع السفلية والتأثيرات العلوية بالنسبة الى الكل علم أن من هذه أفعاله وآثاره لايمكن أن يشبهه شىء فى شىء من صفات الكمال فضلا عن أن يشاركه أخس الاشياء فى أخص صفاته التى هى الالوهية واستحقاق العبادة تعالى عن ذلك علوا كبيرا وحيث افتقر سلوك هذه الطريقة الى ترتيب المقدمات الفكرية قطع الآية الكريمة بالتفكر (وسخر لكم الليل والنهار) يتعاقبان خلفة لمنامكم ومعاشكم ولعقد الثمار وانضاجها (والشمس والقمر) يدأبان فى سيرهما وانارتهما أصالة وخلافة واصلاحهما لماينط بهما صلاحه من المكونات التى من جملتها مافصل وأجمل كل ذلك لمصالحكم ومنافعكم وليس المراد بتسخيرها لهم تمكينهم من تصرفها كيف شاءوا كما فى قوله تعالى «سبحان الذى سخر لنا هذا» ونظائره بل هو تصريفه تعالى لها حسبما يترتب عليه منافعهم ومصالحهم كأن ذلك تسخير لهم وتصرف من قبلهم حسب ارادتهم وفى التعبير عن ذلك التصريف بالتسخير ايماء الى مافى المسخرات من صعوبة المأخذ بالنسبة الى المخاطبين. وايثار صيغة الماضى للدلالة على أن ذلك أمر واحد مستمر وان تجددت آثاره (والنجوم مسخرات بأمره) مبتدأ وخبر أى سائر النجوم فى حركاتها وأوضاعها من التثليث والتربيع ونحوهما مسخرات لله تعالى أو لما خلقن له بارادته ومشيئته وحيث لم يكن عود منافع النجوم اليهم فى الظهور بمثابة ماقبلها من الملوين والقمرين لم ينسب تسخيرها اليهم باداة الاختصاص بل ذكر على وجه يفيد كونها تحت ملكوته تعالى من غير دلالة على شىء آخر ولذلك عدل عن الجملة الفعلية الدالة على الحدوث الى الاسمية المفيدة للدوام والاستمرار. وقرىء برفع الشمس والقمر أيضا. وقرىء بنصب النجوم على انه مفعول أول لفعل مقدر ينبىء عنه الفعل المذكور ومسخرات مفعول ثان له أى وجعل النجوم مسخرات بأمره أو على انه معطوف على المنصوبات المتقدمة ومسخرات حال من الكل والعامل مافى سخر من معنى نفع أى نفعكم بها

حال كونها مسخرات لله الذى خلقها ودبرها كيف شاء أو لما خلقن له بايجاده وتقديره أو لحكمه أو مصدر ميمى جمع لاختلاف الانواع أى أنواعا من التسخير وما قيل من أن فيه ايذانا بالجواب عما عسى يقال ان المؤثر فى تكوين النبات حركات الكواكب وأوضاعها بأن ذلك إن سلم فلا ريب فى أنها أيضا أمور ممكنة الذات والصفات واقعة على بعض الوجوه الممكنة فلا بد لها من موجد مخصص مختار واجب الوجود دفعا للدور والتسلسل فمبناه حسبان ماذكر أدلة على وجود الصانع تعالى وقدرته واختياره وأنت تدرى أن ليس الامر كذلك فانه ليس مما ينازع فيه الخصم ولا يتلعثم فى قبوله قال تعالى «ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فانى يؤفكون» وقال تعالى «ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فاحيى به الارض من بعد موتها ليقولن الله» الآية وانما ذلك أدلة التوحيد من حيث إن من هذا شأنه لا يتوهم أن يشاركه شيء فى شيء فضلا عن أن يشاركه الجماد فى الالوهية (إن فى ذلك) أى فيما ذكر من التسخير المتعلق بما ذكر مجملا ومفصلا (الآيات) باهرة متكاثرة (لقوم يعقلون) وحيث كانت هذه الآثار العلوية متعددة ودلالة مافيها من عظيم القدرة والعلم والحكمة على الوحدانية أظهر جمع الآيات وعلقت بمجرد العقل من غير حاجة إلى التأمل والتفكر. ويجوز أن يكون المراد لقوم يعقلون ذلك فالمشار اليه حينئذ تعاجيب الدقائق المودعة فى العلويات المدلول عليها بالتسخير التى لا يتصدى لمعرفتها الا المهرة من أساطين علماء الحكمة ولا ريب فى أن احتياجها الى التفكر أكثر (وماذرأ) عطف على قوله تعالى والنجوم رفعا ونصبا على أنه مفعول لجعل أى وماخلق (لكم فى الارض) من حيوان ونبات حال كونه (مختلفاً ألوانه) أى أصنافه فان اختلافها غالبا يكون باختلاف اللون مسخر لله تعالى أو لما خلق له من الخواص والاحوال والكيفيات أوجعل ذلك مختلف الالوان أى الاصناف لتتمتعوا من ذلك بأى صنف شئتم وقد عطف على ماقبله من المنصوبات وعقب بان ذكر الخلق لهم مغن عن ذكر التسخير واعتذر بان الاول لا يستلزم الثانى لزوماً عقليا لجواز كون ما خلق لهم عزيز المرام صعب المنال. وقيل هو منصوب بفعل مقدر أى خلق وأنبت على أن قوله مختلفاً ألوانه حال من مفعوله (إن فى ذلك) الذى ذكر من التسخيرات ونحوها (لآية) بينة الدلالة على أن من هذا شأنه واحد لا ندله ولا ضد (لقوم يذكرون) فان ذلك غير محتاج الا الى تذكر ماعسى يغفل عنه من العلوم الضرورية. وأما مايقال من أن اختلافها فى الطباع والهيئات والمناظر ليس الا بصنع صانع حكيم فمداره ما لوحنا به من

حسبان ماذكر دليلا على اثبات الصانع تعالى وقد عرفت حقيقة الحال فان ايراد مايدل على اتصافه سبحانه بما ذكر من صفات الكمال ليس بطريق الاستدلال عليه بل من حيث إن ذلك من المقدمات المسلمة جيء به للاستدلال به على ماتقتضيه ضرورة من وحدانيته تعالى واستحالة ان يشاركه شيء فى الالوهية (وهو الذى سخر البحر) شروع فى تعداد النعم المتعلقة بالبحر أثر تفصيل النعم المتعلقة بالبر حيوانا ونباتا أى جعله بحيث تتمكنون من الانتفاع به بالركوب والغوص والاصطياد (لتأكلوا منه لحما طريا) هو السمك والتعبير عنه باللحم مع كونه حيوانا للتلويح بانحصار الانتفاع به فى الأكل ووصفه بالطراوة للاشعار بلطافته والتنبيه على وجوب المسارعة إلى أكله كيلا يتسارع اليه الفساد كما ينبيء عنه جعل البحر مبدأ أكله وللايذان بكمال قدرته تعالى فى خلقه عذبا طريا فى ماء زعاق ومن اطلاق اللحم عليه ذهب مالك والثورى أن من حلف لايأكل اللحم حنث بأكله والجواب أن مبنى الايمان العرف ولا ريب فى أنه لايفهم من اللحم عند الاطلاق ولذلك لو أمر خادمه بشراء اللحم فجاء بالسمك لم يكن ممتثلا بالأمر ألا يرى الى أن الله تعالى سمى الكافر دابة حيث قال «إن شر الدواب عند الله الذين كفروا» ولا يحنث بركوبه من حلف لايركب دابة (وتستخرجوا منه حلية) كاللؤلؤ والمرجان (تلبسونها) عبر فى مقام الامتنان عن لبس نسائهم بلبسهم لكونهن منهم أو لكون لبسهن لأجلهم (وترى الفلك) السفن (مواخر فيه) جوارى فيه مقبلة ومدبرة ومعترضة بريح واحدة تشقه بحيزومها من المخر وهو شق الماء وقيل هو صوت جرى الفلك (ولتبتغوا) عطف على تستخرجوا وما عطف هو عليه وما بينهما اعتراض لتمهيد مبادى الابتغاء ودفع توهم كونه باستخراج الحلية أو على علة محذوفة أى لتنتفعوا بذلك ولتبتغوا ذكره ابن الانبارى أو متعلقة بفعل محذوف أى وفعل ذلك لتبتغوا (من فضله) من سعة رزقه بركوبها للتجارة (ولعلكم تشكرون) أى تعرفون حقوق نعمه الجليلة فتقومون بأدائها بالطاعة والتوحيد ولعل تخصيص هذه النعمة بالتعقيب بالشكر من حيث ان فيها قطعا لمسافة طويلة مع احمال ثقيلة فى مدة قليلة من غير مزاولة أسباب السفر بل من غير حركة أصلا مع أنها فى تضاعيف المهالك وعدم توسيط الفوز بالمطلوب بين الابتغاء والشكر للايذان باستغنائه عن التصريح به وبحصولهما معا (وألقى فى الأرض رواسى) أى جبالا ثوابت وقد مر تحقيقه فى أول سورة الرعد (أن تميد بكم) كراهة أن تميل بكم وتضطرب أو لئلا تميد بكم فان الأرض قبل أن تخلق فيها الجبال كانت كرة خفيفة

بسيطة الطبع وكان من حقها أن تتحرك بالاستدارة كالافلاك أو تتحرك بأدنى سبب محرك فلما خلقت الجبال تفاوتت حافاتها وتوجهت الجبال بثقلها نحو المركز فصارت كالاوتاد وقيل لما خلق الله تعالى الأرض جعلت تمور فقالت الملائكة ماهي بمقر أحد على ظهرها فاصبحت وقد أرسيت بالجبال (وأنهارا)أى وجعل فيه أنهارا لأن فى ألقى معنى الجعل (وسبلا لعلكم تهتدون)بها الى مقاصدكم (وعلامات) معالم يستدل بها السابلة بالنهار من جبل ومنهل وريح وقد نقل أن جماعة يشمون التراب ويتعرفون به الطرقات (وبالنجم هم يهتدون)بالليل فى البرارى والبحار حيث لاعلامة غيره والمراد بالنجم الجنس وقيل هو الثريا والفرقدان وبنات النعش والجدى وقرىء بضمتين وبضمة وسكون وهو جمع كرهن ورهن. وقيل الاول بطريق حذف الواو من النجوم للتخفيف ولعل الضمير لقريش فانهم كانوا كثيرى التردد للتجارة مشهورين بالاهتداء بالنجوم فى أسفارهم وصرف النظم عن سنن الخطاب. وتقديم النجم واقحام الضمير للتخصيص كانه قيل وبالنجم خصوصا هؤلاء خصوصا يهتدون فالاعتبار بذلك والشكر عليه ألزم لهم وأوجب عليهم (أفمن يخلق) هذه المصنوعات العظيمة ويفعل هاتيك الافاعيل البديعة أو يخلق كل شىء (كمن لا يخلق) شيئا أصلا وهو تبكيت للكفرة وابطال لاشراكهم وعبادتهم للاصنام بانكار ما يستلزمه ذلك من المشابهة بينها وبينه سبحانه وتعالى بعد تعداد ما يقتضى ذلك اقتضاء ظاهرا .وتعقيب الهمزة بالفاء لتوجيه الانكار الى ترتيب توهم المشابهة المذكورة على ما فصل من الامور العظيمة الظاهرة الاختصاص به تعالى المعلومة كذلك فيما بينهم حسبما يؤذن به ما تلوناه من قوله تعالى «ولئن سألتهم» الآيتين . والاقتصار على ذكر الخلق من بينها لكونه أعظمها وأظهرها واستتباعه اياها أو لكون كل منها خلقا مخصوصا أى أبعد ظهور اختصاصه تعالى بمبدئية هذه الشئون الواضحة الدالة على وحدانيته تعالى ونفرده بالالوهية واستبداده باستحقاق العبادة يتصور المشابهة بينه وبين ما هو بمعزل من ذلك بالمرة كما هو قضية اشراككم ومدارها وان كان على تشبيه غير الخالق بالخالق لكن التشبيه حيث كان نسبة تقوم بالمنتسبين اختير ماعليه النظم الكريم مراعاة لحق سبق الملكة على العدم وتفاديا عن توسيط عدمها بينها وبين جزئياتها المفصلة قبلها وتنبيها على كمال قبح ما فعلوه من حيث ان ذلك ليس مجرد رفع الاصنام عن محلها بل هو حط لمنزلة الربوبية الى مرتبة الجمادات ولا ريب فى انه أقبح من الاول والمراد بمن لا يخلق كل ما هذا شأنه كائنا ما كان والتعبير عنه بما يختص بالعقلاء للمشاكلة أو العقلاء خاصة ويعرف منه حال غيرهم بدلالة النص فان من يخلق حيث لم يكن كمن

لا يخلق وهو من جملة العقلاء فما ظنك بالجماد وأياما كان فدخول الاصنام فى حكم عدم المماثلة والمشابهة اما بطريق الاندراج تحت الموصول العام واما بطريق الانفهام بدلالة النص على الطريقة البرهانية لا بأنها هي المرادة بالموصول خاصة (أفلا تذكرون) أى ألا تلاحظون فلا تتذكرون ذلك فانه لوضوحه بحيث لا يفتقر الى شيء سوى التذكر (وإن تعدوا نعمت الله) تذييل اجمالى لنعمه تعالى بعد تعداد طائفة منها وكان الظاهر ايراده عقيبها تكملة لها على طريقة قوله تعالى «ويخلق مالا تعلمون» ولعل فصل ما بينهما بقوله تعالى «أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون» للمبادرة الى الزام الحجة والقام الحجر أثر تفصيل مافصل من الافاعيل التى هى أدلة الوحدانية مع ما فيه من سر ستقف عليه ودلالتها عليها وان لم تكن مقصورة على حيثية الخلق ضرورة ظهور دلالتها عليها من حيثية الانعام أيضا لكنها حيث كانت من مستتبعات الحيثية الاولى استغنى عن التصريح بها ثم بين حالها بطريق الاجمال أى ان تعدوا نعمته الفائضة عليكم مما ذكر وما لم يذكر حسبما يعرب عنه قوله تعالى «هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا» (لا تحصوها) أى لا تطيقوا حصرها وضبط عددها ولو اجمالا فضلا عن القيام بشكرها وقد خرجنا عن عهدة تحقيقه فى سورة ابراهيم بفضل الله سبحانه (إن الله لغفور) حيث يستر ما فرط منكم من كفرانها والاخلال بالقيام بحقوقها ولا يعاجلكم بالعقوبة على ذلك (رحيم) حيث يفيضها عليكم مع استحقاقكم للقطع والحرمان بما تأتون وتذرون من اصناف الكفر التى من جملتها عدم الفرق بين الخالق وغيره وكل من ذلك نعمة وأيما نعمة فالجملة تعليل للحكم بعدم الاحصاء . وتقديم وصف المغفرة على نعت الرحمة لتقدم التخلية على التحلية (والله يعلم ماتسرون) تضمرونه من العقائد والاعمال (وماتعلنون) أى تظهرونه منهما وحذف العائد لمراعاة الفواصل أى يستوى بالنسبة الى علمه المحيط سركم وعلنكم وفيه من الوعيد والدلالة على اختصاصه سبحانه بنعوت الالهية مالايخفى وتقديم السر على العلن لماذكرناه فى سورة البقرة وسورة هود من تحقيق المساواة بين علميه المتعلقين بهما على أبلغ وجه كان علمه تعالى بالسر أقدم منه بالعلن أو لان كل شيء يعلن فهو قبل ذلك مضمر فى القلب فتعلق علمه تعالى بحالته الاولى أقدم من تعلقه بحالته الثانية (والذين يدعون) شروع فى تحقيق كون الاصنام بمعزل من استحقاق العبادة وتوضيحه بحيث لايبقى فيه شائبة ريب بتعديد أوصافها وأحوالها المنافية لذلك منافاة ظاهرة وتلك الاحوال وإن كانت غنية عن البيان لكنها شرحت للتنبيه على كمال حماقة عبدتها وأنهم

لايعرفون ذلك الا بالتصريح أى والآلهة الذين يعبدهم الكفار (من دون الله) سبحانه وقرىء على صيغة المبنى للمفعول وعلى الخطاب (لايخلقون شيئا) من الاشياء أصلا أى ليس من شأنهم ذلك ولما لم يكن بين نفى الخالقية و بين المخلوقية تلازم بحسب المفهوم و إن تلازما فى الصدق أثبت لهم ذلك صريحا فقيل (وهم يخلقون) أى شأنهم ومقتضى ذاتهم المخلوقية لانها ذوات ممكنة مفتقرة فى ماهياتها ووجوداتها الى الموجد و بناء الفعل للمفعول لتحقيق التضاد والمقابلة بين ما أثبت لهم و بين مانفى عنهم من وصفى المخلوقية والخالقية وللايذان بعدم الافتقار الى بيان الفاعل لظهور اختصاص الفعل بفاعله جل جلاله ويجوز أن يجعل الخلق الثانى عبارة عن النحت والتصوير رعاية للمشاكلة بينه وبين الاول ومبالغة فى كونهم مصنوعين لعبدتهم وأعجز عنهم وايذانا بكمال ركاكة عقولهم حيث أشركوا بخالقهم مخلوقهم وأما جعل الاول أيضاً عبارة عن ذلك كما فعل فلا وجه له اذ القدرة على مثل ذلك الخلق ليست ممايدور عليه استحقاق العبادة أصلا ولما أن اثبات المخلوقية لهم غير مستدع لنفى الحياة عنهم لما أن بعض المخلوقين أحياء صرح بذلك فقيل (أموات) وهو خبر ثان للموصول لا للضمير كما قيل أو خبر مبتدا محذوف وحيث كان بعض الاموات مما يعتريه الحياة سابقا أولاحقا كاجساد الحيوان والنطف التى ينشئها الله تعالى حيوانا احترز عن ذلك فقيل (غير أحياء) أى لاتعتريها الحياة أصلا فهى أموات على الاطلاق وأما قوله تعالى (ومايشعرون أيان يبعثون) أى مايشعر أولئك الآلهة أيان تبعث عبدتهم فعلى طريقة التهكم بهم لان شعور الجماد بالامور الظاهرة بديهى الاستحالة عند كل أحد فكيف بما لا يعلمه الا العليم الخبير وفيه ايذان بان البعث من لوازم التكليف وأن معرفة وقته مما لابد منه فى الالوهية (إلهكم اله واحد) لايشاركه شىء فى شىء وهو تصريح بالمدعى وتمحيض للنتيجة عقب اقامة الحجة (فالذين لا يؤمنون بالآخرة) وأحوالها التى من جملتها ما ذكر من البعث وما يعقبه من الجزاء المستلزم لعقوبتهم وذلتهم (قلوبهم منكرة) للوحدانية جاحدة لها أو للآيات الدالة عليها (وهم مستكبرون) عن الاعتراف بها أو عن الآيات الدالة عليها والفاء للايذان بأن إصرارهم عن الانكار واستمرارهم على الاستكبار وقع موقع النتيجة للدلائل الظاهرة والبراهين الباهرة والمعنى انه قد ثبت بما قرر من الحجج والبينات اختصاص الالهية به سبحانه فكان من نتيجة ذلك اصرارهم على ماذكر من الانكار والاستكبار و بناء الحكم المذكور على الموصول للاشعار بكونه معللا بما فى حيز الصلة فان الكفر بالآخرة وبما فيها من البعث والجزاء المتنوع الى الثواب

على الطاعة والعقاب على المعصية يؤدى الى قصر النظر على العاجل والاعراض عن الدلائل السمعية والعقلية الموجب لانكارها وانكار مؤداها والاستكبار عن اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام وتصديقه . وأما الايمان بها وبما فيها فيدعو لا محالة الى التأمل فى الآيات والدلائل رغبة ورهبة فيورث ذلك يقينا بالوحدانية وخضوعا لامر الله تعالى (لاجرم) أى حقا وقد مر تحقيقه فى سورة هود (ان الله يعلم ما يسرون) من قلوبهم (وما يعلنون) من استكبارهم وقولهم للقرآن أساطير الاولين وغير ذلك من قبائحهم فيجازيهم بذلك (إنه لا يحب المستكبرين) تعليل لما تضمنه الكلام من الوعيد أى لا يحب المستكبرين عن التوحيد أو عن الآيات الدالة عليها أو لا يحب جنس المستكبرين فكيف بمن استكبر عماذكر (واذا قيل لهم) أى لأولئك المنكرين المستكبرين وهو بيان لاضلالهم غب بيان ضلالهم (ماذا أنزل ربكم) القائل الوافدون عليهم والمسلمون أو بعض منهم على طريق التهكم وماذا منصوب بمابعده أو مرفوع أى أى شيء انزل أو ما الذى أنزله (قالوا أساطير الاولين) أى ما تدعون نزوله أو المنزل بطريق السخرية أحاديث الاولين وأباطيلهم وليس من الانزال فى شيء . قيل هؤلاء القائلون هم المقتسمون الذين اقتسموا مداخل مكة ينفرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند سؤال وفود الحاج عما نزل عليه عليه السلام (ليحملوا) متعلق بقالوا أى قالوا ما قالوا ليحملوا (أوزارهم) الخاصة بهم وهى أوزار ضلالهم (كاملة) لم يكفر منها شيء بنكبة أصابتهم فى الدنيا كما يكفر بها أوزار المؤمنين (يوم القيامة) ظرف ليحملوا (ومن أوزار الذين يضلونهم) وبعض أوزار من ضل باضلالهم وهو وزر الاضلال لانهما شريكان هذا يضله وهذا يطاوعه فيتحاملان الوزر . واللام للتعليل فى نفس الامر من غير أن يكون غرضا . وصيغة الاستقبال للدلالة على استمرار الاضلال أو باعتبار حال قولهم لاحال الحمل (بغير علم) حال من الفاعل أى يضلونهم غير عالمين بان ما يدعون اليه طريق الضلال . وأما حمله على معنى غير عالمين بانهم يحملون يوم القيامة أوزار الضلال والأضلال على أن يكون العامل فى الحال قالوا وتأييده بما سيأتى من قوله تعالى « وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون » من حيث ان حمل ماذكر من أوزار الضلال والاضلال من قبيل اتيان العذاب من حيث لا يشعرون فيرده أن الحمل المذكور انما هو يوم القيامة والعذاب المذكور انما هو العذاب الدنيوى كما ستقف عليه أو حال من المفعول أى يضلون من لا يعلم انهم ضلال وفائدة التقييد بها الاشعار بان مكرهم لا يروج عند ذى لب وانما يتبعهم الاغبياء والجهلة والتنبيه على أن جهلهم ذلك

لايكون عذرا اذ كان يجب عليهم أن يبحثوا ويميزوا بين المحق الحقيق بالاتباع وبين المبطل (ألا ساء مايزرون) أى بئس شيئا يزرونه ماذكر (قد مكر الذين من قبلهم) وعيد لهم برجوع غائلة مكرهم الى أنفسهم كدأب من قبلهم من الامم الخالية الذين أصابهم ما أصابهم من العذاب العاجل أى قد سووا منصوبات ليمكروا بها رسل الله تعالى (فأتى الله) أى أمره وحكمه (بنيانهم) وقرىء بيتهم وبيوتهم (من القواعد) وهى الاساطين التى تعمده أو أساسه فضعضعت أركانه (فخر عليهم السقف من فوقهم) أى سقط عليهم سقف بنيانهم اذ لا يتصور له القيام بعد تهدم القواعد شبهت حال أولئك الماكرين فى تسويتهم المكايد والمنصوبات التى أرادوا بها الايقاع برسل الله سبحانه وفى ابطاله تعالى تلك الحيل والمكايد وجعله اياها أسبابا لهلاكهم بحال قوم بنوا بنيانا وعمدوه بالاساطين فأتى ذلك من قبل أساطينه بأن ضعضعت فسقط عليهم السقف فهلكوا . وقرىء فخر عليهم السقف بضمتين (وأتاهم العذاب) أى الهلاك والدمار (من حيث لا يشعرون) باتيانه منه بل يتوقعون اتيان مقابله مما يريدون ويشتهون والمعنى ان هؤلاء الماكرين القائلين للقرآن العظيم أساطير الاولين سيأتيهم من العذاب مثل ما أتاهم وهم لا يحتسبون والمراد به العذاب العاجل لقوله سبحانه (ثم يوم القيامة يخزيهم) فانه عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى هذا الذى فهم من التمثيل من عذاب هؤلاء أو ما هو أعم منه ومما ذكر من عذاب أولئك جزاؤهم فى الدنيا ويوم القيامة يخزيهم أى يذلهم بعذاب الخزى على رءوس الاشهاد وأصل الخزى ذل يستحيا منه وثم للايماء الى ما بين الجزاءين من التفاوت مع ما يدل عليه من التراخى الزمانى . وتغيير السبك بتقديم الظرف ليس لقصر الخزى على يوم القيامة كما هو المتبادر من تقديم الظرف على الفعل بل لان الاخبار بجزائهم فى الدنيا مؤذن بأن لهم جزاء أخرويا فتبقى النفس مترقبة الى وروده سائلة عنه بأنه ماذا مع تيقنها بأنه فى الآخرة فسيق الكلام على وجه يؤذن بأن المقصود بالذكر اخزاؤهم لا كونه يوم القيامة والضمير اما للمفترين فى حق القرآن الكريم أولهم ولمن مثلوا بهم من الماكرين كما أشير اليه . وتخصيصه بهم يأباه السباق والسياق كما ستقف عليه (ويقول) لهم تفضيحا وتوبيخا فهو بيان للاخزاء (أين شركائى) أضافهم اليه سبحانه حكاية لاضافتهم الكاذبة ففيه توبيخ أثر توبيخ مع الاستهزاء بهم (الذين كنتم تشاقون فيهم) أى تخاصمون الانبياء والمؤمنين فى شأنهم بأنهم شركاء حقا حين بينوا لكم بطلانها والمراد بالاستفهام استحضارها للشفاعة أو المدافعة على طريقة

الاستهزاء والتبكيت والاستفسار عن مكانهم لا يوجب غيبتهم حقيقة حتى يعتذر بأنه يجوز أن يحال بينهم وبين عبدتهم حينئذ ليتفقدوها فى ساعة علقوا بها الرجاء فيها أو بأنهم لما لم ينفعوهم فكأنهم غيب بل يكفى فى ذلك عدم حضورهم بالعنوان الذى كانوا يزعمون أنهم متصفون به من عنوان الالهية فليس هناك شركاء ولا أماكنها على أن قوله ليتفقدوها ليس بسديد فانه قد تبين عندهم الأمر حينئذ فرجعوا عن ذلك الزعم الباطل فكيف يتصور منهم التفقد. وقرىء بكسر النون أى تشاقوننى على أن مشاقة الانبياء عليهم الصلاة والسلام والمؤمنين لاسيما فى شأن متعلق به سبحانه مشاقة له عز وجل (قال الذين أوتوا العلم) من أهل الموقف وهم الانبياء والمؤمنون الذين أوتوا علما بدلائل التوحيد وكانوا يدعونهم فى الدنيا الى التوحيد فيجادلونهم ويتكبرون عليهم أى يقولون توبيخا لهم واظهارا للشماتة بهم وتقريرا لما كانوا يعظونهم وتحقيقا لما أوعدوهم به. وإيثار صيغة الماضى للدلالة على تحققه وتحتم وقوعه حسبما هو المعتاد فى أخباره سبحانه وتعالى كقوله «ونادى أصحاب الجنة ونادى أصحاب الاعراف» (إن الخزى) الفضيحة والذل والهوان (اليوم) منصوب بالخزى على رأى من يرى إعمال المصدر المصدر باللام أو بالاستقرار فى الظرف وفيه فصل بين العامل والمعمول بالمعطوف الا أنه مغتفر فى الظروف وإيراده للاشعار بأنهم كانوا قبل ذلك فى عزة وشقاق (والسوء) العذاب (على الكافرين) بالله تعالى وبآياته ورسله (الذين تتوفاهم الملائكة) بتأنيث الفعل. وقرىء بتذكيره وبادغام التاء فى التاء والعدول الى صيغة المضارع لاستحضار صورة توفيهم إياهم لما فيها من الهول والموصول فى محل الجر على أنه نعت للكافرين أو بدل منه أو فى محل النصب أو الرفع على الذم وفائدته تخصيص الخزى والسوء بمن استمر كفره الى حين الموت دون من آمن منهم ولو فى آخر عمره أى على الكافرين المستمرين على الكفر الى أن يتوفاهم الملائكة (ظالمى أنفسهم) أى حال كونهم مستمرين على الكفر فانه ظلم منهم لأنفسهم وأى ظلم حيث عرضوها للعذاب المخلد وبدلوا فطرة الله تبديلا (فألقوا السلم) أى فيلقون والعدول الى صيغة الماضى للدلالة على تحقق الوقوع وهو عطف على قوله تعالى «ويقول أين شركائى» وما بينهما جملة اعتراضية جىء بها تحقيقا لما حاق بهم من الخزى على رءوس الأشهاد أى فيسالمون ويتركون المشاقة وينزلون عما كانوا عليه فى الدنيا من الكبر وشدة الشكيمة قائلين (ما كنا نعمل) فى الدنيا (من سوء) أى من شرك قالوه منكرين لصدوره عنهم. كقولهم والله ربنا ما كنا مشركين وانما عبروا عنه بالسوء اعترافا بكونه سيئا

لا انكارا لكونه كذلك مع الاعتراف بصدور معنهم ويجوز أن يكون تفسيرا للسلم على ان يكون المراد به الكلام الدال عليه وعلى التقدير بن فهو جواب عن قوله سبحانه «أين شركائى» كما فى سورة الانعام لا عن قول أولى العلم ادعاء لعدم استحقاقهم لما دهمهم فى الخزى والسوء (بلى) رد عليهم من قبل أولى العلم واثبات لما نفوه أى بلى كنتم تعملون ما تعملون (إن الله عليم بما كنتم تعملون) فهو يجازيكم عليه وهذا أوانه (فادخلوا أبواب جهنم) أى كل صنف بابه المعدله. وقيل أبوابها أصناف عذابها فالدخول عبارة عن الملابسة والمقاساة (خالدين فيها) ان أريد بالدخول حدوثه فالحال مقدرة وان أريد مطلق الكون فيها فهى مقارنة (فلبئس مثوى المتكبرين) عن التوحيد كما قال تعالى «قلوبهم منكرة وهم مستكبرون» وذكرهم بعنوان التكبر للاشعار بعليته لثوائهم فيها والمخصوص بالذم محذوف أى جهنم وتأويل قولهم ما كنا نعمل من سوء بأنا ما كنا عاملين ذلك فى اعتقادنا روما للمحافظة على أن لا كذب ثمة يرده الرد المذكور وما فى سورة الانعام من قوله تعالى «انظر كيف كذبوا على أنفسهم» (وقيل للذين اتقوا) أى المؤمنين وصفوا بالتقوى اشعارا بأن ما صدر عنهم من الجواب ناشىء عن التقوى (ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا) سلكوا فى الجواب مسلك السؤال من غير تعلثم ولا تغيير فى الصورة والمعنى أى أنزل خيرا فانه جواب مطابق للسؤال سبكا وللواقع فى نفس الامر مضمونا وأما الكفرة فانهم خذلهم الله تعالى كما غيروا الجواب عن نهج الحق الواقع الذى ليس له من دافع غيروا صورته وعدلوا بها عن سنن السؤال حيث رفعوا الأساطير روما لما مر من انكار النزول. روى عن أن أحياء العرب كانوا يبعثوا أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبى عليه السلام فاذا جاء الوافد كفه المقتسمون وأمروه بالانصراف وقالوا ان لم تلقه كان خيرا لك فيقول انا شر وافد ان رجعت الى قومى دون أن أستطلع أمر محمد وأراه فيلقى أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم فيخبرونه بحقيقة الحال فهم الذين قالوا خيرا (للذين أحسنوا) أى أعمالهم أو فعلوا الاحسان (فى هذه) الدار (الدنيا حسنة) أى مثوبة حسنة مكافأة فيها (ولدار الآخرة) أى مثوبتهم فيها (خير) مما أوتوا فى الدنيا من المثوبة أو خير على الاطلاق فيجوز اسناد الخيرية الى نفس دار الآخرة (ولنعم دار المتقين) أى دار الآخرة حذف لدلالة ما سبق عليه. وهذا كلام مبتدأ مدح الله تعالى به المتقين وعد جوابهم المحكى من جملة احسانهم ووعدهم بذلك ثوابى الدنيا والآخرة فلا محل له من الاعراب أو بدل من خيرا أو تفسير له ى أنزل خيرا هو هذا الكلام الجامع قالوه ترغيبا للسائل (جنات عدن) خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ

خبره محذوف أى لهم جنات. ويجوز أن يكون هو المخصوص بالمدح (يدخلونها) صفة لجنات على تقدير تنكير عدن وكذلك (تجرى من تحتها الانهار) اوكلاهما حال على تقدير علميته (لهم فيها) فى تلك الجنات (مايشاؤن) الظرف الاول خبر لما والثانى حال منه والعامل مافى الاول أو متعلق بـه أى حاصل لهم فيهـا ما يشاءون من أنواع المشتهيات. وتقديمه للاحتراز عن توهم تعلقه بالمشيئة أو لما مر اراه ان تأخير ماحقه التقديم يوجب ترقب النفس اليه فيتمكن عند وروده عليها فضل تمكن (كـذلك) مثل ذلك الجزاء الاوفى (يجزى الله المتقين) اللام للجنس أى كل من يتقى من الشرك والمعاصى ويدخل فيه المتقون المذكورون دخولا أوليا ويكون فيه بعث لغيرهم على التقوى أو للعهد فيكون فيه تحسير للكفرة (الذين تتوفاهم الملائكة) نعت للمتقين وقوله تعالى (طيبين) أى طاهرين عن دنس الظلم لانفسهم حال من الضمير وفائدته الايذان بأن ملاك الامر فى التقوى هو الطهارة عما ذكر الى وقت توفيهم ففيه حث للمؤمنين على الاستمرار على ذلك ولغيرهم على تحصيله وقيل فرحين طيبى النفوس ببشارة الملائكة اياهم بالجنة أو طيبين بقبض أرواحهم لتوجه نفوسهم بالكلية الى جناب القدس (يقولون) حال من الملائكة أى قائلين لهم (سلام عليكم) قال القرظى رحمه الله : اذا استدعيت نفس المؤمن جاءه ملك الموت عليه السلام فقال السلام عليك ياولى الله الله تعالى يقرأ عليك السلام وبشره بالجنة . (ادخلوا الجنة) اللام للعهد أى جنات عدن الخ ولذلك جردت عن النعت والمراد دخولهم لها فى وقته فان ذلك بشارة عظيمة وان تراخى المبشر به لا دخول القبر الذى هو روضة من رياضها اذ ليس فى البشارة به ما فى البشارة بدخول نفس الجنة (بمـا كنتم تعملون) بسبب ثباتكم على التقوى والطاعة أو بالذى كنتم تعملونه من ذلك وقيل المراد بالتوفى التوفى للحشر لان الامر بالدخول حينئذ يتحقق (هل ينظرون) أى ما ينتظر كفار مكة المار ذكرهم (الا أن تأتيهم الملائكة) لقبض أرواحهم بالعذاب جعلوا منتظرين لذلك وشتان بينهم وبين انتظاره لالانه يلحقهم ألبتة لحوق الامر المنتظر بل لمباشرتهم لاسبابه الموجبة له المؤدية اليه فكأنهم يقصدون اتيانه ويترصدون لوروده وقرىء بتذكير الفعل (أو يأتى أمر ربك) التعرض لوصف الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام اشعار بأن اتيانه لطف به عليه الصلاة والسلام وان كان عذابا عليهم والمراد بالامر العذاب الدنيوى لا القيامة لكن لا لان انتظارها يجامع انتظار اتيان الملائكة فلا يلائمه العطف بأو لانها ليست نصا فى العناد اذ يجوز أن يعتبر منع الخلو ويراد بايرادها كفاية كل واحد من الامرين فى عذابهم بل لان قوله تعالى

فيما سيأتى « ولكن كانوا أنفسهم يظلمون فأصابهم » الآية صريح فى ان المراد به ما أصابهم من العذاب الدنيوى (كذلك) اى مثل فعل هؤلاء من الشرك والظلم والتكذيب والاستهزاء (فعل الذين) خلوا (من قبلهم) من الامم (وما ظلمهم الله) بما سيتلى من عذابهم (ولكن كانوا) بما كانوا مستمرين عليه من القبائح الموجبة لذلك (أنفسهم يظلمون) كان الظاهر ان يقال ولكن كانوا هم الظالمين كما فى سورة الزخرف لكنه أوثر ما عليه النظم الكريم لافادة ان غائلة ظلمهم آيلة اليهم وعاقبته مقصورة عليهم مع استلزام اقتصار ظلم كل أحد من نفسه من حيث الوقوع اقتصاره عليه من حيث الصدور وقد مر تحقيقه فى سورة يونس (فأصابهم) عطف على قوله تعالى فعل الذين من قبلهم وما بينهما اعتراض لبيان ان فعلهم ذلك ظلم لانفسهم (سيئات ما عملوا) اى أجزية اعمالهم السيئة على طريقة تسمية المسبب باسم سببه ايذانا بفظاعته لا على حذف المضاف فانه يوهم ان لهم اعمالا غير سيئاتهم (وحاق بهم) أى أحاط بهم من الحيق الذى هو احاطة الشر وهو أبلغ من الاصابة وأفظع (ما كانوا به يستهزؤن) من العذاب (وقال الذين أشركوا) أى أهل مكة وهو بيان لفن آخر من كفرهم . والعدول عن الاضمار الى الموصول لتقريعهم بما فى حيز الصلة وذمهم بذلك من أول الامر (لو شاء الله ماعبدنا من دونه من شىء) أى لو شاء عدم عبادتنا لشىء غيره كما تقول لما عبدنا ذلك (نحن ولا آباؤنا) الذين نقتدى بهم فى ديننا (ولا حرمنا من دونه من شىء) من السوائب والبحائر وغيرها وانما قالوا ذلك تكذيبا للرسول عليه الصلاة والسلام وطعنا فى الرسالة رأسا متمسكين بأن ماشاء الله تعالى يجب ومالم يشأ يمتنع فلو أنه شاء أن نوحده ولا نشرك به شيئا ولا نحرم مما حرمنا شيئا كما يقوله الرسل وينقلونه من جهة الله عز وجل لكان الامر كما شاء من التوحيد ونفى الاشراك وما يتبعهما وحيث لم يكن كذلك ثبت انه لم يشأ شيئا من ذلك وانما يقوله الرسل من تلقاء أنفسهم فاجيب عنه بقوله عز وجل (كذلك) أى مثل ذلك الفعل الشنيع (فعل الذين من قبلهم) من الامم أى أشركوا بالله وحرموا حله وردوا رسله وجادلوهم بالباطل حين نبهوهم على الخطأ وهدوهم الى الحق (فهل على الرسل) الذين يبلغون رسالات الله وعزائم أمره ونهيه (الا البلاغ المبين) أى ليست وظيفتهم الا تبليغ الرسالة تبليغا واضحا أو موضحا وابانة طريق الحق واظهار احكام الوحى الذى من جملتها تحتم تعلق مشيئة الله تعالى باهتداء من صرف قدرته واختياره الى تحصيل الحق لقوله تعالى «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا» وأما الجاؤهم الى ذلك وتنفيذ قولهم عليهم

شاءوا أو أبوا كما هو مقتضى استدلالهم فليس ذلك من وظيفتهم ولا من الحكمة التى عليها يدور أمر التكليف فى شئ حتى يستدل بعدم ظهور آثاره على عدم حقيقة الرسل أو على عدم تعلق مشيئته تعالى بذلك فان ما يترتب عليه الثواب والعقاب من أفعال العباد لابد فى تعلق مشيئته تعالى بوقوعه من مباشرتهم الاختيارية له وصرف اختيارهم الجزئى الى تحصيله والا لكان الثواب والعقاب اضطراريين فالفاء للتعليل كأنه قيل كذلك فعل أسلافهم وذلك باطل فان الرسل ليس شأنهم الا تبليغ أوامر الله تعالى ونواهيه لاتحقيق مضمونهما واجراء موجبهما على الناس قسرا و إلجاء . وايراد كلمة على للايذان بانهم فى ذلك مأمورون أو بان مايبلغونه حق للناس عليهم ايفاؤه وبهذا ظهر أن حمل قولهم لو شاء الله الخ على الاستهزاء لايلائم الجواب والله تعالى أعلم بالصواب (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا) تحقيق لكيفية تعلق مشيئته تعالى بافعال العباد بعد بيان ان الالجاء ليس من وظائف الرسالة ولا من باب المشيئة المتعلقة بما يدور عليه الثواب والعقاب من الافعال الاختيارية لهم أى بعثنا فى كل أمة من الامم الخالية رسولا خاصا بهم (أن اعبدوا الله) يجوز أن تكون أن مفسرة لما فى البعث من معنى القول وأن تكون مصدرية أى بعثنا بأن اعبدوا الله وحده (واجتنبوا الطاغوت) هو الشيطان وكل مايدعو الى الضلالة (فنهم) أى من تلك الامم والفاء فصيحة أى فبلغوا ما بعثوا به من الامر بعبادة الله وحده واجتناب الطاغوت فتفرقوا فنهم (من هدى الله) الى الحق الذى هو عبادته واجتناب الطاغوت بعد صرف قدرتهم واختيارهم الجزئى الى تحصيله (ومنهم من حقت عليه الضلالة) أى وجبت وثبتت الى حين الموت لعناده واصراره عليها وعدم صرف قدرته الى تحصيل الحق. وتغيير الاسلوب للاشعار بان ذلك لسوء اختيارهم كقوله تعالى «واذا مرضت فهو يشفين» فلم يكن كل من مشيئة الهداية وعدمها الا حسبما حصل منهم من التوجه الى الحق وعدمه الا بطريق القسر والالجاء حتى يستدل بعدمهما على عدم تعلق مشيئته تعالى بعبادتهم له تعالى وحده (فسيروا) يا معشر قريش (فى الأرض فانظروا) فى اكنافها (كيف كان عاقبة المكذبين) من عاد وثمود ومن سار سيرتهم ممن حقت عليه الضلالة لعلكم تعتبرون حين تشاهدون فى منازلهم وديارهم آثار الهلاك والعذاب. وترتيب الامر بالسير على مجرد الاخبار بثبوت الضلالة عليهم من غير اخبار بحلول العذاب للايذان بانه غنى عن البيان وان ليس الخبر كالعيان وترتيب النظر على السير لما انه بعده وأن ملاك الامر فى تلك العاقبة هو التكذيب والتعلل بانه لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء (إن تحرص)

خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقرىء بفتح الراء وهى لغية (على هداهم) أى ان تطلب هدايتهم بجهدك (فان الله لا يهدى من يضل) أى فاعلم أنه تعالى لا يخلق الهداية جبرا و قسرا فيمن يخلق فيه الضلالة بسوء اختياره والمراد به قريش وانما وضع الموصول موضع الضمير للتنصيص على انهم ممن حقت عليه الضلالة وللاشعار بعلة الحكم ويجوز أن يكون المذكور علة للجزاء المحذوف أى ان تحرص على هداهم فلست بقادر على ذلك لان الله لا يهدى من يضله وهؤلاء من جملتهم . وقرىء لا يهدى على بناء المفعول أى لا يقدر أحد على هداية من يضله الله تعالى . وقرىء لا يهدى بفتح الهاء وادغام تاء يهتدى فى الدال. ويجوز ان يكون يهدى بمعنى يهتدى وقرىء يضل بفتح الياء وقرىء لاهادى لمن يضل ولمن أضل (وما لهم من ناصرين) ينصرونهم فى الهداية أو يدفعون العذاب عنهم وصيغة الجمع فى الناصرين باعتبار الجمعية فى الضمير فان مقابلة الجمع بالجمع تقتضى انقسام الآحاد الى الآحاد لا لأن المراد نفى طائفة من الناصرين من كل منهم (وأقسموا بالله) شروع فى بيان فن آخر من أباطيلهم وهو أنكارهم البعث (جهد أيمانهم) مصدر فى موقع الحال أى جاهدين فى أيمانهم (لا يبعث الله من يموت) ولقد رد الله تعالى عليهم أبلغ رد بقوله الحق (بلى) أى بلى يبعثهم (وعدا) مصدر مؤكد لما دل عليه بلى فان ذلك موعد من الله سبحانه أو لمحذوف أى وعد بذلك وعدا (عليه) صفة لو عدا أى وعدا ثابتا عليه أنجازه لامتناع الخلف فى وعده أو لان البعث من مقتضيات الحكمة (حقا) صفة أخرى له أو نصب على المصدرية أى حق حقا (ولكن أكثر الناس) لجهلهم بشؤن الله عز شأنه من العلم والقدرة والحكمة وغيرها من صفات الكمال وبما يجوز عليه وما لا يجوز وعدم وقوفهم على سر التكوين والغاية القصوى منه وعلى أن البعث مما تقتضيه الحكمة التى جرت عادته سبحانه بمراعاتها (لايعلمون) أنه يبعثهم فيبتون القول بعدمه أو أنه وعد عليه حق فيكذبونه قائلين « لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين » (ليبين لهم) غاية لما دل عليه بلى من البعث والضمير لمن يموت اذالتبيين يعم المؤمنين أيضا فانهم وإن كانوا عالمين بذلك لكنه عند معاينة حقيقة الحال يتضح الأمر فيصل علمهم الى مرتبة عين اليقين أى يبعثهم ليبين لهم بذلك وبما يحصل لهم من مشاهدة الأحوال كما هى ومعاينتها بصورها الحقيقية الشأن (الذى يختلفون فيه) من الحق المنتظم لجميع ماخالفوه مما جاء به الشرع المبين ويدخل فيه البعث دخولا أوليا (وليعلم الذين كفروا) بالله سبحانه بالاشراك وانكار البعث

وتكذيب وعده الحق (انهم كانوا كاذبين) فى كل مايقولون لاسيما فى قولهم لايبعث الله من يموت. والتعبير عن الحق بالموصول للدلالة على فخامته وللاشعار بعلية ماذكر فى حيز الصلة للتبيين وما عطف عليه وجعلهما غاية للبعث المشار اليه باعتبار وروده فى معرض الرد على المخالفين وابطال مقالة المعاندين المستدعى للتعرض لما يردعهم عن المخالفة ويلجئهم إلى الأذعان للحق فان الكفرة اذا علموا أن تحقيق البعث اذا كان لتبيين أنه حق وليعلموا أنهم كاذبون فى انكاره كان ذلك أزجر لهم عن انكاره وأدعى الى الاعتراف به ضرورة أنه يدل على صدق العزيمة على تحقيقه كما تقول لمن ينكر أنك تصلى لأصلين رغما لأنفك واظهارا لكذبك. ولأن تكرر الغايات أدل على وقوع الفعل المغيا بها والا فالغاية الأصلية للبعث باعتبار ذاته انما هو الجزاء الذى هو الغاية القصوى للخلق المغيا بمعرفته عز وجل وعبادته وانما لم يذكر ذلك لتكرر ذكره فى مواضع أخر وشهرته. وانما لم يدرج علم الكفار بكذبهم تحت التبيين بأن يقال وان الذين كفروا كانوا كاذبين بل جيء بصيغة العلم لأن ذلك ليس مما تعلق به التبيين الذى هو عبارة عن اظهار ما كان مبهما قبل ذلك بأن يخبر به فيختلف فيه كالبعث الذى نطق به القرآن فاختلف فيه المختلفون. وأما كذب الكافرين فليس من هذا القبيل فـما يتعلق به علم ضرورى حاصل له من قبل أنفسهم وقد مر تحقيقه فى سورة التوبة عند قوله تعالى «حتى يتبين لك الذين صدقوا» وانما خص الاسناد بهم حيث لم يقل وليعلموا أن الكافرين الآية لأن علم المؤمنين بذلك حاصل قبل ذلك أيضا (إنما قولنا) استئناف لبيان كيفية التكوين على الاطلاق ابداء واعادة بعد التنبيه على آنية البعث ومنه يظهر كيفيته فما كافة وقولنا مبتدأ وقوله (لشيء) أى أى شيء كان مما عز وهان. متعلق به على أن اللام للتبليغ كهى فى قولك قلت له قم فقام. وجعلها الزجاج سببية أى لأجل شيء وليس بواضح. والتعبير عنه بذلك باعتبار وجوده عند تعلق مشيئته تعالى به لا أنه كان شيئا قبل ذلك (إذا أردنا) ظرف لقولنا أى وقت إرادتنا لوجوده (أن نقول له كن) خبر للمبتدأ (فيكون) إما عطف على مقدر تفصح عنه الفاء وينسحب عليه الكلام أى فنقول ذلك فيكون كقوله تعالى «اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون» وإما جواب لشرط محذوف أى فاذا قلنا ذلك فهو يكون وليس هناك قول ولا مقول له ولا أمر ولا مأمور حتى يقال إنه يلزم منه أحد المحالين اما خطاب المعدوم أو تحصيل الحاصل أو يقال انما يستدعيه انحصار قوله تعالى «كن» وليس يلزم منه انحصار أسباب التكوين فيه كما يفيده قوله تعالى «انما أمره اذا أراد شيأ أن

يقول له كن فيكون » فان المراد بالامر هو الشأن الشامل للقول والفعل ومن ضرورة انحصاره فى كلمة كن انحصار أسبابه على الاطلاق فيه بل انما هو تمثيل لسهولة تأتى المقدورات حسب تعلق مشيئته تعالى بها وتصوير لسرعة حدوثها بما هو علم فى ذلك من طاعة المأمور المطيع لامر الآمر المطاع فالمعنى انما ايجادنا لشىء عند تعلق مشيئتنا به أن نوجده فى أسرع ما يكون ولما عبر عنه بالامر الذى هو قول مخصوص وجب أن يعبر عن مطلق الايجاد بالقول المطلق فتأمل . وفى الآية الكريمة من الفخامة والجزالة ما تحار فيه العقول والالباب وقرىء بنصب يكون عطفا على نقول أو تشبيها له بجواب الامر (والذين هاجروا فى الله) أى فى شأن الله تعالى ورضاه وفى حقه ولوجهه (من بعد ما ظلموا) ولعلهم الذين ظلمهم أهل مكة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخرجوهم من ديارهم فهاجروا الى الحبشة ثم بوأهم الله تعالى المدينة حسبما وعد بقوله سبحانه (لنبوئنهم فى الدنيا حسنة) أى مباءة حسنة أو تبوئة حسنة كما قال قتادة وهو الأنسب لما هو المشهور من كون السورة غير ثلاث آيات من آخرها مكية وأما ما نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما من أنها نزلت فى صهيب وبلال وعمار وخباب وعابس وجبير وأبى جندل بن سهيل أخذهم المشركون فجعلوا يعذبونهم ليردوهم عن الاسلام فأما صهيب فقال لهم أنا رجل كبير ان كنت معكم لم أنفعكم وان كنت عليكم لم أضركم فافتدى منهم بماله وهاجر فلما رآه أبو بكر رضى الله عنه قال ربح البيع يا صهيب وقال عمر رضى الله عنه نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه فانما يناسب ما حكى عن الاصم من كون كل السورة مدنية وما نقل عن قتادة من كون هذه الآية الى آخر السورة مدنية فيحمل ما نقلناه عنه من نزول الآية فى أصحاب الهجرتين على أن يكون نزولها بالمدينة بين الهجرتين . وأما جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم من جملتهم فلا يساعده نظم التنزيل ولا شأنه الجليل . وقرىء لنثوينهم ومعناه اثواءة حسنة أو لننزلنهم فى الدنيا منزلة حسنة وهى الغلبة على من ظلمهم من أهل مكة وعلى العرب قاطبة وأهل الشرق والغرب كافة (ولأجر الآخرة) أى أجر أعمالهم المذكورة فى الآخرة (أكبر) مما يعجل لهم فى الدنيا وعن عمر رضى الله عنه أنه كان اذا أعطى رجلا من المهاجرين عطاء قال له خذ بارك الله تعالى لك فيه هذا ما وعدك الله تعالى فى الدنيا وما ادخر فى الآخرة أفضل (لو كانوا يعلمون) الضمير للكفار أى لو علموا أن الله تعالى يجمع لهؤلاء المهاجرين خير الدارين لوافقوهم فى الدين . وقيل للمهاجرين أى لو علموا ذلك لزادوا فى الاجتهاد أو لما تألموا لما أصابهم

من المهاجرة وشدائدها (الذين صبروا) على الشدائد من أذية الكفار و مفارقة الاهل والوطن وغير ذلك ومحله النصب أو الرفع على المدح (وعلى ربهم) خاصة (يتوكلون) منقطعين اليه تعالى معرضين عما سواه مفوضين اليه الامر كله و الجملة اما معطوفة على الصلة . وتقديم الجار و المجرور للدلالة على قصر التوكل على الله تعالى و صيغة الاستقبال للدلالة على دوام التوكل او حال من ضمير صبروا (وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم) وقرىء بالياء مبنياً للمفعول وهو رد لقريش حين قالوا الله أجل من ان يكون له رسول من البشر كما هو مبنى قولهم لو شاء الله ماعبدنا الخ أى جرت السنة الالهية حسبما اقتضته الحكمة بأن لا يبعث للدعوة العامة الا بشراً يوحى اليهم بواسطة الملك أوامره و نواهيه ليبلغوها الناس ولما كان المقصود من الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم تنبيه الكفار على مضمونه صرف الخطاب اليهم فقيل (فاسئلوا أهل الذكر) أى أهل الكتاب أو علماء الاخبار أو كل من يذكر بعلم وتحقيق ليعلموكم ذلك (إن كنتم لا تعلمون) حذف جوابه لدلالة ما قبله عليه. وفيه دلالة على أنه لم يرسل للدعوة العامة ملكا وقوله تعالى «جاعل الملائكة رسلا» معناه رسلا الى الملائكة أو إلى الرسل ولا امرأة ولا صبياً ولا ينافيه نبوة عيسى عليه الصلاة و السلام وهو فى المهد لانها أعم من الرسالة واشارة الى وجوب المراجعة الى العلماء فيما لا يعلم (بالبينات والزبر) بالمعجزات والكتب . والباء متعلقة بمقدر وقع جوابا عن سؤال من قال بم ارسلوا فقيل ارسلوا بالبينات والزبر أو بما أرسلنا داخلا تحت الاستثناء مع رجالا عند من يجوزه أى ما أرسلنا الا رجالا بالبينات كقولك ما ضربت الا زيداً بالسوط أو على نية التقديم قبل أداة الاستثناء أى ما أرسلنا من قبلك بالبينات والزبر الا رجالا عند من يجوز تأخر صلة ما قبل الا الى ما بعده أو بما وقع صفة للمستثنى أى الا رجالا ملتبسين بالبينات أو بنوحى على المفعولية أو الحالية من القائم مقام فاعل يوحى وهو اليهم على ان قوله تعالى «فاسألوا» اعتراض أو بقوله لا تعلمون على ان الشرط للتبكيت كقول الاجير ان كنت عملت لك فاعطنى حقى (و أنزلنا اليك الذكر) أى القرآن وانما سمى به لانه تذكير و تنبيه للغافلين (لتبين للناس) كافة ويدخل فيهم أهل مكة دخولا أولياً (مانزل اليهم) فى ذلك الذكر من الاحكام و الشرائع وغير ذلك من أحوال القرون المهلكة بأفانين العذاب حسب أعمالهم الموجبة لذلك على وجه التفصيل بيانا شافيا كما ينبىء عنه صيغة التفعيل فى الفعلين لا سيما بعد ورود الثانى أولا على صيغة الافعال ولما ان التبيين أعم

من التصريح بالمقصود ومن الارشاد الى ما يدل عليه دخل تحته القياس على الاطلاق سواء كان فى الاحكام الشرعية أو غيرها ولعل قوله عز وجل (ولعلهم يتفكرون) اشارة الى ذلك أى ارادة ان يتأملوا فيتنبهوا للحقائق وما فيه من العبر ويحترزوا عما يؤدى الى مثل ما أصاب الاولين من العذاب (أفأمن الذين مكروا السيآت) هم أهل مكة الذين مكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم وراموا صد أصحابه عن الايمان عليهم الرضوان لا الذين احتالوا لهلاك الانبياء كما قيل ولا من يعم الفريقين لما أن المراد تحذير هؤلاء عن أصابة مثل ما أصاب أولئك من فنون العذاب المعدودة والسيآت نعت لمصدر محذوف أى مكروا المكرات السيآت التى قصت عنهم أو مفعول به للفعل المذكور على تضمينه معنى العمل أى عملوا السيآت فقوله تعالى (أن يخسف الله بهم الأرض) مفعول لأمن أو السيآت صفة لما هو المفعول أى أفأمن الماكرون العقوبات السيئة وقوله أن يخسف الخ بدل من ذلك وعلى كل حال فالفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه النظم الكريم أى أنزلنا اليك الذكر لتبين لهم مضمونه الذى من جملته انباء الأمم المهلكة بفنون العذاب ويتفكروا فى ذلك ألم يتفكروا فأمن الذين مكروا السيآت أن يخسف الله بهم الارض كما فعل بقارون على توجيه الانكار الى المعطوفين معا أو أتفكروا فأمنوا على توجيهه الى المعطوف على ان الأمن بعد التفكر مما لا يكاد يفعله أحد. وقيل هو عطف على مقدر تنبىء عنه الصلة أى أمكر فأمن الذين مكروا الخ (أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون) باتيانه أى فى حالة غفلتهم او من مأمنهم أو من حيث يرجون اتيان ما يشتهون كما حكى فيما سلف مما نزل بالماكرين (أو يأخذهم فى تقلبهم) اى فى حالة تقلبهم فى مسايرهم ومتاجرهم (فما هم بمعجزين) بممتنعين أو فائتين بالهرب والفرار على ما يوهمه حال التقلب والسير . والفاء أما لتعليل الاخذ او لترتيب عدم الاعجاز عليه دلالة على شدته وفظاعته حسبما قال عليه السلام «إن الله ليملى للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته » وايراد الجملة الاسمية للدلالة على دوام النفى لا لنفى الدوام (أو يأخذهم على تخوف) أى مخافة وحذر عن الهلاك والعذاب بأن يهلك قوما قبلهم فيتخوفوا فيأخذهم العذاب وهم متخوفون وحيث كانت حالتا التقلب والتخوف مظنة للهرب عبر عن اصابة العذاب فيهما بالاخذ وعن اصابته حالة الغفلة المنبئة عن السكون بالاتيان وقيل التخوف التنقص قال قائلهم :

تخوف الرحل منها تامكا قردا .. كما تخوف عود النبعة السفن

أى يأخذهم على ان ينقصهم شيئا بعد شىء فى أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا والمراد

بذكر الاحوال الثلاث بيان قدرة الله سبحانه على إهلاكهم بأى وجه كان لا الحصر فيها (فان ربكم لرؤف رحيم) حيث لا يعاجلكم بالعقوبة و يحلم عنكم مع استحقاقكم لها (أولم يروا) استفهام انكارى . وقرىء على صيغة الخطاب والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى ألم ينظروا ولم يروا متوجهين (الى ماخلق الله من شيء) أى من كل شيء (يتفيأ ظلاله) أى يرجع شيئا فشيئا حسبما تقتضيه ارادة الخالق تعالى فان التفيؤ مطاوع الافاءة وقرىء بتأنيث الفعل (عن اليمين والشمائل) أى ألم يروا الاشياء التى لها ظلال متفيئة عن ايمانها وشمائلها أى عن جانبى كل واحد منها استعير لهما ذلك من يمين الانسان وشماله (سجدا لله) حال من الظلال كقوله تعالى « وظلالهم بالغدو والآصال » والمراد بسجودها تصرفها على مشيئة الله سبحانه وتأتيها لارادته تعالى فى الامتداد والتقلص وغيرهما غير ممتنعة عليه فيما سخرها له وقوله تعالى (وهم داخرون) أى صاغرون منقادون حال من الضمير فى ظلاله والجمع باعتبار المعنى . وايراد الصيغة الخاصة بالعقلاء لما أن الدخور من خصائصهم والمعنى ترجع الظلال من جانب الى جانب بارتفاع الشمس وانحدارها أو باختلاف مشارقها ومغاربها فانها كل يوم من أيام السنة تتحرك على مدار معين من المدارات اليومية بتقدير العزيز العليم منقادة لما قدر لها من التفيؤ أو واقعة على الأرض ملتصقة بها على هيئة الساجد والحال أن أصحابها من الاجرام داخرة منقادة لحكمه تعالى و وصفها بالدخور مغن عن وصف ظلالها به أو كلاهما حال من الضمير المشار اليه والمعنى ترجع ظلال تلك الاجرام حال كونها منقادة لله تعالى داخرة فوصفها بهما مغن عن وصف ظلالها بهما ولعل المراد بالموصول الجمادات من الجبال والاشجار والاحجار التى لا يظهر لظلالها أثر سوى التفيؤ بما ذكر من ارتفاع الشمس وانحدارها أو اختلاف مشارقها ومغاربها . وأما الحيوان فظله يتحرك بتحركه . وقيل المراد باليمين والشمائل يمين الفلك وهو جانبه الشرقى لأن الكواكب منه تظهر آخذة فى الارتفاع والسطوع وشماله وهو جانبه الغربى المقابل له فان الظلال فى أول النهار تبتدىء من الشرق واقعة على الربع الغربى من الارض وعند الزوال تبتدىء من الغرب واقعة على الربع الشرقى منها وبعد ما بين سجود الظلال وأصحابها من الاجرام السفلية الثابتة فى أحيازها ودخورها له سبحانه وتعالى شرع فى بيان سجود المخلوقات المتحركة بالارادة سواء كانت لها ظلال أو لا فقيل (ولله يسجد) أى له تعالى وحده يخضع و ينقاد لا لشيء غيره استقلالا أو اشتراكا فالقصر ينتظم القلب والافراد إلا أن الأنسب بحال المخاطبين قصر الافراد كما يؤذن به قوله تعالى وقال الله لا تتخذوا إلهين

اثنين » (ما فى السموات) قاطبة (وما فى الارض) كائنا ما كان (من دابة) بيان لما فى الارض . وتقديمه لقلته ولئلا يقع بين المبين والمبين فصل . والافراد مع أن المراد الجمع لافادة وضوح شمول السجود لكل فرد من الدواب قال الاخفش هو كقولك ما أتانى من رجل مثله وما أتانى من الرجال مثله (و الملائكة)عطف على ما فى السموات عطف جبريل على الملائكة تعظيما و اجلالا أو على أن يراد بما فى السموات الخلق الذى يقال له الروح أو يراد به ملائكة السموات وبقوله و الملائكة ملائكة الأرض من الحفظة و غيرهم (وهم) أى الملائكة مع علو شأنهم (لا يستكبرون) عن عبادته عز وجل و السجود له. وتقديم الضمير ليس للقصر والجملة إما حال من ضمير الفاعل فى يسجد مسنداً الى الملائكة أو استئناف أخبر عنهم بذلك(يخافون ربهم) أى مالك أمرهم وفيه تربية للمهابة واشعار بعلة الحكم (من فوقهم) أى يخافونه جل وعلا خوف هيبة واجلال وهو فوقهم بالقهر كقوله تعالى «وهو القاهر فوق عباده» او يخافون ان يرسل عليهم عذاباً من فوقهم والجملة حال من الضمير فى لا يستكبرون أو بيان له وتقرير لأن من يخاف الله سبحانه لا يستكبر عن عبادته (ويفعلون ما يؤمرون) أى ما يؤمرون به من الطاعات والتدبيرات . وايراد الفعل مبنيا للمفعول جرى على سنن الجلالة وايذان بعدم الحاجة الى التصريح بالفاعل لاستحالة استناده الى غيره سبحانه وفيه ان الملائكة مكلفون مدارون بين الخوف والرجاء و بعدما بين أن جميع الموجودات يخصون الخضوع والانقياد الطبيعى وما يجرى مجراه من عبادة الملائكة حيث لا يتصور منهم عدم الانقياد أصلا لله عز وجل أردف ذلك بحكاية نهيه سبحانه وتعالى للمكلفين عن الاشراك فقيل (وقال الله) عطفا على قوله «ولله يسجد» واظهار الفاعل وتخصيص لفظة الجلالة بالذكر للايذان بأنه متعين الالوهية و أنما المنهى عنه هو الاشراك به لا أن المنهى عنه مطلق اتخاذ إلهين بحيث يتحقق الانتهاء عنه برفض أيهما كان أى قال تعالى لجميع المكلفين (لا تتخذوا إلهين اثنين) وانما ذكر العدد مع أن صيغة التثنية مغنية عن ذلك دلالة على ان مساق النهى هى الاثنينية وانها منافية للالوهية كما ان وصف الإله بالوحدة فى قوله تعالى (انما هو إله واحد) للدلالة على أن المقصود إثبات الوحدانية وأنها من لوازم الالهية وأما الالهية فأمر مسلم الثبوت له سبحانه واليه أشير حيث أسند اليه القول. وفيه التفات من التكلم الى الغيبة على رأى من اكتفى فى تحقق الالتفات بكون الاسلوب الملتفت عنه حق الكلام ولم يشترط سبق الذكر على ذلك الوجه (فاياى فارهبون) التفات من الغيبة الى التكلم لتربية المهابة والقاء الرهبة فى القلوب

ولذلك قدم المفعول وكرر الفعل أى ان كنتم راهبين شيئا فاياى ارهبوا فارهبون لا غير فانى ذلك الواحد الذى يسجد له مافى السموات والارض (وله مافى السموات والارض) خلقا وملكا تقرير لعلة انقياد ما فيها له سبحانه خاصة وتحقيق لتخصيص الرهبة به تعالى وتقديم الظرف لتقوية ما فى اللام من معنى الاختصاص وكذا فى قوله تعالى (وله الدين) أى الطاعة والانقياد (واصبا) أى واجبا ثابتا لازوال له لما تقرر أنه الاله وحده الحقيق بان يرهب وقيل واصبا من الوصب أى وله الدين ذا كلفة وقيل الدين الجزاء أى وله الجزاء الدائم بحيث لا ينقطع ثوابه لمن آمن وعقابه لمن كفر (أفغير الله تتقون) الهمزة للانكار والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه السياق أى أعقيب تقرر الشئون المذكورة من تخصيص جميع الموجودات للسجود به تعالى وكون ذلك كله له ونهيه عن اتخاذ الانداد وكون الدين له واصبا المستدعى ذلك لتخصيص التقوى به سبحانه غير الله الذى شأنه ما ذكر تتقون فتطيعون (وما بكم) أى أى شىء يلابسكم ويصاحبكم (من نعمة) أية نعمة كانت (فمن الله) فهى من الله فما شرطية أو موصولة متضمنة لمعنى الشرط باعتبار الاخبار دون الحصول فان ملابسة النعمة بهم سبب للاخبار بأنها منه تعالى لا لكونها منه تعالى (ثم إذا مسكم الضر) مساسا يسيرا (فاليه تجأرون) تتضرعون فى كشفه لا الى غيره والجؤار رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة قال الاعشى :

يراوح من صلوات المليك ۞ طورا سجودا وطورا جؤارا

وقرىء تجرون بطرح الهمزة والقاء حركتها الى ما قبلها وفى ذكر المساس المنبىء عن أدنى اصابة وإيراده بالجملة الفعلية المعربة عن الحدوث مع ثم الدالة على وقوعه بعد برهة من الدهر وتحلية الضر بلام الجنس المفيدة لمساس أدنى ما ينطلق عليه اسم الجنس مع إيراد النعمة بالجملة الاسمية الدالة على الدوام والتعبير عن ملابستها للمخاطبين بباء المصاحبة وإيراد ما المعربة عن العموم مالا يخفى من الجزالة والفخامة . ولعل إيراد اذا دون أن للتوسل به الى تحقيق وقوع الجواب (ثم إذا كشف الضر عنكم) وقرىء كاشف الضر وكلمة ثم ليست للدلالة على تمادى زمان مساس الضر ووقوع الكشف بعد برهة مديدة بل للدلالة على تراخى رتبة ما يترتب عليه من مفاجأة الاشراك والمدلول عليها بقوله سبحانه (إذا فريق منكم بربهم يشركون)فان ترتبها على ذلك فى أبعد غاية من الضلال ثم ان وجه الخطاب الى الناس جميعا فمن للتبعيض والفريق فريق الكفرة وان وجه الى الكفرة فمن للبيان كأنه قيل إذا فريق كافر وهم أنتم ويجوز أن يكون فيهم من اعتبروا

و از دجر كقوله تعالى «فلما نجاهم الى البر فنهم مقتصد» فمن تبعيضية أيضا . والتعرض لو صف الربوبية للايذان بكمال قبح ما ارتكبوه من الاشراك و الكفران (ليكفروا بما آتيناهم) من نعمة الكشف عنهم كأنهم جعلوا غرضهم فى الشرك كفران النعمة وانكار كونها من الله عز وجل (فتمتعوا) أمر تهديد . والالتفات الى الخطاب للايذان بتناهى السخط . وقرىء بالياء مبنيا للمفعول عطفا على ليكفروا على أن يكون كفران النعمة و التمتع غرضا لهم من الاشراك . ويجوز أن تكون اللام لام الأمر الوارد للتهديد (فسوف تعلمون) عاقبة أمركم و ما ينزل بكم من العذاب. وفيه وعيد أكيد منبىء عن أخذ شديد حيث لم يذكر المفعول اشعارا بأنه مما لا يوصف (ويجعلون) لعله عطف على ما سبق بحسب المعنى تعدادا لجناياتهم أى يفعلون ما يفعلون من الجؤار إلى الله تعالى عند مساس الضر ومن الاشراك به عند كشفه و يجعلون (لما لا يعلمون) ى لما لا يعلمون حقيقته وقدره الخسيس من الجمادات التى يتخذونها شركاء لله سبحانه جهالة وسفاهة و يزعمون أنها تنفعهم وتشفع لهم على أن ما موصولة والعائد اليها محذوف أو لما لا علم له أصلا و ليس من شأنه ذلك فما موصولة أيضا والعائد اليها ما فى الفعل من الضمير المستكن . وصيغة جمع العقلاء لكون ما عبارة عن آلهتهم التى وصفوها بصفات العقلاء أو مصدرية و اللام للتعليل أى لعدم علمهم و المجعول له محذوف للعلم بمكانه (نصيبا مما رزقناهم) من الزرع والانعام وغيرهما تقربا اليها (تالله لتسألن) سؤال توبيخ وتقريع (عما كنتم تفترون) فى الدنيا بأنها آلهة حقيقة بأن يتقرب اليها و فى تصدير الجملة بالقسم وصرف الكلام من الغيبة الى الخطاب المنبىء عن كمال الغضب من شدة الوعيد ما لا يخفى (و يجعلون لله البنات) هم خزاعة و كنانة الذين يقولون الملائكة بنات الله (سبحانه) تنزيه وتقديس له عز وجل عن مضمون قولهم ذلك أو تعجيب من جراءتهم على التفوه بمثل تلك العظيمة (ولهم ما يشتهون) من البنين وما مرفوعة المحل على أنه مبتدأ و الظرف المقدم خبره والجملة حالية وسبحانه اعتراض فى حاق موقعه وجعلها منصوبة بالعطف على البنات أى يجعلون لانفسهم ما يشتهون من البنين يؤدى الى جعل الجعل بمعنى يعم الزعم والاختيار (واذا بشر أحدهم بالانثى) أى أخبر بولادتها (ظل وجهه) أى صار أو دام النهار كله (مسودا) من الكآبة والحياء من الناس . واسوداد الوجه كناية عن الاغتمام والتشويش (وهو كظيم) ممتلىء حنقا وغيظا (يتوارى) أى يستخفى (من القوم من سوء ما بشر به) من أجل سوئه . والتعبير عنها بما لاسقاطها عن درجة العقلاء (أيمسكه) أى

متردداً فى أمره محدثا نفسه فى شأنه أيمسكه (على هون) ذل وقرىء هوان (أم يدسه) يخفيه (فى التراب) بالوأد والتذكير باعتبار لفظ ما وقرىء بالتأنيث (ألا ساء ما يحكمون) حيث يجعلون ما هذا شأنه عندهم من الهون والحقارة لله المتعالى عن الصاحبة والولد والحال أنهم يتحاشون عنه ويختارون لانفسهم البنين فمدار الخطأ جعلهم ذلك لله سبحانه مع ابائهم اياه لاجعلهم البنين لانفسهم ولا عدم جعلهم له سبحانه ويجوز أن يكون مداره التعكيس لقوله تعالى «تلك اذا قسمة ضيزى» (للذين لا يؤمنون بالآخرة) ممن ذكرت قبائحهم (مثل السوء) صفة السوء الذى هو كالمثل فى القبح وهى الحاجة الى الولد ليقوم مقامهم عند موتهم. وايثار الذكور للاستظهار بهم ووأد البنات لدفع العار وخشية الاملاق المنادى كل ذلك بالعجز والقصور والشح البالغ ووضع الموصول موضع الضمير للاشعار بأن مدار اتصافهم بتلك القبائح هو الكفر بالآخرة (ولله) سبحانه وتعالى (المثل الاعلى) أى الصفة العجيبة الشأن التى هى مثل فى العلو مطلقا وهو الوجوب الذاتى والغنى المطلق والجود الواسع والنزاهة عن صفات المخلوقين ويدخل فيه علوه. تعالى عما قالوه علوا كبيرا (وهو العزيز) المتفرد بكمال القدرة لا سيما على مؤاخذتهم بذنوبهم (الحكيم) الذى يفعل كل ما يفعل بمقتضى الحكمة البالغة وهذا أيضا من جملة صفاته العجيبة تعالى (ولو يؤاخذ الله الناس) الكفار (بظلمهم) بكفرهم ومعاصيهم التى من جملتها ماعدد من قبائحهم وهذا تصريح بما أفاده قوله تعالى «وهو العزيز الحكيم» وإيذان بأن ما أتوه من القبائح قد تناهى الى أمد لا غاية وراءه (ما ترك عليها) على الأرض المدلول عليها بالناس وبقوله تعالى (من دابة) أى ما ترك عليها شيئا من دابة قط بل أهلكها بالمرة بشؤم ظلم الظالمين كقوله تعالى «واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة» وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع رجلا يقول ان الظالم لا يضر الا نفسه فقال بلى والله حتى ان الحبارى لتموت فى وكرها بظلم الظالم. وعن ابن مسعود رضى الله عنه كاد الجعل يهلك فى جحره بذنب ابن آدم أو من دابة ظالمة. وقيل لو أهلك الآباء لم يكن الابناء فيلزم أن لا يكون فى الأرض دابة لما أنها مخلوقة لمنافع البشر لقوله سبحانه «هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا» (ولكن) لا يؤاخذهم بذلك بل (يؤخرهم إلى أجل مسمى) لأعمارهم أو لعذابهم كى يتوالدوا أو يكثر عذابهم (فاذا جاء أجلهم) المسمى (لا يستأخرون) عن ذلك الأجل أى لا يتأخرون وصيغة الاستفعال للاشعار بعجزهم عنه مع طلبهم له (ساعة) فذة وهى مثل فى قلة المدة (ولا يستقدمون) أى لا يتقدمون. وانما تعرض لذكره مع أنه لا يتصور الاستقدام

عند مجيء الاجل مبالغة فى بيان عدم الاستئخار بنظمه فى سلك ما يمتنع كما فى قوله تعالى «وليست التوبة للذين يعملون السيآت حتى اذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار» فان من مات كافرا مع أنه لا توبة له رأسا قد نظم فى سمط من لم تقبل توبته للايذان بانهماسيان فى ذلك وقدمر فى تفسير سورة يونس (ويجعلون لله) أى يثبتون له سبحانه وينسبون اليه فى زعمهم (ما يكرهون) لانفسهم مما ذكر وهو تكرير لما سبق تثنية للتقريع وتوطئة لقوله تعالى (وتصف ألسنتهم الكذب) أى يجعلون له تعالى ما يجعلون ومع ذلك تصف ألسنتهم الكذب وهو (أن لهم الحسنى) العاقبة الحسنى عند الله تعالى كقوله «ولئن رجعت الى ربى إن لى عنده للحسنى» وقرىء الكذب وهو جمع الكذوب على أنه صفة الألسنة (لا جرم) رد لكلامهم ذلك واثبات لنقيضه أى حقا (أن لهم) مكان ما أملوا من الحسنى (النار) التى ليس وراء عذابها عذاب وهى علم فى السوأى (وأنهم مفرطون) أى مقدمون اليها من أفرطته أى قدمته فى طلب الماء وقيل منسيون من أفرطت فلانا خلفى اذا خلفته ونسيته وقرىء بالتشديد وفتح الراء من فرطته فى طلب الماء وبكسر الراء المشددة من التفريط فى الطاعات وبكسر المخففة من الافراط فى المعاصى فلا يكونان حينئذ من أحوالهم الاخروية كما عطف عليه (تالله لقد أرسلنا الى أمم من قبلك) تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما يناله من جهالات الكفرة ووعيد لهم على ذلك أى أرسلنا اليهم رسلا فدعوهم الى الحق فلم يجيبوا الى ذلك (فزين لهم الشيطان أعمالهم) القبيحة فعكفوا عليها مصرين (فهو وليهم) أى قرينهم وبئس القرين (اليوم) أى يوم زين لهم الشيطان أعمالهم فيه على طريق حكاية الحال الماضية أو فى الدنيا او يوم القيامة على طريق حكاية الحال الآتية وهى حال كونهم معذبين فى النار والولى بمعنى الناصر أى فهو ناصرهم اليوم لا ناصر لهم غيره مبالغة فى نفى الناصر عنهم ويجوز أن يكون الضمير عائدا الى مشركى قريش والمعنى زين للامم السالفة أعمالهم فهو ولى هؤلاء لانهم منهم وأن يكون على حذف المضاف أى ولى أمثالهم (ولهم) فى الآخرة (عذاب أليم) هو عذاب النار (وما أنزلنا عليك الكتاب) أى القرآن (إلا لتبين) استثناء مفرغ من أعم العلل أى ما أنزلناه عليك لعلة من العلل الا لتبين (لهم) أى للناس (الذى اختلفوا فيه) من التوحيد والقدر وأحكام الافعال وأحوال المعاد (وهدى ورحمة) معطوفان على محل لتبين أى وللهداية والرحمة (لقوم يؤمنون) وانما انتصبا لكونهما أثرى فاعل الفعل المعلل بخلاف التبيين حيث لم ينتصب لفقدان شرطه ولعل تقديمه عليهما لتقدمه فى الوجود وتخصيص كونهما هدى ورحمة

بالمؤمنين لانهم المغتنمون آثاره (والله أنزل من السماء)من السحاب أو من جانب السماء حسبما مر وهذا تكرير لما سبق تأكيدا لمضمونه وتوطئة لما يعقبه من أدلة التوحيد (ماء) نوعا خاصا من الماء هو المطر . وتقديم المجرور على المنصوب لما مر مرارا من التشويق الى المؤخر (فأحيي به الارض) بما أنبت به فيها من أنواع النباتات (بعد موتها) أى بعد يبسها وما تفيده الفاء من التعقيب العادى لاينافيه مابين المطر فين من المهلة (إن فى ذلك) أى فى انزال الماء من السماء واحياء الارض الميتة به (لآية) وأية آية دالة على وحدته سبحانه وعلمه وقدرته وحكمته (لقوم يسمعون)هذا التذكير ونظائره سماع تفكر وتدبر فكأن من ليس كذلك أصم (و إن لكم فى الانعام لعبرة) عظيمة وأى عبرة تحار فى دركها العقول وتهيم فى فهمها ألباب الفحول (نسقيكم) استئناف لبيان ما أبهم أولا من العبرة (مما فى بطونه) أى بطون الانعام والتذكير هنا لمراعاة جانب اللفظ فانه اسم جمع ولذلك عده سيبويه فى المفردات المبنية على أفعال كأكياش وأخلاق كما أن تأنيثه فى سورة المؤمنين لرعاية جانب المعنى ومن جعله جمع نعم جعل الضمير للبعض فان اللبن ليس لجميعها أوله على المعنى فان المراد به الجنس وقرىء بفتح النون ههنا وفى سورة المؤمنين (من بين فرث ودم لبنا) الفرث فضالة مايبقى من العلف فى الكرش المنهضمة بعض الانهضام وكثيف ما يبقى فى المعى . وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان البهيمة اذا اعتلفت وانطبخ العلف فى كرشها كان أسفله فرثا وأوسطه لبنا وأعلاه دما . ولعل المراد به ان أوسطه يكون مادة اللبن وأعلاه مادة الدم الذى يغذو البدن لان عدم تكونهما فى الكرش مما لا ريب فيه بل الكبد تجذب صفاوة الطعام المنهضم فى الكرش ويبقى ثفله وهو الفرث ثم يمسكها ريثما يهضمها فيحدث أخلاطا أربعة معها مائية فتميز القوة المميزة تلك المائية بما زاد على قدر الحاجة من المرتين الصفراء والسوداء وتدفعها الى الكلية والمرارة والطحال ثم توزع الباقى على الاعضاء بحسبها فتجرى على كل حقه على ما يليق به بتقدير العزيز العليم . ثم ان كان الحيوان أنثى زاد أخلاطها على قدر غذائها لاستيلاء البرد والرطوبة على مزاجها فيندفع الزائد أولا لاجل الجنين الى الرحم فاذا انفصل انصب ذلك الزائد أو بعضه الى الضروع فيبيض لمجاورته لحومها الغدوية البيض ويلذ طعمه فيصير لبنا . ومن تدبر فى بدائع صنع الله تعالى فيما ذكر من الاخلاط والالبان واعداد مقارها ومجاريها والاسباب المولدة لها وتسخير القوى المتصرفة فيها كل وقت على ما يليق به اضطر الى الاعتراف بكمال علمه وقدرته وحكمته وتناهى رأفته ورحمته فمن الاولى تبعيضية لما أن اللبن بعض ما فى

بطونه لأنه مخلوق من بعض أجزاء الدم المتولد من الاجزاء اللطيفة التى فى الفرث حسبما فصل . والثانية ابتدائية كقوله سقيت من الحوض لان بين الفرث والدم مبدأ الأسقاء وهى متعلقة بنسقيكم. وتقديمه على المفعول لما مر مرارا من أن تقديم ما حقه التأخير يبعث للنفس شوقا الى المؤخر موجبا لفضل تمكنه عند وروده عليها لاسيما اذا كان المقدم متضمنا لوصف مناف لوصف المؤخر كالذى نحن فيه فان بين وصفى المقدم والمؤخر تنافيا وتنائيا بحيث لا يتراءى ناراهما فان ذلك مما يزيد الشوق والاستشراف الى المؤخر كما فى قوله تعالى «الذى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا» أو حال من لبنا قدم عليه لتنكيره وللتنبيه على انه موضع العبرة (خالصا) عن شائبة ما فى الدم والفرث من الاوصاف ببرزخ من القدرة القاهرة الحاجزة عن بغى أحدهما عليه مع كونهما مكتنفين له (سائغا للشاربين) سهل المرور فى حلقهم قيل لم يغص أحد باللبن وقرىء سيغا بالتشديد وبالتخفيف مثل هين وهين (ومن ثمرات النخيل والأعناب) متعلق بما يدل عليه الاسقاء من مطلق الاطعام المنتظم لاعطاء المطعوم والمشروب فان اللبن مطعوم كما انه مشروب أى ونطعمكم من ثمرات النخيل ومن الاعناب أى من عصيرهما وقوله تعالى (تتخذون منه سكرا) استئناف لبيان كنه الاطعام وكشفه أو بقوله تتخذون منه. وتكرير الظرف للتأكيد أو خبر لمبتدا محذوف صفته تتخذون أى ومن ثمرات النخيل والاعناب ثمر تتخذون منه .وحذف الموصوف اذا كان فى الكلام كلمة من سائغ نحو وقوله تعالى «وما منا الا له مقام معلوم» وتذكير الضمير على الوجهين الاولين لانه للمضاف المحذوف أعنى العصير أو لان المراد هو الجنس والسكر مصدر سمى به الخمر وقيل هو النبيذ وقيل هو الطعم (ورزقا حسنا) كالتمر والدبس والزبيب والخل والآية ان كانت سابقة النزول على تحريم الخمر فدالة على كراهتها والا فجامعة بين العتاب والمنة (إن فى ذلك لآية) باهرة (لقوم يعقلون) يستعملون عقولهم فى الآيات بالنظر والتأمل (وأوحى ربك الى النحل) أى ألهمها وقذف فى قلوبها وعلمها بوجه لا يعلمه الا العليم الخبير وقرىء بفتحتين (أن اتخذى) أى بأن اتخذى على أن أن مصدرية ويجوز أن تكون مفسرة لما فى الايحاء من معنى القول .وتأنيث الضمير مع أن النحل مذكر للحمل على المعنى أو لانه جمع نحلة والتأنيث لغة أهل الحجاز (من الجبال بيوتا) أى أوكارا مع ما فيها من الخلايا. وقرىء بيوتا بكسر الباء (ومن الشجر ومما يعرشون) أى يعرشه الناس أى يرفعه من كرم أو سقف .وقيل المراد به ما يرفعه الناس ويبنونه للنحل والمعنى اتخذى لنفسك بيوتا من الجبال والشجر

اذا لم يكن لك أرباب والا فاتخذى ما يعرشونه لك . وايراد حرف التبعيض لما أنها لا تبنى فى كل جبل وكل شجر وكل عرش ولا فى كل مكان منها (ثم كلى من كل الثمرات) من كل ثمرة تشتهينها حلوها ومرها (فاسلكى) ما أكلت منها (سبل ربك) أى مسالكه التى برأها بحيث يحيل فيها بقدرته القاهرة النور المر عسلا من أجوافك أو فاسلكى الطرق التى ألهمك فى عمل العسل أو فاسلكى راجعة الى بيوتك سبل ربك لاتتوعر عليك ولاتلتبس (ذللا) جمع ذلول وهو حال من السبل أى مذللة غير متوعرة ذللها الله سبحانه وسهلها لك أو من الضمير فى اسلكى أى اسلكى منقادة لما أمرت به (يخرج من بطونها) استئناف عدل به عن خطاب النحل لبيان مايظهر منها من تعاجيب صنع الله تعالى التى هى موضع العبرة بعدما أمرت بما أمرت (شراب) أى عسل لانه مشروب واحتج به وبقوله تعالى كلى من زعم أن النحل تأكل الازهار والاوراق العطرة فتستحيل فى بطنها عسلا ثم تقىء ادخارا للشتاء ومن زعم انها تلتقط بأفواهها أجزاء قليلة حلوة صغيرة متفرقة على الازهار والاوراق وتضعها فى بيوتها فاذا اجتمع فيها شىء كثير يكون عسلا فسر البطون بالافواه (مختلف ألوانه) أبيض وأسود وأصفر وأحمر حسب اختلاف سن النحل أو الفصل أو الذى أخذت منه العسل (فيه شفاء للناس) اما بنفسه كما فى الامراض البلغمية أو مع غيره كما فى سائر الامراض اذ قلما يكون معجون لا يكون فيه عسل مع أن التنكير فيه مشعر بالتبعيض ويجوز كونه للتفخيم وعن قتادة ان رجلا جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أن أخى يشتكى بطنه فقال عليه الصلاة والسلام « اسقه العسل » فذهب ثم رجع فقال قدسقيته فما نفع فقال « اذهب فاسقه عسلا فقد صدق الله وكذب بطن أخيك » فسقاه فبرىء كأنما أنشط من عقال . وقيل الضمير للقرآن أو لما بين الله تعالى من أحوال النحل . وعن ابن مسعود رضى الله عنه العسل شفاء لكل داء والقرآن شفاء لما فى الصدور فعليكم بالشفائين العسل والقرآن (إن فى ذلك) الذى ذكر من أعاجيب آثار قدرة الله تعالى (لآية) عظيمة (لقوم يتفكرون) فان من تفكر فى اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والافعال العجيبة المشتملة على حسن الصنعة وصحة القسمة التى لا يقدر عليها حذاق المهندسين الا بآلات رقيقة وأدوات أنيقة وأنظار دقيقة جزم قطعا بأن له خالقا قادرا حكيما يلهمها ذلك ويهديها اليه جل جلاله (والله خلقكم) لما ذكر سبحانه من عجائب أحوال ما ذكر من الماء والنبات والانعام والنحل أشار الى بعض عجائب أحوال البشر من أول عمره الى آخره وتطوراته فيما بين ذلك وقد ضبطوا مراتب العمر فى أربع

الاولى سن النشو والنماء . والثانية سن الوقوف وهى سن الشباب. والثالثة سن الانحطاط القليل وهى سن الكهولة . والرابعة سن الانحطاط الكبير وهى سن الشيخوخة (ثم يتوفاكم) حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على حكم بالغة بآجال مختلفة أطفالا وشبابا وشيوخا (ومنكم من يرد) قبل توفيه أى يعاد (الى أرذل العمر) أى أخسه وأحقره وهو خمس وسبعون سنة على ما روى عن على رضى الله عنه وتسعون سنة على مانقل عن قتادة رضى الله عنه . وقيل خمس وتسعون . وايثار الرد على الوصول والبلوغ ونحوهما للايذان بان بلوغه والوصول اليه رجوع فى الحقيقة الى الضعف بعد القوة كقوله تعالى «ومن نعمره ننكسه فى الخلق» ولا عمر أسوأ حالا من عمر الهرم الذى يشبه الطفل فى نقصان العقل والقوة (لكيلا يعلم بعد علم) كثير (شيئا) من العلم أو من المعلومات أو لكيلا يعلم شيئا بعد علم بذلك الشىء . وقيل لئلا يعقل بعد عقله الاول شيئا (ان الله عليم) بمقادير أعماركم (قدير) على كل شىء يميت الشاب النشيط ويبقى الهرم الفانى. وفيه تنبيه على أن تفاوت الآجال ليس الا بتقدير قادر حكيم ركب أبنيتهم وعدل أمزجتهم على قدر معلوم ولو كان ذلك مقتضى الطبائع لما بلغ التفاوت هذا المبلغ (والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق) أى جعلكم متفاوتين فيه فأعطاكم منه أفضل مما أعطى مماليككم (فما الذين فضلوا) فيه على غيرهم (برادى رزقهم) الذى رزقهم اياه (على ما ملكت أيمانهم) على مماليكهم الذين هم شركاؤهم فى المخلوقية والمرزوقية (فهم) أى الملاك والمماليك (فيه) أى فى الرزق (سواء) أى لا يردونه عليهم بحيث يساوونهم فى التصرف ويشاركونهم فى التدبير . والفاء للدلالة على ترتب التساوى على الرد أى لا يردونه عليهم ردا مستتبعا للتساوى وانما يردون عليهم منه شيئا يسيرا فحيث لا يرضون بمساواة مماليكهم لانفسهم وهم أمثالهم فى البشرية والمخلوقية لله عز سلطانه فى شىء لايختص بهم بل يعمهم واياهم من الرزق الذى هم أسوة لهم فى استحقاقه فما بالهم يشركون بالله سبحانه وتعالى فيما لا يليق الا به من الالوهية والمعبودية الخاصة بذاته تعالى لذاته ببعض مخلوقاته الذى هو بمعزل من درجة الاعتبار وهذا كما ترى مثل ضرب لكمال قباحة مافعله المشركون تقريعا عليهم كقوله تعالى «هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء» الآية (أفبنعمة الله يجحدون) حيث يفعلون مايفعلون من الاشراك فان ذلك يقتضى أن يضيفوا نعم الله سبحانه الفائضة عليهم الى شركائهم و يجحدوا كونها من عند الله تعالى أو حيث أنكروا أمثال هذه الحجج البالغة بعد ما أنعم الله بها عليهم والباء لتضمين

الجحود معنى الكفر نحو وجحدوا بها . والفاء للعطف على مقدر وهى داخلة فى المعنى على الفعل أى أيشركون به فيجحدون نعمته وقرىء تجحدون على الخطاب أو ليس الموالى برادى رزقهم على مماليكهم بل انا الذى أرزقهم واياهم فلا يحسبوا أنهم يعطو نهم شيئا وانما هو رزقى أجريه على أيديهم فهم جميعا فى ذلك سواء لامزية لهم على مماليكهم ألا يفهمون ذلك فيجحدون نعمة الله فهو رد على زعم المفضلين أو على فعلهم المؤذن بذلك أو ما المفضلون برادى بعض فضلهم على مماليكهم فيتساووا فى ذلك جميعا مع أن التفضيل ليس الاليبلوهم أيشكرون أم يكفرون ألا يعرفون ذلك فيجحدون نعمة الله تعالى كأنه قيل فلم يردوه عليهم. والجملة الاسمية للدلالة على استمرارهم على عدم الرد يحكى عن أبى ذر رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إنما هم اخوانكم فاكسوهم مما تلبسون وأطعموهم مما تطعمون فما رؤى عبده بعد ذلك الاورد اؤه رداؤه وازاره ازاره من غير تفاوت» (والله جعل لكم من أنفسكم) أى من جنسكم (أزواجا) لتأنسوا بها وتقيموا بذلك جميع مصالحكم ويكون أولادكم أمثالكم وقيل هو خلق حواء من ضلع آدم عليه الصلاة والسلام (وجعل لكم من أزواجكم) وضع الظاهر موضع المضمر للايذان بان المراد جعل لكل منكم من زوجه لا من زوج غيره (بنين) وبأن نتيجة الازواج هو التوالد (وحفدة) جمع حافد وهو الذى يسرع فى الخدمة والطاعة ومنه قول القانت واليك نسعى ونحفد أى جعل لكم خدما يسرعون فى خدمتكم وطاعتكم فقيل المراد بهم أولاد الاولاد وقيل البنات عبر عنهن بذلك ايذانا بوجه المنة فانهن يخدمن البيوت أتم خدمة وقيل أولاد المرأة من الزوج الاول وقيل البنون والعطف لاختلاف الوصفين وقيل الاختان على البنات. وتأخير المنصوب فى الموضعين عن المجرور لما مر من التشويق . وتقديم المجرور باللام على المجرور بمن للايذان من أول الامر بعود منفعة الجعل اليهم امدادا للتشويق وتقوية له أى جعل لمصلحتكم مما يناسبكم أزواجا وجعل لمنفعتكم من جهة مناسبة لكم بنين وحفدة (ورزقكم من الطيبات) من اللذائذ أو من الحلالات . ومن للتبعيض اذ المرزوق فى الدنيا أنموذج لما فى الآخرة (أفبالباطل يؤمنون) وهو أن الاصنام تنفعهم وان البحائر ونحوها حرام والفاء فى المعنى داخلة على الفعل وهى للعطف على مقدر أى أيكفرون بالله الذى شأنه هذا فيؤمنون بالباطل أو أبعد تحقق ماذكر من نعم الله تعالى بالباطل يؤمنون دون الله سبحانه (وبنعمت الله) تعالى الفائضة عليهم مما ذكر ومما لا يحيط به دائرة البيان (هم يكفرون) حيث يضيفونها الى الاصنام وتقديم الصلة على الفعل للاهتمام أو لايهام الاختصاص

مبالغة أو لرعاية الفواصل. والالتفات الى الغيبة للايذان باستيجاب حالهم للاعراض عنهم وصرف الخطاب الى غيرهم من السامعين تعجيبا لهم مما فعلوه (ويعبدون من دون الله) لعله عطف على يكفرون داخل تحت الانكار التوبيخى أى أيكفرون بنعمة الله ويعبدون من دونه (مالا يملك لهم رزقا من السموات والارض شيأ) أن جعل الرزق مصدرا فشيئا نصب على المفعولية منه أى مالا يقدر على أن يرزقهم شيئا لا من السموات مطرا ولا من الارض نباتا وإن جعل اسما للمرزوق فنصب على البدلية منه بمعنى قليلا ومن السموات والارض صفة لرزقا أى كائنا منهما ويجوز كونه تأكيداً للايملك أى لا يملك رزقا ما شيئا من الملك (ولا يستطيعون) أن يملكوه اذ لا استطاعة لهم رأساً لانها موات لاحراك بها فالضمير للآلهة ويجوز أن يكون للكفرة على معنى أنهم مع كونهم احياء متصرفين فى الامور لا يستطيعون من ذلك شيئا فكيف بالجماد الذى لاحس به (فلاتضربوا لله الأمثال) التفات الى الخطاب للايذان بالاهتمام بشأن النهى أى لاتشركوا به شيئا والتعبير عن ذلك بضرب المثل للقصد الى النهى عن الاشراك به تعالى فى شأن من الشئون فان ضرب المثل مبناه تشبيه حالة بحالة وقصة بقصة أي لاتشبهوا بشأنه تعالى شأنا من الشئون واللام مثلها فى قوله تعالى« ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون» لامثلها فى قوله تعالى«واضرب لهم مثلا أصحاب القرية »ونظائره .والفاء للدلالة على ترتب النهى على ماعدد من النعم الفائضة عليهم من جهته سبحانه وكون مايشركون به تعالى بمعزل من أن يملك لهم من أقطار السموات والارض شيئا من رزق ما فضلا عما فصل من نعمة الخلق والتفضيل فى الرزق ونعمة الازواج والاولاد (إن الله يعلم) تعليل للنهى المذكور ووعيد على المنهى عنه أى أنه تعالى يعلم كنه ماتأتون وماتذرون وأنه فى غاية العظم والقبح (وأنتم لاتعلمون) ذلك والا لما فعلتموه أو أنه تعالى يعلم كنه الاشياء وأنتم لاتعلمونه فدعوا رأيكم وقفوا مواقف الامثال الماورد عليكم من الامر والنهى ويجوز أن يراد فلاتضربوا لله الامثال إن الله يعلم كيف تضرب الامثال وأنتم لاتعلمون ذلك فتقعون فيما تقعون فيه من مهاوى الردى والضلال ثم علمهم كيفية ضرب الامثال فى هذا الباب فقال (ضرب الله مثلا)أى ذكر وأورد شيئا يستدل به على تباين الحال بين جنابه عز وجل وبين ما أشركوا به وعلى تباعدهما بحيث ينادى بفساد ما ارتكبوه نداء جليا (عبدا مملوكا لايقدر على شيء) بدل من مثلا وتفسير له والمثل فى الحقيقة حالته العارضة له من المملوكية والعجز التام وبحسبها

ضرب نفسه مثلا ووصف العبد بالمملوكية للتمييز عن الحر لاشتراكهما فى كونهما عبدا لله سبحانه وقد أدمج فيه أن الكل عبيد له تعالى وبعدم القدرة لتمييزه عن المكاتب والمأذون اللذين لهما تصرف فى الجملة. وفى ابهام المثل أولا ثم بيانه بما ذكر مالا يخفى من الفخامة والجزالة (ومن رزقناه) من موصوفة معطوفة على عبدا أى رزقناه بطريق الملك والالتفات الى التكلم للاشعار باختلاف حالى ضرب المثل والرزق (منا) من جنابنا الكبير المتعالى (رزقا حسنا) حلالا طيبا أو مستحسنا عند الناس مرضيا (فهو ينفق منه) تفضلا واحسانا والفاء لترتيب الانفاق على الرزق كأنه قيل ومن رزقناه منا رزقا حسنا فأنفق. وايثار ما عليه النظم الكريم من الجملة الاسمية الفعلية الخبر للدلالة على ثبات الانفاق واستمراره التجددى (سرا وجهرا) أى حال السر والجهر أو انفاق سر وانفاق جهر والمراد بيان عموم انفاقه للاوقات وشمول انعامه لمن يجتنب عن قبوله جهرا والاشارة الى أصناف نعم الله تعالى الباطنة والظاهرة. وتقديم السر على الجهر للايذان بفضله عليه والعدول عن تطبيق القرينتين بأن يقال وحرا مالكا للاموال مع كونه أدل على تباين الحال بينه وبين قسيمه لتوخى تحقيق الحق بأن الاحرار أيضا تحت ربقة عبوديته سبحانه وتعالى وأن مالكيتهم لما يملكونه ليست الا بأن يرزقهم الله تعالى اياه من غير أن يكون لهم مدخل فى ذلك مع محاولة المبالغة فى الدلالة على ما قصد بالمثل من تباين الحال بين الممثلين فان العبد المملوك حيث لم يكن مثل العبد المالك فما ظنك بالجماد ومالك الملك خلاق العالمين (هل يستوون) جمع الضمير للايذان بأن المراد بما ذكر من اتصف بالاوصاف المذكورة من الجنسين المذكورين لا فردان معينان منهما أى هل يستوى العبيد والاحرار الموصوفون بما ذكر من الصفات مع أن الفريقين سيان فى البشرية والمخلوقية لله سبحانه وأن ماينفقه الاحرار ليس مما لهم دخل فى ايجاده ولا فى تملكه بل هو مما أعطاه الله تعالى اياهم فحيث لم يستو الفريقان فما ظنكم برب العالمين حيث تشركون به مالا ذليل أذل منه وهو الاصنام (الحمد لله) أى كله له لانه مولى جميع النعم لا يستحقه أحد غيره وان ظهرت على أيدى بعض الوسايط فضلا عن استحقاق العبادة. وفيه ارشاد الى ماهو الحق من أن مايظهر على يد من ينفق مما ذكر راجع الى الله سبحانه كما لوح به قوله تعالى رزقناه (بل أكثرهم لا يعلمون) ماذكر فيضيفون نعمه تعالى الى غيره ويعبدونه لاجلها ونفى العلم عن أكثرهم للاشعار بان بعضهم يعلمون ذلك وانما وانما لا يعلمون بموجبه عنادا كقوله تعالى «يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون» (وضرب الله مثلا) أى مثلا آخر يدل على مادل عليه المثل السابق على

وجه أوضح وأظهر وبعدما أبهم ذلك لتنتظر النفس الى وروده وتترقبه حتى يتمكن لديها عند وروده بين فقيل (رجلين أحدهما أبكم) وهو من ولد أخرس (لايقدر على شيء) من الأشياء المتعلقة بنفسه أو بغيره بحدس أو فراسة لقلة فهمه وسوء ادراكه (وهو كل) ثقل وعيال (على مولاه) على من يعوله ويلي أمره وهذا بيان لعدم قدرته على اقامة مصالح نفسه بعد ذكر عدم قدرته على شيء مطلقا وقوله تعالى (أينما يوجهه) أي حيث يرسله مولاه في أمر . بيان لعدم قدرته على اقامة مصالح مولاه ولو كانت مصلحة يسيرة وقرىء على البناء للمفعول وعلى صيغة الماضي من التوجه (لايأت بخير) ينجح وكفاية مهم ألبتة (هل يستوى هو) مع مافيه من الاوصاف المذكورة (ومن يأمر بالعدل) أي من هو منطيق فهم ذو رأى وكفاية ورشد ينفع الناس بحثهم على العدل الجامع لجامع الفضائل (وهو) في نفسه مع ماذكر من نفعه العام للخاص والعام (على صراط مستقيم) ومقابلة الصفات المذكورة بهذين الوصفين لانهما في حاق مايقابلها فان محصل الصفات المذكورة عدم استحقاق المأمورية وملخص هذين استحقاق كمال الآمرية المستتبع لحيازة المحاسن بأجمعها . وتغيير الاسلوب حيث لم يقل والآخر آمر بالعدل الآية لمراعاة الملاءمة بينه وبين ماهو المقصود من بيان التباين بين القرينتين . واعلم أن كلا من الفعلين ليس المراد بهما حكاية الضرب الماضي بل المراد انشاؤه بما ذكر عقيبه ولا يبعد أن يقال ان الله تعالى ضرب مثلا بخلق الفريقين على ماهما عليه فكان خلقهما كذلك للاستدلال بعدم تساويهما على امتناع التساوى بينه سبحانه وبين مايشركون فيكون كل من الفعلين حكاية للضرب الماضي (ولله) تعالى خاصة لالأحد غيره استقلالا ولا اشتراكا (غيب السموات والارض) أي الامور الغائبة عن علوم المخلوقين قاطبة بحيث لاسبيل لهم اليها لامشاهدة ولااستدلالا ومعنى الاضافة اليهما التعلق بهما اما باعتبار الوقوع فيهما حالا أو مآلا وإما باعتبار الغيبة عن أهلهما والمراد بيان الاختصاص به تعالى من حيث المعلومية حسبما ينبىء عنه عنوان الغيبية لامن حيث المخلوقية والمملوكية وان كان الامر كذلك في نفس الامر وفيه اشعار بأن علمه سبحانه حضورى فان تحقق الغيوب في أنفسها علم بالنسبة اليه تعالى ولذلك لم يقل ولله علم غيب السموات والارض (وما أمر الساعة) التي هي أعظم ماوقع فيه المماراة من الغيوب المتعلقة بهما من حيث غيبتها عن أهلهما أو ظهور آثارها فيهما عند وقوعها فان وقت وقوعها بعينه من الغيوب المختصة به سبحانه وان كان أبيتها من الغيوب التي نصبت عليها الادلة أي ماشأنها في سرعة المجيء (إلا كلمح البصر)

أى كرجع الطرف من أعلى الحدقة الى أسفلها (أو هو) أى بل أمرها فيما ذكر (أقرب) من ذلك وأسرع زمانا بأن يقع فى بعض من زمانه فان ذلك وان قصر عن حركة أنية لها هوية اتصالية منطبقة على زمان له هوية كذلك قابل للانقسام الى أبعاض هى أزمنة أيضاً بل فى آن غير منقسم من ذلك الزمان وهو أن ابتداء تلك الحركة. أو ما أمرها إلا كالشيء الذى يستقرب ويقال هو كلمح البصر أو هو أقرب وأياما كان فهو تمثيل لسرعة مجيئها حسبما عبر عنها فى فاتحة السورة الشريفة بالاتيان (إن الله على كل شيء قدير) ومن جملة الأشياء أن يجيء بها أسرع مايكون فهو قادر على ذلك أو وما أمر اقامة الساعة التى كنهها وكيفيتها من الغيوب الخاصة به سبحانه وهى أماتة الاحياء واحياء الأموات من الاولين والآخرين وتبديل صور الأكوان أجمعين وقد أنكرها المنكرون وجعلوها من قبيل مالايدخل تحت الأمكان فى سرعة الوقوع وسهولة التأتى إلا كلمح البصر أو هو أقرب على مامر من الوجهين ان الله على كل شيء قدير فهو قادر على ذلك لامحالة. وقيل غيب السموات والارض عبارة عن يوم القيامة بعينه لما أن علمه بخصوصه غائب عن أهلهما فوضع الساعة موضع الضمير لتقوية مضمون الجملة (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم) عطف على قوله تعالى «والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا» منتظم معه فى سلك أدلة التوحيد من قوله تعالى « والله أنزل من السماء ماء » وقوله تعالى «والله خلقكم وقوله تعالى والله فضل بعضكم على بعض» والأمهات بضم الهمزة. وقرىء بكسرها أيضاً جمع الأم زيدت الهاء فيه كما زيدت فى اهراق من أراق وشذت زيادتها فى الواحدة قال :

٭ أمهتى خندف والياس أبى ٭ (لاتعلمون شيئاً) فى موقع الحال أى غير عالمين شيئاً أصلا (وجعل لكم السمع والأبصار والافئدة) عطف على أخرجكم وليس فيه دلالة على تأخر الجعل المذكور عن الاخراج لما أن مدلول الواو هو الجمع مطلقاً لاالترتيب على أن أثر ذلك الجعل لايظهر قبل الاخراج أى جعل لكم هذه الاشياء آلات تحصلون بها العلم والمعرفة بأن تحسوا بمشاعركم جزئيات الاشياء وتدركوها بأفئدتكم وتتنبهوا لما بينها من المشاركات والمباينات بتكرر الاحساس فيحصل لكم علوم بديهية تتمكنون بالنظر فيها من تحصيل العلوم الكسبية. والافئدة جمع فؤاد وهو وسط القلب وهو من القلب كالقلب من الصدر وهو من جموع القلة التى جرت مجرى جموع الكثرة . وتقديم المجرور على المنصوبات لما مر من الايذان من أول الامر بكون المجعول نافعاً لهم وتشويق النفس إلى المؤخر ليتمكن عند وروده عليها فضل تمكن

(لعلكم تشكرون) كي تعرفوا ماأنعم به عليكم طوراً غب طور فتشكروه. وتقديم السمع
على البصر لما انه طريق تلقي الوحي أو لان ادراكه أقدم من إدراك البصر . وافراده باعتبار كونه
مصدراً في الاصل (ألم يروا) وقرىء بالتاء (الى الطير) جمع طائر أي ألم ينظروا اليها (مسخرات)
مذللات للطيران بما خلق لها من الاجنحة والاسباب المساعدة له. وفيه مبالغة من حيث
ان معنى التسخير جعل الشيء منقاداً الآخر يتصرف فيه كيف يشاء كتسخير البحر والفلك
والدواب للانسان. والواقع ههنا تسخير الهواء للطير لتطير فيه كيف تشاء فكان مقتضى
طبيعة الطير السقوط فسخرها الله تعالى للطيران. وفيه تنبيه على أن الطيران ليس
بمقتضى طبع الطير بل ذلك بتسخير الله تعالى (في جو السماء) أي في الهواء
المتباعد من الارض والسكاك واللوح أبعد منه . واضافته الى السماء لما أنه في جانبها
من الناظر ولاظهار كمال القدرة (ما يمسكهن) في الجوحين قبض أجنحتهن وبسطها
ووقوفهن (الا الله) عز وجل بقدرته الواسعة فان ثقل جسدها ورقة قوام الهواء
يقتضيان سقوطها ولا علاقة من فوقها ولا دعامة من تحتها وهو اما حال من الضمير
المستتر في مسخرات أو من الطير واما مستأنف (إن في ذلك) الذي ذكر من تسخير
الطير للطيران بأن خلقها خلقة تتمكن بها منه بان جعل لها أجنحة خفيفة واذنابا كذلك
وجعل أجسادها من الخفة بحيث اذا بسطت أجنحتها وأذنابها لا يطيق ثقلها تخرق
ما تحتها من الهواء الرقيق القوام وتخرق ما بين يديها من الهواء لانها لاتلاقيه بحجم
كبير (لآيات) ظاهرة (لقوم يؤمنون) أي من شأنهم أن يؤمنوا وانما خص ذلك
بهم لأنهم المنتفعون به (والله جعل لكم) معطوف على مامر. وتقديم لكم على ما سيأتي
من المجرور والمنصوب لمامر من الايذان من أول الامر بانه لمصلحتهم ومنفعتهم لتشويق
النفس الى وروده وقوله تعالى (من بيوتكم) أي من بيوتكم المعهودة التي تبنونها
من الحجر والمدر تبيين لذلك المجعول المبهم في الجملة وتأكيد لما سبق من التشويق (سكنا)
فعل بمعنى مفعول أي موضعا تسكنون فيه وقت اقامتكم أو تسكنون اليه من غير أن
ينتقل من مكانه أي جعل بعض بيوتكم بحيث تسكنون اليه وتطمئنون به (وجعل لكم
من جلود الأنعام بيوتا) أي بيوتا أخرى مغايرة لبيوتكم المعهودة هي الخيام والقباب
والاخبية والفساطيط (تستخفونها) تجدونها خفيفة سهلة المأخذ (يوم ظعنكم)
وقت ترحالكم في النقض والحمل والنقل وقرىء بفتح العين (ويوم اقامتكم) وقت
نزولكم في الضرب والبناء (ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها) عطف على قوله
تعالى من جلودها والضمائر للانعام على وجه التنويع أي وجعل لكم من أصواف الضأن

[Torn fragments in right margin: بار / عنه / الامر / نسبة اليه / هي أعظم / أو ظهور / انه وان كان / كلمح البصر]

وأوبار الابل وأشعار المعز (أثاثا) أى متاع البيت وأصله الكثرة والاجتماع ومنه شعر أثيت (ومتاعا) أى شيئا يتمتع به بفنون التمتع (الى حين) الى أن تقضوا منه أوطاركم أو الى أن يبلى ويفنى فانه فى معرض البلى والفناء . وقيل الى أن تموتوا والكلام فى ترتيب المفاعيل مثل ما مر من قبل (والله جعل لكم مما خلق) من غير صنع من قبلكم (ظلالا) أشياء تستظلون بها من الحر كالغمام والشجر والجبل وغيرها امتن سبحانه بذلك لما أن تلك الديار غالبة الحرارة (وجعل لكم من الجبال أكنانا) مواضع تسكنون فيها من الكهوف والغيران والسروب والكلام فى الترتيب الواقع بين المفاعيل كالذى مر غير مرة (وجعل لكم سرابيل) جمع سربال وهو كل مايلبس أى جعل لكم ثيابا من القطن والكتان والصوف وغيرها (تقيكم الحر) خصه بالذكر اكتفاء بذكر أحد الضدين عن ذكر الآخر أو لان وقايته هى الأهم عندهم لما مر آنفا (وسرابيل) من الدروع والجواشن (تقيكم بأسكم) أى البأس الذى يصل الى بعضكم من بعض فى الحرب من الضرب والطعن ولقد من الله سبحانه علينا حيث ذكر جميع نعمه الفائضة على جميع الطوائف فبدأ بما يخص المقيمين حيث قال « والله جعل لكم من بيوتكم سكنا » ثم بما يخص المسافرين ممن لهم قدرة على الخيام واضرابها حيث قال « وجعل لكم من جلود الانعام » الخ ثم بما يعم من لا يقدر على ذلك ولا يأويه الا الظلال حيث قال «وجعل لكم مما خلق ظلالا» الخ ثم بما لابد منه لأحد حيث قال « وجعل لكم سرابيل » الخ ثم بما لا غنى عنه فى الحروب حيث قال «وسرابيل تقيكم بأسكم» ثم قال (كذلك) أى مثل ذلك الاتمام البالغ (يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون) أى ارادة أن تنظروا فيما أسبغ عليكم من النعم الظاهرة والباطنة والأنفسية والآفاقية فتعرفوا حق منعمها فتؤمنوا به وحده وتذروا ما كنتم به تشركون وتنقادوا لأمره . وافراد النعمة اما لان المراد بها المصدر أو لاظهار ان ذلك بالنسبة الى جانب الكبرياء شىء قليل . وقرىء تسلمون أى تسلمون من العذاب أو من الشرك وقيل من الجراح بلبس الدروع (فان تولوا) فعل ماض على طريقة الالتفات وصرف الخطاب عنهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسلية له أى فان أعرضوا عن الاسلام ولم يقبلوا منك ماألقى اليهم من البينات والعبر والعظات (فانما عليك البلاغ المبين) أى فلا قصور من جهتك لان وظيفتك هى البلاغ الموضح أو الواضح وقد فعلته بما لا مزيد عليه فهو من باب وضع السبب موضع المسبب (يعرفون نعمت الله) استئناف لبيان أن توليهم واعراضهم عن الاسلام ليس لعدم معرفتهم بما عدد من نعم الله تعالى أصلا فانهم يعرفونها ويعترفون أنها من الله

تعالى (ثم ينكرونها) بأفعالهم حيث يعبدون غير منعمها أو بقولهم انها بشفاعة آلهتنا أو بسبب كذا وقيل نعمة الله تعالى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم عرفوها بالمعجزات كما يعرفون أبناءهم ثم أنكروها عنادا. ومعنى ثم لاستبعادا لانكار بعد المعرفة لان حق من عرف النعمة الاعتراف بها لا الانكار .واسنادالمعرفة والانكار المتفرع عليها الى ضمير المشركين على الاطلاق من باب اسناد حال البعض الى الكل كقولهم بنو فلان قتلوا فلانا وانما القاتل واحد منهم فان بعضهم ليسوا كذلك لقوله سبحانه (وأكثرهم الكافرون) أى المنكرون بقاو بهم غير المعترفين بما ذكر.والحكم عليهم بمطلق الكفر المؤذن بالكمال من حيث الكمية لاينافى كمال الفرقة الاولى من حيث الكيفية هذا وقدقيل ذكر الاكثر امالان بعضهم لم يعرفوا لنقصان العقل أو التفريط فى النظر أولم تقم عليه الحجة لانه لم يبلغ حد التكليف فتدبر (ويوم نبعث من كل أمة شهيدا) يشهد لهم بالايمان والطاعة وعليهم بالكفر والعصيان وهو نبيها (ثم لايؤذن للذين كفروا) فى الاعتذار إذ لاعذر لهم. وثم للدلالة على أن ابتلاءهم بالمنع عن الاعتذار المنبىء عن الاقناط الكلى وهو عندما يقال لهم اخسئوا فيها ولاتكلمون أشد من ابتلائهم بشهادة الانبياء عليهم السلام عليهم وأطم (ولاهم يستعتبون) يسترضون أى لايقال لهم راضوا ربكم اذ الآخرة دار الجزاء لادار العمل.وانتصاب الظرف بمحذوف تقديره اذكر أوخوفهم يوم نبعث الخ أو يوم نبعث يحيق بهم مايحيق مما لايوصف وكذا قوله تعالى(وإذا رأى الذين ظلموا العذاب) الذى يستوجبونه بظلمهم وهو عذاب جهنم (فلا يخفف عنهم) ذلك (ولا هم ينظرون)أى يمهلون كقوله تعالى«بل تأتيهم بغتة فتبهتهم»(وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم) الذين كانوا يدعونهم فى الدنيا وهم الأوثان أو الشياطين الذين شاركوهم فى الكفر بالحمل عليه وقارنوهم فى الغى والضلال (قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوامن دونك) أى نعبدهم أى نطيعهم ولعلهم قالوا ذلك طمعا فى توزيع العذاب بينهم كما ينبىء عنه قوله سبحانه (فألقوا) أى شركاؤهم (اليهم القول انكم لكاذبون)فان تكذيبهم إياهم فيما قالوا ليس الا للمدافعة والتخلص عن غائلة مضمونه وانما كذبوهم وقد كانوا يعبدونهم ويطيعونهم لأن الأوثان ما كانوا راضين بعبادتهم لهم فكأن عبادتهم لم تكن عبادة لهم كما قالت الملائكة عليهم السلام بل كانوا يعبدون الجن يعنون أن الجن هم الذين كانوا راضين بعبادتهم لانحن أو كذبوهم فى تسميتهم شركاء وآلهة تنزيها لله سبحانه عن الشريك والشياطين وإن كانوا راضين بعبادتهم لهم لكنهم لم يكونوا حاملين لهم على وجه القسر والالجاء كما قال ابليس وما كان لى عليكم

من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى فكأنهم قالوا ما عبدتمونا حقيقة بل إنما عبدتم أهواءكم (وألقوا) أى الذين أشركوا (الى الله يومئذ السلم) الاستسلام والانقياد لحكمه العزيز الغالب بعد الاستكبار عنه فى الدنيا (وضل عنهم) أى ضاع وبطل (ما كانوا يفترون) من أن لله سبحانه شركاء وأنهم ينصرونهم ويشفعون لهم وذلك حين كذبوهم وتبرءوا منهم (الذين كفروا) فى أنفسهم (وصدوا) غيرهم (عن سبيل الله) بالمنع عن الاسلام والحمل على الكفر (زدناهم عذابا فوق العذاب) الذى كانوا يستحقونه بكفرهم قيل فى زيادة عذابهم حيات أمثال البخت وعقارب أمثال البغال تلسع إحداهن فيجد صاحبها حمتها أربعين خريفا . وقيل يخرجون من النار الى الزمهرير فيبادرون من شدة البرد الى النار (بما كانوا يفسدون) متعلق بقوله زدناهم اى زدنا عذابهم بسبب استمرارهم على الافساد وهو الصد المذكور (ويوم نبعث) تكرير لما سبق تثنية للتهديد (فى كل أمة شهيدا عليهم) أى نبيا (من أنفسهم) من جنسهم قطعا لمعذرتهم وفى قوله تعالى عليهم اشعار بأن شهادة أنبيائهم على الأمم تكون بمحضر منهم (وجئنابك) إيثار لفظ المجيء على البعث لكمال العناية بشأنه عليه السلام . وصيغة الماضى للدلالة على تحقق الوقوع (شهيدا على هؤلاء) الأمم وشهدائهم كقوله تعالى « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنابك على هؤلاء شهيدا » وقيل على أمتك والعامل فى الظرف محذوف كما مر والمراد به يوم القيامة (ونزلنا عليك الكتاب) الكامل فى الكتابية الحقيق بأن يخص باسم الجنس وهو إما استئناف أو حال بتقدير قد (تبيانا) بيانا بليغا (لكل شىء) يتعلق بأمور الدين ومن جملة ذلك أحوال الأمم مع أنبيائهم عليهم السلام فيكون كالدليل على كونه عليه السلام شهيدا عليهم وكذا من جملة ما أخبر به هذه الآية الكريمة من بعث الشهداء وبعثه عليه السلام شهيدا عليهم عليهم الصلاة والسلام . والتبيان كالتلقاء فى كسر أوله وكونه تبيانا لكل شىء من أمور الدين باعتبار أن فيه نصا على بعضها واحالة لبعضها على السنة حيث أمر باتباع النبى عليه السلام وطاعته وقيل فيه وما ينطق عن الهوى وحثا على الاجماع وقد رضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لامته باتباع أصحابه حيث قال « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » وقد اجتهدوا وقاسوا ووطئوا طرق الاجتهاد فكانت السنة والاجماع والقياس مستندة الى تبيان الكتاب ولم يضر ما فى البعض من الخفاء فى كونه تبيانا فان المبالغة باعتبار الكمية دون الكيفية كما قيل فى قوله تعالى « وما أنا بظلام للعبيد » انه من قولك فلان ظالم لعبده وظلام لعبيده ومنه قوله سبحانه « وما للظالمين من أنصار »

(وهدى ورحمة) للعالمين فان حرمان الكفرة من مغانم آثاره من تفريطهم لامن جهة الكتاب (وبشرى للمسلمين) خاصة أو يكون كل ذلك خاصا بهم لانهم المنتفعون بذلك (إن الله يأمر) أى فيما نزله تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين وايثار صيغة الاستقبال فيه وفيما بعده لافادة التجدد والاستمرار (بالعدل) بمراعاة التوسط بين طرفى الافراط والتفريط وهو رأس الفضائل كلها يندرج تحته فضيلة القوة العقلية الملكية من الحكمة المتوسطة بين الجرمزة والبلادة . وفضيلة القوة الشهوية البهيمية من العفة المتوسطة بين الخلاعة والجمود .وفضيلة القوة الغضبية السبعية من الشجاعة المتوسطة بين التهور والجبن فمن الحكم الاعتقادية التوحيد المتوسط بين التعطيل والتشريك نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما أن العدل هو التوحيد والقول بالكسب المتوسط بين الجبر والقدر ومن الحكم العملية التعبد بأداء الواجبات المتوسط بين البطالة والترهب ومن الحكم الخلقية الجود المتوسط بين البخل والتبذير (والاحسان) أى الاتيان بما أمر به على الوجه اللائق وهو اما بحسب الكمية كالتطوع بالنوافل أو بحسب الكيفية كما يشير اليه قوله صلى الله عليه وسلم «الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فان لم يكن تراه فانه يراك » (وايتاء ذى القربى) أى اعطاء الاقارب ما يحتاجون اليه وهو تخصيص اثر تعميم اهتماما بشأنه (وينهى عن الفحشاء) الأفراط فى مشايعة القوة الشهوية كالزنا مثلا (والمنكر) ما ينكر شرعا أو عقلا من الافراط فى اظهار آثار القوة الغضبية (والبغى) الاستعلاء والاستيلاء على الناس والتجبر عليهم وهو من آثار القوة الوهمية الشيطانية التى هى حاصلة من رذيلتى القوتين المذكورتين الشهوية والغضبية. وليس فى البشر شر الا وهو مندرج فى هذه الاقسام صادر عنه بواسطة هذه القوى الثلاث ولذلك قال ابن مسعود رضى الله عنه هى أجمع آية فى القرآن للخير والشر ولو لم يكن فيه غير هذه الآية الكريمة لكفت فى كونه تبيانا لكل شىء وهدى (يعظكم) بما يأمر وينهى وهو إما استئناف وإما حال من الضميرين فى الفعلين (لعلكم تذكرون) طلبا لان تتعظوا بذلك (وأوفوا بعهد الله) هو البيعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فانها مبايعة لله سبحانه لقوله تعالى « ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله » (اذا عاهدتم) أى حافظوا على حدود ما عاهدتم الله عليه وبايعتم به رسوله صلى الله عليه وسلم (ولاتنقضوا الأيمان) التى تحلفون بها عند المعاهدة (بعد توكيدها) حسبما هو المعهود فى أثناء العهود لا على أن يكون النهى مقيدا بالتوكيد مختصا به (وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) شاهدا رقيبا فان الكفيل مراع لحال المكفول به محافظ عليه (إن الله يعلم ما تفعلون) من نقض الايمان

والعهود فيجازيكم على ذلك (ولا تكونوا) فيما تصنعون من النقض (كالتي نقضت غزلها) أي ما غزلته مصدر بمعنى المفعول (من بعد قوة) متعلق بنقضت أي كالمرأة التي نقضت غزلها من بعد ابرامه واحكامه (أنكاثا) طاقات نكثت فتلها جمع نكث وانتصابه على الحالية من غزلها . أو على أنه مفعول ثان لنقضت فانه بمعنى صيرت والمراد تقبيح حال النقض بتشبيه الناقض بمثل هذه الخرقاء المعتوهة قيل هي ريطة بنت سعد ابن تيم وكانت خرقاء اتخذت مغزلا قدر ذراع وصنارة مثل أصبع وفلكة عظيمة على قدرها فكانت تغزل هي وجواريها من الغداة الى الظهر ثم تأمرهن فينقضن ما غزلن (تتخذون أيمانكم دخلا بينكم) حال من الضمير في لاتكونوا أو في الجار والمجرور الواقع موقع الخبر أي مشابهين لامرأة شأنها هذا حال كونهم متخذين أيمانكم مفسدة ودخلا بينكم وأصل الدخل ما يدخل الشيء ولم يكن منه (أن تكون أمة) أي بان تكون جماعة (هي أربى) أي أزيد عددا وأوفر مالا (من أمة) من جماعة أخرى أي لاتغدروا بقوم لكثرتكم وقلتهم أو لكثرة منابذتهم وقوتهم كقريش فانهم كانوا اذا رأوا شوكة في أعادي حلفائهم نقضوا عهدهم وحالفوا أعداءهم (إنما يبلوكم الله به) أي بأن تكون أمة أربى من أمة أي يعاملكم بذلك معاملة من يختبركم لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وبيعة رسوله عليه السلام أم تغترون بكثرة قريش وشوكتهم وقلة المؤمنين وضعفهم بحسب ظاهر الحال (وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) حين جازاكم بأعمالكم ثوابا وعقابا (ولو شاء الله) مشيئة قسر وإلجاء (لجعلكم أمة واحدة) متفقة على الاسلام (ولكن) لايشاء ذلك لكونه مزاحما لقضية الحكمة بل (يضل من يشاء) اضلاله أي يخلق فيه الضلال حسبما يصرف اختياره الجزئي اليه (ويهدي من يشاء) هدايته حسبما يصرف اختياره الى تحصيلها (ولتسألن) جميعا يوم القيامة (عما كنتم تعملون) في الدنيا وهذا اشارة الى مالوح به من الكسب الذي عليه يدور أمر الهداية والضلال (ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم) تصريح بالنهي عنه بعد التضمين تأكيدا ومبالغة في بيان قبح المنهي عنه وتمهيدا لقوله سبحانه (فتزل قدم) عن محجة الحق (بعد ثبوتها) عليها ورسوخها فيها بالايمان وافراد القدم وتنكيرها للايذان بأن زلل قدم واحدة أي قدم كانت عزت أو هانت محذور عظيم فكيف بأقدام كثيرة (وتذوقوا السوء) أي العذاب الدنيوي (بما صددتم) بصدودكم أو بصدكم غيركم (عن سبيل الله) الذي ينتظم الوفاء بالعهود والايمان فان من نقض البيعة وارتد جعل ذلك سنة لغيره (ولكم) في الآخرة (عذاب عظيم ولا تشتروا بعهد الله) أي لاتأخذوا بمقابلة عهده

تعالى وبيعة رسوله عليه السلام أو آياته الناطقة بايجاب المحافظة على العهود والايمان (ثمنا قليلا) أى لا تستبدلوا بها عرضا يسيرا وهو ما كانت قريش يعدون ضعفة المسلمين ويشترطون لهم على الارتداد من حطام الدنيا (إن ماعند الله) عزوجل من النصر والتغنيم والثواب الاخروى (هو خير لكم) مما يعدونكم (إن كنتم تعلمون) أى ان كنتم من أهل العلم والتمييز وهو تعليل للنهى على طريقة التحقيق كما ان قوله تعالى (ماعندكم) تعليل للخيرية بطريق الاستئناف أى ماتتمتعون به من نعيم الدنيا وان جل بل الدنيا وما فيها جميعا (ينفد) وان جم عدده ويقضى وان طال أمده (وما عند الله) من خزائن رحمته الدنيوية والاخروية (باق)لا نفاد له أما الاخروية فظاهرة وأما الدنيوية فحيث كانت موصولة بالاخروية ومستتبعة لها فقد انتظمت فى سمط الباقيات الصالحات.وفى ايثار الاسم على صيغة المضارع من الدلالة على الدوام مالا يخفى وقوله تعالى (ولنجزين) بنون العظمة على طريقة الالتفات تكرير للوعد المستفاد من قوله تعالى« ان ماعند الله هو خير لكم »على نهج التوكيد القسمى مبالغة فى الحمل على الثبات فى الدين والالتفات عما يقتضيه ظاهر الحال من ان يقال ولنجزينكم أجركم بأحسن ما كنتم تعملون للتوسل الى التعرض لاعمالهم والاشعار بعليتها للجزاء اى والله لنجزين (الذين صبروا) على أذية المشركين ومشاق الاسلام التى من جملتها الوفاء بالعهود والفقر وقرىء بالياء من غير التفات (أجرهم) مفعول ثان لنجزين أى لنعطينهم أجرهم الخاص بهم بمقابلة صبرهم على مامنوا به من الامور المذكورة (بأحسن ما كانوا يعملون) أى لنجزينهم بما كانوا يعملونه من الصبر المذكور وانما أضيف اليه الاحسن للاشعار بكمال حسنه كما فى قوله سبحانه «وحسن ثواب الآخرة» لا لافادة قصر الجزاء على الاحسن منه دون الحسن فان ذلك مما لا يخطر ببال أحد لاسيما بعد قوله تعالى أجرهم أو لنجزينهم بحسب أحسن أفراد أعمالهم على معنى لنعطينهم بمقابلة الفرد الادنى من أعمالهم المذكورة مانعطيه بمقابلة الفرد الاعلى منها من الاجر الجزيل لا انا نعطى الاجر بحسب أفرادها المتفاوتة فى مراتب الحسن بأن نجزى الحسن منها بالاجر الحسن والأحسن بالأحسن وفيه مالا يخفى من العدة الجميلة باغتفار ما عسى يعتريهم فى تضاعيف الصبر من بعض جزع ونظمه فى سلك الصبر الجميل أو لنجزينهم بجزاء أحسن من أعمالهم وأما التفسير بما ترجح فعله من أعمالهم كالواجبات والمندوبات أو بما ترجح تركه أيضا كالمحرمات والمكروهات دلالة على ان ذلك هو المدار للجزاء دون ما يستوى فعله وتركه كالمباحات فلا يساعده مقام الحث على الثبات على ماهم عليه من الاعمال الحسنة المخصوصة

والترغيب فى تحصيل ثمراتها بل التعرض لاخراج بعض أعمالهم عن مدارية الجزاء من قبيل تحجير الرحمة الواسعة فى مقام توسيع حماها (من عمل صالحا) أي عملا صالحا أى عمل كان وهذا شروع فى تحريض كافة المؤمنين على كل عمل صالح غب ترغيب طائفة منهم فى الثبات على ما هم عليه من عمل صالح مخصوص دفعا لتوهم اختصاص الاجر الموفور بهم وبعملهم المذكور وقوله تعالى (من ذكر أو أنثى) مبالغة فى بيان شموله للكل (وهو مؤمن) قيده به اذ لا اعتداد باعمال الكفرة فى استحقاق الثواب أو تخفيف العذاب لقوله تعالى «وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا» وايثار ايراده بالجملة الاسمية الحالية على نظمه فى سلك الصلة لافادة وجوب دوامه ومقارنته للعمل الصالح (فلنحيينه حياة طيبة) فى الدنيا يعيش عيشا طيبا أما ان كان موسرا فظاهر وأما ان كان معسرا فيطيب عيشه بالقناعة والرضا بالقسمة وتوقع الاجر العظيم كالصائم يطيب نهاره بملاحظة نعيم ليله بخلاف الفاجر فانه ان كان معسرا فظاهر وان كان موسرا فلا يدعه الحرص وخوف الفوات أن يتهنأ بعيشه (ولنجزينهم) فى الآخرة (أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) حسبما نفعل بالصابرين فليس فيه شائبة تكرار والجمع فى الضمائر العائدة الى الموصول لمراعاة جانب المعنى كما ان الافراد فيما سلف لرعاية جانب اللفظ وايثار ذلك على العكس لما أن وقوع الجزاء بطريق الاجتماع المناسب للجمعية ووقوع ما فى حيز الصلة وما يترتب عليه بطريق الافتراق والتعاقب الملائم للافراد واذ قد انتهى الامر الى أن مدار الجزاء المذكور هو صلاح العمل وحسنه رتب عليه بالفاء الارشاد الى ما به يحسن العمل الصالح ويخلص عن شوب الفساد فقيل (فاذا قرأت القرآن) أى اذا أردت قراءته عبر بها عن ارادتها على طريقة اطلاق اسم المسبب على السبب ايذانا بان المراد هى الارادة المتصلة بالقراءة (فاستعذ بالله) فاسأله عز جاره أن يعيذك (من الشيطان الرجيم) من وساوسه وخطراته كى لا يوسوسك عند القراءة فان له همة بذلك قال تعالى « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته » الآية وتوجيه الخطاب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتخصيص قراءة القرآن من بين الاعمال الصالحة بالاستعاذة عند ارادتها للتنبيه على انها لغيره عليه الصلاة والسلام وفى سائر الاعمال الصالحة أهم فانه عليه السلام حيث أمر بها عند قراءة القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فما ظنكم بمن عداه عليه السلام فيما عدا القراءة من الاعمال . والامر للندب وهذا مذهب الجمهور . وعند عطاء للوجوب وقد أخذ بظاهر النظم الكريم فاستعاذ عقيب القراءة أبو هريرة رضى الله عنه ومالك

وابن سيرين وداود وحمزة من القراء. وعن ابن مسعود رضي الله عنه قرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت أعوذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم فقال عليه السلام «قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا أقرأنيه جبريل عليه السلام عن القلم عن اللوح المحفوظ» (انه) الضمير للشأن أو للشيطان (ليس له سلطان) تسلط وولاية (على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) أي اليه يفوضون أمورهم وبه يعوذون في كل ما يأتون وما يذرون فان وسوسته لا تؤثر فيهم ودعوته غير مستجابة عندهم. وايثار صيغة الماضي في الصلة الأولى للدلالة على التحقق كما أن اختيار صيغة الاستقبال في الثانية لافادة الاستمرار التجددي. وفي التعرض لوصف الربوبية عدة كريمة باعاذة المتوكلين والجملة تعليل للأمر بالاستعاذة أو لجوابه المنوي أي يعذك أو نحوه (انما سلطانه) أي تسلطه وولايته بدعوته المستتبعة للاستجابة لا سلطانه بالقسر والالجاء فانه منتف عن الفريقين لقوله سبحانه حكاية عنه «وما كان لي عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لي» وقد أفصح عنه قوله تعالى (على الذين يتولونه) أي يتخذونه ولياً ويستجيبون دعوته ويطيعونه فان المقسور بمعزل من ذلك (والذين هم به) سبحانه وتعالى (مشركون) أو بسبب الشيطان مشركون اذ هو الذي حملهم على الاشراك بالله سبحانه وقصر سلطانه عليهم غب نفيه عن المؤمنين المتوكلين دليل على أن لا واسطة في الخارج بين التوكل على الله تعالى وبين تولي الشيطان وان كان بينهما واسطة في المفهوم وأن من لم يتوكل عليه تعالى ينتظم في سلك من يتولى الشيطان من حيث لا يحتسب اذ به يتم التعليل ففيه مبالغة في الحمل على التوكل والتحذير عن مقابله. وايثار الجملة الفعلية الاستقبالية في الصلة الاولى لما مر من افادة الاستمرار التجددي كما أن اختيار الجملة الاسمية في الثانية للدلالة على الثبات. وتكرير الموصول للاحتراز عن توهم كون الصلة الثانية حالية مفيدة لعدم دخول غير المشركين من أولياء الشيطان تحت سلطانه. وتقديم الأولى على الثانية التي هي بمقابلة الصلة الأولى فيما سلف لرعاية المقارنة بينها وبين ما يقابلها من التوكل على الله تعالى ولو روعي الترتيب السابق لانفصل كل من القرينتين عما يقابلها (وإذا بدلنا آية مكان آية) أي اذا أنزلنا آية من القرآن مكان آية منه وجعلناها بدلا منها بان نسخناها بها (والله أعلم بما ينزل) أولا وآخرا وبأن كلا من ذلك ما نزلت حيثما نزلت إلا حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة فان كل وقت له مقتض غير مقتضى الآخر فكم من مصلحة في وقت تنقلب في وقت آخر مفسدة وبالعكس لانقلاب الأمور الداعية إلى ذلك وما الشرائع إلا مصالح للعباد في المعاش والمعاد تدور حسبما تدور المصالح. والجملة إما معترضة

لتوبيخ الكفرة والتنبيه على فساد رأيهم. وفى الالتفات الى الغيبة مع إسناد الخبر إلى الاسم الجليل المستجمع للصفات مالا يخفى من تربية المهابة وتحقيق معنى الاعتراض أو حالية وقرىء بالتخفيف من الانزال (قالوا) أى الكفرة الجاهلون بحكمة النسخ (انما أنت مفتر) أى متقول على الله تعالى تأمر بشيء ثم يبدو لك فتنهى عنه وحكاية هذا القول عنهم ههنا للايذان بأن ذلك كفرة ناشئة من نزغات الشيطان وأنه وليهم (بل أكثرهم لا يعلمون) أى لا يعلمون شيئاً أصلا أو لا يعلمون أن فى النسخ حكما بالغة. واسناد هذا الحكم إلى الاكثر لما أن منهم من يعلم ذلك وانما ينكره عنادا (قل نزله) أى القرآن المدلول عليه بالآية (روح القدس) يعنى جبريل عليه السلام أى الروح المطهر من الادناس البشرية. واضافة الروح الى القدس وهو الطهر كاضافة حاتم الى الجود حيث قيل حاتم الجود للمبالغة فى ذلك الوصف كأنه طبع منه. وفى صيغة التفعيل فى الموضعين اشعار بأن التدريج فى الانزال مما تقتضيه الحكم البالغة (من ربك) فى اضافة الرب الى ضميره صلى الله عليه وسلم من الدلالة على تحقيق افاضة آثار الربوبية عليه صلى الله عليه وسلم ما ليس فى اضافته الى ياء المتكلم المبنية على التلقين المحض (بالحق) أى ملتبسا بالحق الثابت الموافق للحكمة المقتضية له بحيث لا يفارقها انشاء ونسخا. وفيه دلالة على أن النسخ حق (ليثبت الذين آمنوا) على الايمان بأنه كلامه تعالى فانهم اذا سمعوا الناسخ وتدبروا ما فيه من رعاية المصالح اللائقة بالحال رسخت عقائدهم واطمأنت قلوبهم وقرىء ليثبت من الأفعال (وهدى وبشرى للمسلمين) المنقادين لحكمه تعالى وهما معطوفان على محل ليثبت أى تثبيتا وهداية وبشارة. وفيه تعريض بحصول أضداد الامور المذكورة لمن سواهم من الكفار (ولقد نعلم أنهم يقولون) غير ما نقل عنهم من المقالة الشنعاء (إنما يعلمه) أى القرآن (بشر) على طريق البت مع ظهور أنه نزله الروح القدس عليه الصلاة والسلام. وتحلية الجملة بفنون التأكيد لتحقيق ما تتضمنه من الوعيد وصيغة الاستقبال لافادة استمرار العلم بحسب الاستمرار التجددى فى متعلقه فانهم مستمرون على تفوه تلك العظيمة يعنون بذلك جبرا الرومى غلام عامر بن الحضرمى وقيل جبرا ويسارا كانا يصنعان السيف بمكة ويقرآن التوراة والانجيل وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يمر عليهما ويسمع ما يقرآنه وقيل عايشا غلام حويطب بن عبد العزى قد أسلم وكان صاحب كتب. وقيل سلمان الفارسى. وانما لم يصرح باسم من زعموا أنه يعلمه مع كونه أدخل فى ظهور كذبهم للايذان بأن مدار خطئهم ليس نسبته عليه السلام الى التعلم من شخص معين بل من البشر كائنا من كان مع كونه عليه السلام معدنا

لعلوم الأولين والآخرين (لسان الذى يلحدون اليه أعجمى) الالحاد الامالة من ألحد القبر اذا أمال حفره عن الاستقامة لحفر فى شق منه ثم استعير لكل إمالة عن الاستقامة فقالوا ألحد فلان فى قوله وألحد فى دينه أى لغة الرجل الذى يميلون اليه القول عن الاستقامة أعجمية غير بينة. وقرىء بفتح الياء والحاء وبتعريف اللسان (وهذا) أى القرآن الكريم (لسان عربى مبين) ذو بيان وفصاحة والجملتان مستأنفتان لابطال طعنهم وتقريره أن القرآن معجز بنظمه كما أنه معجز بمعناه فان زعمتم أن بشرا يعلمه معناه فكيف يعلمه هذا النظم الذى أعجز جميع أهل الدنيا والتشبث فى أثناء الطعن بأذيال أمثال هذه الخرافات الركيكة دليل على كمال عجزهم (إن الذين لايؤمنون بآيات الله) أى لايصدقون أنها من عند الله بل يقولون فيها مايقولون يسمونها تارة افتراء وأخرى أساطير معلمة من البشر (لايهديهم الله) الى الحق أو إلى سبيل النجاة هداية موصلة الى المطلوب لما علم أنهم لايستحقون ذلك لسوء حالهم (ولهم) فى الآخرة (عذاب أليم) وهذا تهديد لهم ووعيد على ماهم عليه من الكفر بآيات الله تعالى ونسبة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الافتراء والتعلم من البشر بعد اماطة شبهتهم ورد طعنهم وقوله تعالى (إنما يفترى الكذب الذين لايؤمنون بآيات الله) رد لقولهم انما أنت مفتر وقلب للامر عليهم ببيان أنهم هم المفترون بعد رده بتحقيق أنه منزل من عند الله بواسطة روح القدس وانما وسط بينهما قوله تعالى ولقد نعلم الآية لما لايخفى من شدة اتصاله بالرد الاول والمعنى والله تعالى أعلم أن المفترى هو الذى يكذب بآيات الله ويقول إنه افتراء ومعلم من البشر أى تكذيبها على الوجه المذكور هو الافتراء على الحقيقة لان حقيقته الكذب والحكم بأن ماهو كلامه تعالى ليس بكلامه تعالى فى كونه كذبا وافتراء كالحكم بأن ماليس بكلامه تعالى كلامه تعالى. والتصريح بالكذب للمبالغة فى بيان قبحه. وصيغة المضارع لرعاية المطابقة بينه وبين ماهو عبارة عنه أعنى قوله لايؤمنون. وقيل المعنى انما يفترى الكذب ويليق ذلك بمن لايؤمن بآيات الله لانه لايترقب عقابا عليه ليرتدع عنه وأما من يؤمن بها ويخاف ما نطقت به من العقاب فلا يمكن أن يصدر عنه افتراء ألبتة (وأولئك) الموصوفون بما ذكر من عدم الايمان بآيات الله (هم الكاذبون) على الحقيقة أو الكاملون فى الكذب اذلا كذب أعظم من تكذيب آياته تعالى والطعن فيها بأمثال هاتيك الاباطيل والسر فى ذلك أن الكذب الساذج الذى هو عبارة عن الاخبار بعدم وقوع ماهو واقع فى نفس الامر بخلق الله تعالى أو بوقوع مالم يقع كذلك مدافعة لله تعالى فى فعله فقط والتكذيب مدافعة له سبحانه فى فعله وقوله المنبىء عنه

معا أو الذين عاداتهم الكذب لا يزعهم عنه وازع من دين أو مروءة وقيل الكاذبون في قولهم انما أنت مفتر (من كفر بالله) أي تلفظ بكلمة الكفر (من بعد ايمانه) به تعالى وهو ابتداء كلام لبيان حال من كفر بآيات الله بعد ما آمن بها بعد بيان حال من لم يؤمن بها رأسا. ومن موصولة ومحلها الرفع على الابتداء والخبر محذوف لدلالة الخبر الآتي عليه أو هو خبر لهما معا أو النصب على الذم (إلا من أكره) على ذلك بأمر يخاف على نفسه أو على عضو من أعضائه وهو استثناء متصل من حكم الغضب والعذاب أو الذم لان الكفر لغة يتم بالقول كما أشير اليه وقوله تعالى (وقلبه مطمئن بالايمان) حال من المستثنى والعامل هو الكفر الواقع بالاكراه لا نفس الاكراه لان مقارنة اطمئنان القلب بالايمان للاكراه لا تجدى نفعا وانما المجدى مقارنته للكفر الواقع به أي الا من كفر باكراه أو الا من أكره فكفر والحال أن قلبه مطمئن بالايمان لم تتغير عقيدته وانما لم يصرح به ايماء الى أنه ليس بكفر حقيقة. وفيه دليل على أن الايمان هو التصديق بالقلب (ولكن من) لم يكن كذلك بل (شرح بالكفر صدرا) أي اعتقده وطاب به نفسا (فعليهم غضب) عظيم لا يكتنه كنهه (من الله) اظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وتقوية تعظيم العذاب (ولهم عذاب عظيم) اذ لا جرم أعظم من جرمهم. والجمع في الضميرين المجرورين لمراعاة جانب المعنى كما أن الافراد في المستكن في الضمير لرعاية جانب اللفظ روى أن قريشا أكرهوا عمارا وأبويه ياسرا وسمية على الارتداد فأباه أبواه فربطوا سمية بين بعيرين ووجئت بحربة في قبلها وقالوا انما أسلمت من أجل الرجال فقتلوها وقتلوا ياسرا وهما أول قتيلين في الاسلام وأما عمار فاعطاهم بلسانه ما أكرهوا عليه فقيل يارسول الله ان عمارا كفر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «كلا ان عمارا ملىء ايمانا من قرنه الى قدمه واختلط الايمان بلحمه ودمه» فأتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكي فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه وقال «مالك ان عادوا لك فعدلهم بما قلت» وهو دليل على جواز التكلم بكلمة الكفر عند الاكراه الملجىء وان كان الافضل أن يتجنب عنه اعزازا للدين كما فعله أبواه. وروى أن مسيلمة الكذاب أخذ رجلين فقال لاحدهما ما تقول في محمد. قال رسول الله قال فما تقول في. قال فأنت أيضا فخلاه وقال للآخر ما تقول في محمد. قال رسول الله قال فما تقول في. قال أنا أصم فأعاد ثلاثا فأعاد جوابه فقتله فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «أما الاول فقد أخذ برخصة الله وأما الثاني فقد صدع بالحق» (ذلك) اشارة الى الكفر بعد الايمان أو الى الوعيد المذكور (بأنهم) بسبب أنهم (استحبوا الحياة الدنيا) آثروها (على الآخرة وأن

الله لا يهدى) الى الايمان والى ما يوجب الثبات عليه هداية قسر و إلجاء (القوم الكافرين) فى علمه المحيط فلا يعصمهم عن الزيغ وما يؤدى اليه من الغضب والعذاب العظيم ولولا أحد الامرين: اما ايثار الحياة الدنيا على الآخرة واما عدم هداية الله سبحانه للكافرين هداية قسر بان آثروا الآخرة على الدنيا أو بأن هداهم الله تعالى هداية قسر لما كان ذلك لكن الثانى مخالف للحكمة والاول مالا يدخل تحت الوقوع واليه أشير بقوله تعالى (أولئك) أى أولئك الموصوفون بما ذكر من القبائح (الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم) فأبت عن ادراك الحق والتأمل فيه (وأولئك هم الغافلون) أى الكاملون فى الغفلة اذلا غفلة أعظم من الغفلة عن تدبر العواقب (لاجرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون) اذ ضيعوا أعمارهم وصرفوها الى مالا يفضى الا الى العذاب المخلد (ثم إن ربك للذين هاجروا) الى دار الاسلام وهم عمار واصحابه رضى الله عنهم أى لهم بالولاية والنصر لا عليهم كما يوجبه ظاهر أعمالهم السابقة فالجار والمجرور خبر لان. ويجوز أن يكون خبرها محذوفا لدلالة الخبر الآتى عليه. ويجوز أن يكون ذلك خبرا لها وتكون ان الثانية تأكيدا للاولى ثم للدلالة على تباعد رتبة حالهم هذه عن رتبة حالهم التى يفيدها الاستثناء من مجرد الخروج عن حكم الغضب والعذاب بطريق الاشارة لا عن رتبة حال الكفرة (من بعد ما فتنوا) أى عذبوا على الارتداد وتلفظوا بما يرضيهم مع اطمئنان قلوبهم بالايمان. وقرئ على بناء الفاعل أى عذبوا المؤمنين كالحضرمى أكره مولاه جبرا حتى ارتد ثم أسلما وهاجرا (ثم جاهدوا) فى سبيل الله (وصبروا) على مشاق الجهاد (إن ربك من بعدها) من بعد المهاجرة والجهاد والصبر فهو تصريح بما أشعر به بناء الحكم على الموصول من علية الصلة له أو من بعد الفتنة المذكورة فهو لبيان عدم اخلال ذلك بالحكم (لغفور) لما فعلوا من قبل (رحيم) ينعم عليهم مجازاة على ماصنعوا من بعد. وفى التعرض لعنوان الربوبية فى الموضعين ايماء إلى علة الحكم. وفى اضافة الرب الى ضميره عليه السلام مع ظهور الاثر فى الطائفة المذكورة اظهار لكمال اللطف به عليه السلام واشعار بأن افاضة آثار الربوبية عليهم من المغفرة والرحمة بواسطته عليه السلام ولكونهم أتباعا له (يوم تأتى كل نفس) منصوب برحيم وما رتب عليه أو باذكر وهو يوم القيامة يوم يقوم الناس لرب العالمين (تجادل عن نفسها) عن ذاتها تسعى فى خلاصها بالاعتذار لا يهمها شأن غيرها فتقول نفسى نفسى (وتوفى كل نفس) أى تعطى وافيا كاملا (ما عملت) أى جزاء ما عملت بطريق اطلاق اسم السبب على المسبب اشعارا بكمال الاتصال بين الاجزية والاعمال. وايثار

الاظهار على الاضمار لزيادة التقرير وللايذان باختلاف وقتى المجادلة والتوفية و إن كانتا فى يوم واحد (وهم لا يظلمون) لا ينقصون أجورهم أو لا يعاقبون بغير موجب ولا يزاد فى عقابهم على ذنوبهم (وضرب الله مثلا قرية) قيل ضرب المثل صنعه واعتماله وقد مر تحقيقه فى سورة البقرة ولا يتعدى إلا إلى مفعول واحد . وانما عدى الى الاثنين لتضمينه معنى الجعل وتأخير قرية مع كونها مفعولا أول لئلا يحول المفعول الثانى بينها وبين صفتها وما يترتب عليها اذ التأخير عن الكل مخل بتجاذب أطراف النظم وتجاوبها ولان تأخير ما حقه التقديم مما يورث النفس ترقبا لوروده وتشوقا اليه لاسيما اذا كان فى المتقدم ما يدعو اليه فان المثل مما يدعو الى المحافظة على تفاصيل أحوال ماهو مثل فيتمكن المؤخر عند وروده لديها فضل تمكن والقرية اما محققة فى الغابرين وأما مقدرة أى جعلها مثلا لاهل مكة خاصة أو لكل قوم أنعم الله تعالى عليهم فأبطرتهم النعمة ففعلوا مافعلوا فبدل الله تعالى بنعمتهم نقمة ودخل فيهم أهل مكة دخولا أوليا (كانت آمنة) ذات أمن من كل مخوف (مطمئنة) لا يزعج أهلها مزعج (يأتيها رزقها) أقوات أهلها صفة ثانية لقرية . وتغيير سبكها عن الصفة الاولى لما أن اتيان رزقها متجدد وكونها آمنة مطمئنة ثابت مستمر (رغدا) واسعا (من كل مكان) من نواحيها (فكفرت) أى كفر أهلها (بأنعم الله) أى بنعمه جمع نعمة على ترك الاعتداد بالتاء كدرع وأدرع أو جمع نعم كبؤس وأبؤس والمراد بها نعمة الرزق والأمن المستمر وايثار جمع القلة للايذان بأن كفران نعمة قليلة حيث أوجب هذا العذاب فما ظنك بكفران نعم كثيرة (فأذاقها الله) أى أذاق أهلها (لباس الجوع والخوف) شبه أثر الجوع والخوف وضررهما المحيط بهم باللباس الغاشى للابس فاستعير له اسمه وأوقع عليه الاذاقة المستعارة لمطلق الايصال المنبئة عن شدة الاصابة بما فيها من اجتماع ادراكى اللامسة والذائقة على نهج التجريد فانها لشيوع استعمالها فى ذلك وكثرة جريانها على الألسنة جرت مجرى الحقيقة كقول كثير :

غمر الرداء اذا تبسم ضاحكا … غلقت لضحكته رقاب المال

فان الغمر مع كونه فى الحقيقة من أحوال الماء الكثير لما كان كثير الاستعمال فى المعروف المشبه بالماء الكثير جرى مجرى الحقيقة فصارت اضافته الى الرداء المستعار للمعروف تجريدا . أو شبه أثرهما وضررهما من حيث الاحاطة بهم والكراهة لديهم تارة باللباس الغاشى للابس المناسب للخوف بجامع الاحاطة واللزوم تشبيه معقول بمحسوس فاستعير له اسمه استعارة تصريحية . وأخرى بطعم المر البشع الملائم للجوع الناشىء من فقد الرزق بجامع الكراهة فأومىء اليه بأن أوقع عليه الاذاقة المستعارة لايصال الضار المنبئة

عن شدة الاصابة بما فيهامن اجتماع ادراكى اللامسة والذائقة . وتقديم الجوع الناشىء مما ذكر من فقدان الرزق على الخوف المترتب على زوال الأمن المقدم فيما تقدم على اتيان الرزق لكونه أنسب بالأذاقة أولمراعاة المقارنة بينها وبين اتيان الرزق وقد قرىء بتقديم الخوف وبنصبه أيضا عطفا على المضاف أو إقامة له مقام مضاف محذوف وأصله ولباس الخوف (بما كانوا يصنعون) فيما قبل أو على وجه الاستمرار وهو الكفران المذكور أسند ذلك الى أهل القرية تحقيقا للامر بعد اسناد الكفران اليها وايقاع الاذاقة عليها ارادة للمبالغة . وفى صيغة الصنعة ايذان بأن كفران النعمة صار صنعة راسخة لهم وسنة مسلوكة (ولقد جاءهم) من تتمة المثل جىء بها لبيان أن ما فعلوه من كفران النعم لم يكن مزاحمة منهم لقضية العقل فقط بل كان ذلك معارضة لحجة الله على الخلق أيضا أى ولقد جاء أهل تلك القرية (رسول منهم) أى من جنسهم يعرفونه بأصله ونسبه فاخبرهم بوجوب الشكر على النعمة وأنذرهم سوء عاقبة ما يأتون وما يذرون (فكذبوه) فى رسالته أو فيما أخبرهم به مما ذكر فالفاء فصيحة وعدم ذكره للايذان بمفاجأتهم بالتكذيب من غير تلعثم (فأخذهم العذاب) المستأصل لشأفتهم غب ما ذاقوا نبذة من ذلك (وهم ظالمون) أى حال التباسهم بما هم عليه من الظلم الذى هو كفران نعم الله تعالى وتكذيب رسوله غير مقلعين عنه بما ذاقوا من مقدماته الزاجرة عنه . وفيه دلالة على تماديهم فى الكفر والعناد وتجاوزهم فى ذلك كل حد معتاد . وترتيب العذاب على تكذيب الرسول جرى على سنة الله تعالى حسبما يرشد اليه قوله سبحانه «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا» وبه يتم التمثيل فان حال أهل مكة سواء ضرب المثل لهم خاصة أو لمن سار سيرتهم كافة محاذية لحال أهل تلك القرية حذوا لقذة بالقذة من غير تفاوت بينهما ولو فى خصلة فذة كيف لا وقد كانوا فى حرم آمن ويتخطف الناس من حولهم وما يمر ببالهم طيف من الخوف وكانت تجبى اليه ثمرات كل شىء ولقد جاءهم رسول منهم وأى رسول تحار فى إدراك سمو رتبته العقول صلى الله عليه وسلم ما اختلف الدبور والقبول فكفروا بأنعم الله وكذبوا رسوله عليه السلام فاذاقهم الله لباس الجوع والخوف حيث أصابهم بدعائه عليه السلام بقوله « اللهم أعن عليهم بسبع كسبع يوسف » ما أصابهم من جدب شديد وأزمة حصت كل شىء حتى اضطرتهم إلى أكل الجيف والكلاب الميتة والعظام المحروقة والعلهز وهو الوبر المعالج بالدم وقد ضاقت عليهم الارض بما رحبت من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كانوا يغيرون على مواشيهم وعيرهم وقوافلهم ثم أخذهم

يوم بدر ما أخذهم من العذاب هذا هو الذي يقتضيه المقام ويستدعيه حسن النظام وأما ما أجمع عليه أكثر أهل التفسير من أن الضمير في قوله تعالى «ولقد جاءهم» لأهل مكة قد ذكر حالهم صريحا بعد ما ذكر مثلهم وأن المراد بالرسول محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبالعذاب ما أصابهم من الجدب ووقعة بدر فبمعزل من التحقيق كيف لا وقوله سبحانه (فكلوا مما رزقكم الله) مفرع على نتيجة التمثيل وصد لهم عما يؤدي الى مثل عاقبته والمعنى وإذ قد استبان لكم حال من كفر بأنعم الله وكذب رسوله وما حل بهم بسبب ذلك من اللتيا والتي أولا وآخراً فانتهوا عما أنتم عليه من كفران النعم وتكذيب الرسول عليه السلام كيلا يحل بكم مثل ما حل بهم واعرفوا حق نعم الله تعالى وأطيعوا رسوله عليه السلام في أمره ونهيه وكلوا من رزق الله حال كونه (حلالا طيبا) وذروا ما تفترون من تحريم البحائر ونحوها (واشكروا نعمة الله) واعرفوا حقها ولا تقابلوها بالكفران. والفاء في المعنى داخلة على الامر بالشكر وإنما أدخلت على الامر بالاكل لكون الاكل ذريعة الى الشكر فكأنه قيل فاشكروا نعمة الله غب أكلها حلالا طيبا وقد أدمج فيه النهي عن زعم الحرمة ولا ريب في أن هذا إنما يتصور حين كان العذاب المستأصل متوقعا بعد وقد تمهدت مباديه وبعد ما وقع فمن ذا الذي يحذر ومن ذا الذي يؤمر بالاكل والشكر وحمل قوله تعالى «فأخذهم العذاب وهم ظالمون» على الاخبار بذلك قبل الوقوع يأباه التصدي لاستصلاحهم بالأمر والنهي وتوجيه خطاب الامر بالاكل الى المؤمنين مع أن ما يتلوه من خطاب النهي متوجه الى الكفار كما فعله الواحدي حيث قال فكلوا أنتم يامعشر المؤمنين مما رزقكم الله من الغنائم مما لا يليق بشأن التنزيل الجليل (إن كنتم إياه تعبدون) أي تطيعون أو ان صح زعمكم انكم تقصدون بعبادة الآلهة عبادته تعالى (انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به) تعليل لحل ما أمرهم بأكله مما رزقهم أي انما حرم هذه الأشياء دون ما تزعمون حرمته من البحائر والسوائب ونحوها (فمن اضطر) بما اعتراه من الضرورة فتناول شيئاً من ذلك (غير باغ) أي على مضطر آخر (ولا عاد) أي متجاوز قدر الضرورة (فأن ربك غفور رحيم) أي لا يؤاخذه بذلك فأقيم سببه مقامه. وفي التعرض لوصف الربوبية ايماء الى علة الحكم وفي الاضافة الى ضميره عليه السلام اظهار لكمال اللطف به عليه السلام. وتصدير الجملة بانما لحصر المحرمات في الأجناس الاربعة الاماضم اليه كالسباع والحمر الاهلية ثم أكد ذلك بالنهي عن التحريم والتحليل بأهوائهم فقال (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم) اللام صلة مثلها

فى قوله تعالى «ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات» أى لا تقولوا فى شأن ما تصفه ألسنتكم من البهائم بالحل والحرمة فى قولكم : مافى بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا من غير ترتب ذلك الوصف على ملاحظة وفكر فضلا عن استناده الى وحى أو قياس مبنى عليه (الكذب) منتصب بلا تقولوا وقوله تعالى (هذا حلال وهذا حرام) بدل منه . ويجوز أن يتعلق بتصف على ارادة القول أى لا تقولوا لما تصف ألسنتكم فتقول هذا حلال وهذا حرام وأن يكون القول المقدر حالا من ألسنتهم أى قائلة هذا حلال الخ ويجوز أن ينتصب الكذب بتصف ويتعلق هذا حلال الخ بلا تقولوا . واللام للتعليل وما مصدرية أى لا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لوصف ألسنتكم الكذب أى لا تحلوا ولا تحرموا لمجرد وصف ألسنتكم الكذب وتصويرها له بصورة مستحسنة وتزيينها له فى المسامع كأن ألسنتهم لكونها منشأ للكذب ومنبعا للزور شخص عالم بكنهه ومحيط بحقيقته يصفه للناس ويعرفه أوضح وصف وأبين تعريف على طريقة الاستعارة بالكناية كما يقال وجهه يصف الجمال وعينه تصف السحر وقرىء بالجر صفة لما مع مدخولها كأنه قيل لوصفها الكذب بمعنى الكاذب كقوله تعالى «بدم كذب» والمراد بالوصف وصفها البهائم بالحل والحرمة . وقرىء الكذب جمع كذوب بالرفع صفة للألسنة وبالنصب على الشتم أو بمعنى الكلم الكواذب أو هو جمع الكذاب من قولهم كذب كذابا ذكره ابن جنى (لتفتروا على الله الكذب) فان مدار الحل والحرمة ليس الا أمر الله تعالى فالحكم بالحل والحرمة اسناد للتحليل والتحريم الى الله سبحانه من غير أن يكون ذلك منه . واللام لام العاقبة (إن الذين يفترون على الله الكذب) فى أمر من الامور (لا يفلحون) لا يفوزون بمطالبهم التى ارتكبوا الافتراء للفوز بها (متاع قليل) خبر مبتدأ محذوف أى منفعتهم فيما هم عليه من أفعال الجاهلية منفعة قليلة (ولهم) فى الآخرة (عذاب أليم) لا يكتنه كنهه (وعلى الذين هادوا) خاصة دون غيرهم من الاولين والآخرين (حرمنا ما قصصنا عليك) أى بقوله تعالى حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما الآية (من قبل) متعلق بقصصنا أو بحرمنا وهو تحقيق لما سلف من حصر المحرمات فيما فصل بابطال ما يخالفه من فرية اليهود وتكذيبهم فى ذلك فانهم كانوا يقولون لسنا أول من حرمت عليه وانما كانت محرمة على نوح وابراهيم ومن بعدهما حتى انتهى الامر الينا (وما ظلمناهم) بذلك التحريم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) حيث فعلوا ما عوقبوا به عليه حسبما نعى عليهم قوله تعالى « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم » الآية ولقد ألقمهم

الحجر قوله تعالى «كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل الا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين» روى أنه عليه الصلاة والسلام لما قال لهم ذلك بهتوا ولم يجسروا أن يخرجوا التوراة كيف وقد بين فيها أن تحريم ما حرم عليهم من الطيبات لظلمهم وبغيهم عقوبة وتشديدا أوضح بيان. وفيه تنبيه على الفرق بينهم وبين غيرهم في التحريم (ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة) أي بسبب جهالة أو ملتبسين بها ليعم الجهل بالله وبعقابه وعدم التدبر في العواقب لغلبة الشهوة والسوء يعم الافتراء على الله تعالى وغيره (ثم تابوا من بعد ذلك) أي من بعد ما عملوا والتصريح به مع دلالة ثم عليه للتأكيد والمبالغة (وأصلحوا) أي أصلحوا أعمالهم أو دخلوا في الصلاح (إن ربك من بعدها) من بعد التوبة (لغفور) لذلك السوء (رحيم) يثيب على طاعته تركا وفعلا. وتكرير قوله تعالى « إن ربك » لتأكيد الوعد واظهار كمال العناية بانجازه. والتعرض لوصف الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام مع ظهور الاثر في التائبين للايماء الى أن افاضة آثار الربوبية من المغفرة والرحمة عليهم بتوسطه عليه السلام وكونهم من أتباعه كما أشير اليه فيما مر (إن ابراهيم كان أمة) على حياله لحيازته من الفضائل البشرية مالا تكاد توجد الا متفرقة في أمة جمة حسبما قيل:

ليس على الله بمستنكر ... أن يجمع العالم في واحد

وهو رئيس أهل التوحيد وقدوة أصحاب التحقيق جادل أهل الشرك وألقمهم الحجر ببينات باهرة لاتبقي ولاتذر. وأبطل مذاهبهم الزائغة بالبراهين القاطعة والحجج الدامغة أو لانه عليه السلام كان مؤمنا وحده والناس كلهم كفار. وقيل هي فعلة بمعنى مفعول كالرحلة والنخبة من أمه اذا قصده أو اقتدى به فان الناس كانوا يقصدونه ويقتدون بسيرته لقوله تعالى« إني جاعلك للناس إماما » وإيراد ذكره عليه السلام عقيب تزييف مذاهب المشركين من الشرك والطعن في النبوة وتحريم ما أحله الله تعالى للايذان بأن حقية دين الاسلام وبطلان الشرك وفروعه أمر ثابت لا ريب فيه (قانتا لله) مطيعا له قائما بأمره (حنيفا) مائلا عن كل دين باطل الى الدين الحق غير زائل عنه بحال (ولم يك من المشركين) في أمر من أمور دينهم أصلا وفرعا صرح بذلك مع ظهوره لا ردا على كفار قريش فقط في قولهم نحن على ملة أبينا ابراهيم بل عليهم وعلى اليهود المشركين بقولهم عزير ابن الله في افترائهم وادعائهم أنه عليه الصلاة والسلام كان على ما هم عليه كقوله سبحانه «ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين » اذ به ينتظم أمر ايراد التحريم والسبت سابقا ولاحقا

(شاكرا لأنعمه) صفة ثالثة لأمة وانما أوثر صيغة جمع القلة للايذان بانه عليه السلام كان لا يخل بشكر النعمة القليلة فكيف بالكثيرة وللتصريح بكونه عليه السلام على خلاف ماهم عليه من الكفران بأنعم الله تعالى حسبما بين ذلك بضرب المثل (اجتباه) للنبوة (وهداه إلى صراط مستقيم) موصل اليه سبحانه وهو ملة الاسلام وليست نتيجة هذه الهداية مجرد اهتدائه عليه السلام بل مع ارشاد الخلق أيضا بمعونة قرينة الاجتباء (وآتيناه فى الدنيا حسنة) حالة حسنة من الذكر الجميل والثناء فيما بين الناس قاطبة حتى انه ليس من أهل دين الا وهم يتولونه. وقيل هى الخلة والنبوة. وقيل قول المصلى منا كما صليت على ابراهيم. والالتفات الى التكلم لاظهار كمال الاعتناء بشأنه وتفخيم مكانه عليه الصلاة والسلام (وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) أصحاب الدرجات العالية فى الجنة حسبما سأله بقوله «وألحقنى بالصالحين واجعل لى لسان صدق فى الآخرين واجعلنى من ورثة جنة النعيم» (ثم أوحينا إليك) مع علو طبقتك وسمو رتبتك (أن اتبع ملة إبراهيم) الملة اسم لما شرعه الله تعالى لعباده على لسان الانبياء عليهم السلام من أمللت الكتاب اذا أمليته وهو الدين بعينه لكن باعتبار الطاعة له وتحقيقه أن الوضع الالهى مهما نسب الى من يؤديه عن الله تعالى يسمى ملة ومهما نسب الى من يقيمه ويعمل به يسمى دينا. قال الراغب الفرق بينهما أن الملة لاتضاف الا الى النبى عليه السلام ولاتكاد توجد مضافة الى الله سبحانه ولا الى آحاد الامة ولا تستعمل الا فى جملة الشرائع دون آحادها والمراد بملته عليه السلام الاسلام الذى عبر عنه آنفا بالصراط المستقيم (حنيفا) حال من المضاف اليه لما أن المضاف لشدة اتصاله به عليه السلام جرى منه مجرى البعض فعد بذلك من قبيل رأيت وجه هند قائمة والمأمور به الاتباع فى الاصول دون الشرائع المتبدلة بتبدل الاعصار. وما فى ثم من التراخى فى الرتبة للايذان بأن هذه النعمة من أجل النعم الفائضة عليه عليه السلام (وما كان من المشركين) تكرير لما سبق لزيادة تأكيد وتقرير لنزاهته عليه السلام عما هم عليه من عقد وعمل وقوله تعالى (إنما جعل السبت) أى فرض تعظيمه والتخلى فيه للعبادة وترك الصيد فيه تحقيق لذلك النفى الكلى وتوضيح له بابطال ماعسى أن يتوهم كونه قادحا فى كليته حسبما سلف فى قوله تعالى «وعلى الذين هادوا حرمنا» الخ فأن اليهود كانوا يدعون أن السبت من شعائر الاسلام وأن ابراهيم عليه السلام كان محافظا عليه أى ليس السبت من شرائع ابراهيم وشعائر ملته التى أمرت باتباعها حتى يكون بينه عليه الصلاة والسلام وبين بعض المشركين علاقة فى الجملة. وانما شرع ذلك لبنى اسرائيل بعد مدة طويلة

وايراد الفعل مبنيا للمفعول جرى على سنن الكبرياء وايذان بعدم الحاجة الى التصريح بالفاعل لاستحالة الاسناد الى الغير . وقد قرىء على البناء للفاعل وانما عبر عن ذلك بالجعل موصولا بكلمة على وعنهم بالاسم الموصول باختلافهم فقيل انما جعل السبت (على الذين اختلفوا فيه) للايذان بتضمنه للتشديد والابتلاء المؤدى الى العذاب وبكونه معللا باختلافهم فى شأنه قبل الوقوع ايثارا له على ما أمر الله تعالى به واختيارا للعكس لكن لا باعتبار شمول العلية لطرفى الاختلاف وعموم الغائلة للفريقين بل باعتبار حال منشأ الاختلاف من الطرف المخالف للحق وذلك أن موسى عليه الصلاة والسلام أمر اليهود أن يجعلوا فى الاسبوع يوما واحداً للعبادة وأن يكون ذلك يوم الجمعة فأبوا عليه وقالوا نريد اليوم الذى فرغ الله تعالى فيه من خلق السموات والارض وهو السبت الاشرذمة منهم قد رضوا بالجمعة فاذن الله تعالى لهم فى السبت وابتلاهم بتحريم الصيد فيه فاطاع أمر الله تعالى الراضون بالجمعة فكانوا لا يصيدون وأعقابهم لم يصبروا عن الصيد فمسخهم الله سبحانه قردة دون أولئك المطيعين (وإن ربك ليحكم بينهم) أى بين الفريقين المختلفين فيه (يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) أى يفصل مابينهما من الخصومة والاختلاف فيجازى كل فريق بما يستحقه من الثواب والعقاب . وفيه ايماء الى أن ماوقع فى الدنيا من مسخ أحد الفريقين وانجاء الآخر بالنسبة الى ماسيقع فى الآخرة شيء لا يعتد به هذا هو الذى يستدعيه الاعجاز التنزيلى . وقيل المعنى انما جعل وبال السبت وهو المسخ على الذين اختلفوا فيه أي أحلوا الصيد فيه تارة وحرموه أخرى وكان حتما عليهم أن يتفقوا على تحريمه حسبما أمر الله سبحانه به وفسر الحكم بينهم بالمجازاة باختلاف أفعالهم بالاحلال تارة والتحريم أخرى . ووجه ايراده ههنا بأنه أريد به انذار المشركين من سخط الله تعالى على العصاة والمخالفين لاوامره كضرب المثل بالقرية التى كفرت بأنعم الله تعالى ولا ريب فى أن كلمة بينهم تحكم بأن المراد بالحكم هو فصل مابين الفريقين من الاختلاف وأن توسيط حديث المسخ للانذار المذكور بين حكاية أمر النبى صلى الله عليه وسلم باتباع ملة ابراهيم عليه الصلاة والسلام وبين أمره صلى الله عليه وسلم بالدعوة اليها من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه فتأمل (أدع) أى من بعثت اليهم من الامة قاطبة فحذف المفعول للتعميم أو افعل الدعوة كما فى قولهم يعطى ويمنع أى يفعل الاعطاء والمنع فحذفه القصد الى ايجاد نفس الفعل اشعارا بأن عموم الدعوة غنى عن البيان وانما المقصود الامر بايجادها على وجه مخصوص (إلى سبيل ربك) الى الاسلام

الذى عبر عنه تارة بالصراط المستقيم وأخرى بملة ابراهيم عليه السلام . وفى التعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن المالكية وتبليغ الشىء الى كماله اللائق شيئا فشيئا مع اضافة الرب الى ضمير النبى عليه الصلاة والسلام فى مقام الامر بدعوة الامة على الوجه الحكيم وتكميلهم باحكام الشريعة الشريفة من الدلالة على اظهار اللطف به عليه الصلاة والسلام والايماء الى وجه بناء الحكم مالا يخفى (بالحكمة) أى بالمقالة المحكمة الصحيحة وهو الدليل الموضح للحق المزيح للشبهة (والموعظة الحسنة) أى الخطابيات المقنعة والعبر النافعة على وجه لايخفى عليهم أنك تناصحهم وتقصد ماينفعهم فالاولى لدعوة خواص الامة الطالبين للحقائق والثانية لدعوة عوامهم . ويجوز أن يكون المراد بهما القرآن المجيد فانه جامع لكلا الوصفين (وجادلهم) أى ناظر معانديهم (بالتى هى أحسن) بالطريقة التى هى أحسن طرق المناظرة والمجادلة من الرفق واللين واختيار الوجه الايسر واستعمال المقدمات المشهورة تسكينا لشغبهم واطفاء للهبهم كما فعل الخليل عليه السلام (إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله) الذى أمرك بدعوة الخلق اليه وأعرض عن قبول الحق بعدما عاين ماعاين من الحكم والمواعظ والعبر (وهو أعلم بالمهتدين) اليه بذلك وهو تعليل لما ذكر من الامرين والمعنى والله تعالى أعلم اسلك فى الدعوة والمناظرة الطريقة المذكورة فانه تعالى هو أعلم بحال من لا يرعوى عن الضلال بموجب استعداده المكتسب وبحال من يصير أمره الى الاهتداء لما فيه من خير جبلى فما شرعه لك فى الدعوة هو الذى تقتضيه الحكمة فانه كاف فى هداية المهتدين وازالة عذر الضالين . أو ما عليك الا ما ذكر من الدعوة والمجادلة بالاحسن وأما حصول الهداية والضلال والمجازاة عليهما فالى الله سبحانه اذهو أعلم بمن يبقى على الضلال وبمن يهتدى اليه فيجازى كلا منهما بما يستحقه . وتقديم الضالين لما أن مساق الكلام لهم . وايراد الضلال بصيغة الفعل الدال على الحدوث لما أنه تغيير لفطرة الله التى فطر الناس عليها واعراض عن الدعوة وذلك أمر عارض بخلاف الاهتداء الذى هو عبارة عن الثبات على الفطرة والجريان على موجب الدعوة ولذلك جىء به على صيغة الاسم المنبىء عن الثبات . وتكرير هو أعلم للتأكيد والاشعار بتباين حال المعلومين وما لهما من العقاب والثواب وبعد ماأمره عليه الصلاة والسلام فيما يختص به من شأن الدعوة بما أمره به من الوجه اللائق عقبه بخطاب شامل لهم ولمن شايعه فيما يعم الكل فقال (وإن عاقبتم) أى ان أردتم المعاقبة على طريقة قول الطبيب للمحتمى ان أكلت فكل قليلا (فعاقبوا بمثل ماعوقبتم

به) أى بمثل ما فعل بكم وقد عبر عنه بالعقاب على طريقة اطلاق اسم المسبب على السبب نحو: كما تدين تدان أو على نهج المشاكلة والمقصود ايجاب مراعاة العدل مع من يناصبهم من غير تجاوز حين ما آل الجدال الى القتال وأدى النزاع الى القراع فان الدعوة المأمور بها لا تكاد تنفك عن ذلك كيف لا وهى موجبة لصرف الوجوه عن القبل المعبودة وادخال الاعناق فى قلادة غير معهودة قاضية عليهم بفساد ما يأتون وما يذرون وبطلان دين استمرت عليهم آباؤهم الأولون وقد ضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل وسدت عليهم طرق المحاجة والمناظرة وأرتجت دونهم أبواب المباحثة والمحاورة وقيل إنه عليه الصلاة والسلام لما رأى حمزة رضى الله عنه يوم أحد قد مثل به قال « لئن أظفرنى الله بهم لأمثلن بسبعين مكانك» فنزلت فكفر عن يمينه وكف عما أراده وقرىء وان عقبتم فعقبوا أي وان قفيتم بالانتصار فقفوا بمثل ما فعل بكم غير متجاوزين عنه والامر وان دل على اباحة المماثلة فى المثلة من غير تجاوز لكن فى تقييده بقوله وان عاقبتم حث على العفو تعريضا وقد صرح به على الوجه الآكد فقيل (ولئن صبرتم) أى عن المعاقبة بالمثل (لهو) أى لصبركم ذلك (خير) لكم من الانتصار بالمعاقبة وانما قيل (للصابرين) مدحا لهم وثناء عليهم بالصبر أو وصفا لهم بصفة تحصل لهم عند ترك المعاقبة. ويجوز عود الضمير الى مطلق الصبر المدلول عليه بالفعل فيدخل فيه صبرهم كدخول أنفسهم فى جنس الصابرين دخولا أوليا ثم أمر عليه الصلاة والسلام صريحا بما ندب اليه غيره تعريضا من الصبر لأنه أولى الناس بعزائم الأمور لزيادة علمه بشئونه سبحانه ووفور وثوقه به فقيل (واصبر) أى على ما أصابك من جهتهم من فنون الآلام والاذية وعاينت من اعراضهم عن الحق بالكلية (وما صبرك إلا بالله) استثناء مفرغ من أعم الأشياء أى وما صبرك ملابسا ومصحوبا بشىء من الأشياء إلا بالله أى بذكره والاستغراق فى مراقبة شئونه والتبتل اليه بمجامع الهمة . وفيه من تسليته عليه الصلاة والسلام وتهوين مشاق الصبر عليه وتشريفه مالا مزيد عليه أو الا بمشيئته المبنية على حكم بالغة مستتبعة لعواقب حميدة فالتسلية من حيث اشتماله على غايات جميلة. وقيل إلا بتوفيقه ومعونته فهى من حيث تسهيله وتيسيره فقط (ولا تحزن عليهم) أى على الكافرين بوقوع اليأس من إيمانهم بك ومتابعتهم لك نحو فلا تأس على القوم الكافرين . وقيل على المؤمنين وما فعل بهم والأول هو الأنسب بجزالة النظم الكريم (ولا تك فى ضيق) بالفتح وقرىء بالكسر وهما لغتان كالقول والقيل أى لا تكن فى ضيق صدر وحرج. ويجوز أن يكون الأول تخفيف ضيق كهين

من هين أى فى أمر ضيق (مما يمكرون)أى من مكرهم بك فيما يستقبل فالأول نهى عن التألم بمطلوب من قبلهم فات والثانى عن التألم بمحذور من جهتهم آت والنهى عنهما مع أن انتفاءهما من لوازم الصبر المأمور به لاسيما على الوجه الأول لزيادة التأكيد وإظهار كمال العناية بشأن التسلية والا فهل يخطر ببال من توجه الى الله سبحانه بشراشر نفسه متنزها عن كل ماسواه من الشواغل شيء من مطلوب فينهى عن الحزن بفواته أو محذور فيكف عن الخوف من وقوعه (إن الله مع الذين اتقوا) تعليل لما سبق من الأمر والنهى.والمراد بالمعية الولاية الدائمة التى لاتحوم حول صاحبها شائبة شيء من الجزع والحزن وضيق الصدر وما يشعر به دخول كلمة مع من متبوعية المتقين انما هى من حيث إنهم المباشرون للتقوى وكذا الحال فى قوله سبحانه«ان الله مع الصابرين» ونظائرهما كافة.والمراد بالتقوى المرتبة الثالثة منه الجامعة لما تحتها من مرتبة التوقى عن الشرك ومرتبة التجنب عن كل مايؤثم من فعل وترك أعني التنزه عن كل مايشغل سره عن الحق والتبتل اليه بشراشر نفسه وهو التقوى الحقيقى المورث لولايته تعالى المقرونة ببشارة قوله سبحانه« ألا أن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون» والمعنى أن الله ولى الذين تبتلوا اليه بالكلية وتنزهوا عن كل مايشغل سرهم عنه فلم يخطر ببالهم شيء من مطلوب أو محذور فضلا عن الحزن بفواته أو الخوف من وقوعه وهو المعنى بما به الصبر المأمور به حسبما أشير اليه وبه يحصل التقريب ويتم التعليل كما فى قوله تعالى «فاصبر إن العاقبة للمتقين»على أحد التفسيرين كما حقق فى مقامه والافمجرد التوقى عن المعاصى لايكون مدارا لشيء من العزائم المرخص فى تركها فكيف بالصبر المشار اليه ورديفيه وانما مداره المعنى المذكور فكأنه قيل ان الله مع الذين صبروا.وإنما أوثر ماعليه النظم الكريم مبالغة فى الحث على الصبر بالتنبيه على أنه من خصائص أجل النعوت الجليلة وروادفه كما أن قوله تعالى (والذين هم محسنون) للاشعار بأنه من باب الاحسان الذى يتنافس فيه المتنافسون على مافصل ذلك حيث قيل« واصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين »وقد نبه على أن كلا من الصبر والتقوى من قبيل الاحسان فى قوله تعالى «إنه من يتق ويصبر فأن الله لايضيع أجر المحسنين»وحقيقة الاحسان الاتيان بالأعمال على الوجه اللائق الذى هو حسنها الوصفى المستلزم لحسنها الذاتى وقد فسره عليه الصلاة والسلام بقوله« أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك»وتكرير الموصول للايذان بكفاية كل من الصلتين فى ولايته سبحانه من غير أن تكون إحداهما تتمة للأخرى.وايراد الأولى فعلية للدلالة على الحدوث كما أن ايراد الثانية اسمية لافادة

كون مضمونها شيمة راسخة لهم. وتقديم التقوى على الاحسان لما ان التخلية متقدمة على التحلية. والمراد بالموصولين اما جنس المتقين والمحسنين وهو عليه الصلاة والسلام داخل فى زمرتهم دخولا أوليا واما هو عليه الصلاة والسلام ومن شايعه عبر عنهم بذلك مدحا لهم وثناء عليهم بالنعتين الجميلين.وفيه رمز الى أن صنيعه عليه الصلاة والسلام مستتبع لاقتداء الامة به كقول من قال لابن عباس رضى الله عنهما عند التعزية

اصبر نكن بك صابرين فانما ؞ صبر الرعية عند صبر الراس

عن هرم بن حيان أنه قيل له حين الاحتضار أوص قال انما الوصية من المال وأوصيكم بخواتيم سورة النحل.عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة النحل لم يحاسبه الله تعالى بما أنعم عليه فى دار الدنيا وان مات فى يوم تلاها أو ليلته كان له من الاجر كالذى مات وأحسن الوصية والحمد لله وحده والصلاة والسلام على رسوله وآله أجمعين

(سورة بنى إسرائيل مائة واحدى عشرة آية مكية)

(الا آيات فى آخرها)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(سبحان الذى أسرى بعبده) سبحان علم للتسبيح كعثمان للرجل وحيث كان المسمى معنى لا عينا وجنسا لا شخصا لم تكن اضافته من قبيل ما فى زيد المعارك أو حاتم طىء وانتصابه بفعل متروك الاظهار تقديره أسبح الله سبحان الخ . وفيه مالا يخفى من الدلالة على التنزيه البليغ من حيث الاشتقاق من السبح الذى هو الذهاب والابعاد فى الارض ومنه فرس سبوح أى واسع الجرى ومن جهة النقل الى التفعيل ومن جهة العدول من المصدر الى الاسم الموضوع له خاصة لا سيما وهو علم يشير الى الحقيقة الحاضرة فى الذهن ومن جهة قيامه مقام المصدر مع الفعل. وقيل هو مصدر كغفران بمعنى التنزه ففيه مبالغة من حيث اضافة التنزه الى ذاته المقدسة ومناسبة تامة بين المحذوف وبين ما عطف عليه فى قوله تعالى «سبحانه وتعالى» كانه قيل تنزه بذاته وتعالى.والاسراء السير بالليل خاصة كالسرى وقوله تعالى (ليلا) لافادة قلة زمان الاسراء لما فيه من التنكير الدال على البعضية من حيث الاجزاء دلالته على البعضية من حيث الافراد فان قولك سرت ليلا كما يفيد بعضية زمان سيرك من الليالى يفيد بعضيته من فرد واحد منها بخلاف ما اذا قلت سرت الليل فانه يفيد استيعاب السير له جميعا فيكون معيارا للسير لا ظرفا له ويؤيده قراءة من الليل أى بعضه. وايثار لفظ العبد للايذان بتمحضه عليه الصلاة والسلام فى عبادته سبحانه وبلوغه

فى ذلك غاية الغايات القاصية ونهاية النهايات النائيـة حسبما يلوح به مبدأ الاسراء ومنتهاه . واضافة التنزيه أو التنزه الى الموصول المذكور للاشعار بعلية مافى حيز الصلة للمضاف فان ذلك من أدلة كمال قدرته وبالغ حكمته ونهاية تنزهه عن صفات المخلوقين (من المسجد الحرام) اختلف فى مبدأ الاسراء فقيل هو المسجد الحرام بعينه وهو الظاهر فانه روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال «بينا أنا فى المسجد الحرام فى الحجر عند البيت بين النائم واليقظان اذ أتانى جبريل عليه الصلاة والسلام بالبراق» وقيل هو دار أم هانىء بنت أبى طالب والمراد بالمسجد الحرام الحرم لاحاطتـه بالمسجد والتباسه به أو لان الحرم كله مسجد فانه روى عن ابن عباس رضى الله عنهما انه عليه الصلاة والسلام كان نائما فى بيت أم هانىء بعد صلاة العشاء فكان ما كان فقصه عليها فلما قام ليخرج الى المسجد تشبثت بثوبه عليه الصلاة والسلام لتمنعه خشية أن يكذبه القوم قال عليه الصلاة والسلام «وان كذبونى» فلما خرج جلس اليـه أبو جهـل فاخبره صلى الله عليه وسلم بحديث الاسراء فقال أبو جهـل يا معشر كعب بن لؤى بن غالب هلم فحدثهم فمن مصفق وواضع يده على رأسه تعجبا وانكارا وارتد ناس ممن كان آمن به وسعى رجال الى أبى بكر فقال ان كان قال ذلك لقد صـدق قالوا أتصـدقه على ذلك قال انى أصدقه على أبعد من ذلك فسمى الصديق وكان فيهم من يعرف بيت المقدس فاستنعتوه المسجد فجلى له بيت المقدس فطفق ينظر اليه وينعته لهم فقالوا أما النعت فقد أصاب فقالوا أخبرنا عن عيرنا فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها وقال تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمها جمل أورق فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو الثنية فقال قائل منهم هذه والله الشمس قد أشرقت فقال آخر هـذه والله العير قد أقبلت يقدمها جمل أورق كما قال محمـد ثم لم يؤمنوا قاتلهم الله أنى يؤفكون . واختلف فى وقته أيضا فقيل كان قبل الهجرة بسنة وعن أنس والحسن أنه كان قبل البعثة . واختلف أيضا أنه فى اليقظة أو فى المنام فعن الحسن أنه كان فى المنام وأكثر الاقاويل بخلافه والحق أنه كان فى المنام قبل البعثة وفى اليقظة بعدها . واختلف أيضا أنه كان جسمانيا أو روحانيا فعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن عرج بروحه وعن معاوية أنه قال انما عرج بروحه . والحق انه كان جسمانيا على ما ينبىء عنه التصدير بالتنزيه وما فى ضمنه من التعجب فان الروحانى ليس فى الاستبعاد والاستنكار وخرق العادة بهـذه المثابة ولذلك تعجبت منه قريش وأحالوه ولا استحالة فيه فانه قد ثبت فى الهندسة أن قطر الشمس ضعف قطر الارض مائة ونيفا وستين مرة ثم ان طرفها الاسفل يصل الى موضع طرفها الأعلى

بحركة الفلك الاعظم مع معاوقة حركة فلكها لها فى أقل من ثانية وقد تقرر أن الاجسام متساوية فى قبول الاعراض التى من جملتها الحركة وأن الله سبحانه قادر على كل ما يحيط به حيطة الامكان فيقدر على أن يخلق مثل تلك الحركة بل أسرع منها فى جسد النبى صلى الله عليه وسلم أو فيما يحمله ولو لم يكن مستبعدا لم يكن معجزة (إلى المسجد الأقصى) أى بيت المقدس سمى به اذ لم يكن حينئذ وراءه مسجد. وفى ذلك من تربية معنى التنزيه والتعجب مالا يخفى (الذى باركنا حوله) ببركات الدين والدنيا لانه مهبط الوحى ومتعبد الانبياء عليهم الصلاة والسلام (لنريه) غاية للاسراء (من آياتنا) العظيمة التى من جملتها ذهابه فى برهة من الليل مسيرة شهر ولا يقدح فى ذلك كونه قبل الوصول الى المقصد ومشاهدة بيت المقدس وتمثل الانبياء له ووقوفه على مقاماتهم العلية عليهم الصلاة والسلام. والالتفات الى التكلم لتعظيم تلك البركات والآيات وقرىء ليريه بالياء (إنه هو السميع) لاقواله عليه الصلاة والسلام بلا أذن (البصير) بأفعاله بلا بصر حسبما يؤذن به القصر فيكرمه ويقربه بحسب ذلك. وفيه ايماء الى أن الاسراء المذكور ليس الا لتكرمته عليه الصلاة والسلام ورفع منزلته والا فالاحاطة باقواله وأفعاله حاصلة من غير حاجة الى التقريب. والالتفات الى الغيبة لتربية المهابة (وآتينا موسى الكتاب) أى التوراة. وفيه ايماء الى دعوته عليه الصلاة والسلام الى الطور وما وقع فيه من المناجاة جمعا بين الامرين المتحدين فى المعنى ولم يذكر ههنا العروج بالنبى عليه السلام الى السماء وما كان فيه مما لا يكتنه كنهه حسبما نطقت به سورة النجم تقريبا للاسراء الى قبول السامعين أى آتيناه التوراة بعد ما أسرينا به الى الطور (وجعلناه) أى ذلك الكتاب (هدى لبنى اسرائيل) يهتدون به بما فى مطاويه (أن لا تتخذوا) أى لا تتخذوا نحو كتبت اليه أن افعل كذا. وقرىء بالياء على أن أن مصدرية والمعنى آتينا موسى الكتاب لهداية بني اسرائيل لئلا يتخذوا (من دونى وكيلا) أي ربا تكلون اليه أموركم والافراد لما أن فعيلا مفرد فى اللفظ جمع فى المعنى (ذرية من حملنا مع نوح) نصب على الاختصاص أو النداء على قراءة النهى والمراد تاكيد الحمل على التوحيد بتذكير انعامه تعالى عليهم فى ضمن انجاء آبائهم من الغرق فى سفينة نوح عليه السلام أو على أنه أحد مفعولى لا يتخذوا على قراءة النفى ومن دونى حال من وكيلا فيكون كقوله تعالى ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا وقرىء بالرفع على انه خبر مبتدا محذوف أو بدل من واو لا تتخذوا بابدال الظاهر من ضمير المخاطب كما هو مذهب بعض البغاددة. وقرىء ذرية بكسر الذال (إنه) أى ان نوحا

عليه الصلاة والسلام (كان عبدا شكورا) كثير الشكر فى مجامع حالاته. وفيه ايذان بان انجاء من معه كان ببركة شكره عليه الصلاة والسلام وحث للذرية على الاقتداء به وزجر لهم عن الشرك الذي هو أعظم مراتب الكفران . وقيل الضمير لموسى عليه السلام (وقضينا) أى أتممنا وأحكمنا منزلين (إلى بنى اسرائيل) أو موحين اليهم (فى الكتاب) أى فى التوراة فان الانزال والوحى الى موسى عليه السلام انزال ووحى اليهم (لتفسدن فى الأرض) جواب قسم محذوف . ويجوز اجراء القضاء المحتوم مجرى القسم كأنه قيل وأقسمنا لتفسدن (مرتين) مصدر والعامل فيه من غير جنسه أولاهما مخالفة حكم التوراة وقتل شمياء عليه الصلاة والسلام وحبس ارمياء حين أنذرهم سخط الله تعالى . والثانية قتل زكريا ويحيى وقصد قتل عيسى عليه الصلاة والسلام (ولتعلن علوا كبيرا) لتستكبرن عن طاعة الله سبحانه أو لتغلبن الناس بالظلم والعدوان وتفرطن فى ذلك إفراطا مجاوزا للحدود (فاذا جاء وعد أولاهما) أى أولى كرتى الافساد أى حان وقت حلول العقاب الموعود (بعثنا عليكم) لمؤاخذتكم بجناياتكم (عبادا لنا) وقرىء عبيدا لنا (أولى بأس شديد) ذوى قوة وبطش فى الحروب هم سنجاريب من أهل نينوى وجنوده وقيل بختنصر عامل لهراسب وقيل جالوت (فجاسوا) أى ترددوا لطلبكم بالفساد . وقرىء بالحاء والمعنى واحد . وقرىء وجوسوا (خلال الديار) فى أوساطها للقتل والغارة . وقرىء خلل الديار فقتلوا علماءهم وكبارهم وأحرقوا التوراة وخربوا المسجد وسبوا منهم سبعين ألفا وذلك من قبيل تولية بعض الظالمين بعضا مما جرت به السنة الالهية (وكان) ذلك (وعدا مفعولا) لا محالة بحيث لا صارف عنه ولا مبدل (ثم رددنا لكم الكرة) أى الدولة والغلبة (عليهم) على الذين فعلوا بكم ما فعلوا بعد مائة سنة حين تبتم ورجعتم عما كنتم عليه من الافساد والعلو قيل هى قتل بختنصر واستنقاذ بنى اسرائيل أساراهم وأموالهم ورجوع الملك اليهم وذلك أنه لما ورث بهمن بن اسفنديار الملك من جده كشتاسف بن لهراسب ألقى الله تعالى فى قلبه الشفقة عليهم فرد أساراهم الى الشام وملك عليهم دانيال عليه السلام فاستولوا على من كان فيها من أتباع بختنصر . وقيل هى قتل داود عليه السلام لجالوت (وأمددناكم بأموال) كثيرة بعد ما نهبت أموالكم (وبنين) بعد ما سبيت أولادكم (وجعلناكم أكثر نفيرا) مما كنتم من قبل أو من عدوكم والنفير من ينفر مع الرجل من قومه وقيل جمع نفر وهم القوم المجتمعون للذهاب الى العدو كالعبيد والمعنى (ان أحسنتم) أعمالكم سواء كانت لازمة لانفسكم أو متعدية الى الغير أى عملتموها على الوجه اللائق

ولا يتصور ذلك الا بعد ان تكون الاعمال حسنة فى أنفسها. أوان فعلتم الاحسان (أحسنتم لأنفسكم) لان ثوابها لها (وإن أساتم) أعمالكم بان عملتموها لا على الوجه اللائق و يلزمه السوء الذاتي او فعلتم الاساءة (فلها) اذ عليها وبالها .وعن على كرم الله وجهه: ما أحسنت الى أحد ولا أسأت اليه وتلاها (فاذا جاء وعد الآخرة)حان وقت ما وعد من عقوبة المرة الآخرة (ليسوؤا وجوهكم) متعلق بفعل حذف لدلالة ما سبق عليه أى بعثناهم ليسوءوا ومعنى ليسوءوا وجوهكم ليجعلوا آثار المساءة والكآبة بادية فى وجوهكم كقوله تعالى «سيئت وجوه الذين كفروا »وقرىء ليسوء على ان الضمير لله تعالى أو للوعد أو للبعث ولنسوء بنون العظمة وفى قراءة على رضى الله عنه لنسوءن على أنه جواب اذا وقرىء لنسوأن بالنون الخفيفة وليسوأن واللام فى قوله عزوجل (وليدخلوا المسجد) عطف على ليسوؤا متعلق بما تعلق هو به (كما دخلوه أول مرة)أى فى أول مرة (وليتبروا) أى يهلكوا (ما علوا)ما غلبوه واستولوا عليه أو مدة علوهم (تتبيرا) فظيعا لا يوصف بان سلط الله عز سلطانه عليهم الفرس فغزاهم ملك بابل من ملوك الطوائف اسمه جودرد وقيل جردوس وقيل دخل صاحب الجيش مذبح قربانهم فوجد فيه دما يغلى فسألهم عنه فقالوا دم قربان لم يقبل منا فقال لم تصدقونى فقتل على ذلك ألوفا فلم يهدأ الدم ثم قال ان لم تصدقونى ما تركت منكم أحدا فقالوا انه دم يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام فقال لمثل هذا ينتقم منكم ربكم ثم قال يا يحيي قد علم ربى وربك ما أصاب قومك من أجلك فاهدأ باذن الله تعالى قبل ان لا أبقى منهم أحدا فهدأ (عسى ربكم أن يرحمكم) بعد المرة الآخرة ان تبتم توبة أخرى وانزجرتم عما كنتم عليه من المعاصى (وإن عدتم) الى ما كنتم فيه من الفساد مرة أخرى (عدنا) الى عقوبتكم ولقد عادوا فاعاد الله سبحانه عليهم النقمة بان سلط عليهم الاكاسرة ففعلوا بهم مافعلوا من ضرب الاتاوة ونحو ذلك وعن الحسن عادوا فبعث الله تعالى محمدا عليه الصلاة والسلام فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون وعن قتادة مثله (وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا) أى محبسا لا يستطيعون الخروج منها أبد الآبدين وقيل بساطا كما يبسط الحصير وانما عدل عن أن يقال وجعلنا جهنم لكم تسجيلا على كفرهم بالعود وذما لهم بذلك واشعارا بعلة الحكم (إن هذا القرآن) الذى آتيناكه (يهدى)أى الناس كافة لا فرقة مخصوصة منهم كدأب الكتاب الذى آتيناه موسى (للتى) للطريقة التى (هى أقوم)أى أقوم الطرائق وأسدها أعنى ملة الاسلام والتوحيد وترك ذكرها ليس لقصد التعميم لها وللحالة والخصلة ونحوها مما يعبر به عن المقصد المذكور بل للايذان بالغنى عن التصريح بها لغاية ظهورها

لاسيما بعد ذكر الهداية التى هى من روادفها والمراد بهدايته لها كونه بحيث يهتدى اليها من يتمسك به لاتحصيل الاهتداء بالفعل فانه مخصوص بالمؤمنين حينئذ (و بشر المؤمنين) بما فى تضاعيفه من الأحكام والشرائع. وقرىء بالتخفيف (الذين يعملون الصالحات) التى شرحت فيه (أن لهم) أى بأن لهم بمقابلة تلك الاعمال (أجرا كبيرا) بحسب الذات وبحسب التضعيف عشر مرات فصاعدا (وأن الذين لايؤمنون بالآخرة) وأحكامها المشروحة فيه من البعث والحساب والجزاء. وتخصيصها بالذكر من بين سائر ما كفروا به لكونها معظم ما أمروا بالايمان به ولمراعاة التناسب بين أعمالهم وجزائها الذى أنبأ عنه قوله عز وجل (أعتدنا لهم عذابا أليما) وهو عذاب جهنم أى أعتدنا لهم فيما كفروا به وأنكروا وجوده من الآخرة عذابا أليما وهو أبلغ فى الزجر لما أن إتيان العذاب من حيث لايحتسب أفظع وأفجع. والجملة معطوفة على جملة يبشر باضمار يخبر أو على قوله تعالى أن لهم داخلة معه تحت التبشير المراد به مجازا مطلق الاخبار المنتظم للاخبار بالخبر السار وبالنبأ الضار حقيقة فيكون ذلك بيانا لهداية القرآن بالترغيب والترهيب. ويجوز كون التبشير بمعناه والمراد تبشير المؤمنين ببشارتين ثوابهم وعقاب أعدائهم وقوله تعالى (ويدعو الانسان بالشر) بيان لحال المهدى اثر بيان حال الهادى واظهار لما بينهما من التباين والمراد بالانسان الجنس أسند اليه حال بعض أفراده أو حكى عنه حاله فى بعض أحيانه فالمعنى على الاول ان القرآن يدعو الانسان الى الخير الذى لاخير فوقه من الاجر الكبير ويحذره من الشر الذى لاشر وراءه من العذاب الاليم وهو أى بعض منه وهو الكافر يدعو لنفسه بما هو الشر من العذاب المذكور اما بلسانه حقيقة كدأب من قال منهم «اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ومن قال فائتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين» الى غير ذلك مما حكى عنهم واما بأعمالهم السيئة المفضية اليه الموجبة له مجازا كما هو ديدن كلهم (دعاءه بالخير) أى مثل دعائه بالخير المذكور فرضا لاتحقيقا فانه بمعزل من الدعاء به. وفيه رمز الى انه اللائق بحاله (وكان الانسان) اى من أسند اليه الدعاء المذكور من أفراده (عجولا) يسارع الى طلب ما يخطر بباله متعاميا عن ضرره أو مبالغا فى العجلة يستعجل العذاب وهو آتيه لا محالة ففيه نوع تهكم به وعلى تقدير حمل الدعاء على أعمالهم تحمل العجولية على اللج والتمادى فى استيجاب العذاب بتلك الاعمال وعلى الثانى ان القرآن يدعو الانسان الى ما هو خير وهو فى بعض أحيانه كما عند الغضب يدعه ويدعو الله تعالى لنفسه وأهله وماله بما هو شر وكان الانسان بحسب جبلته عجولا ضجرا لايتأنى الى أن يزول عنه

ما يعتريه روى أنه عليه الصلاة والسلام دفع الى سودة أسيرا فأرخت كتافه رحمة لأنينه بالليل من ألم القد فهرب فلما أخبر به النبى عليه الصلاة والسلام قال اللهم اقطع يديها فرفعت سودة يديها تتوقع الاجابة فقال عليه السلام انى سألت الله تعالى أن يجعل دعائى على من لا يستحق من أهلى عذابا رحمة أو يدعو بما هو شر وهو يحسبه خيرا وكان الانسان عجولا غير متبصر لا يتدبر فى أموره حق التدبر ليتحقق ماهو خير حقيق بالدعاء به وما هو شر جدير بالاستعاذة منه (وجعلنا الليل والنهار آيتين) شروع فى بيان بعض وجوه ماذكر من الهداية بالارشاد الى مسلك الاستدلال بالآيات والدلائل الآفاقية التى كل واحدة منها برهان نير لا ريب فيه ومنهاج بين لا يضل من ينتحيه . فان الجعل المذكور وما عطف عليه من محو آية الليل وجعل آية النهار مبصرة وان كانت من الهدايات التكوينية لكن الاخبار بذلك من الهدايات القرآنية المنبهة على تلك الهدايات. وتقديم الليل لمراعاة الترتيب الوجودى اذ منه ينسلخ النهار وفيه تظهر غرر الشهور ولو ان الليلة أضيفت الى ماقبلها من النهار لكانت من شهر وصاحبها من شهر آخر ولترتيب غاية آية النهار عليها بلا واسطة أى جعلنا الملوين بهيأتهما وتعاقبهما واختلافهما فى الطول والقصر على وتيرة عجيبة تحار فى فهمها العقول آيتين تدلان على ان لهما صانعا حكيما قادرا عليما وتهديان الى ماهدى اليه القرآن الكريم من ملة الاسلام والتوحيد (فمحونا آية الليل) الاضافة اما بيانية كما فى اضافة العدد الى المعدود أى محونا الآية التى هى الليل وفائدتها تحقيق مضمون الجملة السابقة ومحوها جعلها ممحوة الضوء مطموسته لكن لا بعد ان لم يكن كذلك بل ابداعها على ذلك كما فى قولهم سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل اى أنشأهما كذلك والفاء تفسيرية لان المحو المذكور وما عطف عليه ليسا مما يحصل عقيب جعل الجديدين آيتين بل هما من جملة ذلك الجعل ومتمماته (وجعلنا آية النهار) أى الآية التى هى النهار على نحو مامر (مبصرة) أى مضيئة يبصر فيها الاشياء وصفها بحال أهلها او مبصرة للناس من أبصره فبصره. وإما حقيقية وآية الليل والنهار نيراهما ومحو القمر إما خلقه مطموس النور فى نفسه فالفاء كما ذكر وإما نقص ما استفاده من الشمس شيئا فشيئا الى المحاق على ما هو معنى المحو. والفاء للتعقيب وجعل الشمس مبصرة ابداعها مضيئة بالذات ذات أشعة تظهر بها الاشياء المظلمة (لتبتغوا) متعلق بقوله تعالى وجعلنا آية النهار كما أشير اليه أى وجعلناها مضيئة لتطلبوا لانفسكم فى بياض النهار (فضلا من ربكم) أى رزقا اذ لا يتسنى ذلك فى الليل. وفى التعبير عن الرزق بالفضل وعن الكسب بالابتغاء والتعرض لصفة الربوبية المنبئة عن التبليغ الى الكمال شيئا فشيئا دلالة على أن ليس للعبد فى

تحصيل الرزق تأثير سوى الطلب وانما الاعطاء الى الله سبحانه لا بطريق الوجوب عليه بل تفضلا بحكم الربوبية (ولتعلموا) متعلق بكلا الفعلين أعني محو آية الليل وجعل آية النهار مبصرة لا بأحدهما فقط اذ لا يكون ذلك بانفراده مدارا للعلم المذكور أى لتعلموا بتفاوت الجديدين أو نيريهما ذاتا من حيث الاظلام والاضاءة مع تعاقبهما أو حركاتهما وأوضاعهما وسائر أحوالها (عدد السنين) التى يتعلق بها غرض علمى لاقامة مصالحكم الدينية والدنيوية (والحساب) أى الحساب المتعلق بما فى ضمنها من الاوقات أى الاشهر والليالى والايام وغير ذلك مما نيط به شيء من المصالح المذكورة ونفس السنة من حيث تحققها مما ينتظمه الحساب وانما الذي تعلق به العد طائفة منها وتعلقه فى ضمن ذلك بكل واحدة منها ليس من الحيثية المذكورة أعنى حيثية تحققها وتحصلها من عدة أشهر قد تحصل كل واحد منها من عدة أيام قد حصل كل منها بطائفة من الساعات مثلا فان ذلك وظيفة الحساب بل من حيث انها فرد من تلك الطائفة المعدودة بعدها أى يفنيها من غير أن يعتبر فى ذلك تحصل شيء معين . وتحقيقه ما مر فى سورة يونس من أن الحساب احصاء ما له كمية منفصلة بتكرير أمثاله من حيث يتحصل بطائفة معينة منها حد معين منه له اسم خاص وحكم مستقل كما أشير اليه آنفا والعد احصاؤه بمجرد تكرير أمثاله من غير أن يتحصل منه شيء كذلك ولما أن السنين لم يعتبر فيها حد معين له اسم خاص وحكم مستقل أضيف اليها العدد وعلق الحساب بما عداها مما اعتبر فيه تحصل مراتب معينة لها أسام خاصة وأحكام مستقلة . وتحصل مراتب الاعداد من العشرات والمئات والالوف اعتبارى لا يجدى فى تحصل المعدودات وتقديم العدد على الحساب مع أن الترتيب بين متعلقيهما وجوداً وعلما على العكس للتنبيه من أول الامر على أن متعلق الحساب ما فى تضاعيف السنين من الاوقات او لان العلم المتعلق بعدد السنين علم اجمالى بما تعلق به الحساب تفصيلا أو لان العدد من حيث انه لم يعتبر فيه تحصل شيء آخر منه حسبما ذكر نازل من الحساب المعتبر فيه ذلك منزلة البسيط من المركب أو لان العلم المتعلق بالاول أقصى المراتب فكان جديراً بالتقديم فى مقام الامتنان والله سبحانه أعلم (وكل شيء) تفتقرون اليه فى المعاش والمعاد سوى ما ذكر من جعل الليل والنهار آيتين وما يتبعه من المنافع الدينية والدنيوية وهو منصوب بفعل يفسره قوله تعالى (فصلناه تفصيلا) أى بيناه فى القرآن الكريم بيانا بليغا لا التباس معه كقوله تعالى « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء » فظهر كونه هاديا للتى هى أقوم ظهورا بينا (وكل انسان) مكلف (ألزمناه طائره)

أى عمله الصادر عنه باختياره حسبما قدر له كأنه طار اليه من عش الغيب ووكر القدر أو ماوقع له فى القسمة الازلية الواقعة حسب استحقاقه فى العلم الازلى من قولهم طار له سهم كذا (فى عنقه) تصوير لشدة اللزوم وكمال الارتباط أى ألزمناه عمله بحيث لايفارقه أبدا بل يلزمه لزوم القلادة أو الغل للعنق لاينفك عنه بحال .وقرىء بسكون النون (ونخرج له) بنون العظمة وقد قرىء بالياء مبنيا للفاعل على أن الضمير لله عز وجل وللمفعول والضمير للطائر كما فى قراءة يخرج من الخروج (يوم القيامة) والبعث للحساب (كتابا) مسطورا فيه ماذكر من عمله نقيرا وقطميرا وهو مفعول لنخرج على القراءتين الأوليين أو حال من المفعول المحذوف الراجع الى الطائر وعلى الاخريين حال من المستتر فى الفعل من ضمير الطائر (يلقاه) أى يلقى الانسان أو يلقاه الانسان (منشورا) وهما صفتان للكتاب أو الاول صفة والثانى حال منها. وقرىءيلقاه من لقيته كذا أى يلقى الانسان اياه قال الحسن بسطت لك صحيفة ووكل بك ملكان فهما عن يمينك وعن شمالك فاما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك وأما الذى عن شمالك فيحفظ سيئاتك حتى اذا مت طويت صحيفتك وجعلت معك فى قبرك حتى تخرج لك يوم القيامة (اقرأ كتابك) أى قائلين لك ذلك عن قتادة يقرأ ذلك اليوم من لم يكن فى الدنيا قارئا .وقيل المراد بالكتاب نفسه المنتقشة بآثار اعماله فان كل عمل يصدر من الانسان خيرا أو شرا يحدث منه فى جوهر روحه أمر مخصوص الا أنه يخفى مادام الروح متعلقا بالبدن مشتغلا بواردات الحواس والقوى فاذا انقطعت علاقته عن البدن قامت قيامته لان النفس كانت ساكنة مستقرة فى الجسد وعند ذلك قامت وتوجهت نحو الصعود الى العالم العلوى فيزول الغطاء وتنكشف الاحوال ويظهر على لوح النفس نقش كل شىء عمله فى مدة عمره وهذا معنى الكتابة والقراءة (كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) أى كفى نفسك والباء زائدة واليوم ظرف لكفى وحسيبا تمييز وعلى صلته لانه بمعنى الحاسب كالصريم بمعنى الصارم من حسب عليه كذا أو بمعنى الكافى ووضع موضع الشهيد لانه يكفى المدعى ما أهمه وتذكيره لان ماذكر من الحساب والكفاية مما يتولاه الرجال أو لانه مبنى على تأويل النفس بالشخص على أنها عبارة عن نفس المذكر كقول جبلة بن حريث :

يانفس إنك باللذات مسرور فاذكر فهل ينفعك اليوم تذكير

من اهتدى فانما يهتدى لنفسه) فذلكة لما تقدم من بيان كون القرآن هاديا لاقوم الطرائق ولزوم الاعمال لاصحابها أى من اهتدى بهدايته وعمل بما فى تضاعيفه من الاحكام وانتهى عما نهاه عنه

فانما تعود منفعة اهتدائه الى نفسه لا تتخطاه الى غيره ممن لا يهتدى (ومن ضل) عن الطريقة التى يهديه اليها (فانما يضل عليها) أي فانما وبال الضلال عليها الا على من عداه ممن لم يباشره حتى يمكن مفارقة العمل صاحبه (ولا تزر وازرة وزر أخرى) تأكيد للجملة الثانيـة أى لا تحمل نفس حاملة للوزر وزر نفس أخرى حتى يمكن تخلص النفس الثانية عن وزرها ويختل ما بين العامل وعمله من التلازم بل انما تحمل كل منهما وزرها وهـذا تحقيق لمعنى قوله عزوجل «وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه» وأما ما يدل عليـه قوله تعالى «من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعـة سيئة يكن له كفل منها» وقوله تعالى «ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم» من حمل الغير وزر الغير وانتفاعه بحسنته وتضرره بسيئته فهو فى الحقيقة انتفاع بحسنة نفسه وتضرر بسيئته فان جزاء الحسنة والسيئة اللتين يعملهما العـامل لازم له وانما الذى يصل الى من يشفع جزاء شفاعته لا جزاء أصـل الحسنة والسيئة وكذلك جزاء الضلال مقصور على الضالين وما يحمله المضلون انما هو جزاء الاضلال لا جزاء الضلال وانما خص التأكيد بالجملة الثانية قطعا للاطماع الفارغة حيث كانوا يزعمون أنهم ان لم يكونوا على الحق فالتبعة على أسلافهم الذين قلدوهم (وما كنا معذبين) بيان للعناية الربانية اثر بيان اختصاص آثار الهداية والضلال باصحابها وعدم حرمان المهتدى من ثمرات هدايته وعدم مؤاخذة النفس بجناية غيرها أى وماصح وما استقام منا بل استحال فى سنتنا المبنية على الحكم البالغة أو ما كان فى حكمنا الماضى وقضائنا السابق أن نعذب أحدا من أهل الضلال والاوزار اكتفاء بقضية العقل (حتى نبعث) اليهم (رسولا) يهديهم الى الحق ويردعهم عن الضلال ويقيم الحجج ويمهد الشرائع حسب مافى تضاعيف الكتاب المنزل عليه والمراد بالعذاب المنفى اما عذاب الاستئصال كما قاله الشيخ أبو منصور الماتريدى رحمه الله وهو المناسب لما بعده أو الجنس الشامل للدنيوى والاخروى وهو من أفراده وأياما كان فالبعث غاية لعدم صحة وقوعه فى وقته المقدر له لا لعدم وقوعـه مطلقا كيف لا والاخروى لا يمكن وقوعه عقيب البعث والدنيوى أيضـا لا يحصل الا بعد تحقق ما يوجبه من الفسق والعصيان ألا يرى الى قوم نوح كيف تأخر عنهم ما حل بهم زهاء ألف سنة وقوله تعالى (واذا أردنا أن نهلك قرية) بيان لكيفية وقوع التعذيب بعد البعثة التى جعلت غاية لعدم صحته وليس المراد بالارادة تحققها بالفعل اذ لا يتخلف عنها المراد ولا الارادة الازلية المتعلقة بوقوع المراد فى وقته المقـدر له اذ لا يقارنه الجزاء الآتى بل دنو وقتها كما فى قوله تعالى «أتى أمر الله» أى

واذا دنا وقت تعلق ارادتنا باهلاك قرية بان نعذب أهلها بما ذكرنا من عذاب الاستئصال الذى بينا أنه لا يصح منا قبل البعثة أو بنوع مما ذكرنا شأنه من مطلق العذاب أعنى عذاب الاستئصال لما لهم من الظلم والمعاصى دنوا تقتضيه الحكمة من غير أن يكون له حد معين (أمرنا) بواسطة الرسول المبعوث الى أهلها (مترفيها) متنعميها وجبابرتها وملوكها خصهم بالذكر مع توجه الامر الى الكل لانهم الاصول فى الخطاب والباقى أتباع لهم ولان توجه الامر اليهم آكد وعدم التعرض للمأمور به اما لظهور أن المراد به الحق والخير لان الله لا يأمر بالفحشاء لا سيما بعد ذكر هداية القرآن لما يهدى اليه . وإما لان المراد وجد منا الامر كما يقال فلان يعطى ويمنع (ففسقوا فيها) أى خرجوا عن الطاعة وتمردوا (فحق عليها القول) أى ثبت وتحقق موجبه بحلول العذاب اثر ما ظهر منهم من الفسق والطغيان (فدمرناها) بتدمير أهلها (تدميرا) لا يكتنه كنهه ولا يوصف هذا هو المناسب لما سبق . وقيل الامر مجاز عن الحمل على الفسق والتسبب له بأن صب عليهم ما أبطرهم وأفضى بهم الى الفسوق . وقيل هو بمعنى التكثير يقال « أمرت الشىء فامر أى كثرته فكثر وفى الحديث « خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة أى كثيرة النتاج ويعضده قراءة آمرنا وأمّرنا من الافعال والتفعيل وقد جعلتا من الامارة أى جعلناهم امراء وكل ذلك لا يساعده مقام الزجر عن الضلال والحث على الاهتداء فان مؤدى ذلك أن طغيانهم منوط بارادة الله سبحانه وانعامه عليهم بنعم وافرة أبطرتهم وحملتهم على الفسق حملا حقيقا بأن يعبر عنه بالامر به (وكم أهلكنا) أى وكثيرا ما أهلكنا (من القرون) بيان لكم وتمييز له والقرن مدة من الزمان يخترم فيها القوم وهى عشرون أو ثلاثون أو أربعون أو ثمانون أو مائة وقد أيد ذلك بانه عليه الصلاة والسلام دعا لرجل فقال « عش قرنا » فعاش مائة سنة . أو مائة وعشرون (من بعد نوح) من بعد زمنه عليه الصلاة والسلام كعاد وثمود ومن بعدهم ممن قصت أحوالهم فى القرآن العظيم ومن لم تقص . وعدم نظم قومه عليه الصلاة والسلام فى تلك القرون المهلكة لظهور أمرهم على أن ذكره عليه الصلاة والسلام رمز الى ذكرهم (وكفى بربك) أى كفى ربك (بذنوب عباده خبيرا بصيرا) يحيط بظواهرها وبواطنها فيعاقب عليها . وتقديم الخبير لتقدم متعلقه من الاعتقادات والنيات التى هى مبادى الاعمال الظاهرة أو لعمومه حيث يتعلق بغير المبصرات أيضا . وفيه اشارة الى أن البعث والامر وما يتلوهما من فسقهم ليس لتحصيل العلم بما صدر عنهم من الذنوب فان ذلك حاصل قبل ذلك وانما هو لقطع الاعذار وإلزام الحجة من كل

وجه (من كان يريد) باعماله التى يعملها سواء كان ترتب المراد عليها بطريق الجزاء كاعمال البر أو بطريق ترتب المعلولات على العلل كالاسباب أو باعمال الآخرة فالمراد بالمريد على الاول الكفرة وأكثر الفسقة وعلى الثانى أهل الرياء والنفاق والمهاجر للدنيا والمجاهد لمحض الغنيمة (العاجلة) فقط من غير أن يريد معها الآخرة كما ينبىء عنه الاستمرار المستفاد من زيادة كان ههنا مع الاقتصار على مطلق الارادة فى قسيمه والمراد بالعاجلة الدار الدنيا وبارادتها ارادة مافيها من فنون مطالبها كقوله تعالى «ومن كان يريد حرث الدنيا» ويجوز أن يراد الحياة العاجلة كقوله عز وجل «من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها» لكن الاول انسب بقوله (عجلنا له فيها) أى فى تلك العاجلة فان الحياة واستمرارها من جملة ماعجل له فالانسب بذلك كلمة من كما فى قوله تعالى «ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها» (مانشاء) أى مانشاء تعجيله له من نعيمها لا كل مايريد (لمن نريد) تعجيل مانشاء له وهو بدل من الضمير فى له باعادة الجار بدل البعض فانه راجع إلى الموصول المنفى عن الكثرة وقرىء لمن يشاء على أن الضمير لله سبحانه وقيل هو لمن فيكون مخصوصا بمن أراد به ذلك وهو واحد من الدهماء . وتقييد المعجل والمعجل له بما ذكر من المشيئة والارادة لما أن الحكمة التى عليها يدور فلك التكوين لا تقتضى وصول كل طالب إلى مرامه ولا استيفاء كل واصل لما يطلبه بتمامه وأما ما يتراءى من قوله تعالى «من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون» من نيل كل مؤمل لجميع آماله ووصول كل عامل الى نتيجة أعماله فقد أشير إلى تحقيق القول فيه فى سورة «هود» بفضل الله تعالى (ثم جعلنا له) مكان ماعجلنا له (جهنم) وما فيها من أصناف لعذاب (يصلاها) يدخلها وهو حال من الضمير المجرور أو من جهنم أو استئناف (مذموما مدحورا) مطرودا من رحمة الله تعالى . وقيل الآية فى المنافقين كانوا يراءون المسلمين ويغزون معهم ولم يكن غرضهم الا مساهمتهم فى الغنائم ونحوها ويأباه مايقال إن السورة مكية سوى آيات معينة (ومن أراد) بأعمال (الآخرة) الدار الآخرة وما فيها من النعيم المقيم (وسعى لها سعيها) أى السعى اللائق بها وهو الاتيان بما أمر والانتهاء عما نهى لا التقرب بما يخترعون بآرائهم وفائدة اللام اعتبار النية والاخلاص (وهو مؤمن) إيمانا صحيحا لا يخالطه شىء قادح فيه . وإيراد الايمان بالجملة الحالية للدلالة على اشتراط مقارنته لما ذكر فى حد الصلة (فأولئك) اشارة إلى الموصول بعنوان اتصافه بما فى حيز الصلة وما فى ذلك من معنى البعد للاشعار بعلو درجتهم وبعد منزلتهم والجمعية لمراعاة جانب المعنى ايماء إلى أن الاثابة

المفهومة من الخبر تقع على وجه الاجتماع أى أولئك الجامعون لما مر من الخصال الحميدة أعنى إرادة الآخرة والسعى الجميل لها والايمان (كان سعيهم مشكورا) مقبولا عند الله تعالى أحسن القبول مثابا عليه. وفى تعليق المشكورية بالسعى دون قرينيه اشعار بأنه العمدة فيها (كلا) التنوين عوض عن المضاف اليه أى كل واحد من الفريقين لا الفريق الأخير المريد للخير الحقيق بالاسعاف فقط (نمد) أى نزيد مرة بعد مرة بحيث يكون الآنف مددا للسالف وما به الامداد ما عجل لأحدهما من العطايا العاجلة وما أعد للآخر من العطايا الآجلة المشار اليها بمشكورية السعى. وإنما لم يصرح به تعويلا على ماسبق تصريحا وتلويحا واتكالا على مالحق عبارة وإشارة كما ستقف عليه وقوله تعالى (هؤلاء) بدل من كلا (وهؤلاء) عطف عليه أى نمد هؤلاء المعجل لهم وهؤلاء المشكور سعيهم فان الاشارة متعرضة لذات المشار اليه بماله من العنوان لا للذات فقط كالاضمار ففيه تذكير لما به الامداد وتعيين للمضاف اليه المحذوف دفعا لتوهم كونه أفراد الفريق الأخير وتأكيد للقصر المستفاد من تقديم المفعول وقوله تعالى (من عطاء ربك) أى من معطاه الواسع الذى لا تناهى له متعلق بنمد ومغن عن ذكر ما به الامداد ومنبه على ان الامداد المذكور ليس بطريق الاستيجاب بالسعى والعمل بل بمحض التفضل (وما كان عطاء ربك) أى دنيويا كان أو أخرويا وانما أظهر اظهارا لمزيد الاعتناء بشأنه واشعارا بعليته للحكم (محظورا) ممنوعا ممن يريده بل هو فائض على من قدر له بموجب المشيئة المبنية على الحكمة وان وجد منه مايقتضى الحظر كالكافر وهو فى معنى التعليل لشمول الامداد للفريقين. والتعرض لعنوان الربوبية فى الموضعين للاشعار بمبدئيتها لما ذكر من الامداد وعدم الحظر (أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض) كيف فى محل النصب بفضلنا على الحالية والمراد توضيح مامر من الامداد وعدم محظورية العطاء بالتنبيه على استحضار مراتب احد العطائين والاستدلال بها على مراتب الآخر أى انظر نظر الاعتبار كيف فضلنا بعضهم على بعض فيما أمددناهم به من العطايا العاجلة فمن وضيع ورفيع وظالع وضليع ومالك ومملوك وموسر وصعلوك تعرف بذلك مراتب العطايا الآجلة ودرجات تفاضل أهلها على طريقة الاستشهاد بحال الادنى على حال الاعلى كما أفصح عنه قوله تعالى (وللآخرة أكبر) أى هى وما فيها أكبر من الدنيا وقرىء أكثر (درجات وأكبر تفضيلا) لان التفاوت فيها بالجنة ودرجاتها العالية التى لا يقادر قدرها ولا يكتنه كنهها كيف لا وقد عبر عنه بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. هذا ويجوز أن يراد بما به

الامداد العطايا العاجلة فقط ويحمل القصر المذكور على دفع توهم اختصاصها بالفريق الاول فان تخصيص ارادتهم لها ووصولهم اليها بالذكر من غير تعرض لبيان النسبة بينها وبين الفريق الثانى ارادة ووصولا مما يوهم اختصاصها بالاولين فالمعنى كل واحد من الفريقين نمد بالعطايا العاجلة لامن ذكرنا إرادته لها فقط من الفريق الاول من عطاء ربك الواسع وما كان عطاؤه الدنيوى محظورا من أحد ممن يريده وممن يريد غيره أنظر كيف فضلنا فى ذلك العطاء بعض كل من الفريقين على بعض آخر منهما وللآخرة الآية . واعتبار عدم المحظورية بالنسبة الى الفريق الاول تحقيقا لشمول الامداد له كما فعله الجمهور حيث قالوا لايمنعه من عاص لعصيانه يقتضى كون القصر لدفع توهم اختصاص الامداد الدنيوى بالفريق الثانى مع أنه لم يسبق فى الكلام مايوهم ثبوته له فضلا عن ايهام اختصاصه (لاتجعل مع الله الها آخر) الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام والمراد منه أمته وهو من باب التهييج والالهاب أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب (فتقعد) بالنصب جوابا للنهى والقعود بمعنى الصيرورة من قولهم شحذ الشفرة حتى قعدت كانها حربة أو بمعنى العجز من قعد عنه أى عجز عنه (مذموما مخذولا) خبران أو حالان أى جامعا على نفسك الذم من الملائكة والمؤمنين والخذلان من الله تعالى . وفيه اشعار بأن الموحد جامع بين المدح والنصرة (وقضى ربك) أى أمر أمراً مبرما وقرىء وأوصى ربك ووصى ربك (ألا تعبدوا) أى بأن لاتعبدوا (الا اياه) على أن أن مصدرية ولانافية أو أى لاتعبدوا على أنها مفسرة ولاناهية لان العبادة غاية التعظيم فلا تحق الالمن له غاية العظمة ونهاية الانعام وهو كالتفصيل للسعى للآخرة (وبالوالدين) أى وبأن تحسنوا بهما أو وأحسنوا بهما (إحسانا) لانهما السبب الظاهر للوجود والتعيش (اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما) اما مركبة من ان الشرطية وما المزيدة لتأكيدها ولذلك دخل الفعل نون التأكيد ومعنى عندك فى كنفك وكفالتك . وتقديمه على المفعول مع أن حقه التأخر عنه للتشويق الى وروده فانه مدار تضاعف الرعاية والاحسان واحدهما فاعل للفعل وتأخيره عن الظرف والمفعول لئلا يطول الكلام به وبما عطف عليه وقرىء يبلغان فاحدهما بدل من ضمير التثنية وكلاهما عطف عليه ولاسبيل الى جعل كلاهما تاكيداً للضمير. وتوحيد ضمير الخطاب فى عندك وفيما بعده مع أن ما سبق على الجمع للاحتراز عن التباس المراد فان المقصود نهى كل أحد عن تأفيف والديه ونهرهما ولو قوبل الجمع بالجمع أو بالتثنية لم يحصل هذا المرام (فلا تقل لهما) أى لواحد منهما حالتي الانفراد والاجتماع (أف)

وهو صوت ينبىء عن تضجر أو اسم فعل هو أتضجر وقرىء بالكسر بلا تنوين وبالفتح والضم منونا وغير منون أى لا تتضجر بما تستقذر منهما وتستثقل من مؤنهما وبهذا النهى يفهم النهى عن سائر ما يؤذيهما بدلالة النص وقد خص بالذكر بعضه اظهارا للاعتناء بشأنه فقيل (ولا تنهرهما) أى لا تزجرهما عما لا يعجبك باغلاظ قيل النهى والنهر والنهم أخوات (وقل لهما) بدل التأفيف والنهر (قولا كريما) ذا كرم أو هو وصف له بوصف صاحبه أى قولا صادرا عن كرم ولطف وهو القول الجميل الذى يقتضيه حسن الادب ويستدعيه النزول على المروءة مثل أن يقول يا أباه ويا أماه كدأب ابراهيم عليه السلام اذ قال لابيه يا أبت مع ما به من الكفر ولا يدعوهما بأسمائهما فانه من الجفاء وسوء الادب وديدن الدعار وسئل الفضيل بن عياض عن بر الوالدين فقال ان لا تقوم الى خدمتهما عن كسل وقيل أن لا ترفع صوتك عليهما ولا تنظر اليهما شزرا ولا يريا منك مخالفة فى ظاهر ولا باطن وأن تترحم عليهما ما عاشا وتدعو لهما اذا ماتا وتقوم بخدمة أودائهما من بعدهما، فعن النبى عليه الصلاة والسلام «ان من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه» (واخفض لهما جناح الذل) عبارة عن إلانة الجانب والتواضع والتذلل لهما فان اعزازهما لا يكون الا بذلك فكأنه قيل واخفض لهما جناحك الذليل أو جعل لذله جناح كما جعل لبيد فى قوله:

وغداة ريح قد كشفت وقرة ... اذ أصبحت بيد الشمال زمامها

للقرة زماما وللشمال يدا تشبيها له بطائر يخفض جناحه لأفراخه تربية لها وشفقة عليها وأما جعل خفض الجناح عبارة عن ترك الطيران كما فعله القفال فلا يناسب المقام (من الرحمة) من فرط رحمتك وعطفك عليهما ورقتك لهما لافتقارهما اليوم الى من كان أفقر خلق الله تعالى اليهما ولا تكتف برحمتك الفانية بل ادع الله لهما برحمته الواسعة الباقية (وقل رب ارحمهما) برحمتك الدنيوية والاخروية التى من جملتها الهداية الى الاسلام فلا ينافى ذلك كفرهما (كما ربيانى) الكاف فى محل النصب على انه نعت لمصدر محذوف أى رحمة مثل تربيتهما لى أو مثل رحمتهما لى على أن التربية رحمة، ويجوز أن يكون لهما الرحمة والتربية معا وقد ذكر أحدهما فى أحد الجانبين والآخر فى الآخر كما يلوح به التعرض لعنوان الربوبية فى مطلع الدعاء كأنه قيل رب ارحمهما وربهما كما رحمانى وربيانى (صغيرا) ويجوز أن تكون الكاف للتعليل أى لاجل تربيتهما لى كقوله تعالى «واذكروه كما هداكم» ولقد بالغ عز وجل فى التوصية بهما حيث افتتحها بأن شفع الاحسان اليهما بتوحيده سبحانه ونظمهما فى سلك القضاء بهما معا ثم ضيق الامر فى باب مراعاتهما حتى لم

يرخص فى أدنى كلمة تنفلت من المتضجر مع ماله من موجبات الضجر ما لا يكاد يدخل تحت الحصر وختمها بأن جعل رحمته التى وسعت كل شىء مشبهة بتربيتهما . وعن النبى عليه الصلاة والسلام « رضا الله فى رضا الوالدين سخطه فى سخطهما » وروى « يفعل البار ما يشاء أن يفعل فلن يدخل النار ويفعل العاق ما يشاء أن يفعل فلن يدخل الجنة » وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان أبوى بلغا من الكبر أنى ألى منهما ما وليا منى فى الصغر فهل قضيتهما حقهما قال « لا فانهما كانا يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك وأنت تفعل ذلك وأنت تريد موتهما » وروى أن شيخا أتى النبى عليه الصلاة والسلام فقال ان ابنى هذا له مال كثير وانه لا ينفق على من ماله فنزل جبريل عليه السلام وقال ان هذا الشيخ قد أنشأ فى ابنه أبياتا ما قرع سمع مثلها فاستنشدها فانشدها الشيخ فقال :

غذوتك مولودا ومنتك يافعا ... تعل بما أجنى عليك وتنهل
اذا ليلة ضافتك بالسقم لم أبت ... لسقمك الا باكيا أتململ
كأنى أنا المطروق دونك بالذى ... طرقت به دونى وعينى تهمل
فلما بلغت السن والغاية التى ... اليها مدى ما كنت فيك أؤمل
جعلت جزائى غلظة وفظاظة ... كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك اذ لم ترع حق أبوتى ... فعلت كما الجار المجاور يفعل

فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أنت ومالك لابيك (ربكم أعلم بما فى نفوسكم) من البر والعقوق (إن تكونوا صالحين) قاصدين للصلاح والبر دون العقوق والفساد (فانه) تعالى (كان للأوابين) أى الرجاعين اليه تعالى عما فرط منهم مما لا يكاد يخلو عنه البشر (غفورا) لما وقع منهم من نوع تقصير أو أذية فعلية أو قولية وفيه مالا يخفى من التشديد فى الامر بمراعاة حقوقهما ويجوز أن يكون عاما لكل تائب ويدخل فيه الجانى على أبويه دخولا أوليا (وآت ذا القربى) أى ذا القرابة (حقه) توصية بالاقارب أثر التوصية ببر الوالدين ولعل المراد بهم المحارم وبحقهم النفقة كما ينبىء عنه قوله تعالى (والمسكين وابن السبيل) فان المأمور به فى حقهما المواساة المالية لا محالة أى وآتهما حقهما كان مفترضا بمكة بمنزلة الزكاة وكذا النهى عن التبذير وعن الافراط فى القبض والبسط فان الكل من التصرفات المالية (ولا تبذر تبذيرا) نهى عن صرف المال الى من سواهم ممن لا يستحقه فان التبذير تفريق فى غير موضعه مأخوذ من تفريق حبات والقائها كيفما كان من غير تعهد لمواقعها لا عن الاكثار فى

صرفه اليهم والا لناسبه الاسراف الذى هو تجاوز الحد فى صرفه وقد نهى عنه بقوله تعالى ولا تبسطها وكلاهما مذموم (ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين) تعليل للنهى عن التبذير ببيان انه يجعل صاحبه ملذوذا فى قرن الشياطين والمراد بالاخوة المماثلة التامة فى كل ما لاخير فيه من صفات السوء التى من جملتها التبذير أى كانوا بما فعلوا من التبذير أمثال الشياطين أو الصداقة و الملازمة أى كانوا أصدقاءهم وأتباعهم فيما ذكر من التبذير والصرف فى المعاصى فانهم كانوا ينحرون الابل و يتياسرون عليها ويبذرون أموالهم فى السمعة وسائر مالا خير فيه من المناهى والملاهى. أو المقارنة أى قرناءهم فى النار على سبيل الوعيد (وكان الشيطان لربه كفورا) من تتمة التعليل أى مبالغا فى كفران نعمته تعالى لان شأنه أن يصرف جميع ما أعطاه الله تعالى من القوى والقدر الى غير ما خلقت هى له من أنواع المعاصى والافساد فى الارض واضلال الناس وحملهم على الكفر بالله وكفران نعمه الفائضة عليهم وصرفها الى غير ما أمر الله تعالى به. وتخصيص هذا الوصف بالذكر من بين سائر أوصافه القبيحة للايذان بأن التبذير الذى هو عبارة عن صرف نعم الله تعالى الى غير مصرفها من باب الكفران المقابل للشكر الذى هو عبارة عن صرفها الى ما خلقت هى له. والتعرض لوصف الربوبية للاشعار بكمال عتوه فان كفران نعمة الرب مع كون الربوبية من أقوى الدواعى الى شكرها غاية الكفران ونهاية الضلال والطغيان (وإما تعرضن عنهم) أى إن اعتراك أمر اضطرك الى أن تعرض عن أولئك المستحقين (ابتغاء رحمة من ربك) أى لفقد رزق من ربك اقامة للمسبب مقام السبب فان الفقد سبب للابتغاء (ترجوها) من الله تعالى لتعطيهم وكان عليه السلام اذا سئل شيئا وليس عنده أعرض عن السائل وسكت حياء فأمر بتعهدهم بالقول الجميل لئلا تعتريهم الوحشة بسكوته عليه السلام فقيل (فقل لهم قولا ميسورا) سهلا لينا وعدهم وعدا جميلا من يسر الامر نحو سعد او قل لهم رزقنا الله وإياكم من فضله على أنه دعاء لهم بيسر عليهم فقرهم (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط) تمثيلان لمنع الشحيح واسراف المبذر زجرا لهما عنهما وحملا على ما بينهما من الاقتصاد: كلا طرفى قصد الامور ذميم وحيث كان قبح الشح مقارنا له معلوما من الامر وعبر ذلك فى التصوير بأقبح الصور ولما كان غائلة الاسراف فى آخره بين قبحه فى أثره فقيل (فتقعد ملوما) أى فتصير ملوما عند الله تعالى وعند الناس وعند نفسك اذا احتجت وندمت على ما فعلت (محسورا) نادما أو منقطعا بك لا شىء عندك من

حسره السفر اذا بلغ منه وما قيل من أنه روى عن جابر رضى الله عنه انه قال « بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد اذ أتاه صبى فقال ان أمى تستكسيك درعا فقال عليه السلام من ساعة الى ساعة فعد الينا فذهب الى أمه فقالت له قل ان أمى تستكسيك الدرع الذى عليك فدخل صلى الله عليه وسلم داره ونزع قميصه وأعطاه وقعد عريانا وأذن بلال وانتظروا فلم يخرج للصلاة فنزلت » فيأباه أن السورة مكية خلا آيات فى آخرها وكذا ما قيل انه عليه السلام أعطى الاقرع بن حابس مائة من الابل وكذا عيينة بن حصن الفزارى فجاء عباس بن مرداس فانشأ يقول :

أتجعل نهبى ونهب العبيد ، بين عيينة والاقرع
وما كان حصن ولا حابس ، يفوقان مرداس فى مجمع
وما كنت دون امرىء منهما ، ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال عليه السلام يا أبا بكر اقطع لسانه عنى أعطه مائة من الابل وكانوا جميعا من المؤلفة القلوب فنزلت (إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) تعليل لما مر أى يوسعه على بعض ويضيقه على آخرين حسبما تتعلق به مشيئته التابعة للحكمة فليس ما يرهقك من الاضافة التى تحوجك الى الأعراض عن السائلين أو نفاد ما فى يدك اذا بسطتها كل البسط الا لمصلحتك (إنه كان بعباده خبيرا بصيرا) تعليل لما سبق أى يعلم سرهم وعلنهم فيعلم من مصالحهم مايخفى عليهم . ويجوز أن يراد أن البسط والقبض من أمر الله العالم بالسرائر والظواهر الذى بيده خزائن السموات والأرض وأما العباد فعليهم أن يقتصدوا وأن يراد أنه تعالى يبسط تارة ويقبض أخرى فاستنوا بسنته فلا تقبضوا كل القبض ولا تبسطوا كل البسط وأن يراد أنه تعالى يبسط ويقدر حسب مشيئته فلا تبسطوا على من قدر عليه رزقه وأن يكون تمهيدا لقوله (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق) أى مخافة فقر وقرى بكسر الخاء كانوا يئدون بناتهم مخافة الفقر فنهوا عن ذلك (نحن نرزقهم وإياكم) لا أنتم فلا تخافوا الفاقة بناء على علمكم بعجزكم عن تحصيل رزقهم وهو ضمان لرزقهم وتعليل للنهى المذكور بابطال موجبه فى زعمهم . وتقديم ضمير الاولاد على المخاطبين على عكس ما وقع فى سورة الانعام للاشعار باصالتهم فى افاضة الرزق أو لان الباعث على القتل هناك الاملاق الناجز ولذلك قيل من املاق وههنا الاملاق المتوقع ولذلك قيل خشية املاق فكأنه قيل نرزقهم من غير أن ينتقص من رزقكم شىء فيعتريكم ما تخشونه وإياكم أيضا

رزقا الى رزقكم (إن قتلهم كان خطأ كبيرا) تعليل آخر ببيان أن المنهى عنه فى نفسه منكر عظيم. والخطء الذنب والاثم يقال خطىء خطأ كأثم اثما وقرىء بالفتح والسكون وبفتحتين بمعناه كالحذر والحذر وقيل بمعنى ضد الصواب وبكسر الخاء والمد وبفتحها ممدوداً وبفتحها وحذف الهمزة وبكسرها كذلك (ولا تقربوا الزنا) بمباشرة مباديه القريبة أو البعيدة فضلا عن مباشرته وانما نهى عن قربانه على خلاف ما سبق ولحق من القتل للمبالغة فى النهى عن نفسه ولان قربانه داع الى مباشرته وتوسيط النهى عنه بين النهى عن قتل الاولاد والنهى عن قتل النفس المحرمة على الاطلاق باعتبار أنه قتل للاولاد لما أنه تضييع للانسان فان من لم يثبت نسبه ميت حكما (انه كان فاحشة) فعلة ظاهرة القبح متجاوزة عن الحد (وساء سبيلا) أى بئس طريقا طريقه فانه غصب الابضاع المؤدى الى اختلال أمر الانساب وهيجان الفتن كيف لا وقد قال النبي عليه السلام « اذا زنى العبد خرج منه الايمان فكان على رأسه كالظلة فاذا انقطع رجع اليه » وقال عليه السلام « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » وعن حذيفة رضى الله عنه انه قال عليه الصلاة والسلام اياكم والزنا فان فيه ست خصال ثلاث فى الدنيا وثلاث فى الآخرة فاما التى فى الدنيا فذهاب البهاء. ودوام الفقر. وقصر العمر. وأما التى فى الآخرة فسخط الله تعالى وسوء الحساب والخلود فى النار (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله) قتلها بان عصمها بالاسلام أو بالعهد (الا بالحق) الا باحدى ثلاث كفر بعد إيمان وزنا بعد احصان وقتل نفس معصومة عمدا فالاستثناء مفرغ أى لاتقتلوها بسبب من الاسباب الا بسبب الحق أو ملتبسين أو ملتبسة بشيء من الاشياء. ويجوز ان يكون نعتا لمصدر محذوف اى لا تقتلوها قتلا ما الا قتلا ملتبسا بالحق (ومن قتل مظلوما) بغير حق يوجب قتله أو يبيحه للقاتل حتى انه لا يعتبر اباحته لغير القاتل فان من عليه القصاص إذا قتله غير من له القصاص يقتص له ولا يفيده قول الولى أنا أمرته بذلك ما لم يكن الامر ظاهرا (فقد جعلنا لوليه) لمن يلى أمره من الوارث أو السلطان عند عدم الوارث (سلطانا) تسلطا واستيلاء على القاتل يؤاخذه بالقصاص أو بالدية حسبما تقتضيه جنايته أو حجة غالبة (فلا يسرف) وقرىء لاتسرف (فى القتل) أى لا يسرف الولى فى أمر القتل بان يتجاوز الحد المشروع بان يزيد عليه المثلة أو بان يقتل غير القاتل من أقاربه او بان يقتل الاثنين مكان الواحد كما يفعله أهل الجاهلية أو بان يقتل القاتل فى مادة الدية وقرىء بصيغة النفى مبالغة فى إفادة معنى النهى (انه كان منصورا) تعليل للنهى والضمير للولى على معنى انه تعالى نصره بان أوجب له القصاص أو الدية أمر الحكام بمعونته فى استيفاء حقه فلا يبغ ماوراء حقه ولا

يستزد عليه ولا يخرج من دائرة أمر الناصر اوللمقتول ظلما على معنى انه تعالى نصره بما ذكر فلا يسرف وليه فى شأنه او للذى يقتله الولى ظلما واسرافا ووجه التعليل ظاهر وعن مجاهد ان الضمير فى لا يسرف للقاتل الاول و يعضده قراءة فلا تسرفوا والضمير ان فى التعليل عائدان الى الولى او المقتول فالمراد بالاسراف حينئذ اسراف القاتل على نفسه بتعريضه لها للهلاك العاجل والآجل لاالاسراف وتجاوز الحد فى القتل اى لا يسرف على نفسه فى شأن القتل كما فى قوله تعالى « قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم » (ولا تقربوا مال اليتيم) نهى عن قربانه لما ذكر من المبالغة فى النهى عن التعرض له ومن افضاء ذلك اليه وللتوسل الى الاستثناء بقوله تعالى (الا بالتى هى أحسن) أى الا بالخصلة والطريقة التى هى احسن الخصال والطرائق وهى حفظه واستثماره (حتى يبلغ أشده)غاية لجواز التصرف على الوجه الاحسن المدلول عليه بالاستثناء لا للوجه المذكور فقط (وأوفوا بالعهد)سواء جرى بينكم و بين ربكم او بينكم و بين غيركم من الناس والايفاء بالعهد والوفاء به هو القيام بمقتضاه والمحافظة عليه ولا يكاد يستعمل الا بالباء فرقا بينه و بين الايفاء الحسى كايفاء الكيل والوزن (إن العهد) أظهر فى مقام الاضمار اظهارا لكمال العناية بشأنه أو لان المراد مطلق العهد المنتظم للعهد المعهود (كان مسؤلا) اى مسئولا عنه على حذف الجار وجعل الضمير بعد انقلابه مرفوعا مستكنا فى اسم المفعول كقوله تعالى «وذلك يوم مشهود »أي مشهود فيه ونظيره ما فى قوله تعالى «تلك آيات الكتاب الحكيم » على أن أصله الحكيم قائله فحذف المضاف وجعل الضمير مستكنا فى الحكيم بعد انقلابه مرفوعا . ويجوز أن يكون تخييلا كانه يقال للعهد لم نكثت وهلا فى بالعهد تبكيتا للناكث كما يقال للموءودة بأى ذنب قتلت (وأوفوا الكيل) أى أتموه ولا تخسروه (اذا كلتم) أى وقت كيلكم للمشترين . وتقييد الامر بذلك لما أن التطفيف هناك يكون وأما وقت الاكتيال على الناس فلا حاجة الى الامر بالتعديل قال تعالى « اذا اكتالوا على الناس يستوفون » الآية (وزنوا بالقسطاس)وهو القرسطون وقيل كل ميزان صغيرا كان أو كبيرا رومى معرب ولا يقدح ذلك فى عربية القرآن لانتظام المعربات فى سلك الكلم العربية وقرىء بضم القاف (المستقيم)أى العدل السوى. ولعل الاكتفاء باستقامته عن الامر بايفاء الوزن لما أن عند استقامته لا يتصور الجور غالبا بخلاف الكيل فانه كثيرا ما يقع التطفيف مع استقامة الآلة كما أن الاكتفاء بايفاء الكيل عن الامر بتعديله لما أن ايفاءه لا يتصور بدون تعديل المكيال وقد أمر بتقويمه أيضا فى قوله تعالى « أوفوا الكيل والميزان بالقسط » (ذلك)أى ايفاء الكيل والوزن بالميزان السوى (خير)

فى الدنيا اذ هو أمانة توجب الرغبة فى معاملته والذكر الجميل بين الناس (وأحسن تأويلا) عاقبة تفعيل من آل اذا رجع والمراد مايؤول اليه (ولا تقف) ولا تتبع من قفا أثره اذا تبعه. وقرىء ولا تقف من قاف أثره أى قفاه ومنه القافة فى جمع القائف (ما ليس لك به علم) اى لا تكن فى اتباع مالا علم لك به من قول أو فعل كمن يتبع مسلكا لا يدري أنه يوصله الى مقصده واحتج به من منع اتباع الظن وجوابه ان المراد بالعلم هو الاعتقاد الراجح المستفاد من سند قطعيا كان او ظنيا واستعماله بهذا المعنى مما لا ينكر شيوعه وقيل انه مخصوص بالعقائد وقيل بالرمى وشهادة الزور ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام «من قفا مؤمنا بما ليس فيه حبسه الله تعالى فى ردغة الخبال حتى يأتى بالمخرج» ومنه قول الكميت:

ولا أرمى البرىء بغير ذنب ولا أقفو الحواصن ان رمينا

(ان السمع والبصر والفؤاد) وقرىء بفتح الفاء والواو المقلوبة من الهمزة عند ضم الفاء (كل أولئك) أى كل واحد من تلك الاعضاء فأجريت مجرى العقلاء لما كانت مسئولة عن أحوالها شاهدة على اصحابها هذا وان أولاء وان غلب فى العقلاء لكنه من حيث أنه اسم جمع لذا الذى يعم القبيلين جاء لغيرهم أيضا قال:

ذم المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الايام

(كان عنه مسئولا) أي كان كل من تلك الاعضاء مسئولا عن نفسه على أن اسم كان ضمير يرجع الى كل وكذا اسم الضمير المجرور وقد جوز ان يكون الاسم ضمير القافى بطريق الالتفات اذ الظاهر ان يقال كنت عنه مسئولا وقيل الجار والمجرور فى محل الرفع قد أسند اليه مسئولا معللا بان الجار والمجرور لا يلتبس بالمبتدا وهو السبب فى منع تقديم الفاعل وما يقوم مقامه ولكن النحاس حكى الاجماع على عدم جواز تقديم القائم مقام الفاعل اذا كان جارا ومجرورا. ويجوز أن يكون من باب الحذف على شريطة التفسير و يحذف الجار من المفسر ويعود الضمير مستكنا كما ذكرنا فى قوله تعالى «يوم مشهود» وجوز أن يكون مسئولا مسندا الى المصدر المدلول عليه بالفعل وأن يكون فاعله المصدر وهو السؤال وعنه فى محل النصب وسأل ابن جنى أبا على عن قولهم فيك يرغب وقال لا يرتفع بما بعده فأين المرفوع فقال المصدر أى فيك يرغب الرغبة بمعنى تفعل الرغبة كما فى قولهم يعطي ويمنع أى يفعل الاعطاء والمنع. وجوز أن يكون اسم كان أو فاعله ضمير كل بحذف المضاف أى كان صاحبه عنه مسئولا أو مسئولا صاحبه (ولا تمش فى الارض) التقييد لزيادة التقرير والاشعار بأن المشى عليها مما لا يليق بالمرح (مرحا) تكبرا وبطرا واختيالا وهو مصدر وقع موقع الحال أى ذا مرح أو تمرح

مرحا أو لاجل المرح . وقرىء بالكسر (إنك لن تخرق الارض) تعليل للنهى وفيه تهكم بالمختال وايذان بأن ذلك مفاخرة مع الارض وتكبر عليها أى لن تخرق الارض بدوسك وشدة وطأتك . وقرىء بضم الراء (ولن تبلغ الجبال) التى هي بعض أجزاء الارض (طولا) حتى يمكن لك أن تتكبر عليها اذ التكبر انما يكون بكثرة القوة وعظم الجثة وكلاهما مفقود . وفيه تعريض بما عليه المختال من رفع رأسه ومشيه على صدور قدميه (كل ذلك) اشارة الى ما علم فى تضاعيف ذكر الاوامر والنواهى من الخصال الخمس والعشرين (كان سيئه) الذى نهي عنه وهى اثنتا عشرة خصلة (عند ربك مكروها) مبغضا غير مرضى أو غير مراد بالارادة الاولية لا غير مراد مطلقا لقيام الادلة القاطعة على أن جميع الاشياء واقعة بارادته سبحانه وهو تتمة لتعليل الامور المنهى عنها جميعا ووصف ذلك بمطلق الكراهة مع أن البعض من الكبائر للايذان بان مجرد الكراهة عنده تعالى كافية فى وجوب الانتهاء عن ذلك وتوجيه الاشارة الى الكل ثم تعيين البعض دون توجيهها اليه ابتداء لما أن البعض المذكور ليس بمذكور جملة بل على وجه الاختلاط . وفيه اشعار بكون ماعداه مرضيا عنده تعالى وانما لم يصرح بذلك ايذانا بالغنى عنه وقيل الاضافة بيانية كما فى آية الليل وآية النهار . وقرىء سيئة على انه خبر كان وذلك اشارة الى ما نهى عنه من الامور المذكورة ومكروها بدل من سيئة أو صفة لها محمولة على المعنى فانه بمعنى سيأ وقد قرىء به أو مجرى على موصوف مذكر أى أمرا مكروها أو مجرى مجرى الاسماء زال عنه معنى الوصفية . ويجوز كونه حالا من المستكن فى كان أو فى الظرف على انه صفة سيئة . وقرىء سيآته وقرىء شأنه (ذلك) أى الذى تقدم من التكاليف المفصلة (مما أوحى اليك ربك) أى بعض منه أو من جنسه (من الحكمة) التى هى علم الشرائع أو معرفة الحق لذاته والعمل به أو من الاحكام المحكمة التى لا يتطرق اليها النسخ والفساد وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان هذه الآيات الثمانى عشرة كانت فى ألواح موسى عليه السلام أولها لا تجعل مع الله الها آخر قال تعالى «وكتبنا له فى الالواح من كل شىء موعظة» وهى عشر آيات فى التوراة ومن إما متعلقة بأوحى على أنها تبعيضية أو ابتدائية وإما بمحذوف وقع حالا من الموصول أو من ضميره المحذوف فى الصلة أى كائنا من الحكمة وإما بدل من الموصول باعادة الجار (ولا تجعل مع الله الها آخر) الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام والمراد غيره ممن يتصور منه صدور المنهى عنه وقد كرر للتنبيه على أن التوحيد مبدأ الامر ومنتهاه وأنه رأس كل حكمة وملاكها ومن عدمه لم ينفعه علومه وحكمه وإن بذ فيها أساطين الحكماء

وحلك بيافوخه عنان السماء وقد رتب عليه ماهو عائدة الاشراك أولا حيث قيل فتقعد مذموما مخذولا ورتب عليه ههنا نتيجته فى العقبى فقيل (فتلقى فى جهنم ملوما) من جهة نفسك ومن جهة غيرك (مدحورا) مبعدا من رحمة الله تعالى. وفى ايراد الالقاء مبنيا للمفعول جرى على سنن الكبرياء وازدراء بالمشرك وجعل له من قبيل خشبة يأخذها آخذ بكفه فيطرحها فى التنور (أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا) خطاب للقائلين بأن الملائكة بنات الله سبحانه والاصفاء بالشيء جعله خالصا والهمزة للانكار والفاء للعطف على مقدر يفسره المذكور أى أفضلكم على جنابه فخصكم بأفضل الأولاد على وجه الخلوص وآثر لذاته أخسها وأدناها كما فى قوله سبحانه «ألكم الذكر وله الانثى» وقوله تعالى «أم له البنات ولكم البنون» وقد قصد ههنا بالتعرض لعنوان الربوبية تشديد النكير وتأكيده وأشير بذكر الملائكة عليهم السلام. وايراد الاناث مكان البنات الى كفرة لهم أخرى وهى وصفهم لهم عليهم السلام بالانوثة التى هى أخس صفات الحيوان كقوله تعالى «وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا» (إنكم لتقولون) بمقتضى مذهبكم الباطل الذى هو إضافة الولد اليه سبحانه (قولا عظيما) لايقادر قدره فى استتباع الاثم وخرقه لقضايا العقول بحيث لايجترىء عليه أحد حيث يجعلونه تعالى من قبيل الأجسام المتجانسة السريعة الزوال وليس كمثله شيء وهو الواحد القهار الباقى بذاته ثم تضيفون اليه ماتكرهون من أخس الاولاد وتفضلون عليه أنفسكم بالبنين ثم تصفون الملائكة الذين هم من أشرف الخلائق بالأنوثة التى هى أخس أوصاف الحيوان فيالها من ضلة ماأقبحها وكفرة ماأشنعها وأفظعها (ولقد صرفنا) هذا المعنى وكررناه (فى هذا القرآن) على وجوه من التصريف فى مواضع منه. وانما ترك الضمير تعويلا على الظهور وقرىء بالتخفيف (ليذكروا) مافيه ويقفوا على بطلان مايقه لونه والالتفات الى الغيبة للأيذان باقتضاء الحال أن يعرض عنهم ويحكى للسامعين هناتهم وقرىء بالتخفيف من الذكر بمعنى التذكر. ويجوز أن يراد بها القرآن مانطق ببطلان مقالتهم المذكورة من الآيات الكريمة الواردة على أساليب مختلفة ومعنى التصريف فيه جعله مكانا له أى أوقعنا فيه التصريف كقوله :

يجرح فى عراقيبها نصلى . وقد جوز أن يراد به إبطال إضافتهم اليه تعالى البنات وأنت تعلم أن ابطالها من آثار القرآن ونتائجه (وما يزيدهم) أى والحال أنه مايزيدهم ذلك التصريف البالغ (الا نفورا) عن الحق واعراضا عنه فضلا عن التذكر المؤدى الى معرفة بطلان ماهم عليه عن القبائح (قل) فى اظهار بطلان ذلك من جهة أخرى (لوكان معه) تعالى

(آلهة كما يقولون) أي المشركون قاطبة وقرىء بالتاء خطابا لهم من قبل النبي عليه الصلاة والسلام والكاف في محل النصب على أنها نعت لمصدر محذوف أى كونا مشابها لما يقولون والمراد بالمشابهة الموافقة والمطابقة (اذاً لابتغوا) جواب عن مقالتهم الشنعاء وجزاء للو. أي لطلبوا (الى ذى العرش) أي الى من له الملك والربوبية على الاطلاق (سبيلا) بالمغالبة والممانعة كما هو ديدن الملوك بعضهم مع بعض على طريقة قوله تعالى «لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا» وقيل بالتقرب اليه تعالى «أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة» والاول هو الاظهر الانسب لقوله (سبحانه) فانه صريح في أن المراد بيان أنه يلزم مما يقولونه محذور عظيم من حيث لا يحتسبون. وأما ابتغاء السبيل اليه تعالى بالتقريب فليس مما يختص بهذا التقرير ولا هو مما يلزمهم من حيث لا يشعرون بل هو أمر يعتقدونه رأسا أى تنزه بذاته تنزها حقيقا به (وتعالى) متباعدا (عما يقولون) من العظيمة التي هي أن يكون معه آلهة وأن يكون له بنات (علوا) تعاليا كقوله تعالى «والله أنبتكم من الارض نباتا» (كبيرا) لا غاية وراءه كيف لا وأنه سبحانه في أقصى غايات الوجود وهو الوجوب الذاتي وما يقولونه من أن له تعالى شركاء وأولادا في أبعد مراتب العدم أعنى الامتناع لا لانه تعالى في أعلى مراتب الوجود وهو كونه واجب الوجود لذاته واتخاذ الولد من أدنى مراتبه فانه من خواص ما يمتنع بقاؤه كما قيل فان ما يقولونه ليس مجرد اتخاذ الولد بل اتخاذه تعالى له وأن يكون معه آلهة ولا ريب في أن ذلك ليس بداخل في حد الامكان فضلا عن دخوله تحت الوجود وكونه من أدنى مراتب الوجود انما هو بالنسبة الى من شأنه ذلك (تسبح) بالفوقانية وقرىء بالتحتانية وقرىء سبحت (له السموات السبع والارض ومن فيهن) من الملائكة والثقلين على أن المراد بالتسبيح معنى منتظم لما ينطق به لسان المقال ولسان الحال بطريق عموم المجاز (وإن من شىء) من الاشياء حيوانا كان أو نباتا أو جمادا (إلا يسبح) ملتبسا (بحمده) أي ينزهه تعالى بلسان الحال عما لا يليق بذاته الاقدس من لوازم الامكان ولواحق الحدوث اذ ما من موجود الا وهو بامكانه وحدوثه يدل دلالة واضحة على أن له صانعا عليما قادرا حكيما واجبا لذاته قطعا للسلسلة (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) أيها المشركون لاخلالكم بالنظر الصحيح الذى به يفهم ذلك. وقرىء لا يفقهون على صيغة المبنى للمفعول من باب التفعيل (إنه كان حليما) ولذلك لم يعاجلكم بالعقوبة مع ما أنتم عليه من موجباتها من الاعراض عن التدبر في الدلائل الواضحة الدالة على التوحيد والانهماك في الكفر والاشراك (غفورا) لمن تاب

منكم (وإذا قرأت القرآن) الناطق بالتسبيح والتنزيه ودعوتهم الى العمل بما فيه من التوحيد ورفض الشرك وغير ذلك من الشرائع (جعلنا) بقدرتنا ومشيئتنا المبنية على دواعي الحكم الخفية (بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة) أوثر الموصول على الضمير ذما لهم بما في حيز الصلة. وانما خص بالذكر كفرهم بالآخرة من بين سائر ما كفروا به من التوحيد ونحوه دلالة على أنها معظم ما أمروا بالايمان به في القرآن وتمهيداً لما سينقل عنهم من انكار البعث واستعجاله ونحو ذلك (حجابا) يحجبهم من أن يدركوك على ما أنت عليه من النبوة ويفهموا قدرك الجليل ولذلك اجترءوا على تفوه العظيمة التي هي قولهم ان تتبعون إلا رجلا مسحورا وحمل الحجاب على ما روى عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنه من أنه «لما نزلت سورة تبت أقبلت العوراء أم جميل امرأة أبي لهب وفي يدها فهر والنبي عليه الصلاة والسلام قاعد في المسجد ومعه أبو بكر رضي الله عنه فلما رآها قال يا رسول الله لقد أقبلت هذه وأخاف أن تراك قال عليه الصلاة والسلام انها لن تراني وقرأ قرآنا فوقفت على أبي بكر رضي الله عنه ولم تر رسول الله صلى الله عليه وسلم» مما لا يقبله الذوق السليم ولا يساعده النظم الكريم (مستورا) ذا ستر كما في قولهم سيل مفعم أو مستورا عن الحس بمعنى غير حسي أو مستورا في نفسه بحجاب آخر أو مستورا كونه حجابا حيث لا يدرون أنهم لا يدرون (وجعلنا على قلوبهم أكنة) أغطية كثيرة جمع كنان (أن يفقهوه) مفعول لأجله أي كراهة أن يفقهوه أو مفعول لما دل عليه الكلام أي منعناهم أن يقفوا على كنهه ويعرفوا أنه من عند الله تعالى (وفي آذانهم وقرا) صمما وثقلا مانعا من سماعه اللائق به وهذه تمثيلات معربة عن كمال جهلهم بشئون النبي عليه الصلاة والسلام وفرط نبو قلوبهم عن فهم القرآن الكريم ومج أسماعهم له جيء بها بيانا لعدم فقههم لتسبيح لسان المقال أثر بيان عدم فقههم لتسبيح لسان الحال وايذانا بأن هذا التسبيح من الظهور بحيث لا يتصور عدم فهمه الا لمانع قوي يعتري المشاعر فيبطلها وتنبيها على أن حالهم هذا أقبح من حالهم السابق لا حكاية لما قالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب. كيف لا وقصدهم بذلك انما هو الاخبار بما اعتقدوه في حق القرآن والنبي عليه الصلاة والسلام جهلا وكفرا من اتصافهما بأوصاف مانعة من التصديق والايمان ككون القرآن سحرا وشعرا وأساطير وقس عليه حال النبي عليه الصلاة والسلام لا الاخبار بأن هناك أمرا وراء ما أدركوه قد حال بينهم وبين ادراكه حائل من قبلهم ولا ريب في أن ذلك المعنى مما لا يكاد يلائم المقام (وإذا ذكرت ربك في

القرآن وحده) واحدا غير مشفوع به آلهتهم وهو مصدر وقع موقع الحال أصله يحد وحده (ولوا على أدبارهم) أى هربوا ونفروا (نفورا) أو ولوا نافرين (نحن أعلم بما يستمعون به) ملتبسين به من اللغو والاستخفاف والهزء بك وبالقرآن يروى أنه كان يقوم عن يمينه عليه الصلاة والسلام رجلان من بنى عبد الدار وعن يساره رجلان فيصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالاشعار (إذ يستمعون إليك) ظرف لاعلم وفائدته تأكيد الوعيد بالاخبار بأنه كما يقع الاستماع المزبور منهم يتعلق به العلم لأن العلم يستفاد هناك من أحد وكذا قوله تعالى (وإذهم نجوى) لكن لا من حيث تعلقه بما به الاستماع بل بما به التناجى المدلول عليه بسياق النظم والمعنى نحن أعلم بالذى يستمعون ملتبسين به مما لاخير فيه من الأمور المذكورة وبالذى يتناجون به فيما بينهم أو الأول ظرف ليستمعون والثانى ليتناجون والمعنى نحن أعلم بما به الاستماع وقت استماعهم من غير تأخير وبما به التناجى وقت تناجيهم ونجوى مرفوع على الخبرية بتقدير المضاف أى ذوو نجوى أو هو جمع نجى كقتلى جمع قتيل أى متناجون (إذ يقول الظالمون) بدل من إذهم. وفيه دليل على أن ما يتناجون به غير ما يستمعون به. وانما وضع الظالمون موضع المضمر اشعاراً بأنهم فى ذلك ظالمون مجاوزون للحد أى يقول كل منهم للآخرين عند تناجيهم (إن تتبعون) ما تتبعون ان وجد منكم الاتباع فرضا أو ما تتبعون باللغو والهزء (الا رجلا مسحوراً) أى سحر فجن أو رجلا ذا سحر أى رئة يتنفس أى بشراً مثلكم (أنظر كيف ضربوا لك الامثال) أى مثلوك بالشاعر والساحر والمجنون (فضلوا) فى جميع ذلك عن منهاج المحاجة (فلا يستطيعون سبيلا) إلى طعن يمكن أن يقبله أحد فيتهافتون ويخبطون ويأتون بما لا يرتاب فى بطلانه أحد أو الى سبيل الحق والرشاد وفيه من الوعيد وتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم ما لا يخفى (وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا) استفهام انكارى مفيد لكمال الاستبعاد والاستنكار للبعث بعد ما آل الحال الى هذا المآل لما بين غضاضة الحى ويبوسة الرميم من التنافى كأن استحالة الأمر من الظهور بحيث لا يقدم المخاطب على التكلم به والرفات ما بولغ فى دقه وتفتيته وقال الفراء هو التراب وهو قول مجاهد وقيل هو الحطام واذا متمحضة للظرفية وهو الاظهر والعامل فيها ما دل عليه قوله تعالى (أئنا لمبعوثون) لا نفسه لان ما بعد ان والهمزة واللام لا يعمل فيما قبلها وهو نبعث أو نعاد وهو المرجع للانكار. وتقييده بالوقت المذكور ليس لتخصيصه به فانهم منكرون للاحياء بعد الموت وان كان البدن على حاله بل لتقوية الانكار للبعث بتوجيهه اليه فى حالة منافية له. وتكرير الهمزة

فى قولهم أئنا لتأكيد النكير. وتحلية الجملة بان واللام لتأكيد الانكار لالانكار التأكيد كما عسى يتوهم من ظاهر النظم فان تقديم الهمزة لاقتضائها الصدارة كما فى مثل قوله تعالى أفلا تعقلون ونظائره على رأى الجمهور فان المعنى عندهم تعقيب الانكار لا انكار التعقيب كما هو المشهور وليس مدار انكارهم كونهم ثابتين فى المبعوثية بالفعل فى حال كونهم عظاما ورفاتا كما يتراءى من ظاهر الجملة الاسمية بل كونهم بعرضية ذلك واستعدادهم له ومرجعه الى انكار البعث بعد تلك الحالة. وفيه من الدلالة على غلوهم فى الكفر وتماديهم فى الضلال مالا مزيد عليه (خلقا جديدا) نصب على المصدر من غير لفظه أو الحالية على أن الخلق بمعنى المخلوق (قل) جوابا لهم وتقريبا لما استبعدوه (كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا) آخر (مما يكبر فى صدوركم) أى يعظم عندكم عن قبول الحياة لكمال المباينة والمنافاة بينها وبينه فانكم مبعوثون ومعادون لامحالة (فسيقولون من يعيدنا) مع ما بيننا وبين الاعادة من مثل هذه المباعدة والمباينة (قل) لهم تحقيقا للحق وإزاحة للاستبعاد وإرشادا لهم الى طريقة الاستدلال (الذى) أى يعيدكم القادر العظيم الذى (فطركم) اخترعكم (أول مرة) من غير مثال يحتذيه ولا أسلوب ينتحيه وكنتم ترابا ماشم رائحة الحياة أليس الذى يقدر على ذلك بقادر على أن يعيد العظام البالية الى حالتها المعهودة بلى انه على كل شىء قدير (فسينغضون اليك رؤسهم) أى سيحركونها نحوك تعجبا وانكارا (ويقولون) استهزاء (متى هو) أى ما ذكرته من الاعادة (قل) لهم (عسى أن يكون) ذلك (قريبا) نصب على أنه خبر ليكون أو ظرف على أن كان تامة أى أن يقع فى زمان قريب ومحل أن مع مافى حيزها إما نصب على انه خبر لعسى وهى ناقصة واسمها ضمير عائد الى ماعاد اليه هو أى عسى البعث أن يكون قريبا أو عسى البعث يقع فى زمان قريب أو رفع على انه فاعل لعسى وهى تامة أى عسى كونه قريبا أو وقوعه فى زمان قريب (يوم يدعوكم) منصوب بفعل مضمر أى اذكروا أو على انه بدل من قريبا على أنه ظرف أو بيكون تامة بالاتفاق أو ناقصة عند من يجوز إعمال الناقصة فى الظروف أو بضمير المصدر المستكن فى عسى أو يكون أعنى البعث عند من يجوز أعمال ضمير المصدر كما فى قول زهير:

وما الحرب الا ما علمتم وذقتم ☆ وما هو عنها بالحديث المرجم

فهو ضمير المصدر وقد تعلق به ما بعده من الجار (فتستجيبون) أى يوم يبعثكم فتبعثون وقد استعير لهما الدعاء والاجابة إيذانا بكمال سهولة التأتى وبأن المقصود منهما الاحضار للمحاسبة والجواب (بحمده) حال من ضمير تستجيبون أى منقادين له حامدين لما فعل

بكم غير مستعصين أو حامدين له تعالى على كمال قدرته عند مشاهدة آثارها ومعاينة أحكامها (وتظنون) عطف على تستجيبون أي تظنون عند ما ترون ما ترون من الأمور الهائلة (إن لبثتم) أي ما لبثتم في القبور (إلا قليلا) كالذي مر على قرية أو ما لبثتم في الدنيا (وقل لعبادي) أي المؤمنين (يقولوا) عند محاورتهم مع المشركين (التي) أي الكلمة التي (هي أحسن) ولا يخاشنوهم كقوله تعالى «ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن» (إن الشيطان ينزغ بينهم) أي يفسد ويهيج الشر والمراء ويغري بعضهم على بعض لتقع بينهم المشاقة والمشارة والمعارة والمضارة فلعل ذلك يؤدي إلى تأكد العناد وتمادي الفساد فهو تعليل للأمر السابق. وقرىء بكسر الزاء (إن الشيطان كان) قدما (للإنسان عدوا مبينا) ظاهر العداوة وهو تعليل لما سبق من أن الشيطان ينزغ بينهم (ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم) بالتوفيق للإيمان (أو إن يشأ يعذبكم) بالإماتة على الكفر وهذا تفسير التي هي أحسن وما بينهما اعتراض أي قولوا لهم هذه الكلمة وما يشاكلها ولا تصرحوا بأنهم من أهل النار فإنه مما يهيجهم على الشر مع أن العاقبة مما لا يعلمه إلا الله سبحانه فعسى يهديهم إلى الإيمان (وما أرسلناك عليهم وكيلا) موكولا إليك أمورهم تقسرهم على الإيمان وإنما أرسلناك بشيرا ونذيرا فدارهم ومر أصحابك بالمداراة والاحتمال وترك المحاقة والمشاقة وذلك قبل نزول آية السيف. وقيل نزلت في عمر رضي الله عنه شتمه رجل فأمر بالعفو وقيل أفرط أذية المشركين بالمؤمنين فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت وقيل الكلمة التي هي أحسن أن يقولوا يهديكم الله يرحمكم الله (وربك أعلم بمن في السموات والأرض) وتفاصيل أحوالهم الظاهرة والكامنة التي بها يستأهلون الاصطفاء والاجتباء فيختار منهم لنبوته وولايته من يشاء ممن يستحقه وهو رد عليهم إذ قالوا بعيد أن يكون يتيم أبي طالب نبيا وأن يكون العراة الجوع أصحابه دون أن يكون ذلك من الأكابر والصناديد. وذكر من في السموات لإبطال قولهم لولا أنزل علينا الملائكة وذكر من في الأرض لرد قولهم لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض) بالفضائل النفسانية والتنزه عن العلائق الجسمانية لا بكثرة الأموال والأتباع (وآتينا داود زبورا) بيان لحيثية تفضيله عليه الصلاة والسلام فإن ذلك إيتاء الزبور لا إيتاء الملك والسلطنة. وفيه إيذان بتفضيل النبي عليه الصلاة والسلام فإن نعوته الجليلة وكونه خاتم النبيين مسطورة في الزبور وأن المراد بعباد الله الصالحين في قوله تعالى «إن الأرض يرثها عبادي الصالحون» هو النبي عليه الصلاة والسلام وأمته. وتعريف الزبور تارة وتنكيره أخرى إما لأنه في الأصل فعول بمعنى

المفعول كالحلوب أو مصدر بمعناه كالقبول واما لان المراد آتينا داود زبورا من الزبر أو بعضا من الزبور فيه ذكره عليه الصلاة والسلام وقرئ بضم الزاى على أنه جمع زبر بمعنى مزبور (قل ادعوا الذين زعمتم) أنها آلهة (من دونه) تعالى من الملائكة والمسيح وعزير (فلا يملكون) فلا يستطيعون (كشف الضر عنكم) بالمرة كالمرض والفقر والقحط ونحو ذلك (ولا تحويلا) أى ولا تحويله الى غيركم (أولئك الذين يدعون) أى أولئك الآلهة الذين يدعوهم المشركون من المذكورين (يبتغون) يطلبون لانفسهم (الى ربهم) ومالك أمورهم (الوسيلة) القربة بالطاعة والعبادة (أيهم أقرب) بدل من فاعل يبتغون وأى موصولة أى يبتغى من هو أقرب اليه تعالى الوسيلة فكيف بمن دونه أو ضمن الابتغاء معنى الحرص فكأنه قيل يحرصون أيهم يكون أقرب اليه تعالى بالطاعة والعبادة (ويرجون رحمته) بها (ويخافون عذابه) بتركها كدأب سائر العباد فأين هم من كشف الضر فضلا عن الآلهية (إن عذاب ربك كان محذورا) حقيقا بأن يحذره كل أحد حتى الملائكة والرسل عليهم الصلاة والسلام وهو تعليل لقوله تعالى «ويخافون عذابه» وتخصيصه بالتعليل لما أن المقام مقام التحذير من العذاب وأن بينهم وبين العذاب بونا بعيدا (وإن من قرية) بيان لتحتم حلول عذابه تعالى بمن لا يحذره اثر بيان أنه حقيق بالحذر وأن أساطين الخلق من الملائكة والنبيين عليهم الصلاة والسلام على حذر من ذلك. وكلمة أن نافية ومن استغراقية والمراد بالقرية القرية الكافرة أى ما من قرية من قرى الكفار (الا نحن مهلكوها) أى مخربوها بالخسف بها أو باهلاك أهلها بالمرة لما ارتكبوا من عظائم الموبقات المستوجبة لذلك وفى صيغة الفاعل وان كانت بمعنى المستقبل ما ليس فيه من الدلالة على التحقق والتقرر وانما قيل (قبل يوم القيامة) لان الاهلاك يومئذ غير مختص بالقرى الكافرة ولا هو بطريق العقوبة وانما هو لانقضاء عمر الدنيا (أو معذبوها) أى معذبو أهلها على الاسناد المجازى (عذابا شديدا) لا بالقتل والسبي ونحوهما من البلايا الدنيوية فقط بل بما لا يكتنه كنهه من فنون العقوبات الاخروية أيضا حسبما يفصح عنه اطلاق التعذيب عما قيد به الاهلاك من قبلية يوم القيامة كيف لا وكثير من القرى العاتية العاصية قد أخرت عقوباتها الى يوم القيامة (كان ذلك) الذى ذكر من الاهلاك والتعذيب (فى الكتاب) أى اللوح المحفوظ (مسطورا) مكتوبا لم يغادر منه شيء الا بين فيه بكيفياته وأسبابه الموجبة له ووقته المضروب له هذا وقد قيل الهلاك للقرى الصالحة والعذاب للطالحة وعن مقاتل وجدت فى كتاب الضحاك بن مزاحم فى تفسيرها أما مكة فيخربها الحبشة

وتهلك المدينة بالجوع. والبصرة بالغرق. والكوفة بالترك. والجبال بالصواعق. والرواجف وأما خراسان فهلاكها ضروب ثم ذكرها بلدا بلدا وقال الحافظ أبو عمرو الدوانى فى كتاب الفتن انه روى عن وهب بن منبه «أن الجزيرة آمنة فى الخراب حتى تخرب أرمينية وأرمينية آمنة حتى تخرب مصر ومصر آمنة حتى تخرب الكوفة ولا تكون الملحمة الكبرى حتى تخرب الكوفة فاذا كانت الملحمة الكبرى فتحت قسطنطينية على يدى رجل من بنى هاشم وخراب الاندلس من قبل الزنج وخراب افريقية من قبل الاندلس وخراب مصر من انقطاع النيل واختلاف الجيوش فيها وخراب العراق من الجوع وخراب الكوفة من قبل عدو من ورائهم يحصرهم حتى لايستطيعون أن يشربوا من الفرات قطرة وخراب البصرة من قبل الغرق وخراب الايلة من قبل عدو يحصرهم برا وبحرا وخراب الرى من الديلم وخراب خراسان من قبل التبت وخراب التبت من قبل الصين وخراب الهند واليمن من قبل الجراد والسلطان وخراب مكة من الحبشة وخراب المدينة من قبل الجوع. وعن أبى هريرة رضى الله عنه ان النبى عليه الصلاة والسلام قال «آخر قرية من قرى الاسلام خرابا المدينة» وقد أخرجه العمرى من هذا الوجه وأنت خبير بان تعميم القرية لايساعده السباق ولا السياق (وما منعنا أن نرسل بالآيات) أى الآيات التى اقترحتها قريش من احياء الموتى وقلب الصفا ذهبا ونحو ذلك (الا أن كذب بها الأولون) استثناء مفرغ من أعم الاشياء أى ومامنعنا ارسالها شىء من الاشياء الا تكذيب الاولين بها حين جاءتهم باقتراحهم وعدم ارساله تعالى بها وان كان بمشيئته المبنية على الحكم البالغة لالمنع مانع عن ذلك من التكذيب أو غيره لاستحالة العجز عليه تعالى لكن تكذيبهم المذكور بواسطة استتباعه لاستئصالهم بحكم السنة الالهية واستلزامه لتكذيب الآخرين بحكم الاشتراك فى العتو والعناد وافضائه الى أن يحل بهم مثل ما حل بهم بحكم الشركة فى الجريرة لما كان منافيا لارسال ما اقترحوه من الآيات لتعين التكذيب المستدعى للاستئصال المخالف لما جرى به قلم القضاء من تأخير عقوبات هذه الامة الى الآخرة لحكم باهرة من جملتها ما يتوهم من ايمان بعض أعقابهم عبر عن تلك المنافاة بالمنع على نهج الاستعارة ايذانا بتعاضد مبادى الارسال لا كما زعموا من عدم ارادته تعالى لتأييده عليه الصلاة والسلام بالمعجزات وهو السر فى ايثار الارسال على الايتاء لما فيه من الاشعار بتداعى الآيات الى النزول لولا أن تمسكها يد التقدير. واسناد هذا المنع الى تكذيب الاولين لا الى علمه تعالى بما سيكون من

الآخرين كما فى قوله تعالى «ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون» لاقامة الحجة عليهم بابراز الانموذج وللايذان بأن مدار عدم الاجابة الى ايتاء مقترحهم ليس الا صنيعهم (وآتينا ثمود الناقة) عطف على ما يفصح عنه النظم الكريم كانه قيل ومامنعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الأولون حيث آتيناهم ما اقترحوا من الآيات الباهرة فكذبوها وآتينا باقتراحهم ثمود الناقة (مبصرة) على صيغة الفاعل أى بينة ذات ابصار أو بصائر يدركها الناس أو أسند اليها حال من يشاهدها مجازا أو جاعلتهم ذوى بصائر من أبصره جعله بصيرا. وقرىء على صيغة المفعول وبفتح الميم والصاد وهى نصب على الحالية وقرىء بالرفع على انها خبر مبتدا محذوف (فظلموا بها) فكفروا بها ظالمين أى لم يكتفوا بمجرد الكفر بها بل فعلوا بها مافعلوا من العقر أو ظلموا أنفسهم وعرضوها للهلاك بسبب عقرها ولعل تخصيصها بالذكر لما أن ثمود عرب مثلهم وأن لهم من العلم بحالهم مالا مزيد عليه حيث يشاهدون آثار هلاكهم ورودا وصدورا أو لانها من جهة انها حيوان أخرج من الحجر أوضح دليل على تحقق مضمون قوله تعالى «قل كونوا حجارة أو حديدا» (وما نرسل بالآيات) المقترحة (الا تخويفا) لمن أرسلت هى عليهم مما يعقبها من العذاب المستأصل كالطليعة له وحيث لم يخافوا ذلك فعل بهم ما فعل فلا محل للجملة حينئذ من الاعراب ويجوز أن تكون حالا من ضمير ظلموا أى فظلموا بها ولم يخافوا عاقبته والحال أن ما نرسل بالآيات التى هى من جملتها الا تخويفا من العذاب الذى يعقبها فنزل بهم ما نزل (واذ قلنا لك ان ربك أحاط بالناس) أى علما كما نقله الامام الثعلبى عن ابن عباس رضى الله عنهما فلا يخفى عليه شىء من أفعالهم الماضية والمستقبلة من الكفر والتكذيب وفى قوله تعالى (وما جعلنا الرؤيا التى أريناك الا فتنة للناس) الى آخر الآية تنبيه على تحققها بالاستدلال عليها بما صدر عنهم عند مجىء بعض الآيات لاشتراك الكل فى كونها أمورا خارقة للعادات منزلة من جانب الله سبحانه لتصديق النبى عليه الصلاة والسلام فتكذيبهم لبعضها مستلزم لتكذيب الباقى كما أن تكذيب الآخرين بغير المقترحة يدل على تكذيبهم بالآيات المقترحة. والمراد بالرؤيا ماعاينه عليه الصلاة والسلام ليلة المعراج من عجائب الارض والسماء حسبما ذكر فى فاتحة السورة الكريمة. والتعبير عن ذلك بالرؤيا اما لانه لا فرق بينها وبين الرؤية أو لانها وقعت بالليل أو لان الكفرة قالوا لعلها

رؤيا أى وما جعلنا الرؤيا التى أريناكها عيانا مع كونها آية عظيمة وأية آية حقيقة بان لا يتلعثم فى تصديقها أحد ممن له أدنى بصيرة الا فتنة افتتن بها الناس حتى ارتد بعضهم (والشجرة الملعونة فى القرآن) عطف على الرؤيا والمراد بلعنها فيه لعن طاعمها على الاسناد المجازى أو ابعادها عن الرحمة فانها تنبت فى أصل الجحيم فى أبعد مكان من الرحمة أى وما جعلناها الا فتنة لهم حيث أنكروا ذلك وقالوا ان محمدا يزعم ان الجحيم يحرق الحجارة ثم يقول ينبت فيها الشجر ولقد ضلوا فى ذلك ضلالا بعيدا حيث كابروا قضية عقولهم فانهم يرون النعامة تبتلع الجمر وقطع الحديد المحماة فلا تضرها ويشاهدون المناديل المتخذة من وبر السمندل تلقى فى النار فلا تؤثر فيها ويرون أن فى كل شجر نارا. وقرىء بالرفع على حذف الخبر كأنه قيل والشجرة الملعونة فى القرآن كذلك (ونخوفهم) بذلك وبنظائرها من الآيات فان الكل للتخويف. وايثار صيغة الاستقبال للدلالة على التجدد والاستمرار (فما يزيدهم) التخويف (الا طغيانا كبيرا) متجاوزا عن الحد فلو أنا أرسلنا بما اقترحوه من الآيات لفعلوا بها ما فعلوا بنظائرها وفعل بهم ما فعل باشياعهم وقد قضينا بتأخير العقوبة العامة لهذه الامة الى الطامة الكبرى هذا هو الذى يستدعيه النظم الكريم وقد حمل أكثر المفسرين الاحاطة على الاحاطة بالقدرة تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما عسى يعتريه من عدم الاجابة الى انزال الآيات التي اقترحوها لان انزالها ليس بمصلحة من نوع حزن من طعن الكفرة حيث كانوا يقولون لو كنت رسولا حقا لأتيت بهذه المعجزات كما أتى بها موسى وغيره من الانبياء عليهم الصلاة والسلام فكأنه قيل اذكر وقت قولنا لك ان ربك اللطيف بك قد أحاط بالناس فهم فى قبضة قدرته لا يقدرون على الخروج من مشيئته فهو يحفظك منهم فلا تهتم بهم وامض لما أمرتك به من تبليغ الرسالة ألا يرى ان الرؤيا التى أريناك من قبل جعلناها فتنة للناس مورثة للشبهة مع أنها ما أورثت ضعفا لامرك وفتورا فى حالك وقد فسر الاحاطة باهلاك قريش يوم بدر وانما عبر عنه بالماضى مع كونه منتظرا حسبما ينبىء عنه قوله تعالى «سيهزم الجمع ويولون الدبر» وقوله تعالى «قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم» وغير ذلك جريا على عادته سبحانه فى أخباره وأولت الرؤيا بما رآه عليه الصلاة والسلام فى المنام عن مصارعهم لما روى انه عليه الصلاة والسلام لما ورد ماء بدر قال والله لكأنى أنظر الى مصارع القوم وهو يومىء الى الارض هذا مصرع فلان فتسامعت به قريش فاستسخروا منه وبما رآه عليه الصلاة والسلام انه سيدخل مكة وأخبر به أصحابه فتوجه اليها فصده المشركون

عام الحديبية واعتذر عن كون ما ذكر مدنيا بأنه يجوز أن يكون الوحي باهلاكهم وكذا الرؤيا واقعاً بمكة . وذكر الرؤيا وتعيين المصارع واقعين بعد الهجرة وأنت خبير بأنه يلزم منه أن يكون افتتان الناس بذلك واقعا بعد الهجرة وأن يكون ازديادهم طغيانا متوقعا غير واقع عند نزول الآية وقد قيل الرؤيا ما رآه عليه الصلاة والسلام فى وقعة بدر من مضمون قوله تعالى « اذ يريكهم الله فى منامك قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم » ولا ريب فى أن تلك الرؤيا مع وقوعها فى المدينة ما جعلت فتنة للناس (واذ قلنا للملائكة) تذكير لما جرى منه تعالى من الامر ومن الملائكة من الامتثال والطاعة من غير تردد وتحقيق لمضمون ما سبق من قوله تعالى «أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه» ان عذاب ربك كان محذورا ويعلم من حال الملائكة حال غيرهم من عيسى وعزير عليهما السلام فى الطاعة وابتغاء الوسيلة ورجاء الرحمة ومخافة العذاب ومن حال ابليس حال من يعاند الحق ويخالف الامر أى واذكر وقت قولنا لهم (اسجدوا لآدم) تحية وتكريما لما له من الفضائل المستوجبة لذلك (فسجدوا) له من غير تلعثم امتثالا للامر وأداء لحقه عليه الصلاة والسلام (الا ابليس) وكان داخلا فى زمرتهم مندرجا تحت الامر بالسجود (قال) أى عندما وبخ بقوله عز سلطانه يا ابليس مالك أن لا تكون مع الساجدين وقوله ما منعك ان لا تسجد إذ أمرتك وقوله ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى كما أشير اليه فى سورة الحجر (أأسجد) وأنا مخلوق من العنصر العالى (لمن خلقت طينا) نصب على نزع الخافض أى من طين أو حال من الراجع الى الموصول أى خلقته وهو طين أو من نفس الموصول أى أأسجد له وأصله طين . والتعبير عنه عليه الصلاة والسلام بالموصول لتعليل انكاره بما فى حيز الصلة (قال) أى ابليس لكن لا عقيب كلامه المحكى بل بعد الانظار المترتب على استنظاره المتفرع على الامر بخروجه من بين الملأ الاعلى باللعن المؤبد وانما لم يصرح بذلك اكتفاء بما ذكر فى مواضع أخر فان توسيط قال بين كلامى اللعين للايذان بعدم اتصال الثانى بالاول وعدم ابتنائه عليه بل على غيره كما فى قوله تعالى « قال فما خطبكم » بعد قوله تعالى «قال ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون» (أرأيتك هذا الذى كرمت على) الكاف لتأكيد الخطاب لا محل لها من الاعراب وهذا مفعول أول والموصول صفته والثانى محذوف لدلالة الصلة عليه أى أخبرنى عن هذا الذى كرمته على بان أمرتنى بالسجود له لم كرمته على . وقيل هذا مبتدأ حذف عنه حرف الاستفهام والموصول مع صلته خبره ومقصوده الاستصغار والاستحقار أى أخبرنى أهذا من كرمته على . وقيل معنى أرأيتك

أتأملت كأن المتكلم ينبه المخاطب على استحضار ما يخاطبه به عقيبه (لئن أخرتن) حيا (الى يوم القيامة) كلام مبتدأ واللام موطئة للقسم وجوابه قوله (لأحتنكن ذريته) اى لأستأصلنهم من قولهم احتنك الجراد الارض اذا جرد ما عليها اكلا اولأقودنهم حيث ما شئت ولأستولين عليهم استيلاء قويا من قولهم حنكت الدابة واحتنكتها اذا جعلت فى حنكها الاسفل حبلا تقودها به وهذا كقوله «لأزينن لهم فى الارض ولأغوينهم أجمعين» وانما علم تسنى ذلك المطلب له تلقيا من جهة الملائكة عليهم الصلاة والسلام او استنباطا من قولهم أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء أو توسما من خلقه (الا قليلا) منهم وهم المخلصون الذين عصمهم الله تعالى (قال اذهب) اى امض لشأنك الذى اخترته وهو طرد له وتخلية بينه وبين ما سولت له نفسه (فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم) أى جزاؤك وجزاؤهم فغلب المخاطب على الغائب رعاية لحق المتبوعية (جزاء موفورا) أى جزاء مكملا من قولهم فر لصاحبك عرضه فرة أى وفر وهو نصب على انه مصدر مؤكد لما فى قوله فان جهنم جزاؤكم من معنى تجازون أو للفعل المقدر أو حال موطئة لقوله موفورا (واستفزز) أى استخف (من استطعت منهم) أن تستفزه (بصوتك) بدعائك الى الفساد (وأجلب عليهم) أى صح عليهم من الجلبة وهى الصياح (بخيلك ورجلك) أى بأعوانك وأنصارك من راكب وراجل من أهل العيث والفساد قال ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد وقتادة ان له خيلا ورجلا من الجن والانس فما كان من راكب يقاتل فى معصية الله تعالى فهو من خيل ابليس وما كان من راجل يقاتل فى معصية الله تعالى فهو من رجل ابليس. والخيل الخيالة ومنه قوله عليه الصلاة والسلام «ياخيل الله اركبى» والرجل اسم جمع للراجل كالصحب والركب. وقرىء بكسر الجيم وهى قراءة حفص على انه فعل بمعنى فاعل كتعب وتاعب وبضمة مثل حدث وحدث وندس وندس ونظائرهما أى جمعك الراجل ليطابق الخيل. وقرىء رجالك ورجالك. ويجوز أن يكون استفزازه بصوته واجلابه بخيله ورجله تمثيلا لتسلطه على من يغويه فكأنه مغوار أوقع على قوم فصوت بهم صوتا يزعجهم من أماكنهم ويقلقهم عن مراكزهم وأجلب عليهم بجنده من خيالة ورجالة حتى استأصلهم (وشاركهم فى الأموال) بحملهم على كسبها وجمعها من الحرام والتصرف فيها على ما لا ينبغى (والأولاد) بالحث على التوصل اليهم بالاسباب المحرمة والاشراك كتسميتهم بعبد العزى والتضليل بالحمل على الاديان الزائغة والحرف الذميمة والافعال القبيحة (وعدهم) المواعيد الباطلة كشفاعة الآلهة والاتكال على كرامة الآباء وتأخير التوبة بتطويل الامل

(وما يعدهم الشيطان الا غرورا) اعتراض لبيان شأن مواعيده والالتفات الى الغيبة لتقوية معنى الاعتراض مع ما فيه من صرف الكلام عن خطابه وبيان شأنه للناس ومن الاشعار بعلية شيطنته للغرور وهو تزيين الخطأ بما يوهم انه صواب (إن عبادى) الاضافة للتشريف وهم المخلصون وفيه أن من تبعه ليس منهم وأن الاضافة لثبوت الحكم فى قوله تعالى (ليس لك عليهم سلطان) أى تسلط وقدرة على اغوائهم كقوله تعالى «انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون» (وكفى بربك وكيلا) لهم يتوكلون عليه ويستمدون به فى الخلاص عن اغوائك والتعرض لوصف الربوبية المنبئة عن المالكية المطلقة والتصرف الكلى مع الاضافة الى ضمير ابليس للاشعار بكيفية كفايته تعالى لهم أعنى سلب قدرته على اغوائهم (ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر) مبتدأ وخبر والازجاء السوق حالا بعد حال أى هو القادر الحكيم الذى يسوق لمنافعكم الفلك ويجريها فى البحر (لتبتغوا من فضله) من رزقه الذى هو فضل من قبله أو من الربح الذى هو معطيه ومن مزيدة أو تبعيضية وهذا تذكير لبعض النعم التى هى دلائل التوحيد وتمهيد لذكر توحيدهم عند مساس الضر تكملة لما مر من قوله تعالى فلا يملكون الآية (إنه كان بكم) أزلا وأبدا (رحيما) حيث هيأ لكم ماتحتاجون اليه وسهل عليكم ما يعسر من مباديه وهذا تذييل فيه تعليل لما سبق من الازجاء لابتغاء الفضل . وصيغة الرحيم للدلالة على أن المراد بالرحمة الرحمة الدنيوية والنعمة العاجلة المنقسمة الى الجليلة والحقيرة (واذا مسكم الضر فى البحر) خوف الغرق فيه (ضل من تدعون) أى ذهب عن خواطركم ما كنتم تدعون من دون الله من الملائكة أو المسيح أو غيرهم (الا إياه) وحده عن غير أن يخطر ببالكم أحد منهم وتدعوه لكشفه استقلالا أو اشتراكا أو ضل كل من تدعونه عن اغاثتكم وانقاذكم ولم يقدر على ذلك الا الله على الاستثناء المنقطع (فلما نجاكم) من الغرق وأوصلكم (الى البر أعرضتم) عن التوحيد أو اتسعتم فى كفران النعمة (وكان الانسان كفورا) تعليل لما سبق من الاعراض (أفأمنتم) الهمزة للانكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أنجوتم فأمنتم (أن يخسف بكم جانب البر) الذى هو مأمنكم أى يقلبه ملتبسا بكم أو بسبب كونكم فيه وفى زيادة الجانب تنبيه على تساوى الجوانب والجهات بالنسبة الى قدرته سبحانه وتعالى وقهره وسلطانه. وقرىء بنون العظمة (أو يرسل عليكم) من فوقكم وقرىء بالنون (حاصبا) ريحا ترمى بالحصباء (ثم لاتجدوا لكم وكيلا) يحفظكم من ذلك أو يصرفه عنكم فانه لاراد لأمره الغالب (أم أمنتم أن يعيدكم فيه)

فى البحر أوثرت كلمة فى على كلمة الى المنبئة عن مجرد الانتهاء للدلالة على استقرارهم فيه (تارة أخرى) اسناد الاعادة اليه تعالى مع أن العود اليه باختيارهم باعتبار خلق الدواعى الملجئة لهم الى ذلك . وفيه ايماء الى كمال شدة هول ما لاقوه فى التارة الاولى بحيث لولا الاعادة لما عادوا (فيرسل عليكم) وأنتم فى البحر وقرىء بالنون (قاصفا من الريح) وهى التى لا تمر بشىء الا كسرته وجعلته كالرميم أو التى لها قصيف وهو الصوت الشديد كأنها تتقصف أى تتكسر (فيغرقكم) بعد كسر فلككم كما ينبىء عنه عنوان القصف . وقرىء بالنون و بالتاء على الاسناد الى ضمير الريح (بما كفرتم) بسبب اشراككم أو كفرانكم لنعمة الانجاء (ثم لاتجدوا لكم علينا به تبيعا) أى ثائرا يطالبنا بما فعلنا انتصارا منا ودركا للثأر من جهتنا كقوله سبحانه « ولا يخاف عقباها » (ولقد كرمنا بنى آدم) قاطبة تكريما شاملا لبرهم وفاجرهم أى كرمناهم بالصورة والقامة المعتدلة والتسلط على مافى الارض والتمتع به والتمكن من الصناعات وغير ذلك مما لايكاد يحيط به نطاق العبارة ومن جملته ماذكره ابن عباس رضى الله عنهما من أن كل حيوان يتناول طعامه بفيه الا الانسان فانه يرفعه اليه بيده وما قيل من شركة القرد له فى ذلك مبنى على عدم الفرق بين اليد و الرجل فانه متناول له برجله التى يطأ بها القاذورات لابيده (وحملناهم فى البر والبحر) على الدواب والسفن من حملته اذا جعلت له مايركبه وليس من المخلوقات شىء كذلك . وقيل حملناهم فيهما حيث لم نخسف بهم الارض ولم نغرقهم بالماء . وأنت خبير بان الاول هو الانسب بالتكريم اذ جميع الحيوانات كذلك (ورزقناهم من الطيبات) أى فنون النعم وضروب المستلذات مما يحصل بصنعهم وبغير صنعهم (وفضلناهم) فى العلوم والادراكات بما ركبنا فيهم من القوى المدركة التى بها يتميز الحق من الباطل والحسن من القبيح (على كثير ممن خلقنا) وهم من عدا الملائكة عليهم الصلاة والسلام (تفضيلا) عظيما فحق عليهم أن يشكروا هذه النعم ولا يكفروها ويستعملوا قواهم فى تحصيل العقائد الحقة ويرفضوا ماهم عليه من الشرك الذى لايقبله أحد ممن له أدنى تميز فضلا عمن فضل على من عدا الملأ الأعلى الذين هم العقول المحضة . وانما استثنى جنس الملائكة من هذا التفضيل لان علومهم دائمة عارية عن الخطأ والخلل . وليس فيه دلالة على أفضليتهم بالمعنى المتنازع فيه فان المراد هنا بيان التفضيل فى أمر مشترك بين جميع أفراد البشر صالحها وطالحها ولا يمكن أن يكون ذلك هو الفضل فى عظم الدرجة وزيادة القربة عند الله سبحانه. ان قيل أى حاجة الى تعيين مافيه التفضيل بعد بيان ماهو المراد بالمفضلين فان

استثناء الملائكة عليهم الصلاة والسلام من تفضيل جميع أفراد البشر عليهم لا يستلزم استثناءهم من تفضيل بعض أفراده عليهم قلنا لا بد من تعيينه ألبتة إذ ليس من الافراد الفاجرة للبشر أحد يفضل على أحد من المخلوقات فيما هو المتنازع فيه أصلا بل هم أدنى من كل دنيء حسبما ينبيء عنه قوله تعالى «أولئك كالانعام بل هم أضل» وقوله تعالى «ان شر الدواب عند الله الذين كفروا» (يوم ندعو) نصب على المفعولية باضمار اذكر أو ظرف لما دل عليه قوله تعالى «ولا يظلمون» وقرىء بالياء على البناء للفاعل وللمفعول ويدعو بقلب الألف واوا على لغة من يقول فى أفعى أفعو. وقد جوز كون الواو علامة الجمع كما فى قوله تعالى «وأسروا النجوى» أو ضميره وكل بدلا منه والنون محذوفة لقلة المبالاة بها فانها ليست إلا علامة الرفع وقد يكتفى بتقديره كما فى يدعى (كل أناس) من بنى آدم الذين فعلنا بهم فى الدنيا ما فعلنا من التكريم والتفضيل وهذا شروع فى بيان تفاوت أحوالهم فى الآخرة بحسب أحوالهم وأعمالهم فى الدنيا (بأمامهم) أى بمن ائتموا به من نبى أو مقدم فى الدين أو كتاب أو دين وقيل بكتاب أعمالهم التى قدموها فيقال يا أصحاب كتاب الخير يا أصحاب كتاب الشر أو يا أهل دين كذا يا أهل كتاب كذا وقيل الامام جمع أم كخف وخفاف والحكمة فى دعوتهم بأمهاتهم اجلال عيسى عليه السلام وتشريف الحسنين رضى الله عنهما والستر على أولاد الزنا (فمن أوتى) يومئذ من أولئك المدعوين (كتابه) صحيفة أعماله (بيمينه) ابانة لخطر الكتاب المؤتى وتشريفا لصاحبه وتبشيرا له من أول الامر بما فى مطاويه (فأولئك) اشارة الى من باعتبار معناه ايذانا بأنهم حزب مجتمعون على شان جليل أو اشعارا بان قراءتهم لكتبهم تكون على وجه الاجتماع لا على وجه الانفراد كما فى حال الايتاء. وما فيه من الدلالة على البعد للاشعار برفعة درجاتهم أى أولئك المختصون بتلك الكرامة التى يشعر بها الايتاء المزبور (يقرؤن كتابهم) الذى أتوه على الوجه المبين تبجحا بما سطر فيه من الحسنات المستتبعة لفنون الكرامات (ولا يظلمون) أى لا ينقصون من أجور أعمالهم المرتسمة فى كتبهم بل يؤتونها مضاعفة (فتيلا) أى قدر فتيل وهو القشرة التى فى شق النواة أو أدنى شيء فان الفتيل مثل فى القلة والحقارة (ومن كان) من المدعوين المذكورين (فى هذه) الدنيا التى فعل بهم فيها ما فعل من فنون التكريم والتفضيل (أعمى) فاقد البصيرة لا يهتدى الى رشده ولا يعرف ما أوليناه من نعمة التكرمة والتفضيل فضلا عن شكرها والقيام بحقوقها ولا يستعمل ما اودعناه فيه من العقول والقوى فيما خلقن له من العلوم والمعارف الحقة (فهو فى الآخرة) التى عبر عنها بيوم ندعو (أعمى) كذلك اى لا يهتدى

الى ماينجيه ولايظفر بما يجديه لان العمى الاول موجب للثانى وقد جوز كون الثانى بمعنى التفضيل على ان عماه فى الآخرة اشد من عماه فى الدنيا ولذلك قرأ ابو عمرو الاول ممالا والثانى مفخما (وأضل سبيلا) أى من الاعمى لزوال الاستعداد الممكن وتعطل الآلات بالكلية وهذا بعينه هو الذى أوتى كتابه بشماله بدلالة حال ماسبق من الفريق المقابل له ولعل العدول عن ذكره بذلك العنوان مع انه الذى يستدعيه حسن المقابلة حسبما هو الواقع فى سورة «الحاقة» وسورة «الانشقاق» للايذان بالعلة الموجبة له كما فى قوله تعالى «وأما ان كان من المكذبين الضالين» بعد قوله تعالى «فأما ان كان من أصحاب اليمين» وللرمز الى علة حال الفريق الاول وقد ذكر فى أحد الجانبين المسبب وفى الآخر السبب ودل بالمذكور فى كل منهما على المتروك فى الآخر تعويلا على شهادة العقل كما فى قوله عز وعلا «وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الاهو وان يردك بخير فلا راد لفضله» (وان كادوا ليفتنونك) نزلت فى ثقيف إذ قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم لا ندخل فى أمرك حتى تعطينا خصالا نفتخر بها على العرب : لانعشر ولا نحشر ولا نجبى فى صلاتنا وكل ربا لنا فهو لنا وكل ربا علينا فهو موضوع عنا وان تمتعنا باللات سنة وأن تحرم وادى وج كما حرمت مكة فاذا قالت العرب لما فعلت فقل ان الله أمرنى بذلك. وقيل فى قريش حيث قالوا اجعل لنا آية عذاب آية رحمة وآية رحمة آية عذاب أو قالوا لانمكنك من استلام الحجر حتى تلم بآلهتنا فان مخففة من المشددة وضمير الشأن الذى هو اسمها محذوف واللام هى الفارقة بينها وبين النافية أى ان الشأن قاربوا أن يفتنوك أى يخدعوك فاتنين (عن الذى أوحينا اليك) من أوامرنا ونواهينا ووعدنا ووعيدنا (لتفترى علينا غيره) لتتقول علينا غير الذى أوحينا اليك مما اقترحته ثقيف أو قريش حسبما نقل (وإذن لاتخذوك خليلا) أى لو اتبعت أهواءهم لكنت لهم وليا ولخرجت من ولايتى (ولولا أن ثبتناك) على ما أنت عليه من الحق بعصمتنا لك (لقد كدت تركن اليهم شيأ قليلا) من الركون الذى هو أدنى ميل أى لولا تثبيتنا لك لقاربت أن تميل اليهم شيئا يسيرا من الميل اليسير لقوة خدعهم وشدة احتيالهم لكن أدركتك العصمة فمنعتك من أن تقرب من أدنى مراتب الركون اليهم فضلا عن نفس الركون وهذا صريح فى أنه عليه الصلاة والسلام ماهم باجابتهم مع قوة الداعى اليها ودليل على أن العصمة بتوفيق الله تعالى وعنايته (اذا) لو قاربت أن تركن اليهم أدنى ركنة (لأذقناك ضعف الحيوة وضعف الممات)أى عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ضعف مايعذب به فى الدارين بمثل هذا الفعل غيرك لأن خطأ الخطير خطير وكان أصل الكلام عذابا ضعفا فى

الحياة و عذابا ضعفا فى الممات بمعنى مضاعفا ثم حذف الموصوف و أقيمت الصفة مقامه ثم أضيفت إضافة موصوفها. وقيل الضعف من أسماء العذاب وقيل المراد بضعف الحياة عذاب الآخرة و بضعف الممات عذاب القبر (ثم لاتجد لك علينا نصيرا) يدفع عنك العذاب (و إن كادوا) الكلام فيه كما فى الأول أى كاد أهل مكة (ليستفزونك) أى ليزعجونك بعداوتهم و مكرهم (من الأرض) أى الارض التى أنت فيها وهى أرض مكة (ليخرجوك منها و إذا لايلبثون) بالرفع عطفا على خبر كاد. و قرىء لايلبثوا بالنصب بأعمال إذن على أن الجملة معطوفة على جملة و إن كادوا ليستفزونك (خلافك) أى بعدك قال:

خلت الديار خلافهم فكأنما ... بسط الشواطب بينهن حصيرا

أى ولو خرجت لايبقون بعد خروجك. وقرىء خلفك (الا قليلا) الا زمانا قليلا و قد كان كذلك فانهم أهلكوا ببدر بعد هجرته عليه الصلاة و السلام. و قيل نزلت الآية فى اليهود حيث حسدوا مقام النبى عليه الصلاة و السلام بالمدينة فقالوا الشام مقام الأنبياء عليهم السلام فان كنت نبيا فالحق بها حتى نؤمن بك فوقع ذلك فى قلبه عليه الصلاة و السلام فخرج مرحلة فنزلت فرجع ثم قتل منهم بنو قريظة وأجلى بنوا النضير بقليل (سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا) نصب على المصدرية أى سن الله تعالى سنة وهى أن يهلك كل أمة أخرجت رسولهم من بين أظهرهم فالسنة لله تعالى وإضافتها الى الرسل لأنها سنت لأجلهم على ماينطق به قوله عز وجل (ولا تجد لسنتنا تحويلا) أى تغييرا (أقم الصلاة لدلوك الشمس) لزوالها كما ينبىء عنه قوله عليه الصلاة والسلام أتانى جبريل عليه السلام لدلوك الشمس حين زالت فصلى بى الظهر واشتقاقه من الدلك لأن من نظر اليها حينئذ يدلك عينه وقيل لغروبها من دلكت الشمس أى غربت وقيل أصل الدلوك الميل فينتظم كلا المعنيين واللام للتأقيت مثلها فى قولك لثلاث خلون (الى غسق الليل) الى اجتماع ظلمته وهو وقت صلاة العشاء وليس المراد إقامتها فمابين الوقتين على وجه الاستمرار بل إقامة كل صلاة فى وقتها الذى عين لها ببيان جبريل عليه السلام كما أن أعداد ركعات كل صلاة موكولة إلى بيانه عليه السلام ولعل الاكتفاء ببيان المبدأ و المنتهى فى أوقات الصلوات من غير فصل بينها لما أن الانسان فيما بين هذه الأوقات على اليقظة فبعضها متصل ببعض بخلاف أول وقت العشاء والفجر فانه باشتغاله فيما بينهما بالنوم ينقطع أحدهما عن الآخر ولذلك فصل وقت الفجر عن سائر الأوقات. وقيل المراد بالصلاة صلاة المغرب والتحديد المذكور بيان لمبدئه ومنتهاه واستدل به على امتداد وقته إلى غروب الشفق وقوله تعالى (وقرآن الفجر) أى صلاة الفجر نصب عطفا على مفعول أقم أو على الاغراء قاله الزجاج وانما سميت

قرآنا لانه ركنها كما تسمى ركوعا وسجودا واستدل به على الركنية ولكن لا دلالة له على ذلك لجواز كون مدار التجوز كون القراءة مندوبة فيها. نعم لو فسر بالقراءة فى صلاة الفجر لدل الامر باقامتها على الوجوب فيها نصا وفيما عداها دلالة. ويجوز أن يكون وقرآن الفجر حثا على تطويل القراءة فى صلاة الفجر (إن قرآن الفجر) أظهر فى مقام الاضمار ابانة لمزيد الاهتمام به (كان مشهودا) يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار أو شواهد القدرة من تبدل الضياء بالظلمة والانتباه بالنوم الذي هو أخو الموت أو يشهده كثير من المصلين أو من حقه أن يشهده الجم الغفير فالآية على تفسير الدلوك بالزوال جامعة للصلوات الخمس وعلى تفسيره بالغروب لما عدا الظهر والعصر (ومن الليل) قيل هو نصب على الاغراء أى الزم بعض الليل وقيل لا يكون المغرى به حرفا ولا يجدى نفعا كون معناها التبعيض فان واو مع ليست اسما بالاجماع وان كانت بمعنى الاسم الصريح بل هو منصوب على الظرفية بمضمر أى قم بعض الليل (فتهجد به) أى أزل وألق الهجود أى النوم فان صيغة التفعل تجىء للازالة كالتحرج والتحنث والتأثم ونظائرها والضمير المجرور للقرآن من حيث هو لا بقيد اضافته الى الفجر أو للبعض المفهوم من قوله تعالى «ومن الليل» أى تهجد فى ذلك البعض على أن الباء بمعنى فى وقيل منصوب بتهجد أى تهجد بالقرآن بعض الليل على طريقة واياى فارهبون (نافلة لك) فريضة زائدة على الصلوات الخمس المفروضة خاصة بك دون الامة ولعله هو الوجه فى تأخير ذكرها عن ذكر صلاة الفجر مع تقدم وقتها على وقتها أو تطوعا لكن لا لكونها زيادة على الفرائض بل لكونها زيادة له صلى الله عليه وسلم فى الدرجات على مقال مجاهد والسدى فانه عليه السلام مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فيكون تطوعه زيادة فى درجاته بخلاف من عداه من الامة فان تطوعهم لتكفير ذنوبهم وتدارك الخلل الواقع فى فرائضهم. وانتصابها اما على المصدرية بتقدير تنفل أو بجعل تهجد بمعناه أو بجعل نافلة بمعنى تهجدا فان ذلك عبارة زائدة واما على الحالية من الضمير الراجع الى القرآن أى حال كونها صلاة نافلة واما على المفعولية لتهجد اذا جعل بمعنى صل وجعل الضمير المجرور للبعض أى فصل فى ذلك البعض نافلة لك (عسى أن يبعثك ربك) الذى يبلغك الى كمالك اللائق بك من بعد الموت الاكبر كما انبعثت من النوم الذى هو الموت الاصغر بالصلاة والعبادة (مقاما) نصب على الظرفية على اضمار فيقيمك أو تضمين البعث معنى الاقامة اذ لا بد من أن يكون العامل فى مثل هذا الظرف فعلا فيه معنى الاستقرار. ويجوز أن يكون حالا بتقدير مضاف أى يبعثك

ذا مقام (محمودا) عندك وعند جميع الناس، وفيه تهوين لمشقة قيام الليل وروى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «المقام المحمود هو المقام الذى أشفع فيه لأمتى» وعن ابن عباس رضى الله عنهما مقاما يحمدك فيه الاولون والآخرون وتشرف فيه على جميع الخلائق تسأل فتعطى وتشفع فتشفع ليس أحد الا تحت لوائك. وعن حذيفة رضى الله عنه يجمع الناس فى صعيد واحد فلا تتكلم فيه نفس فأول مدعو محمد صلى الله عليه وسلم فيقول لبيك وسعديك والشر ليس اليك والمهدى من هديت وعبدك بين يديك وبك واليك لا ملجأ ولا منجا منك الا اليك تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت (وقل رب أدخلنى) أى القبر (مدخل صدق) أى ادخالا مرضيا (وأخرجنى) أى منه عند البعث (مخرج صدق) أى إخراجا مرضيا ملقى بالكرامة فهو تلقين للدعاء بما وعده من البعث المقرون بالاقامة المعهودة التى لا كرامة فوقها. وقيل المراد ادخال المدينة والاخراج من مكة. وتغيير ترتيب الوجود لكون الادخال هو المقصود وقيل ادخاله عليه السلام مكة ظاهرا عليها واخراجه منها آمنا من المشركين وقيل ادخاله الغار واخراجه منه سالما وقيل ادخاله فيما حمله من أعباء الرسالة واخراجه منه مؤديا حقه وقيل ادخاله فى كل ما يلابسه من مكان أو أمر واخراجه منه وقرىء مدخل ومخرج بالفتح على معنى أدخلنى فأدخل دخولا وأخرجنى فأخرج خروجا كقوله :

وعضة دهر يا ابن مروان لم تدع ... من المال الا مسحت أو مجلف

أى لم تدع فلم يبق (واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا) حجة تنصرنى على من يخالفنى أو ملكا وعزا ناصرا للاسلام مظهرا له على الكفر فأجيبت دعوته عليه السلام بقوله عز وعلا «والله يعصمك من الناس ألا إن حزب الله هم الغالبون. ليظهره على الدين كله ليستخلفنهم فى الارض» (وقل جاء الحق) أى الاسلام والوحى الثابت الراسخ (وزهق الباطل) أى ذهب وهلك الشرك والكفر وتسويلات الشيطان من زهق روحه اذا خرج (إن الباطل) كائنا ما كان (كان زهوقا) أى شأنه أن يكون مضمحلا غير ثابت وهو عدة كريمة باجابة الدعاء بالسلطان النصير الذى لقنه عن ابن مسعود رضى الله عنه انه عليه السلام دخل مكة يوم الفتح وحول البيت ثلثمائة وستون صنما فجعل ينكت بمخصرة كانت بيده فى عين واحد واحد ويقول جاء الحق وزهق الباطل فينكب لوجهه حتى ألقى جميعها وبقى صنم خزاعة فوق الكعبة وكان من صفر فقال يا على ارم به فصعد رمى به فكسره (وننزل من القرآن) وقرىء ننزل من الانزال (ما هو شفاء) لما فى الصدور من أدواء الريب واسقام الاوهام (ورحمة للمؤمنين) به العاملين بما فى

تضاعيفه أي ما هو فى تقويم دينهم واصطلاح نفوسهم كالدواء الشافى للمرضى ومن بيانية قدمت على المبين اعتناء فان كل القرآن كذلك.وعن النبي عليه السلام «من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله» أو تبعيضية لكن لا بمعنى أن بعضه ليس كذلك بل بمعنى انا ننزل منه فى كل نوبة ما تستدعى الحكمة نزوله حينئذ فيقع ذلك ممن نزل عليهم بسبب موافقته لاحوالهم الداعية الى نزوله موقع الدواء الشافى المصادف لابأنه من المرضى المحتاجين اليه بحسب الحال من غير تقديم ولا تأخير فكل بعض منه متصف بالشفاء لكن لا فى كل حين بل عند تنزيله وتحقيق التبعيض باعتبار الشفاء الجسمانى كما فى الفاتحة وآيات الشفاء لايساعده قوله سبحانه (ولا يزيد الظالمين الا خسارا) أي لا يزيد القرآن كله أو كل بعض منه الكافرين المكذبين الواضعين للاشياء فى غير مواضعها مع كونه فى نفسه شفاء من الاسقام الاخساراً أى هلاكا بكفرهم وتكذيبهم لا نقصانا كما قيل فان ما بهم من داء الكفر والضلال حقيق بأن يعبر عنه بالهلاك لا بالنقصان المنبىء عن حصول بعض مبادى الاسقام فيهم وزيادتهم فى مراتب الهلاك من حيث إنهم كلما جددوا الكفر والتكذيب بالآيات النازلة تدريجا ازدادوا بذلك هلاكا . وفيه ايماء الى أن ما بالمؤمنين من الشبه والشكوك المعترية لهم فى أثناء الاهتداء والاسترشاد بمنزلة الامراض وما بالكفرة من الجهل والعناد بمنزلة الموت والهلاك واسناد الزيادة المذكورة الى القرآن مع أنهم هم المزدادون فى ذلك بسوء صنعهم باعتبار كونه سببا لذلك. وفيه تعجيب من أمره حيث يكون مدارا للشفاء والهلاك (واذا أنعمنا على الانسان) بالصحة والنعمة (أعرض) عن ذكرنا فضلا عن القيام بموجب الشكر (ونأى) تباعد عن طاعتنا (بجانبه) النأى بالجانب أن يلوى عن الشىء عطفه ويوليه عرض وجهه فهو تأكيد للاعراض أو عبارة عن الاستكبار لأنه من ديدن المستكبرين (وإذا مسه الشر) من فقر أو مرض أو نازلة من النوازل. وفى اسناد المساس الى الشر بعد اسناد الانعام الى ضمير الجلالة ايذان بأن الخير مراد بالذات والشر ليس كذلك (كان يؤسا) شديد اليأس من روحنا و هذا وصف للجنس باعتبار بعض أفراده ممن هو على هذه الصفة ولا ينافيه قوله تعالى « واذا مسه الشر فذو دعاء عريض» ونظائره فان ذلك شأن بعض آخرين منهم. وقيل أريد به الوليد بن المغيرة و قرىء ناء اما على القلب كما يقال راء فى رأى واما على أنه بمعنى نهض (قل كل) أى كل أحد منكم وممن هو على خلافكم (يعمل) عمله (على شاكلته) طريقته التى تشاكل حاله فى الهدى والضلالة أو جوهر روحه وأحواله التابعة لمزاج بدنه (فربكم) الذى برأكم

على هذه الطبائع المتخالفة (أعلم بمن هو أهدى سبيلا) أى أسد طريقا وأبين منهاجا وقد فسرت الشاكلة بالطبيعة والعادة والدين (ويسألونك عن الروح) الظاهر ان السؤال كان عن حقيقة الروح الذى هو مدبر البدن الانسانى ومبدأ حياته روى أن اليهود قالوا لقريش سلوه عن أصحاب الكهف وعن ذى القرنين وعن الروح فان أجاب عنها جميعا أو سكت فليس بنبى وان أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبى فبين لهم القصتين وأبهم أمر الروح وهو مبهم فى التوراة (قل الروح) أظهر فى مقام الاضمار اظهارا لكمال الاعتناء بشأنه (من أمر ربى) كلمة من بيانية والامر بمعنى الشأن والاضافة للاختصاص العلمى لا الايجادى لاشتراك الكل فيه . وفيها من تشريف المضاف مالا يخفى كما فى الاضافة الثانية من تشريف المضاف اليه أى هو من جنس ما استأثر الله بعلمه من الاسرار الخفية التى لا يكاد يحوم حولها عقول البشر (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) لا يمكن تعلقه بأمثال ذلك . روى أنه صلى الله عليه وسلم لما قال لهم ذلك قالوا نحن مختصون بهذا الخطاب قال عليه الصلاة والسلام «بل نحن وأنتم» فقالوا ما أعجب شأنك ساعة تقول ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وساعة تقول هذا فنزلت ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام الآية وإنما قالوا ذلك لركاكة عقولهم فان الحكمة الانسانية أن يعلم من الخير ماتسعه الطاقة البشرية بل ما نيط به المعاش والمعاد وذلك بالاضافة الى مالا نهاية له من معلوماته سبحانه قليل ينال به خير كثير فى نفسه أو بالنسبة الى الانسان أو هو من الابداعيات الكائنة بمحض الأمر التكوينى من غير تحصل من مادة وتولد من أصل كأعضاء الجسد حتى يمكن تعريفه ببعض مباديه ومآله أنه من عالم الأمر لا من عالم الخلق وليس هذا من قبيل قوله سبحانه « انما أمره إذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون» فان ذلك عبارة عن سرعة التكوين سواء كان الكائن من عالم الأمر أو من عالم الخلق . وفيه تنبيه على أنه مما لا يحيط بكنهه دائرة إدراك البشر وانما الممكن هذا القدر الاجمالى المندرج تحت ما استثنى بقوله تعالى « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » أى الا علما قليلا تستفيدونه من طرق الحواس فان تعقل المعارف النظرية انما هو من احساس الجزئيات ولذلك قيل من فقد حسا فقد فقد علما ولعل أكثر الأشياء لا يدركه الحس ولا شيأ من أحواله التى يدور عليها معرفة ذاته . وأما حمل ماذكر على السؤال عن قدمه وحدوثه وجعل الجواب إخبارا بحدوثه أي كائن بتكوينه حادث باحداثه بالامر التكوينى فمع عدم ملاءمته لحال السائلين لا يساعده التعرض لبيان قلة علمهم فان ماسألوا عنه مما يفى به علمهم حينئذ وقد أخبر عنه . وقيل المراد بالروح خلق عظيم روحانى أعظم من

الملك . وقيل جبريل عليه السلام وقيل القرآن ومعنى من أمر ربى من وحيه وكلامه لا من كلام البشر (ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا اليك) من القرآن الذى هو شفاء ورحمة للمؤمنين ومنبع للعلوم التى أوتيتموها وثبتناك عليه حين كادوا يفتنونك عنه ولولاه لكدت تركن اليهم شيئا قليلا . وإنما عبر عنه بالموصول تفخيما لشأنه ووصفا له بما فى حيز الصلة ابتداء واعلاما بحاله من أول الأمر وبانه ليس من قبيل كلام المخلوق واللام موطئة للقسم ولنذهبن جوابه النائب مناب جزاء الشرط وبذلك حسن حذف مفعول المشيئة والمراد من الذهاب به المحو من المصاحف والصدور وهو أبلغ من الاذهاب « عن ابن مسعود رضى الله عنه إن أول ماتفقدون من دينكم الأمانة وآخر ماتفقدون الصلاة وليصلين قوم ولا دين لهم وان هذا القرآن تصبحون يوما وما فيكم منه شيء فقال رجل كيف ذلك وقد أثبتناه فى قلوبنا و أثبتناه فى مصاحفنا نعلمه أبناءنا ويعلمه أبناؤنا أبناءهم فقال يسرى عليه ليلا فيصبح الناس منه فقراء ترفع المصاحف وينزع ما فى القلوب» (ثم لاتجد لك به) أى بالقرآن (علينا وكيلا) من يتوكل علينا استرداده مسطورا محفوظا (الا رحمة من ربك) فانها ان نالتك لعلها تسترده عليك. ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعا بمعنى ولكن رحمة من ربك تركته غير مذهوب به فيكون امتنانا بأبقائه بعد المنة بتنزيله وترغيبا فى المحافظة على أداء حقوقه وتحذيرا من أن لايقدر قدره الجليل ويفرط فى القيام بشكره وهو أجل النعم وأعظمها (إن فضله كان عليك كبيرا) كأرسالك وانزال الكتاب عليك وابقائه فى حفظك وغير ذلك (قل) للذين لايعرفون جلالة قدر التنزيل ولا يفهمون فخامة شأنه الجليل بل يزعمون أنه من كلام البشر (لئن اجتمعت الانس والجن) أى اتفقوا (على أن يأتوا بمثل هذا القرآن) المنعوت بما لا تدركه العقول من النعوت الجليلة فى البلاغة وحسن النظم وكمال المعنى وتخصيص الثقلين بالذكر لان المنكر لكونه من عند الله تعالى منهما لا من غيرهما لا لأن غيرهما قادر على المعارضة (لا يأتون بمثله) أوثر الاظهار على ايراد الضمير الراجع الى المثل المذكور احترازا عن أن يتوهم أن له مثلا معينا وايذانا بأن المراد نفى الاتيان بمثل ما أى لا يأتون بكلام مماثل له فيما ذكر من الصفات البديعة وفيهم العرب العاربة أرباب البراعة والبيان وهو جواب للقسم الذى تنبيء عنه اللام الموطئة وساد مسد جزاء الشرط ولولاها لكان جوابا له بغير جزم لكون الشرط ماضيا كما فى قول زهير:

وان أتاه خليل يوم مسئلة ٭ يقول لا غائب مالى ولا حرم

وحيث كان المراد بالاجتماع على الاتيان بمثل القرآن مطلق الاتفاق على ذلك سواء كان التصدى للمعارضة من كل واحد منهم على الانفراد أو من المجموع بأن يتألبوا على

تلفيق كلام واحد بتلاحق الافكار وتعاضد الانظار قيل (ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) أى فى تحقيق ما يتوخونه من الاتيان بمثله وهو عطف على مقدر أى لا يأتون بمثله لو لم يكن بعضهم ظهيرا لبعض ولو كان الخ وقد حذف المعطوف عليه حذفا مطرداً لدلالة المعطوف عليه دلالة واضحة فان الاتيان بمثله حيث انتفى عند التظاهر فلأن ينتفى عند عدمه أولى وعلى هذه النكتة يدور ما فى ان ولو الوصليتين من التأكيد كما مر غير مرة ومحله النصب على الحالية حسبما عطف عليه أى لا يأتون بمثله على كل حال مفروض ولو فى هذه الحال المنافية لعدم الاتيان به فضلا عن غيرها وفيه حسم لأطماعهم الفارغة فى روم تبديل بعض آياته ببعض ولا مساغ لكون الآية تقريراً لما قبلها من قوله تعالى «ثم لا تجدلك به علينا وكيلا» كما قيل لكن لا لما قيل من أن الاتيان بمثله أصعب من استرداد عينه ونفى الشىء انما يقرره نفى ما دونه لا نفى ما فوقه فان أصعبية الاسترداد بغير أمره تعالى من الاتيان بمثله مما لا شبهة فيه بل لان الجملة القسمية ليست مسوقة الى النبى صلى الله عليه وسلم بل الى المكابرين من قبله عليه السلام (ولقد صرفنا) كررنا ورددنا على أنحاء مختلفة توجب زيادة تقرير وبيان وكادة رسوخ واطمئنان (للناس فى هذا القرآن) المنعوت بما ذكر من النعوت الفاضلة (من كل مثل) من كل معنى بديع هو فى الحسن والغرابة واستجلاب النفس كالمثل ليتلقوه بالقبول (فأبى أكثر الناس) أوثر الاظهار على الأضمار تأكيدا وتوضيحا (الا كفورا) أى الا جحوداً. وانما صح الاستثناء من الموجب مع أنه لا يصح ضربت الا زيدا لانه متأول بالنفى كانه قيل ما قبل أكثرهم الا كفورا. وفيه من المبالغة ما ليس فى أبوا الايمان لان فيه دلالة على أنهم لم يرضوا بخصلة سوى الكفور من الايمان والتوقف فى الامر ونحو ذلك وأنهم بالغوا فى عدم الرضاء حتى بلغوا مرتبة الاباء (وقالوا) عند ظهور عجزهم ووضوح مغلوبيتهم بالاعجاز التنزيلى وغيره من المعجزات الباهرة متعللين بما لا يمكن فى العادة وجوده ولا تقتضى الحكمة وقوعه من الامور كما هو ديدن المبهوت المحجوج (لن نؤمن لك حتى تفجر) وقرىء بالتشديد (لنا من الأرض) أرض مكة (ينبوعا) عينا لا ينضب ماؤها يفعول من نبع الماء كيعبوب من عب الماء اذا زخر (أو تكون لك جنة) أى بستان تستر أشجاره ما تحتها من العرصة (من نخيل وعنب فتفجر الانهار) أى تجريها بقوة (خلالها تفجيرا) كثيرا والمراد اما اجراء الانهار خلالها عند سقيها أو ادامة اجرائها كما ينبئ عنه الفاء لا ابتداؤه (أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا) جمع كسفة كقطعة وقطع لفظا

ومعنى وقرئ بالسكون كسدرة وسدر وهي حال من السماء والكاف في كما في محل النصب على أنه صفة مصدر محذوف أي اسقاطا مماثلا لما زعمت يعنون بذلك قوله تعالى « أو تسقط عليهم كسفا من السماء » (أو تأتي بالله والملائكة قبيلا) أي مقابلا كالعشير والمعاشر أو كفيلا يشهد بصحة ما تدعيه وهو حال من الجلالة وحال الملائكة محذوفة لدلالتها عليها أي والملائكة قبلاء كما حذف الخبر في قوله :

فاني وقيار بها لغريب . أو جماعة فيكون حالا من الملائكة (أو يكون لك بيت من زخرف) من ذهب وقد قرىء به وأصله الزينة (أو ترقى في السماء) أي في معارجها لحذف المضاف يقال رقي في السلم وفي الدرجة (ولن نؤمن لرقيك) أي لاجل رقيك فيها وحده أو لن نصدق رقيك فيها (حتى تنزل) منها (علينا كتابا) فيه تصديقك (نقرؤه) نحن من غير أن يتلقى من قبلك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال عبد الله بن أبي أمية لن نؤمن لك حتى تتخذ الى السماء سلما ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتي معك بصك منشور معه أربعة من الملائكة يشهدون أنك كما تقول وما كانوا يقصدون بهاتيك الاقتراحات الباطلة الا العناد واللجاج ولو أنهم أوتوا أضعاف ما اقترحوا من الآيات مازادهم ذلك الا مكابرة والا فقد كان يكفيهم بعض ماشاهدوا من المعجزات التي تخر لها صم الجبال (قل) تعجبا من شدة شكيمتهم وتنزيها لساحة السبحات عما لا يكاد يليق بها من مثل هذه الاقتراحات الشنيعة التي تكاد السموات يتفطرن منها أو عن طلبك ذلك وتنبيها على بطلان ما قالوه (سبحان ربي) وقرئ قال سبحان ربي (هل كنت الا بشرا) لاملكا حتى يتصور مني الرقي في السماء ونحوه (رسولا) مأمورا من قبل ربي بتبليغ الرسالة من غير أن يكون لي خيرة في الامر كسائر الرسل وكانوا لا يأتون قومهم الا بما يظهره الله على أيديهم حسبما يلائم حال قومهم ولم يكن أمر الآيات اليهم ولا لهم أن يتحكموا على الله سبحانه بشئ منها وقوله بشرا خبر لكنت ورسولا صفته (وما منع الناس) أي الذين حكيت أباطيلهم (أن يؤمنوا) مفعول ثان لمنع وقوله (اذ جاءهم الهدى) أي الوحي ظرف لمنع أو يؤمنوا أي وما منعهم وقت مجيء الوحي المقرون بالمعجزات المستدعية للايمان أن يؤمنوا بالقرآن وبنبوتك أوما منعهم أن يؤمنوا بذلك وقت مجيء ما ذكر (الا أن قالوا) في محل الرفع على أنه فاعل منع أي الا قولهم (أبعث الله بشرا رسولا) منكرين أن يكون رسول الله تعالى من جنس البشر وليس المراد أن هذا القول صدر عن بعضهم فمنع بعضا آخر منهم بل المانع هو الاعتقاد الشامل للكل المستتبع لهذا القول منهم

وانما عبر عنه بالقول ايذانا بانه مجرد قول يقولونه بأفواههم من غير أن يكون له مفهوم ومصداق . وحصر المانع من الايمان فيما ذكر مع أن لهم موانع شتى لما انه معظمها أو لانه هو المانع بحسب الحال أعنى عند سماع الجواب بقوله تعالى « هل كنت الا بشرا رسولا » اذ هو الذى يتشبثون به حينئذ من غير أن تخطر ببالهم شبهة أخرى من شبههم الواهية . وفيه ايذان بكمال عنادهم حيث يشير الى أن الجواب المذكور مع كونه حاسما لمواد شبههم ملجئا الى الايمان يعكسون الامر ويجعلونه مانعا منه (قل) لهم أولا من قبلنا تبيينا للحكمة وتحقيقا للحق المزيح للريب (لو كان) أى لو وجد واستقر (فى الأرض) بدل البشر (ملائكة يمشون مطمئنين) قارين فيها من غير أن يعرجوا فى السماء ويعلموا ما يجب أن يعلم (لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) يهديهم الى الحق ويرشدهم الى الخير لتمكنهم من الاجتماع والتلقى منه وأما عامة البشر فهم بمعزل من استحقاق المفاوضة الملكية كيف لا وهى منوطة بالتناسب والتجانس فبعث الملك اليهم مزاحم للحكمة التى عليها مبنى التكوين والتشريع وانما يبعث الملك من بينهم الى الخواص المختصين بالنفوس الزكية المؤيدين بالقوة القدسية المتعلقين بكلا العالمين الروحانى والجسمانى ليتلقوا من جانب ويلقوا الى جانب وقوله تعالى ملكا يحتمل أن يكون حالا من رسولا وان يكون موصوفا به وكذلك بشرا فى قوله تعالى «أبعث الله بشرا رسولا» والاول أولى (قل) لهم ثانيا من جهتك بعد ما قلت لهم من قبلنا ما قلت وبينت لهم ما تقتضيه الحكمة فى البعثة ولم يرفعوا اليه رأسا (كفى بالله) وحده (شهيدا) على أنى أديت ما على من مواجب الرسالة أكمل أداء وانكم فعلتم ما فعلتم من التكذيب والعناد وتوجيه الشهادة الى كونه عليه السلام رسولا باظهار المعجزة على وفق دعواه كما اختير لا يساعده قوله تعالى (بينى وبينكم) وما بعده من التعليل وانما لم يقل بيننا تحقيقا للمفارقة وابانة للمباينة وشهيدا اما حال أو تمييز (انه كان بعباده) من الرسل والمرسل اليهم (خبيرا بصيرا) محيطا بظواهر أحوالهم وبواطنها فيجازيهم على ذلك وهو تعليل للكفاية. وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتهديد للكفار (ومن يهد الله) كلام مبتدأ يفصل ما أشار اليه الكلام السابق من مجازات العباد اشارة اجمالية أى من يهده الله الى الحق بما جاء من قبله من الهدى (فهو المهتد) اليه والى ما يؤدى اليه من الثواب أو المهتد الى كل مطلوب (ومن يضلل) أى يخلق فيه الضلال بسوء اختياره كهؤلاء المعاندين (فلن تجد لهم) أوثر ضمير الجماعة اعتبارا لمعنى من غب ما أوثر فى مقابله الافراد نظرا الى لفظها تلويحا بوحدة طريق الحق وقلة سالكيه وتعدد سبل الضلال وكثرة الضلال (أولياء من دونه) من دون الله تعالى أى

انصارا يهدونهم الى طريق الحق أو الى طريق يوصلهم الى مطالبهم الدنيوية والاخروية أو الى طريق النجاة من العذاب الذى يستدعيه ضلالهم على معنى لن تجد لاحد منهم وليا على ما تقتضيه قضية مقابلة الجمع بالجمع من انقسام الآحاد الى الآحاد (ونحشرهم) التفات من الغيبة الى التكلم إيذانا بكمال الاعتناء بأمر الحشر (يوم القيامة على وجوههم) حال من الضمير المنصوب أى كائنين عليها سحبا كقوله تعالى « يوم يسحبون فى النار على وجوههم » أو مشيا فقد روى أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يمشون على وجوههم قال « ان الذى أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم » (عميا) حال من الضمير المجرور فى الحال السابقة (وبكما وصما) لايبصرون ما يقر أعينهم ولا ينطقون ما يقبل منهم ولا يسمعون ما يلذ مسامعهم لما قد كانوا فى الدنيا لا يستبصرون بالآيات والعبر ولاينطقون بالحق ولا يستمعونه . ويجوز أن يحشروا بعد الحساب من الموقف الى النار موفى القوى والحواس وان يحشروا كذلك ثم تعاد اليهم قواهم وحواسهم فان ادراكاتهم بهذه المشاعر فى بعض المواطن مما لا ريب فيه (مأواهم جهنم) إما حال أو استئناف وكذا قوله تعالى (كلما خبت زدناهم سعيرا) أى كلما سكن لهبها بأن أكلت جلودهم ولحومهم ولم يبق فيهم ما تتعلق به النار وتحرقه زدناهم توقدا بأن بدلناهم جلودا غيرها فعادت ملتهبة ومستعرة ولعل ذلك عقوبة لهم على انكارهم الاعادة بعد الفناء بتكريرها مرة بعد أخرى ليروها عيانا حيث لم يعلموها برهانا كما يفصح عنه قوله تعالى (ذلك) أى ذلك العذاب (جزاؤهم بأنهم) أى بسبب أنهم (كفروا بآياتنا) العقلية والنقلية الدالة على صحة الاعادة دلالة واضحة فذلك مبتدأ وجزاؤهم خبره . ويجوز أن يكون مبتدأ ثانيا وبأنهم خبره والجملة خبرا لذلك وأن يكون جزاؤهم بدلا من ذلك أو بيانا له والخبر هو الظرف (وقالوا) منكرين أشد الانكار (أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا) اما مصدر مؤكد من غير لفظه أى لمبعوثون بعثا جديدا وإما حال أى مخلوقين مستأنفين (أولم يروا) أى ألم يتفكروا ولم يعلموا (أن الله الذى خلق السموات والارض) من غير مادة مع عظمهم (قادر على أن يخلق مثلهم) فى الصغر على أن المثل مقحم والمراد بالخلق الاعادة كما عبر عنها بذلك حيث قيل خلقا جديدا (وجعل لهم أجلا لاريب فيه) عطف على أولم يروا فانه فى قوة قد رأوا والمعنى قد علموا أن من قدر على خلق السموات والارض فهو قادر على خلق أمثالهم من الانس وجعل لهم ولبعثهم أجلا محققا لا ريب فيه هو يوم القيامة (فأبى الظالمون) وضع موضع الضمير تسجيلا عليهم بالظلم وتجاوز الحد

بالمرة (الا كفورا) أى جحودا (قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى) خزائن رزقه التى أفاضها على كافة الموجودات وأنتم مرتفع بفعل يفسره المذكور كقول حاتم لوذات سوار لطمتنى وفائدة ذلك المبالغة والدلالة على الاختصاص (اذن لأمسكتم) لبخلتم (خشية الانفاق) مخافة النفاد بالانفاق اذ ليس فى الدنيا أحد الا وهو يختار النفع لنفسه ولو آثر غيره بشىء فانما يؤثره لعوض يفوقه فاذن هو بخيل بالاضافة الى جود الله سبحانه (وكان الانسان قتورا) مبالغا فى البخل لان مبنى أمره على الحاجة والضنة بما يحتاج اليه وملاحظة العوض بما يبذله (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) واضحات الدلالة على نبوته وصحة ماجاء به من عند الله وهى العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم والطوفان والسنون ونقص الثمرات وقيل انفجار الماء من الحجر ونتق الطور على بنى اسرائيل وانفلاق البحر بدل الثلاث الاخيرة ويأباه أن هذه الثلاث لم تكن منزلة إذ ذاك وأن الأولين لاتعلق لهما بفرعون وانما أوتيهما بنوا اسرائيل وعن صفوان بن عسال أن يهوديا سأل النبي عليه الصلاة والسلام عنها فقال أن لاتشركوا به شيئا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ولا تسحروا ولا تأكلوا الربا ولا تمشوا ببرىء إلى ذى سلطان ليقتله ولاتقذفوا محصنة ولا تفروا من الزحف وعليكم خاصة اليهود أن لاتعدوا فى السبت فقبل اليهودى يده ورجله عليه السلام ولا يساعده أيضا ماذكر ولعل جوابه عليه السلام بذلك لما أنه المهم للسائل وقبوله لما أنه كان فى التورات مسطورا وقد علم أنه ماعلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم الا من جهة الوحى (فاسأل بنى اسرائيل) وقرىء فسل أى فقلنا له سلهم عن فرعون وقل له أرسل معى بنى اسرائيل أو سلهم عن ايمانهم أو عن حال دينهم أو سلهم أن يعاضدوك ويؤيده قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم على صيغة الماضى وقيل خطاب للنبى عليه الصلاة والسلام أى فاسألهم عن تلك الآيات لتزداد يقينا وطمأنينة أو ليظهر صدقك (إذ جاءهم) متعلق بقلنا ويسأل على القراءة المذكورة وبآتينا أو بمضمر هو يخبروك أو اذكر على تقدير كون الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام (فقال له فرعون) الفاء فصيحة أى فأظهر عند فرعون ما آتيناه من الآيات البينات وبلغه ما أرسل به فقال له فرعون (انى لأظنك ياموسى مسحورا) سحرت فتخبط عقلك (قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء) يعنى الآيات التى أظهرها (الا رب السموات والارض) خالقهما ومدبرهما . والتعرض لربوبيته تعالى لهما للايذان بأنه لايقدر على إيتاء مثل هاتيك الآيات العظام الا خالقهما ومدبرهما (بصائر) حال من الآيات أى

بينات مكشوفات تبصرك صدق ولكنك تعاند وتكابر نحو «وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم» ومن ضرورة ذلك العلم العلم بأنه عليه الصلاة والسلام على كمال رصانة العقل فضلا عن توهم المسحورية وقرىء علمت على صيغة التكلم أى لقد علمت بيقين أن هذه الآيات الباهرة أنزلها الله عز سلطانه فكيف يتوهم أن يحوم حولى سحر (وإنى لأظنك يافرعون مثبورا) مصروفا عن الخير مطبوعا على الشر من قولهم ماثبرك عن هذا أى ماصرفك أو هالكا ولقد قارع عليه السلام ظنه بظنه وشتان بينهما كيف لا وظن فرعون إفك مبين وظنه عليه الصلاة والسلام يتاخم اليقين (فأراد) أى فرعون (أن يستفزهم) أى يستخفهم ويزعجهم (من الأرض) أرض مصر أو من الارض مطلقا بالقتل كقوله «سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم» (فأغرقناه ومن معه جميعا) فعكسنا عليه مكره واستفززناه وقومه بالاغراق (وقلنا من بعده) من بعد اغراقهم (لبنى اسرائيل اسكنوا الأرض) التى أراد أن يستفزكم منها (فاذا جاء وعد الآخرة) الكرة الآخرة أو الحياة أو الساعة أو الدار الآخرة أى قيام القيامة (جئنا بكم لفيفا) مختلطين اياكم واياهم ثم نحكم بينكم ونميز سعداءكم من أشقيائكم واللفيف الجماعات من قبائل شتى (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل) أى وما أنزلنا القرآن الا ملتبسا بالحق المقتضى لانزاله ومانزل الا ملتبساً بالحق الذى اشتمل عليه أو ما انزلناه من السماء الا محفوظا ومانزل على الرسول الا محفوظا من تخليط الشياطين ولعل المراد بيان عدم اعتراء البطلان له أول الامر وآخره (وما أرسلناك الا مبشرا) للمطيع بالثواب (ونذيرا) للعاصى من العقاب وهو تحقيق لحقية بعثته عليه الصلاة والسلام اثر تحقيق حقية انزال القرآن (وقرآنا) منصوب بمضمر يفسره قوله تعالى (فرقناه) وقرىء بالتشديد دلالة على كثرة نجومه (لتقرأه على الناس على مكث) على مهل وتثبت فانه أيسر للحفظ وأعون على الفهم وقرىء بالفتح وهو لغة فيه (ونزلناه تنزيلا) حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة ويقع من الحوادث والواقعات (قل) للذين كفروا (آمنوا به أو لا تؤمنوا) فان ايمانكم به لا يزيده كمالا وامتناعكم لا يورثه نقصا (ان الذين أوتوا العلم من قبله)أى العلماء الذين قرءوا الكتب السالفة من قبل تنزيله وعرفوا حقيقة الوحى وأمارات النبوة وتمكنوا من التمييز بين الحق والباطل والمحق والمبطل ورأوا فيها نعتك ونعت ما أنزل اليك (اذا يتلى) أى القرآن (عليهم يخرون للأذقان)أى يسقطون على وجوههم (سجدا) تعظيما لامر الله تعالى أو شكراً لانجاز ما وعد به فى تلك الكتب من بعثتك . وتخصيص الاذقان بالذكر للدلالة على كمال التذلل اذ حينئذ يتحقق الخرور عليها

وايثار اللام للدلالة على اختصاص الخرور بها كما فى قوله: فخر صريعا لليدين وللفم. وهو تعليل لما يفهم من قوله تعالى «آمنوا به أو لاتؤمنوا» من عدم المبالاة بذلك أى ان لم تؤمنوا به فقد آمن به أحسن ايمان من هو خير منكم. ويجوز أن يكون تعليلا لقل على سبيل التسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه قيل تسل بايمان العلماء عن إيمان الجهلة ولا تكترث بايمانهم واعراضهم (ويقولون) فى سجودهم (سبحان ربنا) عما يفعل الكفرة من التكذيب أو عن خلف وعده (إن كان وعد ربنا لمفعولا) ان مخففة من المثقلة. واللام فارقة أى إن الشأن هذا (ويخرون للاذقان يبكون) كرر الخرور للاذقان لاختلاف السبب فان الاول لتعظيم أمر الله تعالى أو الشكر لانجاز الوعد والثانى لما أثر فيهم من مواعظ القرآن حال كونهم باكين من خشية الله (ويزيدهم) اى القرآن بسماعهم (خشوعا) كما يزيدهم علما ويقينا بالله تعالى (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) نزل حين سمع المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ياالله يارحمن فقالوا انه ينهانا عن عبادة الهين وهو يدعو الها آخر وقالت اليهود انك لتقل ذكر الرحمن وقد أكثره الله تعالى فى التوراة والمراد على الأول هو التسوية بين اللفظين بأنهما عبارتان عن ذات واحدة وان اختلف الاعتبار والتوحيد انما هو للذات الذى هو المعبود وعلى الثانى انهما سيان فى حسن الاطلاق والافضاء الى المقصود وهو أوفق لقوله تعالى (أياما تدعوا فله الاسماء الحسنى) والدعاء بمعنى التسمية وهو يتعدى الى مفعولين حذف أولهما استغناء عنه وأو للتخيير. والتنوين فى أيا عوض عن المضاف اليه وما مزيدة لتأكيد مافى أى من الابهام والضمير فى له للمسمى لان التسمية له لا للاسم وكان أصل الكلام أياما تدعوا فهو حسن فوضع موضعه فله الاسماء الحسنى للمبالغة والدلالة على ماهو الدليل عليه اذ حسن جميع أسمائه يستدعى حسن ذينك الاسمين وكونها حسنى لدلالتها على صفات الكمال من الجلال والجمال والاكرام (ولا تجهر بصلاتك) أى بقراءة صلاتك بحيث تسمع المشركين فان ذلك يحملهم على السب واللغو فيها (ولا تخافت بها) أى بقراءتها بحيث لاتسمع من خلفك من المؤمنين (وابتغ بين ذلك) أى بين الجهر والمخافتة على الوجه المذكور (سبيلا) أمرا وسطا قصدا فان خير الأمور أوساطها والتعبير عن ذلك بالسبيل باعتبار أنه أمر يتوجه اليه المتوجهون ويؤمه المقتدون ويوصلهم الى المطلوب وروى أن أبا بكر رضى الله تعالى عنه كان يخفت ويقول أناجى ربى وقد علم حاجتى وعمر رضى الله عنه كان يجهر بها ويقول أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان فلما نزلت أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يرفع قليلا وعمر

أن يخفض قليلا وقيل المعنى لا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها بأسرها وابتغ بين ذلك سبيلا بالمخافتة نهارا والجهر ليلا وقيل بصلاتك بدعائك وذهب قوم الى أنها منسوخة بقوله تعالى « ادعوا ربكم تضرعا وخفية » (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً) كما يزعم اليهود والنصارى وبنو مليح حيث قالوا عزير ابن الله والمسيح ابن الله والملائكة بنات الله تعالى عن ذلك علوا كبيرا (ولم يكن له شريك فى الملك) أى الألوهية كما يقوله الثنوية القائلون بتعدد الآلهة (ولم يكن له ولى من الذل) ناصر ومانع منه لاعتزازه به أو لم يوال أحدا من أجل مذلة ليدفعها به . وفى التعرض فى أثناء الحمد لهذه الصفات الجليلة ايذان بأن المستحق للحمد من هذه نعوته دون غيره اذ بذلك يتم الكمال والقدرة التامة على الايجاد وما يتفرع عليه من افاضة أنواع النعم وما عداه ناقص مملوك : نعمة أو منعم عليه ولذلك عطف عليه قوله تعالى (وكبره تكبيرا) وفيه تنبيه على أن العبد وأن بالغ فى التنزيه والتمجيد واجتهد فى الطاعة والتحميد ينبغى أن يعترف بالقصور فى ذلك . روى أنه صلى الله عليه وسلم كان اذا افصح الغلام من بنى عبد المطلب علمه هذه الآية الكريمة . وعنه عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة بنى اسرائيل فرق قلبه عند ذكر الوالدين كان له قنطار فى الجنة والقنطار ألف أوقية ومائتا أوقية والحمد لله سبحانه وله الكبرياء والعظمة والجبروت .

سورة الكهف مكية وقيل الا قوله تعالى واصبر نفسك الآية

وهى مائة وإحدى عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(الحمد لله الذى أنزل على عبده) محمد صلى الله عليه وسلم (الكتاب) أى الكتاب الكامل الغنى عن الوصف بالكمال المعروف بذلك من بين الكتب الحقيق باختصاص اسم الكتاب به وهو عبارة عن جميع القرآن أو عن جميع المنزل حينئذ كما مر مرارا . وفى وصفه تعالى بالموصول اشعار بعلية ما فى حيز الصلة لاستحقاق الحمد وايذان بعظم شأن التنزيل الجليل كيف لا وعليه يدور فلك سعادة الدارين . وفى التعبير عن الرسول عليه الصلاة والسلام بالعبد مضافا الى ضمير الجلالة تنبيه على بلوغه عليه الصلاة والسلام الى أعلى معارج العبادة وتشريف له أى تشريف واشعار بأن شأن الرسول أن يكون عبدا للمرسل لا كما زعمت النصارى

فى حق عيسى عليه السلام وتأخير المفعول الصريح عن الجار والمجرور مع أن حقه التقديم عليه ليتصل به قوله تعالى (ولم يجعل له عوجا) أى شيئا من العوج بنوع اختلال فى النظم وتناف فى المعنى أو انحراف عن الدعوة الى الحق وهو فى المعانى كالعوج فى الاعيان وأما قوله تعالى « لاترى فيها عوجا ولا أمتا » مع كون الجبال من الاعيان فللدلالة على انتفاء مالا يدرك من العوج بحاسة البصر بل انما يوقف عليه بالبصيرة بواسطة استعمال المقاييس الهندسية ولما كان ذلك مما لا يشعر به بالمشاعر الظاهرة عد من قبيل ما فى المعانى وقيل الفتح فى اعوجاج المنتصب كالعود والحائط والكسر فى اعوجاج غيره عينا كان أو معنى (قيما) بالمصالح الدينية والدنيوية للعباد على ما ينبىء عنه ما بعده من الانذار والتبشير فيكون وصفا له بالتكميل بعد وصفه بالكمال أو على ما قبله من الكتب السماوية شاهدا بصحتها ومهيمنا عليها أو متناهيا فى الاستقامة فيكون تأكيدا لما دل عليه نفى العوج مع افادة كون ذلك من صفاته الذاتية اللازمة له حسبما تنبىء عنه الصيغة لا أنه نفى عنه العوج مع كونه من شأنه وانتصابه على تقدير كون الجملة المتقدمة معطوفة على الصلة بمضمر ينبىء عنه نفى العوج تقديره جعله قيما وأما على تقدير كونها حالية من الكتاب اذلا فصل حينئذ بين أبعاض المعطوف عليه بالمعطوف وقرىء قيما (لينذر) متعلق بأنزل والفاعل ضمير الجلالة كما فى الفعلين المعطوفين عليه والاطلاق عن ذكر المفعول الاول للايذان بأن ماسيق له الكلام هو المفعول الثانى وأن الاول ظاهر لاحاجة الى ذكره أى أنزل الكتاب لينذر بما فيه الذين كفروا به (بأسا) أى عذابا (شديدا من لدنه) أى صادرا من عنده نازلا من قبله بمقابلة كفرهم وتكذيبهم وقرىء من لدنه بسكون الدال مع اشمام الضمة وكسر النون لالتقاء الساكنين وكسر الهاء للاتباع (ويبشر) بالتشديد وقرىء بالتخفيف (المؤمنين) أى المصدقين به (الذين يعملون الصالحات) الاعمال الصالحة التى بينت فى تضاعيفه . وايثار صيغة الاستقبال فى الصلة للاشعار بتجدد الاعمال الصالحة واستمرارها واجراء الموصول على موصوفه المذكور لما أن مدار قبول الاعمال هو الايمان (أن لهم) أى بأن لهم بمقابلة ايمانهم وأعمالهم المذكورة (أجرا حسنا) هو الجنة وما فيها من المثوبات الحسنى (ماكثين) حال من الضمير المجرور فى لهم (فيه) أى فى ذلك الاجر (أبدا) من غير انتهاء أى خالدين فيه وهو نصب على الظرفية لماكثين وتقديم الانذار على التبشير لاظهار كمال العناية بزجر الكفار عما هم عليه مع مراعاة تقديم التحلية على

التخلية وتكرير الانذار بقوله تعالى (و ينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا) متعلقا بفرقة خاصة ممن عمه الانذار السابق من مستحقى البأس الشديد للايذان بكمال فظاعة حالهم لغاية شناعة كفرهم وضلالهم أى و ينذر من بين سائر الكفرة هؤلاء المتفوهين بمثل هاتيك العظيمة خاصة وهم كفار العرب الذين يقولون الملائكة بنات الله تعالى واليهود القائلون عزير ابن الله والنصارى القائلون المسيح ابن الله . وترك اجراء الموصول على الموصوف كما فعل فى قوله تعالى «و يبشر المؤمنين» للايذان بكفاية ما فى حيز الصلة فى الكفر على أقبح الوجوه . وايثار صيغة الماضى فى الصلة للدلالة على تحقق صدور تلك الكلمة القبيحة عنهم فيما سبق . وجعل المفعول المحذوف فيما سلف عبارة عن هذه الطائفة يؤدى الى خروج سائر أصناف الكفرة عن الانذار والوعيد . وتعميم الانذار هناك المؤمنين أيضا بحمله على معنى مجرد الاخبار بالخبر الضار من غير اعتبار حلول المنذر به على المنذر كما فى قوله تعالى «أن أنذر الناس و بشر الذين آمنوا» يفضى الى خلو النظم الكريم عن الدلالة على حلول البأس الشديد على من عدا هذه الفرقة . و يجوز أن يكون الفاعل فى الافعال الثلاثة ضمير الكتاب أو ضمير الرسول عليه الصلاة والسلام (مالهم به) أى باتخاذه سبحانه وتعالى ولدا (من علم) مرفوع على الابتداء أو الفاعلية لاعتماد الظرف ومن مزيدة لتأكيد النفى والجملة حالية أو مستأنفة لبيان حالهم فى مقالهم أى مالهم بذلك شىء من علم أصلا لا لاخلالهم بطريقه مع تحقق المعلوم أو امكانه بل لاستحالته فى نفسه (ولا لآبائهم) الذين قلدوهم فتاهوا جميعا فى تيه الجهالة والضلالة أو مالهم علم بما قالوه أهو صواب أم خطأ بل انما قالوه رميا عن عمى وجهالة من غير فكر وروية كما فى قوله تعالى « وخرقوا له بنين و بنات بغير علم » أو بحقيقة ماقالوه و بعظم رتبته فى الشناعة كما فى قوله تعالى «وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إدا تكاد السموات يتفطرن منه» الآيات وهو الانسب بقوله تعالى (كبرت كلمة) أى عظمت مقالتهم هذه فى الكفر والافتراء لما فيها من نسبته سبحانه الى مالا يكاد يليق بجناب كبريائه والفاعل فى كبرت إما ضمير المقالة المدلول عليها بقالوا وكلمة نصب على التمييز أو ضمير مبهم مفسر بما بعده من النكرة المنصوبة تمييزا كبئس رجلا والمخصوص بالذم محذوف تقديره كبرت هى كلمة خارجة من أفواههم. وقرئ كبرت باسكان الباء مع اشمام الضم . وقرىء كلمة بالرفع (تخرج من أفواههم) صفة للكلمة مفيدة لاستعظام اجترائهم على التفوه بها. واسناد الخروج اليها مع أن الخارج هو الهواء المتكيف بكيفية الصوت لملابسته بها (إن يقولون) ما

يقولون فى ذلك الشأن (الا كذبا) أى الا قولا كذبا لا يكاد يدخل تحت امكان الصدق أصلا. والضمير ان لهم ولآبائهم مثل حاله عليه الصلاة والسلام فى شدة الوجد على اعراض القوم وتوليهم عن الايمان بالقرآن وحال التحسر عليهم بحال من يتوقع منه اهلاك نفسه أثر فوت ما يحبه عند مفارقة أحبته تأسفا على مفارقتهم وتلهفا على مهاجرتهم فقيل على طريقة التمثيل حملا له عليه الصلاة والسلام على الحذر والاشفاق من ذلك (فلعلك باخع) أى مهلك (نفسك على آثارهم) غما ووجدا على فراقهم. وقرىء بالاضافة (إن لم يؤمنوا بهذا الحديث) أى القرآن الذى عبر عنه فى صدر السورة بالكتاب وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة ما سبق عليه. وقرىء بأن المفتوحة أى لان لم يؤمنوا فاعمال باخع بحمله على حكاية حال ماضية لاستحضار الصورة كما فى قوله عز وجل «باسط ذراعيه» (أسفا) مفعول له لباخع أى لفرط الحزن والغضب أو حال مما فيه من الضمير أو متأسفا عليهم ويجوز حمل النظم الكريم على الاستعارة التبعية بجعل التشبيه بين أجزاء الطرفين لا بين الهيئتين المنتزعتين منهما كما فى التمثيل وقد مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى ختم الله على قلوبهم (إنا جعلنا ما على الارض) استئناف وتعليل لما فى لعل من معنى الاشفاق أى انا جعلنا ما عليها مما عدا من وجهالية التكاليف من الزخارف حيوانا كان أو نباتا أو معدنا كقوله تعالى «هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا» (زينة) مفعول ثان للجعل ان حمل على معنى التصيير أو حال ان حمل على معنى الابداع واللام فى (لها) اما متعلقة بزينة أو بمحذوف هو صفة لها أى كائنة لها أى ليتمتع بها الناظرون من المكلفين وينتفعوا بها نظرا واستدلالا فان الحيات والعقارب من حيث تذكيرهما لعذاب الآخرة من قبيل المنافع بل كل حادث داخل تحت الزينة من حيث دلالته على وجود الصانع ووحدته فان الازواج والاولاد أيضا من زينة الحياة الدنيا بل أعظمها ولا يمنع ذلك كونهم من جملة المكلفين فانهم من جهة انتسابهم الى أصحابهم داخلون تحت الزينة ومن جهة كونهم مكلفين داخلون تحت الابتلاء (لنبلوهم) متعلق بجعلنا أى جعلنا ما جعلنا لنعاملهم معاملة من يختبرهم (أيهم أحسن عملا) فنجازيهم بالثواب والعقاب حسبما تبين المحسن من المسيء وامتازت طبقات أفراد كل من الفريقين حسب امتياز مراتب علومهم المرتبة على أنظارهم وتفاوت درجات أعمالهم المتفرعة على ذلك كما قررناه فى مطلع سورة هود وأي إما استفهامية مرفوعة بالابتداء وأحسن خبرها والجملة فى محل النصب معلقة لفعل البلوى لما فيه من معنى العلم باعتبار عاقبته كالسؤال والنظر ولذلك أجرى مجراه بطريق التمثيل أو الاستعارة

التبعية واما موصولة بمعنى الذى وأحسن خبر مبتدا مضمر والجملة صلة لها وهى فى حيز النصب بدل من مفعول لنبلوهم والتقدير لنبلو الذى هو أحسن عملا فحينئذ يحتمل أن تكون الضمة فى أيهم للبناء كما فى قوله عز وجل «ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا» على أحد الاقوال لتحقق شرط البناء الذى هو الاضافة لفظا وحذف صدر الصلة وأن تكون للاعراب لان ما ذكر شرط لجواز البناء لا لوجوبه وحسن العمل الزهد فيها وعدم الاغترار بها والقناعة باليسير منها وصرفها على ما ينبغى والتأمل فى شأنها وجعلها ذريعة الى معرفة خالقها والتمتع بها حسبما أذن له الشرع وأداء حقوقها والشكر لها لا لاتخاذها وسيلة الى الشهوات والاغراض الفاسدة كما يفعله الكفرة وأصحاب الاهواء . وايراد صيغة التفضيل مع أن الابتلاء شامل للفريقين باعتبار أعمالهم المنقسمة الى الحسن والقبيح أيضا لا الى الحسن والاحسن فقط للاشعار بأن الغاية الاصلية للجعل المذكور انما هو ظهور كمال احسان المحسنين على ما حقق فى تفسير قوله تعالى «ليبلوكم أيكم أحسن عملا» (وإنا لجاعلون) فيما سيأتى عند تناهى عمر الدنيا (ما عليها) من المخلوقات قاطبة بافنائها بالكلية. وانما أظهر فى مقام الإضمار لزيادة التقرير أو لادراج المكلفين فيه (صعيدا) مفعول ثان للجعل والصعيد التراب أو وجه الارض قال أبو عبيدة هو المستوى من الارض وقال الزجاج هو الطريق الذى لا نبات فيه (جرزا) ترابا لا نبات فيه بعد ما كان يتعجب من بهجته النظار وتتشرف بمشاهدته الابصار يقال أرض جرز لا نبات فيها وسنة جرز لا مطر فيها قال الفراء جرزت الارض فهى مجروزة أى ذهب نباتها بقحط أو جراد ويقال جرزها الجراد والشاة والابل اذا أكلت ما عليها وهذه الجملة لتكميل ما فى السابقة من التعليل والمعنى لاتحزن بما عاينت من القوم من تكذيب ما أنزلنا عليك من الكتاب فانا قد جعلنا ما على الارض من فنون الاشياء زينة لها لنختبر أعمالهم فنجازيهم بحسبها وانا لمفنون جميع ذلك عن قريب ومجازون لهم بحسب أعمالهم (أم حسبت) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد انكار حسبان أمته وأم منقطعة مقدرة ببل التى هى للانتقال من حديث الى حديث لا للابطال وبهمزة الاستفهام عند الجمهور وببل وحدها عند غيرهم أى بل أحسبت (أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا) فى بقائهم على الحياة مدة طويلة من الدهر (من آياتنا) من بين آياتنا التى من جملتها ما ذكرناه من جعل ما على الأرض زينة لها للحكمة المشار اليها ثم جعل ذلك كله صعيدا جرزا كأن لم تغن بالامس (عجبا) أى آية ذات عجب وضعا له موضع المضاف أو وصفا لذلك بالمصدر

مبالغة وهو خبر لكانوا ومن آياتنا حال منه والمعنى أن قصتهم وإن كانت خارقة للعادات ليست بعجيبة بالنسبة الى سائر الآيات التي من جملتها ما ذكر من تعاجيب خلق الله تعالى بل هي عندها كالنزر الحقير. والكهف الغار الواسع في الجبل والرقيم كلبهم قال أمية بن أبي الصلت:

وليس بها إلا الرقيم مجاورا ... وصيدهم والقوم في الكهف همد

وقيل هو لوح رصاصي أو حجري رقمت فيه أسماؤهم وجعل على باب الكهف وقيل هو الوادي الذي فيه الكهف فهو من رقمة الوادي أي جانبه وقيل الجبل وقيل قريتهم وقيل مكانهم بين غضبان وايلة دون فلسطين. وقيل أصحاب الرقيم آخرون وكانوا ثلاثة انطبق عليهم الغار فنجوا بذكر كل منهم أحسن عمله على ما فصل في الصحيحين (اذ أوى) ظرف لعجبا لا لحسبت أو مفعول لاذكر أي حين التجأ (الفتية) أي أصحاب الكهف. أوثر الاظهار على الاضمار لتحقيق ما كانوا عليه في أنفسهم من حال الفتوة فانهم كانوا فتية من أشراف الروم ارادهم دقيانوس على الشرك فهربوا منه بدينهم ولان صاحبية الكهف من فروع التجائهم الى الكهف فلا يناسب اعتبارها معهم قبل بيانه (الى الكهف) بجعلهم للجلوس واتخذوه مأوى (فقالوا ربنا آتنا من لدنك) من خزائن رحمتك الخاصة المكنونة عن عيون أهل العادات فمن ابتدائية متعلقة بآتنا أو بمحذوف وقع حالا من مفعوله الثاني قدمت عليه لكونه نكرة ولو تأخرت لكانت صفة له أي آتنا كائنة من لدنك (رحمة) خاصة تستوجب المغفرة والرزق والامن من الاعداء (وهيء لنا من أمرنا) الذي نحن عليه من مهاجرة الكفار والمثابرة على طاعته وأصل التهيئة احداث هيئة الشيء أي أصلح ورتب وأتمم لنا من أمرنا (رشدا) اصابة للطريق الموصل الى المطلوب واهتداء اليه وكلا الجارين متعلق بهيء لاختلافهما في المعنى. وتقديم المجرورين على المفعول الصريح لاظهار الاعتناء بهما وابراز الرغبة في المؤخر بتقديم أحواله فان تأخير ما حقه التقديم عما هو من أحواله المرغبة فيه كما يورث شوق السامع الى وروده ينبيء عن كمال رغبة المتكلم فيه واعتنائه بحصوله لا محالة وكذا الكلام في تقديم قوله تعالى «من لدنك» على تقدير تعلقه بآتنا وتقديم لنا على من أمرنا للايذان من أول الأمر بكون المسئول مرغوبا فيه لديهم أو اجعل أمرنا رشدا كله على أن من تجريدية مثلها في قولك رأيت منك أسدا (فضربنا على آذانهم) أي أنمناهم على طريقة التمثيل المبني على تشبيه الانامة الثقيلة المانعة عن وصول الاصوات الى الآذان بضرب الحجاب عليها وتخصيص

الآذان بالذكر مع اشتراك سائر المشاعر لها فى الحجب عن الشعور عند النوم لما أنها المحتاج الى الحجب عادة اذ هى الطريقة للتيقظ غالبا لا سيما عند انفراد النائم واعتزاله عن الخلق وقيل الضرب على الآذان كناية عن الانامة الثقيلة وحمله على تعطيلها كما فى قولهم ضرب الامير على يد الرعية أى منعهم من التصرف مع عدم ملاءمته لما سيأتى من البعث لا يدل على النوم مع انه المراد قطعا و الفاء فى فضربنا كما فى قوله عز وجل «فاستجبنا له» بعد قوله تعالى «اذ نادى» فان الضرب المذكور وما ترتب عليه من التقليب ذات اليمين وذات الشمال والبعث وغير ذلك ايتاء رحمة لدنية خافية عن أبصار المتمسكين بالاسباب العادية استجابة لدعوتهم (فى الكهف) ظرف مكان لضربنا (سنين) ظرف زمان له باعتبار بقائه لا ابتدائه (عددا) أى ذوات عدد أو تعد عددا على انه مصدر أو معدودة على أنه بمعنى المفعول. ووصف السنين بذلك اما للتكثير وهو الانسب باظهار كمال القدرة أو للتقليل وهو الاليق بمقام انكار كون القصة عجبا من بين سائر الآيات العجيبة فان مدة لبثهم كبعض يوم عنده عز وجل (ثم بعثناهم) أى أيقظناهم من تلك النومة الثقيلة الشبيهة بالموت (لنعلم) بنون العظمة وقرىء بالياء مبنيا للفاعل بطريقة الالتفات وأياما كان فهو غاية للبعث لكن لا بجعل العلم مجازا من الاظهار والتمييز أو بحمله على ما يصح وقوعه غاية للبعث الحادث من العلم الحالى الذى يتعلق به الجزاء كما فى قوله تعالى «الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه» وقوله تعالى «وليعلم الله الذين آمنوا» ونظائرهما التى يتحقق فيها العلم بتحقق متعلقه قطعا فان تحويل القبلة قد ترتب عليه تحزب الناس الى متبع ومنقلب وكذا مداولة الايام بين الناس ترتب على تحزبهم الى الثابت على الايمان والمتزلزل فيه وتعلق بكل من الفريقين العلم الحالى والاظهار والتمييز وأما بعث هؤلاء فلم يترتب عليه تفرقهم الى المحصى وغيره حتى يتعلق بهما العلم أو الاظهار والتمييز ويتسنى نظم شىء من ذلك فى سلك الغاية وانما الذى ترتب عليه تفرقهم الى مقدر تقديرا غير مصيب ومفوض الى العلم الربانى وليس شىء منهما من الاحصاء فى شىء بل يحمل النظم الكريم على التمثيل المبنى على جعل العلم عبارة عن الاختبار مجازا بطريق اطلاق اسم المسبب على السبب وليس من ضرورة الاختبار صدورا لفعل المختبر به عن المختبر قطعا بل قد يكون لاظهار عجزه عنه على سنن التكاليف التعجيزية كقوله «تعالى فأت بها من المغرب» وهو المراد ههنا فالمعنى بعثناهم لنعاملهم معاملة من يختبرهم (أى الحزبين) أى الفريقين المختلفين فى مدة لبثهم بالتقدير والتفويض كما سيأتى (أحصى) أى أضبط (لما لبثوا) أى للبثهم (أمدا) أى غاية فيظهر لهم عجزهم و يفوضوا ذلك الى العليم الخبير ويتعرفوا

حالهم وما صنع الله تعالى بهم من حفظ أبدانهم وأديانهم فيزدادوا يقينا بكمال قدرته وعلمه ويستبصروا به أمر البعث ويكون ذلك لطفا لمؤمنى زمانهم وآية بينة لكفارهم وقد اقتصر ههنا من تلك الغايات الجليلة على ذكر مبدئها الصادر عنه عز وجل وفيما سيأتى على ماصدر عنهم من التساؤل المؤدى اليها وهذا أولى من تصوير التمثيل بان يقال بعثناهم بعث من يريد أن يعلم الخ حسبما وقع فى تفسير قوله تعالى «وليعلم الله الذين آمنوا» على أحد الوجوه حيث حمل على معنى فعلنا ذلك فعل من يريد أن يعلم من الثابت على الايمان من غير الثابت اذ ربما يتوهم منه استلزام الارادة لتحقق المراد فيعود المحذور فيصار الى جعل ارادة العلم عبارة عن الاختبار فاختبر واختر هذا. وقد قرىء ليعلم مبنيا للمفعول ومبنيا للفاعل من الأعلام على أن المفعول الاول محذوف والجملة المصدرة بأى فى موقع المفعول الثانى فقط ان جعل العلم عرفانيا وفى موقع المفعولين ان جعل يقينيا أى ليعلم الله الناس أى الحزبين أحصى الخ وروى عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما ان أحد الحزبين الفتية والآخر الملوك الذين تداولوا المدينة ملكا بعد ملك. وقيل كلاهما من غيرهم والاول هو الاظهر فان اللام للعهد ولاعهد لغيرهم. والامد بمعنى المدى كالغاية فى قولهم ابتداء الغاية وهو مفعول لأحصى والجار والمجرور حال منه قدمت عليه لكونه نكرة وليس معنى احصاء تلك المدة ضبطها من حيث كميتها المتصلة الذاتية فانه لايسمى احصاء بل ضبطها من حيث كميتها المنفصلة العارضة لها باعتبار قسمتها الى السنين وبلوغها من تلك الحيثية الى مراتب الاعداد على ما يرشدك اليه كون تلك المدة عبارة عما سبق من السنين. ويجوز أن يراد بالامد معناه الوضعى بتقدير المضاف أى لزمان لبثهم وبدونه أيضا فان اللبث عبارة عن الكون المستمر المنطبق على الزمان المذكور فباعتبار الامتداد العارض له بسببه يكون له أمد لامحالة لكن ليس المراد به مايقع غاية ومنتهى لذلك الكون المستمر باعتبار كميته المتصلة العارضة بسبب انطباقه على الزمان الممتد بالذات وهو آن انبعاثهم من نومهم فان معرفته من تلك الحيثية لاتخفى على أحد ولاتسمى احصاء كما مر بل باعتبار كميته المنفصلة العارضة له بسبب عروضها لزمانه المنطبق هو عليه باعتبار انقسامه الى السنين ووصوله الى مرتبة معينة من مراتب العدد كما حقق فى الصورة الاولى. والفرق بين الاعتبارين أن ماتعلق به الاحصاء فى الصورة السابقة نفس المدة المنقسمة الى السنين فهو مجموع ثلثمائة وتسع سنين وفى الصورة الاخيرة منتهى تلك المدة المنقسمة اليها أعنى السنة التاسعة بعد الثلثمائة وتعلق الاحصاء بالامد بالمعنى الاول ظاهر وأما تعلقه به بالمعنى الثانى فباعتبار انتظامه لما تحته من مراتب العدد واشتماله عليها هذا على تقدير كون ما فى قوله تعالى

«لما لبثوا» مصدرية ويجوز أن تكون موصولة حذف عائدها من الصلة أى للذى لبثوا فيه من الزمان الذى عبر عنه فيما قبل بسنين عددا فالامد بمعناه الوضعى على ما تحققته وقيل اللام مزيدة والموصول مفعول وأمدا نصب على التميز وأما ماقيل من أن أحصى اسم تفضيل لانه الموافق لما وقع فى سائر الآيات الكريمة نحو أيهم أحسن عملا أيهم أقرب لكم نفعا الى غير ذلك مما لايحصى ولان كونه فعلا ماضيا يشعر بأن غاية البحث هو العلم بالاحصاء المتقدم على البعث لابالاحصاء المتأخر عنه وليس كذلك وادعاء أن مجيء أفعل التفضيل من المزيد عليه غير قياسى مدفوع بأنه عند سيبويه قياس مطلقا وعند ابن عصفور فيما ليست همزته للنقل ولاريب فى أن ما نحن فيه من ذلك القبيل وامتناع عمله انما هو فى غير التمييز من المعمولات . وأما أن التميز يجب كونه فاعلا فى المعنى فلمانع أن يمنعه بصحة أن يقال أيهم أحفظ لهذا الشعر وزنا أو تقطيعا أو يقال إن العامل فى أمدا فعل محذوف يدل عليه المذكور أى يحصى لما لبثوا أمدا كما فى قوله

* وأضرب منا بالسيوف القوانسا * وحديث الوقوع فى المحذور بلافائدة مدفوع بما أشير اليه من فائدة الموافقة للنظائر فمع ما فيه من الاعتساف والخلل بمعزل من السداد لان مؤداه أن يكون المقصود بالاختبار اظهار أفضل الحزبين وتمييزه عن الادنى مع تحقق أصل الاحصاء فيهما ومن البين أن لاتحقق له أصلا وأن المقصود بالاختبار اظهار عجز الكل عنه رأسا فهو فعل ماض قطعا وتوهم إيذانه بأن غاية البحث هو العلم بالاحصاء المتقدم عليه مردود بأن صيغة الماضى باعتبار حال الحكاية والله تعالى أعلم (نحن نقص عليك) شروع فى تفصيل ما أجمل فيما سلف من قوله تعالى «اذ أوى الفتية» الخ أى نحن نخبرك بتفاصيل أخبارهم وقد مر بيان اشتقاقه فى مطلع سورة يوسف عليه السلام (نبأهم) النبأ الخبر الذى له شأن وخطر (بالحق) اما صفة لمصدر محذوف أو حال من ضمير نقص أو من نبأهم أو صفة له على رأى من يرى حذف الموصول مع بعض صلته أى نقص قصصا ملتبسا بالحق أو نقصه ملتبسين به أو نقص نبأهم ملتبسا به أو نبأهم الملتبس به ونبأهم حسبما ذكره محمد بن اسحق بن يسار انه قد مرج أهل الانجيل وعظمت فيهم الخطايا وطغت ملوكهم فعبدوا الأصنام وذبحوا للطواغيت وكان ممن بالغ فى ذلك وعتا عتوا كبيرا دقيانوس فانه غلا فيه غلوا شديدا فجاس خلال الديار والبلاد بالعيث والفساد وقتل من خالفه من المتمسكين بدين المسيح عليه السلام وكان يتبع الناس فيخيرهم بين القتل وعبادة الأوثان فمن رغب فى الحياة الدنيا الدنية يصنع مايصنع ومن آثر عليها الحياة الابدية قتله وقطع آرابه وعلقها فى سور المدينة وأبوابها فلما رأى الفتية ذلك وكانوا

عظماء أهل مدينتهم وقيل كانوا من خواص الملك قاموا فتضرعوا إلى الله عز وجل واشتغلوا بالصلاة والدعاء فبينما هم كذلك إذ دخل عليهم أعوان الجبار فأحضروهم بين يديه فقال لهم ماقال وخيرهم بين القتل وبين عبادة الاوثان فقالوا ان لنا إلها ملأ السموات والارض عظمته وجبروته لن ندعوا من دونه أحداً ولن نقر لما تدعونا اليه أبداً فاقض ما أنت قاض فأمر بنزع ماعليهم من الثياب الفاخرة وأخرجهم من عنده وخرج هو الى مدينة نينوى لبعض شأنه وأمهلهم الى رجوعه ليتأملوا فى أمرهم فان تبعوه وإلا فعل بهم مافعل بسائر المسلمين فأزمعت الفتية على الفرار بالدين والالتجاء إلى الكهف الحصين فأخذ كل منهم من بيت أبيه شيئاً فتصدقوا ببعضه وتزودوا بالباقى فأووا الى الكهف فجعلوا يصلون فيه آناء الليل وأطراف النهار ويبتهلون الى الله سبحانه بالأنين والجؤار وفوضوا أمر نفقتهم إلى يمليخا فكان إذا أصبح يضع عنه ثيابه الحسان ويلبس لباس المساكين ويدخل المدينة ويشترى مايهمهم ويتحسس مافيها من الاخبار ويعود إلى أصحابه فلبثوا على ذلك الى أن قدم الجبار المدينة فطلبهم وأحضر آباءهم فاعتذروا بانهم عصوهم ونهبوا أموالهم وبذروها فى الاسواق وفروا إلى الجبل فلما رأى يمليخا مارأى من الشر رجع الى أصحابه وهو يبكى ومعه قليل من الزاد فأخبرهم بماشاهده من الهول ففزعوا إلى الله عز وجل وخروا له سجداً ثم رفعوا رءوسهم وجلسوا يتحدثون فى أمرهم فبينما هم كذلك إذ ضرب الله تعالى على آذانهم فناموا ونفقتهم عند رءوسهم فخرج دقيانوس فى طلبهم بخيله ورجله فوجدوهم قد دخلوا الكهف فأمر باخراجهم فلم يطق أحد أن يدخله فلما ضاق بهم ذرعا قال قائل منهم أليس لو كنت قدرت عليهم قتلتهم قال بلى قال فابن عليهم باب الكهف ودعهم يموتوا جوعا وعطشا وليكن كهفهم قبراً لهم ففعل ثم كان من شأنهم ماقص الله عز وجل عنهم (انهم فتية) استئناف تحقيقى مبنى على تقدير السؤال من قبل المخاطب والتنكير للتفخيم والمدح (آمنوا بربهم) أوثر الالتفات للاشعار بعلية وصف الربوبية لإبائهم ولمراعاة ماصدر عنهم من المقالة حسبما سيحكى عنهم (وزدناهم هدى) بأن ثبتناهم على ما كانوا عليه من الدين واظهرنا لهم مكنونات محاسنه وفيه التفات من الغيبة الى ماعليه سبك النظم سباقا وسياقا من التكلم (وربطنا على قلوبهم) أى قويناها حتى اقتحموا مضايق الصبر على هجر الاهل والاوطان والنعيم والاخوان واجترءوا على الصدع بالحق من غير خوف وحذار والرد على دقيانوس الجبار (اذ قاموا) منصوب بربطنا والمراد بقيامهم انتصابهم لاظهار شعار الدين قال مجاهد خرجوا من المدينة فاجتمعوا على غير ميعاد فقال أكبرهم

إني لاجد فى نفسي شيئا أن ربى رب السموات والارض فقالوا نحن أيضا كذلك فقاموا جميعا (فقالوا ربنا رب السموات والارض) ضمنوا دعواهم ما يحقق فحواها ويقضى بمقتضاها فان ربوبيته عز وجل لهما تقتضى ربوبيته لما فيهما أى اقتضاء وقيل المراد قيامهم بين يدى الجبار من غير مبالاة به حين عاتبهم على ترك عبادة الاصنام فحينئذ يكون ماسيأتى من قوله تعالى هؤلاء الخ منقطعا عما قبله صادرا عنهم بعد خروجهم من عنده (لن ندعو) لن نعبد أبدا (من دونه إلها) معبودا آخر لااستقلالا ولااشتراكا . والعدول عن أن يقال ربا للتنصص على رد المخالفين حيث كانوا يسمون أصنامهم آلهة وللاشعار بأن مدار العبادة وصف الالوهية وللايذان بأن ربوبيته تعالى بطريق الالوهية لابطريق المالكية المجازية (لقد قلنا اذا شططا) أى قولا ذا شطط أى تجاوز عن الحد أو قولا هو عين الشطط على أنه وصف بالمصدر مبالغة ثم اقتصر على الوصف مبالغة على مبالغة وحيث كانت العبادة مستلزمة للقول لما أنها لاتعرى عن الاعتراف بألوهية المعبود والتضرع اليه قيل لقد قلنا واذا جواب وجزاء أى لو دعونا من دونه إلهاً والله لقد قلنا قولا خارجاً عن حد العقول مفرطا فى الظلم (هؤلاء) هو مبتدأ وفى اسم الاشارة تحقير لهم (قومنا) عطف بيان له (اتخذوا من دونه آلهة) خبره وفيه معنى الانكار (لولا يأتون) تحضيض فيه معنى الانكار والتعجيز أى هلا يأتون (عليهم) على ألوهيتهم أو على صحة اتخاذهم لها آلهة (بسلطان بين) بحجة ظاهرة الدلالة على مدعاهم وهو تبكيت لهم والقام حجر (فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً) بنسبة الشريك اليه تعالى عن ذلك علوا كبيراً والمعنى أنه أظلم من كل ظالم وان كان سبك النظم على انكار الاظلمية من غير تعرض لانكار المساواة كما مر تحقيقه فى سورة هود (وإذ اعتزلتموهم) أى فارقتموهم فى الاعتقاد وأردتم الاعتزال الجسمانى (وما يعبدون إلا الله)عطف على الضمير المنصوب وما موصولة أو مصدرية أى اذا اعتزلتموهم ومعبوديهم الا الله أو وعبادتهم إلا عبادة الله وعلى التقديرين فالاستثناء متصل على تقدير كونهم مشركين كأهل مكة ومنقطع على تقدير تمحضهم فى عبادة الاوثان. ويجوز كون ما نافية على أنه أخبار من الله تعالى عن الفتية بالتوحيد معترض بين اذ وجوابه (فأووا) أى التجئوا (الى الكهف) قال الفراء هو جواب اذ كما تقول اذ فعلت فافعل كذا. وقيل هو دليل على جوابه أى اذا اعتزلتموهم اعتزالا اعتقاديا فاعتزلوهم اعتزالا جسمانيا . أو إذ أردتم اعتزالهم فافعلوا ذلك بالالتجاء إلى الكهف (ينشر لكم) يبسط لكم ويوسع عليكم (ربكم) مالك أمركم (من رحمته)

فى الدارين (ويهيء لكم) يسهل لكم (من أمركم) الذى أنتم بصدده من الفرار بالدين (مرفقا) ماترتفقون وتنتفعون به وقرىء بفتح الميم وكسر الفاء مصدراً كالمرجع وتقديم لكم فى الموضعين لما مر مراراً من الايذان من أول الامر بكون المؤخر من منافعهم والتشويق إلى وروده (وترى الشمس) بيان لحالهم بعد ما أووا إلى الكهف ولم يصرح به ايذانا بعدم الحاجة اليه لظهور جريانهم على موجب الامر به لكونه صادرا عن رأى صائب وتعويلا على ماسلف من قوله سبحانه «إذ أوى الفتية الى الكهف» وما لحق من اضافة الكهف اليهم وكونهم فى فجوة منه والخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب وليس المراد به الاخبار بوقوع الرؤية تحقيقا بل الانباء بكون الكهف بحيث لو رأيته ترى الشمس (اذا طلعت تزاور) أى تتزاور وتتنحى بحذف إحدى التاءين وقرىء بادغام التاء فى الزاى وتزور كتحمر وتزوار كتحمار وتزوئر وكلها من الزور وهو الميل (عن كهفهم) الذى أووا اليه فالاضافة لأدنى ملابسة (ذات اليمين) أى جهة ذات يمين الكهف عند توجه الداخل الى قعره أى جانبه الذى يلى المغرب فلا يقع عليهم شعاعها فيؤذيهم (واذا غربت) أى تراها عند غروبها (تقرضهم) أى تقطعهم من القطيعة والصرم ولا تقربهم (ذات الشمال) أى جهة ذات شمال الكهف أى جانبه الذى يلى المشرق وكان ذلك بتصريف الله سبحانه على منهاج خرق العادة كرامة لهم وقوله تعالى (وهم فى فجوة منه) جملة حالية مبينة لكون ذلك أمرا بديعا أى تراها تميل عنهم يمينا وشمالا ولا تحوم حولهم مع انهم فى متسع من الكهف معرض لاصابتها لولا أن صرفتها عنهم يد التقدير (ذلك) أى ماصنع الله بهم من تزاور الشمس وقرضها حالتى الطلوع والغروب مع كونهم فى موقع شعاعها (من آيات الله) العجيبة الدالة على كمال علمه وقدرته وحقية التوحيد وكرامة أهله عنده سبحانه وتعالى وهذا قبل أن سد دقيانوس باب الكهف وقيل كان باب الكهف شماليا مستقبل بنات نعش وأقرب المشارق والمغارب الى محاذاته رأس مشرق السرطان ومغربه والشمس اذا كان مدارها مداره تطلع مائلة عنه مقابلة لجانبه الأيمن وهو الذى يلى المغرب وتغرب محاذية لجانبه الأيسر فيقع شعاعها على جنبيه وتحلل عفونته وتعدل هواءه ولا يقع عليهم فيؤذى أجسادهم ويبلى ثيابهم ولعل ميل الباب الى جانب الغرب كان أكثر ولذلك أوقع التزاور على كهفهم والقرض على أنفسهم فذلك حينئذ اشارة الى أيوائهم الى كهف هذا شأنه وأما جعله اشارة الى حفظ الله سبحانه اياهم فى ذلك الكهف تلك المدة الطويلة أو الى إطلاعه سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم على إخبارهم فلا

يساعده ايراده فى تضاعيف القصة (من يهدى الله) الى الحق بالتوفيق له (فهو المهتد) الذى أصاب الفلاح والمراد إما الثناء عليهم والشهادة لهم باصابة المطلوب والاخبار بتحقيق ما أملوه من نشر الرحمة وتهيئة المرافق أو التنبيه على ان أمثال هذه الآية كثيرة ولكن المنتفع بها من وفقه الله تعالى للاستبصار بها (ومن يضلل) أى يخلق فيه الضلال لصرف اختياره اليه (فلن تجد له) أبدا وان بالغت فى التتبع والاستقصاء (وليا) ناصرا (مرشدا) يهديه الى ما ذكر من الفلاح لاستحالة وجوده فى نفسه لا أنك لا تجده مع وجوده أو امكانه (وتحسبهم) بفتح السين وقرىء بكسرها أيضا والخطاب فيه كما سبق (أيقاظا) جمع يقظ بكسر القاف وفتحها وهو اليقظان ومدار الحسبان انفتاح عيونهم على هيئة الناظر وقيل كثرة تقلبهم ولا يلائمه قوله تعالى ونقلبهم (وهم رقود) أى نيام وهو تقرير لما لم يذكر فيما سلف اعتمادا على ذكره السابق من الضرب على آذانهم (ونقلبهم) فى رقدتهم (ذات اليمين) نصب على الظرفيه أى جهة تلى أيمانهم (وذات الشمال) أى جهة تلى شمائلهم كى لا تأكل الارض ما يليها من أبدانهم قال ابن عباس رضى الله عنهما لو لم يقلبوا لاكلتهم الارض قيل لهم تقليبتان فى السنة وقيل تقليبة واحدة يوم عاشوراء وقيل فى كل تسع سنين وقرىء يقلبهم على الاسناد الى ضمير الجلالة وتقلبهم على المصدر منصوبا بمضمر ينبىء عنه وتحسبهم أى وترى تقلبهم (وكلبهم) قيل هو كلب مروا به فتبعهم فطردوه مرارا فلم يرجع فأنطقه الله تعالى فقال لا تخشوا جانبى فانى أحب أحباء الله تعالى فناموا حتى أحرسكم . وقيل هو كلب راع قد تبعهم على دينهم ويؤيده قراءة كالبهم اذ الظاهر لحوقه بهم وقيل هو كلب صيد أحدهم أو زرعه أو غنمه واختلف فى لونه فقيل كان أنمر وقيل أصفر وقيل أصهب وقيل غير ذلك وقيل كان اسمه قطمير وقيل ريان وقيل تتوه وقيل قطمور وقيل ثور قال خالد بن معدان ليس فى الجنة من الدواب الا كلب أصحاب الكهف وحمار بلعم وقيل لم يكن ذلك من جنس الكلاب بل كان أسدا (باسط ذراعيه) حكاية حال ماضية ولذلك أعمل اسم الفاعل وعند الكسائى وهشام وأبى جعفر من البصريين يجوز اعماله مطلقا والذراع من المرفق الى رأس الاصبع الوسطى (بالوصيد) أى بموضع الباب من الكهف (لو اطلعت عليهم) أى لو عاينتهم وشاهدتهم وأصل الاطلاع الاشراف على الشىء بالمعاينة والمشاهدة وقرىء بضم الواو (لوليت منهم فرارا) هربا مما شاهدت منهم وهو اما نصب على المصدرية من معنى ما قبله اذ التولية والفرار من واد واحد واما على الحالية بجعل المصدر بمعنى الفاعل أى فارا أو بجعل الفاعل مصدرا مبالغة كما فى قولها :

فانما هى اقبال وادبار واما على انه مفعول له (ولملئت منهم رعبا) وقرىء بضم العين أى خوفا يملأ الصدر ويرعبه وهو اما مفعول ثان أو تمييز وذلك لما ألبسهم الله عز وجل من الهيبة والهيئة كانت أعينهم مفتحة كالمستيقظ الذى يريد أن يتكلم وقيل لطول أظفارهم وشعورهم ولا يساعده قولهم لبثنا يوما أو بعض يوم وقوله « ولا يشعرن بكم أحدا » فان الظاهر من ذلك عدم اختلاف أحوالهم فى أنفسهم وقيل لعظم أجرامهم ولعل تأخير هذا عن ذكر التولية للايذان باستقلال كل منها فى الترتب على الاطلاع اذ لو روعى ترتيب الوجود لتبادر الى الفهم ترتب المجموع من حيث هو هو عليه وللاشعار بعدم زوال الرعب بالفرار كما هو المعتاد وعن معاوية لما غزا الروم فر بالكهف قال لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا اليهم فقال له ابن عباس رضى الله عنهما ليس لك ذلك قد منع الله تعالى من هو خير منك حيث قال لواطلعت عليهم الآية قال معاوية لا أنتهى حتى أعلم علمهم فبعث ناسا وقال لهم اذهبوا فانظروا ففعلوا فلما دخلوا الكهف بعث الله تعالى ريحا فأحرقتهم وقرىء بتشديد اللام على التكثير وبابدال الهمزة ياء مع التخفيف والتشديد (وكذلك بعثناهم) أى كما أنمناهم وحفظنا أجسادهم من البلى والتحلل آية دالة على كمال قدرتنا بعثناهم من النوم (ليتساءلوا بينهم) أى ليسأل بعضهم بعضا فيترتب عليه ما فصل من الحكم البالغة وجعله غاية للبعث المعلل فيما سبق بالاختبار من حيث انه من أحكامه المترتبة عليه والاقتصار على ذكره لاستتباعه لسائر آثاره (قال) استئناف لبيان تساؤلهم (قائل منهم) هو رئيسهم واسمه مكسلمينا (كم لبثتم) فى منامكم لعله قاله لما رأى من مخالفة حالهم لما هو المعتاد فى الجملة (قالوا) أى بعضهم (لبثنا يوما أو بعض يوم) قيل انما قالوه لما أنهم دخلوا الكهف غدوة وكان انتباههم آخر النهار فقالوا لبثنا يوما فلما رأوا أن الشمس لم تغرب بعد قالوا أو بعض يوم وكان ذلك بناء على الظن الغالب فلم يعزوا الى الكذب (قالوا) أى بعض آخر منهم بما سنح لهم من الادلة أو بالهام من الله سبحانه (ربكم أعلم بما لبثتم) أى أنتم لا تعلمون مدة لبثكم وانما يعلمها الله سبحانه وهذا رد منهم على الاولين بأجمل ما يكون من مراعاة حسن الادب وبه يتحقق التحزب الى الحزبين المعهودين فيما سبق وقد قيل القائلون جميعهم ولكن فى حالتين ولا يساعده النظم الكريم فان الاستئناف فى الحكاية والخطاب فى المحكى يقضى بان الكلام جار على منهاج المحاورة والمجاوبة والا لقيل ثم قالوا ربنا أعلم بما لبثنا (فابعثوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة) قالوه اعراضا عن التعمق فى البحث واقبالا

على ما يهمهم بحسب الحال كما تنبىء عنه الفاء، والورق الفضة مضروبة أو غير مضروبة ووصفها باسم الاشارة يشعر بأن القائل ناولها بعض أصحابه ليشترى بها قوت يومهم ذلك. وقرىء بسكون الراء وبادغام القاف فى الكاف وبكسر الواو وبسكون الراء مع الادغام. وحملهم لها دليل على أن التزود لا ينافى التوكل على الله تعالى (فلينظر أيها) أى أهلها (أزكى) أحل وأطيب أو أكثر وأرخص (طعاما فليأتكم برزق منه) أى من ذلك الازكى طعاما (وليتلطف) وليتكلف اللطف فى المعاملة كى لا يغبن أو فى الاستخفاء لئلا يعرف (ولا يشعرن بكم أحدا) من أهل المدينة فانه يستدعى شيوع أخباركم أى لا يفعلن ما يؤدى الى ذلك فالنهى على الاول تأسيس وعلى الثانى تأكيد للامر بالتلطف (انهم) تعليل لما سبق من الامر والنهى أى ليبالغ فى التلطف وعدم الاشعار لانهم (ان يظهروا عليكم) أى يطلعوا عليكم أو يظفروا بكم والضمير للأهل المقدر فى أيها (يرجموكم) ان ثبتم على ما أنتم عليه (أو يعيدوكم فى ملتهم) أى يصيروكم اليها ويدخلوكم فيها كرها من العود بمعنى الصيرورة كقوله تعالى «أو لتعودن فى ملتنا» وقيل كانوا أولا على دينهم. وإيثار كلمة فى على كلمة الى للدلالة على الاستقرار الذى هو أشد شىء عندهم كراهة. وتقديم احتمال الرجم على احتمال الاعادة لأن الظاهر من حالهم هو الثبات على الدين المؤدى اليه. وضمير الخطاب فى المواضع الأربعة للمبالغة فى حمل المبعوث على الاستخفاء وحث الباقين على الاهتمام بالتوصية فان امحاض النصح أدخل فى القبول واهتمام الانسان بشأن نفسه أكثر وأوفر (ولن تفلحوا اذا) أى ان دخلتم فيها ولو بالكره والالجاء لن تفوزوا بخير (أبدا) لا فى الدنيا ولا فى الآخرة. وفيه من التشديد فى التحذير مالا يخفى (وكذلك) أى وكما أنمناهم وبعثناهم لما مر من ازديادهم فى مراتب اليقين (أعثرنا) أى أطلعنا الناس (عليهم ليعلموا) أى الذين أعثرناهم عليهم بما عاينوا من أحوالهم العجيبة (أن وعد الله) أى وعده بالبعث أو موعوده الذى هو البعث أو أن كل وعده أو كل موعوده فيدخل فيه وعده بالبعث أو البعث الموعود دخولا أوليا (حق) صادق لاخلف فيه أو ثابت لامرد له لأن نومهم وانتباههم كحال من يموت ثم يبعث (وان الساعة) أى القيامة التى هى عبارة عن وقت بعث الخلائق جميعا للحساب والجزاء (لاريب فيها) لاشك فى قيامها فان من شاهد أنه جل وعلا توفى نفوسهم وأمسكها ثلثمائة سنة وأكثر حافظا أبدانها من التحلل والتفتت ثم أرسلها اليها لا يبقى له شائبة شك فى أن وعده تعالى حق وانه يبعث من فى القبور فيرد اليهم أرواحهم فيحاسبهم ويجزيهم بحسب

أعمالهم (إذ يتنازعون) ظرف لقوله أعثرنا قدم عليه الغاية اظهاراً لكمال العناية بذكرها لا لقوله ليعلموا كما قيل لدلالته على أن التنازع يحدث بعد الاعثار وليس كذلك أى أعثرناهم عليهم حين يتنازعون (بينهم أمرهم) ليرتفع الخلاف ويتبين الحق قيل المتنازع فيه أمر دينهم حيث كانوا مختلفين فى البعث فمن مقر له وجاحد به وقائل يقول ببعث الأرواح دون الأجساد وآخر يقول ببعثهما معا. قيل كان ملك المدينة حينئذ رجلا صالحا مؤمناوقداختلف أهل مملكته فى البعث حسبما فصل فدخل الملك بيته و أغلق بابه و لبس مسحا وجلس على رماد وسأل ربه أن يظهر الحق فالقى الله عز وجل فى نفس رجل من رعيانهم فهدم ماسد به دقيانوس باب الكهف ليتخذه حظيرة لغنمه فعند ذلك بعثهم الله تعالى فجرى بينهم من التقاول ما جرى. روى أن المبعوث لما دخل المدينة أخرج الدرهم ليشترى به الطعام وكان على ضرب دقيانوس فاتهموه بأنه وجد كنزا فذهبوا به الى الملك فقص عليه القصة فقال بعضهم إن آباءنا أخبرونا بأن فتية فروا بدينهم من دقيانوس فلعلهم هؤلاء فانطلق الملك وأهل المدينة من مسلم وكافر وأبصروهم وكلموهم ثم قالت الفتية للملك نستودعك الله ونعيذك به من شر الانس والجن ثم رجعوا إلى مضاجعهم فماتوا فألقى الملك عليهم ثيابه وجعل لكل منهم تابوتا من ذهب فرآهم فى المنام كارهين للذهب فجعلها من الساج و بنى على باب الكهف مسجداً وقيل لما انتهوا الى الكهف قال لهم الفتى مكانكم حتى أدخل أولا لئلا يفزعوا فدخل فعمى عليهم المدخل فبنوا ثمة مسجداً. وقيل المتنازع فيه أمر الفتية قبل بعثهم أى أعثرنا عليهم حين يتذاكرون بينهم أمرهم وما جرى بينهم وبين دقيانوس من الاحوال والاهوال و يتلقون ذلك من الاساطير وأفواه الرجال وعلى التقديرين فالفاء فى قوله عز وجل (فقالوا) فصيحة أى أعثرناهم عليهم فرأوا مارأوا فماتوا فقالوا أى قال بعضهم (ابنوا عليهم) أي على باب كهفهم (بنيانا) لئلا يتطرق اليهم الناس ضنا بتربتهم ومحافظة عليها وقوله تعالى (ربهم أعلم بهم) من كلام المتنازعين كأنهم لما رأوا عدم اهتدائهم الى حقيقة حالهم من حيث النسب ومن حيث العدد ومن حيث اللبث فى الكهف قالوا ذلك تفويضا للامر الى علام الغيوب أو من كلام الله تعالى ردا لقول الخائضين فى حديثهم من أولئك المتنازعين وقيل هو أمرهم وتدبير هم عند وفاتهم أوشأنهم فى الموت والنوم حيث اختلفوا فى أنهم ماتوا أوناموا كما فى أول مرة فاذ حينئذ متعلق بقوله تعالى (قال الذين غلبوا على أمرهم) وهم الملك والمسلمون (لنتخذن عليهم مسجدا) وقوله تعالى فقالوا معطوف على يتنازعون. و إيثار صيغة الماضى

للدلالة على أن هذا القول ليس مما يستمر و يتجدد كالتنازع . وقيل متعلق باذكر مضمراً وأما تعلقه بأعثرنا فيأباه أن إعثارهم ليس فى زمان تنازعهم فيما ذكر بل قبله . وجعل وقت التنازع ممتداً يقع فى بعضه الاعثار و فى بعضه التنازع تعسف لايخفى مع أنه لامخصص لاضافته الى التنازع وهو مؤخر فى الوقوع (سيقولون) الضمير فى الافعال الثلاثة للخائضين فى قصتهم فى عهد النبى عليه الصلاة والسلام من أهل الكتاب والمسلمين لكن لاعلى وجه اسناد كل منها الى كلهم بل الى بعضهم (ثلاثة رابعهم كلبهم) أى هم ثلاثة أشخاص رابعهم أى جاعلهم أربعة بانضمامه اليهم كلبهم قيل قاله اليهود وقيل قاله السيد من نصارى نجران وكان يعقوبياً . وقرىء ثلاة بادغام الثاء فى التاء (ويقولون خمسة سادسهم كلبهم) قيل قاله النصارى أو العاقب منهم وكان نسطورياً (رجماً بالغيب) رميا بالخبر الخفى الذى لامطلع عليه أو ظنا بالغيب من قولهم رجم بالظن اذا ظن وانتصابه على الحالية من الضمير فى الفعلين جميعاً أى راجمين أو على المصدرية منهما فان الرجم والقول واحد أو من محذوف مستأنف واقع موقع الحال من ضمير الفعلين معا أى يرجمون رجماً . وعدم إيراد السين للاكتفاء بعطفه على مافيه ذلك (ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم) هو مايقوله المسلمون بطريق التلقى من هذا الوحى ومافيه مما يرشدهم الى ذلك من عدم نظمه فى سلك الرجم بالغيب . وتغيير سبكه بزيادة الواو المفيدة لزيادة وكادة النسبة فيما بين طرفيها لايوحى كما قيل (قل) تحقيقا للحق ورداً على الاولين (ربى أعلم) أى أقوى علماً (بعدتهم) بعددهم (مايعلمهم) أى ما يعلم عدتهم أو مايعلمهم فضلا عن العلم بعدتهم (إلا قليل) من الناس قد وفقهم الله تعالى للاستشهاد بتلك الشواهد . قال ابن عباس رضى الله عنهما حين وقعت الواو انقطعت العدة وعليه مدار قوله رضى الله عنه أنا من ذلك القليل ولو كان فى ذلك وحى آخر لما خفى عليه ولما احتاج إلى الاستشهاد بالواو ولكان المسلمون أسوة له فى العلم بذلك وعن على كرم الله وجهه أنهم سبعة نفر أسماؤهم يمليخا ومكشلينيا ومشلينيا هؤلاء أصحاب يمين الملك وكان عن يساره مرنوش ودبرنوش وشاذنوش وكان يستشير هؤلاء الستة فى أمره والسابع الراعى الذى رافقهم حين هربوا من ملكهم دقيانوس واسمه كفيشيطيوش (فلا تمار) الفاء لتفريع النهى على ما قبله أى اذ قد عرفت جهل أصحاب القولين الاولين فلا تجادلهم (فيهم) فى شأن الفتية (إلا مراء ظاهرا) قدر ماتعرض له الوحى من وصفهم بالرجم بالغيب وعدم العلم على الوجه الاجمالى . وتفويض العلم إلى الله سبحانه من غير تصريح بجهلهم وتفضيح لهم فانه مما يخل بمكارم الأخلاق (ولا تستفت

فيهم) فى شأنهم (منهم) من الخائضين (أحدا) فان فيما قص عليك لمندوحة عن ذلك مع أنه لاعلم لهم بذلك وقال عطاء إلا قليل من أهل الكتاب فالضمائر الثلاثة فى الأفعال الثلاثة لهم . وما ذكر من الشواهد لارشاد المؤمنين الى صحة القول الثالث وفيه محيص عما فى الأول من التكلف فى جعل أحد الأقوال المحكية المنظومة فى سمط واحد ناشئاً عن الحكاية مع كون الأخيرين بخلافه ووضوح فى سبب حذف المفعول فى لاتمار والمعنى حينئذ واذ قد وقفت على أن كلهم ليسوا على خطأ فى ذلك فلاتجادلهم الاجدا لاظاهرا نطق به الوحى المبين من غير تجهيل لجميعهم فان فيهم مصيباً وان قل والنهى عن الاستفتاء لدفع ما عسى يتوهم من احتمال جوازه أو احتمال وقوعه بناء على اصابة بعضهم فالمعنى لا تراجع اليهم فى شأن الفتية ولا تصدق القول الثالث من حيث صدوره عنهم بل من حيث التلقى من الوحى (ولا تقولن لشيء) أى لأجل شيء تعزم عليه (إنى فاعل ذلك) الشيء (غدا) أى فيما يستقبل من الزمان مطلقاً فيدخل فيه الغد دخولا أولياً فانه نزل حين قالت اليهود لقريش سلوه عن الروح وعن أصحاب الكهف وذى القرنين فسألوه عليه الصلاة والسلام فقال ائتونى غدا أخبركم ولم يستثن فأبطأ عليه الوحى حتى شق عليه وكذبته قريش . وما قيل من أن المدلول بالعبارة هو الغد وما بعد ذلك مفهوم بطريق دلالة النص يرده أن ما بعده ليس بمعناه فى مناط النهى فان وسعة المجال دليل القدرة فليتأمل (الا أن يشاء الله) استثناء مفرغ من النهى أى لا تقولن ذلك فى حال من الأحوال الا حال ملابسته بمشيئته تعالى على الوجه المعتاد وهو أن يقال ان شاء الله أو فى وقت من الأوقات الا وقت أن يشاء الله أن تقوله لا مطلقاً بل مشيئة اذن فان النسيان أيضاً بمشيئته تعالى ولا مساغ لتعليقه بفاعل لعدم سداد استثناء اقتران المشيئة بالفعل ومنافاة استثناء اعتراضها النهى وقيل الاستثناء جار مجرى التأبيد كانه قيل لاتقولنه أبدا كقوله تعالى «وما كان لنا أن نعود فيها الا أن يشاء الله» (واذكر ربك) بقولك ان شاء الله متداركا له (إذا نسيت) اذا فرط منك نسيان ثم ذكرته وعن ابن عباس رضى الله عنهما ولو بعد سنة مالم يحنث ولذلك جوز تأخير الاستثناء وعامة الفقهاء على خلافه إذ لو صح ذلك لما تقرر إقرار ولا طلاق ولا عتاق ولم يعلم صدق ولا كذب قال القرطبى هذا فى تدارك التبرك والتخلص عن الاثم وأما الاستثناء المغير للحكم فلا يكون إلا متصلا . ويجوز أن يكون المعنى واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار اذا نسيت الاستثناء مبالغة فى الحث عليه أو اذكر ربك وعقابه اذا تركت بعض ما أمرك به ليبعثك ذلك على التدارك أو اذكره اذا اعتراك النسيان ليذكرك المنسى وقد حمل على أداء الصلاة

المنسية عند ذكرها (وقل عسى أن يهدين ربى)أى يوفقنى (لأقرب من هذا) أى لشىء أقرب و أظهر من نبأ أصحاب الكهف من الآيات و الدلائل الدالة على نبوتى (رشدا)أى إرشادا للناس و دلالة على ذلك وقد فعل عز وجل ذلك حيث آتاه من البينات ماهو أعظم من ذلك و أبين كقصص الأنبياء المتباعدة أيامهم والحوادث النازلة فى الأعصار المستقبلة إلى قيام الساعة أو لأقرب رشدا و أدنى خيرا من المنسى (ولبثوا فى كهفهم)أحياء مضروبا على آذانهم (ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا)وهى جملة مستأنفة مبينة لما أجمل فيما سلف وأشير إلى عزة مناله . وقيل إنه حكاية كلام أهل الكتاب فانهم اختلفوا فى مدة لبثهم كما اختلفوا فى عدتهم فقال بعضهم هكذا و بعضهم ثلثمائة و روى عن على رضى الله عنه انه قال عند أهل الكتاب انهم لبثوا ثلثمائة سنة شمسية والله تعالى ذكر السنة القمرية والتفاوت بينهما فى كل مائة سنة ثلاث سنين فيكون ثلثمائة وتسع سنين. وسنين عطف بيان لثلثمائة وقيل بدل وقرىء على الاضافة وضعا للجمع موضع المفرد ومما يحسنه ههنا أن علامة الجمع فيه جبر لما حذف فى الواحد وان الأصل فى العدد إضافته إلى الجمع (قل الله أعلم بما لبثوا) أى بالزمان الذى لبثوا فيه(له غيب السموات والارض)أى ماغاب فيهما وخفى من أحوال أهلهما . واللام للاختصاص العلمى دون التكوينى فانه غير مختص بالغيب (أبصر به وأسمع)دل بصيغة التعجب على أن شأن علمه سبحانه بالمبصرات والمسموعات خارج عما عليه ادراك المدركين لايحجبه شىء ولا يحول دونه حائل ولا يتفاوت بالنسبة اليه اللطيف والكثيف والصغير والكبير و الخفى والجلى. والهاء ضمير الجلالة ومحله الرفع على الفاعلية والباء مزيدة عند سيبويه وكان أصله أبصر أى صار ذا بصر ثم نقل إلى صيغة الأمر للانشاء فبرز الضمير لعدم لياقة الصيغة له أو لزيادة الباء كما فى كفى به والنصب على المفعولية عند الأخفش و الفاعل ضمير المأمور وهو كل أحد والباء مزيدة ان كانت الهمزة للتعدية ومعدية ان كانت للصيرورة. ولعل تقديم أمر أبصاره تعالى لما أن الذى نحن بصدده من قبيل المبصرات (مالهم)لأهل السموات والارض (من دونه) تعالى(من ولى) يتولى أمورهم و ينصرهم استقلالا (ولا يشرك فى حكمه)فى قضائه أو فى علم الغيب (أحدا) منهم ولا يجعل له فيه مدخلا وهو كما ترى أبلغ فى نفى الشريك من أن يقال من ولى ولا شريك.وقرىء على صيغة نهى الحاضر على أن الخطاب لكل أحد ولما دل انتظام القرآن الكريم لقصة أصحاب الكهف من حيث أنها بالنسبة إلى النبى صلى الله عليه وسلم من المغيبات على انه وحى معجز أمره عليه السلام بالمداومة على دراسته فقال (واتل ما أوحى اليك من كتاب ربك)ولا تسمع لقولهم ائت بقرآن

غير هذا أو بدله (لا مبدل لكلماته) لا قادر على تبديله وتغييره غيره (وان تجد) أبد الدهر وان بالغت فى الطلب (من دونه ملتحدا) ملجأ تعدل اليه عند إلمام ملمة (واصبر نفسك) احبسها وثبتها مصاحبة (مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى) أى دائبين على الدعاء فى جميع الاوقات وقيل فى طرفى النهار وقرىء بالغدوة على أن إدخال اللام عليها وهى علم فى الاغلب على تأويل التنكير والمراد بهم فقراء المؤمنين مثل صهيب وعمار وخباب ونحوهم رضى الله عنهم . وقيل أصحاب الصفة وكانوا نحو سبعمائة رجل قيل إنه قال قوم من رؤساء الكفرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم نح هؤلاء الموالى الذين كأن ريحهم ريح الضأن حتى نجالسك كما قال قوم نوح عليه السلام أنؤمن لك واتبعك الارذلون فنزلت . والتعبير عنهم بالموصول لتعليل الامر بما فى حيز الصلة من الخصلة الداعية الى إدامة الصحبة (يريدون) بدعائهم ذلك (وجهه) حال من المستكن فى يدعون أى مريدين لرضاء تعالى وطاعته (ولا تعد عيناك عنهم) أى لا يجاوزهم نظرك الى غيرهم من عداه أى جاوزه واستعماله بعن لتضمينه معنى النبو أو لا تصرف عيناك النظر عنهم الى غيرهم من عدوته عن الامر أى صرفته عنه على أن المفعول محذوف لظهوره . وقرىء ولا تعد عينيك ولا تعد عينيك من الأعداء والتعدية والمراد نهيه عليه السلام عن الازدراء بهم لرثاثة زيهم طموحا الى زى الاغنياء (تريد زينة الحياة الدنيا) أى تطلب مجالسة الاشراف والاغنياء وأصحاب الدنيا وهى حال من الكاف على الوجه الاول من القراءة المشهورة ومن الفاعل على الوجه الثانى منها . وضمير تريد للعينين. واسناد الارادة اليه مجاز وتوحيده للتلازم كما فى قوله :

لمن زحلوفة زل ... بها العينان تنهل

ومن المستكن فى الفعل على القراءتين الاخيرتين (ولا تطع) فى تنحية الفقراء عن مجالسك (من أغفلنا قلبه) أى جعلناه غافلا لبطلان استعداده للذكر بالمرة أو وجدناه غافلا كقولك أجبنته وأبخلته اذا وجدته كذلك أو هو من أغفل إبله أى لم نسمه بالذكر (عن ذكرنا) كأولئك الذين يدعونك الى طرد الفقراء عن مجلسك فانهم غافلون عن ذكرنا على خلاف ما عليه المؤمنون من الدعاء فى مجامع الأوقات. وفيه تنبيه على أن الباعث له على ذلك الدعاء غفلة قلبه عن جناب الله سبحانه وجهته وانهماكه فى الحسيات حتى خفى عليه أن الشرف بحلية النفس لا بزينة الجسد . وقرىء أغفلنا قلبه على إسناد الفعل الى القلب أى حسبنا غافلين عن ذكرنا إياه بالمؤاخذة من أغفلته اذا وجدته غافلا (واتبع هواه وكان أمره فرطا) ضياعا وهلاكا أو متقدما للحق والصواب نابذا له وراء ظهره من قولهم فرس فرط أى

متقدم للخيل أو هو بمعنى الافراط والتفريط فان الغفلة عن ذكره سبحانه تؤدى الى اتباع الهوى المؤدى الى التجاوز والتباعد عن الحق والصواب. والتعبير عنهم بالموصول للايذان بعلية ما فى حيز الصلة للنهي عن الاطاعة (وقل) لأولئك الغافلين المتبعين هواهم (الحق من ربكم) أى ما أوحى الى الحق لاغير كائنا من ربكم أو الحق المعهود من جهة ربكم لا من جهتى حتى يتصور فيه التبديل أو يمكن التردد فى اتباعه وقوله تعالى (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) إما من تمام القول المأمور به والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها بطريق التهديد لالتفريعه عليه كما فى قوله تعالى «هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب» وقوله «تعالى الحق من ربك فلا تكونن من الممترين» أى عقيب تحقق أن ما أوحى الى حق لا ريب فيه وأن ذلك الحق من جهة ربكم فمن شاء أن يؤمن به فليؤمن كسائر المؤمنين ولا يتعلل بما لا يكاد يصلح للتعلل ومن شاء أن يكفر به. فليفعل وفيه من التهديد واظهار الاستغناء عن متابعتهم وعدم المبالاة بهم وبايمانهم وجودا وعدما مالايخفى. واما تهديد من جهة الله تعالى والفاء لترتيب ما بعدها من التهديد على الامر لا على مضمون المأمور به والمعنى قل لهم ذلك وبعد ذلك من شاء أن يؤمن به أو أن يصدقك فيه فليؤمن ومن شاء أن يكفر به أو يكذبك فيه فليفعل فقوله تعالى (إنا أعتدنا) وعيد شديد وتأكيد للتهديد وتعليل لما يفيده من الزجر عن الكفر أولما يفهم من ظاهر التخيير من عدم المبالاة بكفرهم وقلة الاهتمام بزجرهم عنه فان اعداد جزائه من دواعى الاملاء والامهال وعلى الوجه الاول هو تعليل للامر بما ذكر من التخيير التهديدى أى قل لهم ذلك انا أعتدنا (للظالمين) أى هيأنا للكافرين بالحق بعد ما جاء من الله سبحانه والتعبير عنهم بالظالمين للتنبيه على أن مشيئة الكفر واختياره تجاوز عن الحد ووضع للشىء فى غير موضعه (نارا) عظيمة عجيبة (أحاط بهم) أى يحيط بهم. وايثار صيغة الماضى للدلالة على التحقق (سرادقها) أى فسطاطها شبه به ما يحيط بهم من النار. وقيل السرادق الحجرة التى تكون حول الفسطاط وقيل سرادقها دخانها وقيل حائط من نار (وإن يستغيثوا) من العطش (يغاثوا بماء كالمهل) كالحديد المذاب وقيل كدردى الزيت وهو على طريقة قوله فأعتبوا بالصيلم (يشوى الوجوه) اذا قدم ليشرب انشوى الوجه لحرارته عن النبى عليه الصلاة والسلام هو كعكر الزيت فاذا قرب اليه سقطت فروة وجهه (بئس الشراب) ذلك (وساءت) النار (مرتفقا) متكأ وأصل الارتفاق نصب المرفق تحت الخد وأنى ذلك فى النار وانما هو بمقابلة قوله تعالى حسنت مرتفقا (إن الذين آمنوا) فى محل التعليل للحث على

الايمان المفهم من التخيير كانه قيل وللذين آمنوا ولعل تغيير سبكه للايذان بكمال تنافى مآلى الفريقين أى ان الذين آمنوا بالحق الذى أوحى اليك (وعملوا الصالحات) حسبما بين فى تضاعيفه (انا لانضيع أجر من أحسن عملا) خبران الأولى هى الثانية مع ما فى حيزها والراجع محذوف أى من أحسن منهم عملا أو مستغنى عنه كما فى قولك نعم الرجل زيد أو واقع موقعه الظاهر فان من أحسن عملا فى الحقيقة هو الذى آمن وعمل الصالحات (أولئك) المنعوتون بالنعوت الجليلة (لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الانهار) استئناف لبيان الاجر أو هو الخبر وما بينهما اعتراض أو هو خبر بعد خبر (يحلون فيها من أساور من ذهب) من الاولى ابتدائيه والثانية بيانية صفة لاساور والتنكير للتفخيم وهو جمع اسورة أو اسوار جمع سوار (ويلبسون ثيابا خضرا) خصت الخضرة بثيابهم لأنها أحسن الالوان وأكثرها طراوة (من سندس واستبرق) أى مما رق من الديباج وما غلظ جمع بين النوعين للدلالة على أن فيها ما تشتهى الانفس وتلذ الاعين (متكئين فيها على الأرائك) على السرر على ما هو شأن المتنعمين (نعم الثواب) ذلك (وحسنت) أى الأرائك (مرتفقا) أى متكأ (واضرب لهم) أى للفريقين الكافر والمؤمن (مثلا رجلين) مفعولان لاضرب أولهما ثانيهما لانه المحتاج الى التفصيل والبيان أى اضرب للكافرين والمؤمنين لا من حيث أحوالهما المستفادة مما ذكر آنفا من أن للاولين فى الآخرة كذا وللآخرين كذا بل من حيث عصيان الاولين مع تقلبهم فى نعم الله تعالى وطاعة الآخرين مع مكابدتهم مشاق الفقر مثلا حال رجلين مقدرين أو محققين هما اخوان من بنى اسرائيل أو شريكان كافر اسمه قطروس ومؤمن اسمه يهوذا اقتسما ثمانية آلاف دينار فاشترى الكافر بنصيبه ضياعا وعقارا وصرف المؤمن نصيبه الى وجوه المبار فآل أمرهما الى ما حكاه الله تعالى. وقيل هما اخوان من بنى مخزوم كافر هو الاسود بن عبد الاسد ومسلم هو أبو سلمة عبد الله بن عبد الاسد زوج أم سلمة رضى الله عنها أولا (جعلنا لاحدهما) وهو الكافر (جنتين) بستانين (من أعناب) من كروم متنوعة والجملة بتمامها بيان للتمثيل أو صفة لرجلين (وحففناهما بنخل) أى جعلنا النخل محيطة بهما مؤزرا بها كرومهما يقال حفه القوم اذا أطافوا به وحففته بهم جعلتهم حافين حوله فيزيده الباء مفعولا آخر كقولك غشيته به (وجعلنا بينهما) وسطهما (زرعا) ليكون كل منهما جامعا للاقوات والفواكه متواصل العمارة على الهيئة الرائقة والوضع الانيق (كلتا الجنتين آتت أكلها) ثمرها وبلغت مبلغا صالحا للاكل وقرئ بسكون الكاف

وقرىء كل الجنتين آتى آكله (ولم تظلم منه) لم تنقص من أكلها (شيئا) كما يعهد ذلك فى سائر البساتين فان الثمار غالبا تكثر فى عام وتقل فى آخر وكذا بعض الاشجار يأتى بالثمر فى بعض الاعوام دون بعض (وفجرنا خلالهما) فيما بين كل من الجنتين (نهرا) على حدة ليدوم شربهما ويزيد بهاؤهما . وقرىء بالتخفيف ولعل تأخير ذكر تفجير النهر عن ذكر إيتاء الاكل مع ان الترتيب الخارجى على العكس للايذان باستقلال كل من إيتاء الاكل وتفجير النهر فى تكميل محاسن الجنتين كما فى قصة البقرة ونحوها ولو عكس لانفهم أن المجموع خصلة واحدة بعضها مترتب على بعض فان إيتاء الاكل متفرع على السقى عادة . وفيه ايماء الى أن ايتاء الاكل لايتوقف على السقى كقوله تعالى «يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار» (وكان له) لصاحب الجنتين (ثمر) أنواع من المال غير الجنتين من ثمر ماله اذا كثره قال ابن عباس رضى الله عنهما هو جميع المال من الذهب والفضة والحيوان وغير ذلك وقال مجاهد هو الذهب والفضة خاصة (فقال لصاحبه) المؤمن (وهو) أى القائل (يحاوره) أى صاحبه المؤمن وان جاز العكس أى يراجعه فى الكلام من حار اذا رجع (أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا) حشما وأعوانا أو أولادا ذكورا لانهم الذين ينفرون معه (ودخل جنته) التى شرحت أحوالها وعددها وصفاتها وهيآتها . وتوحيدها اما لعدم تعلق الغرض بتعددها وإما لاتصال احداهما بالاخرى وإما لان الدخول يكون فى واحدة فواحدة (وهو ظالم لنفسه) ضار لها بعجبه وكفره (قال) استئناف مبنى على سؤال نشأ من ذكر دخول جنته حال ظلمه لنفسه كأنه قيل فماذا قال اذ ذاك فقيل قال (ما أظن أن تبيد هذه) الجنة أى تفنى (أبدا) لطول أمله وتمادى غفلته واغتراره بمهلته ولعله انما قاله بمقابلة موعظة صاحبه وتذكيره بفناء جنتيه ونهيه عن الاغترار بهما وأمره بتحصيل الباقيات الصالحات (وما أظن الساعة قائمة) كائنة فيما سيأتى (ولئن رددت) بالبعث عند قيامها كما تقول (الى ربى لأجدن) يومئذ (خيرا منها) أى من هذه الجنة وقرىء منهما أى من الجنتين (منقلبا) مرجعا وعاقبة ومدار هذا الطمع واليمين الفاجرة اعتقاد انه تعالى انما أولاه ما أولاه فى الدنيا لاستحقاقه الذاتى وكرامته عليه سبحانه ولم يدر أن ذلك استدراج (قال له صاحبه) استئناف كما سبق (وهو يحاوره) جملة حالية كما مر فائدتها التنبيه من أول الامر على أن مايتلوه كلام معتنى بشأنه مسوق للمحاورة (أكفرت) حيث قلت ما أظن الساعة قائمة (بالذى خلقك) فى ضمن خلق أصلك (من تراب) فان خلق آدم عليه السلام منه متضمن لخلقه منه لما أن خلق كل فرد

من أفراد البشر له حظ من خلقه عليه السلام اذ لم تكن فطرته الشريفة مقصورة على نفسه بل كانت أنموذجا منطويا على فطرة سائر أفراد الجنس انطواء اجماليا مستتبعا لجريان آثارها على الكل فكان خلقه عليه السلام من التراب خلقا للكل منه . وقيل خلقك منه لانه أصل مادتك اذ به يحصل الغذاء الذي منه تحصل النطفة فتدبر (ثم من نطفة) هي مادتك القريبة فالمخلوق واحد والمبدأ متعدد (ثم سواك رجلا) أي عدلك وكملك انسانا ذكرا أو صيرك رجلا . والتعبير عنه تعالى بالموصول للاشعار بعلية مافي حيز الصلة لانكار الكفر والتلويح بدليل البعث الذي نطق به قوله عز من قائل «يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب» الخ (لكنا هو الله ربي) أصله لكن أنا وقد قرىء كذلك فحذفت الهمزة فتلاقت النونان فكان الادغام وهو ضمير الشأن وهو مبتدأ خبره الله ربي وتلك الجملة خبر انا والعائد منها اليه الضمير . وقرىء باثبات ألف انا في الوصل والوقف جميعا وفي الوقف خاصة . وقرىء لكنه بالهاء ولكن بطرح انا ولكن انا لا اله الا هو ربي ومدار الاستدراك قوله تعالى أكفرت كأنه قال أنت كافر لكني مؤمن موحد (ولا أشرك بربي أحدا) فيه إيذان بان كفره كان بطريق الاشراك (ولولا اذ دخلت جنتك قلت) أي هلا قلت عند ما دخلتها . وتقديم الظرف على المحضض عليه للايذان بتحتم القول في آن الدخول من غير ريث لا للقصر (ماشاء الله) أي الامر ما شاء الله أو ماشاء الله كائن على أن ما موصولة مرفوعة المحل أو أي شيء شاء الله كان على انها شرطية منصوبة والجواب محذوف والمراد تحضيضه على الاعتراف بانها وما فيها بمشيئة الله تعالى ان شاء أبقاها وان شاء أفناها (لا قوة الا بالله) أي هلا قلت ذلك اعترافا بعجزك وبان ما تيسر لك من عمارتها وتدبير أمرها انما هو بمعونته تعالى واقداره عن النبي صلى الله عليه وسلم «من رأى شيئا فأعجبه فقال ماشاء الله لا قوة الا بالله لم يضره» (ان ترن أنا أقل منك مالا وولدا) أنا اما مؤكد لياء المتكلم أو ضمير فصل بين مفعولي الرؤية ان جعلت علمية وأقل ثانيهما وحال ان جعلت بصرية فيكون انا حينئذ تأكيدا لاغير لان شرط كونه ضمير فصل توسطه بين المبتدا والخبر أو ما أصله المبتدا أو الخبر . وقرىء أقل بالرفع خبر لانا والجملة مفعول ثان للرؤية أو حال وفي قوله تعالى وولدا نصرة لمن فسر النفر بالولد (فعسى ربي أن يؤتين خيرا من جنتك) هو جواب الشرط والمعنى ان ترن أفقر منك فانا أتوقع من صنع الله سبحانه أن يقلب ما بي وما بك من الفقر والغنى فيرزقني لايماني جنة خيرا من

جنتك و يسلبك لكفرك نعمته ويخرب جنتك (ويرسل عليها حسبانا) هو مصدر بمعنى الحساب كالبطلان والغفران أي مقدارا قدره الله تعالى وحسبه وهو الحكم بتخريبها وقيل عذاب حسبان وهو حساب ما كسبت يداه وقيل مرامي جمع حسبانة وهي الصواعق ومساعدة النظم الكريم فيما سيأتي للاولين أكثر (من السماء فتصبح صعيدا زلقا) مصدر أريد به المفعول مبالغة أي أرضا ملساء يزلق عليها لاستئصال ما عليها من البناء والشجر والنبات (أو يصبح) عطف على قوله تعالى فتصبح وعلى الوجه الثالث على يرسل (ماؤها غورا) أي غائرا في الارض أطلق عليه المصدر مبالغة (فلن تستطيع) أبدا (له) أي للماء الغائر (طلبا) فضلا عن وجدانه ورده (وأحيط بثمره) أهلك أمواله المعهودة من جنتيه وما فيهما واصله من احاطة العدو وهو عطف على مقدر كأنه قيل فوقع بعض ما توقع من المحذور وأهلك أمواله وانما حذف لدلالة السباق والسياق عليه كما في المعطوف عليه بالفاء الفصيحة (فأصبح يقلب كفيه) ظهرا لبطن وهو كناية عن التدم كانه قيل فأصبح يندم (على ما أنفق فيها) أي في عمارتها من المال ولعل تخصيص الندم به دون ما هلك الآن من الجنة لما انه انما يكون على الافعال الاختيارية ولان ما أنفق في عمارتها كان مما يمكن صيانته عن طوارق الحدثان وقد صرفه الى مصالحها رجاء أن يتمتع بها أكثر مما يتمتع به وكان يرى انه لا تنالها أيدي الردى ولذلك قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا فلما ظهر له انها مما يعتريه الهلاك ندم على ما صنع بناء على الزعم الفاسد من انفاق ما يمكن ادخاره في مثل هذا الشيء السريع الزوال (وهي) أي الجنة من الاعناب المحفوفة بنخل (خاوية) ساقطة (على عروشها) أي دعائمها المصنوعة للكروم لسقوطها قبل سقوطها وتخصيص حالها بالذكر دون النخل والزرع إما لانها العمدة وهما من متمماتها واما لان ذكر هلاكها مغن عن ذكر هلاك الباقي لانها حيث هلكت وهي مشيدة بعروشها فهلاك ما عداها بالطريق الاولى واما لان الانفاق في عمارتها أكثر وقيل أرسل الله تعالى عليها نارا فاحرقتها وغار ماؤها (ويقول) عطف على يقلب أو حال من ضميره أي وهو يقول (ياليتني لم أشرك بربي أحدا) كانه تذكر موعظة أخيه وعلم أنه إنما أتى من قبل شركه فتمنى لولم يكن مشركا فلم يصبه ما أصابه قيل ويحتمل أن يكون ذلك توبة من الشرك وندما على مافرط منه (ولم تكن له) وقرىء بالياء التحتانية (فئة ينصرونه) يقدرون على نصره بدفع الاهلاك أو على رد المهلك أو الاتيان بمثله وجمع الضمير باعتبار المعنى كما في قوله عزوعلا «يرونهم مثليهم» (من دون الله)

فانه القادر على ذلك وحده (وما كان) فى نفسه (منتصرا) ممتنعا بقوته عن انتقامه سبحانه (هنالك) فى ذلك المقام وفى تلك الحال (الولاية لله الحق) أى النصرة له وحده لا يقدر عليها أحد فهو تقرير لما قبله أو ينصر فيها أولياءه المؤمنين على الكفرة كما نصر بما فعل بالكافر أخاه المؤمن ويعضده قوله تعالى (هو خير ثوابا وخير عقبا) أى لأوليائه وقرىء الولاية بكسر الواو ومعناها الملك والسلطان أى هنالك السلطان له عز وجل لا يغلب ولا يمتنع منه أو لا يعبد غيره كقوله تعالى «واذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين» فيكون تنبيها على أن قوله «ياليتنى لم أشرك» الخ كان عن اضطرار وجزع عما دهاه على أسلوب قوله تعالى «آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين» وقيل هنالك إشارة الى الآخرة كقوله تعالى «لمن الملك اليوم لله الواحد القهار» وقرىء برفع الحق على أنه صفة للولاية وبنصبه على أنه مصدر مؤكد. وقرىء عقبا بضم القاف وعقبى كرجعى والكل بمعنى العاقبة (واضرب لهم مثل الحيوة الدنيا) أى واذكر لهم ما يشبهها فى زهرتها ونضارتها وسرعة زوالها لئلا يطمئنوا بها ولا يعكفوا عليها ولا يضربوا عن الآخرة صفحا بالمرة أو بين لهم صفتها العجيبة التى هى فى الغرابة كالمثل (كماء) استئناف لبيان المثل أى هى كماء (أنزلناه من السماء) ويجوز كونه مفعولا ثانيا لاضرب على أنه بمعنى صير (فاختلط به) اشتبك بسببه (نبات الارض) فالتف وخالط بعضه بعضا من كثرته وتكاثفه أو نجع الماء فى النبات حتى روى ورف فمقتضى الظاهر حينئذ فاختلط بنبات الارض. وإيثار ما عليه النظم الكريم عليه للمبالغة فى الكثرة فان كلا من المختلطين موصوف بصفة صاحبه (فأصبح) ذلك النبات المتلف أثر بهجتها ورفيفها (هشيما) مهشوما مكسورا (تذروه الرياح) تفرقه وقرىء تذريه من أذراه وتذروه الريح وليس المشبه به نفس الماء بل هو الهيئة المنتزعة من الجملة وهى حال النبات المنبت بالماء يكون أخضر وارفا ثم هشيما تطيره الرياح كأن لم يغن بالامس (وكان الله على كل شىء) من الاشياء التى من جملتها الانشاء والافناء (مقتدرا) قادرا على الكمال (المال والبنون زينة الحيوة الدنيا) بيان لشأن ما كانوا يفتخرون به من محسنات الحياة الدنيا كما قال الاخ الكافر أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا إثر بيان شأن نفسها بما مر من المثل. وتقديم المال على البنين مع كونهم أعز منه كما فى الآية المحكية آنفا وقوله تعالى «وأمددنا كم بأموال وبنين» وغير ذلك من الآيات الكريمة لعراقته فيما نيط به من الزينة والامداد وغير ذلك وعمومه بالنسبة الى الافراد والاوقات فانه زينة ومدد لكل أحد من الآباء والبنين فى كل وقت وحين وأما البنون فزينتهم وإمدادهم انما يكون بالنسبة الى من بلغ مبلغ الأبوة ولان المال مناط لبقاء النفس والبنين لبقاء النوع ولان الحاجة

اليه أمس من الحاجة اليهم ولانه أقدم منهم فى الوجود ولانه زينة بدونهم من غير عكس فان من له بنون بلا مال فهو فى ضيق حال ونكال . وافراد الزينة مع أنها مسندة الى الاثنين لما أنها مصدر فى الاصل أطلق على المفعول مبالغة كانهما نفس الزينة والمعنى أن ما يفتخرون به من المال والبنين شىء يتزين به فى الحياة الدنيا وقد علم شأنها فى سرعة الزوال وقرب الاضمحلال فكيف بما هو من أوصافها التي شأنها أن تزول قبل زوالها (والباقيات الصالحات) هى أعمال الخير وقيل هى الصلوات الخمس وقيل سبحان الله والحمد لله ولا إله الا الله والله أكبر . وقيل كل ما أريد به وجه الله تعالى وعلى كل تقدير يدخل فيه أعمال فقراء المؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه دخولا أوليا . أما صلاحها فظاهر وأما بقاؤها فبقاء عوائدها عند فناء كل ما تطمح اليه النفس من حظوظ الدنيا (خير) أى مما نعت شأنه من المال والبنين واخراج بقاء تلك الاعمال وصلاحها مخرج الصفات المفروغ عنها مع أن حقهما أن يكونا مقصودى الافادة لا سيما فى مقابلة إثبات الفناء لما يقابلها من المال والبنين على طريقة قوله تعالى «ما عندكم ينفد وما عند الله باق» للايذان بان بقاءها أمر محقق لا حاجة الى بيانه بل لفظ الباقيات اسم لها لا وصف ولذلك لم يذكر الموصوف وانما الذى يحتاج الى التعرض له خيريتها (عند ربك) أى فى الآخرة وهو بيان لما يظهر فيه آثار خيريتها بمنزلة إضافة الزينة الى الحياة الدنيا لا لافضليتها فيها من المال والبنين مع مشاركة الكل فى الاصل اذ لا مشاركة لهما فى الخيرية فى الآخرة (ثوابا) عائدة تعود الى صاحبها (وخير أملا) حيث ينال بها صاحبها فى الآخرة كل ما كان يؤمله فى الدنيا وأما ما مر من المال والبنين فليس لصاحبه أمل يناله . وتكرير خير للاشعار باختلاف حيثيتى الخيرية والمبالغة فيها (ويوم نسير الجبال) منصوب بمضمر أى اذكر حين نقلعها من أماكنها ونسيرها فى الجو على هيآتها كما ينبىء عنه قوله تعالى «وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب» أو نسير أجزاءها بعد أن نجعلها هباء منبثا . والمراد بتذكيره تحذير المشركين مما فيه من الدواهى . وقيل هو معطوف على ماقبله من قوله تعالى عند ربك أى الباقيات الصالحات خير عند الله ويوم القيامة . وقرىء تسير على صيغة البناء للمفعول من التفعيل جريا على سنن الكبرياء وايذانا بالاستغناء عن الاسناد الى الفاعل لتعينه . وقرىء تسير (وترى الأرض) أى جميع جوانبها والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن يتأتى منه الرؤية . وقرىء ترى على صيغة البناء للمفعول (بارزة) أما بروزها تحت الجبال فظاهر وأما ماعداه فكانت الجبال تحول بينه وبين

الناظر قبل ذلك فالآن أضحى قاعاصفصفالا ترى فيها عوجاولا أمتاوحشرناهم جمعناهم إلى الموقف من كل أوب. وإيثار صيغة الماضي بعد نسير وترى للدلالة على تحقق الحشر المتفرع على البعث الذى ينكره المنكرون وعليه يدور أمر الجزاء وكذا الكلام فيما عطف عليه منفياً وموجباً وقيل هو للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير والبروز ليعاينوا تلك الأهوال كأنه قيل وحشرناهم قبل ذلك (فلم نغادر) أى لم نترك (منهم أحدا) يقال غادره وأغدره إذا تركه ومنه الغدر الذى هو ترك الوفاء والغدير الذى هو ماء يتركه السيل فى الأرض الغائرة. وقرىء بالياء وبالفوقانية على اسناد الفعل الى ضمير الأرض كما فى قوله تعالى «وألقت مافيها وتخلت» (وعرضوا على ربك) شبهت حالهم بحال جند عرضوا على السلطان ليأمر فيهم بما يأمر. وفى الالتفات الى الغيبة وبناء الفعل للمفعول مع التعرض لعنوان الربوبية والاضافة الى ضميره عليه السلام من تربية المهابة والجرى على سنن الكبرياء واظهار اللطف به عليه السلام مالا يخفى (صفا) أى غير متفرقين ولا مختلطين فلا تعرض فيه لوحدة الصف وتعدده وقد ورد فى الحديث الصحيح «يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد صفوفا» (لقد جئتمونا) على إضمار القول على وجه يكون حالا من ضمير عرضوا أي مقولا لهم أو وقلنا لهم وأما كونه عاملا فى يوم نسير كما قيل فبعيد من جزالة التنزيل الجليل كيف لا ويلزم منه أن هذا القول هو المقصود بالاصالة دون سائر القوارع مع انه خاص التعلق بما قبله من العرض والحشر دون تسيير الجبال وبروز الأرض (كما خلقناكم) نعت لمصدر مقدر أى مجيئاً كائناً كمجيئكم عند خلقنا لكم (أول مرة) أو حال من ضمير جئتمونا أى كائنين كما خلقناكم أول مرة حفاة عراة غرلا أو مامعكم شىء مما تفتخرون به من الأموال والأنصار كقوله تعالى «ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ماخولناكم وراء ظهوركم» (بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا) اضراب وانتقال من كلام الى كلام كلاهما للتوبيخ والتقريع أى زعمتم فى الدنيا أنه لن نجعل لكم أبداً وقتاً ننجز فيه ماوعدناه من البعث وما يتبعه وأن مخففة من المثقلة فصل بحرف النفى بينها وبين خبرها لكونه جملة فعلية متصرفة غير دعاء. والظرف إما مفعول ثان للجعل وهو بمعنى التصيير والأول هو موعداً أو حال من موعداً وهو بمعنى الخلق والابداع (ووضع الكتاب) عطف على عرضوا داخل تحت الأمور الهائلة التى أريد تذكيرها بتذكير وقتها وأورد فيه ما أورد فى أمثاله من صيغة الماضى دلالة على التقرر أيضاً أى وضع صحائف الأعمال وإيثار الأفراد للاكتفاء بالجنس والمراد بوضعها إما وضعها فى أيدى أصحابها يميناً

وشمالا وإما في الميزان (فترى المجرمين) قاطبة فيدخل فيهم الكفرة المذكورون دخولا أوليا (مشفقين) خائفين (مما فيه) من الجرائم والذنوب (ويقولون) عند وقوفهم على ما في تضاعيفه نقيرا أو قطميرا (يا ويلتنا) منادين لهلكتهم التي هلكوها من بين الهلكات مستدعين لها ليهلكوا ولا يروا أهوال ما لاقوه أي يا ويلتنا احضري فهذا أوان حضورك (مال هذا الكتاب) أي شيء له وقوله تعالى (لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) أي حواها وضبطها جملة حالية محققة لما في الجملة الاستفهامية من التعجب أو استئنافية مبنية على سؤال نشأ من التعجب كأنه قيل ما شأنه حتى يتعجب منه فقيل لا يغادر سيئة صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها (ووجدوا ما عملوا) في الدنيا من السيئات أو جزاء ما عملوا (حاضرا) مسطورا عتيدا (ولا يظلم ربك أحدا) فيكتب ما لم يعمل من السيئات أو يزيد في عقابه المستحق فيكون إظهارا لمعدلة القلم الأزلي (وإذ قلنا للملائكة) أي اذكر وقت قولنا لهم (اسجدوا لآدم) سجود تحية وتكريم وقد مر تفصيله (فسجدوا) جميعا امتثالا بالأمر (إلا إبليس) فإنه لم يسجد بل أبى واستكبر وقوله تعالى (كان من الجن) كلام مستأنف سيق مساق التعليل لما يفيده استثناء اللعين من الساجدين كأنه قيل ماله لم يسجد فقيل كان أصله جنيا (ففسق عن أمر ربه) أي خرج عن طاعته كما ينبئ عنه الفاء أو صار فاسقا كافرا بسبب أمر الله تعالى إذ لولاه لما أبى والتعرض لوصف الربوبية المنافية للفسق لبيان كمال قبح ما فعله والمراد بتذكير قصته تشديد النكير على المتكبرين المفتخرين بأنسابهم وأموالهم المستنكفين عن الانتظام في سلك فقراء المؤمنين ببيان أنهم في ذلك تابعون لتسويله كما ينبئ عنه قوله تعالى (أفتتخذونه) الخ فإن الهمزة للإنكار والتعجيب والفاء للتعقيب أي أعقيب علمكم بصدور تلك القبائح عنه تتخذونه (وذريته) أي أولاده وأتباعه جعلوا ذريته مجازا قال قتادة يتوالدون كما يتوالد بنو آدم وقيل يدخل ذنبه في دبره فيبيض فتنفلق البيضة عن جماعة من الشياطين (أولياء من دوني) فتستبدلونهم بي فتطيعونهم بدل طاعتي (وهم) أي والحال أن إبليس وذريته (لكم عدو) أي أعداء كما في قوله تعالى فإنهم عدو لي إلا رب العالمين وقوله تعالى هم العدو وإنما فعل به ذلك تشبيها له بالمصادر نحو القبول والولوع وتقييد الاتخاذ بالجملة الحالية لتأكيد الإنكار وتشديده فإن مضمونها مانع من وقوع الاتخاذ ومناف له قطعا (بئس للظالمين) أي الواضعين للشيء في غير موضعه (بدلا) من الله سبحانه إبليس وذريته وفي الالتفات إلى الغيبة مع وضع الظالمين موضع الضمير من الإيذان بكمال السخط

والاشارة الى أن مافعلوه ظلم قبيح مالا يخفى (ما أشهدتهم) استئناف مسوق لبيان عدم استحقاقهم للاتخاذ المذكور فى أنفسهم بعد بيان الصوارف عن ذلك من خباثة المحتد والفسق والعداوة أى ما أحضرت ابليس وذريته (خلق السموات والأرض) حيث خلقتهما قبل خلقهم (ولا خلق أنفسهم) أى ولا أشهدت بعضهم خلق بعض كقوله تعالى «ولا تقتلوا أنفسكم» هذا ما أجمع عليه الجمهور حذاراً من تفكيك الضميرين ومحافظة على ظاهر لفظ الانفس ولك أن ترجع الضمير الثانى الى الظالمين وتلتزم التفكيك بناء على قود المعنى اليه فان نفى اشهاد الشياطين خلق الذين يتولونهم هو الذى يدور عليه انكار اتخاذهم أولياء بناء على أن أدنى ما يصحح التولى حضور الولى خلق المتولى وحيث لا حضور لا مصحح للتولى قطعاً . وأما نفى اشهاد بعض الشياطين خلق بعض منهم فليس من مدارية الانكار المذكور فى شئ على أن اشهاد بعضهم خلق بعض ان كان مصححا لتولى الشاهد بناء على دلالته على كماله باعتبار أن له مدخلا فى خلق المشهود فى الجملة فهو مخل بتولى المشهود بناء على قصوره عن شهد خلقه فلا يكون نفى الاشهاد المذكور متمحضا فى نفى الكمال المصحح للتولى عن الكل وهو المناط للانكار المذكور (وما كنت متخذ المضلين) أى متخذهم وانما وضع موضعه المظهر ذماً لهم وتسجيلا عليهم بالاضلال وتأكيدا لما سبق من انكار اتخاذهم أولياء (عضدا) أعوانا فى شأن الخلق أو فى شأن من شؤونى حتى يتوهم شركتهم فى التولى بناء على الشركة فى بعض أحكام الربوبية . وفيه تهكم بهم وايذان بكمال ركاكة عقولهم وسخافة آرائهم حيث لا يفهمون هذا الامر الجلى الذى لا يكاد يشتبه على البله والصبيان فيحتاجون الى التصريح به . وايثار نفى الاشهاد على نفى شهودهم ونفى اتخاذهم اعوانا على نفى كونهم كذلك للاشعار بأنهم مقهورون تحت قدرته تعالى تابعون لمشيئته وارادته فيهم وأنهم بمعزل من استحقاق الشهود والمعونة من تلقاء أنفسهم من غير احضار واتخاذ وانما قصارى ما يتوهم فى شأنهم ان يبلغوا ذلك المبلغ بامر الله عز وجل ولم يكد ذلك يكون وقيل الضمير للمشركين والمعنى ما أشهدتهم خلق ذلك وما أطلعتهم على اسرار التكوين وما خصصتهم بفضائل لا يحويها غيرهم حتى يكونوا قدوة للناس فيؤمنوا بايمانهم كما يزعمون فلا يلتفت الى قولهم طمعا فى نصرتهم للدين فانه لا ينبغى لى أن أعتضد بالمضلين ويعضده القراءة بفتح التاء خطابا لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمعنى ماصح لك الاعتضاد بهم . ووصفهم بالاضلال لتعليل نفى الاتخاذ وقرئ متخذا المضلين على الاصل وقرئ عضدا بضم العين وسكون الضاد وبفتح وسكون بالتخفيف

و بضمتين بالاتباع و بفتحتين على أنه جمع عاضد كرصد وراصد (و يوم يقول) أى الله عز وجل للكافرين توبيخا و تعجيزا وقرىء بنون العظمة (نادوا شركائى الذين زعمتم) أنهم شفعاؤكم ليشفعوا لكم والمراد بهم كل ما عبد من دونه تعالى وقيل ابليس وذريته (فدعوهم) أى نادوهم للاغاثة وفيه بيان لكمال اعتنائهم باعانتهم على طريقة الشفاعة اذ معلوم أن لا طريق الى المدافعة (فلم يستجيبوا لهم) فلم يغيثوهم اذ لا امكان لذلك وفى ايراده مع ظهوره تهكم بهم وايذان بأنهم فى الحماقة بحيث لا يفهمونه الا بالتصريح به (وجعلنا بينهم) بين الداعين والمدعوين (موبقا) اسم مكان أو مصدر من وبق وبوقا كوثب وثوبا أو وبق وبقا كفرح فرحا اذا هلك أى مهلكا يشتركون فيه وهو النار أو عداوة هى فى الشدة نفس الهلاك كقول عمر رضى الله عنه لا يكن حبك كلفا ولا بغضك تلفا وقيل البين الوصل أى وجعلنا تواصلهم فى الدنيا هلاكا فى الآخرة ويجوز أن يكون المراد بالشركاء الملائكة وعزيرا وعيسى عليهم السلام ومريم وبالموبق البرزخ البعيد أى جعلنا بينهم أمدا بعيدا يهلك فيه الاشواط لفرط بعده لانهم فى قعر جهنم وهم فى أعلى الجنان (ورأى المجرمون النار) وضع المظهر مقام المضمر تصريحا باجرامهم وذمالهم بذلك (فظنوا) أى فايقنوا (انهم مواقعوها) مخالطوها واقعون فيها أو ظنوا اذ رأوها من مكان بعيد أنهم مواقعوها الساعة (ولم يجدوا عنها مصرفا) انصرافا أو معدلا ينصرفون اليه (ولقد صرفنا) أى كررنا وأوردنا على وجوه كثيرة من النظم (فى هذا القرآن للناس) لمصلحتهم ومنفعتهم (من كل مثل) من جملته ما مر من مثل الرجلين ومثل الحياة الدنيا أو من كل نوع من أنواع المعانى البديعة الداعية الى الايمان التى هى فى الغرابة والحسن واستجلاب النفس كالمثل ليتلقوه بالقبول فلم يفعلوا (وكان الانسان) بحسب جبلته (أكثر شىء جدلا) أى أكثر الاشياء التى يتأتى منها الجدل وهو ههنا شدة الخصومة بالباطل والمماراة من الجدل الذى هو الفتل والمجادلة الملاواة لان كلا من المجادلين يلتوى على صاحبه وانتصابه على التميز والمعنى ان جدله أكثر من جدل كل مجادل (وما منع الناس) أى أهل مكة الذين حكيت أباطيلهم (أن يؤمنوا) من أن يؤمنوا بالله تعالى ويتركوا ما هم فيه من الاشراك (اذ جاءهم الهدى) أى القرآن العظيم الهادى الى الايمان بما فيه من فنون المعانى الموجبة له (ويستغفروا ربهم) عما فرط منهم من أنواع الذنوب التى من جملتها مجادلتهم للحق بالباطل (الا أن تأتيهم سنة الاولين) أى الا طلب إتيان سنتهم أو الا انتظار اتيانها أو الا تقديره فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه وسنتهم

الاستئصال (أو يأتيهم العذاب) أي عذاب الآخرة (قبلا) أي أنواعا جمع قبيل أو عيانا كما في قراءة قبلا بكسر القاف وفتح الباء وقرىء بفتحتين أي مستقبلا يقال لقيته قبلا وقبلا وقبلا وانتصابه على الحالية من الضمير أو العذاب والمعنى ان ما تضمنه القرآن الكريم من الامور المستوجبة للايمان بحيث لو لم يكن مثل هذه الحكمة القوية لما امتنع الناس من الايمان وان كانوا مجبولين على الجدل المفرط (وما نرسل المرسلين) الى الامم ملتبسين بحال من الاحوال (الا) حال كونهم (مبشرين) للمؤمنين بالثواب (ومنذرين) للكفرة والعصاة بالعقاب (ويجادل الذين كفروا بالباطل) باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات والسؤال عن قصة أصحاب الكهف ونحوها تعنتا (ليدحضوا به) أي بالجدال (الحق) أي يزيلوه عن مركزه ويبطلوه من ادحاض القدم وهو ازلاقها وهو قولهم للرسل عليهم الصلاة والسلام ما أنتم الا بشر مثلنا ولو شاء الله لأنزل ملائكة ونحوهما (واتخذوا آياتي) التي تخر لها صم الجبال (وما أنذروا) أي أنذروه من القوارع الناعية عليهم العقاب والعذاب أو انذارهم (هزوا) استهزاء وقرىء بسكون الزاي وهو ما يستهزأ به (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه) وهو القرآن العظيم (فأعرض عنها) ولم يتدبرها ولم يتذكر بها وهذا السبك وان كان مدلوله الوضعي نفي الاظلمية من غير تعرض لنفي المساواة في الظلم الا أن مفهومه العرفي أنه أظلم من كل ظالم وبناء الاظلمية على ما في حيز الصلة من الاعراض عن القرآن للاشعار بان ظلم من يجادل فيه ويتخذه هزوا خارج عن الحد (ونسي ما قدمت يداه) أي عمله من الكفر والمعاصي التي من جملتها ما ذكر من المجادلة بالباطل والاستهزاء بالحق ولم يتفكر في عاقبتها (انا جعلنا على قلوبهم أكنة) أغطية كثيرة جمع كنان وهو تعليل لاعراضهم ونسيانهم بأنهم مطبوع على قلوبهم (أن يفقهوه) مفعول لما دل عليه الكلام أي منعناهم أن يقفوا على كنهه أو مفعول له أي كراهة أن يفقهوه (وفي آذانهم) أي جعلنا فيها (وقرا) ثقلا يمنعهم من استماعه (وان تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا) أي فلن يكون منهم اهتداء ألبتة مدة التكليف واذن جزاء للشرط وجواب عن سؤال النبي عليه الصلاة والسلام المدلول عليه بكمال عنايته باسلامهم كأنه قال عليه الصلاة والسلام مالي لا أدعوهم فقيل ان تدعهم الخ . وجمع الضمير الراجع الى الموصول في هذه المواضع الخمسة باعتبار معناه كما أن افراده في المواضع الخمسة المتقدمة باعتبار لفظه (وربك) مبتدأ وقوله تعالى (الغفور) خبره وقوله تعالى (ذو الرحمة) أي الموصوف بها خبر بعد خبر وايراد المغفرة على

صيغة المبالغة دون الرحمة للتنبيه على كثرة الذنوب ولان المغفرة ترك المضار وهو سبحانه قادر على ترك مالا يتناهى من العذاب. وأما الرحمة فهي فعل وايجاد ولا يدخل تحت الوجود الا مايتناهى. وتقديم الوصف الاول لأن التخلية قبل التحلية أو لانه أهم بحسب الحال اذ المقام مقام بيان تأخير العقوبة عنهم بعد استيجابهم لها كما يعرب عنه قوله عز وجل (لو يؤاخذهم) أى لو يريد مؤاخذتهم (بما كسبوا) من المعاصى التى من جملتها ما حكى عنهم من مجادلتهم بالباطل ، اعراضهم عن آيات ربهم وعدم المبالاة بما اجترحوا من الموبقات (لعجل لهم العذاب) لاستيجاب أعمالهم لذلك. وايثار المؤاخذة المنبئة عن شدة الاخذ بسرعة على التعذيب والعقوبة ونحوهما للايذان بأن النفى المستفاد من مقدم الشرطية متعلق بوصف السرعة كما ينبيء عنه تاليها. وايثار صيغة الاستقبال وان كان المعنى على المضى لافادة أن انتفاء تعجيل العذاب لهم بسبب استمرار عدم ارادة المؤاخذة فان المضارع الواقع موقع الماضى يفيد استمرار انتفاء الفعل فيما مضى كما حقق فى موضعه (بل لهم موعد) اسم زمان هو يوم بدر أو يوم القيامة والجملة معطوفة على مقدر كأنه قيل لكنهم ليسوا بمؤاخذين بغتة (لن يجدوا) ألبتة (من دونه موئلا) منجى أو ملجأ يقال وأل أى نجا وأل اليه أى لجأ اليه (وتلك القرى) أي قرى عاد وثمود وأضرابها وهي مبتدأ على تقدير المضاف أى وأهل تلك القرى خبره قوله تعالى (أهلكناهم) أو مفعول مضمر مفسر به (لما ظلموا) أى وقت ظلمهم كما فعلت قريش بما حكى عنهم من القبائح. وترك المفعول إما لتعميم الظلم أو لتنزيله منزلة اللازم أى لما فعلوا الظلم. ولما إما حرف كما قال ابن عصفور واما ظرف استعمل للتعليل وليس المراد به الوقت المعين الذي عملوا فيه الظلم بل زمان ممتد من ابتداء الظلم الى آخره (وجعلنا لمهلكهم) أى عينا لهلاكهم (موعدا) أى وقتا معينا لامحيد لهم عن ذلك وهذا استشهاد على مافعل بقريش من تعيين الموعد ليتنبهوا لذلك ولا يغتروا بتأخر العذاب. وقرىء بضم الميم وفتح اللام أى اهلاكهم وبفتحهما (واذ قال موسى) نصب باضمار فعل أى اذكر وقت قوله عليه السلام (لفتاه) وهو يوشع بن نون بن افرايم بن يوسف عليه السلام سمى فتاه إذ كان يخدمه ويتبعه. وقيل كان يتعلم منه و يسمى التلميذ فتى وان كان شيخاً. ولعل المراد بتذكيره عقيب بيان أن لكل أمة موعدا تذكير مافى القصة من موعد الملاقاة مع مافيها من سائر المنافع الجليلة (لاأبرح) من برح الناقص كزال يزال أى لاأزال أسير فحذف الخبر اعتماداً على قرينة الحال اذا كان ذلك عند التوجه الى السفر وانكالا على مايعقبه من قوله (حتى أبلغ) فان ذلك غاية تستدعى ذا غاية يؤدى اليها. ويجوز

أن يكون أصل الكلام لا يبرح مسيري حتى أبلغ فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فانقلب الضمير البارز المجرور المحل مرفوعاً مستكناً والفعل من صيغة الغيبة إلى التكلم. ويجوز أن يكون من برح التام كزال يزول أي لا أفارق ما أنا بصدده حتى أبلغ (مجمع البحرين) هو ملتقى بحر فارس والروم مما يلي المشرق وقيل طنجة وقيل هما الكر والرس بأرمينية وقيل أفريقية وقرئ بكسر الميم كمشرق (أو أمضي حقباً) أسير زماناً طويلاً أتيقن معه فوات المطلب والحقب الدهر أو ثمانون سنة وكان منشأ هذه العزيمة أن موسى عليه السلام لما ظهر على مصر مع بني إسرائيل واستقروا بها بعد هلاك القبط أمره الله عز وجل أن يذكر قومه النعمة فقام فيهم خطيباً بخطبة بديعة رقت بها القلوب وذرفت العيون فقالوا له من أعلم الناس قال أنا فعتب الله تعالى عليه إذ لم يرد العلم إليه عز وجل فأوحى إليه بل أعلم منك عبد لي عند مجمع البحرين وهو الخضر عليه السلام وكان في أيام أفريدون قبل موسى عليه السلام وكان على مقدمة ذي القرنين الأكبر وبقي إلى أيام موسى. وقيل إن موسى عليه السلام سأل ربه أي عبادك أحب إليك قال الذي يذكرني ولا ينساني قال فأي عبادك أقضى قال الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى قال فأي عبادك أعلم قال الذي يبتغي علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تدله على هدى أو ترده عن ردى فقال إن كان في عبادك من هو أعلم مني فدلني عليه قال أعلم منك الخضر قال أين أطلبه قال على ساحل البحر عند الصخرة قال يا رب كيف لي به قال تأخذ حوتاً في مكتل فحيثما فقدته فهو هناك فأخذ حوتاً فجعله في مكتل فقال لفتاه إذا فقدت الحوت فأخبرني فذهبا يمشيان (فلما بلغا) الفاء فصيحة كما أشير إليه (مجمع بينهما) أي مجمع البحرين وبينهما ظرف أضيف إليه اتساعاً أو بمعنى الوصل (نسيا حوتهما) الذي جعل فقدانه أمارة وجدان المطلوب أي نسيا تفقد أمره وما يكون منه. وقيل نسي يوشع أن يقدمه وموسى عليه السلام أن يأمره فيه بشيء روي أنهما لما بلغا مجمع البحرين وفيه الصخرة وعين الحياة التي لا يصيب ماؤها ميتاً إلا حيي وضعا رؤوسهما على الصخرة فناما فلما أصاب الحوت برد الماء وروحه عاش وقد كانا أكلا منه وكان ذلك بعدما استيقظ يوشع عليه السلام وقيل توضأ عليه السلام من تلك العين فانتضح الماء على الحوت فعاش فوقع في الماء (فاتخذ سبيله في البحر سرباً) مسلكاً كالسرب وهو النفق قيل أمسك الله عز وجل جرية الماء على الحوت فصار كالطاق عليه معجزة لموسى أو للخضر عليهما السلام. وانتصاب سرباً على أنه مفعول ثان لاتخذ وفي البحر حال منه

أومن السبيل ويجوز أن يتعلق باتخذ (فلما جاوزا) أى مجمع البحرين الذى جعل موعدا للملاقاة قيل أدلجا وسارا الليلة والغد الى الظهر وألقى على موسى عليه السلام الجوع فعند ذلك (قال لفتاه آتنا غداءنا) أى ما نتغدى به وهو الحوت كما ينبىء عنه الجواب (لقد لقينا من سفرنا هذا) اشارة الى ما سارا بعد مجاوزة الموعد (نصبا) تعبا واعياء قيل لم ينصب ولم يجع قبل ذلك والجملة فى محل التعليل للامر بايتاء الغداء اما باعتبار أن النصب انما يعترى بسبب الضعف الناشىء عن الجوع وإما باعتبار ما فى أثناء التغدى من استراحة ما (قال) أى فتاه عليه السلام (أرأيت اذ أوينا الى الصخرة) أى التجأنا اليها وأقمنا عندها . وذكر الاواء اليهامع أن المذكور فيما سبق مرتين بلوغ مجمع البحرين لزيادة تعيين محل الحادثة فان المجمع محل متسع لا يمكن تحقيق المراد المذكور بنسبة الحادثة اليه ولتمهيد العذر فان الاواء اليها والنوم عندها مما يؤدى الى النسيان عادة . والرؤية مستعارة للمعرفة التامة والمشاهدة الكاملة ومراده بالاستفهام تعجيب موسى عليه السلام مما اعتراه هناك من النسيان مع كون ما شاهده من العظائم التى لا تكاد تنسى وقد جعل فقده انه علامة لوجدان المطلوب وهذا أسلوب معتاد فيما بين الناس يقول أحدهم لصاحبه اذا نابه خطب أرأيت ما نابنى يريد بذلك تهويله وتعجيب صاحبه منه وأنه مما لا يعهد وقوعه لا استخباره عن ذلك كما قيل والمفعول محذوف اعتمادا على ما يدل عليه من قوله عز وجل (فانى نسيت الحوت) وفيه تأكيد للتعجيب وتربية لاستعظام المنسى . وايقاع النسيان على اسم الحوت دون ضمير الغداء مع أنه المأمور بأتيانه للتنبيه من أول الامر على أنه ليس من قبيل نسيان المسافر زاده فى المنزل وان ما شاهده ليس من قبيل الاحوال المتعلقة بالغداء من حيث هو غداء وطعام بل من حيث هو حوت كسائر الحيتان مع زيادة أى نسيت أن أذكر لك أمره وما شاهدت منه من الامور العجيبة (وما أنسانيه إلا الشيطان) بوسوسته الشاغلة عن ذلك وقوله تعالى (أن أذكره) بدل اشتمال من الضمير أى ما أنسانى أن أذكره لك وفى تعليق الانساء بضمير الحوت أولا وبذكره له ثانيا على طريق الابدال المنبىء عن تنحية المبدل منه إشارة الى أن متعلق النسيان أيضا ليس نفس الحوت بل ذكر أمره وقرىء أن أذكره . وايثار أن أذكره على المصدر للمبالغة فان مدلوله نفس الحدث عند وقوعه والحال وان كانت غريبة لا يعهد نسيانها لكنه لما تعود بمشاهدة أمثالها عند موسى عليه السلام وألفها قل اهتمامه بالمحافظة عليها (واتخذ سبيله فى البحر عجبا) بيان لطرف من أمر الحوت منبىء عن طرف آخر منه وما بينهما اعتراض قدم عليه للاعتناء بالاعتذار كانه قيل حيى واضطرب ووقع فى البحر واتخذ سبيله فيه سبيلا عجبا فعجبا ثانى مفعولى اتخذ والظرف

حال من أولهما أو ثانيهما أو هو المفعول الثاني وعجباً صفة مصدر محذوف أي اتخاذاً عجباً وهو كون مسلكه كالطاق والسرب أو مصدر فعل محذوف أي أتعجب منه عجباً وقد قيل انه من كلام موسى عليه الصلاة والسلام وليس بذاك (قال) أي موسى عليه الصلاة والسلام (ذلك) الذي ذكرت من أمر الحوت (ما كنا نبغ) وقرىء باثبات الياء والضمير العائد الى الموصول محذوف أصله نبغيه أي نطلبه لكونه أمارة للفوز بالمرام (فارتدا) أي رجعا (على آثارهما) طريقهما الذي جاءا منه (قصصا) يقصان قصصاً أي يتبعان آثارهما اتباعاً أو مقتصين حتى أتيا الصخرة (فوجدا عبدا من عبادنا) التنكير للتفخيم والاضافة للتشريف والجمهور على أنه الخضر واسمه بليا بن ملكان وقيل اليسع وقيل الياس عليهم الصلاة والسلام (آتيناه رحمة من عندنا) هي الوحي والنبوة كما يشعر به تنكير الرحمة واختصاصها بجناب الكبرياء (وعلمناه من لدنا علما) خاصاً لا يكتنه كنهه ولا يقادر قدره وهو علم الغيوب (قال له موسى) استئناف مبني على سؤال نشأ من السباق كأنه قيل فماذا جرى بينهما من الكلام فقيل قال له موسى (هل أتبعك على أن تعلمن) استئذانا منه في اتباعه له على وجه التعلم (مما علمت رشدا) أي علماً ذا رشد أرشد به في ديني والرشد اصابة الخير وقرىء بفتحتين وهو مفعول تعلمن ومفعول علمت محذوف وكلاهما منقول من علم المتعدي الى مفعول واحد ويجوز كونه علة لأتبعك أو مصدراً باضمار فعله ولا ينافي نبوته وكونه صاحب شريعة أن يتعلم من نبي آخر مالا تعلق له بأحكام شريعته من أسرار العلوم الخفية ولقد راعى في سوق الكلام غاية التواضع معه عليهما السلام (قال) أي الخضر (انك لن تستطيع معي صبرا) نفى عنه استطاعة الصبر معه على وجه التأكيد كأنه مما لا يصح ولا يستقيم وعلله بقوله (وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا) ايذانا بأنه يتولى أمورا خفية المدار منكرة الظواهر والرجل الصالح لاسيما صاحب الشريعة لا يتمالك أن يشمئز عند مشاهدتها . وفي صحيح البخاري قال الخضر ياموسى اني على علم من علم الله تعالى علمنيه لا تعلمه وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه . وخبرا تمييز أي لم يحط به خبرك (قال) موسى عليه الصلاة والسلام (ستجدني ان شاء الله صابرا) معك غير معترض عليك وتوسيط الاستثناء بين مفعولي الوجدان لكمال الاعتناء بالتيمن ولئلا يتوهم تعلقه بالصبر (ولا أعصي لك أمرا) عطف على صابرا أي ستجدني صابرا وغير عاص وفي وعد هذا الوجدان من المبالغة ماليس في الوعد بنفس الصبر وترك العصيان أو على ستجدني فلا محل له من الاعراب والأول هو الأولى لما عرفته ولظهور تعلقه بالاستثناء حينئذ . وفيه دليل على أن أفعال العباد بمشيئة

الشرطية على ما مر من التزام موسى عليه الصلاة والسلام للصبر والطاعة (فلا تسألنى
عن شيء) تشاهده من أفعالى أى لا تفاتحنى بالسؤال عن حكمته فضلا عن
المناقشة والاعتراض (حتى أحدث لك منه ذكرا) أى حتى أبتدئ ببيانه وفيه
ايذان بأن كل ما صدر عنه فله حكمة وغاية حميدة البتة وهذا من أدب المتعلم مع العالم
والتابع مع المتبوع وقرئ فلا تسألنى بالنون المثقلة (فانطلقا) أى موسى والخضر
عليهما الصلاة والسلام على الساحل يطلبان السفينة وأما يوشع فقد صرفه موسى عليه
الصلاة والسلام الى بنى اسرائيل قيل انهما مرا بسفينة فكلما أهلها فعرفوا الخضر
فحملوهما بغير نول (حتى اذا ركبا فى السفينة) استعمال الركوب فى أمثال هذه المواقع
بكلمة فى مع تجريده عنها فى مثل قوله عز وجل لتركبوها وزينة على ما يقتضيه تعديته
بنفسه لما أشرنا اليه بقوله تعالى «وقال اركبوا فيها» لا لما قيل من أن فى ركوبها معنى
الدخول (خرقها) قيل خرقها بعد ما لججوا حيث أخذ فأسا فقلع من ألواحها لوحين
مما يلى المـاء فعند ذلك (قال) موسى عليه السلام (أخرقتها لتغرق أهلها) من الاغراق
وقرئ بالتشديد من التغريق وليغرق أهلها من الثلاثى (لقد جئت) أتيت وفعلت
(شيئا إمرا) أى عظيما هائلا من أمر الامر اذا عظم قيل الاصل امرا خففت (قال) أى
الخضر عليه السلام (ألم أقل انك لن تستطيع معى صبرا) تذكير لما قاله مناسبة له
ولقوله من قبل وتحقيق لمضمونه المتضمن للانكار على عدم الوفاء بوعده (قال
لا تؤاخذنى بما نسيت) بنسيانى أو بالذى نسيته أو بشيء نسيته وهو وصيته بأن لا يسأله
عن حكمة ما صدر عنه من الافعال الخفية الاسباب قبل بيانه أراد أنه نسى وصيته
ولا مؤاخذة على الناسى كما ورد فى صحيح البخارى من أن الأول كان من موسى نسيانا
أو أخرج الكلام فى معرض النهى عن المؤاخذة بالنسيان يوهمه انه قد نسى ليبسط
عذره فى الانكار وهو من معاريض الكلام التى يتقى بها الكذب مع التوصل الى
الغرض أو أراد بالنسيان الترك أى لا تؤاخذنى بما تركت من وصيتك أول مرة (ولا
ترهقنى) أى لا تغشنى ولا تحملنى (من أمرى) وهو اتباعه اياه (عسرا)
أى لا تعسر على متابعتك ويسرها على بالاغضاء وترك المناقشة وقرئ
عسرا بضمتين (فانطلقا) الفاء فصيحة أى فقبل عذره فخرجا من السفينة فانطلقا (حتى
اذا لقيا غلاما فقتله) قيل كان الغلام يلعب مع الغلمان ففتل عنقه وقيل ضرب برأسه
الحائط وقيل أضجعه فذبحه بالسكين (قال) أى موسى عليه الصلاة والسلام (أقتلت

نفسا زكية) طاهرة من الذنوب وقرئ زاكية (بغير نفس) أى بغير قتل نفس محرمة وتخصيص نفى هذا المبيح بالذكر من بين سائر المبيحات من الكفر بعد الايمان والزنا بعد الاحصان لانه الاقرب الى الوقوع نظرا الى حال الغلام ولعل تغيير النظم الكريم بجعل ماصدر عن الخضر عليه الصلاة والسلام ههنا من جملة الشرط وابرازما صدر عن موسى عليه الصلاة والسلام فى معرض الجزاء المقصود افادته مع أن الحقيق بذلك انما هو ماصدر عن الخضر عليه الصلاة والسلام من الخوارق البديعة لاستشراف النفس الى ورود خبرها لقلة وقوعها فى نفس الامر وندرة وصول خبرها الى الاذهان ولذلك روعيت تلك النكتة فى الشرطية الاولى لما أن صدور الخوارق منه عليه الصلاة والسلام خرج بوقوعه مرة مخرج العادة فانصرفت النفس عن ترقبه الى أحوال موسى عليه الصلاة والسلام هل يحافظ على مراعاة شرطه بموجب وعده الأكيد عند مشاهدة خارق آخر أو يسارع الى المناقشة كما مر فى المرة الاولى فكان المقصود افادة ما صدر عنه عليه الصلاة والسلام ففعل ما فعل ولله در شأن التنزيل. وأما ما قيل من أن القتل أقبح والاعتراض عليه أدخل فكان جديرا بأن يجعل عمدة فى الكلام فليس من دفع الشبهة فى شىء بل هو مؤيد لها فان كون القتل أقبح من مبادى قلة صدوره عن المؤمن العاقل وندرة وصول خبره الى الاسماع وذلك مما يستدعى جعله مقصودا بالذات وكون الاعتراض عليه أدخل من موجبات كثرة صدوره عن كل عاقل وذلك مما لا يقتضى جعله كذلك (لقد جئت شيئا نكرا) قيل معناه انكر من الاول اذ لا يمكن تداركه كما يمكن تدارك الاول بالسد ونحوه وقيل الامر أعظم من النكر لان قتل نفس واحدة أهون من اغراق أهل السفينة (قال ألم أقل لك انك لن تستطيع معى صبرا) زيد لك لزيادة المكافحة بالعتاب على رفض الوصية وقلة التثبت والصبر لما تكرر منه الاشمئزاز والاستنكار ولم يرعو بالتذكير حتى زاد فى النكير فى المرة الثانية (قال) أى موسى عليه الصلاة والسلام (ان سألتك عن شىء بعدها) أى بعد هذه المرة (فلا تصاحبنى) وقرىء من الافعال أى لاتجعلنى صاحبك (قد بلغت من لدنى عذرا) أى قد أعذرت ووجدت من قبلى عذرا حيث خالفتك ثلاث مرات . عن النبى صلى الله عليه وسلم «رحم الله أخى موسى استحيا فقال ذلك لو لبث مع صاحبه لأبصر أعجب الأعاجيب» وقرىء لدنى بتخفيف النون وقرىء بسكون الدال كعضد فى عضد (فانطلقا حتى اذا أتيا أهل قرية) هى انطاكية وقيل أبلة وهى أبعد أرض الله من السماء وقيل هى برقة وقيل بلد بأندلس . عن النبى صلى الله عليه وسلم كانوا أهل قرية لئام وقيل شر القرى التى لا يضاف فيها

الضيف ولا يعرف لابن السبيل حقه وقوله تعالى (استطعما أهلها) فى محل الجر على انه صفة لقرية ولعل العدول عن استطعماهم على أن يكون صفة للاهل لزيادة تشنيعهم على سوء صنيعهم فان الاباء من الضيافة وهم أهلها قاطنون بها أقبح وأشنع روى انهما طافا فى القرية فاستطعماهم فلم يطعموهما واستضافاهم (فأبو أن يضيفوهما) بالتشديد وقرىء بالتخفيف من الاضافة يقال ضافه اذا كان له ضيفا وأضافه وضيفه أنزله وجعله ضيفا له وحقيقة ضاف مال اليه من ضاف السهم عن الغرض ونظيره زاره من الازورار (فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض) أى يدانى أن يسقط فاستعيرت الارادة للمشارفة للدلالة على المبالغة فى ذلك والانقضاض الاسراع فى السقوط وهو انفعال من القض يقال قضضته فانقض ومنه انقضاض الطير والكوكب لسقوطه بسرعة وقيل هو افعلال من النقض كاحمر من الحمرة وقرىء أن ينقض من النقض وأن ينقاض من انقاضت السن اذا انشقت طولا (فأقامه) قيل مسحه بيده فقام وقيل نقضه وبناه وقيل أقامه بعمود عمده به قيل كان سمكه مائة ذراع (قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا) تحريضاً له على أخذ الجعل لينتعشا به أو تعريضاً بأنه فضول لما فى لو من النفى كأنه لما رأى الحرمان ومساس الحاجة واشتغاله بما لا يعنيه لم يتمالك الصبر واتخذ افتعل من تخذ بمعنى أخذ كاتبع من تبع وليس من الأخذ عند البصريين وقرىء لتخذت أى لأخذت وقرىء بادغام الذال فى التاء (قال) أى الخضر عليه الصلاة والسلام (هذا فراق بينى و بينك) على اضافة المصدر الى الظرف اتساعا وقد قرىء على الأصل والمشار اليه اما نفس الفراق كما فى هذا أخوك أو الوقت الحاضر أى هذا الوقت وقت فراق بينى و بينك أو السؤال الثالث أى هذا سبب ذلك الفراق حسبما هو الموعود (سأنبئك) السين للتأكيد لعدم تراخى التنبئة (بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا) التأويل رجع الشىء الى مآله والمراد به ههنا المآل والعاقبة اذ هو المنبأ به دون التأويل وهو خلاص السفينة من اليد العادية وخلاص أبوى الغلام من شره مع الفوز بالبدل الأحسن واستخراج اليتيمين للكنز . وفى جعل صلة الموصول عدم استطاعة موسى عليه الصلاة والسلام للصبر دون أن يقال بتأويل مافعلت أو بتأويل ما رأيت ونحوهما نوع تعريض به عليه الصلاة والسلام وعتاب (أما السفينة) التى خرقتها (فكانت لمساكين) لضعفاء لا يقدرون على مدافعة الظلمة وقيل كانت لعشرة اخوة خمسة منهم زمنى وخمسة (يعملون فى البحر) واسناد العمل الى الكل حينئذ انما هو بطريق التغليب أو لان عمل الوكلاء بمنزلة عمل الموكلين (فأردت أن

أعيبها) أي أجعلها ذات عيب (وكان وراءهم ملك) أي أمامهم وقد قرىء به أو خلفهم وكان رجوعهم عليه لا محالة واسمه جلندى بن كركر وقيل منولة بن جلندى الازدى (يأخذ كل سفينة) أي صالحة وقرىء كذلك (غصبا) من أصحابها وانتصابه على أنه مصدر مبين لنوع الاخذ ولعل تفريع ارادة تعييب السفينة على مسكنة أصحابها قبل بيان خوف الغصب مع أن مدارها كلا الامرين للاعتناء بشأنها اذ هي المحتاجة الى التأويل وللايذان بأن الأقوى في المدارية هو الأمر الأول ولذلك لايبالي بتخليص سفن سائر الناس مع تحقق خوف الغصب في حقهم أيضا ولأن في التأخير فصلا بين السفينة وضميرها مع توهم رجوعه الى الأقرب (وأما الغلام) الذى قتله (فكان أبواه مؤمنين) لم يصرح بكفرانه أو بكفره اشعاراً بعدم الحاجة الى الذكر لظهوره (فخشينا أن يرهقهما) فخفنا أن يغشى الوالدين المؤمنين (طغيانا) عليهما (وكفرا) لنعمتهما بعقوقه وسوء صنيعه ويلحق بهما شر وبلاء أو يقرن بايمانهما طغيانه وكفره فيجتمع في بيت واحد مؤمنان وطاغ كافر أو يعديهما بدائه ويضلهما بضلاله فيرتدا بسببه وانما خشي الخضر عليه الصلاة والسلام منه ذلك لأن الله سبحانه أعلمه بحاله وأطلعه على سر أمره . وقرىء فخاف ربك أي كره سبحانه كراهة من خاف سوء عاقبة الأمر فغيره. ويجوز أن تكون القراءة المشهورة على الحكاية بمعنى فكرهنا كقوله تعالى «لأهب لك» (فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا) منه بأن يرزقهما بدله ولداً خيراً (منه) وفي التعرض لعنوان الربوبية والاضافة اليهما مالا يخفى من الدلالة على ارادة وصول الخير اليهما (زكوة) طهارة من الذنوب والاخلاق الرديئة (وأقرب رحما) أي رحمة وعطفا قيل ولدت لهما جارية تزوجها نبي فولدت نبيا هدى الله تعالى على يديه أمة من الامم وقيل ولدت سبعين نبياً وقيل أبدلها ابنا مؤمناً مثلهما وقرىء يبدلها بالتشديد وقرىء رحما بضم الحاء أيضا وانتصابه على التمييز مثل زكوة (وأما الجدار) المعهود (فكان لغلامين يتيمين في المدينة) هي القرية المذكورة فيما سبق ولعل التعبير عنها بالمدينة لاظهار نوع اعتداد بها باعتداد مافيها من اليتيمين وأبيهما الصالح قيل اسماهما أصرم وصريم واسم المقتول جيسور (وكان تحته كنز لهما) من فضة وذهب كما روي مرفوعا والذم على كنزهما في قوله عز وجل «والذين يكنزون الذهب والفضة» لمن لايؤدى زكاتهما وسائر حقوقهما وقيل كان لوحا من ذهب مكتوبا فيه عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن . وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب. وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل وعجبت

لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن اليها لااله إلاالله محمد رسول الله وقيل صحف فيها علم (وكان أبوهما صالحا) تنبيه على أن سعيه فى ذلك كان لصلاحه قيل كان بينهما وبين الأب الذي حفظا فيه سبعة آباء (فأراد ربك) أى مالكك ومدبر أمورك ففي إضافة الرب الى ضمير موسى عليه الصلاة والسلام دون ضميرهما تنبيه له عليه الصلاة والسلام على تحتم كمال الانقياد والاستسلام لارادته سبحانه ووجوب الاحتراز عن المناقشة فيما وقع بحسبها من الامور المذكورة (أن يبلغا أشدهما) أى حلمهما وكمال رأيهما (ويستخرجا كنزهما) من تحت الجدار ولولا أنى أقمته لانقض وخرج الكنز من تحته قبل اقتدارهما على حفظ المال وتنميته وضاع بالكلية (رحمة من ربك) مصدر فى موقع الحال أى مرحومين من قبله عز وجل أو مفعول له أو مصدر مؤكد لاراد فان ارادة الخير رحمة وقيل متعلق بمضمر أى فعلت مافعلت من الامور التى شاهدتها رحمة من ربك ويعضده إضافة الرب الى ضمير المخاطب دون ضميرهما فيكون قوله عز وعلا (وما فعلته عن أمرى) أى عن رأيى واجتهادى تأكيدا لذلك (ذلك) إشارة الى العواقب المنظومة فى سلك البيان وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد درجتها فى الفخامة (تأويل ما لم تسطع) أى لم تستطع فحذفت التاء للتخفيف (عليه صبرا) من الامور التى رأيت أى مآله وعاقبته فيكون إنجازا للتنبئة الموعودة أو الى البيان نفسه فيكون التأويل بمعناه وعلى كل حال فهو فذلكة لما تقدم وفى جعل الصلة عين ما مر تكرير للتنكير وتشديد للعتاب (تنبيه) تناطح الفحول فى حياة الخضر عليه الصلاة والسلام فقيل أنه حي وسببه أنه كان على مقدمة ذي القرنين فلما دخل الظلمات أصاب الخضر عين الحياة فنزل واغتسل منها وشرب من مائها وأخطأ ذو القرنين الطريق فعاد قالوا وإلياس أيضا فى الحياة يلتقيان كل سنة بالموسم وقيل أنه ميت لما روي أن النبى عليه الصلاة والسلام صلى العشاء ذات ليلة ثم قال أرأيتكم ليلتكم هذه فان على رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد ولو كان الخضر حينئذ حيا لما عاش بعد المائة ثم علم وروي أن موسى عليه الصلاة والسلام لما أراد أن يفارقه قال له أوصنى قال لا تطلب العلم لتحدث به واطلبه لتعمل به (ويسألونك عن ذي القرنين) هم اليهود سألوه على وجه الامتحان أو سأله قريش بتلقينهم وصيغة الاستقبال للدلالة على استمرارهم على ذلك الى ورود الجواب وهو ذو القرنين الأكبر واسمه الاسكندر بن فيلقوس اليونانى وقال ابن اسحق اسمه مرزبان بن مرذبة من ولد يافث بن نوح عليه الصلاة والسلام وكان أسود وقيل اسمه عبد الله بن الضحاك وقيل مصعب بن عبد الله بن قنان بن منصور بن عبد الله بن

الأزد وابن عون ابن زيد بن كهلان ابن سبأ بن يعرب بن قحطان وقال السهيلي قيل إن
اسمه مرزبان بن مرزبة ذكره ابن هشام وهو أول التبابعة وقيل إنه افريدون بن
النعمان الذي قتل الضحاك وذكر أبو الريحان البيروني في كتابه المسمى بالآثار الباقية
عن القرون الخالية أن ذا القرنين هو أبو كرب شمي بن عبير بن افريقيس الحميري
وأن ملكه بلغ مشارق الأرض ومغاربها وهو الذي افتخر به التبع اليماني حيث قال
شعر قد كان ذو القرنين جدي مسلما ... ملكا علا في الأرض غير مفند
[illegible] بلغ المشارق والمغارب يبتغي ... أسباب أمر من حكيم مرشد [illegible]
والجليل هذا القول أقرب لأن الأذواء كانوا من اليمن كذي المنار وذي نواس وذي
النون وذي رعين وذي يزن وذي جدن قال الإمام الرازي والأول هو الأظهر لأن
من بلغ ملكه من السعة والقوة إلى الغاية التي نطق بها التنزيل الجليل إنما هو الاسكندر
اليوناني كما تشهد به كتب التواريخ يروى أنه لما مات أبوه جمع ملك الروم بعد أن
كان طوائف ثم قصد ملوك العرب وقهرهم ثم أمعن حتى انتهى إلى البحر الأخضر
ثم عاد إلى مصر فبنى الاسكندرية وسماها باسمه ثم دخل الشام وقصد بني اسرائيل
وورد بيت المقدس وذبح في مذبحه ثم انعطف إلى أرمينية وباب الأبواب ودانت له
العراقيون والقبط والبربر ثم توجه نحو دارا بن دارا وهزمه مرارا إلى أن قتله صاحب
حرسه فاستولى على ممالك الفرس وقصد الهند وفتحه وبنى مدينة سرنديب وغيرها من
المدن العظام ثم قصد الصين وغزا الأمم البعيدة ورجع إلى خراسان وبنى بها المدن
الكثيرة ورجع إلى العراق ومرض بشهرزور ومات بها انتهى كلام الإمام وقد روي أن
أهل النجوم قالوا له إنك لا تموت إلا على أرض من حديد وتحت سماء من خشب وكان
يدفن كنوز كل بلدة فيها ويكتب ذلك بصفته وموضعه فبلغ بابل فرعف وسقط عن
دابته فبسطت له دروع فنام عليها فآذته الشمس فأظلوه بترس فنظر فقال هذه أرض
من حديد وسماء من خشب فأيقن بالموت فمات وهو ابن ألف وستمائة سنة وقيل ثلاثة آلاف
سنة قال ابن كثير وهذا غريب وأغرب منه ما قاله ابن عساكر من أنه بلغني أنه عاش ستا وثلاثين
سنة أو ثنتين وثلاثين سنة وأنه كان بعد داود وسليمان عليهما السلام فإن ذلك لا ينطبق إلا على
ذي القرنين الثاني كما ستعرف وكذا ما ذكره الإمام من قصده بني إسرائيل وورود
بيت المقدس والذبح في مذبحه فإنه مما لا يكاد يتأتى نسبته إلى الأول واختلف في نبوته
بعد الاتفاق على إسلامه وولايته فقيل كان نبيا لقوله تعالى إنا مكنا له في الأرض وظاهره
أنه متناول للتمكين في الدين وكماله بالنبوة ولقوله تعالى وآتيناه من كل شيء سببا ومن
[illegible]

جملة الاشياء النبوة ولقوله تعالى «قلنا ياذا القرنين» ونحو ذلك وقيل كان ملكا لما روى
أن عمر رضى الله عنه سمع رجلا يقول لآخر ياذا القرنين فقال اللهم غفرا أما رضيتم أن
تتسموا بأسماء الانبياء حتى تسميتم بأسماء الملائكة قال ابن كثير والصحيح انه ما كان
نبيا ولا ملكا وانما كان ملكا صالحا عادلا ملك الاقاليم وقهر أهلها من الملوك وغيرهم
ودانت له البلاد وانه كان داعيا الى الله تعالى سائرا فى الخلق بالمعدلة التامة والسلطان
المؤيد المنصور وكان الخضر على مقدمة جيشه بمنزلة المستشار الذى هو من الملك
بمنزلة الوزير وقد ذكر الازرقى وغيره انه اسلم على يدى ابراهيم الخليل عليه الصلاة
والسلام فطاف معه بالكعبة هو واسمعيل عليهم السلام وروى أنه حج ماشيا فلما
سمع ابراهيم عليه الصلاة والسلام بقدومه تلقاه ودعا له وأوصاه بوصايا ويقال انه أتى
بفرس ليركب فقال لا أركب فى بلد فيه الخليل فعند ذلك سخر له السحاب وطوى له
الاسباب وبشره ابراهيم عليه الصلاة والسلام بذلك فكانت السحاب تحمله وعساكره
وجميع آلاتهم اذا أرادوا غزوة قوم. وقال أبو الطفيل سئل عنه على كرم الله وجهه
أكان نبيا أم ملكا فقال لم يكن نبيا ولا ملكا لكن كان عبدا أحب الله فأحبه وناصح
الله فناصحه سخر له السحاب ومد له الاسباب . واختلف فى وجه تسميته بذى القرنين
فقيل لانه بلغ قرنى الشمس مشرقها ومغربها وقيل لانه ملك الروم وفارس وقيل
الروم والترك وقيل لانه كان فى رأسه أو فى تاجه ما يشبه القرنين وقيل لانه كان له
ذؤابتان وقيل لانه كانت صفحتا رأسه من النحاس وقيل لانه دعا الناس الى الله عز
وجل فضرب بقرنه الايمن فمات ثم بعثه الله تعالى فضرب بقرنه الايسر فمات ثم بعثه
الله تعالى وقيل لانه رأى فى منامه أنه صعد الفلك فأخذ بقرنى الشمس وقيل لانه
انقرض فى عهده قرنان وقيل لانه سخر له النور والظلمة فاذا سرى يهديه النور من
أمامه وتحوطه الظلمة من ورائه وقيل لقب به لشجاعته هذا وأما ذو القرنين الثانى
فقد قال ابن كثير انه الاسكندر بن فيليس بن مصريم بن هرمس بن ميطون بن رومى
بن ليطى بن يونان بن يافث بن نونه بن شرخون بن رومية بن تونط بن نوفيل بن رومى
ابن الاصفر بن العنز بن العيص بن اسحق بن ابراهيم الخليل عليهما الصلاة والسلام
كذا نسبه ابن عساكر المقدونى اليونانى المصرى بانى الاسكندرية الذى يؤرخ بأيامه
الروم وكان متأخرا عن الاول بدهر طويل أكثر من ألفى سنة كان هذا قبل
المسيح عليه السلام بنحو من ثلثمائة سنة وكان وزيره ارسطاطاليس الفيلسوف
وهو الذى قتل دارا بن دارا وأذل ملوك الفرس ووطىء أرضهم ثم قال ابن
كثير وانما بينا هذا لان كثيرا من الناس يعتقد أنهما واحد وأن

المذكور فى القرآن العظيم هو هذا المتأخر فيقع بذلك خطأ كبير وفساد كثير كيف لا والاول كان عبدا صالحا مؤمنا وملكا عادلا وزيره الخضر عليه الصلاة والسلام وقد قيل انه كان نبيا . واما الثانى فقد كان كافرا وزيره ارسطاطاليس الفيلسوف وقد كان ما بينهما من الزمان أكثر من ألفى سنة فأين هذا من ذاك انتهى . قلت المقدونى نسبة الى بلدة من بلاد الروم غربى دار السلطنة السنية قسطنطينية المحمية لا زالت مشحونة بالشعائر الدينية بينهما من المسافة مسيرة خمسة عشر يوما أو نحو ذلك عند مدينة سيروز اسمها بلغة اليونانين مقدونيا كانت سرير ملك هذا الاسكندر وهى اليوم بلقع لا يقيم بها أحد ولكن فيها علائم تحكى كمال عظمها فى عهد عمرانها ونهاية شوكة واليها وسلطانها ولقد مررت بها عند القفول من بعض المغازى السلطانية فعاينت فيها من تعاجيب الآثار ما فيه عبرة لاولى الابصار (قل) لهم فى الجواب (سأتلو عليكم) أى سأذكر لكم (منه) أى من ذى القرنين (ذكرا) أى نبأ مذكورا وحيث كان ذلك بطريق الوحى المتلو حكاية عن جهة الله عز وجل قيل سأتلو أو سأتلو فى شأنه من جهته تعالى ذكرا أى قرآنا . والسين للتأكيد والدلالة على التحقق المناسب لمقام تأييده عليه الصلاة والسلام وتصديقه بانجاز وعده أى لا أترك التلاوة ألبتة كما فى قول من قال :

سأشكر عمرا ان تراخت منيتى ، أيادى لم تمنن وان هى جلت

لا للدلالة على أن التلاوة ستقع فيما يستقبل كما قيل لان هذه الآية ما نزلت بانفرادها قبل الوحى بتمام القصة بل موصولة بما بعدها ريثما سألوه عليه الصلاة والسلام عنه وعن الروح وعن أصحاب الكهف فقال لهم عليه الصلاة والسلام ائتونى غدا أخبركم فأبطأ عليه الوحى خمسة عشر يوما أو أربعين كما ذكر فيما سلف وقوله عز وجل (انا مكنا له فى الارض) شروع فى تلاوة الذكر المعهود حسبما هو المعهود . التمكين ههنا الأقدار وتمهيد الاسباب يقال مكنه ومكن له ومعنى الاول جعله قادرا وقويا ومعنى الثانى جعل له قدرة وقوة ولتلازمهما فى الوجود وتقاربهما فى المعنى يستعمل كل منهما فى محل الآخر كما فى قوله عز وعلا «مكناهم فى الارض مالم نمكن لكم» أى جعلناهم قادرين من حيث القوى والاسباب والآلات على أنواع التصرفات فيها مالم نجعله لكم من القوة والسعة فى المال والاستظهار بالعدد والاسباب فكأنه قيل مالم نمكنكم فيها أى مالم نجعلكم قادرين على ذلك فيها أو مكنا لهم فى الارض ما لم نمكن لكم وهكذا اذا كان التمكين مأخوذا من المكان بناء على توهم ميمه أصلية كما أشير اليه فى سورة يوسف عليه الصلاة والسلام والمعنى انا جعلنا له مكنة وقدرة على التصرف فى الارض من

حيث التدبير والرأى والاسباب حيث سخر له السحاب ومد له فى الاسباب وبسط له النور وكان الليل والنهار عليه سواء وسهل عليه السير فى الارض وذللت له طرقها (وآتيناه من كل شىء) أراده من مهمات ملكه ومقاصده المتعلقة بسلطانه (سببا) أى طريقا يوصله اليه وهو كل ما يتوصل به الى المقصود من علم أو قدرة أو آلة (فأتبع) بالقطع أى فأراد بلوغ المغرب فأتبع (سبباً) يوصله اليه ولعل قصد بلوغ المغرب ابتداء لمراعاة الحركة الشمسية. وقرىء فاتبع من الافتعال والفرق أن الأول فيه معنى الأدراك والاسراع دون الثانى (حتى إذا بلغ مغرب الشمس) أى منتهى الأرض من جهة المغرب بحيث لايتمكن أحد من مجاوزته ووقف على حافة البحر المحيط الغربى الذى يقال له أوقيانوس الذى فيه الجزائر المسماة بالخالدات التى هى مبدأ الأطوال على أحد القولين (وجدها) أى الشمس (تغرب فى عين حمئة) أى ذات حمأة وهى الطين الاسود من حمئت البئر اذا كثرت حمأتها وقرىء حامية أى حارة. روى أن معاوية رضى الله عنه قرا حامية وعنده ابن عباس رضى الله عنهما فقال حمئة فقال معاوية لعبد الله بن عمرو بن العاص كيف تقرأ قال كما يقرأ أمير المؤمنين ثم وجه إلى كعب الأحبار كيف تجد الشمس تغرب قال فى ماء وطين وروى فى ثأط فوافق قول ابن عباس رضى الله عنهما وليس بينهما منافاة قطعية لجواز كون العين جامعة بين الوصفين وكون الياء فى الثانية منقلبة عن الهمزة لانكسار ماقبلها. وأما رجوع معاوية الى قول ابن عباس رضى الله عنهم بما سمعه من كعب مع أن قراءته أيضاً مسموعة قطعاً فلكون قراءة ابن عباس رضى الله عنهما قطعية فى مدلولها وقراءته محتملة ولعله لما بلغ ساحل المحيط رآها كذلك إذ ليس فى مطمح بصره غير الماء كما يلوح به قوله تعالى «وجدها تغرب» (ووجد عندها) عند تلك العين (قوماً) قيل كان لباسهم جلود الوحوش وطعامهم مالفظه البحر وكانوا كفاراً فخيره الله جل ذكره بين أن يعذبهم بالقتل وأن يدعوهم الى الايمان وذلك قوله تعالى (قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب) بالقتل من أول الأمر (وأما أن تتخذ فيهم حسناً) أى أمراً ذا حسن على حذف المضاف أو على طريقة اطلاق المصدر على موصوفه مبالغة وذلك بالدعوة الى الاسلام والارشاد الى الشرائع. ومحل أن مع صلته اما الرفع على الابتداء أو الخبرية وإما النصب على المفعولية أى إما تعذيبك واقع أو اما أمرك تعذيبك أو اما تفعل تعذيبك وهكذا الحال فى الاتخاذ ومن لم يقل بنبوته قال كان ذلك الخطاب بواسطة نبى فى ذلك العصر أو كان ذلك الهاما لاوحيا بعد أن كان ذلك

التخيير موافقاً لشريعة ذلك النبي (قال) أي ذو القرنين لذلك النبي أو لمن عنده من خواصه بعد ماتلقى أمره تعالى مختاراً للشق الاخير (أما من ظلم) أي نفسه ولم يقبل دعوتي وأصر على ما كان عليه من الظلم العظيم الذي هو الشرك (فسوف نعذبه) بالقتل . وعن قتادة أنه كان يطبخ من كفر في القدور ومن آمن أعطاه وكساه (ثم يرد الى ربه) في الآخرة (فيعذبه) فيها (عذاباً نكراً) أي منكراً فظيعاً وهو عذاب النار . وفيه دلالة ظاهرة على أن الخطاب لم يكن بطريق الوحي اليه وأن مقاولته كانت مع النبي أو مع من عنده من أهل مشورته (وأما من آمن) بموجب دعوتي (وعمل) عملا (صالحاً) حسبما يقتضيه الايمان (فله) في الدارين (جزاء الحسنى) أي فله المثوبة الحسنى أو الفعلة الحسنى أو الجنة جزاء على أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة قدم على المبتدا اعتناء به أو منصوب بمضمر أي نجزى بها جزاء والجملة حالية أو معترضة بين المبتدا الخبر المتقدم عليه أو حال أي مجزيا بها أو تمييز . وقرىء منصوبا غير منون على أنه سقط تنوينه لالتقاء الساكنين أو مرفوعا منونا على انه المبتدأ والحسنى بدله والخبر الجار والمجرور وقيل خير بين القتل والاسر والجواب من باب الاسلوب الحكيم لان الظاهر التخيير بينهما وهم كفار فقال اما الكافر فيراعي في حقه قوة الاسلام وأما المؤمن فلا يتعرض له الا بما يجب . ويجوز أن تكون أما وأما للتوزيع دون التخيير أي وليكن شأنك اما التعذيب واما الاحسان فالاول لمن بقي على حاله والثاني لمن تاب (وسنقول له من أمرنا) أي مما نأمر به (يسرا) أي سهلا متيسرا غير شاق وتقديره ذا يسر أو أطلق عليه المصدر مبالغة وقرىء بضمتين (ثم أتبع سبباً) أي طريقا راجعا من مغرب الشمس موصلا الى مشرقها (حتى اذا بلغ مطلع الشمس) يعني الموضع الذي تطلع عليه الشمس أولا من معمورة الارض وقرىء بفتح اللام على تقدير مضاف أي مكان طلوع الشمس فانه مصدر قيل بلغه في اثنتي عشرة سنة وقيل في أقل من ذلك بناء على ماذكر من أنه سخر له السحاب وطوي له الاسباب (وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً) من اللباس والبناء قيل هم الزنج . وعن كعب ان أرضهم لاتمسك الابنية بها أسراب فاذا طلعت الشمس دخلوا الاسراب أو البحر فاذا ارتفع النهار خرجوا الى معايشهم وعن بعضهم خرجت حتى جاوزت الصين فسألت عن هؤلاء فقالوا بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة فبلغتهم فاذا أحدهم يفرش أذنه ويلبس الاخرى ومعي صاحب يعرف لسانهم فقالوا له جئتنا تنظر كيف تطلع الشمس قال فبينما نحن كذلك اذ سمعنا كهيئة الصلصلة فغشي علي ثم أفقت وهم يمسحونني بالدهن فلما طلعت الشمس

على الماء اذاهى فوق الماء كهيئة الزيت فأدخلوا ناسرابالهم فلما ارتفع النهار خرجوا الى البحر يصطادون السمك و يطرحونه فى الشمس فينضج لهم وعن مجاهد من لايلبس الثياب من السودان عند مطلع الشمس أكثر من جميع أهل الارض (كذلك) أى أمر ذى القرنين كما وصفناه لك فى رفعة المحل و بسطة الملك أو امره فيهم كامره فى أهل المغرب من التخيير والاختيار. و يجوز أن يكون صفة مصدر محذوف لوجد أو نجعل أو صفة قوم أى على قوم مثل ذلك القبيل الذى تغرب عليهم الشمس فى الكفر والحكم أو سترا مثل ستركم من اللباس والاكنان والجبال وغير ذلك (وقد أحطنا بما لديه) من الاسباب والعدد والعدد (خبرا) يعنى أن ذلك من الكثرة بحيث لايحيط به الاعلم اللطيف الخبير هذا على الوجه الاول وأما على الوجوه الباقية فالمراد بما لديه مايتناول ماجرى عليه و ماصدر عنه وماالاقاه فتأمل (ثم أتبع سببا) أى طريقا ثالثا معترضا بين المشرق والمغرب آخذا من الجنوب الى الشمال (حتى اذا بلغ بين السدين) بين الجبلين اللذين سد مابينهما وهو منقطع أرض الترك مما يلى المشرق لاجبلا ارمينية واذربيجان كما توهم وقرىء بالضم قيل ما كان من خلق الله تعالى فهو مضموم وما كان من عمل الخلق فهو مفتوح وانتصاب بين على المفعولية لانه مبلوغ وهو من الظروف التى تستعمل أسماء أيضا كما ارتفع فى قوله تعالى لقد تقطع بينكم وانجر فى قوله تعالى هذا فراق بينى وبينك (وجد من دونهما) أى من ورائهما مجاوزا عنهما (قوما) أى أمة من الناس (لا يكادون يفقهون قولا) لغرابة لغتهم وقلة فطنتهم. وقرىء من باب الافعال أى لا يفهمون السامع كلامهم واختلفوا فى أنهم من أى الاقوام فقال الضحاك هم جيل من الترك وقال السدى الترك سرية من يأجوج ومأجوج خرجت فضرب ذو القرنين السد فبقيت خارجة فجميع الترك منهم وعن قتادة أنهم اثنتان وعشرون قبيلة سد ذو القرنين على احدى وعشرين قبيلة منهم وبقيت واحدة فسموا الترك لانهم تركوا خارجين قال أهل التاريخ أولاد نوح عليه السلام ثلاثة سام وحام و يافث فسام أبو العرب والعجم والروم. وحام أبو الحبشة والزنج و النوبة ويافث أبو الترك والخزر والصقالبة ويأجوج ومأجوج (قالوا) أى بواسطة مترجمهم أو بالذات على أن يكون فهم ذى القرنين كلامهم وإفهام كلامه إياهم من جملة ما آتاه الله تعالى من الاسباب (ياذا القرنين ان يأجوج ومأجوج) قدذكرنا أنهما من أولاد يافث بن نوح عليه السلام وقيل يأجوج من الترك ومأجوج من الجيل و اختلف فى صفاتهم فقيل فى غاية صغر الجثة وقصر القامة لايزيد قدهم على شبر واحد وقيل فى نهاية عظم

الجسم وطول القامة تبلغ قدودهم نحو مائة وعشرين ذراعا وفيهم من عرضه كذلك وقيل لهم مخالب و أضراس كالسباع وهما اسمان أعجميان بدليل منع الصرف وقيل عربيان من أج الظليم اذا أسرع وأصلهما الهمزة كما قرأ عاصم وقد قرىء بغير همزة ومنع صرفهما للتعريف والتأنيث (مفسدون فى الارض) أى فى أرضنا بالقتل والتخريب وإتلاف الزروع قيل كانوا يخرجون أيام الربيع فلا يتركون أخضر الا أكلوه ولا يابسا الا احتملوه وقيل كانوا يأكلون الناس أيضا (فهل نجعل لك خرجا) أى جعلا من أموالنا والفاء لتفريع العرض على افسادهم فى الارض وقرىء خراجا وكلاهما واحد كالنول والنوال وقيل الخراج ما على الارض والذمة والخرج المصدر وقيل الخرج ما كان على كل رأس والخراج ما كان على البلد وقيل الخرج ما تبرعت به والخراج ما لزمك أداؤه (على أن تجعل بيننا وبينهم سدا) . وقرىء بالضم (قال ما مكنى) بالادغام وقرىء بالفك أى ما مكننى (فيه ربى) وجعلنى فيه مكينا قادرا من الملك والمال وسائر الأسباب (خير) أى مما تريدون أن تبذلوه الى من الخرج فلا حاجة بى اليه (فأعينونى بقوة) أى بفعلة وصناع يحسنون البناء والعمل وبآلات لابد منها فى البناء والفاء لتفريع الامر بالاعانة على خيرية ما مكنه الله تعالى فيه من مالهم أو على عدم قبول خرجهم (أجعل) جواب الامر (بينكم وبينهم) تقديم إضافة الظرف الى ضمير المخاطبين على إضافته الى ضمير يأجوج ومأجوج لاظهار كمال العناية بمصالحهم كما راعوه فى قولهم بيننا وبينهم (ردما) أى حاجزا حصينا وبرزخا متينا وهو أكبر من السد وأوثق يقال ثوب مردم أى فيه رقاع فوق رقاع وهذا اسعاف بمرامهم فوق ما يرجونه (آتونى زبر الحديد) جمع زبرة كغرف فى غرفة وهى القطعة الكبيرة وهذا لا ينافى رد خراجهم لأن المأمور به الايتاء بالثمن أو المناولة كما ينبىء عنه القراءة بوصل الهمزة أى جيئونى بزبر الحديد على حذف الباء كما فى أمرتك الخير ولأن إيتاء الآلة من قبيل الاعانة بالقوة دون الخراج على العمل ولعل تخصيص الأمر بالايتاء بها دون سائر الآلات من الصخور والحطب ونحوهما لما أن الحاجة اليها أمس إذ هى الركن فى السد ووجودها أعز قيل حفر للأساس حتى بلغ الماء وجعل الأساس من الصخر والنحاس المذاب والبنيان من زبر الحديد بينها الحطب والفحم حتى سد ما بين الجبلين الى أعلاهما وكان مائة فرسخ وذلك قوله عز قائلا (حتى إذا ساوى بين الصدفين) أى آتوه إياها فأخذ يبنى شيئا فشيئا حتى اذا جعل ما بين ناحيتى الجبلين من البنيان مساويا لهما فى السمك على النهج المحكى

قيل كان ارتفاعه مائتى ذراع وعرضه خمسين ذراعا وقرىء سوى من التسوية وسووى على البناء للمجهول (قال) للعملة (انفخوا) أى بالكيران فى الحديد المبنى ففعلوا (حتى إذا جعله) أى المنفوخ فيه (نارا) أى كالنار فى الحرارة والهيئة. واسناد الجعل المذكور الى ذى القرنين مع انه فعل الفعلة للتنبيه على انه العمدة فى ذلك وهم بمنزلة الآلة (قال) للذين يتولون أمر النحاس من الاذابة ونحوها (آتونى أفرغ عليه قطرا) أى آتونى قطرا أى نحاسا مذابا أفرغ عليه قطراً فحذف الأول لدلالة الثانى عليه وقرىء بالوصل أى جيئونى كانه يستدعيهم للاعانة باليد عند الافراغ. واسناد الافراغ الى نفسه للسر الذى وقفت عليه آنفا وكذا الكلام فى قوله تعالى ساوى وقوله تعالى أجعل (فما اسطاعوا) بحذف تاء الافتعال تخفيفا وحذروا عن تلاقى المتقاربين وقرىء بالادغام وفيه جمع بين الساكنين على غير حده . وقرىء بقلب السين صادا والفاء فصيحة أى فعلوا ما أمروا به من إيتاء القطر أو الاتيان فأفرغه عليه فاختلط والتصق بعضه ببعض فصار جبلا صلدا فجاء يأجوج ومأجوج فقصدوا أن يعلوه و ينقبوه فما اسطاعوا (أن يظهروه) أى يعلوه و يرقوا فيه لارتفاعه وملاسته (وما استطاعوا له نقبا) لصلابته وثخانته وهذه معجزة عظيمة لان تلك الزبر الكثيرة اذا أثرت فيها حرارة النار لا يقدر الحيوان على أن يحوم حولها فضلا عن النفخ فيها الى أن تكون كالنار أو عن افراغ القطر عليها فكانه سبحانه وتعالى صرف تأثير تلك الحرارة العظيمة عن أبدان أولئك المباشرين للاعمال فكان ما كان والله على كل شىء قدير. وقيل بناه من الصخور مرتبطا بعضها ببعض بكلاليب من حديد ونحاس مذاب فى تجاويفها بحيث لم يبق هناك فرجة أصلا (قال) أى ذو القرنين لمن عنده من أهل تلك الديار وغيرهم (هذا) اشارة الى السد وقيل الى تمكينه من بنائه والفضل للمتقدم أى هذا الذى ظهر على يدى وحصل بمباشرتى من السد الذى شأنه ما ذكر من المتانة وصعوبة المنال (رحمة) أى أثر رحمة عظيمة عبر عنه بها مبالغة (من ربى) على كافة العباد لاسيما على مجاوريه. وفيه إيذان بأنه ليس من قبيل الآثار الحاصلة بمباشرة عادة بل هو إحسان الهى محض وان ظهر بمباشرتى والتعرض لوصف الربوبية لتربية معنى الرحمة (فاذا جاء وعد ربى) مصدر بمعنى المفعول وهو يوم القيامة لاخروج يأجوج و مأجوج كما قيل إذ لا يساعده النظم الكريم والمراد بمجيئه ما ينتظم ومجىء مباديه من خروجهم وخروج الدجال ونزول عيسى عليه الصلاة و السلام ونحو ذلك لادنو وقوعه فقط كما قيل فان بعض الأمور التي ستحكى يقع بعد مجيئه حتما (جعله) أى السد المشار اليه مع متانته و رصانته. وفيه من الجزالة ما ليس فى توجيه

الاشارة السابقة إلى التمكين المذكور (دكاء) أى أرضا مستوية وقرىء دكا أى مدكوكا مسوى بالأرض وكل ما انبسط بعد ارتفاع فقد اندك ومنه الجمل الادك أى المنبسط السنام وهذا الجعل وقت مجىء (الوعد بمجى) بعض مباديه وفيه بيان لعظم قدرته عز وجل بعد بيان سعة رحمته (وكان وعد ربى) أى وعده المعهود أو كل ماوعد به فيدخل فيه ذلك دخولا أوليا (حقا) ثابتا لامحالة واقعا ألبته وهذه الجملة تذييل من ذى القرنين لما ذكره من الجملة الشرطية ومقرر مؤكد لمضمونهما وهو آخر ما حكى من قصته وقوله عز وجل (وتركنا بعضهم) كلام مسوق من جنابه تعالى معطوف على قوله تعالى جعله دكاء ومحقق لمضمونه أي جعلنا بعض الخلائق (يومئذ أى يوم اذجاء الوعد بمجىء بعض مباديه (يموج فى بعض) آخر منهم يضطربون اضطراب أمواج البحر ويختلط إنسهم وجنهم حيارى من شدة الهول ولعل ذلك قبل النفخة الأولى أو تركنا بعض يأجوج ومأجوج يموج فى بعض آخر منهم حين يخرجون من السد مزدحمين فى البلاد روى أنهم يأتون البحر فيشربون ماءه ويأكلون دوابه ثم يأكلون الشجر ومن ظفروا به ممن لم يتحصن منهم من الناس ولا يقدرون أن يأتوا مكة والمدينة وبيت المقدس ثم يبعث الله عز وجل نغفا فى أقفائهم فيدخل آذانهم فيموتون موت نفس واحدة فيرسل الله تعالى عليهم طيرا فتلقيهم فى البحر ثم يرسل مطرا يغسل الارض ويطهرها من نتنهم حتى يتركها كالزلفة ثم يوضع فيها البركة وذلك بعد نزول عيسى عليه الصلاة والسلام وقتل الدجال (ونفخ فى الصور) هى النفخة الثانية بقضية الفاء فى قوله تعالى (فجمعناهم) ولعل عدم التعرض لذكر النفخة الأولى لأنها داهية عامة ليس فيها حالة مختصة بالكفار ولئلا يقع الفصل بين مايقع فى النشأة الأولى من الأحوال والأهوال وبين مايقع منها فى النشأة الآخرة أى جمعنا الخلائق بعد ما تفرقت أوصالهم وتمزقت أجسادهم فى صعيد واحد للحساب والجزاء (جمعا) أى جمعا عجيبا لايكتنه كنهه (وعرضنا جهنم) أى أظهرناها وأبرزناها (يومئذ) أى يوم إذ جمعنا الخلائق كافة (للكافرين) منهم حيث جعلناها بحيث يرونها ويسمعون لها تغيظا وزفيرا (عرضا) أى عرضا فظيعا هائلا لايقادر قدره وتخصيص العرض بهم مع أنها بمرأى من أهل الجمع قاطبة لأن ذلك لأجلهم خاصة (الذين كانت أعينهم) وهم فى الدنيا (فى غطاء) كثيف وغشاوة غليظة محاطة بذلك من جميع الجوانب (عن ذكرى) عن الآيات المؤدية لاولى الابصار المتدبرين فيها الا ذكرى بالتوحيد والتمجيد أو كانت أعين بصائرهم فى غطاء عن ذكرى على وجه يليق بشأنى أو عن القرآن الكريم (وكانوا) مع ذلك (لايستطيعون) لفرط تصامهم عن الحق وكمال

عداوتهم للرسول عليه الصلاة والسلام (سمعا) استماعا لذكرى وكلامى الحق الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهذا تمثيل لاعراضهم عن الادلة السمعية كما أن الاول تصوير لتعاميهم عن الآيات المشاهدة بالابصار . والموصول نعت للكافرين أو بدل منه أو بيان جيء به لذمهم بما فى حيز الصلة وللاشعار بعليته لاصابة ما أصابهم من عرض جهنم لهم فان ذلك انما هو لعدم استعمال مشاعرهم فيما عرض لهم فى الدنيا من الآيات واعراضهم عنها مع كونها أسبابا منجية عما ابتلوا به فى الآخرة (أفحسب الذين كفروا) أى كفروا بى كما يعرب عنه قوله تعالى عبادى والحسبان بمعنى الظن وقد قرىء أفظن والهمزة للانكار والتوبيخ على معنى انكار الواقع واستقباحه كما فى قولك أضربت أباك لا لانكار الوقوع كما فى قوله أأضرب أبى . والفاء للعطف على مقدر يفصح عنه الصلة على توجيه الانكار والتوبيخ الى المعطوفين جميعا كما اذا قدر المعطوف عليه فى قوله تعالى « أفلا تعقلون » منفيا أى ألا تسمعون فلا تعقلون لا الى المعطوف فقط كما اذا قدر مثبتا أى أتسمعون فلا تعقلون والمعنى أكفروا بى مع جلالة شأنى فحسبوا (أن يتخذوا عبادى من دونى) من الملائكة وعيسى وعزير عليهم السلام وهم تحت سلطانى وملكوتى (أولياء) معبودين ينصرونهم من بأسى وما قيل انها للعطف على ماقبلها من قوله تعالى كانت الخ وكانوا الخ دلالة على أن الحسبان ناشىء من التعامى والتصام وأدخل عليها همزة الانكار ذما على ذم وقطعا له عن المعطوف عليهما لفظا لا معنى للايذان بالاستقلال المؤكد للذم يأباه ترك الاضمار والتعرض لوصف آخر غير التعامى والتصام على أنهما أخرجا مخرج الاحوال الجبلية لهم ولم يذكرا من حيث انهما من أفعالهم الاختيارية الحادثة كحسبانهم ليحسن تفريعه عليهما وأيضا فانه دين قديم لهم لا يمكن جعله ناشئا عن تصامهم عن كلام الله عز وجل وتخصيص الانكار بحسبانهم المتأخر عن ذلك تعسف لا يخفى وما فى حيز صلة ان ساد مسد مفعولى حسب كما فى قوله تعالى « وحسبوا أن لا تكون فتنة » أى أفحسبوا انهم يتخذونهم أولياء على معنى أن ذلك ليس من الاتخاذ فى شىء لما انه انما يكون من الجانبين وهم عليهم الصلاة والسلام منزهون عن ولايتهم بالمرة لقولهم سبحانك أنت ولينا من دونهم وقيل مفعوله الثانى محذوف أى أفحسبوا اتخاذهم نافعا لهم والوجه هو الاول لان فى هذا تسليما لنفس الاتخاذ واعتدادا به فى الجملة وقرىء أفحسب الذين كفروا أى أفحسبهم وكافيهم أن يتخذوهم أولياء على الابتداء والخبر أو الفعل والفاعل فان النعت اذا اعتمد الهمزة ساوى الفعل فى

العمل فالهمزة حينئذ بمعنى انكار الوقوع (إنا أعتدنا جهنم) أى هيأناها (للكافرين) المعهودين عدل عن الاضمار ذمالهم واشعارا بأنذلك الاعتاد بسبب كفرهم المتضمن لحسبانهم الباطل (نزلا) أى شيئاً يتمتعون به عند ورودهم وهو مايقام للنزيل أى الضيف مماحضر من الطعام وفيه تخطيئة لهم فى حسبانهم وتهكم بهم حيث كان اتخاذهم اياهم أولياء من قبيل اعتاد العتاد واعداد الزاد ليوم المعاد فكأنه قيل أنا اعتدنا لهم مكان ماأعدوا لأنفسهم من العدة والذخر جهنم عدة وفى إيراد النزل ايماء الى أن لهم وراء جهنم من العذاب ماهوأنموذج له وقيل النزل موضع النزول ولذلك فسره ابن عباس رضى الله عنهما بالمثوى (قل هل ننبئكم) الخطاب الثانى للكفرة على وجه التوبيخ . والجمع فى صيغة المتكلم لتعيينه من أول الامر وللايذان بمعلومية النبأ للمؤمنين أيضا (بالاخسرين أعمالا) نصب على التمييز والجمع للايذان بتنوعها وهذا بيان لحال الكفرة باعتبار ماصدر عنهم من الاعمال الحسنة فى أنفسها وفى حسبانهم أيضا حيث كانوا معجبين بها واثقين بنيل ثوابها ومشاهدة آثارها غب بيان حالهم باعتبار أعمالهم السيئة فى أنفسها مع كونها حسنة فى حسبانهم (الذين ضل سعيهم) فى اقامة تلك الاعمال أى ضاع وبطل بالكلية (فى الحياة الدنيا) متعلق بالسعى لابالضلال لان بطلان سعيهم غير مختص بالدنيا قيل المراد بهم أهل الكتابين قاله ابن عباس وسعد بن أبى وقاص ومجاهد رضى الله عنهم ويدخل فى الاعمال حينئذ ماعملوه من الاحكام المنسوخة المتعلقة بالعبادات وقيل الرهابنة الذين يحبسون أنفسهم فى الصوامع ويحملونها على الرياضات الشاقة ولعله مايعمهم وغيرهم من الكفرة ومحل الموصول الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف لانه جواب للسؤال كأنه قيل من هم فقيل الذين الخ وجعله مجرورا على أنه نعت للاخسرين أو بدل منه أو منصوبا على الذم على أن الجواب ماسيأتى من قوله تعالى أولئك الآية يأباه أن صدره ليس منبئا عن خسران الاعمال وضلال السعى كما يستدعيه مقام الجواب والتفريع الاول وان دل على حبوطها لكنه ساكت عن أنباء ماهو العمدة فى تحقيق معنى الخسران من الوثوق بترتب الربح واعتقاد النفع فما صنعوا على أن التفريع الثانى مما يقطع ذلك الاحتمال رأسا اذ لامجال لادراجه تحت الامر بقضية نون العظمة (وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) الاحسان الاتيان بالاعمال على الوجه اللائق وهو حسنها الوصفى المستلزم لحسنها الذاتى أى يحسبون أنهم يعملون ذلك على الوجه اللائق وذلك لاعجابهم بأعمالهم التى سعوا فى اقامتها وكابدوا فى تحصيلها . والجملة حال من فاعل ضل أى بطل سعيهم المذكور والحال أنهم يحسبون أنهم يحسنون فى

ذلك وينتفعون بآثاره أو المضاف اليه لكونه فى محل الرفع نحو قوله تعالى «اليه مرجعكم جميعا» أى بطل سعيهم والحال أنهم الخ والفرق بينهما أن المقارن لحال حسبانهم المذكور فى الاول ضلال سعيهم وفى الثانى نفس سعيهم والاول أدخل فى بيان خطئهم (أولئك) كلام مستأنف من جنابه تعالى مسوق لتكميل تعريف الاخسرين وتبيين سبب خسرانهم وضلال سعيهم وتعيينهم بحيث ينطبق التعريف على المخاطبين غير داخل تحت الأمر أى أولئك المنعوتون بما ذكر من ضلال السعى مع الحسبان المزبور (الذين كفروا بآيات ربهم) بدلائله الداعية الى التوحيد عقلا ونقلا . والتعرض لعنوان الربوبية لزيادة تقبيح حالهم فى الكفر المذكور (ولقائه) بالبعث وما يتبعه من أمور الآخرة على ماهى عليه (فحبطت) لذلك (أعمالهم) المعهودة حبوطاً كلياً (فلا نقيم لهم) أى لاولئك الموصوفين بما مر من حبوط الاعمال . وقرىء بالياء (يوم القيامة وزنا)أى فنزدريهم ولا نجعل لهم مقداراً واعتباراً لان مداره الاعمال الصالحة وقد حبطت بالمرة وحيث كان هذا الازدراء من عواقب حبوط الاعمال عطف عليه بطريق التفريع وأما ماهو من أجزية الكفر فسيجىء بعد ذلك أو لانضع لاجل وزن أعمالهم ميزانا لانه انما يوضع لاهل الحسنات والسيآت من الموحدين لتتميز به مقادير الطاعات والمعاصى ليترتب عليه التكفير أو عدمه لان ذلك فى الموحدين بطريق الكمية وأما الكفر فاحباطه للحسنات بحسب الكيفية دون الكمية فلا يوضع لهم الميزان قطعاً (ذلك) بيان لمآل كفرهم وسائر معاصيهم اثر بيان مآل أعمالهم المحبطة بذلك أى الامر ذلك وقوله عز وجل (جزاؤهم جهنم) جملة مبينة له أو ذلك مبتدأ والجملة خبره والعائد محذوف أى جزاؤهم به أو جزاؤهم بدله وجهنم خبره أو جزاؤهم خبره وجهنم عطف بيان للخبر (بما كفروا) تصريح بأن ماذكر جزاء لكفرهم المتضمن لسائر القبائح التى أنبأ عنها قوله تعالى (واتخذوا آياتى ورسلى هزواً) أى مهزوا بهما فانهم لم يقتنعوا بمجرد الكفر بالآيات والرسل بل ارتكبوا مثل تلك العظيمة أيضاً (ان الذين آمنوا) بيان بطريق الوعد لمآل الذين اتصفوا باضداد مااتصف به الكفرة أثر بيان مآلهم بطريق الوعيد أي آمنوا بآيات ربهم ولقائه (وعملوا الصالحات) من الأعمال (كانت لهم) فيما سبق من حكم الله تعالى ووعده وفيه ايماء الى أن أثر الرحمة يصل اليهم بمقتضى الرأفة الازلية بخلاف مامر من جعل جهنم للكافرين نزلا فانه بموجب ماحدث من سوء اختيارهم (جنات الفردوس) عن مجاهد ان الفردوس هو البستان بالرومية وقال عكرمة هو الجنة بالحبشية وقال الضحاك هو الجنة الملتفة الاشجار . وقيل هى الجنة

التى تنبت ضروبا من النبات وقيل هى الجنة من الكرم خاصة. وقيل ما كان غالبه كرما وقال المبرد هو فيما سمعت من العرب الشجر الملتف والاغلب عليه أن يكون من العنب وعن كعب أنه ليس فى الجنان أعلى من جنة الفردوس وفيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم «فى الجنة مائة درجة مابين كل درجتين مسيرة مائة عام والفردوس اعلاها وفيها الانهار الأربعة فاذا سألتم الله تعالى فأسألوه الفردوس فان فوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة» (نزلا) خبر كانت والجار والمجرور متعلق بمحذوف على أنه حال من نزلا أو على أنه بيان أو حال من جنات الفردوس والخبر هو الجار والمجرور فان جعل النزل بمعنى ما يهيأ للنازل فالمعنى كانت لهم ثمار جنات الفردوس نزلا أو جعلت نفس الجنات نزلا مبالغة فى الاكرام وفيه ايذان بأنها عندما أعد الله لهم على ماجرى على لسان النبوة من قوله أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بمنزلة النزل بالنسبة الى الضيافة وإن جعل بمعنى المنزل فالمعنى ظاهر (خالدين فيها) نصب على الحالية (لا يبغون عنها حولا) مصدر كالعوج والصغر أى لا يطلبون تحولا عنها اذ لا يتصور أن يكون شىء أعز عندهم وأرفع منها حتى تنازعهم اليه أنفسهم وتطمح نحوه أبصارهم. ويجوز أن يراد نفى التحول وتأكيد الخلود والجملة حال من صاحب خالدين أو من ضميره فيه فيكون حالا متداخلة (قل لو كان البحر) أى جنس البحر (مدادا) وهو ما تمد به الدواة من الحبر (لكلمات ربى) لتحرير كلمات علمه وحكمته التى من جملتها ما ذكر من الآيات الداعية إلى التوحيد المحذرة من الاشراك (لنفد البحر) مع كثرته ولم يبق منه شىء لتناهيه (قبل أن تنفد) . وقرىء بالياء والمعنى من غير أن تنفد (كلمات ربى) لعدم تناهيها فلا دلالة للكلام على نفادها بعد نفاد البحر . وفى اضافة الكلمات الى اسم الرب المضاف الى ضميره صلى الله عليه وسلم فى الموضعين من تفخيم المضاف وتشريف المضاف اليه ما لا يخفى . وإظهار البحر والكلمات فى موضع الاضمار لزيادة التقرير (ولو جئنا) كلام من جهته تعالى غير داخل فى الكلام الملقن جىء به لتحقيق مضمونه وتصديق مدلوله مع زيادة مبالغة وتأكيد . والواو لعطف الجملة على نظيرتها المستأنفة المقابلة لها المحذوفة لدلالة المذكورة عليها دلالة واضحة أى لنفد البحر من غير نفاد كلماته تعالى لو لم نجىء بمثله مددا ولو جئنا بقدرتنا الباهرة (بمثله مددا) عونا وزيادة لأن مجموع المتناهيين متناه بل مجموع ما يدخل تحت الوجود من الأجسام لا يكون إلا متناهيا لقيام الأدلة الناطقة على تناهى الابعاد . وقرى مددا جمع مدة وهى مايستمده الكاتب

وقرىء مداداً (قل) لهم بعد ما بينت لهم شأن كلماته تعالى (انما أنا بشر مثلكم) لا أدعى الاحاطة بكلماته التامة (يوحى الى) من تلك الكلمات (أنما إلهكم إله واحد) لا شريك له في الخلق ولا في سائر أحكام الالوهية وانما تميزت عنكم بذلك (فمن كان يرجو لقاء ربه) الرجاء توقع وصول الخير في المستقبل والمراد بلقائه تعالى كرامته وادخال الماضى على المستقبل للدلالة على أن اللائق بحال المؤمن الاستمرار والاستدامة على رجاء اللقاء أى فمن استمر على رجاء كرامته تعالى (فليعمل) لتحصيل تلك الطلبة العزيزة (عملا صالحاً) فى نفسه لائقاً بذلك المرجو كما فعله الذين آمنوا وعملوا الصالحات (ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) اشراكا جلياً كما فعله الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه ولا اشراكا خفياً كما يفعله أهل الرياء ومن يطلب به أجراً . و ايثار وضع المظهر موضع المضمر فى الموضعين مع التعرض لعنوان الربوبية لزيادة التقرير وللاشعار بعلية العنوان للامر والنهى ووجوب الامتثال فعلا وتركا روى ان جندب بن زهير رضى الله عنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم انى لاعمل العمل لله تعالى فاذا اطلع عليه سرنى فقال عليه الصلاة والسلام أن الله لايقبل ماشورك فيه فنزلت تصديقاله وروى انه صلى الله عليه وسلم قال له لك أجران أجر السر وأجر العلانية وذلك اذا قصد أن يقتدى به وعنه عليه الصلاة والسلام « اتقوا الشرك الاصغر قيل وما الشرك الاصغر قال الرياء » . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الكهف من آخرها كانت له نورا من قرنه الى قدمه ومن قرأها كلها كانت له نورا من الارض الى السماء وعنه صلى الله عليه وسلم من قرأ عند مضجعه قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى الخ كان له من مضجعه نورا يتلألأ الى مكة حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يقوم وان كان مضجعه بمكة كان له نورا يتلألأ من مضجعه الى البيت المعمور حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يستيقظ الحمد لله سبحانه على نعمه العظام .

﴿ سورة مريم عليها السلام مكية ﴾

(الا آية السجدة وهى ثمان أو تسع وتسعون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(كهيعص) بامالة الهاء والياء واظهار الدال وقرىء بفتح الهاء وامالة الياء وبتفخيمهما وباخفاء النون قبل الصاد لتقاربهما وقد سلف ان مالا يكون من هذه الفواتح مفردة ولا موازنة لمفرد فطريق التلفظ بها الحكاية فقط ساكنة الاعجاز على

الوقف سواء جعلت اسماء للسور أومسرودة على نمط التعديد وان لزمها التقاء الساكنين لكونه مغتفرا فى باب الوقف قطعا فحق هذه الفاتحة الكريمة أن يوقف عليها جريا على الاصل وقرىء بادغام الدال فيما بعدها لتقاربهما فى المخرج فان جعلت اسما للسورة على ماعليه اطباق الاكثر فمحله الرفع اما على أنه خبر لمبتدا محذوف والتقدير هذا كهيعص أى مسمى به . وانما صحت الاشارة اليه مع عدم جريان ذكره لانه باعتبار كونه على جناح الذكر صار فى حكم الحاضر المشاهد كما يقال هذا مااشترى فلان أو على أنه مبتدأ خبره (ذكر رحمة ربك) أى المسمى به ذكر رحمة الخ فان ذكرها لما كان مطالع السورة الكريمة ومعظم ماانطوت هى عليه جعلت كأنها نفس ذكرها والاول هو الاولى لان مايجعل عنوانا للموضوع حقه أن يكون معلوم الانتساب اليه عند المخاطب واذ لاعلم بالتسمية من قبل فحقها الاخبار بها كما فى الوجه الاول وان جعلت مسرودة على نمط التعديد حسبما جنح اليه أهل التحقيق فذكر الخ خبر لمبتدا محذوف هو ماينبىء عنه تعديد الحروف كأنه قيل المؤلف من جنس هذه الحروف المبسوطة مرادا به السورة ذكر رحمة الخ أو اسم اشارة أشير به اليه تنزيلا لحضور المادة منزلة حضور المؤلف منها أى هذا ذكر رحمة الخ وقيل هو مبدأ قد حذف خبره أى فيما يتلى عليك ذكرها وقرىء ذكر رحمة ربك على صيغة الماضى من التذكير أى هذا المتلو ذكرها وقرىء ذكر على صيغة الامر . والتعرض لوصف الربوبية المنبئة عن التبليغ الى الكمال مع الاضافة الى ضميره عليه السلام للايذان بأن تنزيل السورة عليه عليه الصلاة والسلام تكميل له عليه السلام وقوله تعالى (عبده) مفعول لرحمة ربك على أنها مفعول لما أضيف اليها وقيل للذكر على أنه مصدر أضيف الى فاعله على الاتساع ومعنى ذكر الرحمة بلوغها واصابتها كما يقال ذكرنى معروف فلان أى بلغنى وقوله عز وعلا (زكريا) بدل منه أو عطف بيان له (اذ نادى ربه نداء خفيا) ظرف لرحمة ربك وقيل لذكر على أنه مضاف الى فاعله اتساعا لا على الوجه الاول لفساد المعنى وقيل هو بدل اشتمال من زكريا كما فى قوله «واذكر فى الكتاب مريم اذانتبذت» ولقد راعى عليه الصلاة والسلام حسن الادب فى اخفاء دعائه فانه مع كونه بالنسبة اليه عز وجل كالجهر أدخل فى الاخلاص وأبعد من الرياء وأقرب الى الخلاص عن لائمة الناس على طلب الولد لتوقفه على مبادلا يليق به تعاطيها فى أوان الكبر والشيخوخة وعن غائلة مواليه الذين كان يخافهم وقيل كان ذلك منه عليه السلام لضعف الهرم قالوا كان سنه حينئذ ستين وقيل خمسا وستين وقيل سبعين وقيل خمسا وسبعين وقيل ثمانين وقيل أكثر

منها كما مر فى تفسير سورة آل عمران (قال) جملة مفسرة لنادى لا محل لها من الاعراب (رب إنى وهن العظم منى) اسناد الوهن الى العظم لما أنه عماد البدن ودعام الجسد فاذا أصابه الضعف والرخاوة أصاب كله أو لانه أشد أجزائه صلابة وقواما وأقلها تأثرا من العلل فاذا وهن كان ما وراءه أوهن. وافراده للقصد الى الجنس المنبيء عن شمول الوهن لكل فرد من أفراده ومنى متعلق بمحذوف هو حال من العظم وقرىء وهن بكسر الهاء وبضمها أيضا. وتأكيد الجملة لابراز كمال الاعتناء بتحقيق مضمونها (واشتعل الرأس شيبا) شبه عليه الصلاة والسلام الشيب فى البياض والانارة بشواظ النار وانتشاره فى الشعر وفشوه فيه وأخذه منه كل مأخذ باشتعالها ثم أخرجه مخرج الاستعارة ثم أسند الاشتعال الى محل الشعر ومنبته وأخرجه مخرج التمييز وأطلق الرأس اكتفاء بما قيد به العظم وفيه من فنون البلاغة وكمال الجزالة ما لا يخفى حيث كان الاصل اشتعل شيب رأسى فأسند الاشتعال الى الرأس كما ذكر لافادة شموله لكلها فان وزانه بالنسبة الى الأصل وزان اشتعل بيته نارا بالنسبة الى اشتعل النار فى بيته ولزيادة تقريره بالاجمال أولا والتفصيل ثانيا ولمزيد تفخيمه بالتنكير وقرىء بادغام السين فى الشين (ولم أكن بدعائك رب شقيا) أى ولم أكن بدعائى اياك خائبا فى وقت من أوقات هذا العمر الطويل بل كلما دعوتك استجبت لى. والجملة معطوفة على ما قبلها أو حال من ضمير المتكلم اذ المعنى واشتعل رأسى شيبا وهذا توسل منه عليه السلام بما سلف منه من الاستجابة عند كل دعوة أثر تمهيد ما يستدعى الرحمة ويستجلب الرأفة من كبر السن وضعف الحال فانه تعالى بعد ما عود عبده بالاجابة دهرا طويلا لا يكاد يخيبه أبدا لاسيما عند اضطراره وشدة افتقاره. والتعرض فى الموضعين لوصف الربوبية المنبئة عن اضافة ما فيه صلاح المربوب مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام لاسيما توسيطه بين كان وخبرها لتحريك سلسلة الاجابة بالمبالغة فى التضرع ولذلك قيل اذا أراد العبد أن يستجاب له دعاؤه فليدع الله تعالى بما يناسبه من أسمائه وصفاته (وإنى خفت الموالى) عطف على قوله تعالى انى وهن العظم مترتب مضمونه على مضمونه فان ضعف القوى وكبر السن من مبادى خوفه عليه السلام من يلى امره بعد موته ومواليه بنو عمه وكانوا أشرار بنى اسرائيل فخاف أن لا يحسنوا خلافته فى أمته ويبدلوا عليهم دينهم وقوله (من ورائى) أى بعد موتى متعلق بمحذوف ينساق اليه الذهن أى فعل الموالى من بعدى أو جور الموالى وقد قرىء كذلك أو بمافى الموالى من معنى الولاية أى خفت الذين يلون الامر من ورائى لا بخفت لفساد المعنى وقرىء

وراى بالقصر وفتح الياء وقرئ خفت الموالى من ورائى أى قلوا وعجزوا عن القيام بأمور الدين بعدى أو خفت الموالى القادرون على اقامة مراسم الملة ومصالح الامة من خف القوم أى ارتحلوا مسرعين أى درجوا قدامى ولم يبق منهم من به تقو واعتضاد فالظرف حينئذ متعلق بخفت (وكانت امرأتى عاقرا) أى لا تلد من حين شبابها (فهب لى من لدنك) كلا الجارين متعلق بهب لاختلاف معنييهما فاللام صلة له ومن لابتداء الغاية مجازا. وتقديم الاول لكون مدلوله أهم عنده ويجوز تعلق الثانى بمحذوف وقع حالا من المفعول ولدن فى الاصل ظرف بمعنى أول غاية زمانا ومكانا أو غيرهما من الذوات وقد مر تفصيله فى أوائل سوره آل عمران أى أعطنى من محض فضلك الواسع وقدرتك الباهرة بطريق الاختراع لا بواسطة الاسباب العادية (وليا) أى ولدا من صلبى. وتأخيره عن الجارين لاظهار كمال الاعتناء بكون الهبة له على ذلك الوجه البديع على ما فيه من التشويق الى المؤخر فان ماحقه التقديم اذا أخر تبقى النفس مستشرفة له فعند وروده لها يتمكن عندها فضل تمكن ولان فيه نوع طول بما بعده من الوصف فتأخيرها عن الكل أو توسيطهما بين الموصوف والصفة مما لا يليق بجزالة النظم الكريم والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها فان ما ذكره عليه الصلاة والسلام من كبر السن وضعف القوى وعقر المرأة موجب لانقطاع رجائه عليه السلام عن حصول الولد بتوسط الاسباب العادية واستيهابه على الوجه الخارق للعادة ولا يقدح فى ذلك أن يكون هناك داع آخر الى الاقبال على الدعاء المذكور من مشاهدته عليه السلام للخوارق الظاهرة فى حق مريم كما يعرب عنه قوله تعالى «هنالك دعا زكريا ربه» الآية وعدم ذكره ههنا للتعويل على ذكره هناك كما أن عدم ذكر مقدمة الدعاء هناك للاكتفاء بذكره ههنا فان الاكتفاء بما ذكر فى موطن عما ترك فى موطن آخر من النكت التنزيلية وقوله تعالى (يرثنى) صفة لوليا وقرئ هو وما عطف عليه بالجزم جوابا للدعاء أى يرثنى من حيث العلم والدين والنبوة فان الانبياء عليهم الصلاة والسلام لا يورثون المال قال صلى الله عليه وسلم «نحن معاشر الانبياء لا نورث ما تركناه صدقة» وقيل يرثنى الحبورة وكان عليه السلام حبرا (ويرث من آل يعقوب) يقال ورثه وورث منه لغتان وآل الرجل خاصته الذين يؤول اليه أمرهم للقرابة أو الصحبة أو الموافقة فى الدين وكانت زوجة زكريا أخت أم مريم أى ويرث منهم الملك قيل هو يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم الصلاة والسلام وقال الكلبى ومقاتل هو يعقوب ابن ماثان أخو عمران بن ماثان من نسل سليمان عليه السلام وكان آل يعقوب أخوال

يحي بن زكريا قال الكلبي كان بنوما ثان رءوس بنى اسرائيل وملوكهم وكان زكريا رئيس الاحبار يومئذ فاراد أن يرثه ولده حبورته ويرث من بنى ماثان ملكهم وقرىء ويرث وارث آل يعقوب على انه حال من المستكن فى يرث . وقرىء أو يرث آل يعقوب بالتصغير ففيه إيماء الى وراثته عليه السلام لما يرثه فى حال الصغر وقرىء وارث من آل يعقوب على أنه فاعل يرثنى على طريقة التجريد أى يرثنى به وارث وقيل من للتبعيض اذ لم يكن كل آل يعقوب عليه السلام أنبياء ولا علماء (واجعله رب رضيا) مرضيا عندك قولا وفعلا . وتوسيط رب مفعولى اجعل للمبالغة فى الاعتناء بشأن مايستدعيه (يازكريا) على ارادة القول أى قال تعالى يازكريا (انا نبشرك بغلام اسمه يحي) لكن لابأن يخاطبه عليه الصلاة والسلام بذلك بالذات بل بواسطة الملك على أن يحكى له عليه الصلاة والسلام هذه العبارة عنه عز وجل على نهج قوله تعالى «قل ياعبادى الذين أسرفوا » الآية وقد مر تحقيقه فى سورة آل عمران وهذا جواب لندائه عليه الصلاة والسلام ووعد باجابة دعائه لكن لا كلا كما هو المتبادر من قوله تعالى «فاستجبناله ووهبنا له يحي » الخ بل بعضا حسبما تقتضيه المشيئة الالهية المبنية على الحكم البالغة فان الانبياء عليهم الصلاة والسلام وان كانوا مستجابى الدعوة لكنهم ليسوا كذلك فى جميع الدعوات ألا ترى الى دعوة ابراهيم عليه الصلاة والسلام فى حق أبيه والى دعوة النبى عليه الصلاة والسلام حيث قال « وسألته أن لايذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها» وقد كان من قضائه عز وعلا أن يهبه يحي نبيا مرضيا ولا يرثه فاستجيب دعاؤه فى الاول دون الثانى حيث قتل قبل موت أبيه عليهما الصلاة والسلام على ماهو المشهور وقيل بقى بعده برهة فلا اشكال حينئذ . وفى تعيين اسمه عليه الصلاة والسلام تأكيد للوعد وتشريف له عليه الصلاة والسلام . وفى تخصيصه به عليه السلام حسبما يعرب عنه قوله تعالى (لم نجعل له من قبل سميا) أى شريكا له فى الاسم حيث لم يسم أحد قبله بيحي مزيد تشريف وتفخيم له عليه الصلاة والسلام فان التسمية بالاسامى البديعة الممتازة عن أسماء سائر الناس تنويه بالمسمى لامحالة . وقيل سميا شبيها فى الفضل والكمال كما فى قوله تعالى «هل تعلم له سميا» فان المتشاركين فى الوصف بمنزلة المتشاركين فى الاسم قالوا لم يكن له عليه الصلاة والسلام مثل فى أنه لم يعص الله تعالى ولم يهم بمعصية قط وأنه ولد من شيخ فان وعجوز عاقر وأنه كان حصورا فيكون هذا اجمالا لما نزل بعده من قوله تعالى «مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين» والاظهر انه اسم أعجمى وان كان عربيا فهو منقول عن الفعل كيعمر ويعيش

قيل سمي به لانه حي به رحم أمه أو حي دين الله تعالى بدعوته (قال) استئناف مبني على السؤال كانه قيل فماذا قال عليه الصلاة والسلام حينئذ فقيل قال (رب) ناداه تعالى بالذات مع وصول خطابه تعالى اليه بتوسط الملك للمبالغة فى التضرع والمناجاة والجد فى التبتل اليه تعالى والاحتراز عما عسى يوهم خطابه للملك من توهم أن علمه تعالى بما يصدر عنه متوقف على توسطه كما أن علم البشر بما يصدر عنه سبحانه متوقف على ذلك فى عامة الاوقات (أنى يكون لى غلام) كلمة أنى بمعنى كيف أو من أين. وكان إما تامة وأنى واللام متعلقتان بها. وتقديم الجار على الفاعل لما مر مرارا من الاعتناء بما قدم والتشويق الى ما أخر أى كيف أو من أين يحدث لى غلام ويجوز أن تتعلق اللام بمحذوف وقع حالا من غلام اذ لو تأخر لكان صفة له أى أنى يحدث كائنا لى غلام أو ناقصة اسمها ظاهر وخبرها أما أنى ولى متعلق بمحذوف كما مر أو هو الخبر وأنى نصب على الظرفية وقوله تعالى (وكانت امرأتى عاقرا) حال من ضمير المتكلم بتقدير قد وكذا قوله تعالى (وقد بلغت من الكبر عتيا) حال منه مؤكدة للاستبعاد أثر تأكيد أى كانت امرأتى عاقرا لم تلد فى شبابها وشبابى فكيف وهى الآن عجوز وقد بلغت أنا من أجل كبر السن جساوة وقحولا فى المفاصل والعظام أو بلغت من مدارج الكبر ومراتبه ما يسمى عتيا من عتا يعتو وأصله عتو وكقعود فاستثقل توالى الضمتين والواوين فكسرت التاء فانقلبت الاولى ياء لسكونها وانكسار ما قبلها ثم قلبت الثانية أيضا لاجتماع الواو والياء وسبق احداهما بالسكون وكسرت العين اتباعا لها لما بعدها. وقرىء بضمها ولعل البداءة ههنا بذكر حال امرأته على عكس ما فى سورة آل عمران لما أنه قد ذكر حاله فى تضاعيف دعائه وانما المذكور ههنا بلوغه أقصى مراتب الكبر تتمة لما ذكر قبل وأما هنالك فلم يسبق فى الدعاء ذكر حاله فلذلك قدمه على ذكر حال امرأته لما أن المسارعة الى بيان قصور شأنه أنسب وانما قاله عليه الصلاة والسلام مع سبق دعائه بذلك وقوة يقينه بقدرة الله لاسيما بعد مشاهدته للشواهد المذكورة فى سورة آل عمران استعظاما لقدرة الله تعالى وتعجيبا منها واعتدادا بنعمته تعالى عليه فى ذلك باظهار أنه من محض لطف الله عز وعلا وفضله مع كونه فى نفسه من الامور المستحيلة عادة لا استبعادا له. وقيل انما قاله ليجاب بما أجيب به فيزداد المؤمنون ايقانا ويرتدع المبطلون وقيل كان ذلك منه عليه الصلاة والسلام استفهاما عن كيفية حدوثه وقيل بل كان ذلك بطريق الاستبعاد حيث كان بين الدعاء والبشارة ستون سنة وكان قد نسى دعاءه وهو بعيد (قال) استئناف كما مر مبنى على سؤال نشأ مما سلف والكاف فى قوله تعالى

(كذلك قال ربك) مقحمة كما فى مثلك لايبخل محلها إماالنصب على أنه مصدر تشبيهى لقال الثانى وذلك اشارة الى مصدره الذى هو عبارة عن الوعد السابق لا الى قول آخر شبه هذا به وقد مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى «وكذلك جعلنا كم أمة وسطا» وقوله تعالى (هو على هين) جملة مقررة للوعد المذكور دالة على انجازه داخلة فى حيز قال الاول كانه قيل قال الله عز وجل مثل ذلك القول البديع قلت أى مثل ذلك الوعد الخارق للعادة وعدت هو على خاصة هين وإن كان فى العادة مستحيلا . وقرىء «وهو على هين» فالجملة حينئذ حال من ربك والياء عبارة عن ضميره كما ستعرفه أو اعتراض وعلى كل حال فهى مؤكدة ومقررة لماقبلها ثم أخرج القول الثانى مخرج الالتفات جريا على سنن الكبرياء لتربية المهابة وادخال الروعة كقول الخلفاء أمير المؤمنين يرسم لك. مكان أنا أرسم. ثم أسند الى اسم الرب المضاف الى ضميره عليه السلام تشريفاً له واشعارا بعلة الحكم فان تذكير جريان أحكام ربوبيته تعالى عليه عليه الصلاة والسلام من إيجاده من العدم وتصريفه فى أطوار الخلق من حال الى حال شيئا فشيئا الى أن يبلغ كماله اللائق به مما يقلع أساس استبعاده عليه الصلاة والسلام لحصول الموعود. ويورثه عليه الصلاة والسلام الاطمئنان بانجازه لامحالة ثم التفت من ضمير الغائب العائد الى الرب الى ياء العظمة إيذانا بان مدار كونه هينا عليه سبحانه هو القدرة الذاتية لاربوبيته تعالى له عليه الصلاة والسلام خاصة وتمهيدا لما يعقبه. وقيل ذلك إشارة الى مبهم يفسره قوله تعالى «هو على هين» على طريقة قوله تعالى «وقضينا اليه ذلك الامر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين» ولايخرج هذا الوجه على القراءة بالواو لأنها لاتدخل بين المفسر والمفسر وأما الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف وذلك اشارة الى ماتقدم من وعده تعالى أى قال عز وعلا الامر كما وعدت وهو واقع لامحالة وقوله تعالى قال ربك الخ استئناف مقرر لمضمونه والجملة المحكية على القراءة الثانية معطوفة على المحكية الاولى أو حال من المستكن فى الجار والمجرور وأياما كان فتوسيط قال بينهما مشعر بمزيد الاعتناء بكل منهما. والكلام فى اسناد القول الى الرب ثم الالتفات الى التكلم كالذى مر آنفا وقيل ذلك اشارة الى ماقاله زكريا عليه الصلاة والسلام أى قال تعالى الامر كما قلت تصديقا له فيما حكاه من الحالة المباينة للولادة فى نفسه وفى امرأته وقوله تعالى قال ربك الخ استئناف مسوق لازالة استبعاده بعد تقريره أى قال تعالى هو مع بعده فى نفسه على هين. والقراءة الثانية أدخل فى افادة هذا المعنى على أن الواو للعطف وأما جعلها للحال فمخل بسداد المعنى لان مآله تقرير صعوبته حال سهولته عليه تعالى مع أن المقصود بيان سهولته عليه سبحانه مع صعوبته

فى نفسه وقوله تعالى (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً) جملة مستأنفة مقررة لما قبلها والمراد به ابتداء خلق البشر اذ هو الواقع اثر لعدم المحض لا ما كان بعد ذلك بطريق التوالى المعتاد وانما لم ينسب ذلك الى آدم عليه الصلاة والسلام وهو المخلوق من العدم حقيقة بأن يقال وقد خلقت أباك أو آدم من قبل ولم يك شيئاً مع كفايته فى ازالة الاستبعاد بقياس حال ما بشر به على حاله عليه الصلاة والسلام لتأكيد الاحتجاج وتوضيح منهاج القياس حيث نبه على أن كل فرد من أفراد البشر له حظ من انشائه عليه الصلاة والسلام من العدم اذ لم تكن فطرته البديعة مقصورة على نفسه بل كانت أنموذجاً منطوياً على فطرة سائر آحاد الجنس انطواء إجماليا مستتبعا لجريان آثارها على الكل فكان ابداعه عليه الصلاة والسلام على ذلك الوجه ابداعا للكل أحد من فروعه كذلك . ولما كان خلقه عليه الصلاة والسلام على هذا النمط السارى الى جميع أفراد ذريته أبدع من أن يكون ذلك مقصوراً على نفسه كما هو المفهوم من نسبة الخلق المذكور اليه وأدل على عظم قدرته تعالى وكمال علمه وحكمته وكان عدم زكريا حينئذ أظهر عنده وأجلى وكان حاله أولى بان يكون معيارا لحال ما بشر به نسب الخلق المذكور اليه كما نسب الخلق والتصوير الى المخاطبين فى قوله تعالى « ولقد خلقناكم ثم صورناكم » توفية لمقام الامتنان حقه فكأنه قيل وقد خلقتك من قبل فى تضاعيف خلق آدم ولم تكن اذ ذاك شيئا أصلا بل عدما بحتا ونفيا صرفا هذا . وأما حمل الشئ على المعتد به أى ولم تكن شيئا معتدا به فيأباه المقام ويرده نظم الكلام . وقرئ خلقناك (قال رب اجعل لى آية) أى علامة تدلنى على تحقق المسئول ووقوع الحبل ولم يكن هذا السؤال منه عليه الصلاة والسلام لتأكيد البشارة وتحقيقها كما قيل فان ذلك مما لا يليق بمنصب الرسالة وانما كان ذلك لتعريف وقت العلوق حيث كانت البشارة مطلقة عن تعيينه وهو أمر خفى لا يوقف عليه فاراد أن يطلعه الله تعالى عليه ليتلقى تلك النعمة الجليلة بالشكر من حين حدوثها ولا يؤخره الى أن تظهر ظهورا معتادا وقد مرت الاشارة فى تفسير سورة آل عمران الى أن هذا السؤال ينبغى أن يكون بعد ما مضى بعد البشارة برهة من الزمان لما روى أن يحيى كان أكبر من عيسى عليهما الصلاة والسلام بستة أشهر أو بثلاث سنين ولا ريب فى أن دعاء زكريا عليه الصلاة والسلام كان فى صغر مريم لقوله تعالى « هنا لك دعا زكريا ربه » وهى انما ولدت عيسى عليه الصلاة والسلام وهى بنت عشر سنين أو بنت ثلاث عشرة سنة . والجعل ابداعى واللام متعلقة به وتقديمها على المفعول به لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر أو بمحذوف وقع حالا من آية اذ لو تأخر

لكان صفة لها وقيل بمعنى التصيير المستدعى لمفعولين أولها آية وثانيهما الظرف وتقديمه لانه لا مسوغ لكون آية مبتدأ عند انحلال الجملة الى مبتدأ وخبر سوى تقديم الظرف فلا يتغير حالها بعد ورود الناسخ (قال آيتك أن لاتكلم الناس) أى ان لاتقدر على أن تكلمهم بكلام الناس مع القدرة على الذكر والتسبيح (ثلاث ليال) مع أيامهن للتصريح بها فى سورة آل عمران (سويا) حال من فاعل تكلم مفيد لكون انتفاء التكلم بطريق الاضطرار دون الاختيار أى تمنع الكلام فلا تطيق به حال كونك سوى الخلق سليم الجوارح مابك شائبة بكم ولاخرس (فخرج على قومه من المحراب) أى من المصلى أو من الغرفة وكانوا من وراء المحراب ينتظرونه أن يفتح لهم الباب فيدخلوه ويصلوا اذ خرج عليهم متغيرا لونه فأنكروه وقالوا مالك (فاوحى اليهم) أى أومأ اليهم لقوله تعالى «الا رمزا» وقيل كتب على الارض وأن فى قوله تعالى (أن سبحوا) إما مفسرة لأوحى أومصدرية والمعنى أى صلوا أو بأن صلوا (بكرة وعشيا) هما ظرفا زمان للتسبيح عن أبى العالية أن المراد بهما صلاة الفجر وصلاة العصر أو نزهوا ربكم طرفى النهار ولعله كان مأمورا بان يسبح شكرا ويأمر قومه بذلك (يا يحيى) استئناف طوى قبله جمل كثيرة مسارعة الى الانباء بانجاز الوعد الكريم أى قلنا يايحيى (خذ الكتاب) أى التوراة (بقوة) أى بجد واستظهار بالتوفيق (وآتيناه الحكم صبيا) قال ابن عباس رضى الله عنهما الحكم النبوة استنبأه وهو ابن ثلاث سنين . وقيل الحكم الحكمة وفهم التوراة والفقه فى الدين روى أنه دعاه الصبيان الى اللعب فقال ما للعب خلقنا (وحنانا من لدنا) عطف على الحكم وتنوينه للتفخيم وهو التحنن والاشتياق. ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة له مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية أى وآتيناه رحمة عظيمة عليه كائنة من جنابنا أو رحمة فى قلبه وشفقة على أبويه وغيرهما (وزكوة) أى طهارة من الذنوب أو صدقة تصدقنا به على أبويه أو وفقناه للتصدق على الناس (وكان تقيا) مطيعا متجنبا عن المعاصى (وبرا بوالديه) عطف على تقيا أى بارا بهما لطيفا بهما محسنا اليهما (ولم يكن جبارا عصيا) متكبرا عاقا لهما أو عاصيا لربه (وسلام عليه) من الله عز وجل (يوم ولد) من أن يناله الشيطان بما ينال به بنى آدم (ويوم يموت) من عذاب القبر (ويوم يبعث حيا) من هول القيامة وعذاب النار (واذكر فى الكتاب) كلام مستأنف خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام وأمر بذكر قصة مريم أثر قصة زكريا لما بينهما من كمال الاشتباك والمراد بالكتاب السورة الكريمة لا القرآن اذ هى

التى صدرت بقصة زكريا المستتبعة لذكر قصتها وقصص الانبياء المذكورين فيها أى
واذكر للناس (مريم) أى نبأها فان الذكر لا يتعلق بالاعيان وقوله تعالى (اذ انتبذت)
ظرف لذلك المضاف لكن لا على أن يكون المأمور به ذكر نبئها عند انتباذها فقط بل
كل ما عطف عليه وحكى بعده بطريق الاستئناف داخل فى حيز الظرف متمم للنبأ
وقيل بدل اشتمال من مريم على أن المراد بها نبؤها فان الظروف مشتملة على ما فيها
وقيل بدل الكل على أن المراد بالظرف ما وقع فيه وقيل اذ بمعنى أن المصدرية كما فى
قولك أكرمتك اذ لم تكرمنى أى لان لم تكرمنى فهو بدل الاشتمال لامحالة وقوله تعالى
(من أهلها) متعلق بانتبذت وقوله (مكانا شرقيا) مفعول له باعتبار ما فى ضمنه من
معنى الاتيان المترتب وجودا واعتبارا على أصل معناه العامل فى الجار والمجرور وهو
السر فى تأخيره عنه أى اعتزلت وانفردت منهم وأتت مكانا شرقيا من بيت المقدس
أو من دارها لتتخلى هنالك للعبادة . وقيل قعدت فى مشرفة لتغتسل من الحيض محتجبة
بحائط أو بشىء يسترها وذلك قوله تعالى (فاتخذت من دونهم حجابا) وكان موضعها
المسجد فاذا حاضت تحولت الى بيت خالتها واذا طهرت عادت الى المسجد فبينما هى فى مغتسلها
أتاها الملك عليه الصلاة والسلام فى صورة آدمى شاب أمرد وضىء الوجه جعد الشعر وذلك قوله
تعالى (فأرسلنا اليها روحنا) أى جبريل عليه الصلاة والسلام عبر عنه بذلك توفية للمقام حقه
وقرئ بفتح الراء لكونه سببا لما فيه روح العباد الذى هو عدة المقربين فى قوله تعالى «فأما
ان كان من المقربين فروح وريحان» (فتمثل لها بشرا سويا) سوى الخلق كامل البنية لم
يفقد من حسان نعوت الآدمية شيئا وقيل تمثل فى صورة ترب لها اسمه يوسف من
خدم بيت المقدس وذلك لتستأنس بكلامه وتتلقى منه ما يلقى اليها من كلماته تعالى
اذ لو بدا لها على الصورة الملكية لنفرت منه ولم تستطع مفاوضته . وأما ما قيل من أن
ذلك لتهييج شهوتها فتنحدر نطفتها الى رحمها فمع مخالفته لمقام بيان آثار القدرة الخارقة
للعادة يكذبه قوله تعالى (قالت إنى أعوذ بالرحمن منك) فانه شاهد عدل بانه لم يخطر
ببالها شائبة ميل ما اليه فضلا عما ذكر من الحالة المترتبة على أقصى مراتب الميل والشهوة
نعم كان تمثيله على ذلك الحسن الفائق والجمال الرائق لابتلائها وسبر عفتها ولقد ظهر
منها من الورع والعفاف ما لا غاية وراءه وذكره تعالى بعنوان الرحمانية للمبالغة فى
العياذ به تعالى واستجلاب آثار الرحمة الخاصة التى هى العصمة مما دهمها وقوله تعالى
(إن كنت تقيا) أى تتقى الله تعالى وتبالى بالاستعاذة به وجواب الشرط محذوف
ثقة بدلالة السياق عليه أى فانى عائذة به أو فتعوذ بتعوذى أو فلا تتعرض لى (قال انما

أنا رسول ربك) يريد عليه الصلاة والسلام أنى لست ممن يتوقع منه ماتوهمت من الشر وانما أنا رسول ربك الذى استعذت به (لأهب لك غلاما) أى لأكون سببا فى هبته بالنفخ فى الدرع . ويجوزأن يكون ذلك حكاية لقوله تعالى و يؤيده القراءة بالياء . والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميرها لتشريفها وتسليتها والاشعار بعلة الحكم فان هبة الغلام لها من أحكام تربيتها وفى بعض المصاحف أمرنى أن أهب لك غلاما (زكيا) طاهرا من الذنوب أو ناميا على الخير أى مترقيا من سن الى سن على الخير والصلاح (قالت أنى يكون لى غلام) كما وصفت (ولم يمسسنى بشر) أى والحال أنه لم يباشرنى بالنكاح رجل. وانما قيل بشر مبالغة فى بيان تنزهها من مبادى الولادة (ولم أك بغيا) عطف على لم يمسسني داخل معه فى حكم الحالية مفصح عن كون المساس عبارة عن المباشرة بالنكاح أى ولم أكن فاجرة تبغي الرجال وهى فعول بمعنى الفاعل أصلها بغوى فأدغمت الواو بعد قلبها ياء فى الياء وكسرت الغين للياء . وقيل هى فعيل بمعنى الفاعل والا لقيل بغو كما يقال فلان نهو عن المنكر. وانما لم تلحقه التاء لانه من باب النسب كطالق أو بمعنى المفعول أى يبغيها الرجال للفجور بها (قال) أى الملك تقريراً لمقالته وتحقيقا لها (كذلك) أى الامر كما قلت لك وقوله تعالى (قال ربك) الخ استئناف مقرر له أى قال ربك الذى أرسلنى اليك (هو) أى ما ذكرت لك من هبة الغلام من غير أن يمسك بشر أصلا (على) خاصة (هين) وان كان مستحيلا عادة لما أنى لا أحتاج الى الاسباب والوسايط وقوله تعالى (ولنجعله آية للناس) إما علة لمعلل محذوف أى ولنجعل وهب الغلام آية لهم وبرهانا يستدلون به على كمال قدرتنا نفعل ذلك أو معطوف على علة أخرى مضمرة أى لنبين به عظم قدرتنا ولنجعله آية الخ والواو على الأول اعتراضية والالتفات إلى نون العظمة لاظهار كمال الجلالة (ورحمة) عظيمة كائنة(منا) عليهم يهتدون بهدايته ويسترشدون بارشاده (وكان) ذلك (أمراً مقضيا) محكما قد تعلق به قضاؤنا الازلى أو قدر وسطر فى اللوح لا بد من جريانه عليك ألبتة أو كان أمراً حقيقا بأن يقضى ويفعل لتضمنه حكما بالغة (فحملته) بأن نفخ جبريل عليه الصلاة و السلام فى درعها فدخلت النفخة فى جوفها قيل انه عليه الصلاة والسلام رفع درعها فنفخ فى جيبه فحملت وقيل نفخ عن بعد فوصل الريح اليها فحملت فى الحال وقيل ان النفخة كانت فى فيها وكانت مدة حملها سبعة أشهر وقيل ثمانية ولم يعش مولود وضع لثمانية أشهر غيره. وقيل تسعة أشهر وقيل ثلاث ساعات وقيل ساعة كما حملت وضعته وسنها حينئذ ثلاث عشرة سنة وقيل عشر سنين وقد حاضت حيضتين (فانتبذت به) أى فاعتزلت وهو فى بطنها كما فى قوله

، تدوس بنا الجماجم والتريبا ، فالجار والمجرور في حيز النصب على الحالية أي فانتبذت ملتبسة به (مكانا قصيا) بعيدا من أهلها وراء الجبل وقيل أقصى الدار وهو الانسب بقصر مدة الحمل (فأجاءها المخاض) أي فألجأها وهو في الاصل منقول من جاء لكنه لم يستعمل في غيره كآتى في أعطى. وقرىء المخاض بكسر الميم وكلاهما مصدر مخضت المرأة اذا تحرك الولد في بطنها للخروج (الى جذع النخلة) لتستتر به وتعتمد عليه عند الولادة وهو ما بين العرق والغصن وكانت نخلة يابسة لا رأس لها ولا خضرة وكان الوقت شتاء . والتعريف إما للجنس أو للعهد اذ لم يكن ثمة غيرها وكانت كالمتعالم عند الناس ولعله تعالى ألهمها ذلك ليريها من آياته ما يسكن روعتها ويطعمها الرطب الذى هو خرسة النفساء الموافقة لها (قالت ياليتنى مت) بكسر الميم من مات يمات كخفت وقرىء بضمها من مات يموت (قبل هذا) أي هذا الوقت الذي لقيت فيه ما لقيت وانما قالته مع أنها كانت تعلم ما جرى بينها وبين جبريل عليه السلام من الوعد الكريم استحياء من الناس وخوفا من لائمتهم أو حذارا من وقوع الناس في المعصية بما تكلموا فيها أو جريا على سنن الصالحين عند اشتداد الامر عليهم كما روى عن عمر رضى الله عنه انه أخذ تبنة من الارض فقال ياليتنى هذه التبنة ولم أك شيئاً. وعن بلال انه قال ليت بلالا لم تلده أمه (وكنت نسيا) أي شيئاً تافها شأنه أن ينسى ولا يعتد به أصلا وقرىء بالكسر قيل هما لغتان في ذلك كالوتر والوتر وقيل هو بالكسر اسم لما ينسى كالنقض اسم لما ينقض وبالفتح مصدر سمى به المفعول مبالغة وقرىء بهما مهموزا من نسأت اللبن اذا صببت عليه الماء فصار مستهلكا فيه. وقرىء نسا كعصا (منسيا) لا يخطر ببال أحد من الناس وهو نعت للمبالغة وقرىء بكسر الميم إتباعا له بالسين (فناداها) أي جبريل عليه السلام (من تحتها) قيل انه كان يقبل الولد وقيل من تحتها أي من مكان أسفل منها تحت الاكمة وقيل من تحت النخلة وقيل ناداها عيسى عليه السلام وقرىء فخاطبها من تحتها بفتح الميم (أن لاتحزنى) أي لاتحزنى على أن إن مفسرة أو بأن لاتحزنى على أنها مصدرية قد حذف عنها الجار (قد جعل ربك تحتك) أي بمكان أسفل منك وقيل تحت أمرك إن أمرت بالجرى جري وان أمرت بالامساك أمسك (سريا) أي نهرا صغيرا حسبما روى مرفوعا قال ابن عباس رضى الله عنه ان جبريل عليه السلام ضرب برجله الأرض فظهرت عين ماء عذب فجرى جدولا وقيل فعله عيسى عليه السلام وقيل كان هناك نهر يابس أجرى الله عز وجل فيه الماء حينئذ كما فعل مثله بالنخلة فانها كانت نخلة يابسة لا رأس لها ولا ورق فضلا عن الثمر وكان الوقت شتاء فجعل الله لها إذ

ذاك رأسا وخوصا وثمرا وقيل كان هناك ماء جار والأول هو الموافق لمقام بيان ظهور الخوارق والمتبادر من النظم الكريم وقيل سريا أي سيدا نبيلا رفيع الشأن جليلا وهو عيسى عليه السلام فالتنوين للتفخيم والجملة تعليل لانتفاء الحزن المفهوم من النهى عنه والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة إلى ضميرها لتشريفها وتأكيد التعليل وتكميل التسلية (وهزى) هز الشيء تحريكه الى الجهات المتقابلة تحريكا عنيفا متداركا والمراد ههنا ما كان منه بطريق الجذب والدفع لقوله تعالى (اليك) أى الى جهتك والباء فى قوله عز وعلا (بجذع النخلة) صلة للتأكيد كما فى قوله تعالى «ولا تلقوا بأيديكم» الخ قال الفراء تقول العرب هزه وهز به وأخذ الخطاب وأخذ بالخطاب أو لالصاق الفعل بمدخولها أى افعلى الهز بجذعها أو هزى الثمرة بهزه وقيل هى متعلقة بمحذوف وقع حالا من مفعول الهز أى هزى اليك الرطب كائنا بجذعها (تساقط) أى تسقط النخلة (عليك) اسقاطا متواترا حسب تواتر الهز وقرىء تسقط ويسقط من الاسقاط بالتاء والياء وتساقط بأظهار التاءين وتساقط بطرح الثانية وتساقط بأدغامها فى السين ويساقط بالياء كذلك وتسقط ويسقط من السقوط على أن التاء فى الكل للنخلة والياء للجذع وقوله تعالى (رطبا) على القراءات الثلاث الأول مفعول وعلى الست البواقى تمييز وقوله تعالى (جنيا) صفة له وهو ما قطع قبل يبسه فعيل بمعنى مفعول أى رطبا جنيا أى صالحا للاجتناء . وقيل بمعنى فاعل أى طريا طيبا وقرىء جنيا بكسر الجيم للاتباع (فكلى واشربى) أى ذلك الرطب وماء السرى أو من الرطب وعصيره (وقرى عينا) وطيبى نفسا وارفضى عنها ما أحزنك وأهمك فانه تعالى قد نزه ساحتك عما اختلج فى صدور المتعبدين بالأحكام العادية بأن أظهر لهم من البسائط العنصرية والمركبات النباتية ما يخرق العادات التكوينية ويرشدهم إلى الوقوف على سريرة أمرك . وقرىء وقرى بكسر القاف وهى لغة نجد واشتقاقه من القرار فان العين إذا رأت مايسر النفس سكنت اليه من النظر إلى غيره أو من القر فان دمعة السرور باردة ودمعة الحزن حارة ولذلك يقال قرة العين وسخنة العين للمحبوب والمكروه (فأما ترين من البشر أحدا) أى آدميا كائنا من كان . وقرىء ترئن على لغة من يقول لبأت بالحج لما بين الهمزة والياء من التآخى (فقولى) له إن استنطقك (إنى نذرت للرحمن صوما) أى صمتا وقد قرىء كذلك أو صياما وكان صيامهم بالسكوت (فلن أكلم اليوم إنسيا) أى بعد أن أخبرتكم بنذرى وانما أكلم الملائكة وأناجى ربى وقيل أمرت بأن تخبر بنذرها بالاشارة وهو الأظهر قال الفراء العرب تسمى كل ما وصل الى الانسان كلاما بأى طريق

وصل ما لم يؤكد بالمصدر فاذا أكد لم يكن إلا حقيقة الكلام وانما أمرت بذلك لكراهة مجادلة السفهاء ومناقلتهم والاكتفاء بكلام عيسى عليه السلام فانه نص قاطع فى قطع الطعن (فأتت به قومها) أى جاءتهم مع ولدها راجعة اليهم عندما طهرت من نفاسها (تحمله) أى حاملة له (قالوا) مؤنبين لها (يامريم لقد جئت) أى فعلت (شيئا فريا) أى عظيما بديعا منكرا من فرى الجلد أى قطعه أو جئت مجيئا عجيبا عبر عنه بالشىء تحقيقا للاستغراب (ياأخت هرون) استئناف لتجديد التعيير وتأكيد التوبيخ عنوا به هرون النبى عليه السلام وكانت من أعقاب من كان معه فى طبقة الاخوة وقيل كانت من نسله وكان بينهما ألف سنة وقيل هو رجل صالح أو طالح كان فى زمانهم شبهوها به أى كنت عندنا مثله فى الصلاح أو شتموها به (ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا) تقرير لكون ما جاءت به فريا منكرا وتنبيه على أن ارتكاب الفواحش من أولاد الصالحين أفحش (فأشارت اليه) أى الى عيسى عليه السلام أن كلموه والظاهر أنها حينئذ بينت نذرها وأنها بمعزل من محاورة الانس حسبما أمرت ففيه دلالة على أن المأمور به بيان نذرها بالاشارة لا بالعبارة والجمع بينهما مما لا عهد به (قالوا) منكرين لجوابها (كيف نكلم من كان فى المهد صبيا) ولم نعهد فيما سلف صبيا يكلمه عاقل وقيل كان لايقاع مضمون الجملة فى زمان ماض مبهم صالح لقريبه وبعيده وهو ههنا لقريبه خاصة بدليل أنه مسوق للتعجب وقيل هى زائدة والظرف صلة من وصبيا حال من المستكن فيه أو هى تامة أو دائمة كما فى قوله تعالى «وكان الله عليما حكيما» (قال) استئناف مبنى على سؤال نشأ من سياق النظم الكريم كأنه قيل فماذا كان بعد ذلك فقيل قال عيسى عليه السلام (إنى عبد الله) أنطقه الله عز وجل بذلك أولا تحقيقا للحق وردا على من يزعم ربوبيته قيل كان المستنطق لعيسى زكريا عليهما الصلاة والسلام. وعن السدى رضى الله عنه لما أشارت اليه غضبوا وقالوا لسخريتها بنا أشد علينا مما فعلت. وروى أنه عليه السلام كان يرضع فلما سمع ذلك ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه واتكأ على يساره وأشار اليهم بسبابته فقال ما قال الخ وقيل كلمهم بذلك ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغا يتكلم فيه الصبيان (آتانى الكتاب) أى الانجيل (وجعلنى نبيا وجعلنى) مع ذلك (مباركا) نفاعا معلما للخير. والتعبير بلفظ الماضى فى الافعال الثلاثة إما باعتبار ما سبق فى القضاء المحتوم أو بجعل ما فى شرف الوقوع لا محالة واقعا وقيل أكمله الله عقلا واستنبأه طفلا (أينما كنت) أى حيثما كنت (وأوصانى بالصلاة) أى أمرنى بها أمرا مؤكدا (والزكاة) زكاة المال ان ملكته أو بتطهير

النفس عن الرذائل» (مادمت حيا) فى الدنيا (وبرا بوالدتى) عطف على مباركا أى جعلنى باراً بها وقرىء بالكسر على أنه مصدر وصف به مبالغة أومنصوب بمضمر دل عليه أوصانى أى وكلفنى براً ويؤيده القراءة بالكسر والجر عطفا على الصلاة والزكاة والتنكير للتفخيم (ولم يجعلنى جبارا شقيا) عند الله تعالى لفرط تكبره (والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا) كما هو على يحيى على أن التعريف للعهد والاظهر أنه للجنس والتعريض باللعن على أعدائه فان اثبات جنس السلام لنفسه تعريض باثبات ضده لاضداده كما فى قوله تعالى «والسلام على من اتبع الهدى» فانه تعريض بأن العذاب على من كذب وتولى (ذلك) إشارة الى من فصلت نعوته الجليلة وما فيه معنى البعد للدلالة على علو مرتبته وبعد منزلته وامتيازه بتلك المناقب الحميدة عن غيره ونزوله منزلة المشاهد المحسوس (عيسى ابن مريم) لا مايصفه النصارى وهو تكذيب لهم فيما يزعمونه على الوجه الابلغ والمنهاج البرهانى حيث جعله موصوفا باضداد مايصفونه (قول الحق) بالنصب على أنه مصدر مؤكد لقال إنى عبد الله الخ وقوله تعالى «ذلك عيسى ابن مريم» اعتراض مقرر لمضمون ماقبله وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدا محذوف أى هو قول الحق الذى لاريب فيه والاضافة للبيان والضمير للكلام السابق أو لتمام القصة وقيل صفة عيسى أو بدل له أو خبر ثان ومعناه كلمة الله وقرىء قال الحق وقول الحق فان القول والقول والقال فى معنى واحد (الذى فيه يمترون) أى يشكون أو يتنازعون فيقول اليهود ساحر والنصارى ابن الله وقرىء بتاء الخطاب (ما كان لله) أى ماصح وما استقام له تعالى (أن يتخذ من ولد سبحانه) تكذيب للنصارى وتنزيه له تعالى عما بهتوه وقوله تعالى (اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون) تبكيت لهم ببيان أن شأنه تعالى اذا قضى أمرا من الامور أن يعلق به ارادته فيكون حينئذ بلا تأخير فمن هذا شأنه كيف يتوهم أن يكون له ولد وقرىء فيكون بالنصب على الجواب وقوله تعالى (وإن الله ربى وربكم فاعبدوه) من تمام كلام عيسى عليه السلام قيل هو عطف على قوله إنى عبد الله داخل تحت القول وقد قرىء بغير واو وقرىء بفتح الهمزة على حذف اللام أى ولانه تعالى ربى وربكم فاعبدوه كقوله تعالى «وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا» وقيل معطوف على الصلاة (هذا) أى الذى ذكرته من التوحيد (صراط مستقيم) لا يضل سالكه والفاء فى قوله تعالى (فاختلف الاحزاب من بينهم) لترتيب مابعدها على ماقبلها تنبيها على سوء صنيعهم بجعلهم ما يوجب الاتفاق منشأ للاختلاف فان ماحكى من مقالات عيسى عليه السلام مع كونها نصوصا قاطعة فى كونه عبده

تعالى ورسوله قد اختلفت اليهود والنصارى بالتفريط والافراط أوفرق النصارى فقالت النسطورية هو ابن الله وقالت اليعقوبية هو الله هبط الى الارض ثم صعد الى السماء تعالى عن ذلك علواً كبيرا وقالت الملكانية هو عبد الله ونبيه (فويل للذين كفروا) وهم المختلفون عبر عنهم بالموصول إيذانا بكفرهم جميعا واشعاراً بعلة الحكم (من مشهد يوم عظيم) أى من شهود يوم عظيم الهول والحساب و الجزاء وهو يوم القيامة أو من وقت شهوده أو من مكان الشهود فيه أو من شهادة ذلك اليوم عليهم وهو أن يشهد عليهم الملائكة والانبياء عليهم السلام و ألسنتهم وآذانهم وأيديهم وأرجلهم وسائر آرابهم بالكفر والفسوق أو من وقت الشهادة أو من مكانها وقيل هو ما شهدوا به فى حق عيسى وأمه عليهما السلام (أسمع بهم وأبصر) تعجب من حدة سمعهم وأبصارهم يومئذ ومعناه ان أسماعهم وأبصارهم (يوم يأتوننا) للحساب والجزاء أى يوم القيامة جدير بان يتعجب منهما بعد أن كانوا فى الدنيا صما عميا أو تهديد بما سيسمعون و يبصرون يومئذ وقيل أمر بأن يسمعهم و يبصرهم مواعيد ذلك اليوم وما يحيق بهم فيه والجار والمجرور على الاول فى موقع الرفع وعلى الثانى فى حيز النصب (لكن الظالمون اليوم) أى فى الدنيا (فى ضلال مبين) لاتدرك غايته حيث أغفلوا الاستماع والنظر بالكلية ووضع الظالمين موضع الضمير للايذان بأنهم فى ذلك ظالمون لانفسهم (وأنذرهم يوم الحسرة) أى يوم يتحسر الناس قاطبة أما المسيء فعلى اساءته وأما المحسن فعلى قلة إحسانه (إذ قضى الامر) أى فرغ من الحساب وتصادر الفريقان الى الجنة والنار. روى أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن ذلك فقال حين يجاء بالموت على صورة كبش أملح فيذبح والفريقان ينظرون فينادى المنادى يا أهل الجنة خلود فلا موت و يا أهل النار خلود فلا موت فيزداد أهل الجنة فرحا الى فرح وأهل النار غما الى غم وإذ بدل من يوم الحسرة أو ظرف للحسرة فان المصدر المعرف باللام يعمل فى المفعول الصريح عند بعضهم فكيف بالظرف (وهم فى غفلة) أي عما يفعل بهم فى الآخرة (وهم لايؤمنون) وهما جملتان حاليتان من الضمير المستتر فى قوله تعالى فى ضلال مبين أى مستقرون فى ذلك وهم فى تينك الحالتين وما بينهما اعتراض أو من مفعول أنذرهم أى أنذرهم غافلين غير مؤمنين فيكون حالا متضمنة لمعنى التعليل (إنا نحن نرث الارض ومن عليها) لايبقى لأحد غيرنا عليها وعليهم ملك ولا ملك أو نتوفى الارض ومن عليها بالافناء والاهلاك توفى الوارث لإرثه (والينا يرجعون) أى يردون للجزاء لا إلى غيرنا استقلالا أو اشتراكا

(واذكر) عطف على أنذرهم (فى الكتاب) أى فى السورة أو فى القرآن (ابراهيم) أى اتل على الناس قصته وبلغها اياهم كقوله تعالى واتل عليهم نبأ ابراهيم فانهم ينتمون اليه عليه السلام فعساهم باستماع قصته يقلعون عما هم فيه من القبائح (إنه كان صديقا) ملازما للصدق فى كل ما يأتى ويذر أو كثير التصديق لكثرة ماصدق به من غيوب الله تعالى وآياته وكتبه ورسله والجملة استئناف مسوق لتعليل موجب الامر فان وصفه عليه السلام بذلك من دواعى ذكره (نبيا) خبر آخر لكان مقيد للاول مخصص له كما ينبئ عنه قوله تعالى من النبيين والصديقين الآية أى كان جامعا بين الصديقية والنبوة. ولعل هذا الترتيب للمبالغة فى الاحتراز عن توهم تخصيص الصديقية بالنبوة فان كل نبى صديق (إذ قال) بدل اشتمال من ابراهيم وما بينهما اعتراض مقرر لما قبله أو متعلق بكان أو بنبيا. وتعليق الذكر بالأوقات مع أن المقصود تذكير ماوقع فيها من الحوادث قد مره سره مرارا أى كان جامعا بين الاثرتين حين قال (لأبيه) آزر متلطفا فى الدعوة مستميلا له (يا أبت) أى يا أبى فان التاء عوض عن ياء الاضافة ولذلك لا يجتمعان وقد قيل يا أبتا لكون الالف بدلا من الياء (لم تعبد مالا يسمع) ثناءك عليه عند عبادتك له وجؤارك اليه (ولا يبصر) خضوعك وخشوعك بين يديه أو لا يسمع ولا يبصر شيئا من المسموعات والمبصرات فيدخل فى ذلك ماذكر دخولا أوليا (ولا يغنى) أى لا يقدر على أن يغنى (عنك شيئا) فى جلب نفع أو دفع ضر ولقد سلك عليه السلام فى دعوته أحسن منهاج وأقوم سبيل واحتج عليه أبدع احتجاج بحسن أدب وخلق جميل لئلا يركب متن المكابرة والعناد ولا ينكب بالكلية عن محجة الرشاد حيث طلب منه علة عبادته لما يستخف به عقل كل عاقل من عالم وجاهل ويأبى الركون اليه فضلا عن عبادته التى هى الغاية القاصية من التعظيم مع أنها لا تحق إلا لمن له الاستغناء التام والانعام العام الخالق الرازق المحيى المميت المثيب المعاقب ونبه على أن العاقل يجب أن يفعل كل ما يفعل لداعية صحيحة وغرض صحيح والشىء لو كان حيا مميزا سميعا بصيرا قادرا على النفع والضر مطيقا بايصال الخير والشر لكن كان ممكنا لاستنكف العقل السليم عن عبادته وان كان أشرف الخلائق لما يراه مثله فى الحاجة والانقياد للقدرة القاهرة الواجبة فما ظنك بجماد مصنوع من حجر أو شجر ليس له من أوصاف الأحياء عين ولا أثر ثم دعاه الى أن يتبعه ليهديه الى الحق المبين لما انه لم يكن محظوظا من العلم الألهى مستقلا بالنظر السوى مصدرا لدعوته بما مر من الاستمالة والاستعطاف حيث قال (يا أبت إنى قد جاءنى من العلم مالم يأتك) ولم يسم

أباه بالجهل المفرط وان كان فى أقصاه ولا نفسه بالعلم الفائق وان كان كذلك بل أبرز نفسه فى صورة رفيق له أعرف بأحوال ما سلكاه من الطريق فاستماله برفق حيث قال (فاتبعنى أهدك صراطا سويا) أى مستقيما موصلا الى أسنى المطالب منجيا عن الضلال المؤدى الى مهاوى الردى والمعاطب ثم ثبطه عما كان عليه بتصويره بصورة يستنكرها كل عاقل ببيان أنه مع عرائه عن النفع بالمرة مستجلب لضرر عظيم فانه فى الحقيقة عبادة الشيطان لما أنه الآمر به فقال (يا أبت لا تعبد الشيطان) فان عبادتك للأصنام عبادة له اذ هو الذى يسولها لك ويغريك عليها وقوله (إن الشيطان كان للرحمن عصيا) تعليل لموجب النهى وتأكيد له ببيان أنه مستعص على ربك الذى أنعم عليك بفنون النعم ولا ريب فى أن المطيع للعاصى عاص وكل من هو عاص حقيق بأن يسترد منه النعم وينتقم منه. والاظهار فى موضع الاضمار لزيادة التقرير. والاقتصار على ذكر عصيانه من بين سائر جناياته لانه ملاكها أو لانه نتيجة معاداته لآدم عليه السلام وذريته فتذكيره داع لأبيه الى الاحتراز عن موالاته وطاعته. والتعرض لعنوان الرحمانية لاظهار كمال شناعة عصيانه وقوله (يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن) تحذير من سوء عاقبة ما كان عليه من عبادة الشيطان وهو ابتلاؤه بما ابتلى به معبوده من العذاب الفظيع. وكلمة من متعلقة بمضمر وقع صفة للعذاب مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية. واظهار الرحمن للاشعار بان وصف الرحمانية لا يدفع حلول العذاب كما فى قوله عز وجل «ماغرك بربك الكريم» (فتكون للشيطان وليا) أى قرينا له فى اللعن المخلد وذكر الخوف للمجاملة وابراز الاعتناء بامره (قال) استئناف مبنى على سؤال نشأ من صدر الكلام كانه قيل فماذا قال أبوه عند ما سمع منه عليه السلام هذه النصائح الواجبة القبول فقيل قال مصرا على عناده (أراغب أنت عن آلهتى يا ابراهيم) أى أمعرض ومنصرف أنت عنها بتوجيه الانكار الى نفس الرغبة مع ضرب من التعجب كان الرغبة عنها مما لا يصدر عن العاقل فضلا عن ترغيب الغير عنها وقوله (لئن لم تنته لأرجمنك) تهديد وتحذير عما كان عليه من العظة والتذكير أى والله لئن لم تنته عما كنت عليه من النهى عن عبادتها لأرجمنك بالحجارة وقيل باللسان (واهجرنى) أى فاحذرنى واتركنى (مليا) أى زمانا طويلا أو مليا بالذهاب مطيقا به (قال) استئناف كما سلف (سلام عليك) توديع ومتاركة على طريقة مقابلة السيئة بالحسنة أى لا أصيبك بمكروه بعد ولا أشافهك بما يؤذيك ولكن (سأستغفر لك ربى) أى أستدعيه أن يغفر لك بان يوفقك للتوبة ويهديك الى الايمان كما يلوح به

تعليل قوله تعالى« واغفر لأبي بقوله تعالى انه كان من الضالين» والاستغفار بهذا المعنى للكافر قبل تبين أنه يموت على الكفر مما لا ريب فى جوازه وانما المحظور استدعاء المغفرة له مع بقائه على الكفر فانه مما لا مساغ له عقلا ولا نقلا وأما الاستغفار له بعد موته على الكفر فلا تأباه قضية العقل وانما الذى يمنعه السمع.ألا يرى إلى أنه عليه السلام قال لعمه أبى طالب«لا أزال أستغفر لك ما لم أنه عنه»فنزل قوله تعالى «ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين»الآية والاشتباه فى أن هذا الوعد من ابراهيم عليه السلام وكذا قوله لأستغفرن لك وما ترتب عليهما من قوله واغفر لأبى الآية انما كان قبل انقطاع رجائه عن ايمانه لعدم تبين أمره لقوله تعالى «فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه» كما مر فى تفسير سورة التوبة واستثناؤه عما يؤتسى به فى قوله تعالى«إلا قول ابراهيم لابيه لأستغفرن لك »لا يقدح فى جوازه لكن لا لان ذلك كان قبل ورود النهى أو لموعدة وعدها اياه كما قيل لما أن النهى إنما ورد فى شأن الاستغفار بعد تبين الامر وقد كان استغفاره عليه السلام قبل التبين فلم يتناوله النهى أصلا وأن الوعد بالمحظور لا يرفع حظره بل لان المراد بما يؤتسى به ما يجب الائتساء به حتما لورود الوعيد على الاعراض عنه بقوله تعالى« لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله اليوم الآخر ومن يتول فان الله هو الغنى الحميد »فاستثناؤه عن ذلك انما يفيد عدم وجوب استدعاء الايمان للكافر المرجو إيمانه لا سيما وقد انقطع ذلك عند ورود الاستثناء وذلك مما لا يتردد فيه أحد من العقلاء وأما عدم جوازه قبل تبين الامر فلا دلالة للاستثناء عليه قطعا وتوجيه الاستثناء الى العدة بالاستغفار لا إلى نفس الاستغفار بقوله واغفر لابى الآية لانها كانت هى الحاملة له عليه السلام عليه وتخصيص تلك العدة بالذكر دون ما وقع ههنا لورودها على نهج التأكيد القسمى وأما جعل الاستغفار دائرا عليها وترتيب التبرؤ على تبين الامر فقد مر تحقيقه فى تفسير سورة التوبة وقوله (انه كان بى حفيا) أى بليغا فى البر والالطاف تعليل لمضمون ما قبله(وأعتزلكم)أى أتباعد عنك وعن قومك(وما تدعون من دون الله) بالمهاجرة بدينى حيث لم تؤثر فيكم نصائحى (وأدعو ربى) أعبده وحده وقد جوز أن يراد به دعاؤه المذكور فى تفسير سورة الشعراء ولا يبعد أن يراد به استدعاء الولد أيضا بقوله رب هب لى من الصالحين حسبما يساعده السباق والسياق (عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا) أى خائبا ضائع السعى .وفيه تعريض بشقائهم فى عبادة آلهتهم. وفى تصدير الكلام بعسى من اظهار التواضع ومراعاة حسن الادب

و التنبيه على حقيقة الحق من أن الاجابة والاثابة بطريق التفضل منه عزو جل لابطريق الوجوب وأن العبرة بالخاتمة وذلك من الغيوب المختصة بالعليم الخبير مالايخفى (فلما اعتزلهم ومايعبدون من دون الله) بالمهاجرة الى الشام (وهبنا له اسحق ويعقوب) بدل من فارقهم من أقر بائه الكفرة لكن لاعقيب المهاجرة فان المشهور أن الموهوب حينئذ اسمعيل عليه السلام لقوله تعالى «فبشرناه بغلام حليم» أثر دعائه بقوله «رب هب لى من الصالحين» ولعل ترتيب هبتهما على اعتزاله ههنا لبيان كمال عظم النعم التى أعطاها الله تعالى اياه بمقابلة من اعتزلهم من الاهل والاقرباء فانهما شجرتا الانبياء لهما أولاد وأحفاد أولو شأن خطير و ذوو عدد كثير هذا وقد روى انه عليه السلام لما قصد الشام أتى أولا حران وتزوج بسارة وولدت له اسحق وولد لاسحق يعقوب والاول هو الاقرب الأظهر (وكلا) أى كل واحد منهما أو منهم وهو مفعول أول لقوله تعالى (جعلنا نبيا) قدم عليه للتخصيص لكن لابالنسبة الى من عداهم بل بالنسبة الى بعضهم أى كل واحد منهم جعلنا نبياً لابعضهم دون بعض (ووهبنا لهم من رحمتنا) هى النبوة و ذكرها بعد ذكر جعلهم نبياً للايذان بانها من باب الرحمة وقيل هى المال والاولاد وما بسط لهم من سعة الرزق وقيل هو الكتاب والأظهر انها عامة لكل خير دينى ودنيوى أوتوه مما لم يؤته أحد من العالمين (وجعلنا لهم لسان صدق عليا) يفتخر بهم الناس ويثنون عليهم استجابة لدعوته بقوله «واجعل لى لسان صدق فى الآخرين» والمراد باللسان مايوجد به من الكلام ولسان العرب لغتهم واضافته إلى الصدق ووصفه بالعلو للدلالة على أنهم أحقاء بما يثنون عليهم وأن محامدهم لاتخفى على تباعد الاعصار وتبدل الدول وتحول الملل والنحل (واذكر فى الكتاب موسى) قدم ذكره على ذكر اسماعيل لئلا ينفصل عن ذكر يعقوب عليهما السلام (انه كان مخلصاً) موحداً أخلص عبادته عن الشرك والرياء أو أسلم وجهه لله تعالى وأخلص نفسه عما سواه . وقرىء مخلصاً على ان الله تعالى أخلصه (وكان رسولا نبياً) أرسله الله تعالى الى الخلق فأنبأهم عنه ولذلك قدم رسولا مع كونه أخص وأعلى (وناديناه من جانب الطور الأيمن) الطور جبل بين مصر ومدين والايمن صفة للجانب أى ناديناه من ناحيته اليمنى من اليمين وهى التى تلى يمين موسى عليه السلام أو من جانبه الميمون من اليمن ومعنى ندائه منه انه تمثل له الكلام من تلك الجهة (وقربناه نجيا) تقريب تشريف مثل حاله عليه السلام بحال من قربه الملك لمناجاته واصطفاه لمصاحبته ونجياً أى مناجياً حال من أحد الضميرين فى ناديناه أو قربناه وقيل

مرتفعاً لما روى أنه عليه السلام رفع فوق السموات حتى سمع صريف القلم (ووهبنا له من رحمتنا) أى من أجل رحمتنا ورأفتنا له أو بعض رحمتنا (أخاه) أى معاضدة أخيه وموازرته إجابة لدعوته بقوله واجعل لى وزيراً من أهلى هرون أخى لانفسه لأنه كان أكبر منه عليهما السلام وهو على الأول مفعول لوهبنا وعلى الثانى بدل وقوله تعالى (هرون) عطف بيان له وقوله تعالى (نبياً) حال منه (واذكر فى الكتاب اسمعيل) فصل ذكره عن ذكر أبيه وأخيه لابراز كمال الاعتناء بأمره بايراده مستقلا وقوله تعالى (إنه كان صادق الوعد) تعليل لموجب الامر وايراده عليه السلام بهذا الوصف لكمال شهرته به وناهيك انه وعد الصبر على الذبح بقوله ستجدنى ان شاء الله من الصابرين فوفى (وكان رسولا نبياً) فيه دلالة على أن الرسول لا يجب أن يكون صاحب شريعة فان أولاد ابراهيم عليه السلام كانوا على شريعته (وكان يأمر أهله بالصلوة والزكوة) اشتغالا بالأهم وهو أن يقبل الرجل بالتكميل على نفسه ومن هو أقرب الناس اليه قال تعالى «وأنذر عشيرتك الأقربين وأمر أهلك بالصلوة قوا أنفسكم وأهليكم ناراً» وقصداً إلى تكميل الكل بتكميلهم لانهم قدوة يؤتسى بهم وقيل أهله أمته فان الأنبياء عليهم السلام آباء الأمم (وكان عند ربه مرضياً) لاتصافه بالنعوت الجليلة التى من جملتها ما ذكر من خصاله الحميدة (واذكر فى الكتاب إدريس) وهو سبط شيث وجد أبى نوح فانه نوح ابن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريس عليه السلام واشتقاقه من الدرس يرده منع صرفه نعم لا يبعد أن يكون معناه فى تلك اللغة قريباً من ذلك فلقب به لكثرة دراسته روى أنه تعالى أنزل عليه ثلاثين صحيفة وانه أول من خط بالقلم ونظر فى علم النجوم والحساب (إنه كان صديقاً) ملازماً للصدق فى جميع أحواله (نبياً) خبر آخر لكان مخصص للأول إذ ليس كل صديق نبياً (ورفعناه مكاناً علياً) هو شرف النبوة والزلفى عند الله عز وجل وقيل علو الرتبة بالذكر الجميل فى الدنيا كما فى قوله تعالى «ورفعنا لك ذكرك» وقيل الجنة وقيل السماء السادسة أو الرابعة روي عن كعب وغيره فى سبب رفع إدريس عليه السلام أنه سئل ذات يوم فى حاجة فأصابه وهج الشمس فقال يارب انى قد مشيت فيها يوما وقد أصابنى منها ما أصابنى فكيف من يحملها مسيرة خمسمائة عام فى يوم واحد اللهم خفف عنه من ثقلها وحرها فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس وحرها ما لا يعرف فقال يارب ما الذى قضيت فيه قال ان عبدى ادريس سألنى أن أخفف عنك حملها وحرها فأجبته قال يارب اجعل بينى وبينه خلة فأذن الله تعالى له فرفعه الى السماء (أولئك) إشارة إلى المذكورين

فى السورة الكريمة و ما فيه من معنى البعد للاشعار بعلو رتبتهم و بعد منزلتهم فى الفضل وهو مبتدأ وقوله تعالى (الذين أنعم الله عليهم) صفته أى أنعم عليهم بفنون النعم الدينية والدنيوية حسبما أشير إليه مجملا وقوله تعالى (من النبيين) بيان للموصول وقوله تعالى (من ذرية آدم) بدل منه باعادة الجار . ويجوز أن تكون كلمة من فيه للتبعيض لان المنعم عليهم أعم من الانبياء وأخص من الذرية (وممن حملنا مع نوح) أى ومن ذرية من حملنا معه خصوصا وهم من عدا إدريس عليه السلام فان ابراهيم كان من ذرية سام بن نوح (ومن ذرية إبراهيم) وهم الباقون (واسرائيل) عطف على ابراهيم أى ومن ذرية اسرائيل وكان منهم موسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام . وفيه دليل على أن أولاد البنات من الذرية (وممن هدينا واجتبينا) أى ومن جملة من هديناهم الى الحق واجتبيناهم للنبوة والكرامة وقوله تعالى (إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكيا) خبر لاولئك ويجوز أن يكون الخبر هو الموصول وهذا استئناف مسوق لبيان خشيتهم من الله تعالى واخباتهم له مع مالهم من علو الرتبة وسمو الطبقة فى شرف النسب وكمال النفس والزلفى من الله عز سلطانه وسجدا وبكيا حالان من ضمير خروا أى ساجدين باكين عن النبي صلى الله عليه وسلم «اتلوا القرآن وابكوا فان لم تبكوا فتباكوا» والبكى جمع باك كالسجد جمع ساجد وأصله بكوى فاجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء فى الياء وحركت الكاف بالكسر المجانس للياء . وقرىء يتلى بالياء التحتانية لان التأنيث غير حقيقى. وقرىء بكيا بكسر الباء للاتباع قالوا ينبغى أن يدعو الساجد فى سجدته بما يليق بآيتها ففيها يقول اللهم اجعلنى من عبادك المنعم عليهم المهديين الساجدين لك الباكين عند تلاوة آياتك وفى آية الاسراء يقول اللهم اجعلنى من الباكين اليك الخاشعين لك. وفى آية تنزيل السجدة يقول اللهم اجعلنى من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك وأعوذ بك من أن أكون من المستكبرين عن أمرك (فخلف من بعدهم خلف) يقال لعقب الخير خلف بفتح اللام ولعقب الشر خلف بالسكون أى فعقبهم وجاء بعدهم عقب سوء (أضاعوا الصلاة) وقرىء الصلوات أى تركوها أو أخروها عن وقتها (واتبعوا الشهوات) من شرب الخمر واستحلال نكاح الاخت من الاب والانهماك فى فنون المعاصى وعن على رضى الله عنه هم من بنى المشيد وركب المنظور ولبس المشهور (فسوف يلقون غيا) أى شرا فان كل شر عند العرب غى وكل خير رشاد كقوله :

فمن يلق خيرا يحمد الناس أمره ... ومن يغو لا يعدم على الغى لائما

وعن الضحاك جزاء غي كقوله تعالى «يلق أثاما» أي جزاء أثام أو غيا عن طريق الجنة وقيل غي واد في جهنم تستعيذ منه أوديتها وقوله تعالى (إلا من تاب وآمن وعمل صالحا) يدل على أن الآية في حق الكفرة (فأولئك) إشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيز الصلة وما فيه من معنى البعد لما مر مراراً أي فأولئك المنعوتون بالتوبة والايمان والعمل الصالح (يدخلون الجنة) بموجب الوعد المحتوم. وقرىء يدخلون على البناء للمفعول (ولا يظلمون شيئاً) أي لا ينقصون من جزاء أعمالهم شيئاً أولا ينقصون شيئاً من النقص. وفيه تنبيه على أن كفرهم السابق لايضرهم ولا ينقص أجورهم (جنات عدن) بدل من الجنة بدل البعض لاشتمالها عليها وما بينهما اعتراض أو نصب على المدح. وقرىء بالرفع على أنه خبر لمبتدا محذوف أي هي أو تلك جنات الخ أو مبتدأ خبره التي وعد الخ وقرىء جنة عدن نصبا ورفعا وعدن علم لمعنى العدن وهو الاقامة كما أن فينة وسحر وأمس فيمن لم يصرفها أعلام لمعاني الفينة وهي الساعة التي أنت فيها والسحر والامس فجري لذلك مجرى العدن أو هو علم لارض الجنة خاصة ولو ذلك لما ساغ ابدال ما أضيف اليه من الجنة بلا وصف عند غير البصريين ولا وصفه بقوله تعالى (التي وعد الرحمن عباده) وجعله بدلا منه خلاف الظاهر فان الموصول في حكم المشتق وقد نصوا على أن البدل بالمشتق ضعيف. والتعرض لعنوان الرحمة للايذان بان وعدها وانجازه لكمال سعة رحمته تعالى والباء في قوله تعالى (بالغيب) متعلقة بمضمر هو حال من المضمر العائد الى الجنات أو من عباده أي وعدها أياهم ملتبسة أو ملتبسين بالغيب أي غائبة عنهم غير حاضرة أو غائبين عنها لا يرونها وانما آمنوا بها بمجرد الاخبار أو بمضمر هو سبب للوعد أي وعدها اياهم بسبب ايمانهم (انه كان وعده) أي موعوده كائنا ما كان فيدخل فيه الجنات الموعودة دخولا أوليا ولما كانت هي مثابة يرجع اليها قيل (مأتيا) أي يأتيه من وعد له لا محالة بغير خلف وقيل هو مفعول بمعنى فاعل وقيل مأتيا أي مفعولا منجزا من أتى اليه إحسانا أي فعله (لا يسمعون فيها لغوا) أي فضول كلام لا طائل تحته وهو كناية عن عدم صدور اللغو عن أهلها . وفيه تنبيه على أن اللغو مما ينبغي أن يجتنب عنه في هذه الدار ما أمكن (الا سلاما) استثناء منقطع أي لكن يسمعون تسليم الملائكة عليهم أو تسليم بعضهم على بعض أو متصل بطريق التعليق بالمحال أي لا يسمعون لغوا ما الا سلاما فحيث استحال كون السلام لغوا استحال سماعهم له بالكلية كما في قوله :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم … بهن فلول من قراع الكتائب

أو على أن معناه الدعاء بالسلامة وهم أغنياء عنه فهو من باب اللغو ظاهراً وانما فائدته الاكرام وقوله تعالى (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) وارد على عادة المتنعمين فى هذه الدار وقيل المراد دوام رزقهم ودروره والا فليس فيها بكرة ولا عشى (تلك الجنة) مبتدأ وخبر جىء به لتعظيم شأن الجنة وتعيين أهلها فان مافى اسم الاشارة من معنى البعد للايذان ببعد منزلتها وعلو رتبتها (التي نورث) أى نورثها (من عبادنا من كان تقيا) أى نبقيها عليهم بتقواهم ونمتعهم بها كما نبقى على الوارث مال مورثه ونمتعه به والوراثة أقوى ما يستعمل فى التملك والاستحقاق من الالفاظ من حيث انها لا تعقب بفسخ ولا استرجاع ولا ابطال وقيل يورث المتقون من الجنة المساكن التى كانت لاهل النار لو آمنوا وأطاعوا زيادة فى كرامتهم. وقرىء نورث بالتشديد (وما نتنزل الا بأمر ربك) حكاية لقول جبريل حين استبطأه رسول الله عليهما الصلاة والسلام لما سئل عن أصحاب الكهف وذى القرنين والروح فلم يدر كيف يجيب ورجا أن يوحى اليه فيه فأبطأ عليه أربعين يوما أو خمسة عشر فشق ذلك عليه مشقة شديدة وقال المشركون ودعه ربه وقلاه ثم نزل ببيان ذلك وأنزل الله عز وجل هذه الآية وسورة والضحى. والتنزل النزول على مهل لانه مطاوع للتنزيل وقد يطلق على مطلق النزول كما يطلق التنزيل على الانزال والمعنى وما نتنزل وقتا غب وقت الا بأمر الله تعالى على ماتقتضيه حكمته. وقرىء ومايتنزل بالياء والضمير للوحى (له مابين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك) وهو مانحن فيه من الاماكن والازمنة ولا ننتقل من مكان الى مكان ولا تنزل فى زمان دون زمان الا بأمره ومشيئته (وما كان ربك نسيا) أى تاركا لك يعنى أن عدم النزول لم يكن الا لعدم الامر به لحكمة بالغة فيه ولم يكن لتركه تعالى لك وتوديعه إياك كما زعمت الكفرة. وفى إعادة اسم الرب المعرب عن التبليغ الى الكمال اللائق مضافا الى ضميره عليه السلام من تشريفه والاشعار بعلة الحكم مالايخفى. وقيل أول الآية حكاية قول المتقين حين يدخلون الجنة مخاطبا بعضهم بعضا بطريق التبجح والابتهاج والمعنى وما ننزل الجنة الا بأمر الله تعالى ولطفه وهو مالك الامور كلها سالفها ومترقبها وحاضرها فما وجدناه وما نجده من لطفه وفضله وقوله تعالى «وما كان ربك نسيا» تقرير لقولهم من جهة الله تعالى أي وما كان ناسيا لاعمال العاملين وما وعدهم من الثواب عليها وقوله تعالى (رب السموات والارض وما بينهما) بيان لاستحالة النسيان عليه تعالى فان من بيده ملكوت السموات والارض وما بينهما كيف يتصور أن يحوم حول ساحة سبحانه الغفلة والنسيان وهو

خبر مبتدأ محذوف أو بدل من ربك والفاء فى قوله تعالى (فاعبده واصطبر لعبادته) لترتيب ما بعدها من موجب الامرين على ما قبلها من كونه تعالى رب السموات والارض وما بينهما. وقيل من كونه تعالى غير تارك له عليه السلام أو غير ناس لاعمال العاملين والمعنى فحين عرفته تعالى بما ذكر من الربوبية الكاملة فاعبده الخ فان ايجاب معرفته تعالى كذلك لعبادته مما لا ريب فيه أو حين عرفت انه تعالى لاينساك أو لا ينسى اعمال العاملين كائنا من كان فأقبل على عبادته واصطبر على مشاقها ولا تحزن بابطاء الوحى وهزء الكفرة فانه يراقبك ويراعيك و يلطف بك فى الدنيا والآخرة وتعدية الاصطبار باللام لا بحرف الاستعلاء كما فى قوله تعالى «واصطبر عليها» لتضمينه معنى الثبات للعبادة فيما تورد عليه من الشدائد والمشاق كقولك للمبارز اصطبر لقرنك أى اثبت له فيما يورد عليك من شدائده (هل تعلم له سميا) السمى هو الشريك فى الاسم والظاهر أن يراد به ههنا الشريك فى اسم خاص قد عبر عنه تعالى بذلك وهو رب السموات والارض وما بينهما والمراد بانكار العلم ونفيه انكار المعلوم ونفيه على أبلغ وجه وآكده فالجملة تقرير لما أفاده الفاء من علية ربوبيته العامة لوجوب عبادته بل لوجوب تخصيصها به تعالى ببيان استقلاله عز وجل بذلك الاسم وانتفاء اطلاقه على الغير بالكلية حقا أو باطلا. وقيل المراد هو الشريك فى الاسم الجليل فان المشركين مع غلوهم فى المكابرة لم يسموا الصنم بالجلالة أصلا وقيل هو الشريك فى اسم الاله والمراد بالتسمية التسمية على الحق فالمعنى هل تعلم شيئا يسمى بالاستحقاق إلها وأما التسمية على الباطل فهى كلا تسمية فتقرير الجملة لوجوب العبادة حينئذ باعتبار مافى الاسمين الكريمين من الاشعار باستحقاق العبادة فتدبر (ويقول الانسان) المراد به اما الجنس باسره واسناد القول الى الكل لوجود القول فيما بينهم وان لم يقله الجميع كما يقال بنو فلان قتلوا فلانا وانما القاتل واحد منهم واما البعض المعهود منهم وهم الكفرة أو أبى بن خلف فانه أخذ عظاما بالية ففتها وقال يزعم محمد أنا نبعث بعد ما نموت ونصير الى هذه الحال أى يقول بطريق الانكار والاستبعاد (أئذا مامت لسوف أخرج حيا) أى أبعث من الارض أو من حال الموت. وتقديم الظرف وايلاؤه حرف الانكار لما أن المنكر كون ما بعد الموت وقت الحياة وانتصابه بفعل دل عليه أخرج لا به فان مابعد اللام لايعمل فيما قبلها وهى ههنا مخلصة للتوكيد مجردة عن معنى الحال كما خلصت الهمزة واللام للتعويض فى يا ألله فساغ اقترانها بحرف الاستقبال. وقرىء اذا مامت بهمزة واحدة مكسورة على الخبر (أولا يذكر الانسان) من الذكر الذى يراد به التفكر. والاظهار فى موقع

الاضمار لزيادة التقرير والاشعار بان الانسانية من دواعى التفكر فيما جرى عليه من شؤن التكوين المنحية بالقلع عن القول المذكور هو السر فى اسناده الى الجنس أو الى الفرد بذلك العنوان والهمزة للانكار التوبيخى والواو لعطف الجملة المنفية على مقدر يدل عليه يقول أى أيقول ذلك ولا يذكر (أنا خلقناه من قبل) أى من قبل الحالة التى هو فيها وهى حالة بقائه (ولم يك شيئاً) أى والحال انه لم يكن حينئذ شيئاً أصلا فحيث خلقناه وهو فى تلك الحالة المنافية للخلق بالكلية مع كونه أبعد من الوقوع فلأن نبعثه بجمع المواد المتفرقة وإيجاد مثل ما كان فيها من الاعراض أولى وأظهر فماله لا يذكره فيقع فيما يقع فيه من النكير. وقرىء يذكر ويتذكر على الاصل (فوربك) إقسامه باسمه عزت أسماؤه مضافا الى ضميره عليه السلام لتحقيق الامر بالاشعار بعليته وتفخيم شأنه عليه الصلاة والسلام ورفع منزلته (لنحشرنهم) لنجمعن القائلين بالسوق الى المحشر بعد ما أخرجناهم من الارض أحياء ففيه اثبات للبعث بالطريق البرهانى على أبلغ وجه وآكده كأنه أمر واضح غنى عن التصريح به و إنما المحتاج الى البيان مابعد ذلك من الاهوال (والشياطين) معطوف على الضمير المنصوب أو مفعول معه روى أن الكفرة يحشرون مع قرنائهم من الشياطين التى كانت تغويهم كل منهم مع شيطانه فى سلسلة وهذا وان كان مختصا بهم لكن ساغ نسبته الى الجنس باعتبار أنهم لما حشروا وفيهم الكفرة مقرونين بالشياطين فقد حشروا معهم جميعا كما ساغ نسبة القول المحكى اليه مع كون القائل بعض أفراده (ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا) ليرى السعداء ما نجاهم الله تعالى منه فيزدادوا غبطة وسرورا وينال الاشقياء ما ادخروا لمعادهم عدة ويزدادوا غيظا من رجوع السعداء عنهم الى دار الثواب وشماتتهم بهم والجثى جمع جاث من جثا اذا قعد على ركبتيه وأصله جثوو بواوين فاستثقل اجتماعهما بعد ضمتين فكسرت الثاء للتخفيف فانقلبت الواو الاولى ياء لسكونها وانكسار ما قبلها فاجتمعت واو وياء وسبقت احداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت فيها الياء الاولى وكسرت الجيم اتباعا لما بعدها. وقرىء بضمها ونصبه على الحالية من الضمير البارز أى لنحضرنهم حول جهنم جاثين على ركبهم لما يدهمهم من هول المطلع أو لأنه من توابع التواقف للحساب قبل التواصل الى الثواب والعقاب فان أهل الموقف جاثون كما ينطق به قوله تعالى «وترى كل أمة جاثية» على ما هو المعتاد فى مواقف التقاول وان كان المراد بالانسان الكفرة فلعلهم يساقون من الموقف الى شاطىء جهنم جثاة اهانة بهم أو لعجزهم عن القيام لما اعتراهم من الشدة (ثم لننزعن من كل شيعة) أى

من كل أمة شاعت دينا من الاديان (أيهم أشد على الرحمن عتيا) أى من كان منهم أعصى وأعتى فنطرحهم فيها. وفى ذكر الاشد تنبيه على انه تعالى يعفو عن بعض من أهل العصيان وعلى تقدير تفسير الانسان بالكفرة فالمعنى انا نميز من كل طائفة منهم أعصاهم فأعصاهم وأعتاهم فأعتاهم فنطرحهم فى النار على الترتيب أو ندخل كلا منهم طبقتها اللائقة به . وأيهم مبني على الضم عند سيبويه لان حقه أن يبنى كسائر الموصولات لكنه أعرب حملا على كل وبعض للزوم الاضافة واذا حذف صدر صلته زاد نقصه فعاد الى حقه ومنصوب المحل بننزعن ولذلك قرئ منصوبا ومرفوع عند غيره بالابتداء على انه استفهامى وخبره أشد والجملة محكية والتقدير لننزعن من كل شيعة الذين يقال لهم أيهم أشد أو معلق عنها لننزعن لتضمنه معنى التمييز اللازم للعلم أو مستانفة والفعل واقع على كل شيعة على زيادة من أو على معنى لننزعن بعض كل شيعة كقوله تعالى «ووهبنا لهم من رحمتنا» وعلى للبيان فيتعلق بمحذوف كأن سائلا قال على من عتوا فقيل على الرحمن أو متعلق با فعل وكذا الباء فى قوله تعالى (ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا) أى هم أولى بصليها أو صليهم أولى بالنار وهم المنتزعون .ويجوز ان يراد بهم وباشدهم عتيا رؤساء الشيع فان عذابهم مضاعف لضلالهم واضلالهم والصلى كالعتى صيغة واعلالا وقرئ بضم الصاد (وان منكم) التفات لاظهار مزيد الاعتناء بمضمون الكلام وقيل هو خطاب للناس من غير التفات الى المذكور ويؤيد الاول انه قرئ وان منهم أى ما منكم أيها الانسان (الا واردها) أى واصلها وحاضر دونها يمر بها المؤمنون وهى خامدة وتنهار بغيرهم . وعن جابر انه صلى الله عليه وسلم سئل عنه فقال« اذا دخل أهل الجنة الجنة قال بعضهم لبعض أليس قد وعدنا ربنا ان نرد النار فيقال لهم قد وردتموها وهى خامدة» وأما قوله تعالى «أولئك عنها مبعدون» فالمراد به الابعاد عن عذابها. وقيل ورودها الجواز على الصراط الممدود عليها(كان) أى ورودهم اياها (على ربك حتما مقضيا) أى أمراً محتوما أوجبه الله عز وجل على ذاته وقضى انه لا بد من وقوعه ألبتة وقيل اقسم عليه (ثم ننجى الذين اتقوا) الكفر والمعاصى مما كانوا عليه من حال الجثو على الركب على الوجه الذى سلف فيساقون الى الجنة وقرئ ننجى بالتخفيف وينجى وينجى على البناء للمفعول وقرئ ثمة ننجى بفتح الثاء أى هناك ننجيهم (ونذر الظالمين) بالكفر والمعاصى (فيها جثيا) منهارا بهم كما كانوا. قيل فيه دليل على أن المراد بالورود الجثو حوالها وأن المؤمنين يفارقون الفجرة بعد تجاثيهم حولها ويلقى الفجرة فيها على هيآتهم وقوله

تعالى (واذا تتلى عليهم) الآية الى آخرها حكاية لما قالوا عند سماع الآيات الناعية عليهم فظاعة حالهم ووخامة مآلهم أى واذا تتلى على المشركين (آياتنا) التى من جملتها هاتيك الآيات الناطقة بحسن حال المؤمنين وسوء حال الكفرة وقوله تعالى (بينات) أى مرتلات الالفاظ مبينات المعانى بنفسها أو ببيان الرسول عليه الصلاة والسلام أو بينات الاعجاز حال مؤكدة من آياتنا (قال الذين كفروا) أى قالوا. ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه على انهم قالوا ما قالوا كافرين بما يتلى عليهم رادين له أو قال الذين مردوا منهم على الكفر ومرنوا على العتو والعناد وهم النضر بن الحرث واتباعه الفجرة واللام فى قوله تعالى (للذين آمنوا) للتبليغ كما فى مثل قوله تعالى «وقال لهم نبيهم» وقيل لام الاجل كما فى قوله تعالى «وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا اليه» أى قالوا لاجلهم وفى حقهم والاول هو الاولى لان قولهم ليس فى حق المؤمنين فقط كما ينطق به قوله تعالى (أى الفريقين) أى المؤمنين والكافرين كأنهم قالوا أينا (خير) نحن أو أنتم (مقاما) أى مكانا . وقرىء بضم الميم أى موضع اقامة ومنزلا (وأحسن نديا) أى مجلسا ومجتمعا يروى انهم كانوا يرجلون شعورهم ويدهنونها ويتطيبون ويتزينون بالزين الفاخرة ثم يقولون ذلك لفقراء المؤمنين يريدون بذلك أن خيريتهم حالا وأحسنيتهم منا لا ما لايقبل الانكار وأن ذلك لكرامتهم على الله سبحانه وزلفاهم عنده اذ هو العيار على الفضل والنقصان والرفعة والضعة وأن من ضرورته هوان المؤمنين عليه تعالى لقصور حظهم العاجل وما هذا القياس العقيم والرأى السقيم الا لكونهم جهلة لايعلمون الا ظاهرا من الحياة الدنيا وذلك مبلغهم من العلم فرد عليهم ذلك من جهته تعالى بقوله (وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورئيا) أى كثيرا من القرون التى كانت أفضل منهم فيما يفتخرون به من الحظوظ الدنيوية كعاد وثمود واضرابهم من الامم العاتية قبل هؤلاء أهلكناهم بفنون العذاب ولو كان ما آتيناهم لكرامتهم علينا لما فعلنا بهم ما فعلنا. وفيه من التهديد والوعيد مالا يخفى كأنه قيل فلينتظر هؤلاء أيضا مثل ذلك فكم مفعول أهلكنا ومن قرن بيان لابهامها وأهل كل عصر قرن لمن بعدهم لانهم يتقدمونهم مأخوذ من قرن الدابة وهو مقدمها وقوله تعالى هم أحسن أثاثا فى حيز النصب على انه صفة لكم وأثاثا تمييز النسبة وهو متاع البيت وقيل هو ماجد منه والخرثى ما لبس منه ورث والرئى المنظر فعل من الرؤية لما يرى كالطحن لما يطحن وقرىء ريا على قلب الهمزة ياء وادغامها أو على انه من الرى وهو النعمة والترفه وقرىء ريئا على القلب

وريا بحذف الهمزة وزيا بالزاى المعجمة من الزى وهو الجمع فانه عبارة عن المحاسن المجموعة (قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا) لما بين عاقبة أمر الامم المهلكة مع ما كان لهم من التمتع بفنون الحظوظ العاجلة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بان يجيب هؤلاء المفتخرين بما لهم من الحظوظ ببيان مآل أمر الفريقين اما على وجه كلى متناول لهم ولغيرهم من المنهمكين فى اللذة الفانية المبتهجين بها على أن من على عمومها واما على وجه خاص بهم على أنها عبارة عنهم ووصفهم بالتمكن لذمهم والاشعار بعلة الحكم أى من كان مستقرا فى الضلالة مغمورا بالجهل والغفلة عن عواقب الامور فليمدد له الرحمن أى يمد له ويمهله بطول العمر واعطاء المال والتمكين من التصرفات واخراجه على صيغة الامر للايذان بان ذلك مما ينبغى أن يفعل بموجب الحكمة لقطع المعاذير كما ينبئ عنه قوله عز وجل «أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر» أو للاستدراج كما ينطق به قوله تعالى« إنما نملى لهم ليزدادوا اثما» وقيل المراد به الدعاء بالمد والتنفيس واعتبار الاستقرار فى الضلالة لما أن المد لا يكون الا للمصرين عليها اذرب ضال يهديه الله عز وجل. والتعرض لعنوان الرحمانية لما أن المد من أحكام الرحمة الدنيوية وقوله تعالى (حتى اذا رأوا ما يوعدون) غاية المد الممتد لا لقول المفتخرين كما قيل اذ ليس امتداد بحسب الذات وهو ظاهر ولا استمرار بحسب التكرار لوقوعه فى حيز جواب اذا. وجمع الضمير فى الفعلين باعتبار معنى من كما أن الافراد فى الضميرين الاولين باعتبار لفظها وقوله تعالى (إما العذاب وإما الساعة) تفصيل للموعود بدل منه على سبيل البدل فانه اما العذاب الدنيوى بغلبة المسلمين واستيلائهم عليهم وتعذيبهم اياهم قتلا وأسرا واما يوم القيامة وما نالهم فيه من الخزى والنكال على طريقة منع الخلو دون منع الجمع فان العذاب الاخروى لا ينفك عنهم بحال وقوله تعالى (فسيعلمون) جواب الشرط والجملة محكية بعد حتى أى حتى اذا عاينوا ما يوعدون من العذاب الدنيوى والاخروى فقط فسيعلمون حينئذ (من هو شر مكانا) من الفريقين بان يشاهدوا الامر على عكس ما كانوا يقدرونه فيعلمون انهم شر مكانا لا خير مقاما (وأضعف جندا) أى فئة وأنصارا لا أحسن نديا كما كانوا يدعونه وليس المراد أن له ثمة جندا ضعفاء كلا ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا وانما ذكر ذلك ردا لما كانوا يزعمون أن لهم أعوانا من الاعيان وأنصارا من الاخيار ويفتخرون بذلك فى الاندية والمحافل (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) كلام مستأنف سيق لبيان حال المهتدين اثر بيان حال الضالين وقيل عطف على فليمدد لانه فى معنى الخبر حسبما عرفته

كأنه قيل من كان فى الضلالة يمده الله ويزيد المهتدين هداية كقوله تعالى «والذين اهتدوا زادهم هدى» وقيل عطف على الشرطية المحكية بعد القول كأنه لما بين أن امهال الكافر وتمتيعه بالحياة ليس لفضله عقب ذلك ببيان أن قصور حظ المؤمن منها ليس لنقصه بل لأنه تعالى أراد به ما هو خير من ذلك وقوله تعالى (والباقيات الصالحات خير) على تقدير الاستئناف والعطف كلام مستأنف وارد من جهته تعالى لبيان فضل أعمال المهتدين غير داخل فى حيز الكلام الملقن لقوله تعالى (عند ربك) أى الطاعات التى تبقى فوائدها وتدوم عوائدها ومن جملتها ما قيل من الصلوات الخمس وما قيل من قول سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر خير عند الله تعالى. والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره لتشريفه عليه السلام (ثوابا) أى عائدة مما يتمتع به الكفرة من النعم المخدجة الفانية التى يفتخرون بها لاسيما ومآلها النعيم المقيم ومآل هذه الحسرة السرمدية والعذاب الاليم كما أشير اليه بقوله تعالى (وخير مردا) أى مرجعا وعاقبة . وتكرير الخير لمزيد الاعتناء ببيان الخيرية وتأكيدها. وفى التفضيل مع أن ما للكفرة بمعزل من أن يكون له خيرية فى العاقبة تهكم بهم (أفرأيت الذى كفر بآياتنا) أى بآياتنا التى من جملتها آيات البعث نزلت فى العاص بن وائل كان لخباب بن الارت عليه مال فاقتضاه فقال لا حتى تكفر بمحمد قال لا والله لا أكفر به حيا ولا ميتا ولا حين بعثت قال فاذا بعثت جئنى فيكون لى ثمة مال وولد فاعطيك . وفى رواية قال لا أكفر به حتى يميتك ثم تبعث فقال انى لميت ثم مبعوث قال نعم قال دعنى حتى أموت وأبعث فسأوتى مالا وولدا فاقضيك فنزلت فالهمزة للتعجيب من حاله والايذان بانها من الغرابة والشناعة بحيث يجب أن ترى ويقضى منها العجب ومن فرق بين ألم تر وأرأيت بعد بيان اشتراكهما فى الاستعمال لقصد التعجيب بان الاول يعلق بنفس المتعجب منه فيقال ألم تر الى الذى صنع كذا بمعنى انظر اليه فتعجب من حاله والثانى يعلق بمثل المتعجب منه فيقال أرأيت مثل الذى صنع كذا بمعنى انه من الغرابة بحيث لا يرى له مثل فقد حفظ شيئاً وغابت عنه أشياء وكأنه ذهب عليه قوله عز وجل « أرأيت الذى يكذب بالدين » والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أنظرت فرأيت الذى كفر بآياتنا الباهرة التى حقها أن يؤمن بها كل من يشاهدها (وقال) مستهزئا بها مصدراً كلامه باليمين الفاجرة والله (لأوتين) فى الآخرة (مالا وولدا) أى انظر اليه فتعجب من حالته البديعة وجراءته الشنيعة هذا هو الذى يستدعيه جزالة النظم الكريم وقد قيل ان أرأيت بمعنى أخبر والفاء على أصلها والمعنى أخبر بقصة هذا الكافر عقيب حديث

أولئك الذين قالوا أى الفريقين خير مقاما الآية وأنت خبير بان المشهور استعمال أرأيت فى معنى أخبرنى بطريق الاستفهام جاريا على أصله أو مخرجا الى ما يناسبه من المعانى لابطريق الامر بالاخبار لغيره. وقرىء ولدا على انه جمع ولد كاسد جمع أسد وعلى انه لغة فيه كالعرب والعرب وقوله تعالى (أطلع الغيب) ردلكلمته الشنعاء واظهار لبطلانها اثر ما أشير اليه بالتعجيب منها أى أقد بلغ من عظمة الشأن الى أن ارتقى الى علم الغيب الذى استأثر به العليم الخبير حتى ادعى أن يؤتى فى الآخرة مالا وولدا واقسم عليه (أم اتخذ عند الرحمن عهدا) بذلك فانه لا يتوصل الى العلم به الا باحد هذين الطريقين. والتعرض لعنوان الرحمانية للاشعار بعلية الرحمة لايتاء ما يدعيه وقيل العهد كلمة الشهادة وقيل العمل الصالح فان وعده تعالى بالثواب عليهما كالعهد وهذا مجاراة مع اللعين بحسب منطوق مقاله كما ان كلامه مع خباب كان كذلك وقوله تعالى (كلا) ردع له عن التفوه بتلك العظيمة وتنبيه على خطئه (سنكتب مايقول) أى سنظهر أنا كتبنا قوله كقوله :

اذا ما انتسبنا لم تلدنى لئيمة. أى يتبين انى لم تلدنى لئيمة أو سننتقم منه انتقام من كتب جريمة الجانى وحفظها عليه فان نفس الكتبة لاتكاد تتأخر عن القول لقوله عز وعلا «ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد» فمبنى الاول تنزيل اظهار الشىء الخفى منزلة احداث الامر المعدوم بجامع أن كلا منهما اخراج من الكمون الى البروز فيكون استعارة تبعية مبنية على تشبيه اظهار الكتابة على رءوس الاشهاد باحداثها ومدار الثانى تسمية الشىء باسم سببه فان كتابة جريمة المجرم سبب لعقوبته قطعا (ونمد له من العذاب مدا) مكان مايدعيه لنفسه من الامداد بالمال والولد أى نطول له من العذاب مايستحقه أو نزيد عذابه ونضاعفه له لكفره وافترائه على الله سبحانه واستهزائه بآياته العظام ولذلك أكد بالمصدر دلالة على فرط الغضب (ونرثه) بموته (مايقول) أى مسمى مايقول ومصداقه وهو ما أوتيه فى الدنيا من المال والولد. وفيه ايذان بأنه ليس لما يقوله مصداق موجود سوى ماذكر أى ننزع عنه ما آتيناه (ويأتينا) يوم القيامة (فردا) لايصحبه مال ولا ولد كان له فى الدنيا فضلا أن يؤتى ثمة زائدا. وقيل نزوى عنه مازعم انه يناله فى الآخرة ونعطيه من يستحقه ويأباه معنى الارث وقيل المراد بما يقول نفس القول المذكور لامسماه والمعنى انما يقول هذا القول مادام حيا فاذا قبضناه حلنا بينه وبين ان يقوله ويأتينا رافضا له منفردا عنه وأنت خبير بان ذلك مبنى على أن صدور القول المذكور عنه بطريق الاعتقاد وأنه مستمر على التفوه به راج لوقوع مضمونه ولا ريب فى أن ذلك مستحيل ممن كفر بالبعث وانما قال ماقال بطريق الاستهزاء وتعليق أداء دينه

بالمحال (واتخذوا من دون الله آلهة) حكاية لجناية عامة للكل مستتبعة لضد ما يرجون ترتبه عليها أثر حكاية مقالة الكافر المعهود واستتباعها لنقيض مضمونها أى اتخذوا الاصنام آلهة متجاوزين الله تعالى (ليكونوا لهم عزا) أى ليتعززوا بهم بان يكونوا لهم وصلة اليه عز وجل وشفعاء عنده (كلا) ردع لهم عن ذلك الاعتقاد الباطل وانكار لوقوع ما علقوا به أطماعهم الفارغة (سيكفرون بعبادتهم) أى ستجحد الآلهة بعبادتهم لها بان ينطقها الله تعالى وتقول ما عبدتمونا أو سينكر الكفرة حين شاهدوا سوء عاقبة كفرهم عبادتهم لها كما فى قوله تعالى « والله ربنا ما كنا مشركين » ومعنى قوله تعالى (ويكونون عليهم ضدا) على الاول تكون الآلهة التى كانوا يرجون أن تكون لهم عزا ضداً للعز أى ذلا وهوانا أو تكون عونا عليهم وآلة لعذابهم حيث تجعل وقود النار وحصب جهنم أو حيث كانت عبادتهم لها سببا لعذابهم واطلاق الضد على العون لما أن عون الرجل يضاد عدوه وينافيه باعانته له عليه وعلى الثانى يكون الكفرة ضداً وأعداء للآلهة كافرين بها بعد أن كانوا يحبونها كحب الله ويعبدونها . وتوحيد الضد لوحدة المعنى الذى عليه تدور مضادتهم فانهم بذلك كشئ واحد كما فى قوله عليه السلام « وهم يد على من سواهم » وقرئ كلا بفتح الكاف والتنوين على قلب الألف نونا فى الوقف قلب ألف الاطلاق فى قوله :

أقلى اللوم عاذل والعتابن ... وقولى إن أصبت لقد أصابن

أو على معنى كل هذا الرأى كلا وقرئ كلا على اضمار فعل يفسره ما بعده أى سيجحدون كلا سيكفرون الخ (ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين) تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما نطقت به الآيات الكريمة السالفة وحكته عن هؤلاء الكفرة الغواة والمردة العتاة من فنون القبائح من الاقاويل والافاعيل والتمادى فى الغى والانهماك فى الضلال والافراط فى العناد والتصميم على الكفر من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم والاجماع على مدافعة الحق بعد اتضاحه وانتفاء الشك عنه بالكلية وتنبيه على ان جميع ذلك منهم باضلال الشياطين واغوائهم لا لان له مسوغا ما فى الجملة ومعنى ارسال الشياطين عليهم اما تسليطهم عليهم وتمكينهم من اضلالهم واما تقييضهم لهم وليس المراد تعجيبه عليه السلام من ارسالهم عليهم كما يوهمه تعليق الرؤية به بل مما ذكر من أحوال الكفرة من حيث كونها من آثار اغواء الشياطين كما ينبئ عنه قوله تعالى (تؤزهم أزا) فانه إما حال مقدرة من الشياطين أو استئناف وقع جوابا عما نشأ من صدر الكلام كأنه قيل ماذا يفعل الشياطين بهم حينئذ فقيل تؤزهم أى

تغريهم وتهيجهم على المعاصى تهييجا شديدا بأنواع الوساوس والتسويلات فان الاز والهز والاستفزاز أخوات معناها شدة الازعاج (فلا تعجل عليهم) أى بأن يهلكوا حسبما تقتضيه جناياتهم ويبيدوا عن آخرهم وتطهر الارض من فسادانهم. والفاء للاشعار بكون ما قبلها مظنة لوقوع المنهى عنه محوجة الى النهى كما فى قوله تعالى «ان هذا عدو لك ولزوجك» فلا يخرجنكما من الجنة» وقوله تعالى (انما نعد لهم عدا) تعليل لموجب النهى ببيان اقتراب هلاكهم أى لا تستعجل بهلاكهم فانه لم يبق لهم الا أيام وأنفاس نعدها عدا (يوم نحشر المتقين) منصوب على الظرفية بفعل مؤخر قد حذف للاشعار بضيق العبارة عن حصره وشرحه لكمال فظاعة ما يقع فيه من الطامة التامة والدواهى العامة كأنه قيل يوم نحشر المتقين أى نجمعهم (الى الرحمن) الى ربهم الذى يغمرهم برحمته الواسعة (وفدا) وافدين عليه كما تفد الوفود على الملوك منتظرين لكرامتهم وانعامهم (ونسوق المجرمين) كما تساق البهائم (الى جهنم وردا) عطاشا فان من يرد الماء لا يورده الا العطش أو كالدواب التى ترد الماء نفعل بالفريقين من الافعال ما لا يفى ببيانه نطاق المقال. وقيل منصوب على المفعولية بمضمر مقدم خوطب به النبى صلى الله عليه وسلم أى اذكر لهم بطريق الترغيب والترهيب يوم نحشر الخ وقيل على الظرفية لقوله تعالى (لا يملكون الشفاعة) والذى يقتضيه مقام التهويل وتستدعيه جزالة التنزيل أن ينتصب بأحد الوجهين الاولين ويكون هذا استئنافا مبينا لبعض ما فيه من الامور الدالة على هوله وضميره عائد الى العباد المدلول عليهم بذكر الفريقين لانحصارهم فيهما وقيل الى المتقين خاصة وقيل الى المجرمين من الكفرة وأهل الاسلام والشفاعة على الاولين مصدر من المبنى للفاعل وعلى الثالث ينبغى أن تكون مصدرا من المبنى للمفعول وقوله تعالى (الا من اتخذ عند الرحمن عهدا) على الاول استثناء متصل من لا يملكون ومحل المستثنى إما الرفع على البدل أو النصب على أصل الاستثناء والمعنى لا يملك العباد أن يشفعوا لغيرهم الا من استعد له بالتحلى بالايمان والتقوى أو من أمر بذلك من قولهم عهد الامير الى فلان بكذا اذا أمره به فيكون ترغيبا للناس فى تحصيل الايمان والتقوى المؤدى الى نيل هذه الرتبة وعلى الثانى استثناء من الشفاعة على حذف المضاف والمستثنى منصوب على البدل أو على أصل الاستثناء أى لا يملك المتقون الشفاعة الا شفاعة من اتخذ العهد بالاسلام فيكون ترغيبا فى الاسلام وعلى الثالث استثناء من لا يملكون أيضا والمستثنى مرفوع على البدل أو منصوب على الاصل والمعنى لا يملك المجرمون أن يشفع لهم الا من كان منهم مسلما (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا) حكاية

الجناية اليهود والنصارى ومن يزعم من العرب أن الملائكة بنات الله سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا إثر حكاية عبدة الاصنام بطريق عطف القصة على القصة وقوله تعالى (لقد جئتم شيئا إدا) رد لمقالتهم الباطلة وتهويل لامرها بطريق الالتفات المنبئ عن كمال السخط وشدة الغضب المفصح عن غاية التشنيع والتقبيح وتسجيل عليهم بنهاية الوقاحة والجهل والجراءة والاد بالكسر والفتح العظيم المنكر والادة الشدة وأدنى الامر وآدنى أثقلنى وعظم على أى فعلتم أمر منكرا شديدا لا يقادر قدره فان جاء وأتى يستعملان فى معنى فعل فيعديان تعديته وقوله تعالى (تكاد السموات) الخ صفة لادا أو استئناف ببيان عظم شأنه فى الشدة والهول وقرئ يكاد بالتذكير (يتفطرن منه) يتشققن مرة بعد أخرى من عظم ذلك الامر وقرئ ينفطرن والاول أبلغ لان تفعل مطاوع فعل وانفعل مطاوع فعل ولان أصل التفعل التكلف (وتنشق الارض) أى وتكاد تنشق الارض (وتخر الجبال) أى تسقط وتتهدم وقوله تعالى (هدا) مصدر مؤكد لمحذوف هو حال من الجبال أى تهد هدا أو مصدر من المبنى للمفعول مؤكد لتخر على غير الصدر لانه حينئذ بمعنى التهدم والخرور كانه قيل وتخر الجبال خرورا أو مصدر بمعنى المفعول منصوب على الحالية أى مهدودة أو مفعول له أى لانها تهد وهذا تقرير لكونه ادا والمعنى أن هول تلك الكلمة الشنعاء وعظمها بحيث لو تصورت بصورة محسوسة لم تطق بها هاتيك الاجرام العظام وتفتتت من شدتها أوان فظاعتها فى استجلاب الغضب واستيجاب السخط بحيث لولا حلمه تعالى لخرب العالم وبددت قوائمه غضبا على من تفوه بها (أن دعوا للرحمن ولدا) منصوب على حذف اللام المتعلقة بتكاد أو مجرور باضمارها أى تكاد السموات يتفطرن والارض تنشق والجبال تخر لان دعوا له سبحانه ولدا وقيل اللام متعلقة بهدا وقيل الجملة بدل من الضمير المجرور فى منه كما فى قوله .على جوده لضن بالماء حاتم . وقيل خبر مبتدا محذوف أى الموجب لذلك أن دعوا الخ وقيل فاعل هدا أى هدها دعاء الولد والاول هو الاولى ودعوا من دعا بمعنى سمى المتعدى الى مفعولين وقد اقتصر على ثانيهما ليتناول كل ما دعى له ولدا أو من دعا بمعنى نسب الذى مطاوعه ادعى الى فلان أى انتسب اليه وقوله تعالى (وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا) حال من فاعل قالوا أو دعوا مقررة لبطلان مقالتهم واستحالة تحقق مضمونها أى قالوا اتخذ الرحمن ولدا أو أن دعوا للرحمن ولدا والحال انه ما يليق به تعالى اتخاذ الولد ولا يتطلب له لو طلب مثلا لاستحالته فى نفسه ووضع الرحمن موضع الضمير للاشعار بعلة الحكم بالتنبيه على أن كل ما سواه تعالى اما نعمة أو منعم

عليه فكيف يتسنى أن يجانس من هو مبدأ النعم ومولى أصولها وفروعها حتى يتوهم أن يتخذه ولدا وقد صرح به قوله عز قائلا (ان كل من فى السموات والارض) أى ما منهم أحد من الملائكة والثقلين (الا آتى الرحمن عبدا) إلا وهو مملوك له يأوى اليه بالعبودية والانقياد وقرىء آت الرحمن على الاصل (لقد أحصاهم) أى حصرهم وأحاط بهم بحيث لا يكاد يخرج منهم أحد من حيطة علمه وقبضة قدرته وملكوته (وعدهم عدا) أى عد أشخاصهم وأنفاسهم وأفعالهم وكل شىء عنده بمقدار (وكلهم آتيه يوم القيامة فردا) أى كل واحد منهم آت إياه تعالى منفردا من الاتباع والانصار وفى صيغة الفاعل من الدلالة على إتيانهم كذلك البتة ما ليس فى صيغة المضارع لو قيل يأتيه فاذا كان شأنه تعالى وشأنهم كما ذكر فأنى يتوهم احتمال أن يتخذ شيئا منهم ولدا (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات) لما فصلت قبائح أحوال الكفرة عقب ذلك بذكر محاسن أحوال المؤمنين (سيجعل لهم الرحمن ودا) أى سيحدث لهم فى القلوب مودة من غير تعرض منهم لأسبابها سوى مالهم من الايمان والعمل الصالح والتعرض لعنوان الرحمانية لما أن الموعود من آثارها وعن النبى عليه الصلاة والسلام « اذا أحب الله عبدا يقول لجبريل عليه السلام انى أحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادى فى أهل السماء ان الله أحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له المحبة فى الارض » والسين لان السورة مكية وكانوا اذ ذاك ممقوتين بين الكفرة فوعدهم ذلك ثم أنجزه حين ربا الاسلام أو لأن الموعود فى القيامة حين تعرض حسناتهم على رءوس الاشهاد فينزع ما فى صدورهم من الغل الذى كان فى الدنيا ولعل افراد هذا بالوعد من بين ما سيؤتون يوم القيامة من الكرامات السنية لما أن الكفرة سيقع بينهم يومئذ تباغض وتضاد وتقاطع وتلاعن (فانما يسرناه) أى القرآن (بلسانك) بأن أنزلناه على لغتك والباء بمعنى على وقيل ضمن التيسير من الانزال أى يسرنا القرآن منزلين له بلغتك والفاء لتعليل أمر ينساق اليه النظم الكريم كأنه قيل بعد إيحاء السورة الكريمة بلغ هذا المنزل أو بشر به وأنذر فانما يسرناه بلسانك العربى المبين (لتبشر به المتقين) أى الصائرين الى التقوى بامتثال ما فيه من الامر والنهى (وتنذر به قوما لدا) لا يؤمنون به لجاجا وعنادا واللد جمع الالد وهو الشديد الخصومة اللجوج المعاند وقوله تعالى (وكم أهلكنا قبلهم من قرن) وعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى ضمن وعيد الكفرة بالاهلاك وحث له عليه الصلاة والسلام على الانذار أى قرنا كثيرا أهلكنا قبل هؤلاء المعاندين وقوله تعالى (هل تحس منهم من أحد) استئناف مقرر لمضمون

ما قبله أى هل تشعر بأحد منهم وترى (أو تسمع لهم ركزا) أى صوتاً خفياً وأصل الركز هو الخفاء ومنه ركز الرمح إذا غيب طرفه فى الارض والركاز المال المدفون المخفى والمعنى أهلكناهم بالكلية واستأصلناهم بحيث لا يرى منهم أحد ولا يسمع منهم صوت خفى . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة مريم أعطى عشر حسنات بعدد من كذب زكريا وصدق به ويحيى وعيسى ومريم وسائر الانبياء المذكورين فيها وبعدد من دعا الله تعالى فى الدنيا ومن لم يدع الله تعالى .

(سورة طه مكية)

وهى مائة وخمس وثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(طه) فخمهما قالون وابن كثير وابن عامر وحفص ويعقوب على الاصل والطاء وحده أبو عمرو وورش لاستعلائه وأمالها الباقون وهو من الفواتح التى يصدر بها السور الكريمة وعليه جمهور المتقنين وقيل معناه يا رجل وهو مروى عن ابن عباس رضى الله عنهما والحسن ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعكرمة والكلبى الا انه عند سعيد على اللغة النبطية وعند قتادة على السريانية وعند عكرمة على الحبشية وعند الكلبى على لغة عك وقيل عكل وهى لغة يمانية قالوا إن صح فلعل أصله يا هذا فتصرفوا فيه بقلب الياء طاء وحذف ذا من هذا وما استشهد من قول الشاعر :

ان السفاهة طه فى خلائقكم لاقدس الله أخلاق الملاعين

ليس بنص فى ذلك لجواز كونه قسما كما فى حم لا ينصرون وقد جوز أن يكون الاصل طاها بصيغة الامر من الوطء فقلبت الهمزة فى يطأ ألفاً لانفتاح ما قبلها كما فى قول من قال لاهناك المرتع . وها ضمير الارض على أنه خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يطأ الارض بقدميه لما كان يقوم فى تهجده على إحدى رجليه مبالغة فى المجاهدة ولكن يأباه كتابتهما على صورة الحرف كما تأبى التفسير بيارجل فان الكتابة على صورة الحرف مع كون التلفظ بخلافه من خصائص حروف المعجم . وقرىء طه اما على أن أصله طأ فقلبت همزته هاء كما فى أمثال هرقت أو قلبت الهمزة فى يطأ ألفا كما مر ثم بنى منه الامر وألحق به هاء السكت وإما على أنه اكتفى فى التلفظ بشطرى الاسمين وأقيما مقامهما فى الدلالة على المسميين فكأنهما اسماهما الدالان عليهما وعلى هذا ينبغى أن يحمل قول

من قال أو اكتفى بشطرى الكلمتين وعبر عنهما باسمهما والا فالشطران لم يذكرا من حيث انهما مسميان لاسميهما ليقعا معبرا عنهما بل من حيث انهما جزءان لهما قد اكتفى بذكرهما عن ذكرهما ولذلك وقع التلفظ بأنفسهما لاباسميهما بأن يراد بضمير التثنية فى الموضعين الشطران من حيث هما مسميان لامن حيث هما جزءان للاسمين ويراد باسمهما الشطران من حيث هما قائمان مقام الاسمين فالمعنى اكتفى فى التلفظ بشطر الكلمتين أى الاسمين فعبر عنهما أى عن الشطرين من حيث هما مسميان بهما من حيث هما قائمان مقام الاسمين. وأما حمله على معنى انه اكتفى فى الكتابة بشطري الكلمتين يعنى «طا» على تقديرى كونه أمراً وكونه حرف نداء و«ها» على تقديرى كونها كناية عن الارض وكونها حرف تنبيه وعدل عن ذينك الشطرين فى التلفظ باسمهما فبين البطلان كيف وطاوها على ما ذكر من التقادير ليسا باسمين للحرفين المذكورين بل الاول أمر أو حرف نداء والثانى ضمير الارض أو حرف تنبيه على أن كتابة صورة الحرف والتلفظ بغيره من خواص حروف المعجم كما مر فالحق ما سلف من أنها من الفواتح إما مسرودة على نمط التعديد باحد الوجهين المذكورين فى مطلع سورة البقرة فلا محل لها من الاعراب وكذا ما بعدها من قوله تعالى (ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) فانه استئناف مسوق لتسليته عليه الصلاة والسلام عما كان يعتريه من جهة المشركين من التعب فان الشقاء شائع فى ذلك المعنى ومنه: أشقى من رائض مهر. أى ما أنزلناه عليك لتتعب بالمبالغة فى مكابدة الشدائد فى مقاولة العتاة ومحاورة الطغاة وفرط التأسف على كفرهم به والتحسر على أن يؤمنوا كقوله عز وجل «فلعلك باخع نفسك على آثارهم» الآية بل للتبليغ والتذكير وقد فعلت فلا عليك ان لم يؤمنوا به بعد ذلك أو لصرفه عليه الصلاة والسلام عما كان عليه من المبالغة فى المجاهدة فى العبادة كما روى أنه عليه الصلاة والسلام كان يقوم بالليل حتى ترم قدماه فقال له جبريل عليه السلام أبق على نفسك فان لها عليك حقا أى ما أنزلناه عليك لتتعب بنهك نفسك وحملها على الرياضات الشاقة والشدائد الفادحة وما بعثت الا بالحنيفية السمحة وقيل ان أبا جهل والنضر بن الحرث قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم انك شقى حيث تركت دين آبائك وان القرآن نزل عليك لتشقى به فرد ذلك بأنا ما أنزلناه عليك لما قالوا والاول هو الانسب كما يشهد به الاستثناء الآتى. هذا واما اسم للقرآن محله الرفع على انه مبتدأ وما بعده خبره والقرآن ظاهر أوقع موقع العائد الى المبتدا كانه قيل القرآن ما أنزلناه عليك لتشقى أو النصب على اضمار فعل القسم

أو الجر بتقدير حرفه وما بعده جوابه وعلى هذين الوجهين يجوز أن يكون اسما للسورة أيضا بخلاف الوجه الاول فانه لا يتسنى على ذلك التقدير لكن لا لأن المبتدأ يبقى حينئذ بلا عائد ولا قائم مقامه فان القرآن صادق على السورة لا محالة اما بطريق الاتحاد بأن يراد به القدر المشترك بين الكل والبعض أو باعتبار الاندراج ان أريد به الكل بل لأن نفى كون انزاله للشقاء يستدعى سبق وقوع الشقاء مترتبا على انزاله قطعا اما بحسب الحقيقة كما لو أريد به معنى التعب أو بحسب زعم الكفرة كما لو أريد به ضد السعادة ولا ريب فى أن ذلك انما يتصور فى انزال ما أنزل من قبل وأما انزال السورة الكريمة فليس مما يمكن ترتب الشقاء السابق عليه حتى يتصدى لنفيه عنه أما باعتبار الاتحاد فظاهر وأما باعتبار الاندراج فلان مآله أن يقال هذه السورة ماأنزلنا القرآن المشتمل عليها لتشقى ولا يخفى أن جعلها مخبراً عنها مع أنه لادخل لانزالها فى الشقاء السابق أصلا مما لايليق بشأن التنزيل الجليل وقوله تعالى (إلا تذكرة) نصب على أنه مفعول له لانزلنا لكن لامن حيث أنه معال بالشقاء على معنى ماأنزلنا عليك القرآن لتتعب فى تبليغه الا تذكرة الآية كقولك ماضربتك للتأديب الا إشفاقا لما أنه يجب فى أمثاله أن يكون بين العلتين ملابسة بالسببية والمسببية حتما كما فى المثال المذكور وفى قولك ماشافهتك بالسوء لتتأذى الا زجرا لغيرك فان التأديب فى الاول مسبب عن الاشفاق والتأذى فى الثانى سبب لزجر الغير وقد عرفت مابين الشقاء والتذكرة من التنافى ولايجدى أن يراد به التعب فى الجملة المجامع للتذكرة لظهور أن لاملابسة بينهما بماذكر من السببية والمسببية وانما يتصور ذلك أن لو قيل مكان إلا تذكرة إلا تكثيراً لثوابك فان الاجر بقدر التعب ولامن حيث إنه بدل من محل لتشقى كما فى قوله تعالى «مافعلوه إلا قليل» لوجوب المجانسة بين البدلين وقد عرفت حالهما بل من حيث أنه معطوف عليه بحسب المعنى بعد نفيه بطريق الاستدراك المستفاد من الاستثناء المنقطع كأنه قيل ماأنزلنا عليك القرآن لتتعب فى تبليغه ولكن تذكرة (لمن يخشى) وقد جرد التذكرة عن اللام لكونها فعلا لفاعل الفعل المعلل أى لمن من شأنه أن يخشى الله عز وعلا ويتأثر بالانذار لرقة قلبه ولين عريكته أولمن علم الله تعالى أنه يخشى بالتخويف وتخصيصها بهم مع عموم التذكرة والتبليغ لانهم المنتفعون بها وقوله تعالى (تنزيلا) مصدر مؤكد لمضمر مستأنف مقرر لما قبله أى نزل تنزيلا أولما تفيده الجملة الاستثنائية فانها متضمنة لان يقال أنزلناه للتذكرة والاول هو الانسب بمابعده من الالتفات أومنصوب على المدح والاختصاص وقيل هو منصوب

بيخشى على المفعولية أى يخشى تنزيلا من الله تعالى وأنت خبير بأن تعليق الخشية والخوف ونظائرهما بمطلق التنزيل غير معهود نعم قد يعلق ذلك ببعض أجزائه المشتملة على الوعيد ونظائره كما فى قوله تعالى «يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم» وقيل هو بدل من تذكرة لكن لا على أنه مفعول له لانزلنا اذ لا يعلل الشىء بنفسه ولا بنوعه بل على أنه مصدر لمعنى الفاعل واقع موقع الحال من الكاف فى عليك أو من القرآن ولا مساغ له الا بأن يكون قيداً لأنزلنا بعد تقيده بالقيد الاول وقد عرفت حاله فيما سلف وقرىء تنزيل على أنه خبر لمبتدأ محذوف ومن فى قوله تعالى (ممن خلق الارض والسموات العلى) متعلقة بتنزيلا أو بمضمر هو صفة له مؤكدة لما فى تنكيره من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية ونسبة التنزيل الى الموصول بطريق الالتفات الى الغيبة بعد نسبته الى نون العظمة لبيان فخامته تعالى بحسب الافعال والصفات إثر بيانها بحسب الذات بطريق الابهام ثم التفسير لزيادة تحقيق وتقرير وتخصيص خلقهما بالذكر مع أن المراد خلقهما بجميع ما يتعلق بهما كما يفصح عنه قوله تعالى له «ما فى السموات وما فى الارض» الآية لاصالتهما واستتباعهما لما عداهما . وتقديم الارض لكونه أقرب الى الحس وأظهر عنده. ووصف السموات بالعلا وهو جمع العليا تأنيث الاعلى لتأكيد الفخامة مع ما فيه من مراعاة الفواصل وكل ذلك الى قوله تعالى «له الاسماء الحسنى» مسوق لتعظيم شأن المنزل عز وجل المستتبع لتعظيم شأن المنزل الداعى الى تربية المهابة وادخال الروعة المؤدية الى استنزال المتمردين عن رتبة العتو والطغيان واستمالتهم نحو الخشية المفضية الى التذكرة والايمان (الرحمن) رفع على المدح أى هو الرحمن وقد عرفت فى صدر سورة البقرة أن المرفوع مدحا فى حكم الصفة الجارية على ما قبله وان لم يكن تابعا له فى الاعراب ولذلك التزموا حذف المبتدا ليكون فى صورة متعلق من متعلقاته وقد قرىء بالجر على انه صفة صريحة للموصول . وما قيل من أن الاسماء الناقصة لا يوصف منها الا الذى وحده مذهب الكوفيين وأياما كان فوصفه بالرحمانية أثر وصفه بخالقية السموات والارض للاشعار بأن خلقهما من آثار رحمته تعالى كما أن قوله تعالى «رب السموات والارض وما بينهما الرحمن» للايذان بأن ربوبيته تعالى بطريق الرحمة . وفيه اشارة الى أن تنزيل القرآن أيضا من أحكام رحمته تعالى كما ينبىء عنه قوله تعالى «الرحمن علم القرآن» أو رفع على الابتداء واللام للعهد والاشارة الى الموصول . والخبر قوله تعالى (على العرش استوى) وجعل الرحمة عنوان الموضوع الذى شأنه أن يكون معلوم الثبوت للموضوع عند المخاطب للايذان بأن ذلك أمر بين لا سترة به غنى عن الاخبار به صريحا

وعلى متعلقة باستوى قدمت عليه لمراعاة الفواصل والجار والمجرور على الاول خبر مبتدأ محذوف كما فى قراءة الجر وقد جوز أن يكون خبرا بعد خبر. والاستواء على العرش مجاز عن الملك والسلطان متفرع على الكناية فيمن يجوز عليه القعود على السرير يقال استوى فلان على سرير الملك يراد به ملك وان لم يقعد على السرير أصلا والمراد بيان تعلق ارادته الشريفة بايجاد الكائنات وتدبير أمرها وقوله تعالى (له ما فى السموات وما فى الارض) سواء كان ذلك بالجزئية منهما أو بالحلول فيهما (وما بينهما) من الموجودات الكائنة فى الجو دائما كالهواء والسحاب أو أكثريا كالطير أى له وحده دون غيره لا شركة ولا استقلالا كل ما ذكر ملكا وتصرفا واحياء واماتة وايجادا واعداما (وما تحت الثرى) أى ما وراء التراب وذكره مع دخوله تحت ما فى الارض لزيادة التقرير روى عن محمد بن كعب انه ما تحت الارضين السبع وعن السدى أن الثرى هو الصخرة التى عليها الارض السابعة (وإن تجهر بالقول) بيان لاحاطة علمه تعالى بجميع الاشياء أثر بيان سعة سلطنته وشمول قدرته لجميع الكائنات أى وان تجهر بذكره تعالى ودعائه فاعلم انه تعالى غنى عن جهرك (فانه يعلم السر وأخفى) أى ما أسررته الى غيرك وشيأ أخفى من ذلك وهو ما أخطرته ببالك من غير ان تتفوه به أصلا أو ما أسررته لنفسك وأخفى منه وهو ما ستسره فيما سيأتى. وتنكيره للمبالغة فى الخفاء وهذا إما نهى عن الجهر كقوله تعالى «واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول» واما ارشاد للعباد الى أن الجهر ليس لاسماعه سبحانه بل لغرض آخر من تصوير النفس بالذكر وتثبيته فيها ومنعها من الاشتغال بغيره وقطع الوسوسة عنها وهضمها بالتضرع والجؤار وقوله تعالى (الله) خبر مبتدأ محذوف والجملة استئناف مسوق لبيان أن ما ذكر من صفات الكمال موصوفها ذلك المعبود بالحق أى ذلك المنعوت بما ذكر من النعوت الجليلة الله عز وجل وقوله تعالى (لا إله إلا هو) تحقيق للحق وتصريح بما تضمنه ما قبله من اختصاص الالوهية به سبحانه فان ما أسند اليه تعالى من خلق جميع الموجودات والرحمانية والمالكية للكل والعلم الشامل مما يقتضيه اقتضاء بينا وقوله تعالى (له الاسماء الحسنى) بيان لكون ما ذكر من الخالقية والرحمانية والمالكية والعالمية أسماءه وصفاته من غير تعدد فى ذاته تعالى فانه روى أن المشركين حين سمعوا النبى عليه الصلاة والسلام يقول يا الله يا رحمن قالوا ينهانا أن نعبد إلهين وهو يدعو إلها آخر. والحسنى تأنيث الاحسن يوصف به الواحدة المؤنثة والجمع من المذكر والمؤنث كما رب أخرى وآياتنا الكبرى (وهل أتاك حديث موسى) استئناف مسوق لتقرير

أمر التوحيد الذى اليه انتهى مساق الحديث وبيان أنه أمر مستمر فيما بين الانبياء كابرا عن كابر وقد خوطب به موسى عليه الصلاة والسلام حيث قيل له انى أنا الله لا اله الا انا وبه ختم عليه الصلاة السلام مقاله حيث قال « إنما إلهكم الله الذى لا اله الا هو » وأما ماقيل من أن ذلك لترغيب النبى عليه الصلاة والسلام فى الائتساء بموسى عليه الصلاة والسلام فى تحمل أعباء النبوة والصبر على مقاساة الخطوب فى تبليغ أحكام الرسالة فيأباه أن مساق النظم الكريم لصرفه عليه الصلاة والسلام عن اقتحام المشاق وقوله تعالى (اذ رأى نارا) ظرف للحديث وقيل لمضمر مؤخر أى حين رأى نارا كان كيت وكيت وقيل مفعول لمضمر مقدم أى اذكر وقت رؤيته نارا . روى أنه عليه الصلاة والسلام استأذن شعيبا عليهما الصلاة والسلام فى الخروج الى أمه واخيه فخرج بأهله وأخذ على غير الطريق مخافة من ملوك الشام فلما وافى وادى طوى وهو بالجانب الغربى من الطور ولد له ولد فى ليلة مظلمة شاتية مثلجة وكانت ليلة الجمعة وقد ضل الطريق وتفرقت ماشيته ولا ماء عنده وقدح فصلد زنده فبينما هو فى ذلك اذ رأى نارا على يسار الطريق من جانب الطور (فقال لأهله امكثوا) أى أقيموا مكانكم أمرهم عليه الصلاة والسلام بذلك لئلا يتبعوه فيما عزم عليه عليه الصلاة والسلام من الذهاب الى النار كما هو المعتاد لا لئلا ينتقلوا الى موضع آخر فانه مما لا يخطر بالبال والخطاب للمرأة والولد والخادم وقيل لها وحدها والجمع اما للظاهر لفظ الاهل أو للتفخيم كما فى قول من قال « وان شئت حرمت النساء سواكم » (إنى آنست نارا) أى أبصرتها ابصارا بينا لا شبهة فيه . وقيل الايناس خاص بابصار ما يؤنس به والجملة تعليل للامر أو المأمور به (لعلى آتيكم منها) أى أجيئكم من النار (بقبس) أى بشعلة مقتبسة من معظم النار وهى المرادة بالجذوة فى سورة القصص وبالشهاب القبس (أو أجد على النار هدى) هاديا يدلنى على الطريق على أنه مصدر سمى به الفاعل مبالغة أو حذف منه المضاف أى ذا هداية أو على أنه إذا وجد الهادى فقد وجد الهدى وقيل هاديا يهدينى إلى أبواب الدين فان أفكار الأبرار مغمورة بالهمة الدينية فى عامة أحوالهم لا يشغلهم عنها شاغل والأول هو الأظهر لأن مساق النظم الكريم لتسلية أهله وقد نص عليه فى سورة القصص حيث قيل « لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة » الآية وكلمة أو فى الموضعين لمنع الخلو دون منع الجمع ومعنى الاستعلاء فى قوله تعالى على النار أن أهل النار يستعلون المكان القريب منها أو لأنها عند الاصطلاء يكتنفونها قياما وقعودا فيشرفون عليها ولما كان الأتيان بهما مترقبا غير محقق الوقوع صدر الجملة بكلمة الترجى وهى إما علة لفعل قد حذف ثقة بما يدل

عليه من الأمر بالمكث والأخبار بإيناس النار وتفاديا عن التصريح بما يوحشهم وإما حال من فاعله أي فاذهب إليها لآتيكم أو كي آتيكم أو راجيا أن آتيكم منها بقبس الآية وقد مر تحقيق ذلك مفصلا في تفسير قوله تعالى «يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون» (فلما آتاها) أي النار التي آنسها قال ابن عباس رضي الله عنهما رأى شجرة خضراء أطافت بها من أسفلها إلى أعلاها نار بيضاء تتقد كأضوإ ما يكون فوقف متعجبا من شدة ضوئها وشدة خضرة الشجرة فلا النار تغير خضرتها ولا كثرة ماء الشجرة تغير ضوأها قالوا النار أربعة أصناف صنف يأكل ولا يشرب وهي نار الدنيا وصنف يشرب ولا يأكل وهي نار الشجر الأخضر وصنف يأكل ويشرب وهي نار جهنم وصنف لا يأكل ولا يشرب وهي نار موسى عليه الصلاة والسلام وقالوا أيضا هي أربعة أنواع نوع له نور وإحراق وهي نار الدنيا ونوع لا نور له ولا إحراق وهي نار الأشجار ونوع له نور بلا إحراق وهي نار موسى عليه الصلاة والسلام ونوع له إحراق بلا نور وهي نار جهنم روي أن الشجرة كانت عوسجة وقيل كانت سمرة (نودي يا موسى) أي نودي فقيل يا موسى (إني أنا ربك) أو عومل النداء معاملة القول لكونه ضربا منه وقرئ بالفتح أي بأني وتكرير الضمير لتأكيد الدلالة وتحقيق المعرفة وإماطة الشبهة روي أنه لما نودي يا موسى قال عليه الصلاة والسلام من المتكلم فقال الله عز وجل أنا ربك فوسوس إليه إبليس لعلك تسمع كلام شيطان فقال أنا عرفت أنه كلام الله تعالى بأني أسمعه من جميع الجهات بجميع الأعضاء قلت وذلك لأن سماع ما ليس من شأنه ذلك من الأعضاء ليس إلا من آثار قدرة الخلاق العليم تعالى وتقدس وقيل تلقى عليه الصلاة والسلام كلام رب العزة تلقيا روحانيا ثم تمثل ذلك الكلام لبدنه وانتقل إلى الحس المشترك فانتقش به من غير اختصاص بعضو وجهة (فاخلع نعليك) أمر عليه الصلاة والسلام بذلك لأن الحفوة أدخل في التواضع وحسن الأدب ولذلك كان السلف الصالحون يطوفون بالكعبة حافين وقيل ليباشر الوادي بقدميه تبركا به وقيل لما أن نعليه كانا من جلد حمار غير مدبوغ وقيل معناه فرغ قلبك من الأهل والمال والفاء لترتيب الأمر على ما قبلها فإن ربوبيته تعالى له عليه الصلاة والسلام من موجبات الأمر ودواعيه وقوله تعالى (إنك بالواد المقدس) تعليل لوجوب الخلع المأمور به وبيان لسبب ورود الأمر بذلك من شرف البقعة وقدسها روي أنه عليه الصلاة والسلام خلعهما وألقاهما وراء الوادي (طوى) بضم الطاء غير منون وقرئ منونا وقرئ بالكسر منونا وغير

منون فمن نونه أوله بالمكان دون البقعة وقيل هو كثنى من الطى مصدر لنودى أو المقدس أى نودى نداءين أو قدس مرة بعد أخرى (وأنا اخترتك) أى اصطفيتك للنبوة والرسالة . وقرىء وإنا اخترناك بالفتح والكسر والفاء فى قوله (فاستمع) لترتيب الامر أو المأمور به على ما قبلها فان اختياره عليه السلام لما ذكر من موجبات الاستماع والامر به واللام فى قوله تعالى (لما يوحى) متعلقة باستمع وما موصولة أو مصدرية أى فاستمع للذى يوحى اليك أو للوحى لا باخترتك كما قيل لكن لا لما قيل من انه من باب التنازع واعمال الاول فلا بد حينئذ من اعادة الضمير مع الثانى بل لان قوله تعالى (انى أنا الله لا اله الا أنا) بدل من ما يوحى ولا ريب فى أن اختياره عليه الصلاة ليس لهذا الوحى فقط والفاء فى قوله تعالى (فاعبدنى) لترتيب المأمور به على ما قبلها فان اختصاص الالوهية به سبحانه وتعالى من موجبات تخصيص العبادة به عز وجل (وأقم الصلاة) خصت الصلاة بالذكر وأفردت بالامر مع اندراجها فى الامر بالعبادة لفضلها وانافتها على سائر العبادات بما نيطت به من ذكر المعبود وشغل القلب واللسان بذكره وذلك قوله تعالى (لذكرى) أى لتذكرنى فان ذكرى كما ينبغى لا يتحقق الا فى ضمن العبادة والصلاة أو لتذكرنى فيها لاشتمالها على الاذكار أو لذكرى خاصة لا تشوبه بذكر غيرى أو لاخلاص ذكرى وابتغاء وجهى لا ترائى بها ولا تقصد بها غرضا آخر أو لتكون ذاكراً لى غير ناس. وقيل لذكرى اياها وأمرى بها فى الكتب أو لان أذكرك بالمدح والثناء وقيل لاوقات ذكرى وهى مواقيت الصلاة أو لذكر صلاتى لما روى انه عليه الصلاة والسلام قال «من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها اذا ذكرها لان الله تعالى يقول واقم الصلاة لذكرى» وقرىء لذكرى بألف التأنيث وللذكرى معرفا وللذكر بالتعريف والتنكير وقوله تعالى (ان الساعة آتية) تعليل لوجوب العبادة واقامة الصلاة أى كائنة لا محالة وانما عبر عن ذلك بالاتيان تحقيقا لحصولها بابرازها فى معرض أمر محقق متوجه نحو المخاطبين (أكاد أخفيها) أى لا أظهرها بأن أقول انها آتية ولو لا أن ما فى الاخبار بذلك من اللطف وقطع الاعذار لما فعلت أو أكاد أظهرها بايقاعها من أخفاه اذا أظهره بسلب خفائه ويؤيده القراءة بفتح الهمزة من خفاه بمعنى أظهره وقيل أخفاه من الاضداد يجىء بمعنى الاظهار والستر وقوله تعالى (لتجزى كل نفس بما تسعى) متعلق بآتية وما بينهما اعتراض أو بأخفيها على المعنى الاخير وما مصدرية أى لتجزى كل نفس بسعيها فى تحصيل ما ذكر من الامور المأمور بها وتخصيصه فى معرض الغاية لاتيانها مع أنه لجزاء كل نفس بما صدر عنها

سواء كان سعيا فيما ذكر أو تقاعدا عنه بالمرة أو سعيا فى تحصيل مايضاده للايذان بأن المراد بالذات من إتيانها هو الاثابة بالعبادة و أما العقاب بتركها فمن مقتضيات سوء اختيار العصاة وبأن المأمور به فى قوة الوجوب والساعة فى شدة الهول والفظاعة بحيث يوجبان على كل نفس أن تسعى فى الامتثال بالامر وتجد فى تحصيل ماينجيها من الطاعات وحينئذ تحترز عن اعتراف مايرديها من المعاصى وعليه مدار الامر فى قوله تعالى «وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا» فان الابتلاء مع شموله لكافة المكلفين باعتبار أعمالهم المنقسمة الى الحسن والقبيح أيضا لا الى الحسن والاحسن فقط قدعلق بالأخيرين لماذكر من أن المقصود الاصلى من ابداع تلك البدائع على ذلك النمط الرائع انما هو ظهور كمال احسان المحسنين وان ذلك لكونه على أتم الوجوه الرائقة وأكمل الانحاء اللائقة يوجب العمل بموجبه بحيث لا يحيد أحد عن سننه المستبين بل يهتدى كل فرد الى مايرشد اليه من مطلق الايمان والطاعة وانما التفاوت بينهم فى مراتبهما بحسب القوة والضعف وأما الاعراض عن ذلك والوقوع فى مهاوى الضلال فبمعزل من الوقوع فضلا عن أن ينتظم فى سلك الغاية لذلك الصنع البديع وانما هو عمل يصدر عن عامله بسوء اختياره من غير مصحح له أو مسوغ هذا. ويجوز أن يراد بالسعى مطلق العمل (فلا يصدنك عنها) أى عن ذكر الساعة ومراقبتها وقيل عن تصديقها والاول هو الاليق بشأن موسى عليه الصلاة والسلام وان كان النهى بطريق التهييج والالهاب. وتقديم الجار والمجرور على قوله تعالى (من لا يؤمن بها) لمامرمرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر فان ماحقه التقديم اذا أخر تبقى النفس مستشرفة له فيتمكن عند وروده لهافضل تمكن ولان فى المؤخر نوع طول ربما يخل تقديمه بجزالة النظم الكريم وهذا وان كان بحسب الظاهر نهيا للكافر عن صد موسى عليه الصلاة والسلام عن الساعة لكنه فى الحقيقة نهى له عليه الصلاة والسلام عن الانصداد عنها على أبلغ وجه وآكده فان النهى عن أسباب الشىء ومباديه المؤدية اليه نهى عنه بالطريق البرهانى وابطال للسببية من أصلها كما فى قوله تعالى «ولا يجرمنكم» الخ فان صد الكافر حيث كان سببا لانصداده عليه الصلاة والسلام كان النهى عنه نهيا بأصله وموجبه وابطالا له بالكلية ويجوز أن يكون من باب النهى عن المسبب وارادة النهى عن السبب على أن يراد نهيه عليه الصلاة والسلام عن اظهار لين الجانب للكفرة فان ذلك سبب لصدهم اياه عليه الصلاة والسلام كما فى قوله لا أرينك ههنا فان المراد به نهى المخاطب عن الحضور لديه

الموجب لرؤيته (واتبع هواه) أى ماتهواه نفسه من اللذات الحسية الفانية (فتردى) أى فتهلك فان الاغفال عنها وعن تحصيل ماينجي عن أهوالها مستتبع للهلاك لامحالة وهو فى محل النصب على جواب النهى أو فى محل الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أى فانت تردى (وما تلك بيمينك يا موسى) شروع فى حكاية ماكلف به عليه الصلاة والسلام من الامور المتعلقة بالخلق اثر حكاية ما أمر به من الشؤون الخاصة بنفسه فما استفهامية فى حيز الرفع بالابتداء وتلك خبره أو بالعكس وهو أدخل بحسب المعنى وأوفق بالجواب وبيمينك متعلق بمضمر وقع حالا أى وما تلك قارة أو مأخوذة بيمينك والعامل معنى الاشارة كما فى قوله عز وعلا «وهذا بعلى شيخا» وقيل تلك موصولة أى ما التى هى بيمينك وأياما كان فالاستفهام ايقاظ وتنبيه له عليه الصلاة والسلام على ماسيبدوله من التعاجيب وتكرير النداء لزيادة التأنيس والتنبيه (قال هى عصاى) نسبها الى نفسه تحقيقا لوجه كونها بيمينه وتمهيدا لما يعنبه من الافاعيل المنسوبة اليه عليه الصلاة والسلام وقرئ عصى على لغة هذيل (أتوكأ عليها) أى أعتمد عليها عند الاعياء أو الوقوف على رأس القطيع (وأهش بها) أى أخبط بها الورق وأسقطه (على غنمى) وقرئ أهش بكسر الهاء وكلاهما من هش الخبز يهش اذا انكسر لهشاشته وقرئ بالسين غير المعجمة وهو زجر الغنم وتعديته بعلى لتضمين معنى الانحاء والاقبال أى ازجرها منحيا ومقبلا عليها (ولى فيها مآرب أخرى) أى حاجات أخر من هذا الباب مثل ماروى أنه عليه الصلاة والسلام كان اذا سار ألقاها على عاتقه فعلق بها أدواته من القوس والكنانة والحلاب ونحوها واذا كان فى البرية ركزها وعرض الزندين على شعبتيها وألقى عليها الكساء واستظل به واذا قصر الرشاء وصله بها واذا تعرضت لغنمه السباع قاتل بها قيل ومن جملة المآرب انها كانت ذات شعبتين ومحجن فاذا طال الغصن حناه بالمحجن واذا أراد كسره لواه بالشعبتين وكانه عليه الصلاة والسلام فهم أن المقصود من السؤال بيان حقيقتها وتفصيل منافعها بطريق الاستقصاء حتى اذا ظهرت على خلاف تلك الحقيقة وبدت منها خواص بديعة علم انها آيات باهرة ومعجزات قاهرة أحدثها الله تعالى وليست من الخواص المترتبة عليها فذكر حقيقتها ومنافعها على التفصيل والاجمال على معنى أنها من جنس العصى مستتبعة لمنافع بنات جنسها ليطابق جوابه الغرض الذى فهمه من سؤال العليم الخبير (قال) استئناف مبني على سؤال ينساق اليه الذهن كانه قيل فماذا قال عز وجل فقيل قال (ألقها ياموسى) لترى من شأنها مالم يخطر ببالك من الامور . وتكرير النداء لتأكيد التنبيه

(فألقاها) على الارض (فأذا هى حية تسعى) روى انه عليه الصلاة والسلام حين ألقاها انقلبت حية صفراء فى غلظ العصا . ثم انتفخت وعظمت فلذلك شبهت بالجان تارة وسميت ثعبانا أخرى وعبر عنها ههنا بالاسم العام للحالين وقيل قد انقلبت من أول الامر ثعبانا وهو الاليق بالمقام كما يفصح عنه قوله عز وجل « فاذا هى ثعبان مبين » وانما شبهت بالجان فى الجلادة وسرعة الحركة لا فى صغر الجثة وقوله تعالى تسعى اما صفة لحية أو خبر ثان عند من يجوز كونه جملة (قال) استئناف كما سبق (خذها ولا تخف) عن ابن عباس رضى الله عنهما انقلبت ثعبانا ذكرا يبتلع كل شىء من الصخر والشجر فلما رآه كذلك خاف ونفر وملكه ما يملك البشر عند مشاهدة الاهوال والمخاوف من الفزع والنفار . وفى عطف النهى على الامر اشعار بأن عدم المنهى عنه مقصود لذاته لا لتحقيق المأمور به فقط وقوله تعالى (سنعيدها سيرتها الاولى) مع كونه استئنافا مسوقا لتعليل الامتثال بالامر والنهى فان إعادتها الى ما كانت عليه من موجبات أخذها وعدم الخوف منها عدة كريمة باظهار معجزة أخرى على يده عليه الصلاة والسلام وايذان بكونها مسخرة له عليه الصلاة والسلام ليكون على طمأنينة من أمره ولا يعتريه شائبة تزلزل عند محاجة فرعون أى سنعيدها بعد الاخذ الى حالتها الاولى التى هى الهيئة العصوية . قيل بلغ عليه الصلاة والسلام عند ذلك من الثقة وعدم الخوف الى حيث كان يدخل يده فى فمها ويأخذ بلحييها والسيرة فعلة من السير تجوز بها للطريقة والهيئة وانتصابها على نزع الجار أى الى سيرتها أو على أن أعاد منقول من عاده بمعنى عاد اليه أو على الظرفية سنعيدها فى طريقتها أو على تقدير فعلها وايقاعها حالا من المفعول أى سنعيدها عصا كما كانت من قبل تسير سيرتها الاولى أى سائرة سيرتها الاولى فتنتفع بها كما كنت تنتفع من قبل (واضمم يدك الى جناحك) أمر عليه الصلاة والسلام بذلك بعد ما أخذ الحية وانقلبت عصا كما كانت أى أدخلها تحت عضدك فان جناحى الانسان جنباه كما أن جناحى العسكر ناحيتاه مستعار من جناحى الطائر وقد سميا جناحين لانه يجنحهما أى يميلهما عند الطيران وقوله تعالى (تخرج) جواب الامر وقوله تعالى (بيضاء) حال من الضمير فيه وقوله تعالى (من غير سوء) متعلق بمحذوف هو حال من الضمير فى بيضاء أى كائنة من غير عيب وقبح كنى به عن البرص كما كنى بالسوأة عن العورة لما أن الطباع تعافه وتنفر عنه روى انه عليه الصلاة والسلام كان آدم فأخرج يده من مدرعته بيضاء لها شعاع كشعاع الشمس تعشى البصر (آية أخرى) أى معجزة أخرى غير العصا وانتصابها على الحالية إما من الضمير فى تخرج على انها بدل من الحال

الاولى وإما من الضمير فى بيضاء وقيل من الضمير فى الجار والمجرور وقيل هى منصوبة بفعل مضمر نحو خذ أو دونك وقوله تعالى (لنريك من آياتنا الكبرى) متعلق بمضمر ينساق اليه النظم الكريم كأنه قيل فعلنا مافعلنا من الامر والأظهار لنريك بذلك بعض آياتنا الكبرى على أن الكبرى صفة لآياتنا أو نريك بذلك من آياتنا ماهى كبرى على أن الكبرى مفعول ثان لنريك ومن آياتنا متعلق بمحذوف هو حال من ذلك المفعول وأياما كان فالآية الكبرى عبارة عن العصا واليد جميعاً. وأما تعلقه بما دل عليه آية أى دللنا بها لنريك الخ أو بقوله تعالى واضمم. أو بقوله تخرج. أو بما قدر من نحو خذ ودونك كما قال بكل من ذلك قائل فيؤدى الى عراء آية العصا عن وصف الكبر فتدبر (اذهب الى فرعون) تخلص الى ماهو المقصود من تمهيد المقدمات السالفة فصل عما قبله من الاوامر ايذاناً بأصالته أى اذهب اليه بما رأيته من الآيات الكبرى وادعه الى عبادتى وحذره نقمتى وقوله تعالى (إنه طغى) تعليل للامر أو لوجوب المأمور به أى جاوز الحد فى التكبر والعتو والتجبر حتى تجاسر على العظيمة التى هى دعوى الربوبية (قال) استئناف مبنى على سؤال ينساق اليه الذهن كانه قيل فماذا قال عليه الصلاة والسلام حين أمر بهذا الأمر الخطير والخطب العسير فقيل قال مستعيناً بربه عز وجل (رب اشرح لى صدري ويسرلى أمرى) لما أمر بما أمر به من الخطب الجليل تضرع الى ربه عز وجل وأظهر عجزه بقوله ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى وسأله تعالى أن يوسع صدره ويفسح قلبه ويجعله عليما بشئون الحق وأحوال الخلق حليما حمولا يستقبل ما عسى يرد عليه من الشدائد والمكاره بجميل الصبر وحسن الثبات ويتلقاها بصدر فسيح وجأش رابط وأن يسهل عليه مع ذلك أمره الذى هو أجل الأمور وأعظمها وأصعب الخطوب وأهولها بتوفيق الأسباب ورفع الموانع. وفى زيادة كلمة لى مع انتظام الكلام بدونها تأكيد لطلب الشرح والتيسير بإبهام المشروح والميسر أولا وتفسيرهما ثانياً. وفى تقديمها وتكريرها اظهار مزيد اعتناء بشأن كل من المطلوبين وفضل اهتمام باستدعاء حصولها له واختصاصهما به (واحلل عقدة من لسانى) روى أنه كان فى لسانه عليه الصلاة والسلام رتة من جمرة أدخلها فاه فى صغره وذلك أن فرعون حمله ذات يوم فأخذ لحيته فنتفها لما كان فيها من الجواهر فغضب وأمر بقتله فقالت آسية انه صبي لا يفرق بين الجمر والياقوت فاحضرا بين يديه فأخذ الجمرة فوضعها فى فيه قيل واحترقت يده فاجتهد فرعون فى علاجها فلم تبرأ ثم لما دعاه قال الى أى رب تدعونى قال إلى الذى أبرأ يدى وقد عجزت

عنه واختلف فى زوال العقدة بكمالها فمن قال به تمسك بقوله تعالى« قدأوتيت سؤلك» ومن لم يقل به احتج بقوله تعالى«هو أفصح منى»وقوله تعالى «ولا يكاد يبين» وأجاب عن الأول بأنه لم يسأل حل عقدة لسانه بالكلية بل حل عقدة تمنع الأفهام ولذلك نكرها ووصفها بقوله «من لسانى» أى عقدة كائنة من عقد لسانى وجعل قوله تعالى (يفقهوا قولى) جواب الأمر وغرضاً من الدعاء فبحلها فى الجملة يتحقق إيتاء سؤله عليه الصلاة والسلام والحق أن ما ذكر لا يدل على بقائها فى الجملة أما قوله تعالى «هو أفصح منى» فلأنه عليه الصلاة والسلام قاله قبل استدعاء الحل كما ستعرفه على ان أفصحيته منه عليهما الصلاة والسلام لاتستدعى بقاءها أصلا بل تستدعى عدم البقاء لما أن الأفصحية توجب ثبوت أصل الفصاحة فى المفضول أيضاً وذلك مناف للعقدة رأساً. وأما قوله تعالى ولا يكاد يبين فمن باب غلو اللعين فى العتو والطغيان وإلا لدل على عدم زوالها أصلا . وتنكيرها انما يفيد قلتها فى نفسها لاقلتها باعتبار كونها بعضاً من الكثير . وتعلق كلمة من فى قوله تعالى «من لسانى» بمحذوف هو صفة لها ليس بمقطوع به بل الظاهر تعلقها بنفس الفعل فان المحلول اذا كان متعلقاً بشىء ومتصلا به فكما يتعلق الحل به يتعلق بذلك الشىء أيضاً باعتبار ازالته عنه أو ابتداء حصوله منه (واجعل لى وزيرا من أهلى هرون أخى) أى موازرا يعاوننى فى تحمل أعباء ما كلفته على أن اشتقاقه من الوزر الذى هو الثقل أو ملجأ أعتصم برأيه على أنه من الوزر وهو الملجأ . وقيل أصله أزير من الازر بمعنى القوة فعيل بمعنى مفاعل كالعشير والجليس قلبت همزته واوا كقلبها فى موازر ونصبه على انه مفعول ثان لاجعل قدم على الاول الذى هو قوله تعالى هرون اعتناء بشأن الوزارة ولى صلة للجعل أو متعلق بمحذوف هو حال من وزيراً اذ هو صفة له فى الاصل ومن أهلى اما صفة لوزيرا أو صلة لاجعل وقيل مفعولاه لى وزيرا وهرون عطف بيان للوزير ومن أهلى كما مر من الوجهين وأخى فى الوجهين بدل من هرون أو عطف بيان آخر وقيل هما وزيرا من أهلى ولى تبيين كما فى قوله تعالى «ولم يكن له كفوا أحد» ورد بأن شرط المفعولين فى باب النواسخ صحة انعقاد الجملة الاسمية ولا مساغ لجعل وزيرا مبتدأ ويخبر عنه بما بعده (اشدد به أزرى وأشركه فى أمرى) كلاهما على صيغة الدعاء أى أحكم به قوتى واجعله شريكى فى أمر الرسالة حتى نتعاون على أدائها كما ينبغى وفصل الاول عن الدعاء السابق لكمال الاتصال بينهما فان شد الازر عبارة عن جعله وزيرا . وأما الاشراك فى الامر فحيث كان من أحكام الوزارة توسط بينهما العاطف (كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا)

غاية للادعية الثلاثة الاخيرة فان فعل كل واحد منهما من التسبيح والذكر مع كونه مكثراً لفعل الاخر ومضاعفا له بسبب انضمامه اليه مكثر له فى نفسه أيضا بسبب تقويته وتأييده اذ ليس المراد بالتسبيح والذكر ما يكون منهما بالقلب أو فى الخلوات حتى لا يتفاوت حاله عند التعدد والانفراد بل ما يكون منهما فى تضاعيف أداء الرسالة ودعوة المردة العتاة الى الحق وذلك مما لا ريب فى اختلاف حاله فى حالتى التعدد والانفراد فان كلا منهما يصدر عنه بتأييد الآخر من اظهار الحق مالا يكاد يصدر عنه مثله فى حال الانفراد وكثيرا فى الموضعين نعت لمصدر محذوف أو زمان محذوف أى ننزهك عما لا يليق بك من الصفات والافعال التى من جملتها ما يدعيه فرعون الطاغية ويقبله منه فئته الباغية من ادعاء الشركة فى الالوهية ونصفك بما يليق بك من صفات الكمال ونعوت الجمال والجلال تنزيها كثيرا أو زمانا كثيرا من جملته زمان دعوة فرعون وأوان المحاجة معه وأما ماقيل من أن المعنى كى نصلى لك كثيرا ونحمدك ونثنى عليك فلا يساعده المقام (انك كنت بنا بصيرا) أى عالما باحوالنا وبأن مادعوتك به مما يصلحنا ويفيدنا فى تحقيق ما كلفته من اقامة مراسم الرسالة وبأن هرون نعم الردء فى اداء ما أمرت به والباء متعلقة ببصيرا قدمت عليه لمراعاة الفواصل (قال قد أوتيت سؤلك) أى أعطيت سؤلك فعل بمعنى مفعول كالخبز والاكل بمعنى المخبوز والمأكول. والايتاء عبارة عن تعلق ارادته تعالى بوقوع تلك المطالب وحصولها له عليه السلام البتة وتقديره اياها حتما فكلها حاصلة له عليه السلام وان كان وقوع بعضها بالفعل مترقبا بعد كتيسير الامر وشد الازر وباعتباره قيل سنشد عضدك بأخيك وقوله تعالى (ياموسى) تشريف له عليه السلام بشرف الخطاب إثر تشريفه بشرف قبول الدعاء وقوله تعالى (ولقد مننا عليك) كلام مستأنف مسوق لتقرير ما قبله وزيادة توطين نفس موسى عليه السلام بالقبول ببيان انه تعالى حيث أنعم عليه بتلك النعم التامة من غير سابقة دعاء منه وطلب فلأن ينعم عليه بمثلها وهو طالب له وداع أولى وأحرى. وتصديره بالقسم لكمال الاعتناء بذلك أى والله لقد أنعمنا (مرة أخرى) أى فى وقت غير هذا الوقت لا أن ذلك مؤخر عن هذا فان أخرى تأنيث آخر بمعنى غير والمرة فى الاصل اسم للمرور الواحد ثم أطلق على كل فعلة واحدة من الفعلات متعدية كانت أو لازمة ثم شاع فى كل فرد واحد من افراد ماله أفراد متجددة متعددة فصار علما فى ذلك حتى جعل معياراً لما فى معناه من سائر الاشياء فقيل هذا بناء المرة ويقرب منها الكرة والتارة

والدفعة والمراد بها هنا الوقت الممتد الذى وقع فيه ماسيأتى ذكره من المنن العظيمة الكثيرة وقوله تعالى (اذ أوحينا الى أمك ما يوحى) ظرف لمننا والمراد بالايحاء إما الايحاء على لسان نبى فى وقتها كقوله تعالى «واذ أوحيت الى الحواريين» الآية واما الايحاء بواسطة الملك لا على وجه النبوة كما أوحى الى مريم واما الالهام كما فى قوله تعالى «وأوحى ربك الى النحل» واما الاراءة فى المنام والمراد بما يوحى ما سيأتى من الامر بقذفه فى التابوت وقذفه فى البحر أبهم أولا تهويلا له وتفخيما لشأنه ثم فسر ليكون أقر عند النفس وقيل معناه ما ينبغى أن يوحى ولا يخل به لعظم شأنه وفرط الاهتمام به وقيل ما لا يعلم الا بالوحى . وفيه انه لا يلائم المعنيين الاخيرين للوحى اذلا تفخيم لشأنه فى أن يكون مما لا يعلم الا بالالهام أو بالاراءة فى المنام وأن فى قوله تعالى (أن اقذفيه فى التابوت) مفسرة لان الوحى من باب القول أو مصدرية حذف منها الباء أى بان اقذفيه ومعنى القذف ههنا الوضع وأما فى قوله تعالى (فاقذفيه فى اليم) فالالقاء وهذا التفصيل هو المراد بقوله تعالى فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم لا القذف بلا تابوت (فليلقه اليم بالساحل) لما كان القاء البحر اياه بالساحل أمرا واجب الوقوع لتعلق الارادة الربانية به جعل البحر كأنه ذو تمييز مطيع أمر بذلك وأخرج الجواب مخرج الامر والضمائر كلها لموسى عليه السلام والمقذوف فى البحر والملقى بالساحل وان كان هو التابوت اصالة لكن لما كان المقصود بالذات ما فيه جعل التابوت تبعا له فى ذلك (يأخذه عدو لى وعدو له) جواب للامر بالالقاء . وتكرير العدو للمبالغة والتصريح بالامر والاشعار بان عداوته له مع تحققها لا تؤثر فيه ولا تضره بل تؤدى الى المحبة فان الامر بما هو سبب للهلاك صورة من قذفه فى البحر ووقوعه فى يد عدو الله تعالى وعدوه مشعر بان هناك لطفا خفيا مندرجا تحت قهر صورى . وقيل الاول باعتبار الواقع والثانى باعتبار المتوقع وليس المراد بالساحل نفس الشاطىء بل ما يقابل الوسط وهو ما يلى الساحل من البحر بحيث يجرى ماؤه الى نهر فرعون لما روى أنها جعلت فى التابوت قطنا ووضعته فيه ثم قيرته وألقته فى اليم وكان يشرع منه الى بستان فرعون نهر صغير فدفعه الماء اليه فأتى به الى بركة فى البستان وكان فرعون جالسا ثمة مع آسية بنت مزاحم فأمر به فاخرج ففتح فاذا هو صبى أصبح الناس وجها فأحبه عدو الله حبا شديدا لا يكاد يتمالك الصبر عنه وذلك قوله تعالى (وألقيت عليك محبة منى) كلمة من متعلقة بمحذوف هو صفة لمحبة مؤكدة لما فى تنكيرها من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية أى محبة عظيمة كائنة منى قد زرعتها فى

القلوب بحيث لايكاد يصبر عنك من رآك ولذلك أحبك عدو الله وآله وقيل هى متعلقة بألقيت أى أحببتك ومن أحبه الله تعالى أحبته القلوب لامحالة وقوله تعالى (ولتصنع على عينى) متعلق بألقيت معطوف على علة له مضمرة أى ليتعطف عليك ولتربى بالحنو والشفقة بمراقبتى وحفظى أو بمضمر مؤخر هو عبارة عما قبله من إلقاء المحبة والجملة مبتدأة أى ولتصنع على عينى فعلت ذلك وقرىء ولتصنع على صيغة الامر بسكون اللام وكسرها وقرىء بفتح التاء والنصب أى وليكون عملك على عين منى لئلا يخالف به عن أمرى (اذ تمشى أختك) ظرف لتصنع على أن المراد به وقت وقع فيه مشيها الى بيت فرعون وما ترتب عليه من القول والرجع الى أمها وتربيتها بالبر والحنو وهو المصداق لقوله تعالى ولتصنع على عيني اذلا شفقة أعظم من شفقة الام وصنعها على موجب مراعاته تعالى وقيل هو بدل من اذأوحينا على أن المراد به زمان متسع متباعد الاطراف وهو الانسب بما سيأتى من قوله تعالى فنجيناك من الغم الخ فان جميع ذلك من المنن الالهية ولاتعلق لشىء منها بالصنع المذكور وأما كونه ظرفا لالقيت كما جوز فربما يوهم أن القاء المحبة لم يحصل قبل ذلك ولا ريب فى أن معظم آثار القائها ظهر عندفتح التابوت (فتقول) أى لفرعون وآسية حين رأتهما يطلبان له عليه السلام مرضعة يقبل ثديها وكان لايقبل ثديا . وصيغة المضارع فى الفعلين لحكاية الحال الماضية (هل أدلكم على من يكفله) أى يضمه الى نفسه ويربيه وذلك انما يكون بقبوله ثديها يروى انه فشا الخبر بمصر أن آل فرعون أخذوا غلاما فى النيل لايرتضع ثدى امرأة واضطروا الى تتبع النساء فخرجت أخته مريم لتعرف خبره فجاءتهم متنكرة فقالت ماقالت وقالوا ماقالوا فجاءت بأمه فقبل ثديها فالفاء فى قوله تعالى (فرجعناك الى أمك) فصيحة معربة عن محذوف قبلها يعطف عليه ما بعدها أى فقالوا دلينا عليها فجاءت بامك فرجعناك اليها (كى تقرعينها) بلقائك (ولا تحزن) أى لا يطرأ عليها الحزن بفراقك بعد ذلك والا فزوال الحزن مقدم على السرور المعبر عنه بقرة العين فان التخلية متقدمة على التحلية وقيل ولا تحزن أنت بفقد اشفاقها (وقتلت نفسا) هى نفس القبطى الذى استغاثه الاسرائيلى عليه (فنجيناك من الغم) أى غم قتله خوفا من عقاب الله تعالى بالمغفرة ومن اقتصاص فرعون بالانجاء منه بالمهاجرة الى مدين (وفتناك فتونا) أى ابتليناك ابتلاء أو فتونا من الابتلاء على أنه جمع فتن أو فتنة على ترك الاعتداد بالتاء كحجوز فى حجزة وبدور فى بدرة أى خلصناك مرة بعد أخرى وهو اجمال مانا له فى سفره من الهجرة عن الوطن ومفارقة الالاف والمشى راجلا

وفقد الزاد وقد روى أن سعيد بن جبير سأل عنه ابن عباس رضى الله عنهما فقال خلصناك من محنة بعد محنة ولد فى عام كان يقتل فيه الولدان فهذه فتنة ياابن جبير وألقته أمه فى البحر وهم فرعون بقتله وقتل قبطيا وآجر نفسه عشر سنين وضل الطريق وتفرقت غنمه فى ليلة مظلمة وكان يقول عند كل واحدة فهذه فتنة ياابن جبير ولكن الذى يقتضيه النظم الكريم أن لاتعد إجارة نفسه ومابعدها من تلك الفتون ضرورة أن المراد بها ماوقع قبل وصوله عليه السلام الى مدين بقضية الفاء فى قوله تعالى (فلبثت سنين فى أهل مدين) اذ لاريب فى أن الاجارة المذكور ومابعدها مما وقع بعد الوصول اليهم وقد أشير بذكر لبثه عليه السلام فيهم دون وصوله اليهم الى جميع ماقاساه عليه السلام فى تضاعيف تلك السنين العشر من فنون الشدائد والمكاره التى كل واحد منها فتنة وأى فتنة. ومدين بلدة شعيب عليه الصلاة والسلام على ثمانى مراحل من مصر (ثم جئت) الى المكان الذى أونس فيه النار ووقع فيه النداء والجؤار. وفى كلمة التراخى إيذان بأن مجيئه عليه السلام كان بعد اللتيا والتى من ضلال الطريق وتفرق الغنم فى الليلة المظلمة الثانية وغير ذلك (على قدر) أى تقدير قدرته لان أكلمك وأستنبئك فى وقت قد عينته لذلك فما جئت الاعلى ذلك القدر غير مستقدم ولامستأخر وقيل على مقدار من الزمان يوحى فيه الى الأنبياء عليهم السلام وهو رأس أربعين سنة وقوله تعالى (ياموسى) تشريف له عليه الصلاة والسلام وتنبيه على انتهاء الحكاية التى هى تفصيل المرة الاخرى التى وقعت قبل المرة المحكية أولا وقوله تعالى (واصطنعتك لنفسى) تذكير لقوله تعالى وأنا اخترتك وتمهيد لارساله عليه السلام الى فرعون مؤيدا بأخيه حسبما استدعاه بعد تذكير المنن السابغة السابقة تأكيدا لوثوقه عليه السلام بحصول نظائرها اللاحقة وهذا تمثيل لماخوله عز وعلا من الكرامة العظمى بتقريب الملك بعض خواصه واصطناعه لنفسه وترشيحه لبعض أموره الجليلة. والعدول عن نون العظمة الواقعة فى قوله تعالى وفتناك ونظيريه السابقين تمهيد لافراد لفظ النفس اللائق بالمقام فانه أدخل فى تحقيق معنى الاصطناع والاستخلاص أى اصطفيتك برسالاتى وبكلامى وقوله تعالى (اذهب أنت وأخوك) أى وليذهب أخوك حسبما استدعيت استئناف مسوق لبيان ماهو المقصود بالاصطناع (بآياتى) أى بمعجزاتى التى اريتكها من اليد والعصا فانهما وان كانتا اثنتين لكن فى كل منهما آيات شتى كما فى قوله تعالى «فيه آيات بينات مقام ابراهيم» فان انقلاب العصا حيوانا آية وكونها ثعبانا عظيما لايقادر قدره آية أخرى وسرعة حركته مع عظم جرمه آية أخرى وكونه مع ذلك مسخرا له عليه السلام بحيث كان

يدخل يده فى فمه فلا يضره آية أخرى ثم انقلابها عصا آية أخرى وكذلك اليد فان بياضها فى نفسه آية وشعاعها آية ثم رجوعها الى حالتها الاولى آية أخرى والباء للمصاحبة لا للتعدية اذ المراد ذهابهما الى فرعون ملتبسين بالآيات متمسكين بها فى اجراء أحكام الرسالة واكمال أمر الدعوة لا مجرد اذهابها وايصالها اليه (ولا تنيا) لا تفترا ولا تقصرا وقرىء لا تنيا بكسر التاء للاتباع (فى ذكرى) أى بما يليق بى من الصفات الجليلة والأفعال الجميلة عند تبليغ رسالتى والدعاء الى وقيل المعنى لا تنيا فى تبليغ رسالتى فان الذكر يقع على جميع العبادات وهو أجلها وأعظمها وقيل لا تنسيانى حيثما تقلبتما واستمدا بذكرى العون والتأييد واعلما أن أمرا من الامور لا يتأتى ولا يتسنى الا بذكرى (اذهبا الى فرعون) جمعهما فى صيغة أمر الحاضر مع غيبة هرون اذ ذاك للتغليب وكذا الحال فى صيغة النهى . روي انه أوحى الى هرون وهو بمصر أن يتلقى موسى عليهما السلام وقيل سمع باقباله فتلقاه (إنه طغى) تعليل لموجب الامر والفاء فى قوله تعالى (فقولا له قولا لينا) لترتيب مابعدها على طغيانه فان تليين القول مما يكسر سورة عناد العتاة ويلين عريكة الطغاة قال ابن عباس رضى الله عنهما لا تعنفا فى قولكما. وقيل القول اللين مثل هل لك الى أن تزكى وأهديك الى ربك فانها دعوة فى صورة عرض ومشورة ويرده ماسيجىء من قوله تعالى «فقولا انا رسولا ربك» الآيتين وقيل كنياه وكان له ثلاث كنى أبو العباس وأبو الوليد وأبو مرة وقيل عداه شبابا لا يهرم ويبقى له لذة المطعم والمشرب والمنكح وملكا لا يزول الا بالموت وقرىء لينا (لعله يتذكر) بما بلغناه من ذكرى ويرغب فيما رغبناه فيه (أو يخشى) عقابى ومحل الجملة النصب على الحال من ضمير التثنية أى فقولا له قولا لينا راجين أن يتذكر أو يخشى وكلمة أو لمنع الخلو أى باشرا الامر مباشرة من يرجو ويطمع فى أن يثمر عمله ولا يخيب سعيه وهو يجتهد بطوقه ويحتشد بأقصى وسعه وجدوى ارسالهما اليه مع العلم بحالة الزام الحجة وقطع المعذرة (قالا ربنا) أسند القول اليهما مع أن القائل حقيقة هو موسى عليه الصلاة والسلام بطريق التغليب إيذانا باصالته فى كل قول وفعل وتبعية هرون عليه السلام له فى كل مايأتى ويذر . ويجوز أن يكون هرون قد قال ذلك بعد تلاقيهما فحكى ذلك مع قول موسى عليه السلام عند نزول الآية كما فى قوله تعالى «ياأيها الرسل كلوا من الطيبات» فان هذا الخطاب قد حكى لنا بصيغة الجمع مع أن كلا من المخاطبين لم يخاطب الا بطريق الانفراد ضرورة استحالة اجتماعهم فى الوجود فكيف باجتماعهم فى الخطاب (انا نخاف أن يفرط علينا) أى يعجل علينا بالعقوبة ولا يصبر الى اتمام الدعوة واظهار المعجزة من فرط اذا تقدم ومنه الفارط

وفرس فارط يسبق الخيل، وقرىء يفرط من افرطه اذا حمله على العجلة أى نخاف أن يحمله حامل من الاستكبار أو الخوف على الملك أو غيرهما على المعاجلة بالعقاب (أو أن يطغى) أى يزداد طغيانا الى أن يقول فى شأنك مالا ينبغى لكمال جراءته وقساوته واطلاقه من حسن الادب. واظهار كلمة أن مع سداد المعنى بدونه لاظهار كمال الاعتناء بالامر والاشعار بتحقق الخوف من كل منهما (قال) استئناف مبنى على السؤال الناشىء من النظم الكريم ولعل اسناد الفعل الى ضمير الغيبة للاشعار بانتقال الكلام من مساق الى مساق آخر فان ماقبله من الافعال الواردة على صيغة التكلم حكاية لموسى عليه السلام بخلاف ماسيأتى من قوله تعالى «قلنا لاتخف انك أنت الاعلى» فان ماقبله أيضا وارد بطريق الحكاية لرسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه قيل فماذا قال لهما ربهما عند تضرعهما اليه فقيل قال (لاتخافا) ما توهمتما من الامرين وقوله تعالى (اننى معكما) تعليل لموجب النهى ومزيد تسلية لهما والمراد بالمعية كمال الحفظ والنصرة كما ينبىء عنه قوله تعالى (أسمع وأرى) أى ما يجرى بينكما وبينه من قول وفعل فافعل فى كل حال يليق بها من دفع ضر وشر وجلب نفع وخير ويجوز أن لا يقدر شىء على معنى اننى حافظكما سميعا بصيرا والحافظ الناصر اذا كان كذلك فقد تم وبلغت النصرة غايتها (فأتياه) أمرا بأتيانه الذى هو عبارة عن الوصول اليه بعد ما أمرا بالذهاب اليه فلا تكرار وهو عطف على لا تخافا باعتبار تعليله بما بعده (فقولا إنا رسولا ربك) أمرا بذلك تحقيقا للحق من أول الامر ليعرف الطاغية شأنهما ويبنى جوابه عليه وكذا التعرض لربوبيته تعالى له والفاء فى قوله تعالى (فأرسل معنا بنى اسرائيل) لترتيب ما بعدها على ما قبلها فان كونهما رسولى ربه مما يوجب ارسالهم معهما والمراد بالارسال اطلاقهم من الاسر والقسر وإخراجهم من تحت يده العادية لا تكليفهم أن يذهبوا معهما الى الشأم كما ينبىء عنه قوله تعالى (ولا تعذبهم) أى بابقائهم على ما كانوا عليه من العذاب فانهم كانوا تحت ملكة القبط يستخدمونهم فى الاعمال الصعبة الفادحة من الحفر ونقل الاحجار وغيرهما من الامور الشاقة ويقتلون ذكورأولادهم عاما دون عام ويستخدمون نساءهم. وتوسيط حكم الارسال بين بيان رسالتهما وبين ذكر المجىء بآية دالة على صحتها لاظهار الاعتناء به مع ما فيه من تهوين الامر على فرعون فان ارسالهم معهما من غير تعرض لنفسه وقومه بفنون التكاليف الشاقة كما هو حكم الرسالة عادة ليس مما يشق عليه كل المشقة ولان فى بيان مجىء الآية نوع طول كما ترى فتأخير ذلك عنه مخل بتجاوب أطراف النظم الكريم وأما ما قيل من

أن ذلك دليل على أن تخليص المؤمنين من الكفرة أهم من دعوتهم الى الايمان فكلا. (قد جئناك بآية من ربك) تقرير لما تضمنه الكلام السابق من دعوى الرسالة وتعليل لوجوب الارسال فان مجيئهما بالآية من جهته تعالى مما يحقق رسالتهما ويقررها ويوجب الامتثال بأمرهما. واظهار اسم الرب فى موضع الاضمار مع الاضافة الى ضمير المخاطب لتأكيد ما ذكر من التقرير والتعليل وتوحيد الآية مع تعددها لان المراد ثبات الدعوى ببرهانها لا بيان تعدد الحجة وكذلك قوله تعالى قد «جئتكم ببينة» وقوله تعالى «أو لو جئتك بشيء مبين» وأما قوله تعالى «فأت بآية ان كنت من الصادقين» فالظاهر أن المراد بها آية من الآيات (والسلام) المستتبع لسلامة الدارين من الله تعالى والملائكة وغيرهم من المسلمين (على من اتبع الهدى) بتصديق آيات الله تعالى الهادية الى الحق. وفيه من ترغيبه فى اتباعها على ألطف وجه مالا يخفى (إنا قد أوحى الينا) من جهة ربنا (أن العذاب) الدنيوى والاخروى (على من كذب) أى بآياته تعالى (وتولى) أى أعرض عن قبولها. وفيه من التلطيف فى الوعيد حيث لم يصرح بحلول العذاب به ما لا مزيد عليه (قال) أى فرعون بعد ما أتياه ما أمرا به وانما طوى ذكره للايجاز والاشعار بأنهما كما أمرا بذلك سارعا الى الامتثال به من غير تلعثم وبأن ذلك من الظهور بحيث لا حاجة الى التصريح به (فمن ربكما ياموسى) لم يضف الرب الى نفسه ولو بطريق حكاية مافى قوله تعالى « انا رسولا ربك» وقوله تعالى «قد جئناك بآية من ربك» لغاية عتوه ونهاية طغيانه بل أضافه اليهما لما أن المرسل لابد أن يكون ربا للرسول أو لانهما قد صرحا بربوبيته تعالى للكل بان قالا انا رسول رب العالمين كما وقع فى سورة الشعراء والاقتصار ههنا على ذكر ربوبيته تعالى لفرعون لكفايته فيما هو المقصود والفاء لترتيب السؤال على ماسبق من كونهما رسولى ربهما أى اذا كنتما رسولى ربكما فأخبرا من ربكما الذى أرسلكما. وتخصيص النداء بموسى عليه السلام مع توجيه الخطاب اليهما لما أنه الاصل فى الرسالة وهرون وزيره وأما ماقيل من أن ذلك لانه قد عرف أن له عليه الصلاة والسلام رتة فأراد أن يفحمه فيرده ماشاهده منه عليه الصلاة والسلام من حسن البيان القاطع لذلك الطمع الفارغ وأما قوله «ولا يكاد يبين» فمن غلوه فى الخبث والدعارة كما مر (قال) أى موسى عليه الصلاة والسلام مجيبا له (ربنا) إما مبتدأ وقوله تعالى (الذى أعطى كل شيء خلقه) خبره أو هو خبر لمبتدأ محذوف والموصول صفته وأيا ما كان فلم يريدا بضمير المتكلم أنفسهما فقط حسبما أراد اللعين بل جميع المخلوقات تحقيقا للحق وردا عليه كما يفصح عنه مافى

حيز الصلة أى هو ربنا الذى أعطى كل شىء من الاشياء خلقه أى صورته وشكله اللائق بما نيط به من الخواص والمنافع أو أعطى مخلوقاته كل شىء تحتاج هي اليه وترتفق به وتقديم المفعول الثانى للاهتمام به أو أعطى كل حيوان نظيره فى الخلق والصورة حيث زوج الحصان بالحجر والبعير بالناقة والرجل بالمرأة ولم يزوج شيئاً من ذلك بخلاف جنسه وقرىء خلقه على صيغة الماضى على أن الجملة صفة للمضاف أو المضاف اليه وحذف المفعول الثانى إما للاقتصار على الاول أى كل شىء خلقه الله تعالى لم يحرمه من عطائه وانعامه أو للاختصار من كونه منويا مدلولا عليه بقرينة الحال أى أعطى كل شىء خلقه الله تعالى مايحتاج اليه (ثم هدى) أى الى طريق الانتفاع والارتفاق بما أعطاه وعرفه كيف يتوصل الى بقائه وكماله إما اختياراً كما فى الحيوانات أو طبعاً كما فى الجمادات والقوى الطبيعية النباتية والحيوانية ولما كان الخلق الذى هو عبارة عن تركيب الاجزاء وتسوية الأجسام متقدماً على الهداية التى هى عبارة عن ايداع القوى المحركة والمدركة فى تلك الأجسام وسط بينهما كلمة التراخي ولقد ساق عليه الصلاة والسلام جوابه على نمط رائق وأسلوب لائق حيث بين انه تعالى عالم قادر بالذات خالق لجميع الاشياء منعم عليها بجميع مايليق بها بطريق التفضل وضمنه أن ارساله تعالى اياه الى الطاغية من جملة هداياته تعالى اياه بعد أن هداه الى الحق بالهدايات التكوينية حيث ركب فيه العقل وسائر المشاعر والآلات الظاهرة والباطنة (قال فما بال القرون الاولى) لما شاهد اللعين مانظمه عليه الصلاة والسلام فى سلك الاستدلال من البرهان النير على الطراز الرائع خاف أن يظهر للناس حقية مقالاته عليه الصلاة والسلام وبطلان خرافات نفسه ظهوراً بينا فأراد أن يصرفه عليه الصلاة والسلام عن سننه إلى مالا يعنيه من الأمور التى لاتعلق لها بالرسالة من الحكايات ويشغله عما هو بصدده عسى يظهر فيه نوع غفلة فيتسلق بذلك إلى أن يدعى بين يدى قومه نوع معرفة فقال ماحال القرون الماضية والأمم الخالية وماذا جرى عليهم من الحوادث المفصلة فأجاب عليه الصلاة والسلام بأن العلم بأحوالهم مفصلة مما لا ملابسة له بمنصب الرسالة وانما علمها عندالله عز وجل وأما ما قيل من أنه سأله عن حال من خلا من القرون وعن شقاء من شقى منهم وسعادة من سعد فيأباه قوله تعالى (قال علمها عند ربى) فان معناه أنه من الغيوب التى لايعلمها إلا الله تعالى وانما أنا عبد لاأعلم منها الا ماعلمنيه من الأمور المتعلقة بما أرسلت به ولو كان المسئول عنه ماذكر من الشقاوة والسعادة لأجيب ببيان ان من اتبع الهدى منهم فقد سلم ومن تولى فقد عذب حسبما نطق به قوله تعالى «والسلام» الآيتين (فى

كتاب) أى مثبت فى اللوح المحفوظ بتفاصيله . و يجوز أن يكون ذلك تمثيلا لتمكنه وتقرره فى علم الله عز وجل بما استحفظه العالم و قيده بالكتبة كما يلوح به قوله تعالى (لا يضل ربى ولا ينسى) أى لا يخطىء ابتداء ولا يذهب علمه بقاء بل هو ثابت أبدا فانهما محالان عليه سبحانه وهو على الأول لبيان أن اثباته فى اللوح ليس لحاجته تعالى اليه فى العلم به ابتداء أو بقاء واظهار ربى فى موقع الاضمار للتلذذ بذكره ولزيادة التقرير و الاشعار بعلة الحكم فان الربوبية مما يقتضى عدم الضلال والنسيان حتما ولقد أجاب عليه الصلاة والسلام عن السؤال بجواب عبقرى بديع حيث كشف عن حقيقة الحق حجابها مع أنه لم يخرج عما كان بصدده من بيان شئونه تعالى ثم تخلص اليه حيث قال بطريق الحكاية عن الله عز وجل لما سيأتى من الالتفات (الذى جعل لكم الأرض مهدا) على أن الموصول إما مرفوع على المدح أو منصوب عليه أو خبر مبتدأ محذوف أى جعلها لكم كالمهد تتمهدونها أو ذات مهد وهو مصدر سمى به المفعول . وقرىء مهادا وهو اسم لما يمهد كالفراش أو جمع مهد أى جعل كل موضع منها مهدا لكل واحد منكم (وسلك لكم فيها سبلا) أى حصل لكم طرقا ووسطها بين الجبال والأودية والبرارى تسلكونها من قطر إلى قطر لتقضوا منها مآربكم و تنتفعوا بمنافعها ومرافقها (وأنزل من السماء ماء)هو المطر (فأخرجنا به) أى بذلك الماء و هو عطف على أنزل داخل تحت الحكاية وانما التفت إلى التكلم للتنبيه على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة و الحكمة والايذان بأنه لا يتأتى الا من قادر مطاع عظيم الشأن تنقاد لأمره وتذعن لمشيئته الأشياء المختلفة كما فى قوله تعالى «ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها» وقوله تعالى «أم من خلق السموات والارض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة» خلا أن ما قبل الالتفات هناك صريح كلامه تعالى وأما ههنا فحكاية عنه تعالى وجعل قوله تعالى «فأخرجنا به» هو المحكى مع كون ما قبله كلام موسى عليه الصلاة والسلام خلاف الظاهر مع أنه يفوت حينئذ الالتفات لعدم اتحاد المتكلم (أزواجاً) أصنافاً سميت بذلك لازدواجها واقتران بعضها ببعض (من نبات) بيان أو صفة لازواجاً أى كائنة من نبات وكذا قوله تعالى (شتى) أى متفرقة جمع شتيت. و يجوز أن يكون صفة لنبات لما أنه فى الأصل مصدر يستوى فيه الواحد والجمع يعنى أنها شتى مختلفة فى الطعم والرائحة والشكل والنفع بعضها صالح للناس على اختلاف وجوه الصلاح و بعضها للبهائم فان من تمام نعمته تعالى أن أرزاق عباده لما كان تحصلها بعمل الانعام جعل علفها مما يفضل عن حاجاتهم ولا يليق بكونه طعاما لهم وقوله تعالى

(كلوا وارعوا أنعامكم) حال من ضمير فأخرجنا على ارادة القول أى أخرجنا منها أصناف النبات قائلين كلوا وارعوا أنعامكم أى معديها لانتفاعكم بالذات وبالواسطة آذنين فى ذلك (إن فى ذلك) إشارة إلى ما ذكر من شئونه تعالى وأفعاله وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو رتبته وبعد منزلته فى الكمال . والتنكير فى قوله تعالى (لآيات) للتفخيم كما وكيفا أى لآيات كثيرة جليلة واضحة الدلالة على شئون الله تعالى فى ذاته وصفاته وأفعاله وعلى صحة نبوة موسى وهرون عليهما الصلاة والسلام (لأولى النهى) جمع نهية سمى بها العقل لنهيه عن اتباع الباطل وارتكاب القبائح كما سمى بالعقل والحجر لعقله وحجره عن ذلك أى لذوى العقول الناهية عن الاباطيل التى من جملتها مايدعيه الطاغية ويقبله منه فئته الباغية . وتخصيص كونها آيات بهم مع أنها آيات للعالمين باعتبار أنهم المنتفعون بها (منها خلقناكم) أى فى ضمن خلق أبيكم آدم عليه الصلاة والسلام منها فان كل فرد من أفراد البشر له حظ من خلقه عليه الصلاة والسلام اذ لم تكن فطرته البديعة مقصورة على نفسه عليه الصلاة والسلام بل كانت انموذجاً منطوياً على فطرة سائر أفراد الجنس انطواء اجمالياً مستتبعاً لجريان آثارها على الكل فكان خلقه عليه الصلاة والسلام منها خلقاً للكل منها وقيل المعنى خلقنا أبدانكم من النطفة المتولدة من الاغذية المتولدة من الأرض بوسايط . وقيل إن الملك الموكل بالرحم يأخذ من تربة المكان الذى يدفن فيه المولود فيبددها على النطفة فيخلق من التراب والنطفة (وفيها نعيدكم) بالأماتة وتفريق الأجزاء، وإيثار كلمة فى على كلمة إلى للدلالة على الاستقرار المديد فيها (ومنها نخرجكم تارة أخرى) بتأليف أجزائكم المتفتتة المختلطة بالتراب على الهيئة السابقة ورد الأرواح اليها وكون هذا الاخراج تارة أخرى باعتبار أن خلقهم من الأرض إخراج لهم منها وان لم يكن على نهج التارة الثانية والتارة فى الأصل اسم للتوار الواحد وهو الجريان ثم أطلق على كل فعلة واحدة من الفعلات المتجددة كما مر فى المرة (ولقد أريناه) حكاية اجمالية لما جرى بين موسى عليه الصلاة والسلام وبين فرعون إثر حكاية ما ذكره عليه الصلاة والسلام بجلائل نعمائه الداعية له إلى قبول الحق والانقياد له . وتصديرها بالقسم لابراز كمال العناية بمضمونها واسناد الاراءة الى نون العظمة نظرا الى الحقيقة لا الى موسى نظرا الى الظاهر لتهويل أمر الآيات وتفخيم شأنها واظهار كمال شناعة اللعين وتماديه فى المكابرة والعناد أى وبالله لقد بصرنا فرعون أو عرفناه (آياتنا) حين قال لموسى عليه الصلاة والسلام ان كنت جئت بآية فأت بها ان كنت من

الصادقين فألقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين و نزع يده فاذا هي بيضاء للناظرين. وصيغة الجمع مع كونهما اثنتين باعتبار ما فى تضاعيفهما من بدائع الامور التى كل منها آية بينة لقوم يعقلون حسبما بين فى تفسير قوله تعالى اذهب أنت وأخوك بآياتى وقد ظهر عند فرعون أمور أخر كل واحد منها داهية دهياء فانه روى أنه عليه الصلاة والسلام لما ألقاها انقلبت ثعبانا أشعر فاغرا فاه بين لحييه ثمانون ذراعا وضع لحيه الاسفل على الارض والاعلى على سور القصر وتوجه نحو فرعون فهرب وأحدث وانهزم الناس مزدحمين فمات منهم خمسة وعشرون ألفا من قومه فصاح فرعون ياموسى أنشدك بالذى أرسلك إلا أخذته فأخذه فعاد عصا وروى انها انقلبت حية ارتفعت فى السماء قدر ميل ثم انحطت مقبلة نحو فرعون و جعلت تقول ياموسى مرنى بما شئت و يقول فرعون أنشدك الخ ونزع يده من جيبه فاذا هى بيضاء بياضا نورانيا خارجا عن حدود العادات قد غلب شعاعه شعاع الشمس يجتمع عليه النظارة تعجبا من أمره ففى تضاعيف كل من الآيتين آيات جمة لكنها لما كانت غير مذكورة صراحة أكدت بقوله تعالى (كلها) كأنه قيل أريناه آياتنا بجميع مستتبعاتهما و تفاصيلهما قصدا الى بيان أنه لم يبق له فى ذلك عذر ما ولا مساغ لعد بقية الآيات التسع منها لما أنها إنما ظهرت على يده عليه الصلاة والسلام بعد ما غلب السحرة على مهل فى نحو من عشرين سنة كما مر فى تفسير سورة الاعراف ولاريب فى أن أمر السحرة مترقب بعد وأبعد من ذلك أن يعد منها ما جعل لاهلاكهم لا لارشادهم الى الايمان من فلق البحر وما ظهر بعد مهلكه من الآيات الظاهرة لبنى اسرائيل من نتق الجبل و الحجر سواء أريد به الحجر الذى فر بثوبه أو الذى انفجرت منه العيون وكذا أن يعد منها الآيات الظاهرة على يد الانبياء عليهم الصلاة و السلام بناء على أن حكايته عليه الصلاة والسلام اياها لفرعون فى حكم اظهارها بين يديه واراءته اياها لاستحالة الكذب عليه عليه الصلاة والسلام فان حكايته عليه الصلاة والسلام إياها لفرعون مما لم يجر ذكره هنا على أن ما سيأتى من حمل ما أظهره عليه الصلاة والسلام على السحر والتصدى للمعارضة بالمثل يأباه اباء بينا و ينطق بان المراد بها ماذكرناه قطعا ولولا ذلك لجاز جعل ما فصله عليه الصلاة والسلام من أفعاله تعالى الدالة على اختصاصه بالربوبية وأحكامها من جملة الآيات (فكذب) موسى عليه الصلاة والسلام من غير تردد وتأخر مع ما شاهد فى يده من الشواهد الناطقة بصدقه جحودا وعنادا وأبى الايمان والطاعة لعتوه واستكباره وقيل كذب بالآيات جميعا وأبى أن يقبل شيئا منها أو أبى قبول الحق وقوله تعالى (قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى) استئناف مبين لكيفية تكذيبه وابائه

والهمزة لانكار الواقع واستقباحه وادعاء أنه أمر محال والمجيء اما على حقيقته أو بمعنى الاقبال على الامر والتصدى له أى أجئتنا من مكانك الذى كنت فيه بعد ما غبت عنا أو أقبلت علينا لتخرجنا من مصر بما أظهرته من السحر فان ذلك مما لا يصدر عن العاقل لكونه من باب محاولة المحال . وانما قاله لحمل قومه على غاية المقت لموسى عليه الصلاة والسلام بابراز أن مراده عليه الصلاة والسلام ليس مجرد انجاء بنى اسرائيل من أيديهم بل اخراج القبط من وطنهم وحيازة أموالهم وأملاكهم بالكلية حتى لا يتوجه الى أتباعه أحد و يبالغوا فى المدافعة والمخاصمة وسمى ما أظهره عليه الصلاة والسلام من المعجزة الباهرة سحرا لتجسيرهم على المقابلة ثم ادعى أنه يعارضه بمثل ما أتى به عليه الصلاة والسلام فقال (فلنأتينك بسحر مثله) الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها واللام جواب قسم محذوف كانه قيل اذا كان كذلك فوالله لنأتينك بسحر مثل سحرك (فاجعل بيننا وبينك موعدا) أى وعدا كما ينبيء عنه وصفه بقوله تعالى (لا نخلفه) فانه المناسب لا المكان والزمان أى لا نخلف ذلك الوعد (نحن ولا أنت) وانما فوض اللعين أمر الوعد الى موسى عليه الصلاة والسلام للاحتراز عن نسبته الى ضعف القلب وضيق المجال واظهار الجلادة واراءة أنه متمكن من تهيئة أسباب المعارضة وترتيب آلات المغالبة طال الامد أم قصر كما أن تقديم ضميره على ضمير موسى عليه الصلاة والسلام وتوسيط كلمة النفى بينهما للايذان بمسارعته الى عدم الاخلاف وأن عدم إخلافه لا يوجب عدم اخلافه عليه الصلاة والسلام ولذلك أكد النفى بتكرير حرفه وانتصاب (مكانا سوى) بفعل يدل عليه المصدر لا به فانه موصوف أو بأنه بدل من موعدا على تقدير مكان مضاف اليه فحينئذ تكون مطابقة الجواب فى قوله تعالى (قال موعدكم يوم الزينة) من حيث المعنى فان يوم الزينة يدل على مكان مشتهر باجتماع الناس فيه يومئذ أو باضمار مثل مكان موعدكم مكان يوم الزينة كما هو على الاول أو وعدكم وعد يوم الزينة . وقرىء يوم بالنصب وهو ظاهر فى أن المراد به المصدر ومعنى سوى منتصفا تستوى مسافته الينا واليك وهو فى النعت كقولهم قوم عدى فى الشذوذ وقرىء بكسر السين قيل يوم الزينة يوم عاشوراء أو يوم النيروز أو يوم عيد كان لهم فى كل عام وانما خصه عليه الصلاة والسلام بالتعيين لاظهار كمال قوته وكونه على ثقة من أمره وعدم مبالاته بهم لما أن ذلك اليوم وقت ظهور غاية شوكتهم وليكون ظهور الحق و زهوق الباطل فى يوم مشهود على رءوس الاشهاد ويشيع ذلك فيما بين كل حاضر وباد (وأن يحشر الناس ضحى) عطف على يوم أو الزينة . وقرىء على البناء للفاعل بالتاء على خطاب فرعون وبالياء على أن

الضمير له على سنن الملوك أو لليوم (فتولى فرعون) أى انصرف عن المجلس (فجمع كيده) أى ما يكاد به من السحرة وأدواتهم (ثم أتى) أى الموعد ومعه ما جمعه من كيده. وفى كلمة التراخى ايماء الى أنه لم يسارع اليه بل أتاه بعد لأى وتلعثم وقوله تعالى (قال لهم موسى) الخ بطريق الاستئناف المبنى على السؤال يقضى بأن المترقب من أحواله عليه الصلاة والسلام حينئذ والمحتاج الى السؤال والبيان ليس الا ماصدر عنه عليه الصلاة والسلام من الكلام. وأما إتيانه أولا فأمر محقق غنى عن التصريح به كأنه قيل فماذا صنع موسى عليه الصلاة والسلام عند اتيان فرعون بمن جمعه من السحرة فقيل قال لهم بطريق النصيحة (ويلكم لاتفتروا على الله كذبا) بأن تدعوا آياته التى ستظهر على يدي سحرا كما فعل فرعون (فيسحتكم) أى يستأصلكم بسببه (بعذاب) هائل لايقادر قدره وقرئ يسحتكم من الثلاثى على لغة أهل الحجاز والاسحات لغة بنى تميم ونجد (وقد خاب من افترى) أى على الله كائنا من كان بأى وجه كان فيدخل فيه الافتراء المنهى عنه دخولا أوليا أو وقد خاب فرعون المفترى فلا تكونوا مثله فى الخيبة والجملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبلها (فتنازعوا) أى السحرة حين سمعوا كلامه عليه الصلاة والسلام كأن ذلك غاظهم فتنازعوا (أمرهم) الذى أريد منهم من مغالبته عليه الصلاة والسلام وتشاوروا وتناظروا (بينهم) فى كيفية المعارضة وتجاذبوا أهداب القول فى ذلك (وأسروا النجوى) أى من موسى عليه الصلاة والسلام لئلا يقف عليه فيدافعه وكان نجواهم مانطق به قوله تعالى (قالوا) أى بطريق التناجى والاسرار (ان هذان لساحران) الخ فانه تفسير له ونتيجة لتنازعهم وخلاصة ما استقرت عليه آراؤهم بعد التناظر والتشاور. وان مخففة من أن قد أهملت عن العمل واللام فارقة وقرئ بتشديد نون هذان وقيل هى نافية واللام بمعنى الا أى ماهذان الاساحران. وقرئ ان بالتشديد وهذان اسمها على لغة بلحارث بن كعب فانهم يعربون التثنية تقديرا. وقيل اسمها ضمير الشأن المحذوف وهذان لساحران خبرها وقيل ان بمعنى نعم وما بعدها جملة من مبتدا وخبر وفيهما أن اللام لاتدخل خبر المبتدأ وقيل أصله انه هذان لهما ساحران فحذف الضمير وفيه أن المؤكد باللام لايليق به الحذف وقرئ ان هذين لساحران وهى قراءة واضحة (يريدان أن يخرجاكم من أرضكم) أى أرض مصر بالاستيلاء عليها (بسحرهما) الذى أظهراه من قبل (ويذهبا بطريقتكم المثلى) أى بمذهبكم الذى هو أفضل المذاهب وأمثلها باظهار مذهبهما واعلاء دينهما يريدون به ما كان عليه قوم فرعون لا طريقة السحر فانهم ما كانوا يعتقدونه دينا

وقيل أرادوا أهل طريقتكم وهم بنو اسرائيل لقول موسى عليه الصلاة والسلام أرسل معنا بنى اسرائيل وكانوا أرباب علم فيما بينهم ويأباه أن اخراجهم من أرضهم انما يكون بالاستيلاء عليها تمكنا وتصرفا فكيف يتصور حينئذ نقل بنى اسرائيل الى الشأم وحمل الاخراج على اخراج بنى اسرائيل منها مع بقاء قوم فرعون على حالهم مما يجب تنزيه التنزيل عن أمثاله على أن هذه المقالة منهم للاغراء بالمبالغة فى المغالبة والاهتمام بالمناصبة فلا بد أن يكون الانذار والتحذير باشد المكاره وأشقها عليهم ولا ريب فى أن اخراج بنى اسرائيل من بينهم والذهاب بهم الى الشأم وهم آمنون فى ديارهم ليس فيه كثير محذور . وقيل الطريقة اسم لوجوه القوم واشرافهم لما أنهم قدوة لغيرهم ولا يخفى أن تخصيص الاذهاب بهم مما لامرية فيه . وقوله تعالى (فأجمعوا كيدكم) تصريح بالمطلوب اثر تمهيد المقدمات والفاء فصيحة أى اذا كان الامر كما ذكر من كونهما ساحرين يريد ان بكم ما ذكر من الاخراج والاذهاب فأزمعوا كيدكم واجعلوه مجمعا عليه بحيث لا يتخلف عنه واحد منكم وارموا عن قوس واحدة وقرىء فاجمعوا من الجمع ويعضده قوله تعالى « فجمع كيده » اى فاجمعوا أدوات سحركم ورتبوها كما ينبغى (ثم ائتوا صفا) أى مصطفين أمروا بذلك لانه أهيب فى صدور الرائين وأدخل فى إستجلاب الرهبة من المشاهدين قيل كانوا سبعين ألفا مع كل منهم حبل وعصا وأقبلوا عليه إقبالة واحدة وقيل كانوا اثنين وسبعين ساحرا اثنان من القبط والباقى من بنى اسرائيل وقيل تسعمائة ثلثمائة من الفرس وثلثمائة من الروم وثلثمائة من الاسكندرية وقيل خمسة عشر ألفا وقيل بضعة وثلاثين ألفا والله أعلم . ولعل الموعد كان مكانا متسعا خاطبهم موسى عليه الصلاة والسلام بما ذكر فى قطر من أقطاره وتنازعوا أمرهم فى قطر آخر منه ثم أمروا بان يأتوا وسطه على الوجه المذكور وقد فسر الصف بالمصلى لاجتماع الناس فيه فى الاعياد والصلوات ووجه صحته أن يكون علما لموضع معين من المكان الموعود وأما ارادة مصلى من المصليات بعد تعين المكان الموعود فلا مساغ لها قطعا وقوله تعالى (وقد أفلح اليوم من استعلى) اعتراض تذييلى من قبلهم مؤكد لما قبله من الأمرين أى قد فاز بالمطلوب من غلب يريدون بالمطلوب ما وعدهم فرعون من الاجر والتقريب حسبما نطق به قوله تعالى « قال نعم وانكم لمن المقربين » وبمن غلب أنفسهم جميعا على طريقة قولهم بعزة فرعون انا لنحن الغالبون أو من غلب منهم حثالهم على بذل المجهود فى المغالبة هذا هو اللائق بتجاوب أطراف النظم الكريم وقد قيل كان نجواهم أن قالوا حين سمعوا مقالة موسى عليه الصلاة والسلام ما هذا بقول

ساحر وقيل كان ذلك أن قالوا ان غلبنا موسى اتبعناه وقيل كان ذلك قولهم ان كان ساحرا فسنغلبه وان كان من السماء فله أمر فيكون اسرارهم حينئذ من فرعون وملئه ويحمل قولهم ان هذان لساحران الخ على أنهم اختلفوا فيما بينهم على الاقاويل المذكورة ثم رجعوا عن ذلك بعد التنازع والتناظر واستقرت آراؤهم على ذلك وأبوا الا المناصبة للمعارضة. وأما جعل ضمير قالوا لفرعون وملئه على انهم قالوا ذلك للسحرة رداً لهم عن الاختلاف وأمروهم بالاجماع والازماع واظهار الجلادة بالاتيان على وجه الاصطفاف فمخل بجزالة النظم الكريم كما يشهد به الذوق السليم (قالوا) استئناف مبنى على سؤال ناشىء من حكاية ما جرى بين السحرة من المقاولة كأنه قيل فما ذا فعلوا بعد ماقالوا فيما بينهم ماقالوا فقيل قالوا (يا موسى) وانما لم يتعرض لاجماعهم واتيانهم بطريق الاصطفاف اشعارا بظهور أمرهما وغناهما عن البيان (إما أن تلقى) أى ماتلقيه أولا على أن المفعول محذوف لظهوره أو تفعل الالقاء أولا على أن الفعل منزل منزلة اللازم (وإما أن نكون أول من ألقى) مايلقيه أو أول من يفعل الالقاء خيروه عليه الصلاة والسلام بما ذكر مراعاة للأدب لما رأوا منه عليه الصلاة والسلام ما رأوا من مخايل الخير ورزانة الرأى واظهاراً للجلادة باراءة أنه لايختلف حالهم بالتقديم والتأخير وان مع مافى حيزها منصوب بفعل مضمر أو مرفوع بخبرية مبتدأ محذوف أى اختر إلقاءك أولاً أو إلقاءنا أو الأمر إما القاؤك أو إلقاؤنا (قال) استئناف كما سلف ناشىء من حكاية تخيير السحرة اياه عليه الصلاة والسلام كأنه قيل فماذا قال عليه الصلاة والسلام فقيل قال (بل ألقوا) أنتم أولا مقابلة للأدب بأحسن من أدبهم حيث بت القول بالقائهم أولا واظهاراً لعدم المبالاة بسحرهم ومساعدة لما أوهموه من الميل الى البدء وليبرزوا مامعهم ويستفرغوا أقصى جهدهم ويستنفدوا قصارى وسعهم ثم يظهر الله عز وجل سلطانه فيقذف بالحق على الباطل فيدمغه لما علم أن ماسيظهر بيده سيلقف مايصنعون من مكايد السحر (فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى) الفاء فصيحة معربة عن مسارعتهم الالقاء كما فى قوله تعالى فقلنا اضرب بعصاك البحر فانفلق أى فألقوا فاذا حبالهم وهى للمفاجأة والتحقيق انها أيضاً ظرفية تستدعى متعلقا ينصبها وجملة تضاف اليها لكنها خصت بكون متعلقها فعل المفاجأة والجملة ابتدائية والمعنى فألقوا ففاجأ موسى عليه الصلاة والسلام وقت أن يخيل اليه سعى حبالهم وعصيهم من سحرهم وذلك انهم كانوا لطخوها بالزئبق فلما ضربت عليه الشمس اضطربت واهتزت فخيل اليه انها تتحرك. وقرىء تخيل بالتاء على اسناده الى ضمير الحبال والعصى وابدال

انها تسمى منه بدل اشتمال . وقرىء يخيل باسناده اليه تعالى . وقرىء تخيل بحذف إحدى التاءين من تتخيل (فأوجس فى نفسه خيفة موسى) أى أضمر فيها بعض خوف من مفاجأته بمقتضى البشرية المجبولة على النفرة من الحيات والاحتراز من ضررها المعتاد من اللسع ونحوه وقيل من أن يخالج الناس شك فلا يتبعوه وليس بذاك كما ستعرفه وتأخير الفاعل لمراعاة الفواصل (قلنا لاتخف) أى ماتوهمت (إنك أنت الاعلى) تعليل لما يوجبه النهى من الانتهاء عن الخوف وتقرير لغلبته على أبلغ وجه وآكده كما يعرب عنه الاستئناف وحرف التحقيق وتكرير الضمير وتعريف الخبر ولفظ العلو المنبىء عن الغلبة الظاهرة وصيغة التفضيل (وألق مافى يمينك) أى عصاك كما وقع فى سورة الاعراف وانما أوثر الابهام تهويلا لأمرها وتفخيما لشأنها وايذانا بانها ليست من جنس العصى المعهودة المستتبعة للآثار المعتادة بل خارجة عن حدود سائر افراد الجنس مبهمة الكنه مستتبعة لآثار غريبة وعدم مراعاة هذه النكتة عند حكاية الأمر فى موضع آخر لايستدعى عدم مراعاتها عند وقوع المحكى هذا وحمل الابهام على التحقير بأن يرادلاتبال بكسرة حبالهم وعصيهم وألق العويد الذى فى يدك فانه بقدرة الله تعالى يلقفها مع وحدته وكثرتها وصغره وعظمها يأباه ظهور حالها فيما مر مرتين على أن ذلك المعنى انما يليق بما لو فعلت العصا ما فعلت وهى على هيئتها الاصلية وقد كان منها ما كان وقوله تعالى (تلقف ما صنعوا) بالجزم جوابا للامر من لقفه اذا ابتلعه والتقمه بسرعة والتأنيث لكون ما عبارة عن العصا أى تبتلع ما صنعوه من الحبال والعصى التى خيل اليك سعيها وخفتها والتعبير عنها بماصنعوا للتحقير والايذان بالتمويه والتزوير . وقرىء تلقف بتشديد القاف واسقاط احدى التاءين من تتلقف وقرىء بالرفع على الحال أو الاستئناف والجملة الامرية معطوفة على النهى متممة بمافى حيزها لتعليل موجبه ببيان كيفية غلبته عليه الصلاة والسلام وعلوه فان ابتلاع عصاه لأباطيلهم التى منها أوجس فى نفسه ما أوجس مما يقلع مادته بالكلية وهذا كما ترى صريح فى أن خوفه عليه الصلاة والسلام لم يكن مما ذكر من مخالجة الشك للناس وعدم اتباعهم له عليه الصلاة والسلام والا لعلل بما يزيله من الوعد بما يوجب ايمانهم واتباعهم له عليه الصلاة والسلام وقوله تعالى (ان ما صنعوا) الخ تعليل لقوله تعالى تلقف ما صنعوا وما إما موصولة أو موصوفة أى إن الذى صنعوه أو أن شيئا صنعوه (كيد ساحر) بالرفع على انه خبر لأن أى كيد جنس الساحر وتنكيره للتوسل به الى تنكير ما أضيف اليه للتحقير . وقرىء بالنصب على أنه مفعول صنعوا وما كافة وقرىء كيد

سحر على ان الاضافة للبيان كما فى علم فقه أو على معنى ذى سحر أو على تسمية الساحر سحرا مبالغة وقوله تعالى (ولا يفلح الساحر) أى هذا الجنس (حيث أتى) أى حيث كان وأين أقبل من تمام التعليل وعدم التعرض لشأن العصا وكونها معجزة إلهية مع ما فى ذلك من تقوية التعليل للايذان بظهور أمرها والفاء فى قوله تعالى (فألقى السحرة سجدا) كما سلف فصيحة معربة عن محذوفين ينساق اليهما النظم الكريم غنيين عن التصريح بهما لعدم احتمال تردد موسى عليه السلام فى الامتثال بالامر واستحالة عدم وقوع اللقف الموعود أى فألقاه عليه السلام فوقع ما وقع من اللقف فألقى السحرة سجدا لما تيقنوا أن ذلك ليس من باب السحر وانما هى آية من آيات الله عز وجل روى أن رئيسهم قال كنا نغلب الناس وكانت الآلات تبقى علينا فلو كان هذا سحرا فأين ما ألقيناه من الآلات فاستدل بتغير أحوال الاجسام على الصانع القادر العالم و بظهور ذلك على يد موسى عليه الصلاة والسلام على صحة رسالته لاجرم ألقاهم ما شاهدوه على وجوههم وتابوا وآمنوا وأتوا بما هو غاية الخضوع قيل لم يرفعوا رءوسهم حتى رأوا الجنة والنار والثواب والعقاب وعن عكرمة لما خروا سجدا أراهم الله تعالى فى سجودهم منازلهم فى الجنة ولا ينافيه قولهم انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا الخ لان كون تلك المنازل منازلهم باعتبار صدور هذا القول عنهم (قالوا) استئناف كما مر غير مرة (آمنا برب هرون وموسى) تأخير موسى عند حكاية كلامهم لرعاية الفواصل وقد جوز أن يكون ترتيب كلامهم أيضا هكذا إما لكبر سن هرون عليه الصلاة والسلام واما للمبالغة فى الاحتراز عن التوهم الباطل من جهة فرعون وقومه حيث كان فرعون ربى موسى عليه الصلاة والسلام فى صغره فلو قدموا موسى عليه الصلاة والسلام لربما توهم اللعين وقومه من أول الامر أن مرادهم فرعون (قال) أى فرعون للسحرة (آمنتم له) أى لموسى عليه الصلاة والسلام واللام لتضمين الفعل معنى الاتباع وقرىء على الاستفهام التوبيخى (قبل أن آذن لكم) أى من غير أن آذن لكم فى الايمان له كما فى قوله تعالى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى لا أن إذنه لهم فى ذلك واقع بعده أو متوقع (إنه) يعنى موسى عليه الصلاة والسلام (لكبيركم) أى فى فنكم وأعلمكم به وأستاذكم (الذى علمكم السحر) فتواطأتم على ما فعلتم أو فعلكم شيئا دون شىء فلذلك غلبكم وهذه شبهة زورها اللعين وألقاها على قومه وأراهم أن أمر الايمان منوط باذنه فلما كان ايمانهم بغير إذنه لم يكن معتدا به وأنهم من تلامذته عليه الصلاة والسلام فلاعبرة بما أظهره كما لاعبرة بما أظهروه وذلك لما اعتراه من

الخوف من اقتداء الناس بالسحرة فى الايمان بالله تعالى ثم أقبل عليهم بالوعيد المؤكد حيث قال (فلأقطعن) أى فوالله لأقطعن (أيديكم وأرجلكم من خلاف) أى اليد اليمنى والرجل اليسرى. ومن ابتدائية كأن القطع ابتدأ من مخالفة العضو العضو فان المبتدىء من المعروض مبتدىء من العارض أيضا وهى مع مجرورها فى حيز النصب على الحالية أى لأقطعنها مختلفات. وتعيين تلك الحال للايذان بتحقيق الامر وايقاعه لامحالة بتعيين كيفيته المعهودة فى باب السياسة لا لأنها أفظع من غيرها (ولأصلبنكم فى جذوع النخل) أى عليها. وايثار كلمة فى للدلالة على ابقائهم عليها زمانا مديدا تشبيها لاستمرارهم عليها باستقرار المظروف فى الظرف المشتمل عليه قالوا وهو أول من صلب. وصيغة التفعيل فى الفعلين للتكثير وقد قرئا بالتخفيف (ولتعلمن أينا) يريد به نفسه وموسى عليه الصلاة والسلام لقوله آمنتم له قبل أن آذن لكم. واللام مع الايمان فى كتاب الله تعالى لغيره تعالى وهذا اما لقصد توضيع موسى عليه الصلاة والسلام والهزء به لانه لم يكن من التعذيب فى شىء وإما لاراءة أن إيمانهم لم يكن عن مشاهدة المعجزة ومعاينة البرهان بل كان عن خوف من قبل موسى عليه الصلاة والسلام حيث رأوا ابتلاع عصاه لحبالهم وعصيهم فخافوا على أنفسهم أيضا وقيل يريد به رب موسى الذى آمنوا به بقولهم آمنا برب هرون وموسى (أشد عذابا وأبقى) أى أدوم (قالوا) غير مكترثين بوعيده (لن نؤثرك) لن نختارك بالايمان والاتباع (على ما جاءنا) من الله على يد موسى عليه الصلاة والسلام (من البينات) من المعجزات الظاهرة فان ما ظهر بيده عليه الصلاة والسلام من العصا كان مشتملا على معجزات جمة كما مر تحقيقه فيما سلف فانهم كانوا عارفين بجلائلها ودقائقها (والذى فطرنا) أى خلقنا وسائر المخلوقات وهو عطف على ما جاءنا. وتأخيره لان ما فى ضمنه آية عقلية نظرية وما شاهدوه آية حسية ظاهرة. وإيراده تعالى بعنوان فاطريته تعالى لهم للاشعار بعلة الحكم فان خالقيته تعالى لهم وكون فرعون من جملة مخلوقاته مما يوجب عدم ايثارهم له عليه سبحانه وتعالى وهذا جواب منهم لتوبيخ فرعون بقوله آمنتم له قبل ان آذن لكم وقيل هو قسم محذوف الجواب لدلالة المذكور عليه أى وحق الذى فطرنا لانؤثرك الخ ولا مساغ لكون المذكور جوابا له عند من يجوز تقديم الجواب أيضا لما أن القسم لايجاب بلن الاعلى شذوذ وقوله تعالى (فاقض ما أنت قاض) جواب عن تهديده بقوله لاقطعن الخ أى فاصنع ما أنت صانعه أو فاحكم ما أنت حاكم به وقوله تعالى (انما تقضى هذه الحياة الدنيا) مع مابعده تعليل لعدم المبالاة المستفاد مما سبق من الامر بالقضاء أى انما تصنع ماتهواه أو تحكم بما تراه فى هذه الحياة الدنيا فحسب ومالنا

من رغبة فى عذبها ولا رهبة من عذابها (انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا) التى اقترفنا فيها من الكفر والمعاصى ولا يؤاخذنا بها فى الدار الآخرة لا ليمتعنا بتلك الحياة الفانية حتى نتأثر بما أوعدتنا به من القطع والصلب وقوله تعالى (وما أكرهتنا عليه من السحر) عطف على خطايانا أى ويغفر لنا السحر الذى عملناه فى معارضة موسى عليه الصلاة والسلام باكراهك وحشرك ايانا من المدائن القاصية. خصوه بالذكر مع اندارجه فى خطاياهم اظهارا لغاية نفرتهم عنه ورغبتهم فى مغفرته وذكر الاكراه للايذان بأنه مما يجب أن يفرد بالاستغفار منه مع صدوره عنهم بالاكراه وفيه نوع اعتذار لاستجلاب المغفرة وقيل أرادوا الاكراه على تعلم السحر حيث روى أن رؤساهم كانوا اثنين وسبعين اثنان منهم من القبط والباقى من بنى اسرائيل وكان فرعون أكرههم على تعلم السحر. وقيل انه أكرههم على المعارضة حيث روى انهم قالوا لفرعون أرنا موسى نائما ففعل فوجدوه تحرسه عصاه فقالوا ماهذا بسحر فان الساحر اذا نام بطل سحره فأبى الا أن يعارضوه ويأباه تصديهم للمعارضة على الرغبة والنشاط كما يعرب عنه قولهم أئن لنا لأجرا ان كنا نحن الغالبين وقولهم بعزة فرعون انا لنحن الغالبون (والله خير) أى فى حد ذاته وهو ناظر الى قولهم والذى فطرنا (وأبقى) أى جزاء ثوابا كان أو عذابا أو خير ثوابا وأبقى عذابا وقوله تعالى (إنه) الى آخر الشرطيتين تعليل من جهتهم لكونه تعالى خيرا وأبقى جزاء وتحقيق له وابطال لما ادعاه فرعون . وتصديرهما بضمير الشأن للتنبيه على فخامة مضمونهما لان مناط وضع الضمير موضعه ادعاء شهرته المغنية عن ذكره مع مافيه من زيادة التقرير فان الضمير لا يفهم منه من أول الامر الا شأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقبا لما يعقبه فيتمكن عند وروده له فضل تمكن كأنه قيل ان الشأن الخطير هذا أى قوله تعالى (من يأت (ربه مجرما) بأن مات على الكفر والمعاصى (فان له جهنم لا يموت فيها)فينتهى عذابه وهذا تحقيق لكون عذابه أبقى (ولا يحيى) حياة ينتفع بها (ومن يأته مؤمنا) به تعالى وبما جاء من عنده من المعجزات التى من جملتها ما شاهدناه (قد عمل الصالحات) الصالحة كالحسنة جارية مجرى الاسم ولذلك لا تذكر غالبا مع الموصوف وهى كل ما استقام من الاعمال بدليل العقل والنقل (فأولئك) إشارة الى من والجمع باعتبار معناها كما أن الافراد فى الفعلين السابقين باعتبار لفظها وما فيه من معنى البعد للاشعار بعلو درجتهم وبعد منزلتهم أى فأولئك المؤمنون العاملون للصالحات (لهم) بسبب ايمانهم وأعمالهم الصالحة (الدرجات العلى) أى المنازل الرفيعة وليس فيه ما يدل على عدم اعتبار

الايمان المجرد عن العمل الصالح فى استتباع الثواب لان ما نيط بالايمان المقرون بالاعمال الصالحة هو الفوز بالدرجات العلى لا بالثواب مطلقا وهل التشاجر الا فيه (جنات عدن) بدل من الدرجات العلى أو بيان وقد مر أن عدنا علم لمعنى الاقامة أو لارض الجنة فقوله تعالى (تجرى من تحتها الانهار) حال من الجنات وقوله تعالى (خالدين فيها) حال من الضمير فى لهم والعامل معنى الاستقرار أو الاشارة (وذلك) اشارة الى ما أتيح لهم من الفوز بما ذكر من الدرجات العلى. ومعنى البعد لما مر من التفخيم (جزاء من تزكى) أى تطهر من دنس الكفر والمعاصى بما ذكر من الايمان والاعمال الصالحة وهذا تحقيق لكون ثوابه تعالى أبقى. وتقديم ذكر حال المجرم للمسارعة الى بيان أشدية عذابه ودوامه ردا على ما ادعاه فرعون بقوله أينا أشد عذابا وأبقى هذا وقد قيل هذه الآيات الثلاث ابتداء كلام من الله عز وجل قالوا ليس فى القرآن أن فرعون فعل بأولئك المؤمنين ما أوعدهم به ولم يثبت فى الاخبار (ولقد أوحينا الى موسى) حكاية إجمالية لما انتهى اليه أمر فرعون وقومه وقد طوى فى البين ذكر ما جرى عليهم من الآيات المفصلات الظاهرة على يد موسى عليه الصلاة والسلام بعدما غلب السحرة فى نحو من عشرين سنة حسبما فصل فى سورة الاعراف. وتصديرها بالقسم لابراز كمال العناية بمضمونها وأن فى قوله تعالى (أن أسر بعبادى) إما مفسرة لان الوحي فيه معنى القول أو مصدرية حذف عنها الجار. والتعبير عنهم بعنوان كونهم عبادا له تعالى لاظهار المرحمة والاعتناء بأمرهم والتنبيه على غاية قبح صنيع فرعون بهم حيث استعبدهم وهم عباده عز وجل وفعل بهم من فنون الظلم ما فعل أى وبالله لقد أوحينا اليه عليه الصلاة والسلام أن أسر بعبادى الذين أرسلتك لانقاذهم من ملكة فرعون أى سر بهم من مصر ليلا (فاضرب لهم) أى فاجعل أو فاتخذ لهم (طريقا فى البحر يبسا) أى يابسا على انه مصدر وصف به الفاعل مبالغة. وقرىء يبسا وهو إما مخفف منه أو وصف كصعب أو جمع يابس كصحب وصف به الواحد للمبالغة أو لتعدده حسب تعدد الاسباط (لا تخاف دركا) حال من المأمور أى آمنا من أن يدرككم العدو أو صفة أخرى لطريقا والعائد محذوف. وقرىء لا تخف جوابا للامر (ولا تخشى) عطف على لا تخاف داخل فى حكمه أى ولا تخشى الغرق. وعلى قراءة الجزم استئناف أى وأنت لا تخشى أو عطف عليه والالف للاطلاق كما فى قوله تعالى «وتظنون بالله الظنونا» وتقديم نفى الخوف المذكور للمسارعة الى إزاحة ما كانوا عليه من الخوف العظيم حيث قالوا إنا لمدركون (فأتبعهم فرعون بجنوده) أى تبعهم ومعه جنوده حتى

لحقوهم يقال أتبعتهم أى تبعتهم وذلك اذا كانوا اسبقوك فلحقتهم و يؤيده انه قرىء فاتبعهم من الافتعال وقيل المعنى أتبعهم فرعون نفسه فحذف المفعول الثانى وقيل الباء زائدة والمعنى فأتبعهم فرعون جنوده أى ساقهم خلفهم وأياما كان فالفاء فصيحة معربة عن مضمر قد طوى ذكره ثقة بغاية ظهوره وايذانا بكمال مسارعة موسى عليه الصلاة والسلام الى الامتثال بالامر أى ففعل ما أمر به من الاسراء بهم وضرب الطريق وسلوكه فأتبعهم فرعون بجنوده براو بحراروى أن موسى عليه الصلاة والسلام خرج بهم أول الليل وكانوا ستمائة وسبعين ألفا فأخبر فرعون بذلك فاتبعهم بعساكره وكانت مقدمته سبعمائة ألف فقص أثرهم فلحقهم بحيث تراءى الجمعان فعند ذلك ضرب عليه الصلاة والسلام بعصاه البحر فانفلق على اثنى عشر فرقا كل فرق كالطود العظيم فعبر موسى عليه الصلاة والسلام بمن معه من الاسباط سالمين وتبعهم فرعون بجنوده (فغشيهم من اليم ما غشيهم) أى علاهم منه وغمرهم ما غمرهم من الامر الهائل الذى لا يقادر قدره ولا يبلغ كنهه وقيل غشيهم ما سمعت قصته وليس بذاك فان مدار التهويل والتفخيم خروجه عن حدود الفهم والوصف لا سماع قصته وقرىء فغشاهم من اليم ما غشاهم أى غطاهم ما غطاهم والفاعل هو الله عز وعلا أو ما غشاهم وقيل فرعون لانه الذى ورطهم للهلكة ويأباه الاظهار فى قوله تعالى (وأضل فرعون قومه) أي سلك بهم مسلكا أداهم الى الخيبة والخسران فى الدين والدنيا معا حيث ماتوا على الكفر بالعذاب الهائل الدنيوى المتصل بالعذاب الخالد الاخروى وقوله تعالى (وما هدى) أى ما أرشدهم قط الى طريق موصل الى مطلب من المطالب الدينية والدنيوية تقرير لاضلاله وتأكيد له اذرب مضل قد يرشد من يضله الى بعض مطالبه وفيه نوع تهكم به فى قوله وما أهديكم الى سبيل الرشاد فان نفى الهداية عن شخص مشعر بكونه ممن يتصور منه الهداية فى الجملة وذلك انما يتصور فى حقه بطريق التهكم وحمل الاضلال والهداية على ما يختص بالدينى منهما يأباه مقام بيان سوقه بجنوده الى مساق الهلاك الدنيوى وجعلهما عبارة عن الاضلال فى البحر والانجاء منه مما لا يقبله العقل السليم (يابنى اسرائيل) حكاية لما خاطبهم الله تعالى بعد اغراق فرعون وقومه وانجائهم منهم لكن لا عقيب ذلك بل بعد ما أفاض عليهم من فنون النعم الدينية والدنيوية ما أفاض وقيل هو انشاء خطاب للذين كانوا منهم فى عهد النبى عليه الصلاة والسلام على معنى انه تعالى قد من عليهم بما فعل بآبائهم أصالة وبهم تبعا ويرده ما سيأتى من قوله تعالى وما أعجلك الآية ضرورة استحالة حمله على الانشاء فالوجه هو الحكاية بتقدير قلنا عطفا على أوحينا أى

وقلنا يابنى اسرائيل (قد أنجيناكم من عدوكم) فرعون وقومه حيث كانوا يبغونكم الغوائل ويسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وقرىء نجيناكم ونجيتكم (وواعدناكم جانب الطور الأيمن) بالنصب على انه صفه للمضاف وقرىء بالجر للجوار أى واعدناكم بواسطة نبيكم اتيان جانبه الايمن نظراً الى السالك من مصر الى الشأم أى اتيان موسى عليه الصلاة والسلام للمناجاة وانزال التوراة عليه ونسبت المواعدة اليهم مع كونها لموسى عليه الصلاة والسلام نظرا إلى ملابستها إياهم وسراية منفعتها اليهم وإيفاء لمقام الامتنان حقه كما فى قوله تعالى « ولقد خلقناكم ثم صورناكم » حيث نسب الخلق والتصوير إلى المخاطبين مع أن المخلوق المصور بالذات هو آدم عليه الصلاة والسلام. وقرىء واعدتكم ووعدناكم (ونزلنا عليكم المن والسلوى) أى الترنجبين والسمانى حيث كان ينزل عليهم المن وهم فى التيه مثل الثلج من الفجر إلى الطلوع لكل إنسان صاع ويبعث الجنوب عليهم السمانى فيذبح الرجل منه ما يكفيه كما مر مرارا (كلوا) جملة مستأنفة مسوقة لبيان إباحة ما ذكر لهم واتماما للنعمة عليهم (من طيبات ما رزقناكم) أى من لذائذه أو حلالاته . وقرىء رزقتكم وفى البدء بنعمة الانجاء ثم بالنعمة الدينية ثم بالنعمة الدنيوية من حسن النظم ولطف الترتيب ما لا يخفى (ولا تطغوا فيه) أى فيما رزقناكم بالاخلال بشكره والتعدى لما حد لكم فيه كالسرف والبطر والمنع من المستحق (فيحل عليكم غضبي) جواب للنهى أى فتلزمكم عقوبتى وتجب لكم من حل الدين إذا وجب أداؤه (ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى) أى تردى وهلك وقيل وقع فى الهاوية وقرىء فيحل بضم الحاء من حل يحل اذا نزل (وانى لغفار لمن تاب)من الشرك والمعاصى التى من جملتها الطغيان فيما ذكر (وآمن) بما يجب الايمان به (وعمل صالحا) أى عملا صالحا مستقيما عند الشرع والعقل وفيه ترغيب لمن وقع منه الطغيان فيما ذكر وحث على التوبة والايمان وقوله تعالى (ثم اهتدى) أى استقام على الهدى إشارة إلى أن من لم يستمر عليه بمعزل من الغفران . وثم للتراخى الرتبى (وما أعجلك عن قومك ياموسى) حكاية لما جرى بينه تعالى وبين موسى عليه الصلاة والسلام من الكلام عند ابتداء موافاته الميقات بموجب المواعدة المذكورة أى وقلنا له أى شىء أعجلك منفردا عن قومك وهذا كما ترى سؤال عن سبب تقدمه على النقباء مسوق لانكار انفراده عنهم لما فى ذلك بحسب الظاهر من مخايل إغفالهم وعدم الاعتداد بهم مع كونه مأموراً باستصحابهم واحضارهم معه لا لانكار نفس العجلة الصادرة عنه عليه الصلاة والسلام لكونها نقيصة منافية للحزم اللائق بأولى العزم

ولذلك أجاب عليه الصلاة والسلام بنفي الانفراد المنافي للاستصحاب والمعية حيث (قال هم أولاء على أثرى) يعنى أنهم معى وانما سبقتهم بخطا يسيرة ظننت أنها لا تخل بالمعية ولا تقدح فى الاستصحاب فان ذلك مما لا يعتد به فيما بين الرفقة أصلا وبعدما ذكر عليه الصلاة والسلام أن تقدمه ذلك ليس لامر منكر ذكر أنه لأمر مرضى حيث قال (وعجلت إليك رب لترضى) عنى بمسارعتى إلى الامتثال بأمرك واعتنائى بالوفاء بعهدك وزيادة رب لمزيد الضراعة والابتهال رغبة فى قبول العذر (قال) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية اعتذاره عليه الصلاة والسلام وهو السر فى وروده على صيغة الغائب لا أنه التفات من التكلم إلى الغيبة لما أن المقدر فيما سبق من الموضعين على صيغة التكلم كأنه قيل من جهة السامعين فماذا قال له ربه حينئذ فقيل قال (فانا قد فتنا قومك من بعدك) أى ابتليناهم بعبادة العجل من بعد ذهابك من بينهم وهم الذين خلفهم مع هرون عليه الصلاة والسلام وكانوا ستمائة ألف ما نجا منهم من عبادة العجل إلا اثنا عشر ألفا. والفاء لترتيب الأخبار بما ذكر من الابتلاء على أخبار موسى عليه الصلاة والسلام بعجلته لكن لا لأن الاخبار بها سبب موجب للاخبار به بل لما بينهما من المناسبة المصححة للانتقال من أحدهما الى الآخر من حيث أن مدار الابتداء المذ ور عجلة القوم فانه روى انهم أقاموا على ماوصى به موسى عليه الصلاة والسلام عشرين ليلة بعد ذهابه فحسبوها مع أيامها أربعين وقالوا قد أكملنا العدة وليس من موسى عليه الصلاة والسلام عين ولا أثر (وأضلهم السامرى) حيث كان هو المدبر فى الفتنة فقال لهم انما أخلف موسى عليه الصلاة والسلام ميعادكم لما معكم من حلى القوم وهو حرام عليكم فكان من أمر العجل ما كان فاخباره تعالى بوقوع هذه الفتنة عند قدومه عليه الصلاة والسلام إما باعتبار تحققها فى علمه تعالى ومشيئته وإما بطريق التعبير عن المتوقع بالواقع كما فى قوله تعالى «ونادى أصحاب الجنة» ونظائره أو لأن السامرى كان قد عزم على ايقاع الفتنة عند ذهاب موسى عليه الصلاة والسلام وتصدى لترتيب مبانيها وتمهيد مباديها فكانت الفتنة واقعة عند الاخبار بها وقرىء وأضلهم السامرى على صيغة التفضيل أى أشدهم ضلالا لانه ضال ومضل والسامرى منسوب الى قبيلة من بنى اسرائيل يقال لها السامرة. وقيل كان علجا من كرمان. وقيل من أهل باجرما واسمه موسى بن ظفر وكان منافقا قد أظهر الاسلام وكان من قوم يعبدون البقر (فرجع موسى الى قومه) عند رجوعه المعهود أى بعد مااستوفى الاربعين وأخذ التوراة لاعقيب الاخبار بالفتنة فسببية ماقبل الفاء لما بعدها إنما هى باعتبار قيد الرجوع المستفاد من قوله تعالى (غضبان أسفا) لا باعتبار نفسه

وإن كانت داخلة عليه حقيقة فان كون الرجوع بعد تمام الاربعين أمر مقرر مشهور لايذهب الوهم إلى كونه عند الاخبار بالفتنة كما إذا قلت شايعت الحجاج ودعوت لهم بالسلامة فرجعوا سالمين فان أحداً لا يرتاب فى أن المراد رجوعهم المعتاد لا رجوعهم إثر الدعاء وأن سببية الدعاء باعتبار وصف السلامة لا باعتبار نفس الرجوع. والأسف الشديد الغضب وقيل الحزين (قال) استئناف مبنى على سؤال ناشىء من حكاية رجوعه كذلك كأنه قيل فماذا فعل بهم فقيل قال (ياقوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسنا) بأن يعطيكم التوراة فيها مافيها من النور والهدى والهمزة لانكار عدم الوعد ونفيه وتقرير وجوده على أبلغ وجه وآكده أى وعدكم بحيث لاسبيل لكم الى انكاره . والفاء فى قوله تعالى (أفطال عليكم العهد) أى الزمان للعطف على مقدر والهمزة لانكار المعطوف ونفيه فقط أى أوعدكم ذلك فطال زمان الانجاز فأخطأتم بسببه (أم أردتم أن يحل) أى يجب (عليكم غضب) شديد لايقادر قدره كائن (من ربكم) أى من مالك أمركم على الاطلاق (فأخلفتم موعدى) أى وعدكم اياى بالثبات على ما أمرتكم به الى أن أرجع من الميقات على اضافة المصدر الى مفعوله للقصد الى زيادة تقبيح حالهم فان اخلافهم الوعد الجارى فيما بينهم وبينه عليه السلام من حيث اضافته اليه عليه السلام شنع منه من حيث اضافته اليهم . والفاء لترتيب مابعدها على كل واحد من شقى الترديد على سبيل البدل كأنه قيل أنسيتم الوعد بطول العهد فأخلفتموه خطأ أم أردتم حلول الغضب عليكم فأخلفتموه عمدا . وأما جعل الموعد مضافا الى فاعله وحمل اخلافه على معنى وجدان الخلف فيه أى فوجدتم الخلف فى موعدى لكم بالعود بعد الاربعين فمما لا يساعده السباق ولا السياق أصلا (قالوا ما أخلفنا موعدك) أى وعدنا إياك الثبات على أمرتنا به وايثاره على أن يقال موعدنا على اضافة المصدر الى فاعله لما مر آنفا (بملكنا) أى بأن ملكنا أمورنا يعنون أنا لو خلينا وأمورنا ولم يسول لنا السامرى ما سوله مع مساعدة بعض الاحوال لما أخلفناه وقرىء بملكنا بكسر الميم وضمها والكل لغات فى مصدر ملكت الشىء (ولكنا حملنا أوزاراً من زينة القوم) استدراك عما سبق واعتذار عما فعلوا ببيان منشأ الخطأ وقرىء حملنا بالتخفيف أى حملنا أحمالا من حلى القبط التى استعرناها منهم حين هممنا بالخروج من مصر باسم العرس وقيل كانوا استعاروها لعيد كان لهم ثم لم يردوها اليهم عند الخروج مخافة أن يقفوا على أمرهم وقيل هى ما ألقاه البحر على الساحل بعد اغراقهم فأخذوها ولعل تسميتهم لها أوزارا لانها تبعات وآثام حيث لم تكن الغنائم تحل حينئذ

(فقذفناها) أى فى النار رجاء للخلاص عن ذنبها (فكذلك) أى فمثل ذلك القذف (ألقى السامرى) أى ما كان معه منها وقد كان أراهم انه أيضا يلقى ما كان معه من الحلى فقالوا ما قالوا على زعمهم وانما كان الذى ألقاه التربة التي أخذها من أثر الرسول كما سيأتى روي أنه قال لهم انما تأخر موسى عنكم لما معكم من الاوزار فالرأى أن نحفر حفيرة ونسجر فيها نارا ونقذف فيها كل ما معنا ففعلوا (فأخرج) أى السامرى (لهم) للقائلين (عجلا) من تلك الحلى المذابة وتأخيره مع كونه مفعولا صريحا عن الجار والمجرور لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر مع ما فيه من نوع طول يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم فان قوله تعالى (جسدا) أى جثة ذا دم ولحم أو جسدا من ذهب لا روح له بدل منه وقوله تعالى (له خوار) أى صوت عجل نعت له (فقالوا) أى السامرى ومن افتتن به أول ما رآه (هذا إلهكم وإله موسى فنسى) أى غفل عنه وذهب يطلبه فى الطور وهذا حكاية لنتيجة فتنة السامرى فعلا وقولا من جهته تعالى قصدا الى زيادة تقريرها ثم ترتيب الانكار عليها لا من جهة القائلين والا لقيل فاخرج لنا والحمل على أن عدولهم الى ضمير الغيبة لبيان أن الاخراج والقول المذكورين للكل لا للعبدة فقط خلاف الظاهر مع انه مخل باعتذارهم فان مخالفة بعضهم للسامرى وعدم افتتانهم بتسويله مع كون الاخراج والخطاب لهم مما يهون مخالفته للمعتذرين فافتتانهم بعد ذلك أعظم جناية وأكثر شناعة وأما ما قيل من أن المعتذرين هم الذين لم يعبدوا العجل وان نسبة الاخلاف الى أنفسهم وهم براء منه من قبيل قولهم بنو فلان قتلوا فلانا مع أن القاتل واحد منهم كأنهم قالوا ما وجد الاختلاف فيما بيننا بأمر كنا نملكه بل تمكنت الشبهة فى قلوب العبدة حيث فعل السامرى ما فعل فاخرج لهم ما أخرج وقال ما قال فلم نقدر على صرفهم عن ذلك ولم نفارقهم مخافة ازدياد الفتنة فيقضى بفساده سياق النظم الكريم وسياقه وقوله تعالى (أفلا يرون) الخ انكار وتقبيح من جهته تعالى لحال الضالين والمضلين جميعا وتسفيه لهم فيما أقدموا عليه من المنكر الذى لا يشتبه بطلانه واستحالته على أحد وهو اتخاذه إلها والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى لا يتفكرون فلا يعلمون (أن لا يرجع اليهم قولا) أى انه لا يرجع اليهم كلاما ولا يرد عليهم جوابا فكيف يتوهمون أنه إله وقرىء يرجع بالنصب قالوا فالرؤية حينئذ بصرية فان أن الناصبة لا تقع بعد أفعال اليقين أى ألا ينظرون فلا يبصرون عدم رجعه اليهم قولا من الاقوال . وتعليق الابصار بما ذكر مع كونه أمرا عدميا للتنبيه على كمال ظهوره المستدعى لمزيد تشنيعهم

وتركيك عقولهم وقوله تعالى (ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا) عطف على لا يرجع داخل معه في حيز الرؤية أي أفلا يرون انه لا يقدر على أن يدفع عنهم ضرا أو يجلب لهم نفعا أو لا يقدر على أن يضرهم ان لم يعبدوه أو ينفعهم ان عبدوه (ولقد قال لهم هرون من قبل) جملة قسمية مؤكدة لما قبلها من الانكار والتشنيع ببيان عتوهم واستعصائهم على الرسول إثر بيان مكابرتهم لقضية العقول أى وبالله لقد نصح لهم هرون ونبههم على كنه الامر من قبل رجوع موسى عليه السلام اليهم وخطابه إياهم بما ذكر من المقالات وقيل من قبل قول السامرى كانه عليه السلام أول ما أبصره حين طلع من الحفيرة توهم منهم الافتتان به فسارع الى تحذيرهم وقال لهم (يا قوم إنما فتنتم به) أى أوقعتم فى الفتنة بالعجل أو أضللتم به على توجيه القصر المستفاد من كلمة إنما الى نفس الفعل بالقياس الى مقابله الذى يدعيه القوم لا إلى قيده المذكور بالقياس الى قيد آخر على معنى إنما فعل بكم الفتنة لا الارشاد الى الحق لا على معنى انما فتنتم بالعجل لا بغيره وقوله تعالى (وإن ربكم الرحمن) بكسر ان عطفا على انما ارشاد لهم الى الحق اثر زجرهم عن الباطل والتعرض لعنوان الربوبية والرحمة للاعتناء باستمالتهم الى الحق كما ان التعرض لوصف العجل للاهتمام بالزجر عن الباطل أى أن ربكم المستحق للعبادة هو الرحمن لا غير والفاء فى قوله تعالى (فاتبعونى) لترتيب ما بعدها على ماقبلها من مضمون الجملتين أى اذا كان الامر كذلك فاتبعونى فى الثبات على الدين (وأطيعوا أمرى) هذا واتركوا عبادة ما عرفتم شأنه (قالوا) فى جواب هرون عليه السلام (لن نبرح عليه) على العجل وعبادته (عاكفين) مقيمين (حتى يرجع الينا موسى) جعلوا رجوعه عليه السلام اليهم غاية لعكوفهم على عبادة العجل لكن لا على طريق الوعد بتركها عند رجوعه عليه السلام بل بطريق التعلل والتسويف وقد دسوا تحت ذلك انه عليه السلام لا يرجع بشىء مبين تعويلا على مقالة السامرى . روى انهم لما قالوه اعتزلهم هرون عليه السلام فى اثنى عشر ألفا وهم الذين لم يعبدوا العجل فلما رجع موسى عليه السلام وسمع الصياح وكانوا يرقصون حول العجل قال للسبعين الذين كانوا معه هذا صوت الفتنة فقال لهم ما قال وسمع منهم ما قالوا وقوله تعالى (قال) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية جوابهم لهرون عليه السلام كانه قيل فماذا قال موسى لهرون عليهما السلام حين سمع جوابهم له وهل رضى بسكوته بعد ما شاهد منهم ما شاهد فقيل قال له وهو مغتاظ قد اخذ بلحيته ورأسه (ياهرون ما منعك اذ رأيتهم ضلوا) بعبادة العجل وبلغوا من المكابرة الى ان شافهوك بتلك المقالة الشنعاء (أن لا تتبعن) أى أن تتبعني على أن لا مزيدة

وهو مفعول ثان لمنع وهو عامل فى اذأى أى شىء منعك حين رؤيتك لضلالهم من أن تتبعنى فى الغضب لله تعالى والمقاتلة مع من كفر به . وقيل المعنى ما حملك على ان لا تتبعنى فان المنع عن الشىء مستلزم للحمل على مقابله وقيل ما منعك أن تلحقنى وتخبرنى بضلالهم فتكون مفارقتك مزجرة لهم وفيه ان نصائح هرون عليه السلام حيث لم تزجرهم عما كانوا عليه فلا أن لا تزجرهم مفارقته إياهم عنه أولى والاعتذار بأنهم اذا علموا أنه يلحقه ويخبره بالقصة يخافون رجوع موسى عليه السلام فينزجروا عن ذلك بمعزل من حيز القبول كيف لا وهم قد صرحوا بأنهم عاكفون عليه الى حين رجوعه عليه السلام (أفعصيت أمرى) أى بالصلابة فى الدين والمحاماة عليه فان قوله له عليهما السلام اخلفنى متضمن للامر بهما حتما فان الخلافة لا تتحقق الا بمباشرة الخليفة ما كان يباشره المستخلف لو كان حاضرا والهمزة للانكار التوبيخى والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى ألم تتبعنى أو أخالفتنى فعصيت أمرى (قال يا ابن أم) خص الام بالاضافة استعطافا لحقها وترقيقا لقلبه لا لما قيل من أنه كان أخاه لام فان الجمهور على أنهما كانا شقيقين (لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى) أى ولا بشعر رأسى روى انه عليه السلام أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله من شدة غيظه وفرط غضبه لله وكان عليه السلام حديدا متصلبا فى كل شىء فلم يتمالك حين رآهم يعبدون العجل ففعل ما فعل وقوله تعالى (إنى خشيت) الخ استئناف سيق لتعليل موجب النهى ببيان الداعى الى ترك المقاتلة وتحقيق انه غير عاص لامره بل ممتثل به أى انى خشيت لو قاتلت بعضهم ببعض وتفانوا وتفرقوا (أن تقول فرقت بين بنى اسرائيل) برأيك مع كونهم أبناء واحد كما ينبئ عنه ذكرهم بذلك العنوان دون القوم ونحوه وأراد عليه السلام بالتفريق ما يستتبعه القتال من التفريق الذى لا يرجى بعده الاجتماع (ولم ترقب قولى) يريد به قوله عليه السلام اخلفنى فى قومى وأصلح الخ يعنى انى رأيت أن الاصلاح فى حفظ الدهماء والمداراة معهم الى أن ترجع اليهم فلذلك استأنيتك لتكون أنت المتدارك للامر حسبما رأيت لا سيما وقد كانوا فى غاية القوة ونحن على القلة والضعف كما يعرب عنه قوله تعالى « ان القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى » (قال) استئناف وقع جوابا عما نشأ من حكاية ما سلف من اعتذار القوم باسناد الفساد الى السامرى واعتذار هرون عليه السلام كانه قيل فماذا صنع موسى عليه السلام بعد سماع ما حكى من الاعتذارين واستقرار أصل الفتنة على السامرى فقيل قال موبخا له هذا شأنهم (فما خطبك يا سامرى) أى ما شانك وما مطلوبك مما فعلت خاطبه عليه السلام بذلك

ليظهر للناس بطلان كيده باعترافه و يفعل به و بما صنعه من العقاب ما يكون نكالا للمفتونين به ولمن خلفهم من الامم (قال) أي السامري مجيباله عليه السلام (بصرت بمالم يبصروا به) بضم الصاد فيهما . وقرىء بكسرها في الاول وفتحها في الثاني . وقرىء بالتاء على الوجهين على خطاب موسى عليه السلام وقومه أي علمت مالم يعلمه القوم وفطنت لما لم يفطنوا له أو رأيت مالم يروه وهو الانسب بما سيأتي من قوله وكذلك سولت لي نفسي لاسيما على القراءة بالخطاب فان ادعاء علم مالم يعلمه موسى عليه السلام جرأة عظيمة لاتليق بشأنه ولا بمقامه بخلاف ادعاء رؤية مالم يره عليه السلام فانها مما يقع بحسب مايتفق وقد كان رأى أن جبريل عليه السلام جاء راكب فرس وكان كلما رفع الفرس يديه أو رجليه على الطريق اليبس يخرج من تحته النبات في الحال فعرف أن له شأنا فأخذ من موطئه حفنة وذلك قوله تعالى (فقبضت قبضة من أثر الرسول) وقرئ من أثر فرس الرسول أي من تربة موطئ فرس الملك الذي أرسل اليك ليذهب بك الى الطور . ولعل ذكره بعنوان الرسالة للاشعار بوقوفه على مالم يقف عليه القوم من الاسرار الالهية تأكيدا لما صدر به مقالته والتنبيه على وقت أخذما أخذه . والقبضة المرة من القبض أطلقت على المقبوض مرة وقرىء بضم القاف وهو اسم المقبوض كالغرفة والمضغة وقرىء فقبصت قبصة بالصاد المهملة والاول للاخذ بجميع الكف والثاني باطراف الاصابع ونحوهما الخضم والقضم (فنبذتها) أي في الحلي المذابة فكان ما كان (وكذلك سولت لي نفسي) أي مافعلته من القبض والنبذ فقوله تعالى ذلك اشارة الى مصدر الفعل المذكور بعده ومحل كذلك في الاصل النصب على أنه مصدر تشبيهي أي نعت لمصدر محذوف والتقدير سولت لي نفسي تسويلا كائنا مثل ذلك التسويل فقدم على الفعل لافادة القصر واعتبرت الكاف مقحمة لافادة تأكيد ماأفادة اسم الاشارة من الفخامة فصار نفس المصدر المؤكد لانعتا له أي ذلك التزيين البديع زينت لي نفس مافعلته لاتزيينا أدنى منه ولذلك فعلته وحاصل جوابه أن مافعله انما صدر عنه بمحض اتباع هوى النفس الامارة بالسوء واغوائها لا بشيء آخر من البرهان العقلي أو الالهام الالهي فعند ذلك (قال) عليه السلام (فاذهب) أي من بين الناس وقوله تعالى (فان لك في الحياة) الخ تعليل لموجب الامر . وفي متعلقة بالاستقرار في لك أي ثابت لك في الحياة أو بمحذوف وقع حالا من الكاف والعامل معنى الاستقرار في الظرف المذكور لاعتماده على ماهو مبتدأ معنى لا بقوله تعالى (أن تقول لامساس) لمكان أن أي ثابت لك كائنا في الحياة أي مدة حياتك أن تفارقهم مفارقة كلية لكن لا بحسب

الاختيار بموجب التكليف بل بحسب الاضطرار الملجيء اليها وذلك أنه تعالى رماه بداء عقام لايكاد يمس أحداً أو يمسه أحد كائناً من كان الاحم من ساعته حمى شديدة فتحامى الناس وتحاموه وكان يصيح بأقصى طوقه لامساس وحرم عليهم ملاقاته ومواجهته ومكالمته ومبايعته وغيرها مما يعتاد جريانه فيما بين الناس من المعاملات وصار بين الناس أوحش من القاتل اللاجيء الى الحرم ومن الوحش النافر فى البرية ويقال أن قومه باق فيهم تلك الحالة إلى اليوم . وقرىء لامساس كفجار وهو علم للمسة ولعل السر فى مقابلة جنايته بتلك العقوبة خاصة مابينهما من مناسبة التضاد فانه لما أنشأ الفتنة بما كانت ملابسته سبباً لحياة الموات عوقب بما يضاده حيث جعلت ملابسته سبباً للحمى التى هى من أسباب موت الأحياء (وإن لك موعداً) أى فى الآخرة (لن تخلفه) أى لن يخلفك الله ذلك الوعد بل ينجزه لك ألبتة بعد ماعاقبك فى الدنيا . وقرىء بكسر اللام والاظهر أنه من أخلفت الموعد أى وجدته خلفاً . وقرىء بالنون على حكاية قوله عز وجل (وانظر الى إلهك الذى ظلت عليه عاكفاً) أي ظللت مقيما على عبادته فحذفت اللام الأولى تخفيفاً . وقرىء بكسر الظاء بنقل حركة اللام اليها (لنحرقنه) جواب قسم محذوف أى بالنار ويؤيده قراءة لنحرقنه من الاحراق . وقيل بالمبرد على انه مبالغة فى حرق إذا برد بالمبرد ويعضده قراءة لنحرقنه (ثم لننسفنه) أى لنذرينه . وقرىء بضم السين (فى اليم) رماداً أو مبروداً كأنه هباء (نسفاً) بحيث لايبقى منه عين ولا أثر ولقد فعل عليه السلام ذلك كله حينئذ كما يشهد به الأمر بالنظر وانما لم يصرح به تنبيهاً على كمال ظهوره واستحالة الخلف فى وعده المؤكد باليمين (انما إلهكم الله) استئناف مسوق لتحقيق الحق إثر ابطال الباطل بتلوين الخطاب وتوجيهه إلى الكل أى انما معبودكم المستحق للعبادة الله (الذى لاإله) فى الوجود لشيء من الأشياء (إلا هو) وحده من غير أن يشاركه شيء من الأشياء بوجه من الوجوه التى من جملتها أحكام الألوهية . وقرىء الله لااله إلا هو الرحمن رب العرش وقوله تعالى (وسع كل شيء علما) أى وسع علمه كل مامن شأنه أن يعلم بدل من الصلة كأنه قيل انما إلهكم الله الذى وسع كل شيء علماً لاغيره كائناً ما كان فيدخل فيه العجل دخولا أولياً . وقرىء وسع بالتشديد فيكون انتصاب علما على المفعولية لانه على القراءة الاولى فاعل حقيقة وبنقل الفعل إلى التعدية إلى المفعولين صار الفاعل مفعولا أول كأنه قيل وسع علمه كل شيء وبه تم حديث موسى عليه السلام المذكور لتقرير أمر التوحيد حسبما نطقت به خاتمته وقوله تعالى (كذلك نقص عليك) كلام مستأنف خوطب

به النبي عليه الصلاة والسلام بطريق الوعد الجميل بتنزيل أمثال مامر من أنباء الامم السالفة وذلك إشارة الى اقتصاص حديث موسى عليه السلام وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو رتبته وبعد منزلته فى الفضل ومحل الكاف النصب على انه نعت لمصدر مقدر أى نقص عليك (من أنباء ماقد سبق) من الحوادث الماضية الجارية على الأمم الخالية قصاً مثل ذلك القص المار والتقديم للقصر المفيد لزيادة التعيين ومن فى قوله تعالى من أنباء فى حيز النصب إما على انه مفعول نقص باعتبار مضمونه واما على انه متعلق بمحذوف هو صفة للمفعول كما فى قوله تعالى «ومنادون ذلك» أى جمع دون ذلك والمعنى نقص عليك بعض أنباء ما قد سبق أو بعضا كائنا من انباء ماقد سبق وقد مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى« ومن الناس من يقول» الخ وتأخيره عن عليك لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر أى مثل ذلك القص البديع الذى سمعته نقص عليك ما ذكر من الانباء لاقصا ناقصا عنه تبصرة لك وتوفيرا لعلمك وتكثيرا لمعجزاتك وتذكيرا للمستبصرين من أمتك (وقد آتيناك من لدنا ذكرا) أى كتابا منطويا على هذه الاقاصيص والاخبار حقيقا بالتفكر والاعتبار وكلمة من متعلقة بآتيناك . وتنكير ذكرا للتفخيم وتأخيره عن الجار والمجرور لما ان مرجع الافادة فى الجملة كون المؤتى من لدنه تعالى ذكرا عظيما وقرآنا كريما جامعا لكل كمال لا كون ذلك الذكر مؤتى من لدنه عز وجل مع ما فيه من نوع طول بما بعده من الصفة فتقديمه يذهب برونق النظم الكريم (من أعرض عنه) عن ذلك الذكر العظيم الشأن المستتبع لسعادة الدارين. وقيل عن الله عز وجل.ومن اما شرطية أو موصولة وايا ما كانت فالجملة صفة لذكرا (فانه)أى المعرض عنه (يحمل يوم القيامة وزرا) أى عقوبة ثقيلة فادحة على كفره وسائر ذنوبه . وتسميتها وزرا اما لتشبيهها فى ثقلها على المعاقب وصعوبة احتمالها بالحمل الذى يفدح الحامل وينقض ظهره أو لانها جزاء الوزر وهو الاثم والاول هو الانسب بما سيأتى من تسميتها حملا وقوله تعالى (خالدين فيه) أى فى الوزر أى فى احتماله المستمر حال من المستكن فى يحمل والجمع بالنظر الى معنى من لما ان الخلود فى النار مما يتحقق حال اجتماع أهلها كما ان الافراد فيما سبق من الضمائر الثلاثة بالنظر الى لفظها (وساء لهم يوم القيامة حملا) أى بئس لهم ففيه ضمير مبهم يفسره حملا والمخصوص بالذم محذوف أى ساء حملا وزرهم واللام للبيان كما فى هيت لك كأنه لما قيل ساء قيل لمن يقال هذا فأجيب لهم واعادة يوم القيامة لزيادة التقرير وتهويل الامر (يوم ينفخ فى الصور) بدل من يوم القيامة أو منصوب باضمار اذكر

أو ظرف لمضمر قد حذف للايذان بضيق العبارة عن حصره وبيانه حسبما مرفى تفسير قوله تعالى «يوم يجمع الله الرسل» وقوله تعالى «يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا» وقرىء تنفخ بالنون على اسناد النفخ الى الامر به تعظيما له وبالياء المفتوحة على أن ضميره لله عز وجل أو لاسرافيل عليه السلام وان لم يجر ذكره لشهرته (ونحشر المجرمين يومئذ) أى يوم إذ ينفخ فى الصور. وذكره صريحا مع تعين أن الحشر لا يكون الا يومئذ للتهويل. وقرىء ويحشر المجرمون (زرقا) أى حال كونهم زرق العيون وإنما جعلوا كذلك لان الزرقة أسوأ ألوان العين وأبغضها الى العرب فان الروم الذين كانوا أعدى عدوهم زرق ولذلك قالوا فى صفة العدو أسود الكبد وأصهب السبال وأزرق العين أو عميا لان حدقة الاعمى تزرق وقوله تعالى (يتخافتون بينهم) أى يخفضون أصواتهم ويخفونها لما يملأ صدورهم من الرعب والهول استئناف ببيان ما يأتون وما يذرون حينئذ أو حال أخرى من المجرمين أى يقول بعضهم لبعض بطريق المخافتة (إن لبثتم) أى مالبثتم فى الدنيا (الا عشرا) أى عشر ليال استقصاراً لمدة لبثهم فيها لزوالها أو لاستطالتهم مدة الآخرة أو لتأسفهم عليها لما عاينوا الشدائد وأيقنوا انهم استحقوها على اضاعتها فى قضاء الاوطار واتباع الشهوات أو فى القبر وهو الأنسب بحالهم فانهم حين يشاهدون البعث الذى كانوا ينكرونه فى الدنيا ويعدونه من قبيل المحالات لا يتمالكون من أن يقولوا ذلك اعترافا به وتحقيقاً لسرعة وقوعه كأنهم قالوا قد بعثتم وما لبثتم فى القبر الامدة يسيرة والا فحالهم أفظع من أن تمكنهم من الاشتغال بتذكر أيام النعمة والسرور واستقصارها والتأسف عليها (نحن أعلم بما يقولون) وهو مدة لبثهم (إذ يقول أمثلهم طريقة) أى أعدلهم رأيا أو عملا (إن لبثتم إلا يوماً) ونسبة هذا القول إلى أمثلهم استرجاع منه تعالى له لكن لا لكونه أقرب الى الصدق بل لكونه أدل على شدة الهول (ويسألونك عن الجبال) أى عن مآل أمرها وقد سأل عنه رجل من ثقيف وقيل مشركوا مكة على طريق الاستهزاء (فقل ينسفها ربى نسفا) أى يجعلها كالرمل ثم يرسل عليها الرياح فتفرقها والفاء للمسارعة الى الزام السائلين (فيذرها) الضمير إما للجبال باعتبار أجزائها السافلة الباقية بعد النسف وهى مقارها ومراكزها أى فيذر ما انبسط منها وساوى سطحه سطوح سائر أجزاء الارض بعد نسف ماتأمنها ونشز وإما للارض المدلول عليها بقرينة الحال لانها الباقية بعد نسف الجبال وعلى التقديرين يذر الكل (قاعا صفصفا) لان الجبال إذا سويت وجعل سطحها مساويا لسطوح سائر أجزاء الارض فقد جعل

الكل سطحاً واحداً . والقاع قيل السهل وقيل المنكشف من الأرض. وقيل المستوي الصلب منها وقيل مالا نبات فيه ولا بناء. والصفصف الارض المستوية الملساء كان أجزاءه صف واحد من كل جهة. وانتصاب قاعا على الحالية من الضمير المنصوب أو هو مفعول ثان ليذر على تضمين معنى التصيير .وصفصفا أما حال ثانية أو بدل من المفعول الثانى وقوله تعالى (لاترى فيها) أى فى مقار الجبال أو فى الأرض على مامر من التفصيل (عوجا) بكسر العين أى اعوجاجا ما كأنه لغاية خفائه من قبيل مافى المعانى أى لاتدركه ان تأملت بالمقاييس الهندسية (ولا أمتا)أى نتوأ يسيرا استئناف مبين لكيفية ماسبق من القاع الصفصف أو حال أخرى أو صفة لقاعا والخطاب لكل أحد ممن تتأتى منه الرؤية. وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر مراراً من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر مع مافيه من طول ربما يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم (يومئذ) أى يوم اذ نسفت الجبال على اضافة اليوم الى وقت النسف وهو ظرف لقوله تعالى (يتبعون الداعى)وقيل بدل من يوم القيامة وليس بذاك أى يتبع الناس داعى الله عز وجل إلى المحشر وهو اسرافيل عليه السلام يدعو الناس عند النفخة الثانية قائما على صخرة بيت المقدس ويقول « أيتها العظام النخرة والاوصال المتفرقة واللحوم المتمزقة قومى إلى عرض الرحمن فيقبلون من كل أوب إلى صوبه » (لا عوج له) لا يعوج له مدعو ولا يعدل عنه (وخشعت الأصوات للرحمن) أى خضعت لهيبته (فلا تسمع إلا همساً) أى صوتاً خفياً ومنه الهميس لصوت أخفاف الابل وقد فسر الهمس بخفق أقدامهم ونقلها إلى المحشر (يومئذ) أي يوم اذ يقع ما ذكر من الأمور الهائلة (لا تنفع الشفاعة) من الشفعاء أحداً (إلا من أذن له الرحمن) أن يشفع له (ورضى له قولا) أى ورضى لاجله قول الشافع فى شأنه أو رضى قوله لاجله وفى شأنه وأما من عداه فلا تكاد تنفعه وان فرض صدورها عن الشفعاء المتصدين للشفاعة للناس كقوله تعالى « فما تنفعهم شفاعة الشافعين » فالاستثناء كما ترى من أعم المفاعيل. وأما كونه استثناء من الشفاعة على معنى لا تنفع الشفاعة إلا شفاعة من أذن له الرحمن أن يشفع لغيره كما جوزوه فلا سبيل إليه لما أن حكم الشفاعة ممن لم يؤذن له أن لا يملكها ولا تصدر هى عنه أصلا كما فى قوله تعالى «لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً » وقوله تعالى «ولا يشفعون إلا لمن ارتضى »فالاخبار عنها بمجرد عدم نفعها للمشفوع له ربما يوهم امكان صدورها عمن لم يؤذن له مع اخلاله بمقتضى مقام تهويل اليوم. وأما قوله تعالى «ولا يقبل منها شفاعة» فمعناه عدم الاذن فى

الشفاعة لاعدم قبولها بعد وقوعها (يعلم مابين أيديهم) أى ما تقدمهم من الأحوال وقيل من أمر الدنيا (وما خلفهم) وما بعدهم مما يستقبلونه وقيل من أمر الآخرة (ولا يحيطون به علماً) أى لا تحيط علومهم بمعلوماته تعالى وقيل بذاته أى من حيث اتصافه بصفات الكمال التي من جملتها العلم الشامل . وقيل الضمير لأحد الموصولين أو لمجموعها فانهم لا يعلمون جميع ذلك ولا تفصيل ما علموا منه (وعنت الوجوه للحي القيوم) أى ذلت وخضعت خضوع العناة أى الأسارى فى يد الملك القهار ولعلها وجوه المجرمين كقوله تعالى « سيئت وجوه الذين كفروا » ويؤيده قوله تعالى (وقد خاب من حمل ظلماً) قال ابن عباس رضى الله عنهما خسر من أشرك بالله ولم يتب وهو استئناف لبيان مالأجله عنت وجوههم أو اعتراض كأنه قيل خابوا وخسروا وقيل حال من الوجوه ومن عبارة عنها مغنية عن ضميرها وقيل الوجوه على العموم فالمعنى حينئذ وقد خاب من حمل منهم ظلماً فقوله تعالى (ومن يعمل من الصالحات) الخ قسيم لقوله تعالى « وقد خاب من حمل ظلماً » لا لقوله تعالى وعنت الوجوه الخ كما أنه كذلك على الوجه الأول أى ومن يعمل بعض الصالحات أو بعضاً من الصالحات على أحد الوجهين المذكورين فى تفسير قوله تعالى « من أنباء ماقد سبق » (وهو مؤمن) فان الايمان شرط فى صحة الطاعات وقبول الحسنات (فلا يخاف ظلماً) أى منع ثواب مستحق بموجب الوعد (ولا هضما) ولا كسراً منه بنقص أو لايخاف جزاء ظلم وهضم اذ لم يصدر عنه ظلم ولا هضم حتى يخافهما . وقرىء فلا يخف على النهى (وكذلك) عطف على كذلك نقص وذلك إشارة إلى انزال ما سبق من الآيات المتضمنة للوعيد المنبئة عما سيقع من أحوال القيامة وأهوالها أى مثل ذلك الانزال (أنزلناه) أى القرآن كله واضماره من غير سبق ذكره للايذان بنباهة شأنه وكونه مركوزا فى العقول حاضرا فى الاذهان (قرآنا عربيا) ليفهمه العرب ويقفوا على مافيه من النظم المعجز الدال على كونه خارجا عن طوق البشر نازلا من عند خلاق القوى والقدر (وصرفنا فيه من الوعيد) أى كررنا فيه بعض الوعيد او بعضا من الوعيد حسبما أشير اليه آنفا (لعلهم يتقون) أى كى يتقوا الكفر والمعاصى بالفعل (أو يحدث لهم ذكرا) اتعاظا واعتبارا مؤديا بالآخرة الى الاتقاء (فتعالى الله) استعظام له تعالى ولشئونه التى يصرف عليها عباده من الاوامر والنواهى والوعد والوعيد وغير ذلك أى ارتفع بذاته وتنزه عن مماثلة المخلوقين فى ذاته وصفاته وأفعاله وأحواله (الملك) النافذ أمره ونهيه الحقيق بان يرجى وعده ويخشى وعيده (الحق) فى ملكوته وألوهيته لذاته

أو الثابت فى ذاته وصفاته (ولاتعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك) أى يتم (وحيه) كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا ألقى اليه جبريل عليهما السلام الوحى يتبعه عند تلفظ كل حرف وكل كلمة لكمال اعتنائه بالتلقى والحفظ فنهى عن ذلك اثر ذكر الانزال بطريق الاستطراد لما أن استقرار الالفاظ فى الاذهان تابع لاستقرار معانيها فيها وربما يشغل التلفظ بكلمة عن سماع مابعدها وأمر باستفاضة العلم واستزادته منه تعالى فقيل (وقل) أى فى نفسك (رب زدنى علما) أى سل الله عز وجل زيادة العلم فانه الموصل الى طلبتك دون الاستعجال . وقيل أنه نهى عن تبليغ ما كان مجملا قبل أن يأتى بيانه وليس بذاك فان تبليغ المجمل وتلاوته قبل البيان مما لاريب فى صحته ومشروعيته (ولقد عهدنا الى آدم) كلام مستأنف مسوق لتقرير ماسبق من تصريف الوعيد فى القرآن وبيان أن أساس بنى آدم على العصيان وعرقه راسخ فى النسيان مع مافيه من انجاز الموعود فى قوله تعالى كذلك « نقص عليك من أنباء ماقد سبق » يقال عهد اليه الملك وعزم عليه وأوعز اليه وتقدم اليه اذا أمره ووصاه والمعهود محذوف يدل عليه مابعده واللام جواب قسم محذوف أى وأقسم أو وبالله أو وتالله لقد أمرناه ووصيناه (من قبل) أى من قبل هذا الزمان (فنسى) أى العهد ولم يعتن به حتى غفل عنه أو تركه ترك المنسى عنه . وقرىء فنسى أى نساه الشياطين (ولم نجد له عزما) تصميم رأى وثبات قدم فى الامور اذ لوكان كذلك لما أزله الشيطان ولما استطاع أن يغره وقد كان ذلك منه عليه السلام فى بدء أمره من قبل أن يجرب الامور ويتولى حارها وقارها ويذوق شريها وأريها . عن النبى عليه الصلاة والسلام « لو وزنت أحلام بنى آدم بحلم آدم لرجح حلمه » وقد قال الله تعالى « ولم نجد له عزما » وقيل عزما على الذنب فانه أخطأ ولم يتعمد وقوله تعالى ولم نجد ان كان من الوجود العلمى فله عزما مفعولاه قدم الثانى على الاول لكونه ظرفا وان كان من الوجود المقابل للعدم وهو الانسب لان مصب الفائدة هو المفعول وليس فى الاخبار بكون العزم المعدوم له مزيد مزية فله متعلق به قدم على مفعوله لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر أو بمحذوف هو حال من مفعول المنكر كأنه قيل ولم نصادف له عزما وقوله تعالى (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) شروع فى بيان المعهود وكيفية ظهور نسيانه وفقدان عزمه واذ منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام أى واذكر وقت قولنا لهم . وتعليق الذكر بالوقت مع أن المقصود تذكير ماوقع فيه من الحوادث لما مر مرارا من المبالغة فى ايجاب ذكرها فان الوقت مشتمل على تفاصيل الامور

الواقعة فيه فالامر بذكره أمر بذكر تفاصيل ماوقع فيه بالطريق البرهانى ولان الوقت مشتمل على أعيان الحوادث فاذا ذكر صارت الحوادث كأنها موجودة فى ذهن المخاطب بوجوداتها العينية أى اذكر ماوقع فى ذلك الوقت منا ومنه حتى يتبين لك نسيانه وفقد ان عزمه (فسجدوا إلا ابليس) قد سبق الكلام فيه مرارا (أبى) جملة مستأنفة وقعت عن سؤال نشأ عن الاخبار بعدم سجوده كأنه قيل ماباله لم يسجد فقيل أبى واستكبر ومفعول أبى اما محذوف أى أبى السجود كما فى قوله تعالى «أبى أن يكون مع الساجدين» أو غير منوى رأسا بتنزيله منزلة اللازم أى فعل الاباء وأظهره (فقلنا) عقيب ذلك اعتناء بنصحه (يا آدم إن هذا) الذى رأيت مافعل (عدولك ولزوجك فلا يخرجنكما) أى لا يكونن سببا لاخراجكما (من الجنة) والمراد نهيهما عن أن يكونا بحيث يتسبب الشيطان الى اخراجهما منها بالطريق البرهانى كما فى قولك لا أرينك ههنا. والفاء لترتيب موجب النهى على عداوته لهما أو على الاخبار بها (فتشقى) جواب للنهى. واسناد الشقاء اليه خاصة بعد تعليق الاخراج الموجب له بهما معا لاصالته فى الامور واستلزام شقائه لشقائها مع مافيه من مراعاة الفواصل وقيل المراد بالشقاء التعب فى تحصيل مبادى المعاش وذلك من وظائف الرجال (ان لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى) تعليل لما يوجبه النهى فان اجتماع أسباب الراحة مما يوجب المبالغة فى الاهتمام بتحصيل مبادى البقاء فيها والجد فى الانتهاء عما يؤدى الى الخروج عنها والعدول عن التصريح بان له عليه السلام فيها تنعما بفنون النعم من المآكل والمشارب وتمتعا بأصناف الملابس البهية والمساكن المرضية مع أن فيه من الترغيب فى البقاء فيها مالا يخفى الى ماذكر من نفي نقائضها التى هى الجوع والعطش والعرى والضحو لتذكير تلك الامور المنكرة والتنبيه على مافيها من أنواع الشقوة التى حذره عنها ليبالغ فى التحامى عن السبب المؤدى اليها على أن الترغيب قد حصل بما سوغ له من التمتع بجميع مافيها سوى مااستثنى من الشجرة حسبما نطق به قوله تعالى «ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما» وقد طوى ذكره ههنا اكتفاء بماذكر فى موضع آخر واقتصر على ماذكر من الترغيب المتضمن للترهيب ومعنى أن لا تجوع الخ أن لا يصيبه شئ من الامور الاربعة أصلا فان الشبع والرى والكسوة والكن قد تحصل بعد عروض أضدادها باعواز الطعام والشراب واللباس والمسكن وليس الامر فيها كذلك بل كل ماوقع فيها شهوة وميل الى شىء من الامور المذكورة تمتع به من غير أن يصل الى حد الضرورة. ووجه افراده عليه السلام بماذكر ما مر آنفا. وفصل الظمأ عن الجوع فى الذكر مع تجانسهما

وتقار بهما فى الذكر عادة وكذا حال العرى والضحو المتجانسين لتوفية مقام الامتنان حقه بالاشارة الي نفى كل واحد من تلك الامور نعمة على حيالها ولو جمع بين الجوع والظمأ لربما توهم أن نفيهما نعمة واحدة وكذا الحال فى الجمع بين العرى والضحو على منهاج قصة البقرة ولزيادة التقرير بالتنبيه على أن نفى كل واحد من الامور المذكورة مقصود بالذات مذكور بالاصالة لا أن نفى بعضها مذكور بطريق الاستطراد والتبعية لنفى بعض آخر كما عسى يتوهم لو جمع بين كل من المتجانسين . وقرىء إنك بالكسر والجمهور على الفتح بالعطف على أن لا تجوع وصحة وقوع الجملة المصدرة بان المفتوحة اسما للمكسورة المشاركة لها فى إفادة التحقيق مع امتناع وقوعها خبراً لها لما أن المحذور اجتماع حرفى التحقيق فى مادة واحدة ولا اجتماع فيما نحن فيه لاختلاف مناط التحقيق فيما فى حيزهما بخلاف ما لو وقعت خبراً لها فان اتحاد المناط حينئذ مما لاريب فيه بيانه أن كل واحدة من المكسورة والمفتوحة موضوعة لتحقيق مضمون الجملة الخبرية المنعقدة من اسمها وخبرها ولا يخفى أن مرجع خبريتها ما فيها من الحكم الايجابي أو السلبي وأن مناط ذلك الحكم خبرها لا اسمها فمدلول كل منهما تحقيق ثبوت خبرها لاسمها لا ثبوت اسمها فى نفسه فاللازم من وقوع الجملة المصدرة بالمفتوحة اسماً للمكسورة تحقيق ثبوت خبرها لتلك الجملة المؤولة بالمصدر . وأما تحقيق ثبوتها فى نفسها فهو مدلول المفتوحة حتما فلم يلزم اجتماع حرفى التحقيق فى مادة واحدة قطعا وانما لم يجوزوا أن يقال إن أن زيداً قائم حق مع اختلاف المناط بل شرطوا الفصل بالخبر كقولنا ان عندى أن زيداً قائم للتجافى عن صورة الاجتماع والواو العاطفة وان كانت نائبة عن المكسورة التى يمتنع دخولها على المفتوحة بلا فصل وقائمة مقامها فى افضاء معناها واجراء أحكامها على مدخولها لكنها حيث لم تكن حرفا موضوعاً للتحقيق لم يلزم من دخولها على المفتوحة اجتماع حرفى التحقيق أصلا فالمعنى ان لك عدم الجوع وعدم العرى وعدم الظمأ خلا أنه لم يقتصر على بيان أن الثابت له عليه السلام عدم الظمأ والضحو مطلقا كما فعل مثله فى المعطوف عليه بل قصد بيان أن الثابت له عليه السلام تحقيق عدمهما فوضع موضع الحرف المصدرى المحض أن المفيدة له كأنه قيل إن لك فيها عدم ظمئك على التحقيق (فوسوس اليه الشيطان) أى أنهى اليه وسوسته أو أسرها اليه (قال) اما بدل من وسوس أو استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ منه كأنه قيل فماذا قال فى وسوسته فقيل قال (يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد) أى شجرة من أكل منها خلد ولم يمت أصلا سواء كان على حاله أو بأن يكون

ملكا لقوله تعالى «الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين» (وملك لايبلى) أى لا يزول ولا يختل بوجه من الوجوه (فأكلامنهافبدت لهماسوآتهما) قال ابن عباس رضى الله عنهما عريا عن النور الذى كان الله تعالى ألبسهما حتى بدت فروجهما (وطفقا يخصفان عليهمامن ورق الجنة) قد مر تفسيره فى سورة الاعراف (وعصى آدم ربه) بما ذكر من أكل الشجرة (فغوى) ضل عن مطلوبه الذى هو الخلود أو عن المأمور به أو عن الرشد حيث اغتر بقول العدو. وقرئ فغوى من غوى الفصيل اذا اتخم من اللبن. وفى وصفه عليه السلام بالعصيان والغواية مع صغر زلته تعظيم لها وزجر بليغ لاولاده عن أمثالها (ثم اجتباه ربه) أى اصطفاه وقربه اليه بالحمل على التوبة والتوفيق لها من اجتبى الشئ بمعنى جباه لنفسه أى جمعه كقولك اجتمعته أو من جى الى كذا فاجتبيته مثل جليت على العروس فاجتليتها وأصل الكلمة الجمع. وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام مزيد تشريف له عليه السلام (فتاب عليه) أى قبل توبته حين تاب هو وزوجته قائلين « ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » وافراده عليه السلام بالاجتباء وقبول التوبة قدمر وجهه (وهدى) أى الى الثبات على التوبة والتمسك باسباب العصمة (قال) استئناف مبنى على سؤال نشأ من الاخبار بانه تعالى قبل توبته وهداه كانه قيل فماذا أمره تعالى بعد ذلك فقيل قال له ولزوجته (اهبطا منها جميعا) أى انزلا من الجنة الى الارض وقوله تعالى (بعضكم لبعض عدو) حال من ضمير المخاطب فى اهبطا والجمع لما أنهما أصل الذرية ومنشأ الاولاد أى متعادين فى أمر المعاش كما عليه الناس من التجاذب والتحارب (فاما يأتينكم منى هدى) من كتاب ورسول (فمن اتبع هداى) وضع الظاهر موضع المضمر مع الاضافة الى ضميره تعالى لتشريفه والمبالغة فى إيجاب اتباعه (فلا يضل) فى الدنيا (ولا يشقى) فى الآخرة (ومن أعرض عن ذكرى) أى عن الهدى الذاكرلى والداعى الى (فأن له) فى الدنيا (معيشة ضنكا) ضيقا مصدر وصف به ولذلك يستوى فيه المذكر والمؤنث. وقرئ ضنكى كسكرى وذلك لان مجامع همته ومطامح نظره مقصورة على أعراض الدنيا وهو متهالك على ازديادها وخائف من انتقاصها بخلاف المؤمن الطالب للآخرة مع انه قد يضيق الله تعالى بشؤم الكفر ويوسع ببركة الايمان كما قال تعالى « وضربت عليهم الذلة والمسكنة » وقال تعالى « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض » وقال تعالى « ولو أن أهل الكتاب آمنوا » الى قوله تعالى « لأكلوا من فوقهم ومن تحت

أرجلهم وقيل هو الضريع والزقوم فى النار وقيل عذاب القبر (ونحشره) وقرىء بسكون الهاء على لفظ الوقف وبالجزم عطفا على محل «فان له معيشة ضنكا» لأنه جواب الشرط (يوم القيامة أعمى) فاقد البصر كما فى قوله تعالى «ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما» لا أعمى عن الحجة كما قيل (قال) استئناف كما مر (رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا) أي فى الدنيا وقرئ أعمى بالامالة فى الموضعين وفى الاول فقط لكونه جديرا بالتغيير لكونه رأس الآية ومحل الوقف (قال كذلك) أي مثل ذلك فعلت أنت ثم فسره بقوله تعالى (أتتك آياتنا) واضحة نيرة بحيث لا تخفى على أحد (فنسيتها) اى عميت عنها وتركتها ترك المنسى الذى لا يذكر أصلا (وكذلك) ومثل ذلك النسيان الذى كنت فعلته فى الدنيا (اليوم تنسى) تترك فى العمى والعذاب جزاء وفاقا لكن لا أبدا كما قيل بل الى ماشاء الله ثم يزيله عنه فيرى أهوال القيامة ويشاهد مقعده من النار ويكون ذلك له عذابا فوق العذاب وكذا البكم والصمم يزيلهما الله تعالى عنهم «أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا» (وكذلك) أي مثل ذلك الجزاء الموافق للجناية (نجزى من أسرف) بالانهماك فى الشهوات (ولم يؤمن بآيات ربه) بل كذبها وأعرض عنها (ولعذاب الآخرة) على الاطلاق أو عذاب النار (اشد وأبقى) اى من ضنك العيش أو منه ومن الحشر على العمى (أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون) كلام مستأنف مسوق لتقرير ماقبله من قوله تعالى «وكذلك نجزى» الآية والهمزة للانكار التوبيخى والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام واستعمال الهداية باللام اما لتنزيلها منزلة اللازم فلا حاجة الى المفعول أو لانها بمعنى التبيين والمفعول محذوف وأياما كان فالفاعل هو الجملة بمضمونها ومعناها وضمير لهم للمشركين المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمعنى أغفلوا فلم يفعل الهداية لهم أو فلم يبين لهم مآل أمرهم كثرة هلاكنا للقرون الاولى وقد مر فى قوله عز وجل «أو لم يهد للذين يرثون الارض من بعد أهلها» الآية وقيل الفاعل الضمير العائد الى الله عز وجل ويؤيده القراءة بنون العظمة وقوله تعالى «كم أهلكنا» الخ اما معلق للفعل ساد مسد مفعوله أو مفسر لمفعوله المحذوف هكذا قيل. والأوجه أن لا يلاحظ له مفعول كأنه قيل أفلم يفعل الله تعالى لهم الهداية ثم قيل بطريق الالتفات كم أهلكنا الخ بيانا لتلك الهداية. ومن القرون فى محل النصب على انه وصف لمميز كم أى كم قرنا كائنا من القرون وقوله تعالى (يمشون فى مساكنهم) حال من القرون أو من مفعول أهلكنا أى أهلكناهم وهم فى حال أمن وتقلب فى ديارهم أو من الضمير فى لهم مؤكد للانكار والعامل يهد والمعنى أفلم يهد لهم اهلاكنا للقرون

السالفة من أصحاب الحجر وثمود وقريات قوم لوط حال كونهم ماشين فى مساكنهم اذا سافروا الى الشأم مشاهدين لآثار هلاكهم مع أن ذلك مما يوجب ان يهتدوا الى الحق فيعتبروا لئلا يحل بهم مثل ما حل بأولئك. وقرىء يمشون على البناء للمفعول أى يمكنون من المشى (ان فى ذلك) تعليل للانكار وتقرير للهداية مع عدم اهتدائهم وذلك اشارة الى مضمون قوله تعالى «كم أهلكنا» الخ وما فيه من معنى البعد للاشعار ببعد منزلته وعلو شأنه فى بابه (لآيات) كثيرة عظيمة واضحات الهداية ظاهرات الدلالة على الحق فاذن هو هاد وأيما هاد. ويجوز أن تكون كلمة فى تجريدية فافهم (لأولى النهى) لذوى العقول الناهية عن القبائح التى من أقبحها ما يتعاطاه كفار مكة من الكفر بآيات الله تعالى والتعامى عنها وغير ذلك من فنون المعاصى. وفيه دلالة على أن مضمون الجملة هو الفاعل لا المفعول وقوله تعالى (ولولا كلمة سبقت من ربك) كلام مستأنف سيق لبيان حكمة عدم وقوع ما يشعر به قوله تعالى «أفلم يهد لهم» الآية من أن يصيبهم مثل ما أصاب القرون المهلكة أى ولولا الكلمة السابقة وهى العدة بتأخير عذاب هذه الامة الى الآخرة لحكمة تقتضيه ومصلحة تستدعيه (لكان) عقاب جناياتهم (لزاما) أى لازما لهؤلاء الكفرة بحيث لا يتأخر عن جناياتهم ساعة لزوم ما نزل بأولئك الغابرين. وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام تلويح بان ذلك التأخير لتشريفه عليه السلام كما ينبىء عنه قوله تعالى «وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم» واللزام اما مصدر لازم وصف به مبالغة وأما فعال بمعنى مفعل جعل آلة اللزوم لفرط لزومه كما يقال لزاز خصم (وأجل مسمى) عطف على كلمة أى ولولا أجل مسمى لاعمارهم أو لعذابهم وهو يوم القيامة ويوم بدر لما تأخر عذابهم أصلا. وفصله عما عطف عليه للمسارعة الى بيان جواب لولا وللاشعار باستقلال كل منهما بنفى لزوم العذاب ومراعاة فواصل الآى الكريمة وقد جوز عطفه على المستكن فى كان العائد الى الاخذ العاجل المفهوم من السياق تنزيلا للفصل بالخبر منزلة التأكيد أى لكان الأخذ العاجل وأجل مسمى لازمين لهم كدأب عاد وثمود وأضرابهم ولم ينفرد الاجل المسمى دون الاخذ العاجل (فاصبر على ما يقولون) أى اذا كان الامر على ما ذكر من أن تأخير عذابهم ليس باهمال بل امهال وأنه لازم لهم ألبتة فاصبر على ما يقولون من كلمات الكفر فان علمه عليه السلام بانهم معذبون لا محالة مما يسليه ويحمله على الصبر (وسبح) ملتبسا (بحمد ربك) أى صل وأنت حامد لربك الذى يبلغك الى كمالك على هدايته وتوفيقه أو نزهه

تعالى عما ينسبونه اليه مما لا يليق بشأنه الرفيع حامدا له على ماميزك بالهدى معترفا بأنه مولى النعم كلها والاول هو الاظهر المناسب لقوله تعالى (قبل طلوع الشمس) الخ فان توقيت التنزيه غير معهود فالمراد صلاة الفجر (وقبل غروبها) يعنى صلاتى الظهر والعصر لانهما قبل غروبها بعد زوالها و جمعهما لمناسبة قوله تعالى « قبل طلوع الشمس » وقبل صلاة العصر (ومن آناء الليل) أى من ساعاته جمع إنى بالكسر والقصر وأناء بالفتح والمد (فسبح) اى فصل والمراد به المغرب والعشاء وتقديم الوقت فيهما لاختصاصهما بمزيد الفضل فان القلب فيهما أجمع والنفس الى الاستراحة أميل فتكون العبادة فيهما أشق ولذلك قال تعالى « ان ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا » (وأطراف النهار) تكرير لصلاة الفجر والمغرب ايذانا باختصاصهما بمزيد مزية ومجيئه بلفظ الجمع لامن الالباس كقول من قال ، ظهراهما مثل ظهور الترسين » أو أمر بصلاة الظهر فانه نهاية النصف الاول من النهار وبداية النصف الاخير وجمعه باعتبار النصفين او لان النهار جنس أو أمر بالتطوع فى اجزاء النهار (لعلك ترضى) متعلق بسبح أى سبح فى هذه الاوقات رجاء أن تنال عنده تعالى ماترضى به نفسك وقرىء ترضى على صيغة البناء للمفعول من أرضى أى يرضيك ربك (ولا تمدن عينيك) أى لا تطل نظرهما بطريق الرغبة والميل (الى ما متعنا به) من زخارف الدنيا وقوله تعالى (أزواجاً منهم) أى أصنافا من الكفرة مفعول متعنا قدم عليه الجار والمجرور للاعتناء به أو هو حال من الضمير والمفعول منهم أى الى الذى متعنا به وهو أصناف وأنواع بعضهم على أنه معنى من التبعيضية . أو بعضاً منهم على حذف الموصوف كما مر مرارا (زهرة الحياة الدنيا) منصوب بمحذوف يدل عليه متعنا أى أعطينا أو به على تضمين معناه أو بالبدلية من محل به أو من أزواجا بتقدير مضاف أو بدونه أو بالذم وهى الزينة والبهجة وقرىء زهرة بفتح الهاء وهى لغة كالجهرة فى الجهرة أو جمع زاهر وصف لهم بأنهم زاهرو الدنيا لتنعمهم وبهاء زيهم بخلاف ما عليه المؤمنون الزهاد (لنفتنهم فيه) متعلق بمتعنا جيء به للتنفير عنه ببيان سوء عاقبته مآلا اثر اظهار بهجته حالا أى لنعاملهم معاملة من يبتليهم ويختبرهم فيه أو لنعذبهم فى الآخرة بسببه (ورزق ربك) أى ما ادخر لك فى الآخرة أو ما رزقك فى الدنيا من النبوة والهدى (خير) مما منحهم فى الدنيا لانه مع كونه فى نفسه أجل ما يتنافس فيه المتنافسون مأمون الغائلة بخلاف ما منحوه (وأبقى) فانه لا يكاد ينقطع نفسه أو أثره أبدا كما عليه زهرة الدنيا (وأمر أهلك بالصلوة) أمر عليه السلام بأن يأمر أهل بيته أو التابعين

له من أمته بالصلاة بعد ما أمر هو بها ليتعاونوا على الاستعانة على خصاصتهم ولا يهتموا بأمر المعيشة ولا يلتفتوا لفت أرباب الثروة (واصطبر عليها) وثابر عليها غير مشتغل بأمر المعاش (لا نسألك رزقا) أى لا نكلفك أن ترزق نفسك ولا أهلك (نحن نرزقك) واياهم ففرغ بالك بأمر الآخرة (والعاقبة) الحميدة (للتقوى) أى لاهل التقوى على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه تنبيهاً على أن ملاك الامر هو التقوى . روى انه عليه السلام كان اذا أصاب أهله ضر أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية (وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه) حكاية لبعض أقاويلهم الباطلة التى أمر عليه السلام بالصبر عليها أى هلا يأتينا بآية تدل على صدقه فى دعوى النبوة أو بآية مما اقترحوها . بلغوا من المكابرة والعناد الى حيث لم يعدوا ما شاهدوا من المعجزات التي تخر لها صم الجبال من قبيل الآيات حتى اجترءوا على التفوه بهذه العظيمة الشنعاء وقوله تعالى (أولم تأتهم بينة ما فى الصحف الاولى) أى التوراة والانجيل وسائر الكتب السماوية رد من جهته عز وعلا لمقالتهم القبيحة وتكذيب لهم فيما دسوا تحتها من انكار اتيان الآية باتيان القرآن الكريم الذى هو أم الآيات وأس المعجزات وأعظمها وأبقاها لان حقيقة المعجزة اختصاص مدعى النبوة بنوع من الامور الخارقة للعادات أى أمر كان ولا ريب فى أن العلم أجل الامور وأعلاها اذ هو أصل الاعمال ومبدأ الافعال ولقد ظهر مع حيازته لجميع علوم الاولين والآخرين على يد أمى لم يمارس شيئاً من العلوم ولم يدارس أحداً من أهلها أصلا فاى معجزة تراد بعد وروده وأى آية ترام مع وجوده . وفى ايراده بعنوان كونه بينة لما فى الصحف الاولى من التوراة والانجيل وسائر الكتب السماوية أى شاهدا بحقية ما فيها من العقائد الحقة وأصول الاحكام التى أجمعت عليها كافة الرسل وبصحة ما تنطق به من أنباء الامم من حيث انه غنى باعجازه عما يشهد بحقيته حقيق باثبات حقية غيره مالا يخفى من تنويه شأنه وانارة برهانه ومزيد تقرير وتحقيق لاتيانه . واسناد الاتيان اليه مع جعلهم اياه مأتيا به للتنبيه على اصالته فيه مع ما فيه من المناسبة للبينة . والهمزة لانكار الوقوع والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام كانه قيل ألم يأتهم سائر الآيات ولم تأتهم خاصة بينة ما فى الصحف الاولى تقريراً لاتيانه وايذانا بأنه من الوضوح بحيث لا يتأتى منهم انكاره أصلا وان اجترءوا على انكار سائر الآيات مكابرة وعنادا . وقرئ أولم يأتهم بالياء التحتانية . وقرئ الصحف بالسكون تخفيفا وقوله تعالى (ولو أنا أهلكناهم بعذاب) الى آخر الآية جملة مستأنفة سيقت لتقرير ماقبلها من كون القرآن آية بينة لا يمكن

انكارها ببيان انهم يعترفون بها يوم القيامة والمعنى لو أنا أهلكناهم فى الدنيا بعذاب مستأصل (من قبله) متعلق بأهلكنا أو بمحذوف هو صفة لعذاب أى بعذاب كائن من قبل إتيان البينة أو من قبل محمد عليه الصلاة والسلام (لقالوا) أى يوم القيامة (ربنا لولا أرسلت الينا) فى الدنيا (رسولا) مع كتاب (فنتبع آياتك)التى جاءنا بها (من قبل أن نذل) بالعذاب فى الدنيا (ونخزي) بدخول النار اليوم ولكنا لم نهلكهم قبل اتيانها فانقطعت معذرتهم فعند ذلك قالوا «بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء» (قل) لاولئك الكفرة المتمردين (كل) أى كل واحد منا ومنكم (متربص) منتظر لما يؤول اليه أمركم (فتربصوا)وقرىء فتمتعوا فستعلمون عن قريب (من أصحاب الصراط السوى) أى المستقيم. قرىء السواء أى الوسط الجيد، وقرىء السوء والسوءى والسوى تصغير السوء (ومن اهتدى) من الضلالة. ومن فى الموضعين استفهامية محلها الرفع بالابتداء خبرها مابعدها والجملة سادة مسد مفعولى العلم أو مفعوله ويجوز كون الثانية موصولة بخلاف الاولى لعدم العائد فتكون معطوفة على محل الجملة الاستفهامية المعلق عنها الفعل على أن العلم بمعنى المعرفة أو على أصحاب أو على الصراط وقيل العائد فى الاولى محذوف والتقدير من هم أصحاب الصراط . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة طه أعطى يوم القيامة ثواب المهاجرين والانصار . وقال لا يقرأ أهل الجنة من القرآن الا سورة طه ويس .

(سورة الانبياء مكية)

وهى مائة واثنتا عشرة آية

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(اقترب للناس حسابهم) مناسبة هذه الفاتحة الكريمة لما قبلها من الخاتمة الشريفة غنية عن البيان قال ابن عباس رضى الله عنهما المراد بالناس المشركون وهو الذى يفصح عنه مابعده والمراد باقتراب حسابهم اقترابه فى ضمن اقتراب الساعة. واسناد الاقتراب اليه لا الى الساعة مع استتباعها له ولسائر ما فيها من الاحوال والاهوال الفظيعة لانسياق الكلام الى بيان غفلتهم عنه واعراضهم عما يذكرهم ذلك . واللام متعلقة بالفعل . وتقديمها على الفاعل للمسارعة الى ادخال الروعة فان نسبة الاقتراب اليهم من أول الامر مما يسوءهم ويورثهم رهبة وانزعاجا من المقترب كما أن تقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح فى قوله تعالى « هو الذى

خلق لكم مافى الارض » لتعجيل المسرة لما أن بيان كون الخلق لاجل المخاطبين مما يسرهم ويزيدهم رغبة فيما خلق لهم وشوقا اليه . وجعلها تأكيداً للاضافة على أن الاصل المتعارف فيما بين الاوساط اقترب حساب الناس ثم اقترب للناس الحساب ثم اقترب للناس حسابهم مع انه تعسف تام بمعزل عما يقتضيه المقام وانما الذى يستدعيه حسن النظام ما قدمناه والمعنى دنا منهم حساب أعمالهم السيئة الموجبة للعقاب . وفى اسناد الاقتراب المنبىء عن التوجه نحوهم الى الحساب مع امكان العكس بأن يعتبر التوجه والاقبال من جهتهم نحوه من تفخيم شأنه وتهويل أمره مالا يخفى لما فيه من تصويره بصورة شىء مقبل عليهم لا يزال يطالبهم ويصيبهم لامحالة . ومعنى اقترابه لهم تقاربه ودنوه منهم بعد بعده عنهم فانه فى كل ساعة من ساعات الزمان أقرب اليهم منه فى الساعة السابقة هذا . وأما الاعتذار بأن قربه بالاضافة الى ما مضى من الزمان أو بالنسبة الى الله عز وجل أو باعتبار أن كل آت قريب فلا تعلق له بما نحن فيه من الاقتراب المستفاد من صيغة الماضى ولا حاجة اليه فى تحقيق أصل معناه نعم قد يفهم منه عرفا كونه قريباً فى نفسه أيضاً فيصار حينئذ الى التوجيه بالوجه الاول دون الآخرين أما الثانى فلا سبيل الى اعتباره ههنا لان قربه بالنسبة اليه تعالى ممالا يتصور فيه التجدد والتفاوت حتما وانما اعتباره فى قوله تعالى « لعل الساعة قريب » ونظائره ممالا دلالة فيه على الحدوث وأما الثالث فلا دلالة فيه على القرب حقيقة ولو بالنسبة الى شىء آخر (وهم فى غفلة) أى فى غفلة تامة منه ساهون عنه بالمرة لا أنهم غير مبالين به مع اعترافهم باتيانه بل منكرون له كافرون به مع اقتضاء عقولهم أن الاعمال لابد لها من الجزاء (معرضون) أى عن الآيات والنذر المنبهة لهم عن سنة الغفلة وهما خبران للضمير وحيث كانت الغفلة أمرا جبليا لهم جعل الخبر الاول ظرفا منبئاً عن الاستقرار بخلاف الاعراض والجملة حال من الناس وقد جوز كون الظرف حالا من المستكن فى معرضون (ما يأتيهم من ذكر) من طائفة نازلة من القرآن تذكرهم ذلك أكمل تذكير وتنبهم عن الغفلة أتم تنبيه كانها نفس الذكر ومن فى قوله تعالى (من ربهم) لابتداء الغاية مجازاً متعلقة بيأتيهم أو بمحذوف هو صفة لذكر وأياً ما كان ففيه دلالة على فضله وشرفه وكمال شناعة ما فعلوا به . والتعرض لعنوان الربوبية لتشديد التشنيع (محدث) بالجر صفة لذكر وقرىء بالرفع حملا على محله أى محدث تنزيله بحسب اقتضاء الحكمة وقوله تعالى (الا استمعوه) استثناء مفرغ محله النصب على انه حال من مفعول يأتيهم باضمار قد أو بدونه على الخلاف المشهور وقوله تعالى (وهم يلعبون)

حال من فاعل استمعوه وقوله تعالى (لاهية قلوبهم) اما حال أخرى منه أومن واو يلعبون والمعنى ما يأتيهم ذكر من ربهم محدث فى حال من الاحوال الاحال استماعهم اياه لاعبين مستهزئين به لاهين عنه أولاعبين به حال كون قلوبهم لاهية عنه لتناهى غفلتهم وفرط اعراضهم عن النظر فى الامور والتفكر فى العواقب وقرئ لاهية بالرفع على أنه خبر بعد خبر (وأسروا النجوى) كلام مستأنف مسوق لبيان جناية خاصة اثر حكاية جناياتهم المعتادة. والنجو اسم من التناجي ومعنى اسرارها مع أنها لا تكون إلاسرا أنهم بالغوا فى اخفائها أو أسروا نفس التناجي بحيث لم يشعر أحد بانهم متناجون وقوله تعالى (الذين ظلموا) بدل من واو أسروا منبئ عن كونهم موصوفين بالظلم الفاحش فيما أسروا به أو هو مبتدأ خبره أسروا النجو قدم عليه اهتماما به والمعنى هم أسروا النجوى فوضع الموصول موضع الضمير تسجيلا على فعلهم بكونه ظلما أومنصوب على الذم وقوله تعالى (هل هذا الا بشر مثلكم) الخ فى حيز النصب على انه مفعول لقول مضمر هو جواب عن سؤال نشأ عما قبله كانه قيل ماذا قالوا فى نجواهم فقيل قالوا هل هذا الخ أو بدل من أسروا أو معطوف عليه أو على أنه بدل من النجوى أى أسروا هذا الحديث وهل بمعنى النفى والهمزة فى قوله تعالى (أفتأتون السحر)للانكار والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام وقوله تعالى (وأنتم تبصرون) حال من فاعل تأتون مقررة للانكار ومؤكدة للاستبعاد والمعني ماهذا الا بشر مثلكم أى من جنسكم وماأتى به سحر أتعلمون ذلك فتأتونه وتحضرونه على وجه الاذعان والقبول وأنتم تعاينون انه سحر قالوه بناء على ماارتكز فى اعتقادهم الزائغ أن الرسول لايكون الاملكا وان كل ما يظهر على يد البشر من الخوارق من قبيل السحر وزل عنهم أن ارسال البشر الى عامة البشر هو الذى تقتضيه الحكمة التشريعية قاتلهم الله أنى يؤفكون وانما أسروا ذلك لانه كان على طريق توثيق العهد وترتيب مبادى الشر والفساد وتمهيد مقدمات المكر والكيد فى هدم أمر النبوة واطفاء نور الدين والله متم نوره ولو كره الكافرون (قال ربى يعلم القول فى السماء والارض) حكاية من جهته تعالى لماقاله عليه السلام بعد ما أوحى اليه أحوالهم وأقوالهم بيانا لظهور أمرهم وانكشاف سرهم وايثار القول المنتظم للسر والجهر على السر لاثبات علمه تعالى بالسر على النهج البرهانى مع مافيه من الايذان بان علمه تعالى بالسر والجهر على وتيرة واحدة لا تفاوت بينهما بالجلاء والخفاء قطعا كما فى علوم الخلق. وقرئ قل ربى الخ وقوله تعالى فى السماء والارض متعلق بمحذوف وقع حالا من القول أى كائنا فى السماء والارض وقوله تعالى (وهو السميع العليم) أى المبالغ فى العلم بالمسموعات والمعلومات التى من جملتها ماأسروه

من النجوى فيجازيهم بأقوالهم وأفعالهم اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ماقبله متضمن للوعيد (بل قالوا أضغاث أحلام) اضراب من جهته تعالى وانتقال من حكاية قولهم السابق الى حكاية قول آخر مضطرب فى مسالك البطلان أى لم يقتصروا على أن يقولوا فى حقه عليه السلام هل هذا الا بشر وفى حق ما ظهر على يده من القرآن الكريم انه سحر بل قالوا تخاليط الاحلام ثم أضربوا عنه فقالوا (بل افتراه) من تلقاء نفسه من غير أن يكون له أصل أو شبهة أصل ثم قالوا (بل هو شاعر) وما أتى به شعر يخيل الى السامع معانى لا حقيقة لها وهكذا شأن المبطل المحجوج متحير لا يزال يتردد بين باطل وأبطل ويتذبذب بين فاسد وأفسد . فالاضراب الأول كما ترى من جهته تعالى والثانى والثالث من قبلهم وقد قيل الكل من قبلهم حيث أضربوا عن قولهم هو سحر الى انه تخاليط أحلام ثم الى أنه كلام مفترى ثم الى أنه قول شاعر ولا ريب فى انه كان ينبغي حينئذ أن يقال قالوا بل أضغاث أحلام والاعتذار بأن بل قالوا مقول لقالوا المضمر قبل قوله تعالى هل هذا الا بشر الخ كانه قيل وأسروا النجوى قالوا هل هذا الى قوله بل أضغاث أحلام وانما صرح بقالوا بعد بل لبعد العهد مما يجب تنزيه ساحة التنزيل عن أمثاله (فليأتنا بآية) جواب شرط محذوف يفصح عنه السياق كانه قيل وان لم يكن كما قلنا بل كان رسولا من الله تعالى فليأتنا بآية (كما أرسل الاولون) أى مثل الآية التى أرسل بها الأولون كاليد والعصا ونظائرهما حتى نؤمن به فما موصولة ومحل الكاف الجر على أنها صفة لآية . ويجوز أن تكون مصدرية فالكاف منصوبة على انها مصدر تشبيهي أى نعت لمصدر محذوف أى فليأتنا بآية إتيانا كائنا مثل ارسال الأولين بها وصحة التشبيه من حيث ان الاتيان بالآية من فروع الارسال بها أى مثل اتيان مترتب على الارسال . ويجوز ان يحمل النظم الكريم على انه أريد كل واحد من الاتيان والارسال فى كل واحد من طرفى التشبيه لكنه ترك فى جانب المشبه ذكر الارسال وفى جانب المشبه به ذكر الاتيان اكتفاء بما ذكر فى كل موطن عما ترك فى الموطن الآخر حسبما مر فى آخر سورة يونس عليه السلام (ما آمنت قبلهم من قرية) كلام مستأنف مسوق لتكذيبهم فيما تنبئ عنه خاتمة مقالهم من الوعد الضمنى بالايمان كما أشير اليه وبيان انهم فى اقتراح تلك الآيات كالباحث عن حتفه بظلفه وأن فى ترك الاجابة اليه ابقاء عليهم كيف لا ولو أعطوا ما اقترحوا مع عدم ايمانهم قطعا لوجب استئصالهم لجريان سنة الله عز وجل فى الامم السالفة على ان المقترحين اذا أعطوا ما اقترحوه ثم لم يؤمنوا نزل بهم عذاب الاستئصال لا محالة

وقد سبقت كلمة الحق منه تعالى ان هذه الامة لا يعذبون بعذاب الاستئصال فقوله من قرية أي من أهل قرية في محل الرفع على الفاعلية ومن مزيدة لتأكيد العموم وقوله تعالى (أهلكناها) أي باهلاك أهلها لعدم ايمانهم بعد مجيء ما اقترحوه من الآيات صفة لقرية والهمزة في قوله تعالى (أفهم يؤمنون) لانكار الوقوع والفاء للعطف اما على مقدر دخلته الهمزة فأفادت انكار وقوع ايمانهم ونفيه عقيب عدم ايمان الاولين فالمعنى انه لم تؤمن أمة من الامم المهلكة عند اعطاء ما اقترحوه من الآيات أهم لم يؤمنوا فهؤلاء يؤمنون لو أجيبوا الى ماسألوا وأعطوا ما اقترحوا مع كونهم اعتى منهم وأطغى واما على ما آمنت على أن الفاء متقدمة على الهمزة في الاعتبار مفيدة لترتيب انكار وقوع ايمانهم على عدم ايمان الاولين وانما قدمت عليها الهمزة لاقتضائها الصدارة كما هو رأي الجمهور وقوله عز وجل (وما أرسلنا قبلك الا رجالا) جواب لقولهم هل هذا إلا بشر الخ متضمن لرد ما دسوا تحت قولهم كما أرسل الاولون من التعريض بعدم كونه عليه السلام مثل أولئك الرسل صلوات الله تعالى عليهم أجمعين ولذلك قدم عليه جواب قولهم فليأتنا بآية ولانهم قالوا ذلك بطريق التعجيز فلا بد من المسارعة الى رده وابطاله كما مر في تفسير قوله تعالى «قال انما يأتيكم به الله ان شاء وما أنتم بمعجزين» وقوله تعالى «ما ننزل الملائكة الا بالحق وما كانوا اذا منظرين» ولان في هذا الجواب نوع بسط يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم. والحق أن ما اتخذوه سبباً للتكذيب موجب للتصديق في الحقيقة لان مقتضى الحكمة أن يرسل الى البشر البشر والى الملك الملك حسبما ينطق به قوله تعالى «قل لو كان في الارض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا» فان عامة البشر بمعزل من استحقاق المفاوضة الملكية لتوقفها على التناسب بين المفيض والمستفيض فبعث الملك اليهم مزاحم للحكمة التي عليها يدور فلك التكوين والتشريع وانما الذي تقتضيه الحكمة أن يبعث الملك منهم الى الخواص المختصين بالنفوس الزكية المؤيدين بالقوة القدسية المتعلقين بكلا العالمين الروحاني والجسماني ليتلقوا من جانب ويلقوا الى جانب آخر وقوله تعالى (نوحي اليهم) استئناف مبين لكيفية الارسال . وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية المستمرة وحذف المفعول لعدم القصد الى خصوصه والمعنى وما أرسلنا الى الامم قبل ارسالك الى أمتك الا رجالا مخصوصين من أفراد الجنس مستأهلين للاصطفاء والارسال نوحي اليهم بواسطة الملك ما نوحي من الشرائع والاحكام وغيرهما من القصص والاخبار كما نوحي اليك من غير فرق بينهما في حقيقة الوحي وحقية مدلوله حسبما يحكيه قوله

تعالى «انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين» الى قوله تعالى «وكلم الله موسى تكليما» كالا فرق بينك وبينهم فى البشرية فما لهم لا يفهمون انك لست بدعا من الرسل وأن ما أوحى اليك ليس مخالفاً لما أوحى اليهم فيقولون مايقولون . وقرىء يوحى اليهم بالياء على صيغة المبنى للمفعول جريا على سنن الكبرياء وايذانا بتعين الفاعل وقوله تعالى (فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون) تلوين للخطاب وتوجيه له الى الكفرة لتبكيتهم واستنزالهم عن رتبة الاستبعاد والنكير اثر تحقيق الحق على طريقة الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم لانه الحقيق بالخطاب فى أمثال تلك الحقائق الأنيقة وأما الوقوف عليها باستخبار من الغير فهو من وظائف العوام والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة المذكور عليه أى إن كنتم لا تعلمون ما ذكر فاسألوا أيها الجهلة أهل الكتاب الواقفين على أحوال الرسل السالفة عليهم الصلوات لتزول شبهتكم أمروا بذلك لان اخبار الجم الغفير يوجب العلم لاسيما وهم كانوا يشايعون المشركين فى عداوته عليه السلام ويشاورونهم فى أمره عليه السلام ففيه من الدلالة على كال وضوح الامر وقوة شأن النبى عليه السلام مالايخفى (وماجعلناهم جسدا) بيان لكون الرسل عليهم السلام أسوة لسائر أفراد الجنس فى أحكام الطبيعة البشرية اثر بيان كونهم أسوة لهم فى نفس البشرية والجسد جسم الانسان والجن والملائكة ونصبه اما على انه مفعول ثان للجعل لكن لا بمعنى جعله جسدا بعد أن لم يكن كذلك كما هو المشهور من معنى التصيير بل بمعنى جعله كذلك ابتداء على طريقة قولهم سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل كما مر فى قوله تعالى «وجعلنا آية النهار مبصرة» واما حال من الضمير والجعل ابداعى وافراده لارادة الجنس المنتظم للكثير أيضاً وقيل بتقدير المضاف اى ذوى جسد وقوله تعالى (لايأكلون الطعام) صفة له أى وماجعلناهم جسدا مستغنيا عن الاكل والشرب بل محتاجا الى ذلك لتحصيل بدل مايتحلل منه (وما كانوا خالدين) لان مآل التحلل هو الفناء لامحالة . وفى ايثار ما كانوا على ماجعلناهم تنبيه على أن عدم الخلود مقتضى جبلتهم التى أشير اليها بقوله تعالى وماجعلناهم الخ لا بالجعل المستأنف والمراد بالخلود اما المكث المديد كما هو شأن الملائكة أو الابدية وهم معتقدون انهم لايموتون والمعنى جعلناهم أجسادا متغذية صائرة الى الموت بالآخرة على حسب آجالهم لا ملائكة ولا أجسادا مستغنية عن الاغذية مصونة عن التحلل كالملائكة فلم يكن لها خلود كخلودهم فالجملة مقررة لما قبلها من كون الرسل السالفة عليهم السلام بشراً لا ملكا

مع مافى ذلك من الرد على قولهم مالهذا الرسول يأكل الطعام وقوله تعالى (ثم صدقناهم الوعد) عطف على مايفهم من حكاية وحيه تعالى اليهم على الاستمرار التجددى كأنه قيل أوحينا اليهم ما أوحينا ثم صدقناهم فى الوعد الذى وعدناهم فى تضاعيف الوحى بأهلاك أعدائهم (فأنجيناهم ومن نشاء) من المؤمنين وغيرهم ممن تستدعى الحكمة ابقاءه كمن سيؤمن هو أو بعض فروعه بالآخرة وهو السر فى حماية العرب من عذاب الاستئصال (وأهلكنا المسرفين) أى المجاوزين للحدود فى الكفر والمعاصى (لقد أنزلنا اليكم) كلام مستأنف مسوق لتحقيق حقية القرآن العظيم الذى ذكر فى صدر السورة الكريمة اعراض الناس عما يأتيهم من آياته واستهزاؤهم به وتسميتهم تارة سحرا وتارة أضغاث أحلام وأخرى مفتري وشعرا وبيان علو رتبته اثر تحقيق رسالته صلى الله عليه وسلم ببيان انه كسائر الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام قد صدر بالتوكيد القسمى اظهارا لمزيد الاعتناء بمضمونه وايذانا بكون المخاطبين فى أقصى مراتب النكير أى والله لقد أنزلنا اليكم يامعشر قريش (كتابا) عظيم الشأن نير البرهان وقوله تعالى (فيه ذكركم) صفة لكتابا مؤكدة لما أفاده التنكير التفخيمى من كونه جليل المقدار بأنه جميل الآثار مستجلب لهم منافع جليلة أى فيه شرفكم وصيتكم كقوله تعالى «وانه لذكر لك ولقومك» وقيل ماتحتاجون اليه فى أمور دينكم ودنياكم . وقيل فيه ماتطلبون به حسن الذكر من مكارم الاخلاق وقيل فيه موعظتكم وهو الانسب بسباق النظم الكريم وسياقه فان قوله تعالى (أفلا تعقلون) انكار توبيخى فيه بعث لهم على التدبر فى أمر الكتاب والتأمل فيما فى تضاعيفه من فنون المواعظ والزواجر التى من جملتها القوارع السابقة واللاحقة والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى ألا تتفكرون فلا تعقلون أن الأمر كذلك أو لا تعقلون شيئاً من الأشياء التى من جملتها ماذكر وقوله تعالى (وكم قصمنا من قرية) نوع تفصيل لاجمال قوله تعالى « وأهلكنا المسرفين » وبيان لكيفية اهلاكهم وسببه وتنبيه على كثرتهم وكم خبرية مفيدة للتكثير محلها النصب على أنها مفعول لقصمنا ومن قرية تمييز . وفى لفظ القصم الذى هو عبارة عن الكسر بأبانة أجزاء المكسور وازالة تأليفها بالكلية من الدلالة على قوة الغضب وشدة السخط مالايخفى وقوله تعالى (كانت ظالمة) فى محل الجر على أنها صفة لقرية بتقدير مضاف ينبىء عنه الضمير الآتى أى وكثيراً قصمنا من أهل قرية كانوا ظالمين بآيات الله تعالى كافرين بها كدأبكم (وأنشأنا بعدها) أى بعد إهلاكها (قوما آخرين) أى ليسوا منهم نسبا ولا ديناً ففيه تنبيه على استئصال الأولين وقطع دابرهم

بالكلية وهو السر فى تقديم حكاية انشاء هؤلاء على حكاية مبادى اهلاك أولئك بقوله تعالى (فلما أحسوا بأسنا) أى أدركوا عذابنا الشديد إدراكا تاماً كأنه أدراك المشاهد المحسوس (إذا هم منها يركضون) يهربون مسرعين راكضين دوابهم أو مشبهين بهم فى فرط الأسراع (لا تركضوا) أى قيل لهم بلسان الحال أو بلسان المقال من الملك أو ممن ثمة من المؤمنين بطريق الاستهزاء والتوبيخ لا تركضوا (وارجعوا إلى ما أترفتم فيه) من التنعم والتلذذ. والاتراف ابطار النعمة (ومساكنكم) التى كنتم تفتخرون بها (لعلكم تسئلون) تقصدون للسؤال والتشاور والتدبير فى المهمات والنوازل أو تتفقدون اذا رئيت مساكنكم خالية وتسألون أين أصحابها أو يسألكم الوافدون نوالكم على أنهم كانوا أسخياء ينفقون أموالهم رياء أو بخلاء فقيل لهم ذلك تهكما إلى تهكم (قالوا) لما يئسوا من الخلاص بالهرب وأيقنوا بنزول العذاب (ياويلنا) أى هلاكنا (إنا كنا ظالمين) أى مستوجبين للعذاب وهذا اعتراف منهم بالظلم وباستتباعه للعذاب وندم عليه حين لم ينفعهم ذلك (فما زالت تلك دعواهم) أى فما زالوا يرددون تلك الكلمة وتسميتها دعوى أى دعوة لان المولول كانه يدعو الويل قائلا ياويل تعال فهذا أوانك (حتى جعلناهم حصيداً) أى مثل الحصيد وهو المحصود من الزرع والنبت ولذلك لم يجمع (خامدين) أى ميتين من خمدت النار إذا طفئت وهو مع حصيداً فى حيز المفعول الثانى للجعل كقولك جعلته حلواً حامضاً والمعنى جعلناهم جامعين لمماثلة الحصيد والخمود أو حال من الضمير المنصوب فى جعلناهم أو من المستكن فى حصيداً أو صفة لحصيداً لتعدده معنى لانه فى حكم جعلناهم أمثال حصيد (وما خلقنا السماء والارض) اشارة اجمالية الى أن تكوين العالم وابداع بنى آدم مؤسس على قواعد الحكم البالغة المستتبعة للغايات الجليلة وتنبيه على أن ماحكى من العذاب الهائل والعقاب النازل باهل القرى من مقتضيات تلك الحكم ومتفرعاتها حسب اقتضاء أعمالهم اياه وأن للمخاطبين المقتدين بآثارهم ذنوبا مثل ذنوبهم أى ما خلقناهما (وما بينهما) من المخلوقات التى لاتحصى أجناسها وأفرادها ولا تحصر أنواعها وآحادها على هذا النمط البديع والاسلوب المنيع خالية عن الحكم والمصالح. وانما عبر عن ذلك باللعب واللهو حيث قيل (لاعبين) لبيان كمال تنزهه تعالى عن الخلق الخالى عن الحكمة بتصويره بصورة مالا يرتاب أحد فى استحالة صدوره عنه سبحانه بل انما خلقناهما وما بينهما لتكون مبدأ لوجود الانسان وسببا لمعاشه ودليلا يقوده الى تحصيل معرفتنا التى هي الغاية القصوى بواسطة طاعتنا

وعبادتنا كما ينطق به قوله تعالى «وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا» وقوله تعالى «وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون» وقوله تعالى (لو أردنا أن نتخذ لهوا) استئناف مقرر لما قبله من انتفاء اللعب واللهو أى لو أردنا أن نتخذ ما يتلهى به ويلعب (لاتخذناه من لدنا) أى من جهة قدرتنا أو من عندنا مما يليق بشأننا من المجردات لا من الاجسام المرفوعة والاجرام الموضوعة كديدن الجبابرة فى رفع العروش وتحسينها وتسوية الفروش وتزيينها لكن يستحيل ارادتنا له لمنافاته الحكمة فيستحيل اتخاذنا له قطعا وقوله تعالى (إن كنا فاعلين) جوابه محذوف ثقة بدلالة ما قبله عليه أى ان كنا فاعلين لاتخذناه. وقيل ان نافية أى ما كنا فاعلين أى لاتخاذ اللهو لعدم ارادتنا اياه فيكون بيانا لانتفاء التالى لانتفاء المقدم أو لارادة اتخاذه فيكون بيانا لانتفاء المقدم المستلزم لانتفاء التالى. وقيل اللهو الولد بلغة اليمن. وقيل الزوجة والمراد الرد على النصارى ولا يخفى بعده (بل نقذف بالحق على الباطل) اضراب عن اتخاذ اللهو بل عن ارادته كأنه قيل لكنا لا نريده بل شأننا أن نغلب الحق الذى من جملته الجد على الباطل الذى من قبيله اللهو. وتخصيص شأنه هذا من بين سائر شئونه تعالى بالذكر للتخلص الى ما سيأتى من الوعيد (فيدمغه) أى يمحقه بالكلية كما فعلنا بأهل القرى المحكية وقد استعير لايراد الحق على الباطل القذف الذى هو الرمى الشديد بالجرم الصلب كالصخرة ولمحقه للباطل الدمغ الذى هو كسر الشىء الرخو الاجوف وهو الدماغ بحيث يشق غشاءه المؤدى الى زهوق الروح تصويرا له بذلك وقرىء فيدمغه بالنصب وهو ضعيف وقرىء فيدمغه بضم الميم (فاذا هو زاهق) أى ذاهب بالكلية. وفى إذا الفجائية والجملة الاسمية من الدلالة على كمال المسارعة فى الذهاب والبطلان ما لا يخفى فكأنه زاهق من الاصل (ولكم الويل مما تصفون) وعيد لقريش بأن لهم أيضا مثل ما لأولئك من العذاب والعقاب ومن تعليلية متعلقة بالاستقرار الذى تعلق به الخبر أو بمحذوف هو حال من الويل أو من ضميره فى الخبر وما إما مصدرية أو موصولة أو موصوفة أى واستقر لكم الويل والهلاك من أجل وصفكم له سبحانه بما لا يليق بشأنه الجليل أو بالذى تصفونه أو بشىء تصفونه به من الولد أو كائنا مما تصفونه تعالى به (وله من فى السموات والارض) استئناف مقرر لما قبله من خلقه تعالى لجميع مخلوقاته على حكمة بالغة ونظام كامل وانه تعالى يحق الحق ويزهق الباطل أى له تعالى خاصة جميع المخلوقات خلقا وملكا وتدبيرا وتصرفا وإحياء وإماتة وتعذيبا واثابة من غير أن يكون لاحد فى ذلك دخل ما استقلالا أو استتباعا (ومن عنده) وهم الملائكة عليهم السلام عبر عنهم بذلك أثر ما عبر عنهم

بمن فى السموات تنزيلا لهم لكرامتهم عليه عز وعلا وزلفاهم عنده منزلة المقربين عند الملوك بطريق التمثيل وهو مبتدأ خبره (لايستكبرون عن عبادته) أى لايتعظمون عنها ولا يعدون أنفسهم كبيرا (ولا يستحسرون) ولا يكلون ولا يعيون . وصيغة الاستفعال المنبئة عن المبالغة فى الحسور للتنبيه على أن عباداتهم بثقلها ودوامها حقيقة بأن يستحسر منها ومع ذلك لا يستحسرون لا لافادة نفى المبالغة فى الحسور مع ثبوت أصله فى الجملة كما أن نفى الظلامية فى قوله تعالى « وما أنا بظلام » للعبيد لافادة كثرة الظلم المفروض تعلقه بالعبيد لا لافادة نفى المبالغة فى الظلم مع ثبوت أصل الظلم فى الجملة وقيل من عنده معطوف على من الأولى . وافرادهم بالذكر مع دخولهم فى من فى السموات والأرض للتعظيم كما فى قوله تعالى « وجبريل وميكال » فقوله تعالى « لا يستكبرون » حينئذ حال من من الثانية (يسبحون الليل والنهار) أى ينزهونه فى جميع الأوقات ويعظمونه ويمجدونه دائماً وهو استئناف وقع جواباً عما نشأ مما قبله كأنه قيل ما ذا يصنعون فى عباداتهم أو كيف يعبدون فقيل يسبحون الخ أو حال من فاعل يستحسرون وكذا قوله تعالى (لا يفترون) أى لا يتخلل تسبيحهم فترة أصلا بفراغ أو بشغل آخر (أم اتخذوا آلهة) حكاية لجناية أخرى من جناياتهم بطريق الاضراب والانتقال من فن الى فن آخر من التوبيخ أثر تحقيق الحق ببيان أنه تعالى خالق جميع المخلوقات على منهاج الحكمة وأنهم قاطبة تحت ملكوته وقهره وأن عباده مذعنون لطاعته ومثابرون على عبادته منزهون له عن كل مالايليق بشأنه من الأمور التى من جملتها الانداد ومعنى الهمزة فى أم المنقطعة انكار الوقوع لا انكار الواقع وقوله تعالى (من الأرض) متعلق باتخذوا أو بمحذوف هو صفة لآلهة وأياما كان فالمراد هو التحقير لا التخصيص وقوله تعالى (هم ينشرون) أى يبعثون الموتى صفة لآلهة وهو الذى يدور عليه الانكار والتجهيل والتشنيع لا نفس الاتخاذ فانه واقع لا محالة أى بل اتخذوا آلهة من الارض هم خاصة مع حقارتهم وجماديتهم ينشرون الموتى كلا فان ما اتخذوها آلهة بمعزل من ذلك وهم وان لم يقولوا بذلك صريحاً لكنهم حيث ادعوا لها الالهية فكأنهم ادعوا لها الانشار ضرورة أنه من الخصائص الالهية حتما ومعنى التخصيص فى تقديم الضمير ما أشير اليه من التنبيه على كمال مباينة حالهم للانشار الموجبة لمزيد الانكار كما فى قوله تعالى « أفى الله شك » وقوله تعالى « أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن » فان تقديم الجار والمجرور للتنبيه على كمال مباينة أمره تعالى لان يشك فيه . ويستهزأ به ويجوز أن يجعل ذلك من مستتبعات ادعائهم الباطل لان

الالوهية مقتضية للاستقلال بالابداء والاعادة فحيث ادعوا للاصنام الآلهية فكأنهم ادعوا لها الاستقلال بالانشار كما أنهم جعلوا بذلك مدعين لأصل الانشار (لو كان فيهما آلهة الا الله) إبطال لتعدد الآله باقامة البرهان على انتفائه بل على استحالته. وإيراد الجمع لوروده أثر انكار اتخاذ الآلهة لا لأن للجمعية مدخلا في الاستدلال وكذا فرض كونها فيهما. والا بمعنى غير على أنها صفة لآلهة ولا مساغ للاستثناء لاستحالة شمول ماقبلها لما بعدها وافضائه الى فساد المعنى لدلالته حينئذ على أن الفساد لكونها فيهما بدونه تعالى ولا للرفع على البدل لأنه متفرع على الاستثناء ومشروط بأن يكون في كلام غير موجب أي لو كان في السموات والأرض آلهة غير الله كما هو اعتقادهم الباطل (لفسدتا) أي لبطلتا بما فيهما جميعا وحيث انتفى التالي علم انتفاء المقدم قطعا. بيان الملازمة أن الآلهية مستلزمة للقدرة على الاستبداد بالتصرف فيهما على الاطلاق تغييرا وتبديلا وإيجادا واعداما وإحياء وإماتة فبقاؤهما على ماهما عليه إما بتأثير كل منها وهو محال لاستحالة وقوع المعلول المعين بعلل متعددة وإما بتأثير واحد منها فالبواقي بمعزل من الآلهية قطعا. واعلم أن جعل التالي فسادهما بعد وجودهما لما أنه اعتبر في المقدم تعدد الآلهة فيهما والا فالبرهان يقضي باستحالة التعدد على الإطلاق فانه لو تعدد الآله فان توافق الكل في المراد تطاردت عليه القدر وان تخالفت تعاوقت فلا يوجد موجود أصلا وحيث انتفى التالي تعين انتفاء المقدم والفاء في قوله تعالى (فسبحان الله) لترتيب مابعدها على ماقبلها من ثبوت الوحدانية بالبرهان أي فسبحوه سبحانه اللائق به ونزهوه عما لا يليق به من الأمور التي من جملتها أن يكون له شريك في الالوهية. وإيراد الجلالة في موقع الاضمار للاشعار بعلة الحكم فان الالوهية مناط لجميع صفات كماله التي من جملتها تنزهه تعالى عما لا يليق به ولتربية المهابة وإدخال الروعة وقوله تعالى (رب العرش) صفة للاسم الجليل مؤكدة لتنزهه عز وجل (عما يصفون) متعلق بالتسبيح أي فسبحوه عما يصفونه من أن يكون من دونه آلهة (لا يسئل عما يفعل) استئناف ببيان أنه تعالى لقوة عظمته وعزة سلطانه القاهر بحيث ليس لأحد من من مخلوقاته أن يناقشه ويسأله عما يفعل من أفعاله إثر بيان أن ليس له شريك في الالهية (وهم) أي العباد (يسئلون) عما يفعلون نقيرا وقطميرا لأنهم مملوكون له تعالى مستعبدون ففيه وعيد للكفرة (أم اتخذوا من دونه آلهة) إضراب وانتقال من اظهار بطلان كون ما اتخذوه آلهة آلهة حقيقة باظهار خلوها عن خصائص الآلهية التي من جملتها الانشار واقامة البرهان القاطع على استحالة تعدد الآله على

الاطلاق وتفرده سبحانه بالألوهية الى اظهار بطلان اتخاذهم تلك الآلهة مع عرائها عن
عن تلك الخصائص بالمرة شركاء لله عز سلطانه و تبكيتهم بالجائهم الى اقامة
البرهان على دعواهم الباطلة و تحقيق أن جميع الكتب السماوية ناطقة بحقية التوحيد
وبطلان الاشراك والهمزة لانكار الاتخاذ المذكور واستقباحه واستعظامه ومن
متعلقة باتخذوا والمعنى بل اتخذوا متجاوزين إياه تعالى مع ظهور شئونه الجليلة الموجبة
لتفرده بالالوهية آلهة مع ظهور خلوهم عن خواص الالوهية بالكلية (قل) لهم بطريق
التبكيت والقام الحجر (هاتوا برهانكم)على ماتدعونه من جهة العقل و النقل فانه لا
صحة لقول لادليل عليه فى الامور الدينية لا سيما فى مثل هذا الشأن الخطير وما فى
اضافة البرهان الى ضميرهم من الاشعار بأن لهم برهانا ضرب من التهكم بهم و قوله
تعالى(هذا ذكر من معى وذكر من قبلى)انارة لبرهانه واشارة الى أنه مما نطقت به
الكتب الالهية قاطبة و شهدت به ألسنة الرسل المتقدمة كافة وزيادة تهييج لهم على
اقامة البرهان لاظهار كمال عجزهم أى هذا الوحى الوارد فى شأن التوحيد المتضمن
للبرهان القاطع العقلى ذكر أمتى أى عظتهم و ذكر الامم السالفة قد أقمته فأقيموا أنتم
أيضا برهانكم وقيل المعنى هذا كتاب أنزل على أمتي وهكذا كتاب أنزل على أمم
الانبياء عليهم السلام من الكتب الثلاثة والصحف فراجعوها وانظروا هل فى واحد
منها غير الامر بالتوحيد والنهى عن الاشراك ففيه تبكيت لهم متضمن لاثبات
نقيض مدعاهم.وقرىء بالتنوين والاعمال كقوله تعالى«أو إطعام فى يوم ذى مسغبة
يتيما»وبه و بمن الجارة على أن مع اسم هو ظرف كقبل و بعد وقوله تعالى (بل أكثرهم
لا يعلمون الحق)اضراب من جهته تعالى غير داخل فى الكلام الملقن وانتقال من
الامر بتبكيتهم بمطالبة البرهان الى بيان أنه لا ينجع فيهم المحاجة باظهار حقية الحق
وبطلان الباطل فان أكثرهم لا يفهمون الحق ولا يميزون بينه و بين الباطل (فهم)
لاجل ذلك (معرضون) أى مستمرون على الاعراض عن التوحيد واتباع الرسول
لا يرعوون عما هم عليه من الغي والضلال وان كررت عليهم البينات والحجج أو
معرضون عما القى عليهم من البراهين العقلية والنقلية .و قرىء الحق بالرفع على انه
خبر مبتدا محذوف وسط بين السبب والمسبب تأكيداً للسببية وقوله تعالى (وما
أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه أنه لا إله الا أنا فاعبدون) استئناف
مقرر لما أجمل فيما قبله من كون التوحيد مما نطقت به الكتب الالهية وأجمعت عليه
الرسل عليهم السلام . وقرىء يوحى على صيغة الغائب مبنيا للمفعول وأياما كان

فصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية استحضاراً لصورة الوحى (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا) حكاية لجناية فريق من المشركين جيء بها لاظهار بطلانها وبيان تنزهه تعالى عن ذلك اثر بيان تنزهه سبحانه عن الشركاء على الاطلاق وهم حى من خزاعة يقولون الملائكة بنات الله تعالى ونقل الواحدى أن قريشا وبعض أجناس العرب جهينة وبنى سلمة وخزاعة وبنى مليح يقولون ذلك . والتعرض لعنوان الرحمانية المنبئة عن كون جميع ما سواه تعالى مربوبا له تعالى نعمة أو منعما عليه لابراز كمال شناعة مقالتهم الباطلة (سبحانه) أى تنزه بالذات تنزهه اللائق به على أن السبحان مصدر من سبح أى بعد أو أسبحه تسبيحه على انه علم للتسبيح وهو مقول على السنة العباد أو سبحوه تسبيحه وقوله تعالى (بل عباد) اضراب وابطال لما قالوه كانه قيل ليست الملائكة كما قالوا بل هم عباد له تعالى (مكرمون) مقربون عنده وقرىء مكرمون بالتشديد وفيه تنبيه على منشأ غلط القوم وقوله تعالى (لا يسبقونه بالقول) صفة أخرى لعباد منبئة عن كمال طاعتهم وانقيادهم لامره تعالى أى لا يقولون شيئاً حتى يقوله تعالى أو يأمرهم به وأصله لا يسبق قولهم قوله تعالى فأسند السبق اليهم منسوبا اليه تعالى تنزيلا لسبق قولهم قوله تعالى منزلة سبقهم اياه تعالى لمزيد تنزيههم عن ذلك وللتنبيه على غاية استهجان السبق المعرض به للذين يقولون مالا يقوله الله تعالى وجعل القول محلا للسبق واداة له ثم أنيب اللام عن الاضافة للاختصار والتجافى عن التكرار . وقرىء لا يسبقونه بضم الباء من سابقته فسبقته أسبقه وفيه مزيد استهجان للسبق وإشعار بأن من سبق قوله تعالى فقد تصدى لمغالبته تعالى فى السبق فسبقه فغلبه والعياذ بالله تعالى وزيادة تنزيه لهم عما نفى عنهم ببيان أن ذلك عندهم بمنزلة الغلبة بعد المغالبة فانى يتوهم صدوره عنهم (وهم بأمره يعملون) بيان لتبعيتهم له تعالى فى الاعمال اثر بيان تبعيتهم له تعالى فى الاقوال فان نفى سبقهم له تعالى بالقول عبارة عن تبعيتهم له تعالى فيه كانه قيل هم بأمره يقولون وبأمره يعملون لا بغير أمره أصلا فالقصر المستفاد من تقديم الجار معتبر بالنسبة الى غير أمره لا الى أمر غيره (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) استئناف وقع تعليلا لما قبله وتمهيدا لما بعده فانهم لعلمهم باحاطته تعالى بما قدموا وأخروا من الاقوال والاعمال لا يزالون يراقبون أحوالهم فلا يقدمون على قول أو عمل بغير أمره تعالى (ولا يشفعون الا لمن ارتضى) أن يشفع له مهابة منه تعالى (وهم) مع ذلك (من خشيته) عز وجل (مشفقون) مرتعدون وأصل الخشية الخوف مع التعظيم ولذلك خص بها العلماء والاشفاق الخوف مع الاعتناء

فعند تعديته بمن يكون معنى الخوف فيه أظهر وعند تعديته بعلى ينعكس الامر (ومن يقل منهم) أى من الملائكة اذ الكلام فيهم وفى كونهم بمعزل مما قالوا فى حقهم (إنى إله من دونه) متجاوزاً إياه تعالى (فذلك) الذى فرض قوله فرض محال (نجزيه جهنم) كسائر المجرمين ولايغنى عنهم ما ذكر من صفاتهم السنية وافعالهم المرضية . وفيه من الدلالة على قوة ملكوته تعالى وعزة جبروته واستحالة كون الملائكة بحيث يتوهم فى حقهم ما توهمه أولئك الكفرة مالا يخفى (كذلك نجزى الظالمين) مصدر تشبيهى مؤكد لمضمون ما قبله أى مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزى الذين يضعون الاشياء فى غير مواضعها ويتعدون أطوارهم. والقصر المستفاد من التقديم معتبر بالنسبة الى النقصان دون الزيادة أى لاجزاء انقص منه (أولم ير الذين كفروا) تجهيل لهم بتقصيرهم فى التدبر فى الآيات التكوينية الدالة على استقلاله تعالى بالالوهية وكون جميع ماسواه مقهورا تحت ملكوته والهمزة للانكار والواو للعطف على مقدرة وقرئ بغير واو والرؤية قلبية أى ألم يتفكروا ولم يعلموا (أن السموات والارض كانتا) أى جماعتا السموات والارضين كما فى قوله تعالى «ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا» (رتقا) الرتق الضم والالتحام والمعنى اما على حذف المضاف أو هو بمعنى المفعول أى كانتا ذواتى رتق أو مرتوقتين . وقرئ رتقا أى شيئا رتقا أى مرتوقا (ففتقناهما) قال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية عكرمة والحسن البصرى وقتادة وسعيد بن جبير كانتا شيئا واحدا ملتزقتين ففصل الله تعالى بينهما ورفع السماء الى حيث هى وأقر الارض وقال كعب خلق الله تعالى السموات والارض ملتصقتين ثم خلق ريحا فتوسطتها ففتقتها وعن الحسن خلق الله تعالى الارض فى موضع بيت المقدس كهيئة الفهر عليها دخان ملتزق بها ثم أصعد الدخان وخلق منه السموات وأمسك الفهر فى موضعها وبسط منها الارض وذلك قوله تعالى «كانتا رتقا ففتقناهما» وقال مجاهد والسدى كانت السموات مرتتقة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبع سموات وكذلك الارض كانت مرتتقة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبع أرضين وقال ابن عباس فى رواية عطاء وعليه أكثر المفسرين ان السموات كانت رتقا مستوية صلبة لاتمطر والارض رتقا لاتنبت ففتق السماء بالمطر والارض بالنبات فيكون المراد بالسموات السماء الدنيا والجمع باعتبار الآفاق أو السموات جميعا على أن لها مدخلا فى الامطار وعلم الكفرة الرتق والفتق بهذا المعنى مما لاسترة به وأما بالمعانى الأول فهم وان لم يعلموهما لكنهم متمكنون من علمهما إما بطريق النظر والتفكر فان الفتق عارض

مفتقر الى مؤثر قديم وإما بالاستفسار من العلماء ومطالعة الكتب (وجعلنا من الماء كل شئ حى) أى خلقنا من الماء كل حيوان كقوله تعالى «والله خلق كل دابة من ماء» وذلك لانه من أعظم مواده أو لفرط احتياجه اليه وانتفاعه به أو صيرنا كل شئ حى من الماء أى بسبب منه لابدله من ذلك. وتقديم المفعول الثانى للاهتمام به لا لمجرد أن المفعولين فى الأصل مبتدأ وخبر وحق الخبر عند كونه ظرفا أن يتقدم على المبتدأ فان ذلك مصحح محض لا مرجح وقرئ «حيا» على انه صفة كل أو مفعول ثان والظرف كما فى الوجه الاول قدم على المفعول للاهتمام به والتشويق الى المؤخر (أفلا يؤمنون) إنكار لعدم ايمانهم بالله وحده مع ظهور مايوجبه حتما من الآيات الآفاقية والأنفسية الدالة على تفرده عز وجل بالألوهية وعلى كون ماسواه من مخلوقاته مقهورة تحت ملكوته وقدرته والفاء للعطف على مقدر يستدعيه الانكار السابق أى أيعلمون ذلك فلا يؤمنون (وجعلنا فى الأرض رواسى) أى جبالا ثوابت جمع راسية من رسا الشئ اذا ثبت ورسخ ووصف جمع المذكر بجمع المؤنث فى غير العقلاء مما لاريب فى صحته كقوله تعالى «أشهر معلومات» «وأياما معدودات» (أن تميد بهم) أى كراهة أن تتحرك وتضطرب بهم أو لئلا تميد بهم بحذف اللام ولا لعدم الالباس (وجعلنا فيها) أى فى الأرض وتكرير الفعل لاختلاف المجعولين ولتوفية مقام الامتنان حقه أو فى الرواسى لانها المحتاجة الى الطرق (فجاجا) مسالك واسعة وانما قدم على قوله تعالى (سبلا) وهو وصف ليصير حالا فيفيد أنه تعالى حين خلقها خلقها كذلك أو ليبدل منها سبلا فيدل ضمنا على انه تعالى خلقها ووسعها للسابلة مع مافيه من التوكيد (لعلهم يهتدون) أي الى مصالحهم ومهماتهم (وجعلنا السماء سقفا محفوظا) من الوقوع بقدرتنا القاهرة أو من الفساد والانحلال الى الوقت المعلوم بمشيئتنا أو من استراق السمع بالشهب (وهم عن آياتها) الدالة على وحدانيته تعالى وعلمه وحكمته وقدرته وارادته التى بعضها محسوس وبعضها معلوم بالبحث عنه فى علمى الطبيعة والهيئة (معرضون) لا يتدبرون فيها فيبقون على ما هم عليه من الكفر والضلال وقوله تعالى (وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر) اللذين هما آيتاهما بيان لبعض تلك الآيات التى هم عنها معرضون بطريق الالتفات الموجب لتأكيد الاعتناء بفحوى الكلام أى هو الذى خلقهن وحده (كل) أى كل واحد منهما على أن التنوين عوض عن المضاف اليه (فى فلك يسبحون) أى يجرون فى سطح الفلك كالسبح فى الماء والمراد بالفلك الجنس كقولك كساهم الخليفة حلة والجملة حال من الشمس

والقمر وجاز انفرادهما بها لعدم اللبس والضمير لهما والجمع باعتبار المطالع وجعل الضمير واو العقلاء لأن السباحة حالهم (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) أى فى الدنيا لكونه مخالفا للحكمة التكوينية والتشريعية (أفأن مت) بمقتضى حكمتنا (فهم الخالدون) نزلت حين قالوا نتربص به ريب المنون. والفاء لتعليق الشرطية بما قبلها والهمزة لانكار مضمونها بعد تقرر القاعدة الكلية النافية لذلك بالمرة والمراد بانكار خلودهم ونفيه إنكار ما هو مدار له وجودا وعدما من شماتتهم بموته عليه السلام فان الشماتة بما يعتريه أيضا مما لا ينبغي أن يصدر عن العاقل كأنه قيل أفأن مت فهم الخالدون حتى يشمتوا بموتك وقوله تعالى (كل نفس ذائقة الموت) أى ذائقة مرارة مفارقتها جسدها برهان على ما أنكر من خلودهم (ونبلوكم) الخطاب إما للناس كافة بطريق التلوين أو للكفرة بطريق الالتفات أى نعاملكم معاملة من يبلوكم (بالشر والخير) بالبلايا والنعم هل تصبرون وتشكرون أولا (فتنة) مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظه (والينا ترجعون) لا إلى غيرنا لا استقلالا ولا اشتراكا فنجازيكم حسبما يظهر منكم من الاعمال فهو على الاول وعد ووعيد وعلى الثانى وعيد محض. وفيه إيماء الى أن المقصود من هذه الحياة الدنيا الابتلاء والتعريض للثواب والعقاب. وقرئ يرجعون بالياء على الالتفات (واذا رآك الذين كفروا) أى المشركون (إن يتخذونك الا هزوا) أى ما يتخذونك الا مهزوءا به على معنى قصر معاملتهم معه عليه السلام على اتخاذهم اياه هزوا لا على معنى قصر اتخاذهم على كونه هزوا كما هو المتبادر كانه قيل ما يفعلون بك الا اتخاذك هزوا وقد مر تحقيقه فى قوله تعالى « ان أتبع الا ما يوحى الى » فى سورة الانعام (أهذا الذى يذكر آلهتكم) على ارادة القول أى يقولون أو قائلين ذلك أى يذكرهم بسوء كما فى قوله تعالى « سمعنا فتى يذكرهم » الخ وقوله تعالى (وهم بذكر الرحمن هم كافرون) فى حيز النصب على الحالية من ضمير القول المقدر والمعنى أنهم يعيبون عليه عليه الصلاة والسلام أن يذكر آلهتهم التى لا تضر ولا تنفع بالسوء والحال أنهم بذكر الرحمن المنعم عليهم بما يليق به من التوحيد أو بارشاد الخلق بارسال الرسل وانزال الكتب أو بالقرآن كافرون فهم أحقاء بالعيب والانكار فالضمير الاول مبتدأ خبره كافرون وبذكر متعلق بالخبر والتقدير وهم كافرون بذكر الرحمن والضمير الثانى تأكيد لفظى للأول فوقع الفصل بين العامل ومعموله بالمؤكد وبين المؤكد والمؤكد بالمعمول (خلق الانسان من عجل) جعل لفرط استعجاله وقلة صبره كأنه مخلوق منه تنزيلا لما طبع عليه من الاخلاق منزلة ما طبع منه من

الاركان إيذانا بغاية لزومه له وعدم انفكاكه عنه ومن عجلته مبادرته الى الكفر واستعجاله بالوعيد. روى انها نزلت فى النضر بن الحرث حين استعجل العذاب بقوله «اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر» الآية وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان المراد بالانسان آدم عليه السلام وانه حين بلغ الروح صدره ولم يتبالغ فيه أراد أن يقوم وروى انه لما دخل الروح فى عينيه نظر الى ثمار الجنة ولما دخل جوفه اشتهى الطعام وقيل خلقه الله تعالى فى آخر النهار يوم الجمعة قبل غروب الشمس فاسرع فى خلقه قبل غيبتها فالمعنى خلق الانسان خلقاً ناشئا من عجل فذكره لبيان انه من دواعى عجلته فى الامور والاظهر أن المراد به الجنس وان كان خلقه عليه السلام سارياً الى أولاده وقيل العجل الطين بلغة حمير ولا تقريب له ههنا وقوله تعالى (سأريكم آياتى) تلوين للخطاب وصرف له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المستعجلين بطريق التهديد والوعيد أى سأريكم نقماتى فى الآخرة كعذاب النار وغيره (فلا تستعجلون) بالاتيان بها والنهى عما جبلت عليه نفوسهم ليقعدوها عن مرادها (ويقولون متى هذا الوعد) أى وقت مجيء الساعة التى كانوا يوعدون وانما كانوا يقولونه استعجالا لمجيئه بطريق الاستهزاء والانكار كما يرشد اليه الجواب لاطلباً لتعيين وقته بطريق الالزام كما فى سورة الملك (ان كنتم صادقين) أى فى وعدكم بأنه يأتينا والخطاب للنبى عليه الصلاة والسلام والمؤمنين الذين يتلون الآيات الكريمة المنبئة عن مجيء الساعة وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة ما قبله عليه حسبما حذف فى مثل قوله تعالى «فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين» فان قولهم متى هذا الوعد استبطاء منهم للموعود وطلب لاتيانه بطريق العجلة فان ذلك فى قوة الامر بالاتيان عجلة كأنه قيل فليأتنا بسرعة ان كنتم صادقين (لو يعلم الذين كفروا) استئناف مسوق لبيان شدة هول ما يستعجلونه وفظاعة ما فيه من العذاب وأنهم انما يستعجلونه لجهلهم بشأنه. وايثار صيغة المضارع فى الشرط وان كان المعنى على المضى لافادة استمرار عدم العلم فان المضارع المنفى الواقع موقع الماضى ليس بنص فى إفادة انتفاء استمرار الفعل بل يفيد استمرار انتفائه أيضاً بحسب المقام كما فى قولك لو تحسن الى لشكرتك فان المعنى ان انتفاء الشكر لاستمرار انتفاء الاحسان لا لانتفاء استمرار الاحسان. ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه بما فى حيز الصلة على علة استعجالهم وقوله تعالى (حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم) مفعول يعلم وهو عبارة عن الوقت الموعود الذى كانوا يستعجلونه واضافته الى الجملة الجارية مجرى الصفة التى حقها أن تكون معلومة الانتساب الى الموصوف

عند المخاطب أيضا مع انكار الكفرة لذلك للايذان بانه من الظهور بحيث لا حاجة له الى الاخبار به وانما حقه الانتظام فى سلك المسلمات المفروغ عنها وجواب لو محذوف أى لو لم يستمر عدم علمهم بالوقت الذى يستعجلونه بقولهم متى هذا الوعد من الحين الذى تحيط بهم النار فيه من كل جانب. وتخصيص الوجوه والظهور بالذكر بمعنى القدام والخلف لكونهما أشهر الجوانب واستلزام الاحاطة بهما الاحاطة بالكل بحيث لا يقدرون على دفعها بانفسهم من جانب من جوانبهم (ولاهم ينصرون) من جهة الغير فى دفعها الخ لما فعلوا مافعلوا من الاستعجال. ويجوز أن يكون يعلم متروك المفعول منزلا منزلة اللازم أى لو كان لهم علم لما فعلوه وقوله تعالى «حين» الخ استئناف مقرر لجهلهم ومبين لاستمراره الى ذلك الوقت كأنه قيل حين يرون ما يرون يعلمون حقيقة الحال (بل تأتيهم) عطف على لا يكفون أى لا يكفونها بل تأتيهم أى العدة أو النار أو الساعة (بغتة) فتبهتهم) أى تغلبهم أو تحيرهم. وقرئ الفعلان بالتذكير على أن الضمير للوعد أو الحين وكذا الهاء فى قوله تعالى (فلا يستطيعون ردها) بتأويل الوعد بالنار أو العدة والحين بالساعة. ويجوز عوده الى النار وقيل الى البغتة أى لا يستطيعون ردها عنهم بالكلية (ولاهم ينظرون) أى يمهلون ليستريحوا طرفة عين وفيه تذكير لامهالهم فى الدنيا (ولقد استهزئ برسل من قبلك) تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن استهزائهم به عليه السلام فى ضمن الاستعجال وعدة ضمنية بانه يصيبهم مثل ما أصاب المستهزئين بالرسل السالفة عليهم الصلاة والسلام. وتصديرها بالقسم لزيادة تحقيق مضمونها وتنوين الرسل للتفخيم والتكثير ومن متعلقة بمحذوف هو صفة له أى وبالله لقد استهزئ برسل أولى شأن خطير وذوى عدد كثير كائنين من زمان قبل زمانك على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه (فحاق) أى أحاط عقيب ذلك أو نزل أو حل أو نحو ذلك فان معناه يدور على الشمول واللزوم ولا يكاد يستعمل الا فى الشر والحيق ما يشتمل على الانسان من مكروه فعله وقوله تعالى (بالذين سخروا منهم) أى من أولئك الرسل عليهم السلام متعلق بحاق وتقديمه على فاعله الذى هو قوله تعالى (ما كانوا به يستهزؤن) للمسارعة الى بيان لحوق الشر بهم. وما إما موصولة مفيدة للتهويل والضمير المجرور عائد اليها والجار متعلق بالفعل. وتقديمه عليه لرعاية الفواصل أى فأحاط بهم الذى كانوا يستهزؤن به حيث أهلكوا لاجله وإما مصدرية فالضمير المجرور راجع حينئذ الى جنس الرسول المدلول عليه بالجمع كما قالوا ولعل ايثاره على الجمع للتنبيه على انه يحيق بهم جزاء استهزائهم بكل واحد واحد منهم عليهم السلام لا جزاء استهزائهم بكلهم من حيث

هو كل فقط أى فنزل بهم جزاء استهزائهم على وضع السبب موضع المسبب ايذانا بكمال الملابسة بينهما أو عين استهزائهم ان أريد بذلك العذاب الاخروى بناء على تجسم الاعمال فان الاعمال الظاهرة فى هذه النشأة بصور عرضية تبرز فى النشأة الآخرة بصور جوهرية مناسبة لها فى الحسن والقبح وعلى ذلك بنى الوزن وقد مر تفصيله فى سورة الاعراف وفى قوله تعالى «انما بغيكم على أنفسكم» الآية الى آخرها (قل) خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم اثر تسليته بما ذكر من مصير أمرهم الى الهلاك وأمرله عليه السلام بان يقول لأولئك المستهزئين بطريق التقريع والتبكيت (من يكلؤكم) أى يحفظكم (بالليل والنهار من الرحمن) أى من بأسه الذى تستحقون نزوله ليلا أو نهارا. وتقديم الليل لما أن الدواهى أكثر فيه وقوعا وأشد وقعا. وفى التعرض لعنوان الرحمانية إيذان بأن كالئهم ليس الا رحمته العامة وبعد ما أمر عليه السلام بما ذكر من السؤال على الوجه المذكور حسبما تقتضيه حالهم لانهم بحيث لولا أن الله تعالى يحفظهم فى الملوين لحل بهم فنون الآفات فهم أحقاء بان يكلفوا الاعتراف بذلك فيوبخوا على ماهم عليه من الاشراك أضرب عن ذلك بقوله تعالى (بل هم عن ذكر ربهم معرضون) ببيان أن لهم حالا أخرى مقتضية لصرف الخطاب عنهم هى أنهم لا يخطرون ذكره تعالى ببالهم فضلا أن يخافوا بأسه ويعدوا ما كانوا عليه من الأمن والدعة حفظا وكلاءة حتى يسألوا عن الكالىء على طريقة قول من قال

عوجوا فحيوا لنعمى دمنة الدار ۞ ماذا تحيون من نؤى وأحجار

وفى تعليق الاعراض بذكره تعالى وايراد اسم الرب المضاف الى ضميرهم المنبىء عن كونهم تحت ملكوته وتدبيره وتربيته تعالى من الدلالة على كونهم فى الغاية القاصية من الضلالة والغى مالا يخفى. وكلمة أم فى قوله تعالى (أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا) منقطعة وما فيها من معنى بل للاضراب والانتقال عما قبله من بيان أن جهلهم بحفظه تعالى اياهم لعدم خوفهم الناشىء عن أعراضهم عن ذكر ربهم بالكلية الى توبيخهم باعتمادهم على آلهتهم واسنادهم الحفظ اليها والهمزة لانكار أن يكون لهم آلهة تقدر على ذلك والمعنى بل ألهم آلهة تمنعهم من العذاب تتجاوز منعنا أو حفظنا أو من عذاب كائن من عندنا فهم معولون عليها واثقون بحفظها. وفى توجيه الانكار والنفى الى وجود الآلهة الموصوفة بما ذكر من المنع لا إلى نفس الصفة بأن يقال أم تمنعهم آلهتهم الخ من الدلالة على سقوطها عن مرتبة الوجود فضلا عن رتبة المنع ما لا يخفى وقوله عز وعلا (لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون) استئناف مقرر لما قبله

من الانكار وموضح لبطلان اعتقادهم أي هم لا يستطيعون أن ينصروا أنفسهم ولا يصحبون بالنصر من جهتنا فكيف يتوهم أن ينصروا غيرهم وقوله تعالى (بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر) إضراب عما توهموا ببيان أن الداعي الى حفظهم تمتيعنا اياهم بما قدر لهم من الاعمار أوعن الدلالة على بطلانه ببيان ما أوهمهم ذلك وهو أنه تعالى متعهم بالحياة الدنيا وأمهلهم حتى طالت أعمارهم فحسبوا أن لا يزالوا كذلك وأنه بسبب ماهم عليه ولذلك عقب بما يدل على انه طمع فارغ وأمل كاذب حيث قيل (أفلا يرون) أى ألا ينظرون فلا يرون (أنا نأتى الارض) أى أرض الكفرة (ننقصها من أطرافها) فكيف يتوهمون انهم ناجون من بأسنا وهو تمثيل وتصوير لما يخربه الله عز وجل من ديارهم على أيدى المسلمين ويضيفها الى دار الاسلام (أفهم الغالبون) على رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين والفاء لانكار ترتيب الغالبية على ما ذكر من نقص أرض الكفرة بتسليط المسلمين عليها كأنه قيل أبعد ظهور ما ذكر ورؤيتهم له يتوهم غلبتهم كما مر فى قوله تعالى «أفمن كان على بينة من» ربه وقوله تعالى قل أفاتخذتم من دونه أولياء . وفى التعريف تعريض بان المسلمين هم المتعينون للغلبة المعروفون بها (قل انما أنذركم) بعدما بين من جهته تعالى غاية هول ما يستعجله المستعجلون ونهاية سوء حالهم عند اتيانه ونعى عليهم جهلهم بذلك واعراضهم عن ذكر ربهم الذى يكلؤهم من طوارق الليل والنهار وغير ذلك من مساوى أحوالهم أمر عليه السلام بان يقول لهم إنما أنذركم ما تستعجلونه من الساعة (بالوحى) الصادق الناطق باتيانها وفظاعة ما فيها من الاهوال أى انما شأنى أن أنذركم بالاخبار بذلك لا بالاتيان بها فانه مزاحم للحكمة التكوينية والتشريعية إذ الايمان برهانى لاعيانى وقوله تعالى (ولا يسمع الصم الدعاء) اما تتمة الكلام الملقن تذييل له بطريق الاعتراض قد أمر عليه السلام بان يقوله لهم توبيخاً وتقريعاً وتسجيلا عليهم بكمال الجهل والعناد واللام للجنس المنتظم للمخاطبين انتظاما أولياً أو للعهد فوضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالتصام وتقييد نفى السماع بقوله تعالى (اذا ما ينذرون) مع أن الصم لا يسمعون الكلام انذارا كان أو تبشيرا لبيان كمال شدة الصمم كما أن ايثار الدعاء الذى هو عبارة عن الصوت والنداء على الكلام لذلك فان الانذار عادة يكون باصوات عالية مكررة مقارنة لهيآت دالة عليه فاذا لم يسمعوها يكون صممهم فى غاية لاغاية وراءها واما من جهته تعالى على طريقة قوله تعالى «بل هم عن ذكر ربهم معرضون» ويؤيده القراءة على خطاب النبى عليه الصلاة والسلام من الاسماع بنصب الصم والدعاء كانه

قيل قل لهم ذلك وأنت بمعزل من اسماعهم . وقرىء بالياء أيضا على أن الفاعل هو عليه السلام وقرىء على البناء للمفعول أي لا يقدر أحد على اسماع الصم وقوله تعالى (ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك) بيان لسرعة تأثرهم من مجيء نفس العذاب اثر بيان عدم تأثرهم من مجيء خبره على نهج التوكيد القسمي أي والله لئن أصابهم أدنى إصابة أدنى شيء من عذابه تعالى كما ينبىء عنه المسّ والنفحة بجوهرها وبنائها فان أصل النفح هبوب رائحة الشيء (ليقولن ياويلنا انا كنا ظالمين) ليدعن على أنفسهم بالويل والهلاك ويعترفن عليها بالظلم وقوله تعالى (ونضع الموازين القسط) بيان لما سيقع عند اتيان ما أنذروه أي نقيم الموازين العادلة التي توزن بها صحائف الاعمال . وقيل وضع الموازين تمثيل لارصاد الحساب السوي والجزاء على حسب الاعمال وقد مر تفصيل ما فيه من الكلام في سورة الاعراف وافراد القسط لانه مصدر وصف به مبالغة (ليوم القيامة) التي كانوا يستعجلونها أي لجزائه أو لاجل أهله أو فيه كما في قولك جئت لخمس خلون من الشهر (فلا تظلم نفس) من النفوس (شيأ) حقا من حقوقها أو شيأ ما من الظلم بل يوفى كل ذي حق حقه ان خيرا فخير وان شرا فشر والفاء لترتيب انتفاء الظلم على وضع الموازين (وان كان) أي العمل المدلول عليه بوضع الموازين (مثقال حبة من خردل) أي مقدار حبة كائنة من خردل أي وان كان في غاية القلة والحقارة فان حبة الخردل مثل في الصغر . وقرىء مثقال حبة بالرفع على أن كان تامة (أتينا بها) أي أحضرنا ذلك العمل المعبر عنه بمثقال حبة الخردل للوزن والتأنيث لاضافته الى الحبة وقرىء آتينا بها أي جازينا بها من الايتاء بمعنى المجازاة والمكافأة أو المؤاتاة لانهم أتوه بالاعمال وأتاهم بالجزاء وقرىء أثبنا من الثواب وقرىء جئنا بها (وكفى بنا حاسبين) اذ لا مزيد على علمنا وعدلنا (ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين) نوع تفصيل لما أجمل في قوله تعالى «وما أرسلنا قبلك الا رجالا نوحي اليهم» إلى قوله تعالى «وأهلكنا المسرفين» واشارة الى كيفية إنجائهم واهلاك أعدائهم وتصديره بالتوكيد القسمي لاظهار كمال الاعتناء بمضمونه والمراد بالفرقان هو التوراة وكذا بالضياء والذكر أي والله لقد آتيناهما وحيا ساطعا وكتابا جامعا بين كونه فارقا بين الحق والباطل وضياء يستضاء به في ظلمات الجهل والغواية وذكرا يتعظ به الناس . وتخصيص المتقين بالذكر لأنهم المستضيئون بأنواره المغتنمون لمغانم آثاره أو ذكر ما يحتاجون اليه من الشرائع والاحكام . وقيل الفرقان النصر وقيل فلق البحر والأول هو اللائق بمساق النظم الكريم فانه لتحقيق أمر القرآن المشارك لسائر الكتب الالهية لاسيما التوراة فيما ذكر من الصفات ولأن فلق

البحر هو الذى اقترح الكفرة مثله بقولهم فليأتنا بآية كما أرسل الاولون وقرىء ضياء بغير واو على أنه حال من الفرقان وقوله تعالى (الذين يخشون ربهم) أى عذابه مجرور والمحل على انه صفة مادحة للمتقين أو بدل أو بيان أو منصوب أو مرفوع على المدح (بالغيب) حال من المفعول أى يخشون عذابه تعالى وهو غائب عنهم غير مشاهد لهم ففيه تعريض بالكفرة حيث لا يتأثرون بالانذار مالم يشاهدوا ماأنذروه وقيل من الفاعل (وهم من الساعة مشفقون) أى خائفون منها بطريق الاعتناء وتقديم الجار لمراعاة الفواصل وتخصيص اشفاقهم منها بالذكر بعد وصفهم بالخشية على الاطلاق للايذان بكونها معظم المخوفات وللتنصيص على اتصافهم بضد مااتصف به المستعجلون. وايثار الجملة الاسمية للدلالة على ثبات الاشفاق ودوامه (وهذا) أى القرآن الكريم أشير اليه بهذا إيذانا بغاية وضوح أمره (ذكر) يتذكر به من يتذكر وصف بالوصف الاخير للتوراة لمناسبة المقام وموافقته لما مر فى صدر السورة الكريمة (مبارك) كثير الخير غزير النفع يتبرك به (أنزلناه) إما صفة ثانية لذكر أو خبر آخر (أفأنتم له منكرون) انكار لانكارهم بعد ظهور كون إنزاله كايتاء التوراة كأنه قيل أبعد أن علمتم أن شأنه كشأن التوراة فى الايتاء والايحاء أنتم منكرون لكونه منزلا من عندنا فان ذلك بعد ملاحظة حال التوراة مالا مساغ له أصلا (ولقد آتينا ابراهيم رشده) أى الرشد اللائق به وبأمثاله من الرسل الكبار وهو الاهتداء الكامل المستند الى الهداية الخاصة الحاصلة بالوحى والاقتدار على اصلاح الامة باستعمال النواميس الالهية. وقرىء رشده وهما لغتان كالحزن والحزن (من قبل) أى من قبل إيتاء موسى وهرون التوراة. وتقديم ذكر إيتائها لما بينه وبين انزال القرآن من الشبه التام وقيل من قبل استنبائه أو قبل بلوغه ويأباه المقام (وكنا به عالمين) أى بأنه أهل لما آتيناه وفيه من الدليل على انه تعالى عالم بالجزئيات مختار فى أفعاله مالا يخفى (اذ قال لابيه وقومه) ظرف لآتينا على انه وقت متسع وقع فيه الايتاء وما ترتب عليه من افعاله وأقواله وقيل مفعول لمضمر مستأنف وقع تعليلا لما قبله أى اذكر وقت قوله لهم (ما هذه التماثيل التى انتم لها عاكفون) لتقف على كمال رشده وغاية فضله والتمثال اسم لشىء مصنوع مشبه بخلق من خلائق الله تعالى وهذا تجاهل منه عليه السلام حيث سألهم عن اصنامهم بما التى يطلب بها بيان الحقيقة أو شرح الاسم كأنه لا يعرف أنها ماذا مع احاطته بأن حقيقتها حجر أو شجر اتخذوها معبودا . وعبر عن عبادتهم لها بمطلق العكوف الذى هو عبارة عن

اللزوم والاستمرار على الشيء لغرض من الاغراض قصدا الى تحقيرها واذلالها وتوبيخها لهم على اجلالها واللام فى لها للاختصار دون التعدية والالجيء بكلمة على والمعنى أنتم فاعلون العكوف لها وقد جوز تضمين العكوف معنى العبادة كما ينبئ عنه قوله تعالى (قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين) أجابوا بذلك لما ان مآل سؤال عليه السلام الاستفسار عن سبب عبادتهم لها كما ينبئ عنه وصفه عليه السلام اياهم بالعكوف لها كأنه قال ماهى هل تستحق ما تصنعون من العكوف عليها فلما لم يكن لهم ملجأ يعتد به التجأوا الى التقليد فابطله عليه السلام على طريقة التوكيد القسمى حيث (قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم) الذين سنوا لكم هذه السنة الباطلة (فى ضلال) عجيب لا يقادر قدره (مبين) أى ظاهر بين بحيث لا يخفى على أحد من العقلاء كونه كذلك ومعنى كنتم مطلق استقرارهم على الضلال لا استقرارهم الماضى الحاصل قبل زمان الخطاب المتناول لهم ولآبائهم أى والله لقد كنتم مستقرين على ضلال عظيم ظاهر لعدم استناده الى دليل ما . و التقليد انما يجوز فيما يحتمل الحقية فى الجملة (قالوا) لما سمعوا مقالته عليه السلام استبعادا لكون ماهم عليه ضلالا وتعجبا من تضليله عليه السلام إياهم بطريق التوكيد القسمى وترددا فى كون ذلك منه عليه السلام على وجه الجد (أجئتنا بالحق) أى بالجد (أم أنت من اللاعبين) فتقول ما تقول على وجه المداعبة والمزاح وفى ايراد الشق الاخير بالجملة الاسمية الدالة على الثبات ايذان برجحانه عندهم (قال) عليه السلام اضرابا عما بنوا عليه مقالتهم من اعتقاد كونها أربابا لهم كما يفصح عنه قولهم نعبد أصناما فنظل لها عاكفين كأنه قيل ليس الامر كذلك (بل ربكم رب السموات والارض الذى فطرهن) وقيل هو اضراب عن كونه لاعبا باقامة البرهان على ما ادعاه وضميرهن للسموات والارض وصفه تعالى بايجادهن اثر وصفه تعالى بربوبيته تعالى لهن تحقيقا للحق وتنبيها على أن مالا يكون كذلك بمعزل من الربوبية أى أنشأهن بما فيهن من المخلوقات التى من جملتها أنتم وآباؤكم وما تعبدونه من غير مثال يحتذيه ولا قانون ينتحيه . ورجع الضمير الى التماثيل أدخل فى تضليلهم وأظهر فى الزام الحجة عليهم لما فيه من التصريح المغنى عن التأمل فى كون مايعبدونه من جملة المخلوقات (وأنا على ذلكم) الذي ذكرته من كون ربكم رب السموات والارض فقط دون ما عداه كائنا ما كان (من الشاهدين) أى العالمين به على سبيل الحقيقة المبرهنين عليه فان الشاهد على الشيء من تحققه وحققه وشهادته على ذلك ادلاؤه بالحجة عليه واثباته بها كأنه قال وأنا أبين ذلك وأبرهن عليه (وتالله) وقرىء

بالباء وهو الاصل والتاء بدل من الواو التى هى بدل من الاصل وفيها تعجب (لأكيدن أصنامكم) أى لاجتهدن فى كسرها . وفيه إيذان بصعوبة الانتهاز وتوقفه على استعمال الحيل وانما قاله عليه السلام سرا وقيل سمعه رجل واحد (بعد أن تولوا مدبرين) من عبادتها الى عيدكم . وقرىء تولوا من التولى بحذف احدى التاءين ويعضدها قوله تعالى فتولوا عنه مدبرين والفاء فى قوله تعالى (فجعلهم) فصيحة أى فولوا فجعلهم (جذاذا) أى قطاعا فعال بمعنى مفعول من الجذ الذى هو القطع كالحطام من الحطم الذى هو الكسر . وقرىء بالكسر وهى لغة أو جمع جذيذ كخفاف وخفيف وقرىء بالفتح وجذذا جمع جذيذ وجذذا جمع جذة روى أن آزر خرج به فى يوم عيد لهم فبدءوا ببيت الاصنام فدخلوه فسجدوا لها ووضعوا بينها طعاما خرجوا به معهم وقالوا الى أن نرجع بركت الآلهة على طعامنا فذهبوا وبقى ابراهيم عليه السلام فنظر الى الاصنام وكانت سبعين صنما مصطفة وثمة صنم عظيم مستقبل الباب وكان من ذهب وفى عينيه جوهرتان تضيئان بالليل فكسر الكل بفأس كانت فى يده ولم يبق الا الكبير وعلق الفأس فى عنقه وذلك قوله تعالى (الا كبيرا لهم) أى للاصنام (لعلهم اليه) أى ابراهيم عليه السلام (يرجعون) فيحاجهم بما سيأتى فيحجهم ويبكتهم . وقيل يرجعون الى الكبير فيسألونه عن الكاسر لان من شأن المعبود أن يرجع اليه فى الملمات وقيل يرجعون الى الله تعالى وتوحيده عند تحققهم عجز آلهتهم عن دفع ما يصيبهم وعن الاضرار بمن كسرهم (قالوا) أى حين رجعوا من عيدهم ورأوا ما رأوا (من فعل هذا بآلهتنا) على طريقة الانكار والتوبيخ والتشنيع وانما عبروا عنها بما ذكر ولم يشيروا اليها بهؤلاء وهى بين أيديهم مبالغة فى التشنيع وقوله تعالى (انه لمن الظالمين) استئناف مقرر لما قبله وقيل من موصولة وهذه الجملة فى حيز الرفع على أنها خبر لها والمعنى الذى فعل هذا الكسر والحطم بآلهتنا انه معدود من جملة الظلمة أما لجرأته على إهانتها وهى حقيقة بالاعظام أو لافراطه فى الكسر والحطم وتماديه فى الاستهانة بها أو بتعريض نفسه للهلكة (قالوا) أى بعض منهم مجيبين للسائلين (سمعنا فتى يذكرهم) أى يعيبهم فلعله فعل ذلك بها فقوله تعالى يذكرهم إما مفعول ثان لسمع لتعلقه بالعين أو صفة لفتى مصححة لتعلقه به هذا إذا كان القائلون سمعوه عليه السلام بالذات يذكرهم وان كانوا قد سمعوا من الناس انه عليه السلام يذكرهم بسوء فلا حاجة إلى المصحح (يقال له ابراهيم) صفة أخرى لفتى أى يطلق عليه هذا الاسم (قالوا) أى السائلون (فأتوا به على أعين الناس) أى بمرأى منهم بحيث يكون نصب أعينهم فى مكان مرتفع لا يكاد يخفى على

أحد (لعلهم يشهدون) أى يحضرون عقوبتنا له وقيل لعلهم يشهدون بفعله أو بقوله ذلك فالضمير حينئذ ليس للناس بل لبعض منهم مبهم أو معهود (قالوا) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية قولهم كأنه قيل فماذا فعلوا به عليه السلام بعد ذلك هل أتوا به أولا فقيل أتوا به ثم قالوا (أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم) اقتصاراً على حكاية مخاطبتهم إياه عليه السلام للتنبيه على أن إتيانهم به ومسارعتهم إلى ذلك أمر محقق غنى عن البيان (قال بل فعله كبيرهم هذا) مشيراً إلى الذى لم يكسره سلك عليه السلام مسلكا تعريضياً يؤديه إلى مقصده الذى هو إلزامهم الحجة على ألطف وجه وأحسنه بحملهم على التأمل فى شأن آلهتهم مع ما فيه من التوقى من الكذب حيث أبرز الكبير قولا فى معرض المباشر للفعل باسناده اليه كما أبرزه فى ذلك المعرض فعلا بجعل الفأس فى عنقه وقد قصد إسناده اليه بطريق التسبيب اليه حيث كانت تلك الاصنام غاظته عليه السلام حين أبصرها مصطفة مرتبة للعبادة من دون الله سبحانه وكان غيظ كبيرها أكبر وأشد حسب زيادة تعظيمهم له فاسند الفعل اليه باعتبار أنه الحامل عليه. وقيل هو حكاية لما يقود إلى تجويزه مذهبهم كانه قال لهم ماتنكرون أن يفعله كبيرهم فان من حق من يعبد ويدعى إلها أن يقدر على ما هو أشد من ذلك. ويحكى انه عليه السلام قال فعله كبيرهم هذا غضب أن تعبد معه هذه الصغار وهو أكبر منها فيكون تمثيلا أراد به عليه السلام تنبيههم على غضب الله تعالى عليهم لاشراكهم بعبادته الاصنام وأما ماقيل من انه عليه السلام لم يقصد نسبة الفعل الصادر عنه إلى الصنم بل إنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على اسلوب تعريضى يبلغ فيه غرضه من الزامهم الحجة وتبكيتهم ومثل لذلك بما لو قال لك أمى فيما كتبته بخط رشيق وأنت شهير بحسن الخط أأنت كتبت هذا فقلت له بل أنت كتبته كأن قصدك تقرير الكتابة لنفسك مع الاستهزاء بالسائل لانفيها عنك واثباتها له فبمعزل من التحقيق لان خلاصة المعنى فى المثال المذكور مجرد تقرير الكتابة لنفسك وادعاء ظهور الأمر مع الاستهزاء بالسائل وتجهيله فى السؤال لابتنائه على أن صدورها عن غيرك محتمل عنده مع استحالته عندك ولا ريب فى أن مراده عليه السلام من إسناد الكسر إلى الصنم ليس مجرد تقريره لنفسه ولا تجهيلهم فى سؤالهم لابتنائه على احتمال صدوره عن الغير عندهم بل إنما مراده عليه السلام توجيههم نحو التأمل فى أحوال أصنامهم كما ينبىء عنه قوله (فاسألوهم ان كانوا ينطقون) أى ان كانوا ممن يمكن أن ينطقوا وانما لم يقل عليه السلام إن كانوا يسمعون أو يعقلون مع أن السؤال موقوف على السمع والعقل أيضاً لما أن نتيجة السؤال هو الجواب وان عدم نطقهم

أظهر وتبكيتهم بذلك أدخل وقد حصل ذلك أولا حسبما نطق به قوله تعالى (فرجعوا الى أنفسهم) أى راجعوا عقولهم وتذكروا أن مالا يقدر على دفع المضرة عن نفسه ولا على الاضرار بمن كسره بوجه من الوجوه يستحيل أن يقدر على دفع مضرة عن غيره أو جلب منفعة له فكيف يستحق أن يكون معبوداً (فقالوا) أى قال بعضهم لبعض فيما بينهم (انكم أنتم الظالمون) أى بهذا السؤال لانه كان على طريقة التوبيخ المستتبع للمؤاخذة أو بعبادة الأصنام لا من ظلمتموه بقولكم انه لمن الظالمين أو أنتم الظالمون بعبادة تها لا من كسرها (ثم نكسوا على رؤسهم) أى انقلبوا إلى المجادلة بعد ما استقاموا بالمراجعة شبه عودهم إلى الباطل بصيرورة أسفل الشيء أعلاه. وقرىء نكسوا بالتشديد نكسوا على البناء للفاعل أى نكسوا أنفسهم (لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) على ارادة القول أى قائلين والله لقد علمت أن ليس من شأنهم النطق فكيف تأمرنا بسؤالهم على أن المراد استمرار نفى النطق لا نفى استمراره كما توهمه صيغة المضارع (قال) مبكتاً لهم (أفتعبدون) أى أتعلمون ذلك فتعبدون (من دون الله) أى متجاوزين عبادته تعالى (مالا ينفعكم شيئاً) من النفع (ولا يضركم) فان العلم بحاله المنافية للالوهية مما يوجب الاجتناب عن عبادته قطعاً (أف لكم ولما تعبدون من دون الله) تضجر منه عليه السلام من اصرارهم على الباطل البين. وإظهار الاسم الجليل فى موضع الاضمار لمزيد استقباح ما فعلوا وأف صوت المتضجر ومعناه قبحاً ونتناً واللام لبيان المتأفف له (أفلا تعقلون) أى ألا تتفكرون فلا تعقلون قبح صنيعكم (قالوا) أى قال بعضهم لبعض لما عجزوا عن المحاجة وضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل وهكذا ديدن المبطل المحجوج إذا قرعت شبهته بالحجة القاطعة وافتضح لا يبق له مفزع إلا المناصبة (حرقوه) فانه أشد العقوبات (وانصروا آلهتكم) بالانتقام لها (إن كنتم فاعلين) أى للنصر أو لشيء يعتد به قيل القائل نمروذ بن كنعان بن السنجاريب بن نمروذ بن كوش بن حام بن نوح. وقيل رجل من أكراد فارس اسمه هيون وقيل هدير خسفت به الأرض. روى أنهم لما أجمعوا على احراقه عليه السلام بنوا له حظيرة بكوثى قرية من قرى الأنباط وذلك قوله تعالى «قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه فى الجحيم» فجمعوا له صلاب الحطب من أصناف الخشب مدة أربعين يوماً فأوقدوا ناراً عظيمة لا يكاد يحوم حولها أحد حتى أن كانت الطير لتمر بها وهى فى أقصى الجو فتحترق من شدة وهجها ولم يكد أحد يحوم حولها فلم يعلموا كيف يلقونه عليه السلام فيها فأتى ابليس وعلمهم عمل المنجنيق فعملوه. وقيل صنعه لهم رجل من الأكراد فخسف الله

تعالى به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ثم عمدوا إلى ابراهيم عليه السلام فوضعوه فيه مغلولا فرموا به فيها فقال له جبريل عليهما السلام «هل لك حاجة قال أما اليك فلا قال فاسأل ربك قال حسبي من سؤالي علمه بحالي» فجعل الله تعالى ببركة قوله الحظيرة روضة وذلك قوله تعالى (قلنا يانار كونى برداً وسلاما على ابراهيم) أى كونى ذات برد وسلام أى ابردى برداً غير ضار وفيه مبالغات جعل النار المسخرة لقدرته تعالى مأمورة مطاوعة واقامة كونى ذات برد مقام ابردى ثم حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه وقيل نصب سلاما بفعله أى وسلمنا سلاما عليه روى أن الملائكة أخذوا بضبعى ابراهيم وأقعدوه على الأرض فاذا عين ماء عذب وورد أحمر ونرجس ولم تحرق النار منه الا وثاقه وروى أنه عليه السلام مكث فيها أربعين يوما أو خمسين وقال ما كنت أطيب عيشاً منى إذ كنت فيها قال ابن يسار وبعث الله تعالى ملك الظل فقعد إلى جنبه يؤنسه فنظر نمروذ من صرحه فأشرف عليه فرآه جالساً فى روضة مونقة ومعه جليس على أحسن ما يكون من الهيئة والنار محيطة به فناداه ياابراهيم هل تستطيع أن تخرج منها قال نعم قال فقم فاخرج فقام يمشى فخرج منها فاستقبله نمروذ وعظمه وقال من الرجل الذى رأيته معك قال ذلك ملك الظل أرسله ربى ليؤنسنى فقال انى مقرب إلى إلهك قربانا لما رأيت من قدرته وعزته فيما صنع بك فقال عليه الصلاة والسلام لايقبل الله منك مادمت على دينك هذا فقال لا أستطيع ترك ملكى ولكن سوف أذبح له أربعة آلاف بقرة فذبحها وكف عن ابراهيم عليه السلام وكان إذ ذاك ابن ست عشرة سنة وهذا كما ترى من أبدع المعجزات فان انقلاب النار هواء طيباً وان لم يكن بدعا من قدرة الله عز وجل لكن وقوع ذلك على هذه الهيئة مما يخرق العادات وقيل كانت النار على حالها لكنه تعالى دفع عنه عليه السلام أذاها كما تراه فى السمندل كما يشعر به ظاهر قوله تعالى على ابراهيم (وأرادوا به كيداً) مكراً عظيما فى الاضرار به (فجعلناهم الأخسرين) أى أخسر من كل خاسر حيث عاد سعيهم فى إطفاء نور الحق برهانا قاطعاً على أنه عليه السلام على الحق وهم على الباطل وموجباً لارتفاع درجته واستحقاقهم لأشد العذاب (ونجيناه ولوطا إلى الارض التى باركنا فيها للعالمين) أى من العراق إلى الشام وبركاته العامة أن أكثر الأنبياء بعثوا فيه فانتشرت فى العالمين شرائعهم التى هى مبادى الكمالات والخيرات الدينية والدنيوية . وقيل كثرة النعم والخصب الغالب روى أنه عليه السلام نزل بفلسطين ولوط عليه السلام بالمؤتفكة وبينهما مسيرة يوم وليلة (ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة) أى عطية فهى حال منهما

أو ولد ولدأو زيادة على ماسأل وهو اسحق فتختص بيعقوب ولا لبس فيه للقرينه الظاهرة (وكلا) أى كل واحد من هؤلاء الاربعة لابعضهم دون بعض (جعلناصالحين) بأن وفقناهم للصلاح فى الدين والدنيا فصار واكاملين (وجعلناهم أئمة) يقتدى بهم فى أمور الدين إجابة لدعائه عليه السلام بقوله ومن ذريتي (يهدون) أى الأمة إلى الحق (بأمرنا) لهم بذلك وأرسلنا إياهم حتى صار وامكملين (وأوحينا اليهم فعل الخيرات) ليحثوهم عليه فيتم كمالهم بانضمام العمل إلى العلم وأصله أن تفعل الخيرات ثم فعل الخيرات وكذا قوله تعالى (واقام الصلاة وإيتاء الزكاة) وهو من عطف الخاص على العام دلالة على فضله وانافته، وحذفت تاء الاقامة المعوضة من احدى الالفين لقيام المضاف اليه مقامه (وكانوا لنا) خاصة دون غيرنا (عابدين) لايخطر ببالهم غير عبادتنا (ولوطا) قيل هو منصوب بمضمر يفسره قوله تعالى (آتيناه) أى وآتينا لوطا. وقيل باذكر (حكما) أى حكمة أونبوة أو فصلا بين الخصوم بالحق (وعلما) بما ينبغى علمه للانبياء عليهم السلام (ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث) أى اللواطة وصفت بصفة أهلها واسندت اليها على حذف المضاف واقامتها مقامه كما يؤذن به قوله تعالى (انهم كانوا قوم سوء فاسقين) فانه كالتعليل له (وأدخلناه فى رحمتنا) أى فى أهل رحمتنا أو فى جنتنا (إنه من الصالحين) الذين سبقت لهم منا الحسنى (ونوحا) أى اذكر نوحا أى خبره وقوله تعالى (اذ نادى) أى دعا الله تعالى على قومه بالهلاك ظرف للمضاف المقدر أى اذكر نبأه الواقع وقت دعائه (من قبل) أى من قبل هؤلاء المذكورين (فاستجبنا له) أى دعاءه الذى من جملته قوله انى مغلوب فانتصر (فنجيناه وأهله من الكرب العظيم) وهو الطوفان وقيل اذية قومه وأصل الكرب الغم الشديد (ونصرناه) نصرا مستتبعا للانتقام والانتصار ولذلك قيل (من القوم الذين كذبوا بآياتنا) وحمله على فانتصر يأباه ماذكر من دعائه عليه السلام فان ظاهره يوجب اسناد الانتصار اليه تعالى مع مافيه من تهويل الامر قوله تعالى (انهم كانوا قوم سوء) تعليل لما قبله وتمهيد لما بعده من قوله تعالى (فأغرقناهم أجمعين) فان الاصرار على تكذيب الحق والانهماك فى الشر والفساد مما يوجب الاهلاك قطعا (وداود وسليمان) إما عطف على نوحا معمول لعامله وإما المضمر معطوف على ذلك العامل بتقدير المضاف وقوله تعالى (اذيحكمان) ظرف للمضاف المقدر وصيغة المضارع حكاية للحال الماضية لاستحضار صورتها أى اذكر خبرهما وقت حكمهما (فى الحرث) أى فى حق الزرع أو الكرم المتدلى عناقيده كما قيل أو بدل اشتمال منهما وقوله تعالى

(اذ نفشت) أى تفرقت وانتشرت (فيه غنم القوم) ليلا بلا راع فرعته وأفسدته ظرف للحكم (وكنا لحكمهم) أى لحكم الحاكمين والمتحاكمين اليهما فان الاضافة لمجرد الاختصاص المنتظم لاختصاص القيام واختصاص الوقوع . وقرئ لحكمهما (شاهدين) حاضرين علما . والجملة اعتراض مقرر للحكم ومفيد لمزيد الاعتناء بشأنه (ففهمناها سليمان) عطف على يحكمان فانه فى حكم الماضى . وقرىء فأفهمناها والضمير للحكومة أو الفتيا روى أنه دخل على داود عليه السلام رجلان فقال أحدهما ان غنم هذا دخلت فى حرثى ليلا فأفسدته فقضى له بالغنم فخرجا فمرا على سليمان عليه السلام فاخبراه بذلك فقال « غير هذا أرفق بالفريقين » فسمعه داود فدعاه فقال له بحق النبوة والابوة إلا أخبرتنى بالذى أرفق بالفريقين فقال أرى أن تدفع الغنم الى صاحب الأرض لينتفع بدرها ونسلها وصوفها والحرث الى أرباب الغنم ليقوموا عليه حتى يعود الى ما كان ثم يترادا فقال « القضاء ماقضيت » وأمضى الحكم بذلك والذى عندى أن حكمهما عليهما السلام كان بالاجتهاد فان قول سليمان عليه السلام غير هذا أرفق بالفريقين ثم قوله أرى أن تدفع الخ صريح فى أنه ليس بطريق الوحى والالبت القول بذلك ولما ناشده داود عليهما السلام لاظهار ماعنده بل وجب عليه أن يظهره بدءا وحرم عليه كتمه ومن ضرورته أن يكون القضاء السابق أيضا كذلك ضرورة استحالة نقض حكم النص بالاجتهاد بل أقول والله تعالى أعلم إن رأى سليمان عليه السلام استحسان كما ينبىء عنه قوله أرفق بالفريقين ورأى داود عليه السلام قياس كما أن العبد إذا جنى على النفس يدفعه المولى عند أبى حنيفة إلى المجنى عليه أو يفديه ويبيعه فى ذلك أو يفديه عند الشافعى وقد روى أنه لم يكن بين قيمة الحرث وقيمة الغنم تفاوت . وأما سليمان عليه السلام فقد استحسن حيث جعل الانتفاع بالغنم بازاء ما فات من الانتفاع بالحرث من غير أن يزول ملك المالك عن الغنم وأوجب على صاحب الغنم أن يعمل فى الحرث إلى أن يزول الضرر الذى أتاه من قبله كما قال أصحاب الشافعى فيمن غصب عبدا فأبق منه أن يضمن القيمة فينتفع بها المغصوب منه بازاء ما فوته الغاصب من المنافع فاذا ظهر الآبق ترادا وفى قوله تعالى « ففهمناها سليمان » دليل على رجحان قوله ورجوع داود عليه السلام اليه مع أن الحكم المبنى على الاجتهاد لا ينقض باجتهاد آخر وان كان أقوى منه لما أن ذلك من خصائص شريعتنا على أنه ورد فى الاخبار أن داود عليه السلام لم يكن بت الحكم فى ذلك حتى سمع من سليمان ما سمع . وأما حكم المسئلة فى شريعتنا فعند أبى حنيفة رحمه الله لاضمان إن لم يكن

معها سائق أو قائد. وعند الشافعي يجب الضمان ليلا لا نهارا وقوله تعالى (وكلا آتينا حكما وعلما) لدفع ما عسى يوهمه تخصيص سليمان عليه السلام بالتفهيم من عدم كون حكم داود عليه السلام حكما شرعيا أي وكل واحد منهما آتينا حكما وعلما كثيرا لا سليمان وحده وهذا إنما يدل على أن خطأ المجتهد لا يقدح في كونه مجتهدا. وقيل بل على أن كل مجتهد مصيب وهو مخالف لقوله تعالى ففهمناها سليمان ولولا النقل لاحتمل توافقهما على أن قوله تعالى «ففهمناها سليمان» لاظهار ماتفضل عليه في صغره فانه عليه السلام كان حينئذ ابن إحدى عشرة سنة (وسخرنا مع داود الجبال) شروع في بيان ما يختص بكل منهما من كراماته تعالى إثر بيان كرامته العامة لهما (يسبحن) أي يقدسن الله عز وجل معه بصوت يتمثل له أو يخلق الله تعالى فيها الكلام وقيل يسرن معه من السباحة وهو حال من الجبال أو استئناف مبين لكيفية التسخير. ومع متعلقة بالتسخير وقيل بالتسبيح وهو بعيد (والطير) عطف على الجبال أو مفعول معه وقرىء بالرفع على الابتداء والخبر محذوف أي والطير مسخرات. وقيل على العطف على الضمير في يسبحن وفيه ضعف لعدم التأكيد والفصل (وكنا فاعلين) أي من شأننا أن نفعل أمثاله فليس ذلك ببدع منا وان كان بديعا عندكم (وعلمناه صنعة لبوس) أي عمل الدرع وهو في الاصل اللباس قال قائلهم:

إلبس لكل حالة لبوسها .. إما نعيمها وإما بوسها

وقيل كانت صفائح فخلقها وسردها (لكم) متعلق بعلمنا أو بمحذوف هو صفة لبوس (لتحصنكم) أي اللبوس بتأويل الدرع. وقرىء بالتذكير على ان الضمير لداود عليه السلام أو للبوس. وقرىء بنون العظمة وهو بدل اشتمال من لكم باعادة الجار مبين لكيفية الاختصاص والمنفعة المستفادة من لام لكم (من بأسكم) قيل من حرب عدوكم وقيل من وقع السلاح فيكم (فهل أنتم شاكرون) أمر وارد على صورة الاستفهام للمبالغة أو التقريع (ولسليمان الريح) أي وسخرنا له الريح. وايراد اللام ههنا دون الاول للدلالة على ما بين التسخيرين من التفاوت فان تسخير ما سخر له عليه السلام من الريح وغيرها كان بطريق الانقياد الكلي له والامتثال بامره ونهيه والمقهورية تحت ملكوته. وأما تسخير الجبال والطير لداود عليه السلام فلم يكن بهذه المثابة بل بطريق التبعية له عليه السلام والاقتداء به في عبادة الله عز وعلا (عاصفة) حال من الريح والعامل فيها الفعل المقدر أي وسخرنا له الريح حال كونها شديدة الهبوب من حيث انها كانت تبعد بكرسيه في مدة يسيرة من الزمان كما قال تعالى «غدوها شهر ورواحها

شهر» وكانت رخاء فى نفسها طيبة وقيل كانت رخاء تارة وعاصفة أخرى حسب ارادته عليه السلام. وقرىء الريح بالرفع على الابتداء والخبر هو الظرف المقدم وعاصفة حينئذ حال من ضمير المبتدا فى الخبر والعامل مافيه من معنى الاستقرار. وقرىء الرياح نصبا ورفعا (تجرى بأمره) بمشيئته حال ثانية أو بدل من الاولى أو حال من ضميرها (الى الارض التى باركنا فيها) وهى الشام رواحا بعد ما سار به منه بكرة قال الكلبى كان سليمان عليه السلام وقومه يركبون عليها من اصطخر الى الشام والى حيث شاء ثم يعود الى منزله (وكنا بكل شىء عالمين) فنجريه حسبما تقتضيه الحكمة (ومن الشياطين) أى وسخرنا له من الشياطين (من يغوصون له) فى البحار ويستخرجون له من نفائسها. وقيل من رفع على الابتداء وخبره ما قبله والاول هو الاظهر (ويعملون عملا دون ذلك) أى غير ما ذكر من بناء المدن والقصور واختراع الصنائع الغريبة لقوله تعالى «يعملون له مايشاء من محاريب وتماثيل» الآية وهؤلاء إما الفرقة الاولى أو غيرها لعموم كلمة من كأنه قيل ومن يعملون. وجمع الضمير الراجع اليها باعتبار معناها بعد ما رشح جانبه بقوله تعالى «ومن الشياطين» روى أن المسخر له عليه السلام كفارهم لا مؤمنوهم لقوله تعالى ومن الشياطين وقوله تعالى (وكنا لهم حافظين) أى من أن يزيغوا عن أمره أو يفسدوا على ما هو مقتضى جبلتهم قيل وكل بهم جمعا من الملائكة وجمعا من مؤمنى الجن وقال الزجاج كان يحفظهم من أن يفسدوا ما عملوا وكان دأبهم أن يفسدوا بالليل ماعملوه بالنهار (وأيوب) الكلام فيه كما مر فى قوله تعالى وداود وسليمان أى واذكر خبر أيوب (اذ نادى ربه أنى) أى بأنى (مسنى الضر) وقرىء بالكسر على اضمار القول أو تضمين النداء معناه. والضر شائع فى كل ضرر وبالضم خاص بما فى النفس من مرض وهزال ونحوهما (وأنت أرحم الراحمين) وصفه تعالى بغاية الرحمة بعدما ذكر نفسه بما يوجبها واكتفى به عن عرض المطلب لطفا فى السؤال وكان عليه السلام روميا من ولد عيصو بن اسحق استنبأه الله تعالى وكثر أهله وماله فابتلاه الله تعالى بهلاك أولاده بهدم بيت عليهم وذهاب أمواله والمرض فى بدنه ثمانى عشرة سنة أو ثلاث عشرة سنة أو سبعا وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات روى أن امرأته ماخير بنت ميشا بن يوسف عليه السلام أو رحمة بنت افرايم بن يوسف قالت له يوما لو دعوت الله تعالى فقال كم كانت مدة الرخاء فقالت ثمانين سنة فقال «أستحى من الله تعالى أن أدعوه وما بلغت مدة بلائى مدة رخائى» وروى ان ابليس أتاها على هيئة عظيمة فقال أنا إله الارض فعلت بزوجك ما فعلت لانه تركنى وعبد إله السماء فلو

سجدلى سجدة لرددت عليه وعليك جميع ما أخذت منكما. وفى رواية لو سجدت لى سجدة لرجعت المال والولد وعافيت زوجك فرجعت الى أيوب وكان ملقى فى الكناسة لا يقرب منه أحد فأخبرته بالقصة فقال عليه السلام كانك افتتنت بقول اللعين لئن عافانى الله عز وجل لأضربنك مائة سوط وحرام على أن أذوق بعد هذا شيئا من طعامك وشرابك فطردها فبقى طريحا فى الكناسة لا يحوم حوله أحد من الناس فعند ذلك خر ساجدا فقال «رب أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين» فقيل له ارفع رأسك فقد استجبت لك اركض برجلك فركض فنبعت من تحته عين ماء فاغتسل منها فلم يبق فى ظاهر بدنه دابة الا سقطت ولا جراحة الا برئت ثم ركض مرة أخرى فنبعت عين أخرى فشرب منها فلم يبق فى جوفه داء الا خرج وعاد صحيحا ورجع اليه شبابه وجماله ثم كسى حلة وذلك قوله تعالى (فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر) فلما قام جعل يلتفت فلا يرى شيئا مما كان له من الاهل والمال الا وقد ضاعفه الله تعالى وذلك قوله تعالى (وآتيناه أهله ومثلهم معهم) وقيل كان ذلك بأن ولد له ضعف ما كان ثم ان امرأته قالت فى نفسها هب انه طردنى أفأتركه حتى يموت جوعا ويأكله السباع لأرجعن اليه فلما رجعت ما رأت تلك الكناسة ولا تلك الحال وقد تغيرت الامور فجعلت تطوف حيث كانت الكناسة وتبكى وهابت صاحب الحلة أن تأتيه وتسأل عنه فارسل اليها أيوب ودعاها فقال ما تريدين يا أمة الله فبكت وقالت أريد ذلك المبتلى الذى كان ملقى على الكناسة قال لها ما كان منك فبكت وقالت بعلى قال أتعرفينه اذا رأيته قالت وهل يخفى على فتبسم فقال أنا ذلك فعرفته بضحكه فاعتنقته (رحمة من عندنا وذكرى للعابدين) أى آتيناه ما ذكر لرحمتنا أيوب وتذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر فيثابوا كما أثيب أو لرحمتنا العابدين الذين من جملتهم أيوب وذكرنا اياهم بالاحسان وعدم نسياننا لهم (واسمعيل وادريس وذا الكفل) أى واذكرهم . وذو الكفل الياس وقيل يوشع بن نون وقيل زكريا سمى به لانه كان ذا حظ من الله تعالى أو تكفل منه أو ضعف عمل أنبياء زمانه وثوابهم فان الكفل يجىء بمعنى النصيب والكفالة والضعف (كل) أى كل واحد من هؤلاء (من الصابرين) أى على مشاق التكاليف وشدائد النوب والجملة استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من الامر بذكرهم (وأدخلناهم فى رحمتنا) أى فى النبوة أو فى نعمة الآخرة (انهم من الصالحين) أى الكاملين فى الصلاح الكامل الذى لا يحوم حوله شائبة الفساد وهم الانبياء فان صلاحهم معصوم من كدر الفساد (وذا النون) أى واذكر صاحب الحوت وهو يونس عليه السلام

(إذ ذهب مغاضبا) أي مراغما لقومه لما برم من طول دعوته اياهم وشدة شكيمتهم وتمادى اصرارهم مهاجرا عنهم قبل أن يؤمر . وقيل وعدهم بالعذاب فلم يأتهم لميعادهم بتوبتهم ولم يعرف الحال فظن أنه كذبهم فغضب من ذلك وهو من بناء المبالغة للمبالغة أو لانه أغضبهم بالمهاجرة لخوفهم لحوق العذاب عندها . وقرئ مغضبا (فظن أن لن نقدر عليه) أى ان لن نضيق عليه أو لن نقضى عليه بالعقوبة من القدر ويؤيده أنه قرئ مشددا أو ان لن نعمل فيه قدرتنا وقيل هو تمثيل لحاله بحال من يظن أن لن نقدر عليه أى نعامله معاملة من يظن أن لن نقدر عليه فى مراغمته قومه من غير انتظار لامرنا كما فى قوله تعالى « يحسب أن ماله أخلده » أى نعامله معاملة من يحسب ذلك وقيل خطرة شيطانية سبقت الى وهمه فسميت ظنا للمبالغة . وقرئ بالياء مخففا ومثقلا مبنيا للفاعل ومبنيا للمفعول (فنادى) الفاء فصيحة أى فكان ما كان من المساهمة والتقام الحوت فنادى (فى الظلمات) أى فى الظلمة الشديدة المتكاثفة أو فى ظلمات بطن الحوت والبحر والليل وقيل ابتلع حوته حوت أكبر منه فحصل فى ظلمتى بطنى الحوتين وظلمتى البحر والليل (أن لا إله إلا أنت) أى بأنه لا إله الا أنت على أن أن مخففة من أن وضمير الشأن محذوف أو أى لا إله الا أنت على أنها مفسرة (سبحانك) أنزهك تنزيها لائقابك من أن يعجزك شئ أو أن يكون ابتلائى بهذا بغير سبب من جهتى (إنى كنت من الظالمين) لانفسهم بتعريضها للهلكة حيث بادرت الى المهاجرة (فاستجبنا له) أى دعاءه الذى دعاه فى ضمن الاعتراف بالذنب على ألطف وجه وأحسنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مامن مكروب يدعو بهذا الدعاء الا استجيب له (ونجيناه من الغم) بان قذفه الحوت الى الساحل بعد أربع ساعات كان فيها فى بطنه وقيل بعد ثلاثة أيام وقيل الغم غم الالتقام وقيل الخطيئة (وكذلك) أى مثل ذلك الانجاء الكامل (ننجى المؤمنين) من غموم دعوا الله تعالى فيها بالاخلاص لا انجاء أدنى منه . وفى الامام نجى ولذلك أخفى الجماعة النون الثانية فانها تخفى مع حروف الفم وقرئ بتشديد الجيم على ان أصله ننجى فحذفت الثانية كما حذفت التاء فى تظاهرون وهى وان كانت فاء فحذفها أوقع من حذف حرف المضارعة التى لمعنى ولا يقدح فيه اختلاف حركتى النونين فان الداعى الى الحذف اجتماع المثلين مع تعذر الادغام وامتناع الحذف فى تتجافى لخوف اللبس . وقيل هو ماض مجهول أسند الى ضمير المصدر وسكن آخره تخفيفا ورد بانه لا يسند الى المصدر والمفعول مذكور والماضى لا يسكن آخره (وزكريا) أى واذكر خبره (اذ نادى ربه) وقال (رب لا تذرنى فردا)

أي وحيدا بلا ولد يرثني (وأنت خير الوارثين) فحسبي أنت ان لم ترزقني وارثا (فاستجبنا له) أي دعاءه (ووهبنا له يحيى) وقد مرّ بيان كيفية الاستجابة والهبة في سورة مريم (وأصلحنا له زوجه) أي أصلحناها للولادة بعد عقرها أو أصلحناها للمعاشرة بتحسين خلقها وكانت حردة وقوله تعالى (إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات) تعليل لما فصل من فنون إحسانه تعالى المتعلقة بالانبياء المذكورين أي كانوا يبادرون فى وجوه الخيرات مع ثباتهم واستقرارهم فى أصل الخير وهو السر فى ايثار كلمة فى على كلمة إلى المشعرة بخلاف المقصود من كونهم خارجين عن أصل الخيرات متوجهين اليها كما فى قوله تعالى« وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة» (ويدعوننا رغباً ورهباً) ذوي رغب ورهب أو راغبين فى الثواب راجين للاجابة أو فى الطاعة وخائفين العقاب أو المعصية أو للرغب والرهب (وكانوا لنا خاشعين) أي مخبتين متضرعين أو دائمي الوجل والمعنى أنهم نالوا من الله تعالى ما نالوا بسبب اتصافهم بهذه الخصال الحميدة (والتى أحصنت فرجها) أي اذكر خبر التى أحصنته على الاطلاق من الحلال والحرام والتعبير عنها بالموصول لتفخيم شأنها وتنزيهها عما زعموه فى حقها آثر ذي أثير (فنفخنا فيها) أي أحيينا عيسى فى جوفها (من روحنا) من الروح الذي هو من امرنا وقيل فعلنا النفخ فيها من جهة روحنا جبريل عليه السلام (وجعلناها وابنها) أي قصتهما أو حالها (آية للعالمين) فان من تأمل حالها تحقق كمال قدرته عز وجل فالمراد بالآية ما حصل بهما من الآية التامة مع تكاثر آيات كل واحد منهما وقيل أريد بالآية الجنس الشامل لما لكل واحد منهما من الآيات المستقلة وقيل المعنى وجعلناها آية وابنها آية فحذفت الاولى لدلالة الثانية عليها (إن هذه) أي ملة التوحيد والاسلام أشير اليها بهذه تنبيهاً على كمال ظهور أمرها فى الصحة والسداد (أمتكم) أي ملتكم التى يجب أن تحافظوا على حدودها وتراعوا حقوقها ولا تخلوا بشيء منها والخطاب قاطبة (أمة واحدة) نصب على الحالية من أمتكم أي غير مختلفة فيما بين الانبياء عليهم السلام إذ لا مشاركة لغيرها فى صحة الاتباع ولا احتمال لتبدلها وتغيرها كفروع الشرائع المتبدلة حسب تبدل الامم والاعصار . وقرىء أمتكم بالنصب على البدلية من اسم ان وأمة واحدة بالرفع على الخبرية وقرئتا بالرفع على انهما خبران (وأنا ربكم) لا إله لكم غيري (فاعبدون) خاصة لا غير وقوله تعالى (وتقطعوا أمرهم بينهم) التفات إلى الغيبة لينعى عليهم ما أفسدوه من التفرق فى الدين وجعل أمره قطعا موزعة وينهي قبائح أفعالهم إلى الآخرين كأنه قيل ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء فى دين الله

الذى أجمعت عليه كافة الانبياء عليهم السلام (كل) أى كل واحدة من الفرق المتقطعة أو كل واحد من آحاد كل واحدة من تلك الفرق (إلينا راجعون) بالبعث لا إلى غيرنا فنجازيهم حينئذ بحسب أعمالهم. و إيراد اسم الفاعل للدلالة على الثبات والتحقق وقوله تعالى (فمن يعمل من الصالحات) الخ تفصيل للجزاء أى فمن يعمل بعض الصالحات أو بعضاً من الصالحات (وهو مؤمن) بالله ورسله (فلا كفران لسعيه) أى لا حرمان لثواب عمله ذلك. عبر عن ذلك بالكفران الذى هو ستر النعمة وجحودها لبيان كمال نزاهته تعالى عنه بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى من القبائح. وابراز الاثابة فى معرض الامور الواجبة عليه تعالى ونفى الجنس للمبالغة فى التنزيه وعبر عن العمل بالسعى لاظهار الاعتداد به (وإنا له) أى لسعيه (كاتبون) أى مثبتون فى صحائف أعمالهم لا نغادر من ذلك شيئا (وحرام على قرية) أى ممتنع على أهلها غير متصور منهم وقرىء حرم وهى لغة كالحل والحلال (أهلكناها) قدرنا هلاكها أو حكمنا به لغاية طغيانهم وعتوهم وقوله تعالى (أنهم لا يرجعون) فى حيز الرفع على أنه مبتدأ خبره حرام أو فاعل له ساد مسد خبره والجملة لتقرير مضمون ماقبلها من قوله تعالى «كل إلينا راجعون» وما فى قوله ان من معنى التحقيق معتبر فى النفى المستفاد من حرام لا فى المنفى أى ممتنع ألبتة عدم رجوعهم الينا للجزاء لأن عدم رجوعهم المحقق ممتنع. وتخصيص امتناع عدم رجوعهم بالذكر مع شمول الامتناع لعدم رجوع الكل حسبما نطق به قوله تعالى «كل الينا راجعون» لانهم المنكرون للبعث والرجوع دون غيرهم وقيل ممتنع رجوعهم الى التوبة على أن لا صلة. وقرىء انهم لا يرجعون بالكسر على أنه استئناف تعليلي لما قبله فحرام خبر مبتدا محذوف أى حرام عليها ذلك وهو ما ذكر فى الآية السابقة من العمل الصالح المشفوع بالايمان والسعى المشكور ثم علل بقوله تعالى «انهم لا يرجعون» عما هم عليه من الكفر فكيف لا يمتنع ذلك. ويجوز حمل المفتوحة أيضاً على هذا المعنى بحذف اللام عنها أى لانهم لا يرجعون وحتى فى قوله تعالى (حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج) الخ هى التى يحكى بعدها الكلام وهى على الاول غاية لما يدل عليه ما قبلها كأنه قيل يستمرون على ما هم عليه من الهلاك حتى اذاقامت القيامة يرجعون الينا و يقولون ياويلنا الخ وعلى الثانى غاية للحرمة أى يستمر امتناع رجوعهم الى التوبة حتى اذا قامت القيامة يرجعون اليها حين لا تنفعهم التوبة وعلى الثالث غاية لعدم الرجوع عن الكفر أى لا يرجعون عنه حتى اذا قامت القيامة يرجعون عنه حين لا ينفعهم الرجوع ويأجوج ومأجوج قبيلتان من الانس قالوا الناس عشرة أجزاء تسعة منها يأجوج ومأجوج والمراد بفتحها

فتح سدها على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه. وقرىء فتحت بالتشديد (وهم) أى يأجوج ومأجوج وقيل الناس (من كل حدب) أى نشز من الارض وقرىء جدث وهو القبر (ينسلون) أى يسرعون وأصله مقاربة الخطو مع الاسراع وقرىء بضم السين (واقترب الوعد الحق) عطف على فتحت والمراد به ما بعد النفخة الثانية من البعث والحساب والجزاء لا النفخة الاولى (فاذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا) جواب الشرط واذا للمفاجأة تسد مسد الفاء الجزائية كما فى قوله تعالى «اذا هم يقنطون» فاذا دخلتها الفاء تظاهرت على وصل الجزاء بالشرط والضمير للقصة أو مبهم يفسره ما بعده (ياويلنا) على تقدير قول وقع حالا من الموصول أى يقولون ياويلنا تعال فهذا أوان حضورك وقيل هو الجواب للشرط (قد كنا فى غفلة) تامة (من هذا) الذى دهمنا من البعث والرجوع اليه تعالى للجزاء ولم نعلم أنه حق (بل كنا ظالمين) اضراب عما قبله من وصف أنفسهم بالغفلة أى لم نكن غافلين عنه حيث نبهنا عليه بالآيات والنذر بل كنا ظالمين بتلك الآيات والنذر مكذبين بها أو ظالمين لانفسنا بتعريضها للعذاب الخالد بالتكذيب وقوله تعالى (انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) خطاب لكفار مكة وتصريح بمآل أمرهم مع كونه معلوما مما سبق على وجه الاجمال مبالغة فى الانذار وازاحة الاعتذار وما تعبدون عبارة عن أصنامهم لانها التى يعبدونها كما تفصح عنه كلمة ما وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تلا الآية وقال له ابن الزبعرى خصمتك ورب الكعبة أليست اليهود عبدوا عزيرا والنصارى المسيح وبنو مليح الملائكة رد عليه بقوله عليه السلام «ما أجهلك بلغة قومك أما فهمت أن ما لما لا يعقل» ولا يعارضه ماروى أنه عليه السلام رده بقوله «بل هم عبدوا الشياطين التى أمرتهم بذلك» ولا ماروى أن ابن الزبعرى قال هذا شىء لآلهتنا خاصة أو لكل من عبد من دون الله فقال عليه السلام بل لكل من عبد من دون الله تعالى اذليس شىء منهما نصا فى عموم كلمة ما كما أن الاول نص فى خصوصها وشمول حكم النص لا يقتضى شموله بطريق العبارة بل يكفى فى ذلك شموله لهم بطريق دلالة النص بجامع الشركة فى المعبودية من دون الله تعالى فلعله عليه السلام بعد ما بين مدلول النظم الكريم بما ذكر وعدم دخول المذكورين فى حكمه بطريق العبارة بين عدم دخولهم فيه بطريق الدلالة أيضا تأكيدا للرد والالزام وتكريرا للتبكيت والافحام لكن لا باعتبار كونهم معبودين لهم كما هو زعمهم فان اخراج بعض المعبودين عن حكم منىء عن الغضب على العبدة والمعبودين مما يوهم الرخصة فى عبادته فى الجملة بل بتحقيق الحق وبيان أنهم

ليسوا من المعبودية فى شىء حتى يتوهم دخولهم فى الحكم المذكور دلالة بموجب شركتهم للاصنام فى المعبودية من دون الله تعالى وانما معبودهم الشياطين التى أمرتهم بعبادتهم كما نطق به قوله تعالى «سبحانك أنت ولينا من دنهم بل كانوا يعبدون الجن» الآية فهم الداخلون فى الحكم المذكور لاشتراكهم الاصنام فى المعبودية من دونه تعالى دون المذكورين عليهم السلام وهذا هو الوجه فى التوفيق بين الاخبار المذكورة وأما تعميم كلمة ما للعقلاء أيضا وجعل ما سيأتى من قوله تعالى ان الذين سبقت لهم منا الحسنى الخ بيانا للتجوز أو التخصيص فمما لا يساعده السياق والسباق كما يشهد به الذوق السليم. والحصب ما يرمى به ويهيج به النار من حصبه اذا رماه بالحصباء وقرىء بسكون الصاد وصفا له بالمصدر للمبالغة (أنتم لها واردون) استئناف أو بدل من حصب جهنم واللام معوضة من على للدلالة على الاختصاص وأن ورودهم لأجلها والخطاب لهم ولما يعبدون تغليبا (لو كان هؤلاء) أى أصنامهم (آلهة) كما يزعمون (ماوردوها) وحيث تبين ورودهم إياها تعين امتناع كونها آلهة بالضرورة وهذا كما ترى صريح فى أن المراد بما يعبدون هى الاصنام لان المراد اثبات نقيض ما يدعونه وهم انما يدعون إلهية الاصنام لا إلهية الشياطين حتى يحتج بورودها النار على عدم إلهيتها وأما ماوقع فى الحديث الشريف فقد وقع بطريق التكملة بانجرار الكلام إليه عند بيان ماسيق له النظم الكريم بطريق العبارة حيث سأل ابن الزبعرى عن حال سائر المعبودين وكان الاقتصار على الجواب الأول مما يوهم الرخصة فى عبادتهم فى الجملة لأنهم المعبودون عندهم أجيب ببيان أن المعبودين هم الشياطين وأنهم داخلون فى حكم النص لكن بطريق الدلالة لا بطريق العبارة لئلا يلزم التدافع بين الخبرين (وكل) أى من العبدة والمعبودين (فيها خالدون) لاخلاص لهم عنها (لهم فيها زفير) أى أنين وتنفس شديد وهو مع كونه من أفعال العبدة أضيف إلى الكل للتغليب. ويجوز أن يكون الضمير للعبدة لعدم الالباس وكذا فى قوله تعالى (وهم فيها لا يسمعون) أى لا يسمع بعضهم زفير بعض لشدة الهول وفظاعة العذاب وقيل لا يسمعون ما يسرهم من الكلام (ان الذين سبقت لهم منا الحسنى) شروع فى بيان حال المؤمنين أثر شرح حال الكفرة حسبما جرت به سنة التنزيل من شفع الوعد بالوعيد. وايراد الترغيب مع الترهيب أى سبقت لهم منا فى التقدير الخصلة الحسنى التى هى أحسن الخصال وهى السعادة وقيل التوفيق للطاعة أو سبقت لهم كلمتنا بالبشرى بالثواب على الطاعة وهو الادخل الاظهر فى الحمل عليها لما أن الأولين مع خفائهما ليسا من مقدورات المكلفين فالجملة

مع مابعدها تفصيل لما أجمل فى قوله تعالى « فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون» كما أن ماقبلها من قوله تعالى «انكم وما تعبدون» الخ تفصيل لما أجمل فى قوله تعالى« وحرام الخ (أولئك) إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو درجتهم وبعد منزلتهم فى الشرف والفضل أى أولئك المنعوتون بما ذكر من النعت الجميل (عنها) أى عن جهنم (مبعدون) لانهم فى الجنة وشتان بينها وبين النار .وما روى أن عليا رضى الله تعالى عنه خطب يوماً فقرأ هذه الآية ثم قال« أنا منهم وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح رضوان الله تعالى عنهم أجمعين ثم أقيمت الصلاة فقام يجر رداءه ويقول: (لايسمعون حسيسها)» ليس بنص فى كون الموصول عبارة عن طائفة مخصوصة. والحسيس صوت يحس به أى لايسمعون صوتها سمعاً ضعيفاً كما هو المعهود. عند كون المصوت بعيداً وان كان صوته فى غاية الشدة لاأنهم لايسمعون صوتها الخفى فى نفسه فقط والجملة بدل من مبعدون أو حال من ضميره مسوقة للمبالغة فى انقاذهم منها وقوله تعالى (وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون) بيان لفوزهم بالمطالب إثر بيان خلاصهم من المهالك والمعاطب أى دائمون فى غاية التنعم. وتقديم الظرف للقصر والاهتمام به وقوله تعالى (لايحزنهم الفزع الأكبر) بيان لنجاتهم من الافزاع بالكلية بعد بيان نجاتهم من النار لانهم إذا لم يحزنهم أكبر الأفزاع لايحزنهم ماعداه بالضرورة عن الحسن رضى الله عنه انه الانصراف إلى النار وعن الضحاك حين يطبق على النار وقيل حين يذبح الموت فى صورة كبش أملح وقيل النفخة الآخيرة لقوله تعالى«ففزع من السموات ومن فى الأرض»وليس بذاك فان الآمن من ذلك الفزع من استثناه الله تعالى بقوله الا من شاء الله لاجميع المؤمنين الموصوفين بالأعمال الصالحة على أن الأكثرين على أن ذلك فى النفخة الأولى دون الآخيرة كما سيأتى فى سورة النمل (وتتلقاهم الملائكة)أى تستقبلهم مهنئين لهم (هذا يومكم) على إرادة القول أى قائلين هذا اليوم يومكم (الذى كنتم توعدون)فى الدنيا وتبشرون بما فيه من فنون المثوبات على الايمان والطاعات وهذا كما ترى صريح فى أن المراد بالذين سبقت لهم الحسنى كافة المؤمنين الموصوفين بالايمان والأعمال الصالحة لامن ذكر من المسيح وعزير والملائكة عليهم السلام خاصة كما قيل (يوم نطوى السماء)بنون العظمة منصوب باذكر وقيل ظرف لقوله تعالى لايحزنهم الفزع وقيل بتتلقاهم وقيل حال مقدرة من الضمير المحذوف فى

توعدون. والطى ضد النشر وقيل المحو وقرىء يطوى بالياء والتاء والبناء للمفعول (كطى السجل) وهى الصحيفة أى طيا كطى الطومار. وقرىء السجل كلفظ الدلو وبالكسر والسجل على وزن العتل وهما لغتان واللام فى قوله تعالى (للكتب) متعلقة بمحذوف هو حال من السجل أو صفة له على رأى من يجوز حذف الموصول مع بعض صلته أى كطى السجل كائنا للكتب أو الكائن للكتب فان الكتب عبارة عن الصحائف وما كتب فيها فسجلها بعض أجزائها وبه يتعلق الطى حقيقة. وقرىء للكتاب وهو إما مصدر واللام للتعليل أى كما يطوى الطومار للكتابة أو إسم كالامام فاللام كما ذكر أولا وقيل السجل اسم ملك يطوى كتب أعمال بنى آدم اذا رفعت اليه وقيل هو كاتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم (كما بدأنا أول خلق نعيده) أى نعيد ما خلقناه مبتدأ إعادة مثل بدئنا إياه فى كونها إيجادا بعد العدم أو جمعاً من الاجزاء المتبددة والمقصود بيان صحة الاعادة بالقياس على المبدأ لشمول الامكان الذاتى المصحح للمقدورية وتناول القدرة لهما على السواء وما كافة أو مصدرية وأول مفعول لبدأنا أو لفعل يفسره نعيده أو موصولة والكاف متعلقة بمحذوف يفسره نعيده أى نعيد مثل الذى بدأناه وأول خلق ظرف لبدأنا أو حال من ضمير الموصول المحذوف (وعداً) مصدر مؤكد لفعله ومقرر لنعيده أو منتصب به لأنه عدة بالاعادة (علينا) أى علينا إنجازه (إنا كنا فاعلين) لما ذكر لا محالة (ولقد كتبنا فى الزبور) هو كتاب داود عليه السلام وقيل هو اسم لجنس ما أنزل على الأنبياء عليهم السلام (من بعد الذكر) أى التوراة وقيل اللوح المحفوظ أى وبالله لقد كتبنا فى كتاب داود بعد ما كتبنا فى التوراة أو كتبنا فى جميع الكتب المنزلة بعد ما كتبنا وأثبتنا فى اللوح المحفوظ (أن الارض يرثها عبادى الصالحون) أى عامة المؤمنين بعد إجلاء الكفار وهذا وعد منه تعالى باظهار الدين وإعزاز أهله وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن المراد أرض الجنة كما ينبىء عنه قوله تعالى « وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء » وقيل الأرض المقدسة يرثها أمة محمد صلى الله عليه وسلم (ان فى هذا) أى فيما ذكر فى السورة الكريمة من الاخبار والمواعظ البالغة والوعد والوعيد والبراهين القاطعة الدالة على التوحيد وصحة النبوة (لبلاغا) أى كفاية أو سبب بلوغ الى البغية (لقوم عابدين) أى لقوم همهم العبادة دون العادة (وما أرسلناك) بما ذكر وبامثاله من الشرائع والاحكام وغير ذلك من الأمور التى هى مناط السعادة الدارين (الا رحمة للعالمين) هو فى حيز النصب على انه استثناء من أعم العلل أو من أعم الاحوال أى

ماأرسلناك بما ذكر لعلة من العلل الا لرحمتنا الواسعة للعالمين قاطبة أوما أرسلناك في حال من الاحوال الاحال كونك رحمة لهم فان ما بعثت به سبب لسعادة الدارين ومنشأ لانتظام مصالحهم في النشأتين ومن لم يغتنم مغانم آثاره فانما فرط في نفسه وجرمة حقه لا أنه تعالى حرمه مما يسعده وقيل كونه رحمة في حق الكفار أمنهم من الخسف والمسخ والاستئصال حسبما ينطق به قوله تعالى «وما كان الله ليعذبهم» (قل انما يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد) أى ما يوحي الى الا أنه لا إله لكم الا إله واحد لانه المقصود الأصلي من البعثة وأما ما عداه فمن الاحكام المتفرعة عليه فانما الاولى لقصر الحكم على الشيء كقولك انما يقوم زيد أى مايقوم الا زيد والثانية لقصر الشيء على الحكم كقولك انما زيد قائم أى ليس له الاصفة القيام (فهل أنتم مسلمون) أى مخلصون العبادة لله تعالى مخصصون لها به تعالى. والفاء للدلالة على أن ماقبلها موجب لما بعدها قالوا فيه دلالة على أن صفة الوحدانية تصح أن يكون طريقها السمع (فأن تولوا) عن الاسلام ولم يلتفتوا الى مايوجبه من الوحى (فقل) لهم (آذنتكم) أى أعلمتكم ما أمرت به أو حربى لكم (على سواء) كائنين على سواء فى الاعلام به لم أطوه عن أحد منكم أو مستوين به أنا وأنتم فى العلم بما أعلمتكم به أو فى المعاداة أو ايذانا على سواء وقيل أعلمتكم أنى على سواء أى على عدل واستقامة رأى بالبرهان النير (وإن أدرى) أى ماأدرى (أقريب أم بعيد ما توعدون) من غلبة المسلمين وظهور الدين أو الحشر مع كونه آتيا لامحالة (إنه يعلم الجهر من القول) أى ماتجاهرون به من الطعن فى الاسلام وتكذيب الآيات التى من جملتها مانطق بمجيء الموعود (ويعلم ما تكتمون) من الاحن والاحقاد للمسلمين فيجازيكم عليه نقيرا وقطميرا (وإن أدرى لعله فتنة لكم) أى ماأدرى لعل تأخير جزائكم استدراج لكم وزيادة فى افتتانكم أو امتحان لكم لينظر كيف تعملون (ومتاع الى حين) أى وتمتع لكم إلى أجل مقدر تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة ليكون ذلك حجة عليكم (قال رب احكم بالحق) حكاية لدعائه عليه الصلاة والسلام. وقرىء قل رب على صيغة الامر أى اقض بيننا وبين أهل مكة بالعدل المقتضى لتعجيل العذاب والتشديد عليهم وقد استجيب دعاؤه عليه السلام حيث عذبوا ببدر أى تعذيب. وقرىء رب احكم بضم الباء ورب أحكم على صيغة التفضيل وربى أحكم من الأحكام (وربنا الرحمن) مبتدأ وخبر أى كثير الرحمة على عباده وقوله تعالى (المستعان) أى المطلوب منه المعونة خبر آخر للمبتدا. واضافة الرب فيما سبق الى ضميره عليه السلام خاصة لما أن الدعاء من الوظائف الخاصة به عليه

السلام كما أن اضافته ههنا الى ضمير الجمع المنتظم للمؤمنين أيضا لما أن الاستعانة من الوظائف العامة لهم (على ما تصفون) من الحال فانهم كانوا يقولون إن الشوكة تكون لهم وان راية الاسلام تخفق ثم تركد وان المتوعد به لو كان حقا لنزل بهم الى غير ذلك مما لا خير فيه فاستجاب الله عز وجل دعوة رسوله عليه السلام فخيب آمالهم وغير أحوالهم ونصر أولياءه عليهم فاصابهم يوم بدر ما أصابهم . والجملة اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله . وقرئ يصفون بالياء التحتانية . وعن النبي عليه السلام من قرأ اقترب حاسبه الله تعالى حسابا يسيرا وصافحه وسلم عليه كل نبي ذكر اسمه في القرآن .

تم الجزء الثالث بحمد الله

ويليه الجز الرابع واوله تفسير سورة الحج وبه ينتهي الكتاب

كلمة شكر

(لمصحح دار العصور الجليلة)

بسم الله الذى تعالت أسماؤه . وتسامى جلاله وكماله . والصلاة والسلام على صفوة الأنبياء . سيدنا محمد وآله وصحبه والعاملين على نصرتهم (أما بعد) فانى أهنئ العصر الجديد بهذا المطبوع الفريد . الذى حوى بين صفحاته عرائس أبكار . ودقائق هي الرياض لذوى الأنظار . فقد أجاد هذا العلامة فى تفسير آى الذكر الحكيم بالعجب العجاب . فبينما تراه أديباً لغوياً . تلفيه واعظاً صوفياً . تاريخياً جغرافياً طبع طبعاً متقناً . على ورق مصقول . وزينت صحائفه بكتاب سر القرآن لفيلسوف الألمان الدكتور (جونسون) الموحد . مما بعثنى على شكر الجمعية وشريكتها (دار العصور) حيث أبرزا لقراء الشرق والغرب هذا الجوهر النفيس . فى ثوب نير رشيق عشى فى ضوئه الحقود . وتضافرت على طلابه الوفود . مما يدل على تقدم الطباعة المصرية فى عهد صاحب الجلالة مليك البلاد (فؤاد الأول) فبادر باقتنائه لتفوز بكنز ثمين وفق الله العاملين على تقدم العلوم ونشرها انه ولى التوفيق . وهو حسبى

١٣ من شوال سنة ١٣٤٧

حسين الهادي حسين

فهرس الجزء الثالث

من كتاب تفسير العلامة أبى السعود

٢٥

٢٩٤٤١١٢

٢٠٩٩م

الجزء الثاني

تفسير الجلالين على المصحف

٢٥

٢٩٤٤١١٢

٢٠٩٩م

الجزء الثالث

تفسير الجلالين على المصحف

DATE	No.	DATE	No.